

تأليف :

أحمد بن أحمد محمد عبد الله الطويل

عضو اللجنة العلمية لمراجعة مصحف المدينة النبوية
ولجنة الإشراف على التسجيلات القرآنية
بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

قدم له : معالي الدكتور / عبد الله بن عبد المحسن التركي
والأستاذ الدكتور / صالح بن غانم السدلان
ونخبة من العلماء المتخصصين

المجلد الثاني عشر

من أول سورة فصلت إلى آخر سورة ق


بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ سُورَةِ فُصِّلَتْ (٤١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (فصلت) هي السورة الحادية والأربعون في ترتيب المصحف، والحادية والستون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة غافر وقبل سورة الزخرف.

وعدد آياتها أربع وخمسون آية عند أهل الكوفة(١).

وفيها سبع مئة وستٌّ وتسعون كلمة، وثلاثة آلاف وثلاث مئة وخمسون حرفًا، وهي سورة مكية باتفاق.

أسماؤها: وسميت سورة (فصلت) لوقوع كلمة ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ في أولها، وتسمى سورة **حم السجدة**، وبذلك ترجم لها البخاري والترمذي، ولها أسماء أخرى هي: **السجدة**؛ لأن فيها آية سجدة، **وسجدة المؤمن**، **والمصابيح** لقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [١٢]، **والأقوات** لقوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [١٠]. فهذه ستة أسماء للسورة.

وموضوعاتها هي موضوعات السور المكية التي هي: الوحي والرسالة، والوحدانية، والبعث والجزاء، وهي تتجلى واضحة في آيات هذه السورة:

١- ففي جانب الوحي: تبتدئ السورة بالحديث عن القرآن، فتُنوِّه بشأنه، وتشير إلى عجز مُعارضيه، وتذكِّر بهدْيه، وتبيِّن أنه معصوم من تطرق الباطل إليه، وأنه مؤيد بما أُنزل على الرسل من قبله.

وقد تلقاه المشركون بالإعراض وصَمِّ الآذان، فأبطل القرآن مطاعنهم، وذكَّرهم بأنه نزل بلغتهم، فلا عذر لهم في عدم الانتفاع بهدْيه، وأنذَرَهم بما حلَّ بالأمم المكذبة لرسل الله، من عذاب الدنيا.

وقررت السورة أن الرسول بشر، خصَّه الله بالنبوة، واختاره ليختم به الرسالات، فأنزل عليه الوحي بالحجج الواضحة، والبراهين الساطعة، والمعجزة الخالدة.

---

(١) واثنتان وخمسون آية عند أهل البصرة والشام، وثلاث وخمسون آية عند أهل مكة والمدينة.

٢- وتحدثت السورة في مطلعها عن وحدانية الله تعالى: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [٦].

وفي وسطها: ﴿لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ [٣٧].

وفي نهايتها: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ [٤٧].

وبيَّنت السورة جانبًا من آثار قدرة الله تعالى الدالة على وحدانيته سبحانه، كَخلْق السموات والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والنفس البشرية.

٣- وتناولت السورة جانب اليوم الآخر، ففي أولها تهديد ووعيد للمشركين المنكرين لليوم الآخر، وفي أثنائها عرض لبعض مشاهد القيامة من شهادة السمع والبصر والجلود على الإنسان يوم القيامة، وفي نهاية السورة: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾.

هذا: ويمكن تقسيم سورة (فصلت) إلى **مقطعين**:

المقطع الأول: من أولها إلى الآية السادسة والثلاثين، وهي آيات تتضمن الحديث عن القرآن الكريم، وأنه منزَّل من عند الله تعالى بلغة العرب، وقد عجز البشر عن معارضته، ولم يسع كبار الكفار وقت التنزيل إلا أن يشهدوا له بأنه يعلو ولا يُعلى عليه، وأنه ليس بقول بشر، ومع هذا فقد أعرضوا عنه ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[٥].

فتوعدهم القرآن بعذاب كعذاب عاد وثمود مع قوتهم وشدة بأسهم، ويوم القيامة تشهد عليهم جوارحُهم وأعضاؤهم بما كانوا يعملون، وقد كان السبب في ضلالهم أن الله تعالى قيَّض لهم قرناء السوء من الجن والإنس، فزيَّنوا لهم سوء أعمالهم فرأوها حسنة، وذلك أنهم استحبوا العمى على الهدى، وانحرفوا عن الفطرة، فضلُّوا وأضلُّوا، وصَدُّوا الناس عن سبيل الله، ومن ذلك قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[٢٦].

وفي ثنايا ذلك يوبخهم القرآن على كفرهم ببيان أن الذي يكفرون به هو خالق هذا الكون بما فيه ومن فيه، وأنه كان عليهم تجاه دلائل التوحيد وآثار القدرة الإلهية أن يفردوه سبحانه بالعبادة دون سواه ولكنهم لم يفعلوا.

وفي مقابل هذا الفريق تذكُر السورة حال المتقين الذين استقاموا على شرع الله، فأكرمهم الله بالأمن والأمان في دار الجنان، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

المقطع الآخر: من الآية السابعة والثلاثين إلى نهاية السورة، وهو مقطع يبدأ بجملة من آيات الله في الكون: الليل والنهار، والشمس والقمر، والملائكة المقربين، وهي من دلائل تفرد الله تعالى بالخلق، ودلائل بعث الناس بعد موتهم، وموقف الملحدين من هذه الدلائل، وتعاميهم عن آيات الله الباهرة، وكتابه العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وتبيِّن السورة أن حمْلَ العرب لهذه الرسالة هو حملٌ لرسالة الأنبياء قاطبة، وأن أهل الكتاب قد أضاعوا ما لديهم من تراث، ونسُوا قواعده، كما تبيِّن السورة أن مردَّ علم الساعة إلى الله تعالى، وتوضح طبيعة الإنسان في حالتي العسر واليسر.

وتُختم السورة بوعد من الله تعالى أن يكشف للناس عن أسرار هذا الكون في آخر الزمان ليستدلوا على صدق ما أخبر به القرآن، وتزداد نبوة محمد ﷺ صدقًا ورسوخًا.

سبب النزول:

١- روى ابن إسحاق عن يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي، قال: حُدثتُ أنَّ عُتْبة بن ربيعة -وكان سيِّدًا- قال يومًا وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده، قال: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه، وأعرِضُ عليه أمورًا لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء، ويكفُّ عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة، ورأوْا أن أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثُرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد، فقُم فكلِّمْه، فقام إليه عتبة، حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: يابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السِّطَة (الوسط) في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أَتيْتَ قومك بشيء عظيم، فرَّقتَ به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعبْت به آلهتهم ودينهم، وكفَّرت به مَنْ مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها، لعلك تقبل منا بعضها، قال: فقال له رسول الله ﷺ: **«قل يا أبا الوليد، أسمع»**.

قال: يابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا، جمعنا لك من

أموالنا حتى تكون من أكثرنا أموالًا.

وإن كنت تريد به شرفًا سوَّدْناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دُونك.

وإن كنت تريد به مُلكا ملكْناك.

وإن كان هذا الذي يأتيك رِئيًا تراه لا تستطيع ردَّه عن نفسك، طلبْنا لك الطب وبذلْنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُدَاوَى منه -أو كما قال له.

حتى إذا فرغ عُتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: **«أفرغتَ يا أبا الوليد»**؟ قال: نعم، قال: **«فاستمع مني»** قال: أفعل، قال: **«بسم الله الرحمن الرحيم:** ﴿حمٓ ① تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ② كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ③ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ④﴾» ثم مضى رسول الله ﷺ يقرؤها عليه، فلما سمع عُتبة أنْصَت لها، وألْقى يديْه خلْف ظهره معتمدًا عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد، ثم قال: **«قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك»**.

فرجع عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض -وهو يقسم بالله-: لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولًا، والله ما سمعت مثله قطُّ، والله ما هو بالسحر، ولا بالشعر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها لي، خلُّوا بين الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزِلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعتُ نبأ، فإن نصَّبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فمُلْكه ملككم، وعزُّه عزكم، وكنتم أسعد الناس به.

قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه! قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم[1].

وفي هذا روايات أخرى تدل على اجتماع قريش وإرسالهم عتبة بن ربيعة، وتلاوة الرسول عليه أول السورة إلى ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ⑬﴾.

٢- ففي رواية جابر عن عبد الله ﷺ أن قريشًا اجتمعت يومًا لاختيار أعلم رجل فيهم

---

(١) هذه رواية ابن إسحاق كما في «سيرة ابن هشام» (١/ ٢٩٣) والبيهقي (٢/ ٢٠٤) وابن عساكر (٣٨/ ٢٤٦).

حتى يرسلوه إلى النبيِّ ﷺ ليُراجعه في دعوته، فوقع اختيارهم على عُتْبة بن ربيعة، فأتاه وكلَّمه في شأن الرسالة، وقال له: أنت لست خيرًا من عبد الله ولا من عبد المطلب، ولقد فرَّقت جماعتنا، وشتَّت أمرنا، وعِبْت ديننا، وفضحْتنا في العرب، حتى قال الناس: إن في قريش ساحرًا وكاهنًا، وقد أوشكنا أن يقوم بعضنا على بعض بالسيوف، فإن كان بك حاجة إلى المال جمعنا لك أموالًا حتى تكون أغنى قريش، وإن كان بك باءة، فاخْتر أيَّ نساء قريش شئت، فلْنُزوِّجك عشرًا، فقال رسول الله: «فرغت»؟ قال: نعم، فقرأ ﷺ أول سورة فصلت حتى وصل إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ فقال عتبة: حسبك، حسبك، ما عندك غير هذا، قال: لا، فرجع إلى قريش، وأخبرهم بأنه لم يترك شيئًا يريدون أن يكلِّموه فيه إلا كلَّمه، قالوا: فبماذا أجابك؟ قال: والله ما فهمت شيئًا مما قال، غير أنه أنْذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود...[1].

٣- وعن ابن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ لما قرأ على عتبة أول سورة (فُصِّلت) أتى أصحابه فقال: يا قوم، أطيعوني في هذا اليوم، واعصوني بعده، فوالله لقد سمعت من هذا الرجل كلامًا ما سمعتْ أذنايَ قط كلامًا مثله، وما درَيتُ ما أرد عليه[2].



(١) يُنظَر النص في: ابن أبي شيبة (١٤/ ٢٩٥) (١٨٤٠٩) وأبي يعلى في «الدلائل» (١٨١٨) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (٢/ ٢٥٣) وأبي نعيم في «الدلائل» (١٨٢) والبيهقي (٢/ ٢٠٢) وابن عساكر (٣٨/ ٢٤٢) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ٢): فيه الأجلح الكندي، وثَّقه ابن معين وغيره، وضعَّفه النسائي وغيره، وبقية رجاله ثقات.

(٢) البيهقي (٢/ ٢٠٥) وأبو نعيم (١٨٥) كلاهما في «دلائل النبوة».

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

القُرْآنُ الكَرِيمُ: مَصْدَرُهُ وَوَصْفُهُ وَوَظِيفَتُهُ

١-٢- ﴿حمٓ[1] ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾

ابتدأت سورة (فصلت) بحرفي: الحاء، والميم من حروف التهجي، كسائر سور آل حم السبع، وهي حروف مقطعة، الله أعلم بمراده منها، وفيها إشارة إلى إعجاز القرآن، فقد تحدَّى الله به المشركين فعجزوا عن معارضته، مع أنه مكون من الحروف التي تتكون منها لغة العرب، وهم أفصح الناس.

وفيها أيضًا إيقاظ لقلوب المعارضين، ولفت لأنظارهم بعجيب التركيب؛ حتى يستمعوا إليه ويتأملوه، فدلَّ هذا على أن القرآن من عند الله، وليس من عند محمد ﷺ وليس في مقدور البشر الإتيان بمثل أقصر سورة منه.

ثم ذكرت السورة مصدر هذا القرآن، فبيَّنت أنه منزل من عند الرحمن الرحيم، الذي وسعت رحمته كل شيء، ومن عظيم رحمته، نزول هذا القرآن كتابًا مفصلًا عربيًّا، فيه العلم والهدى والنور والشفاء والموعظة والخير العميم، وفيه السعادة للدارَيْن.

أي: إن هذا القرآن تنزيل من عند الله تعالى على نبيه محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ۝١٩٥ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٩٦﴾ [الشعراء].

وقال سبحانه: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢].

وإنما خصَّ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ بالذكر لبيان أن هذا القرآن تنزلت آياته من ينابيع الرحمة لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، فهي هداية تقي الناس شرور أنفسهم

---

(١) قرأ أبو جعفر بالسكت على حا، و ميم، سكتة لطيفة بدون تنفس، وأمال الحاء ابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي وخلف، وقللها الأزرق، وفتحها وقللها أبو عمرو، وفتحها الباقون.
وقد عدّ (حم) آية، المصحف الكوفي، وتركها غيره.

وسيئات أعمالهم، وتحميهم من شطط الأفكار وخطر الغرائز، وطغيان القوى، وعوج الهوى، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾ [يونس].

وقال سبحانه: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام: ١٥٧].

وهو نعمة باقية إلى يوم القيامة.

٣- ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾

ثم أثنى الله تعالى على هذا الكتاب، فبيَّن أن آياته واضحة الأغراض، وافية بالمقصود، لا تلتبس إلا على مكابر، وفيه من كمال التفصيل، وكثرة المعاني، وفصاحة الألفاظ ما لا يخفى على أحد.

وهو كتاب بُيِّنت آياته تمام البيان، ووُضِّحت معانيه وأحكامه ليسهل فهمه وحفظه وتلاوته، وقد بُيِّنت أحكام حلاله من حرامه، وطاعته من معصيته، وجُعلت معانيه مُبيَّنة محكمة، تُفهم بيُسْر وسهولة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧].

وهو كتاب جامع للمصالح الدينية والدنيوية، لم ينزل مرة واحدة، وإنما نزل نجومًا مشتملًا على ما فيه سعادة الدنيا والآخرة.

وهو كتاب نُوعت أحكامه فجُعِلت: هدايات، وآدابًا، وأخلاقًا، ومواعظ، وحكمًا، وأحكامًا، وأمثالًا، وقصصًا، وعقائد، وعبادات.

وهو كتاب فُصِّلت آيات أحكامه بلغة العرب ليكون لهم نعمة وذكرًا، ويكون عليهم حجة وبلاغًا.

وهو كتاب واضح الدلالة، ساطع الحجة، عربيُّ اللسان.

وعروبة القرآن: سمة الوحي المعجز، وقد اختار الله لغة العرب، لتكون وعاء وحْيه، واصطفى أهل هذه اللغة ليقودوا الناس إلى الخير، وكل من أجاد لغة القرآن فهو عربي مهما اختلفت جنسيته، وقد أسلم قديمًا من الفرس والروم مَنْ خدم القرآن بلسانه أكثر من بعض من وُلد في جزيرة العرب.

وترجمة معاني القرآن إلى اللغات الأخرى لا تجعل المترجَم قرآنًا، بل هو معانٍ.

وهذا القرآن قد بُيِّنت آياته ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ اللسان العربي، فيتذوَّقون أسراره، ويفهمون تفاصيل أحكامه، ودلائل إعجازه، لا يلتبس عليهم منه شيء، فيتضح لهم منه الهدى من الضلال، والغي من الرشاد، أما الجاهلون المعرضون فلا يزيدهم إلا ضلالًا وعمي.

﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ﴾ [فصلت: ٤٤]. والعلم والجهل معناهما الانتفاع به وعدم الانتفاع، فالأول عالم والآخر جاهل ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾[الزمر: ٩]

وكل من قرأ ألفاظه أو فهم معانيه فهو مؤهل للانتفاع به، ومن لم يرفع به رأسًا لا ينتفع به، قال تعالى: ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣].

ولا ينتفع بالقرآن إلا من علم أنه من عند الله، وأيقن بذلك، أما الذين لا يعلمون أنه منزل من عند الله ولا يوقنون بذلك، فإنه لا يكون لهم نعمة ولا ذكرًا، بل هو عليهم عمًى ووبال وخسران.

وهذا القرآن نزل مبشِّرًا بالثواب العاجل والآجل لمن آمن به وعمل بمقتضاه، ومنذرًا بالعذاب العاجل والآجل لمن كفر به وأعرض عنه. قال تعالى في وصف القرآن:

٤- ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤﴾

أي: أن هذا القرآن بشيرًا لأولياء الله بالنعيم المقيم والثواب العاجل والآجل، ونذيرًا لأعدائه بالعذاب الأليم، والعقاب العاجل والآجل، وكثير من الناس أعرض عما في القرآن من الهدى، فلم يتأثر بمبشرات القرآن، ولم يحذر ما فيه من النذير، فلم ينفعه ترغيب ولا ترهيب، فهو من الذين لا يعلمون، ومن الذين لا يسمعون سماع قبول وإجابة ﴿فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ ما احتوى عليه القرآن من الحجج والبراهين، ولم يسمعوه سماعًا يُنتفع به، ولا سماع قبول وإجابة، بل سمعوه سماعًا تقوم به الحجة عليهم.

وفي هذا تقريع وتوبيخ لكل من بلغته رسالة الإسلام، ولم يؤمن بالرسول الخاتم، وما جاء به من الوحي الإلهي.

ثَلاثَةُ أَحْوَالٍ لِلْمُعْرِضِينَ عَنِ الْقُرآنِ

٥- ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾

في هذه الآية تفصيل آليّة الإعراض عن القرآن بأقوال المعرضين أنفسهم، فذكرت ثلاث أحوال لهذا الإعراض، وهي:

١- أن قلوبهم مقفلة، عليها أغطية، فهي لا تقبل هدى، ولا يصل إليها إيمان.

٢- وأن آذانهم صماء، لا تسمع شيئًا يفيدها أو تنتفع به.

٣- وأنه يوجد حائل بين الرسول وبينهم، فلا يصل إليهم شيء من دعوته.

والمعنى:

أ- يقول الكافرون المعرضون عن الانتفاع بالقرآن، حين يُدْعون إلى الإسلام: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾ أي قلوبنا في أغطية كثيفة تمنعها من فهم ما تدعونا إليه من التوحيد والإيمان، فلا يصل إليها شيء مما تقول.

ب- ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أي: وفي آذاننا ثقل وصمم، بحيث تمجُّ الحق، ولا تميل إلى استماعه، فنحن لا نفهم ما تقول.

ج - ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ أي: ومن بيننا وبينك -يا محمد- حاجز وساتر حصين، يحول بيننا وبين إجابة دعوتك، ويمنع وصولها إلينا.

وما دام حالنا وحالك هكذا ﴿فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ اعمل ما شئت وفق ما يدعوك إليه دينك، ونحن نعمل ما شئنا وفق ما يدعونا إليه ديننا، وليستمر كلٌّ منا على طريقته، فاعمل لآخرتك، ونحن نعمل لدنيانا، فنحن لا نعبأ بما تنذرنا به، وإن كان لديك ما تؤذينا به فافعل!

والمكذبون بالقرآن، بقولهم هذا، قد سدُّوا على أنفسهم النوافذ والأسباب الموصلة إلى الإيمان، وأظهروا الإعراض عنه من كل وجه، كما أظهروا بغضه والرضى بما هم عليه، فاستبدلوا الهدى بالضلال، والكفر بالإيمان، وباعوا الآخرة بالدنيا.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥، والإسراء: ٤٦].

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ [الإسراء].

قيل: إن القائل لما في هذه الآية، هو أبو جهل، في مجمع من قريش، فأسند القول إليهم، وهو يشمل كل معرض عن القرآن إلى قيامة الساعة.

الرَّسُولُ بَشَرٌ يُوحَى إِلَيْهِ، فَالوَيْلُ لِمَنْ عَصَاهُ، وَالأَجْرُ العَظِيمُ لِمَنْ أَطَاعَهُ

ثم إن الله تعالى لقن رسوله الجواب الذي يرُدُّ به على المكذبين بالوحي، فقال:

٦، ٧- ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾﴾

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الجاحدين لرسالتك، المعرضين عن دعوتك ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ في الصفات البشرية، فأنا كواحد منكم لولا أن الله تعالى أنزل عليّ الوحي، خلقني الله كما خلقكم، ونسبي ينتهي إلى آدم مثلكم، وأنا آكل وأشرب، وأتزوج النساء، وأمشي في الأسواق، مثلكم تمامًا، ولست من جنس مغاير لكم حتى تُعرضوا عن دعوتي، ولم أدْعُكم إلى ما يخالف العقل، إنما أدعوكم إلى توحيد الله تعالى.

وأنا لا أملك تحويل القلوب الضالة -مثل قلوبكم- إلى الهدى، ولا أتميز عليكم في شيء إلا أن الله تعالى خصَّني بالوحي، فأنا بشر ﴿يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ وقد أمركم الله باتباعي وعدم مخالفتي، ولا أملك إلا أن أبلِّغكم هذا الوحي ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. وليس بيدي من الأمر شيء، ولا عندي ما تستعجلون به، وإنما فضلني الله عليكم بالوحي الذي أوحاه إليّ، وأمرني باتباعه ودعوتكم إليه، ومن ذلك دعوتكم إلى ستة أمور تُمثل أصول الرسالة وقواعدها وهي:

١- التوحيد. ٢- والاستقامة. ٣ - والاستغفار. ٤- وترك الشرك وأهله.

٥- وإخراج الزكاة. ٦- والإيمان باليوم الآخرة.

أ- والبند الأول في الدعوة إلى الله تعالى هو: **التوحيد**، وأول ما يوحى به إليَّ ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ هو الذي يجب أن تُوجه إليه العبادة، ولا يصح توجيهها إلى غيره، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٨﴾ [الأنبياء].

ب - فقد أمرني ربي أن أبلغكم أنَّ إلهكم وخالقكم إله واحد لا شريك له، فعليكم أن تُخلصُوا له الطاعة والعبادة، وتسلكوا الطريق الموصل إلى رضوانه، وتلتزموه، وتستمروا عليه ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ بالطاعة ولا تميلوا عن سبيله، واسلكوا الطريق الموصل إلى الله تعالى باتباع أوامره واجتناب نواهيه، وتصديق أخباره، وداوموا على ذلك مع الإخلاص والمتابعة.

ج - ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾ أي: اسألوا الله المغفرة لما سلف من الذنوب، ومن الإشراك به تعالى، وأخلصوا في عبادته، ولا تشركوا معه غيره، واسألوه الصفح عما فرط منكم من الشرك والعناد، وما عسى أن يكون من تقصير وخلل في بعض جوانب الطاعة أو ترك المنهيات

د- أما من سلك الطريق المعوج، وظل على شركه وكفره، فهو مهدَّد ومتوعَّد بالعذاب يوم لقاء الله ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي: إن الله تعالى أعد الويل والشقاء لمن لم يقبل دعوته.

هـ - ثم توعَّد الله سبحانه بالويل -على وجه الخصوص- صنفين من المشركين، هما: مانعو الزكاة، وغير المؤمنين باليوم الآخر، فقال تعالى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾ الموصوفين بأنهم ﴿لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، فهم يمنعونها ولا يُخرجونها إلى الفقراء، ولا ينفقون أموالهم في وجوه الخير، وهم لا يؤمنون بالبعث والنشور والحساب والجنة والنار، فهم جاحدون باليوم الآخر، غير مؤمنين بما فيه.

ويُفهم منه أن المسلم -مانع الزكاة- متوعدٌ بالويل أيضًا.

قال الصاوي: وإنما خصَّ منْع الزكاة وقرنه بالكفر بالآخرة؛ لأن المال شقيق الروح، فإذا بذله الإنسان في سبيل الله كان دليلًا على قوته وثباته في الدين[١].

ومن المعلوم أن الزكاة فُرضت إجمالًا في مكة، وهذه السورة مكية، وأن تفصيل أحكامها فقد فرض في المدينة في السنة الثانية للهجرة.

---

(١) «حاشية الصاوي» (٤/ ١٧).

وقد جاءت فرضية الزكاة في مكة في أكثر من سورة مكية، منها قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥] والحق المعلوم هو الزكاة.

أما صدقة التطوع فجاءت مطلقة في قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات].

وفُرضت زكاة الحبوب والثمار في مكة في قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وعلى أن المراد بالزكاة في الآية زكاة المال، استدل بعض علماء الأصول أن المشركين مخاطبون بفروع الشريعة؛ لأن الله تعالى توعدهم على منع الزكاة، مع وصفهم بالكفر والشرك.

وجاء نظير ذلك في قوله تعالى عن المجرمين: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [المدثر]

فهم -مع كفرهم- يُحاسَبون على ترك الصلاة، وعدم إطعام المسكين، ولغو الكلام.

وقيل: إن المراد بالزكاة في الآية: زكاة النفس والبدن، بطهارتها من الشرك والكفر، وعدم الإخلاص، واستشهدوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾ [الشمس].

وقوله سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ [الأعلى].

ومن الواضح أن لفظ ﴿زَكَّىٰهَا﴾ يعود على النفس، ولفظ ﴿تَزَكَّىٰ﴾ معناه: تطهَّرَ من دنس الشرك، أو نمَّى أخلاقه وحسَّنها.

ومعنى ﴿يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يؤدونها لمستحقيها، والذي يؤدَّى هو الزكاة والصدقة، ولعله الأرجح، وهكذا وصف الله المشركين المتوعَّدين بالويل؛ لأنهم لم يُطهِّروا أنفسهم بتوحيد ربهم، والإخلاص له، ولم يصلُّوا ولم يزكُّوا، فلا إخلاص منهم للخالق، ولا نفع فيهم للخلق، وهم لا يؤمنون بالبعث ولا بالجنة والنار، ولا ينفقون أموالهم في طاعة الله تعالى.

و- كما توعد الله تعالى بالويل والهلاك من لا يؤمن باليوم الآخر وما فيه من بعث وحشر ونشر وحساب وجزاء وجنة ونار، وغير المؤمنين باليوم الآخر قد زال الخوف من قلوبهم فأقدموا على ما أقدموا عليه من الشرك والكفر والمعاصي وكل ما يضرهم في الآخرة.

وبعد بيان سوء عاقبة الكافرين يأتي بيان حسن عاقبة المؤمنين، فقال تعالى:

٨- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ(١) غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾

أي: إن الذين آمنوا بالله ورسوله وكتابه وملائكته واليوم الآخر إيمانًا حقًّا، وعملوا الأعمال الصالحة مخلصين لله فيها ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ به عليهم؛ لأنه جزاء أعمالهم الصالحة، فضلًا من الله تعالى وكرمًا.

قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧].

وقال أهل الجنة: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الطور].

وقال رسول الله ﷺ في حديث عائشة ﵂: **«سددوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لن يُدخِل الجنة أحدًا عمله»** قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **«ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمة، واعلموا أن أحب العمل إلى الله ﷻ أدومُه وإن قل»**(٢).

أو معنى ﴿مَمْنُونٍ﴾ أنه أجر غير مقطوع ولا ممنوع، بل دائم مستمر بدوام الجنة ونعيمها، وهو الأولى، فهو أجر مستمر متزايد، مشتمل على جميع اللذات والمشتهيات.

تَفْصِيلٌ دَقِيقٌ لِخَلْقِ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ يُوجِبُ عَدَمَ الكُفْرِ بِخَالِقِهِمَا

٩- ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ(٣) لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

بعد أن أمر الله رسوله أن يقول للمشركين: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ أرْدف ذلك بنهْيهم عن الكفر بالله تعالى على طريقة الاستفهام المتضمن تذكيرهم بتفصيل دقيق لخلق الأرض والسماء.

قال الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: ويلاحظ أنه بيْن عرْض الدعوة وجزاء مكذِّبيها

---

(١) قرأ أبو جعفر بالغنة في تنوين الراء مع الغين بعدها، من (أجر غير)، والباقون بدونها.

(٢) مسلم (٢٨١٨) والبخاري (٦٤٦٤، ٦٤٦٧)، و«المسند» (٢٤٩٤١).

(٣) قرأ قالون وأبو عمرو وأبو جعفر بتسهيل الهمزة الثانية من (أئنكم) مع إدخال ألف بينها وبين الهمزة قبلها، وقرأ ورش وابن كثير ورويس بالتسهيل مع عدم الإدخال، ولهشام ثلاثة أوجه: التسهيل مع الإدخال، والتحقيق مع الإدخال وعدمه، والباقون بالتحقيق مع عدم الإدخال.

وقَع اعتراض معنوي طويل، تضمن الكلام عن نشأة الخليقة، ونظام الملكوت الضخم: إن الإنسان من هذه الأرض نشأ، وعلى خيراتها يحيا، ومنذ استخلفه الله فيها جعله مَلِكًا على عناصرها؛ ليكون عبدًا لربه الذي سوَّاه ونفخ فيه من روحه . . . لكن الإنسان نسي وطغى.

والظاهر من كلام العلماء أن الله تعالى أبدع المجموعة الشمسية أوَّلًا ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] ثم أنشأ البشرية بعدما مهَّد الأرض لسكناها، وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها.

وهنا -أي: في هذه السورة- وفي مواضع أخرى لُفت انتباه الإنسان إلى أقرب شيء إليه، إلى الأرض التي عليها يعيش، ويؤمن إن شاء أو يكفر! وذِكْرُ هذه الحقائق عقب عَرْض الدعوة مفهوم، فتدبُّرها أساس الإيمان، والتعامي عنها سبب البوار(١).

وسوف نتكلم عن **خلق الأرض** أوَّلًا، ثم عن خلق السماء:

﴿قُلْ﴾ -يا محمد- لهؤلاء المشركين موبِّخًا لهم، ومتعجِّبًا من حالهم، ومنكرًا عليهم: أنتم تعلمون أنه لا شريك لله تعالى في العالميْن العلوي والسفلي، فكيف تجعلون له شريكًا في عبادتكم، وتسوونه مع الخالق، الذي خلق الأرض والسماء، وما فيهما ومابينهما، وهذا الاستفهام الإنكاري عن شيئين:

أحدهما: الكفر بالله تعالى الوارد في قوله سبحانه: ﴿لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾.

والآخر: إثبات الأنداد والشركاء لله سبحانه الوارد في قوله جلَّ وعلا: ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ فكيف تجعلون لله شركاء من الحجَر، أو البشر، أو غيرهما؟! مع أنه سبحانه خلق هذا الكون بما فيه، ومن هذا الكون:

أَوَّلًا: خَلْقُ الْأَرْضِ فِي يَوْمَي الأَحَدِ وَالإِثْنَيْنِ.

والمراد: خلق الكرة الأرضية بما فيها من يابس وبحار.

واليوم يساوي اليوم العادي المعروف من طلوع الشمس إلى طلوعها؛ لأن اليوم يُقدَّر بظهور النور والظلمة على الأرض، ولم يظْهر ذلك إلا بعد خلْق الأرض، فلم تكن هناك

(١) «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم» ص ٣٧١ .

أيام قبل خلق الأرض.

وابتدأ الله تعالى بذكر خلق الأرض لأنها أقرب للإنسان، والحجة بها أظهر، وما تحتويه من النعم أكثر، فكان الكفر بخالقها أقبح وأشنع.

والذي خلق الأرض وما فيها هو المستحق للعبادة وحده دون سواه، وهو خالق الكون كله، وهو رب العالمين، لا ندَّ له ولا نظير، والندُّ هو الضد المساوي للآخر في القدْرِ والصفة، فكيف تجعلون بعض مخلوقات الله تعالى شركاء له في العبادة، وهو سبحانه رب ما دون العالمين، كالحجارة والأخشاب والحديد من باب أولى؟!

وكان المشركون يعبدون آلهة شتى، فمنهم مَنْ عَبَد الأصنام التي تُصنع من الحجارة والأخشاب، ومنهم من عبد الملائكة، ومنهم من عبد الكواكب، فبيَّن سبحانه أنه ربٌّ لجميع المخلوقات، وكلها مربوبة لله تعالى.

قال سعيد بن جبير ﷺ: إن الله تعالى قادر على أن يخلق هذا الكون كله في لحظة، ولكنه خلق السموات والأرض في ستة أيام، ليُعلِّم خلْقه التثبُّت والتأني في الأمور.

وكان خلق الأرض أوَّلًا قبل خلق السماء، لأنها الأساس، والأصل أن يُبدأ بالأساس، ثم بالسقف بعده.

فخلْق الأرض كان قبل خلق السماء، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩].

أما دحْوُ الأرض، فقد كان بعد خلق السماء، كما قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾ [النازعات].

فَدَحْيُ الأرض بمعنى ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ [النازعات] وهو متأخر عن خلق السموات.

فخلَق الله جِرْم الأرض غير مَدْحُوَّة، قبل خلق السماء بيومين، ثم دحا الأرض بعد خلق السماء.

أخرج البخاري عن سعيد بن جبير: أن رجلًا سأل ابن عباس ﷺ عن أشياء في القرآن

تختلف، وذكر منها أن الله تعالى خلَق السموات قبل خلْق الأرض، كما جاء في سورة النازعات، وجاء في سورة فصلت أن الله خلق الأرض قبل السموات، فأجاب بقوله: خلَق الأرض في يومين، ثم استوى إلى السماء، فسواهن في يومين آخرين، ثم دحا الأرض، ودحوُها: أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلَق الجبال والجماد والآكام وما بينهما في يومين، فذلك قوله تعالى: ﴿دَحَىٰهَآ﴾ وقوله سبحانه: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ فكان خلق الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخُلقت السموات في يومين[1].

ويقول أهل العلم التجريبي: إن الأرض كانت كرة ملتهبة كالشمس، والأرجح أنها قطعة من الشمس انفصلت عنها، وأنها استغرقت أزمانًا طويلة حتى بردتْ قشرتُها وصلبتْ، وأن جوفها لا يزال في حالة انصهار لشدة الحرارة، حيث تنصهر أقسى الصخور.

ولما بردت القشرة الأرضية جمدتْ وصلبتْ، وكانت في أول الأمر طبقات من الصخر بعضها فوق بعض، وقد تعاون الهواء والماء على تفتيت الصخر وتشتيته وترسيبه، حتى صارت تربة أمكن الزرع فيها[2].

ثَانِيًا: خَلْقُ الْجِبَالِ وَالْأَقْوَاتِ

١٠- ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً[3] لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾

أي: وبعد خلْق الأرض، خلَق الله أجزاء من جنسها كالجبال وهذا ضمن دَحْوِ الأرض ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا﴾ أي: خلق فوق الأرض جبالًا ثوابت مرتفعة عليها، لا تنتقل ولا تتحرك، وجعلها أوتادًا للأرض؛ لئلًا تضطرب وتتحرك بالناس، وهي محاطة بالبحار والمحيطات.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١].

---

(١) من حديث ابن عمرو في البخاري كما في «الفتح» (٨/٥٥٦) وهو في «صحيح البخاري»، كتاب التفسير، سورة السجدة (فصلت) بعد الحديث رقم (٤٨١٥).

(٢) يُنظَر: «في ظلال القرآن»، تفسير الآية.

(٣) قرأ أبو جعفر برفع الهمزة مع التنوين في (سواءٌ) على أنها خبر لمبتدأ محذوف، أي: هي سواء، وقرأ يعقوب بالخفض، صفة لأربعة أو أيام، وقرأ الباقون بالنصب على الحال من ضمير أقواتها.

كما أن الله تعالى خلق في الأرض أجزاء من غير جنسها، كالأقوات، فخلق فيها خيرات كثيرة، فيها رزق للإنسان وللحيوان، وفيها التراب والحجارة والمعادن، وكلها بركات، قال تعالى: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ أي: بكثرة الخيرات والأرزاق، وما خلق فيها من البحار والأنهار، والأشجار والثمار، وأصناف الحيوانات، وكل ما يحتاج إليه الإنسان من المنافع، فهي دائمة الخير لأهلها، قال تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ أي: خلق أرزاق أهلها وما يصلحهم من المعاش للإنسان وغيره:

فللدواب أقوات، وللطير أقوات، وللوحوش أقوات، وللزواحف أقوات، وللحشرات أقوات.

وقسَّم سبحانه أرزاق العباد والبلاد، وشقَّ الأنهار، وغرس الأشجار، ووضع الجبال، وأجرى البحار، وقدَّر الحَرَّ والبرْد والاعتدال، وهكذا.

فكان خلْق الأرض في يومين، وخلْق الأقوات في يومين.

وختم الله تعالى كل ذلك بقوله: ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ وقد دخل في هذه الأيام الأربعة اليومان المذكوران قبل ذلك في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ بالإضافة إلى يومين آخرين خلق فيهما الأقوات، فمجموعها أربعة أيام.

وهذه الأيام الأربعة ﴿ سَوَآءً﴾ أي: لا زيادة فيها ولا نقص، وقد بيَّن الله ذلك لمن أراد المعرفة والسؤال عن مدة خلق الأرض وما فيها، فهو جواب ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ كأنه قيل: هذا الحصر جواب للذين يسألون قائلين: في كم خُلِقت الأرض وما فيها؟

أويكون المعنى: إن الله تعالى خلق الأرض وقدَّر فيها أقواتها، وجعل ذلك أمرًا مهيأً لجميع الخلق، يستوي فيه كل من طلب الانتفاع بها من البشر.

وكانت مدة خلق الأرض وما فيها ضِعف مدة خلق السموات، مع أن السموات أكبر من الأرض، وفيها مخلوقات أكثر وعجائب، وذلك لأن الأرض وما فيها من المنافع هي المقصودة للثقلين، فزادتْ مدة خلقها للاعتناء بشأنها وشأنهم، والامتنان عليهم بها[1].

(١) يُنظَر: «حاشية الجمل على الجلالين» (٤/ ٣٢٤) و«تفسير فتح القدير» (٤/ ٤٨٨) و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٦).

ثَالِثًا: خَلْقُ السَّمَوَاتِ

١١- ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا[١] طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾

تشير الآية إلى أن الله تعالى كان موجودًا ولا شيء معه، وَكان قد جعل عرشه على الماء، ثم توجَّهت إرادته أوَّلًا إلى خلق السموات والأرض مرة واحدة، فتعلقت قدرته تعالى بمادة تكوينهما معًا، وهي الدخان، كما جاء في الأثر: أن أبارُزيْن قال: قلت: يا رسول الله، أين كان ربنا عز وجل - أي أين كان عرشه - قبل أن يخلُق خلْقه؟ قال: **«كان في عماء، ما تحته هواء وما فوقه هواء، ثم خلق عرشه على الماء»**.

وفي لفظ : **«لم يكن في الوجود من الحوادث إلا العماء»**[٢].

والعماء: سحاب رقيق، وهو العنصر الأصلي الذي خلق الله منه الموجودات.

وليس معنى خلق الأرض: الإيجاد والتكوين، بل المعنى: أن الله تعالى قدَّر وقضى أن يُحدث الأرض في يومين، وهو المعنى اللغوي للخلق، أي: قدَّر وجود أصل الخلق ومادته، وليس الخلق الفعلي، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: توجَّهت إرادته سبحانه وقَصَدَ خلق السماء، وهذا من قولهم: استوى فلان إلى مكان كذا، أي: عمد إليه وتوجَّهت إرادته نحوه، فأراد خلق السماء ﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾ أي: بخار رطب دقيق متصاعد من الماء، والدخان في الأصل: هو ما ارتفع من لهب النار.

ثم وجَّه الله تعالى القول للأرض والسماء معًا قبل خلقهما: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي: إن قدرة الله تعالى تعلَّقت بخلقهما، فقال لهما هذا القول الذي يراد به: التكوين والخلق الفعلي، ومجيئهما طوعًا أو كرهًا بمعنى: انقيادهما لأمر الله تعالى مختارتين

---

(١) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلفه بإبدال همزة (ائتيا) حرف مد حال وصلها بما قبلها، وكذا حمزة عند الوقف، ويبدأ بهمزة وصل مكسورة مع إبدال الهمزة الساكنة حرف مد جميع القراء.

(٢) يُنظَر حديث أبي رزين العُقَيْلي في: الترمذي (٣١٠٩) وابن ماجه (١٨٢) و«المسند» (١٦١٨٨) والطيالسي (١٠٩٣) وتفسير الطبري (١٧٩٨٠) وابن أبي عاصم في السنة (٦١٢) وابن حبان (٦١٤١) والطبراني في الكبير (٤٦٨/١٩) والأثر حسنه الترمذي، وضعفه محققو المسند، لأن فيه وكيع بن حُدُس متكلم فيه، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح.

أو مجبرتين، وهو تصوير لعظمة القدرة الإلهية، ونفوذها في الأمور المقدرة، دقَّت أو جلَّت.

﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ أي: أتينا مذعنين لك، ليست لنا إرادة تخالف إرادتك، قيل: إن الله تعالى خلق فيهما الكلام فتكلمتا، وقيل: هو تشبيه لظهور الطاعة منهما وتأثير القدرة الربانية فيهما.

عن ابن عباس ﷺ قال: قال الله تعالى للسماء: أَطْلِعي شمْسك وقمرك ونجومك، وقال للأرض: شُقِّي أنهارك، وأَخْرِجي شجرك وثمارك، طائعتين أو كارهتين، قالتا: أتينا أمرك طائعتين[١].

وليس هناك ما يمنع من أن الله تعالى قد خلق فيهما تمييزًا لفهم السؤال والإجابة عليه، ولهذا نظائر كثيرة في الكتاب والسُّنَّة. قال تعالى:

١٢- ﴿فَقَضَىٰهُنَّ[٢] سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾

أي: أن الله تعالى قد أتم خلق السموات السبع في يومين هما الخميس والجمعة ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ أي: أوجدهن وأبدعهن، وفرغ من خلقهن في مقدار يومين، فتمَّ بذلك خلق السموات والأرض في ستة أيام لحكمة يعلمها الله تعالى، مع قدرته سبحانه على خلقهما في لحظة.

وجاء في السُّنَّة أن الله تعالى خلق آدم يوم الجمعة، وأنه آخر أيام الأسبوع، وأنه خير أيام الأسبوع وأفضلها، وأن اليهود والنصارى قد اختلفوا في تعيين اليوم الأفضل من الأسبوع، وأن الله تعالى هَدَى المسلمين إليه.

قال ابن عباس ﷺ: خلق الله تعالى السموات من دخان، ثم ابتدأ خلق الأرض يومَ الأحد ويومَ الإثنين، فذلك قول الله تعالى: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ ثم قدَّر فيها أقواتها في يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء، فذلك قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ ثم استوى إلى السماء وهي دخان فسمكَها، وزيَّنها

(١) «تفسير القرطبي» (١٥/ ٣٤٣) والطبري، وهو عند البيهقي (٨١٤) والحاكم (١/ ٢٧).

(٢) وقف يعقوب بهاء السكت على (فقضاهن) بخلف عنه، والباقون بدونها.

بالنجوم والشمس والقمر، وأجراها في أفلاكها، وخلق فيها ما شاء الله من خلقه وملائكته، يومَ الخميس ويومَ الجمعة، وخلق الجنَّة يوم الجمعة، وخلق آدم يوم الجمعة، فذلك قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [يونس: ٣] وسبَت -أي: قطع- كل شيء يوم السبت، فعظَّمت اليهود يوم السبت؛ لأنه سبت فيه كل شيء، وعظَّمت النصارى يوم الأحد؛ لأنه ابتدأ فيه خلْق كل شيء، وعظَّم المسلمون يوم الجمعة؛ لأن الله فرغ فيه من خلقه، وخلق فيه الجنَّة، وجمع فيه آدم، وفيه هبط من الجنة إلى الأرض، وفيه قُبلت توبتُه وهو أعظمها[1].

وهكذا عظَّم اليهود يوم السبت؛ لأن الله تعالى لم يخلق فيه شيئًا فامتنعوا فيه عن العمل، وعظَّم النصارى يوم الأحد؛ لأن الله تعالى ابتدأ فيه الخلق، وعظَّم المسلمون يوم الجمعة؛ لأن الله تعالى فرغ فيه من الخلق.

ولا خلاف في أن الله تعالى خلق آدم بعد تمام خلقالسماوات والأرض.

وبعد خلق السموات أوحى الله في كل سماء ما أراده وما أمر به فيها، وخلَق فيها ما اقتضته حكمته تعالى من الملائكة وسيْر الكواكب، وما لا يعلمه إلا الله، وهذا معنى ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ أي: أوجد النظام الذي تجري عليه الأمور فيها.

قال قتادة: خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها وأفلاكها، وما فيها من الملائكة والبحار والبرد والثلوج.

وزيَّن السماء الأولى بالنجوم المضيئة، وجعلها حفظًا للسموات من الشياطين الذين يسترقون السمع ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا﴾.

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥].

وبعد خلق السموات دحا الأرض، أي: كوَّرها، فهي متقدمة في الخلق، متأخرة في الدحْو.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الخلق البديع ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ في ملكه، القادر على صنع كل شيء.

والتقدير: إحكام الشيء ووضعه بمقدار معين، فهو ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ الذي أحاط علمه بكل

(١) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» برقم (٨٧٩) و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦١) والحاكم (٢/ ٥٤٣) وقد رُوي مرفوعًا جوابًا على سؤال من اليهود.

شيء، ما غاب منه وما شوهد.

وجاء في الحديث: إن الله تعالى خلق التربة في يوم السبت، كما صح ذلك في الحديث عن أبي هريرة ﷺ قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: **«خلق الله ﷻ التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الإثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم ﷺ بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل»**(١).

ويؤخذ من هذا أن ابتداء الخلق كان يوم السبت، وأن يوم الجمعة خارج عن الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض؛ لأن آدم غير السموات والأرض، وكان خلْقه في يوم الجمعة، فأيام الخلق على هذا سبعة، وخَلْقُ السموات والأرض كان في ستة أيام كما نص على ذلك القرآن الكريم(٢).

---

(١) هذا الحديث أخرجه مسلم برقم (٢٧٨٩) وهو عند النسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٠١٠) وفي ط الرسالة (١٠٩٤٣، ١١٣٢٨) ورواه أحمد عن أبي هريرة برقم (٨٣٤١) وابن مردويه، وأبي يعلى (٦١٣٢) والبيهقي في الأسماء والصفات ص(٣٨٣)، وابن أبي حاتم، وأخرجه ابن حبَّان برقم (٦١٦١) والحديث سنده صحيح، وممن صحَّحه ابن الأنباري وابن الجوزي والشوكاني في «فتح القدير».

وقد تكلم فيه بعض العلماء من جهة متنه، منهم الإمام ابن كثير وابن المديني والبخاري وابن تيمية والبيهقي، ورأوا أنه معارض للقرآن، وقال بعضهم: إنه من كلام كعب الأحبار.

(٢) وصحَّحه بعضهم متنًا وسندًا، وقالوا: لا تعارض بينه وبين نص القرآن على الوجه الذي ذكرنا أعلاه، يُنظَر: تحقيق ذلك في حاشية «زاد المسير»: (٧/ ٢٤٣).

وقال محققو المسند (١٤/ ٨٢): الأصح أن هذا الحديث موقوف على كعب الأحبار، وليس من قول النبي ﷺ. قالوا وقد ثبت بالتواتر أن الله خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وثبت أن آخر الخلق كان يوم الجمعة، فلزم أن يكون أول الخلق يوم الأحد، وهكذا عند أهل الكتاب... ولو كان أول الخلق يوم السبت، وآخره يوم الجمعة، لكان قد خلق في الأيام السبعة، وهو خلاف ما أخبر به القرآن.

وقال المناوي في فيض القدير (٣/ ٤٤٨): قال بعضهم: هذا الحديث في متنه غرابة شديدة، فمن ذلك أنه ليس فيه ذكر خلق السموات، وفيه ذكر خلق الأرض وما فيها في سبعة أيام، وهذا خلاف القرآن، لأن الأربعة خُلقت في أربعة أيام، ثم خُلقت السموات في يومين، وقال ابن كثير: هذا الحديث من غرائب (صحيح مسلم) وقد تكلم عليه ابن المديني والبخاري وغير واحد من الحفاظ، وجعلوه من كلام كعب. وأن أبا هريرة ﷺ إنما سمعه من كلام كعب الأحبار، والخلاصة: أن الحديث موقوف على كعب الأحبار.

إِنْذَارُ الْمُعْرِضِينَ عَنْ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ وَالْوَحْيِ الْمُنَزَّلِ

١٣، ١٤- ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ[١] ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾

وبعد قيام الأدلة السابقة على أن الله تعالى متفرد بالألوهية -لأنه متفرد بإيجاد العوالم كلها- فإن هذا يقتضي توحيد الله تعالى وتصديق الرسول ﷺ، والإيمان بأن القرآن منزَّل من عند الله سبحانه، فوجب على المكذِّبين والمشركين في كل زمان ومكان أن يُقلعوا عن إعراضهم السابق ذِكْرُه في قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ وأن يفتحوا قلوبهم وعقولهم لهذا القرآن بدل قولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ مع أن الله تعالى خلق لهم هذه الجوارح لينتفعوا بها، لا ليستعملوها في معاصي الله تعالى والإعراض عن آياته، فهم كاذبون في دعواهم: أن قلوبهم مقفلة، وفي آذانهم صمم.

فإن استمروا على إعراضهم عن التدبر والتفكُّر في هذه المخلوقات، بعدما هديْتهم بالدلائل البيِّنة في تفصيل خلق السموات والأرض، وما فيهما وما بينهما، إن استمروا في تكذيبهم للقرآن ورسول الإسلام، وأعرضوا عن طاعة الله ورسوله فقل لهم: قد أنذرتكم عذابًا يستأصلكم، أنذرتكم صاعقة، وهي نار تخرج مع البرق تحرق ما تصيبه، فتهلككم كما أهلكت قوم عاد وثمود، وخصَّ القرآن ذِكْر عاد وثمود؛ لأن العرب كانوا يعرفونهم.

أما قوم عاد فقد كانوا بالأحقاف في جنوب الجزيرة العربية، ونبيهم هود عليه السلام.

وكان قوم ثمود في مدائن صالح بشمال الجزيرة العربية، وآثارهم معروفة باقية، يمرون عليها في أسفارهم، ونبيهم صالح عليه السلام.

وذكرتُ فيما سبق أن عُتْبة بن ربيعة كلَّم النبي ﷺ فيما جاءه به من اختلاف قومه في شأنه، فتلا عليه النبي ﷺ سورة فُصِّلَتْ حتى بلغ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ فأمسك عتبة على فم النبي ﷺ، وقال له: ناشدتك الله

---

(١) قوله تعالى (عاد وثمو) عدها آية الكوفي والحجازي، أي: المدني الأول والأخير والمكي، وأسقطها غيرهم من العدد.

والرحم. لقد أخذه جلال الموقف، ورهبة النذير، فلم يستطع مواصلة الاستماع.

وكان هذا العذاب الذي أصاب قبيلتي عاد وثمود، حين جاءتهم رسل الله هود وصالح عليهما السلام وغيرهما، يتْبع بعضهم بعضًا متوالين، ودعوتهم جميعًا واحدة حيث بلَّغَتْهم تعاليم الرسل السابقين، ورأوا بأعينهم الرسل المتأخرين، فكأن الرسل جميعًا قد خاطبوهم، وقالوا لهم: لا تعبدوا إلا الله، ولا تشركوا به شيئًا، فردّوا رسالتهم وكذّبوهم، وهؤلاء الرسل لم يتركوا وسيلة من الوسائل إلا دعوْهم بها إلى الله تعالى، فجاؤوهم من أمامهم ومن خلفهم، ومن كل جهة - شأن الحريص على الأخذ بيد صاحبه إلى طريق النجاة - يدعونهم إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: أن الرسل اجتهدوا في هدايتهم، واستعملوا مع المكذبين كل حيلة، وجاؤوهم من كل جهة، وبيّنوا لهم الطريق إلى الله تعالى بأساليب متعددة، وأدلة واضحة، وأنذروهم بعذاب الدنيا والآخرة، وأمروهم بما أمرتْ به الرسل أممها، فكأن الرسل جميعًا قد جاؤوهم؛ لأن دعوتهم واحدة.

فكان جواب قوم عاد وثمود لأنبيائهم أن قالوا لهم: ما أنتم إلا بشر مثلنا، ولو أراد الله أن يرسل إلينا رسلًا لأنزل ملائكة، فهم يزعمون أن الرسل لا تكون من البشر ﴿قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا﴾ أن نوحده ولا نعبد غيره ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ من السماء، وأرسلهم إلينا يدعوننا إلى ذلك، ولم يرسلكم، فأنتم بشر مثلنا ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ جاحدون لرسالتكم وما تدعوننا إليه، وليس من شرط الرسالة أن يكون الرسول مَلَكًا، وإنما شرط الرسالة أن يأتي الرسول بما يدل على صدقه، وأن يكون بلسان قومه، وأن يكون صالحًا للتلقى عنه، وفي استطاعتهم مخاطبته ورؤيته.

عَاقِبَةُ الطُّغْيَانِ وَالتَّفَرُّدِ بِالقُوَّةِ فِي كُلِّ زَمَانٍ (قَومُ عَادٍ وَقَومُ ثَمُودَ)

١٥ - ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾

فصَّل ﷻ ما حل بعاد وثمود من العقوبة، فوصف أوَّلًا حال قوم عاد بثلاثة **أوصاف**:

الوصف الأول: التكبر على الناس، وقد جاء هذا في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: أن الذي منعهم من قبول الهدى هو استكبارهم وتعاظمهم، واحتقار الناس، وجحودهم بآيات الله، وكفرهم برسله، وقد صرفهم هذا التكبُّر عن الإيمان بالله تعالى، واتباع الرسول ﷺ وعن توقع عقاب الله تعالى لهم.

ومهما أوتي الإنسان من مغريات الحياة، كالمال والجاه، والعلم والسلطان والقوة، فإنه لا يخلو من جوانب النقص والضعف، فلا يوصف بالكبر، إذ الكِبْرُ من خصائص الله تعالى، وهؤلاء قد استعْلُوا على العباد بغير حق فاستحقوا عقاب الله تعالى.

الوصف الثاني: أنهم اغتروا بقوتهم ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ وكانوا ذوي أجسام طوال، وقوة شديدة، ففُتِنوا بأجسامهم وأعجبتهم قوتهم حين هددهم (هود) بعذاب الله، وزعموا أنهم قادرون على دفع ما ينزل بهم من عذاب، وكان اغترارهم بقوتهم باعثًا لهم على الكفر بالله تعالى، والتمرد على خلق الله سبحانه، وبلغ الأمر بهم أنهم قالوا: نحن نستطيع أن ندفع العذاب عن أنفسنا بفضل قوتنا.

قال أبو السعود: كانوا ذوي أجسام طوال، وخلْقٍ عظيمٍ، وبلغ من قوتهم أن الرجل منهم ينزع الصخرة ويقتلعها بيده من الجبل[1].

قال تعالى مجيبًا لهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ إنه قادر على أن ينزل بهم ما شاء من أنواع العقاب، فقدرة الله تعالى لا يستعصي عليها شيء، أي: أغَفِلُوا عن قدرة الله تعالى ولم يعلموا أن الله الذي خلقهم وخلق جميع الكائنات هو أعظم منهم قدرة وقوة؟! فلولا خلق الله لهم لم يوجدوا، ولم يغتروا بقوتهم.

الوصف الثالث: أن قوم عاد جحدوا آيات الله تعالى وحججه فأنكروها ولم يؤمنوا بها ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ فكذبوا أدلة التوحيد في دعوى الرسل، ولم يؤمنوا بها، وكذبوا معجزات الرسل فلم يؤمنوا بها، وأصروا على العناد والكفر.

وهذه الأوصاف الثلاثة يتصف بها أمثال قوم عاد في كل زمان ومكان، ممن اغتروا بقوتهم وتفردوا بالهيمنة والطغيان في الأرض، واستعملوا (حق الفيتوا) في كل ما لا

(١) «تفسير أبي السعود» (٥/ ٢١).

يريدوه، ولم يسمحوا لغيرهم أن تكون لهم قوة تضارع قوتهم، والأيام دول ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢] قال تعالى في وصف عذاب قوم عاد:

١٦- ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ[(١)] لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾

أي: فماذا كانت عقوبة قوم عاد؟ لقد كان الباعث على كفرهم هو اغترارهم بقوتهم، فأهلكهم الله بشيء يسير من جند الله تعالى لا يؤبه به، ولا يتوقع الناس أن يحصل الهلاك به، وهو الريح شديدة الصوت، أو شديدة البرد، تحرق الزرع والشجر كما تحرقها النار، ليعلم الناس أن الله تعالى شديد القوة، وأنه يضع القوة في الشيء الهيِّن، كالريح، ليكون عذابًا وخزيًا، تحقيرًا لهم، وأيُّ خزي أشدُّ من أن تحملهم الريح فتقذف بهم هنا وهناك، كالريشة في مهب الريح؟! وأي خزي أشد من أن تُلقيهم الريح هلكى جُثثًا هامدة على التراب عن بكرة أبيهم، فيشاهدهم المارة صرعى، قد تقلَّصتْ جلودهم، وبليتْ أجسامهم كأعجاز النخل الخاوية؟

والريح التي أصابت قوم عاد هي الريح الدبور، التي تَهُبُّ من جهة مغرب الشمس، وسميت دَبورًا لأنها تهبُّ من جهة دُبر الكعبة، كما قال ﷺ في حديث ابن عباس ﷺ: **«نصرت بالصَّبَا، وأُهلِكت عاد بالدبور»**[(٢)].

والصبا: ريح تهب من مشرق الشمس إذا استوى الليل والنهار.

وكانت هذه الريح شديدة الهبوب بسبب قوة انضغاطها بطريقة غير معتادة في الهواء، فإن هذا الانضغاط يجعل الضعيف قويًا، قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي: ريحًا عاصفة لها دويٌّ في هبوبها من شدة سرعة تنقلها، وهي قوية شديدة لها صوت

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بإسكان الحاء من (نحْسات) للتخفيف، والباقون بالكسر على الأصل؛ لأنه صفة لأيام.

(٢) البخاري (١٠٣٥، ٤١٠٥) ومسلم (٩٠٠)، و «المسند» (٢٠١٣، ٣٣٣٨) والنسائي في الكبرى (١١٦١٧)، والطيالسي (٢٦٤١) وعبد بن حميد (٦٣٧) وابن حبان (٦٤٢١) والطبراني (١١٠٤٤).

كالرعد القاصف وقد أصابهم هذا العذاب ﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ أي: أيام سوء وشؤم، وبؤس شديد أصابهم مدة ثمانية أيام، كما قال تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧].

وقد كان هذا النحس خاصًا بهم في هذه الأيام الثمانية من بَين أبناء البشر.

وذكَر بعضهم: أن هذه الأيام كانت في شهر شوال، وكان أولها يوم الأربعاء وآخرها يوم الأربعاء، وكان هذا العقاب ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: عذاب الذل والهوان بسبب استكبارهم عن الإيمان، فقابل الله ذلك الاستكبار بإيصال الذل والهوان إليهم، وقد كانت هذه الريح العاتية شديدة البرودة، وشديدة الصوت والهبوب، تهلك الناس بشدة برْدها وصوتها بسبب إصرارهم على الكفر ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ [الحاقة].

قال تعالى في وصف هذه الريح: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٢٥﴾ [الأحقاف].

هذا عذاب الدنيا، أما عذاب الآخرة فإنه أشد وأنكى ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ ذهولًا وهوانًا ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ بمنع العذاب عنهم.

وقوم عاد موجودون في كل زمان، تمثلهم بعض دول الكفر في كل عصر ومصر بصلفها وقوتها وجبروتها وتفرُّدها بالكلمة!! ثم قال تعالى في وصف عذاب قوم ثمود:

١٧، ١٨- ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٧ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝١٨﴾

أي: وأما قبيلة قوم ثمود الذين سكنوا الحِجْر وما حوله، وقد أرسل الله إليهم نبيه صالحًا عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله تعالى وينهاهم عن الشرك، وقد أيده الله بالناقة، آية حسية عظيمة، خصها الله بالذكر لأنها كانت آية مبصرة باهرة، رآها صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، فكانت هذه الآية جديرة بأن تأخذ بأيديهم إلى الهدى، ولكنهم استحبوا العمى وهو الكفر والضلال على الهدى وهو العلم والإيمان، فقد بيَّن الله تعالى لهم طريق

الرشد وسبيل الحق، قال تعالى: ﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ هداية إرشاد ودلالة، أي أرسلنا إليهم نبيهم صالحًا، وأيدناه بمعجزة الناقة التي أخرجها الله لهم من الصخرة، وأقمنا لهم الأدلة على وحدانيته تعالى، من مخلوقاته العظيمة، فاختاروا طريق الضلال على طريق الهدى، واختاروا طريق العمى على الرشاد، وهذا معنى ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: اختاروا الكفر على الإيمان، واختاروا المعصية على الطاعة، وآثروا الغيَّ على الرشد، فكان عقاب الله لهم، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

والصاعقة: هي الصيحة التي تنشأ في كهربائية السحاب الحامل للماء، فتنقدح منها نار تهلك ما تصيبه، أخذتهم هذه الصاعقة بسبب البقاء على الكفر والضلال، وإعراضهم عن دعوة رسولهم وعن أدلة آياته.

وعذاب الهون: هو عذاب الذل والهوان، ولم يظلمهم الله شيئًا، ولكنهم اكتسبوا ذلك بأعمالهم.

وقد نجَّى الله المؤمنين من قومي عاد وثمود، وكان هؤلاء المؤمنون الناجون من عذاب الله تعالى يخافون الله ويتقونه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾ [هود].

وقال عن قوم هود: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾ [هود].

شَهَادَةُ الْجَوَارِحِ وَالأَعْضَاءِ عَلَى الْكَافِرِ فِي أَرْضِ الْمَحْشَرِ

ولما فرغ سبحانه من إنذار المكذبين أن يحلَّ بهم عذاب الله في الدنيا -كما حل بأمثالهم- أنذرهم بعد ذلك بما يحل بهم من عذاب الآخرة، فقال:

١٩- ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ[١] أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾﴾

أي: واذكر -يا محمد- يوم يجمع أعداء الله، ممن أشرك به وكذَّب رسله، وعاداهم وحاربهم، وكل من كذب رسل الله واستكبر عن عبادة الله فهو عدو لله، وأعداء الله

---

(١) قرأ نافع ويعقوب بنون العظمة في (يحشر) مع فتحها وضم الشين على البناء للفاعل و(أعداءَ) بالنصب مفعولًا به، وقرأ الباقون بياء الغيبة المضمومة وضم الشين على البناء للمفعول، و(أعداءُ) بالرفع نائب فاعل.

يجتمعون في أرض المحشر، فيساقون إلى النار، وتَردُّ زبانية جهنم أولهم على آخرهم حتى يتلاحقوا ويجتمعوا؛ وذلك لأن الحشر يستلزم كثرة عدد المحشورين، وكثرة العدد تستلزم الاختلاط، وتداخُل بعضهم في بعض، فيحدُث الوزَع، وهو تصنيفهم وردُّ بعضهم عن بعض، حيث تكف الملائكة بعضهم عن بعض لتمنع الفوضى.

٢٠- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾

هذا وصف لما يحصل بعد حشر الكفار إلى النار، وبعد حضورهم عندها، إنهم يحاسبون على أعمالهم وأقوالهم فينكرونها، وحينئذ تشهد عليهم جوارحهم وأجسادهم بما كتمته الألسن من الشهادة على إشراكهم بالله تعالى وارتكاب كبائر الذنوب، وهي شهادة تكذيب وفضيحة.

وذلك أنهم لما رأوا النار اعتذرُوا، فأنكروا بعض ذنوبهم طمعًا في تخفيف العذاب عنهم، وحينئذ تشهد عليهم جوارحهم بما كانوا يصنعون، فيكون في هذا خزي وندامة لهم، وسوء اعتقاد في أن الله تعالى يعلم سرهم ونجواهم، كما تشهد عليهم الحفظة، ويقرؤون كتابهم بأنفسهم.

وتخصيص السمع والأبصار والجلود بالشهادة دون بقية الجوارح:

(أ) لأن السمع يختص بسماع القرآن، وتلقي دعوة الإسلام، فيشهد عليهم سمعهم بأنهم كانوا يصرفونه عن سماع الحق، كما قالوا: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾.

(ب) أما البصر فإنه يختص بمشاهدة أدلة وحدانية الله تعالى في الكون، فعمي عن ذلك.

(ج) أما الجلد فلأنه غلاف للجسد كله، فشهادته على نفسه ليظهَر استحقاقه للحرق بالنار، دون الاقتصار على السمع والبصر، حيث يختم على فيه، ثم يقال لجوارحه: انطقي، فتنطق بأعماله، ثم يُخلَّى بينه وبين الكلام، فيقول: **«بُعدًا لكُنَّ وسحقًا، فعنكن كنت أناضل»** كما سيأتي في الحديث.

وقريب من هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور] وفيها شهادة اللسان واليدين والرجلين؛ لأنها في مقام الشهادة على رَمْي

المحصنات، فاللسان قد تكلم، واليد قد أشارت وامتدت، والرِّجل قد مشت إلى تجمعات الناس، وإلى ارتكاب المعاصي.

والإنسان يستنكر شهادة الجوارح؛ لأنه لم يألف منها النطق في الدنيا.

ثم إن الكفار يلومون جوارحهم، ويوبِّخونها، ويتعجبون منها على هذه الشهادة:

٢١- ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾

أي: إن أعداء الله الذين يُحشرون إلى النار، يعاتِبون جلودهم على شهادتها عليهم، فيسألونها: لِمَ شهدتم علينا ونحن نجادل وندافع عنكم؟ وخَصَّ الجلود بالذكر لأنها تكون في مواجهتهم فيخاطبونها، وهذا يشمل جلد اليدين والرجلين، والبدن كله، وهم يظنون أن جلودهم لا يحق لها الشهادة عليهم؛ لأنها جزء منهم، وهذه الشهادة تجُرُّ لها العذاب، ولا يتصورون أن هذه الجلود تنطق وتشهد عليهم، ولذا فإنهم يعترضون على شهادتها، فتعتذر الجلود بأن الشهادة قد خرجت منها بغير اختيار، وتقول: أنطقنا الله الذي أنطق الحيوان والجماد ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ فهو جلَّ شأنه لا يعجزه شيء، وكما أنطق الله اللسان في الدنيا، أنطق الجوارح في الآخرة، فليس في إمكاننا الامتناع عن الشهادة حين أنطقنا الله.

وهو الذي أوجدكم من العدم ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وإليه مصيركم بعد الموت للحساب والجزاء ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيحاسبكم على أعمالكم، ويحكم فيكم بحكمه العادل، فلا عجب من شهادته عليكم.

عن أنس بن مالك ﷺ قال: ضحك رسول الله ﷺ ذات يوم وتبسم، فقال: «**ألا تسألوني عن أي شيء ضحكت**»؟ قالوا: يا رسول الله، من أي شيء ضحكت؟ قال: «**عجبتُ من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: أيْ ربي، أليس وعدتني ألا تظلمني؟ قال: بلى، فيقول: فإني لا أقبل عليَّ شاهدًا إلا من نفسي، فيقول الله تبارك وتعالى: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا وبالكرام الكاتبين شهودًا، قال: فيردِّد هذا الكلام مرارًا، ويُختم**

على فيه، وتتكلم أركانه بما كان يعمل، فيقول: بُعْدًا لكُنَّ وسُحْقًا، فعنكنَّ كنت أجادل»[١]. قال تعالى:

٢٢- ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

يحتمل أن يكون هذا من كلام الله تعالى، أو من كلام الجلود، أو من كلام مَلَكٍ من الملائكة بإذن الله تعالى.

ومما ورد في معنى الآية أن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: اجتمع عند البيت ثَقَفِيَّانِ وقُرشي، أو قُرشيَّان وثَقَفيٌّ، كثير شحم بُطونهم، قليل فقه قلوبهم، فقال أحدهم: أترون أن الله تعالى يسمع ما نقول؟ قال الآخر: يسمع إذا جهرْنا، ولا يسمع إن أخفينا، وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا، فإنه يسمع إذا أخفينا؛ فأنزل الله الآية»[٢].

والثقفيُّ هو عبْد ياليل وختَنَاهُ، والقُرشيَّان ربيعة وصفوان ابنا أمية.

ويبدو أن النبيَّ ﷺ تمثل قراءة هذه الآية، عندما أخبره ابن مسعود بكلام الثقفي والقرشيين؛ لأنها تُؤوِّل قول ابن مسعود، وقد كان هؤلاء النفر مشركين يومئذ، وقد مات على الكفر منهم ربيعة بن أمية؛ وذلك لأن الحديث السابق ليس سببًا لنزول الآية، وإنما هو متفق مع معناها[٣].

أخرج الحاكم بسنده عن حكيم بن معاوية عن أبيه معاوية بن حيدة قال: قال رسول الله ﷺ: **«تُحشرون ها هنا -وأوْمأ بيده إلى الشام- مُشاة وركبانا وعلى وجوهكم، وتُعرضون على الله، وعلى أفواهكم الفدام، وإن أول من يُعْرِبُ عن أحدكم فخذُه وكفه»**، وتلا

---

(١) في «صحيح مسلم» برقم (٢٩٦٩) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٦٥٣) ورواه ابن أبي الدنيا في «التوبة» برقم (١٨) من طريق مهران بن أبي عمر عن سفيان الثوري بنحوه.

(٢) البخاري (٤٨١٦، ٤٨١٧) ومسلم (٢٧٧٥) والترمذي (٣٢٤٨) و«المسند» (٤٢٣٨) و«سنن النسائي الكبرى» (١١٤٠٤).

(٣) يُنظَر كلام ابن عطية وتعقيب ابن عاشور عليه في: «تفسير التحرير والتنوير» (١١/ ٢٧).

رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾[1].

ومعنى **الفدام**: أنهم يُمنَعون من الكلام بأفواههم حتى تتكلم جوارحهم، **والفدام** في الأصل: خرقة توضع على فم الإبريق لتصفية الشراب الذي فيه، فهم مكممون ممنوعون من النطق.

ومعنى الآية: وما كنتم -أيها الكافرون- تستخْفُون في الدنيا عن شهادة أعضائكم عليكم وتتحرزون منهم عند ارتكابكم المعاصي فتتركون فعلها، خوفًا من أن يشهد عليكم سمعكم وأبصاركم وجلودكم يوم القيامة.

ويصح أن يكون المعنى: وما كنتم تمتنعون ولا يمكنكم أن تمتنعوا من الاستتار عن جوارحكم عند ارتكابكم المعاصي، ولكن تجرأتم وظننتم بارتكابكم المعاصي أن الله لا يعلم كثيرًا من أعمالكم التي تعصونه بها، وهو سبحانه عليم بأعمالكم ونياتكم، لا يخفى عليه شيء منها، إن جهرتم أو أسررتم.

ولم تكونوا تظنون أن جوارحكم ستشهد عليكم، وقد ظننتم أن الله تعالى لا يعلم كثيرًا من القبائح المخفية فاجْتَرأْتُمْ عليها، وما أوْقعكم في هذا العذاب إلا سوء ظنكم بربكم ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: ظننتم أنه يعلم ما ظهر دون ما خفي، وقد حملكم على هذا الظن جهلكم بجلال الله وصفاته، وكُفركم باليوم الآخر، وما فيه من حساب وجزاء، واستبعادكم أن تشهد عليكم جوارحكم.

وفي الآية تنبيه للمؤمنين أن يعلموا أن الله تعالى لا تخفى عليه خافية، ولا يغيب عليه شيء من أقوالهم وأفعالهم، فهو سبحانه يعلم السر وأخفى. قال تعالى:

٢٣- ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

بيَّن ﷻ في هذه الآية سوء عاقبة الجاحدين المكذبين لله والرسول، وأن الذي أوْردهُم المهالك، وتسبَّب في دخولهم النار، هو ظنهم السيئ بربهم، وزعمهم أنه سبحانه لا يعلم

---

(١) صححه الحاكم ووافقه الذهبي (٢/ ٤٣٩) وبنحوه أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح (٢٤٢٤) وصححه الألباني في «فضائل الشام» برقم (١٣) وأخرجه أحمد (٢٠٠٥٠، ٢٠٠١١) وعبد الرزاق (٢/ ١٨٥) و«سنن النسائي الكبرى» (١١٤٣١) وحسَّنه محققو المسند.

أعمالهم الخفية فلَمْ يحذروه، وجرَّأهم ذلك على ارتكاب المعاصي، وهذا الظن الفاسد أوْقعهم في كثير من الضلال، فظنوا أن الرسول ﷺ لا يكون بشرًا، وأنكروا البعث والنشور، وأثبتوا الشركاء لله تعالى، وسارعوا في ارتكاب المعاصي، وقطعُوا النظر عما وراء الحياة الدنيا، واستمرؤوا المعاصي، وأمِنوا العقوبة، وهذا الظن هو الذي أوْقعهُم في المهالك، فحققت عليهم كلمة العذاب ووجب عليهم الخلود الدائم في جهنم، وقد ذكر الله تعالى مثل ذلك في المنافقين، فقال: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

فعلى المؤمنين أن يحذروا الوقوع في مثل هذه الأوهام، وقد جاء في الحديث: عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**»[١].

وهو الظن الذي لا دليل عليه، وقد كان هذا الظن سبب شقائهم وخسرانهم، حيث خسروا أنفسهم وأهليهم.

عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يموتَنَّ أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله، فإن قومًا قد أرداهم سوء ظنهم بالله**»، فقال الله ﷻ: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[٢].

ومعنى حسن الظن بالله: أن يظن العبد أن الله يرحمه ويعفو عنه. قال تعالى:

٢٤- ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾

لقد زجَّ الظن السيئ بهؤلاء المشركين في النار، فإن صَبرُوا أو لم يصبروا على حرِّها ولهيبها فهم باقون فيها وليسوا بخارجين منها، وإن اعْتذروا لم ينفعهم هذا العذر، ولم تُقبل منهم توبة ولا رجعة إلى الدنيا، فلا يسعهم إلا الصبر؛ لأن النار مثوى لهم، فقال تعالى: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟﴾ على العذاب أو لم يصبروا عليه ﴿فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ هي دارهم

(١) البخاري (٥١٤٣، ٦٧٢٤) ومسلم (٢٥٦٣).

(٢) مسلم (٢٨٧٧) و«المسند» (٢٢/٢٨) (١٤١٢٥) إلى شطره الأول، وهو حديث صحيح بإسناد قوي على شرط مسلم، ورجال ثقات (محققوه) والطيالسي (١٨٨٨) وعبد بن حميد (١٠١٣، ١٠٣٩) وأبو داود (٣١١٣) وابن ماجه (٤١٦٧) وابن حبَّان (٦٣٧، ٦٣٨).

ومأواهم، وكيف يكون الصبر على نار قد اشتد حرها حتى زادت على نار الدنيا بسبعين ضعفًا، مع ما فيها من شدة غليان وصديد وزمهرير ومقامع وسلاسل وأغلال، وخزنتها الغلاظ الشداد؟

قال تعالى ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ﴾ أي: يطلبوا الرجوع والعودة إلى الدنيا ليستأنفوا العمل الصالح ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ أي: لا يجابون إلى ذلك، ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ الأنعام: ٢٨] وإن طلبوا الرضى عنهم فإنه لا يقع، ولا يُقبل منهم عذر ولا ندم ولا توبة، بل لا بدَّ لهم من النار.

سَبَبُ ضَلَالِ مَنَ ضَلَّ

ثم وصف ﷻ حال أعداء الله وهم في الدنيا حين أغرتهم الشياطين بالمعاصي فتهاونوا بحقوق الله، وأعرضوا عن دعوته، فحقَّت عليهم كلمة الله بالعذاب، فقال تعالى:

٢٥- ﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

بيَّن ﷻ في هذه الآية سبب ضلال أعداء الله من أهل النار، الذين شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم، وهو أن قُرناءهم الملازمين لهم في الضلالة، من شياطين الإنس والجن، حسَّنُوا لهم أعمالهم القبيحة في الماضي والمستقبل ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ أي: هيأنا وبعثنا لهم قرناء كانوا بمثابة الأصدقاء الملازمين للإنسان لا يفارقونه، فتسلطوا عليهم حتى أضلوهم وحملوهم على ارتكاب المعاصي.

والقَيْضُ في الأصل: هو قشر البيض، **والتقييض**: التيسير والتهيئة، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف].

وهؤلاء القرناء دعوهم إلى الملذات والشهوات المحرمة، فزيَّنوا لهم ما بين أيديهم، أي: ما في الدنيا من الشرك والكفر وسائر المعاصي، كالقتل والزنى والربا، وأكل المال بالباطل، والْمَيْسر، وظلم الناس، وآفات اللسان، وما إلى ذلك.

وزيَّنوا لهم ما خلفهم، أي: ما هو أمامهم من أمور الآخرة، فأنسوهم ذكرها، ودعوهم

إلى التكذيب بالمعاد، فكذَّبوا بالبعث والحساب والجزاء، والجنة والنار، قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم] أي تدفعهم إلى المعاصي وتحملهم عليها، فيستجيبون لهم ويتبعون خطواتهم، وهذا التسليط والتقييض بسبب إعراضهم عن ذكر الله وآياته، قال تعالى ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف] وبذلك وجب عليهم دخول النار، أي: وجب عليهم العذاب في جملة أمم سابقة من كَفرة الإنس والجن.

والقول الذي حق عليهم: هو وعيد الله لهم بالنار على كفرهم وتكذيبهم.

كما قال تعالى: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الصافات].

وقال سبحانه: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾ [الزمر].

وقال جلَّ شأنه: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص].

وقال أيضًا: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: ٣٨].

وهؤلاء الأشقياء المجرمون باتباعهم لشياطين الإنس والجن قد خسروا الدنيا والآخرة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ بسبب تكذيبهم وسوء أفعالهم، ولم يربحوا شيئًا.

ومن خسر، لا بد له أن يعذب ويشقى.

تَلْقِينُ الكُفَّارِ نُظَرَاءَهُمْ أَسَالِيبَ الإِعْرَاضِ عَنِ الدَّعْوَةِ

إن أعداء الله في كل زمان ومكان يرفضون القرآن، ويكرهون سماعه، ويحاولون التشويش عليه؛ حتى لا يصل إلى قلوب العباد:

٢٦- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾

وبعد أن بيَّن القرآن إعراض أعداء الله في أنفسهم عن الدعوة الإسلامية، انتقل إلى وصف تلقينهم الناس أساليب الإعراض:

قال ابن عباس ﷺ: كان النبيُّ ﷺ وهو بمكة إذا قرأ القرآن يرفع صوته، فكان أبو جهل وغيره يطردون الناس عنه، ويقولون لهم: لا تسمعوا له والْغوا فيه، فكانوا يأتون بالمكاء، والصفير،

والصياح، وإنشاد الشعر، والأراجيز، وما يحضرهم من الأقوال التي يصخبون بها.

قال أبو جهل: إذا قرأ محمد القرآن فصيحوا في وجهه؛ حتى لا يدري ما يقول[1].

ورد أنهم قالوا لما استمعوا إلى قراءة أبي بكر ﷺ، وكان رقيق القراءة: إنا نخاف أن يَفتن أبناءنا ونساءنا.

والكفار القائلون هذا هم الذين قالوا ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ وهم أئمة الكفر والطغيان.

وكان سبب تحريضهم على الصياح أثناء قراءة القرآن، والتشويش على القارئ، والتخليط عليه بالتصفيق، ولغو الكلام، ورفع الصوت، أنهم علموا أن القرآن أكمل الكلام، وأفصح الألفاظ، وأشرف المعاني، وأبلغ التراكيب، وأيقنوا أن من يستمع إليه يقع في قلبه ويؤثر فيه، فدبَّروا هذه الحيل لمنع الناس من الاستماع إليه، خشية أن ترقَّ قلوبهم له فيؤمنوا به، وهذا شأن أهل الضلال والباطل أن يُكمِّمُوا أفواه الناس لصرْفهم عن الحق.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي: قال الكفار بعضهم يوصي بعضًا: لا تسمعوا لهذا القرآن ولا تطيعوه ولا تنقادوا لأمره، وأعرضوا عنه بأسماعكم، ولا تلتفتوا إليه، فإن اتفق أنكم استمعتم إليه فشوِّشوا عليه، ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ أي: ارْفعوا أصواتكم بالصياح والتصفيق والصفير والتخليط على محمد ﷺ إذا قرأ القرآن؛ حتى يصير لغوًا غير مفهوم ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ قرآنه فيتركه، وتنتصرون عليه فيسكت ويكف عنه، وكلامهم هذا دليل واضح على خوفهم من تأثير القرآن في القلوب؛ حتى لا يُسْلِموا كغيرهم، وهذا يدل على عجزهم عن معارضة القرآن، ولذا: فقد لجؤوا إلى هذه الطريقة لصرف الناس عن سماعه، وأنهم إذا استمعوا إليه فإنهم لا يغلبون.

الوَعِيدُ الشَّدِيدُ بِعَذَابِ الكَافِرِينَ

ويوم الحساب يندم الكفار على لغوهم في القرآن:

٢٧- ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

بيَّن سبحانه في هذه الآية عقاب المستهزئين بالقرآن، المعرضين عنه، الصارفين غيرهم عن

(١) «تفسير القرطبي» (١٥/ ٣٥).

سماعه وهو وعيد لجميع الكفار، أي: واللهِ لنعذبنهم عذابًا شديدًا، يهينُهم ويذلهم في الدنيا والآخرة، ولنجزينهم جزاءً مماثلًا على أسوأ ما كانوا يعملون من الكفر والمعاصي، قال تعالى:

٢٨- ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ[1] أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِۖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٢٨﴾

أي: إن هذا العذاب الشديد الذي يذيقه الله للكافرين، هو جزاء عادل لأعداء الله على أقبح أعمالهم التي عملوها في الدنيا وهو الشرك بالله تعالى، ومحاربة الله ورسوله بالكفر والتكذيب والمجادلة يَلْقونه في نار جهنم التي أعدها الله لهم، يُخلَّدون فيها ولا يخرجون منها ولا يفتّر عنهم من عذابها، جزاءً لكفرهم بالقرآن واستهزائهم به، فهم يُجزون على مساوئ أعمالهم ولا يُجزون على محاسنها كصلة الرحم وإكرام الضيف، فأي عمل صالح منهم فهو باطل لا أجر عليه مع الكفر.

وهذا الجزاء الذي أعده الله لأعدائه في الآخرة، هو النار ﴿لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِۖ﴾ أي: دار الإقامة والخلود الدائم، جزاءً بما كانوا ينكرون حججنا وأدلَّتنا الواضحة على وحدانيتنا، فأعظم الظلم وأكبر العناد جحدها والكفر بها.

(وفي الآيات دليل على عظيم جُرم من صرف الناس عن القرآن العظيم بأي وسيلة كانت، وصدَّهم عن تدْبيره وهدايته بأيِّ أسلوب، وسَمَّى لغوهم بالقرآن جحودًا؛ لأنهم لَمَّا علموا أن القرآن بالغ إلى حد الإعجاز خافوا إن سمعه الناس أن يؤمنوا به، فاخترعوا تلك الطريقة الفاسدة، وذلك يدل على أنهم علموا كونه معجزًا إلا أنهم جحدوه حسدًا[2]).

أَهْلُ النَّارِ يَطْلُبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الِانْتِقَامَ مِمَّنْ أَضَلُّوهُمْ

٢٩- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا[3] ٱلَّذَيۡنِ[4] أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بإبدال الهمزة الثانية واوًا، والباقون بتحقيقها.

(٢) «التفسير الكبير» (٢٧/ ١٢٠).

(٣) قرأ ابن كثير وابن ذكوان وشعبة ويعقوب بإسكان الراء من (أرْنا) وأبو عمرو بالإسكان والاختلاس، وهشام بالإسكان والكسر، والباقون بالكسر.

(٤) قرأ ابن كثير بتشديد النون من (الذين) مع القصر والتوسط والمد في الياء وصلًا ووقفًا، والباقون بالتخفيف مع القصر وصلًا، ومع الأوجه الثلاثة وقفًا، والمراد بالقصر وصلًا هنا: إسقاط حرف المد بالكلية، أما في الوقف فيراد به: المد بمقدار حركتين.

لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

أي: أن الكفار -وهم يتقلَّبون في النار- يطلبون أن يروْا بأعينهم الأتباع الذين تسبَّبُوا في ضلالهم في الدنيا وقادوهم إلى الضلال من الجن والإنس، وهم الشياطين الذين كانوا يسوِّلون لهم الكفر والمعاصي، والرؤساء الذين كانوا يحسِّنُون لهم الشرك والخطايا؛ يطلبون أن يروْهم ليهينوهم ويُذلّوهم، كما أضلوهم وفتنوهم في الدنيا، ولينتقموا منهم ويتشفُّوا فيهم بوطْئهم تحت أقدامهم، حنقًا عليهم فيطلبون رؤيتهم؛ لأنهم لم يروْهم معهم في النار، حيث يكونون في دركات من النار أسفل من دركات أتباعهم، فهم معهم في النار، ولكنهم لم يعْرفوا أين هم؟

وفي موضع آخر يطلبون مضاعفة الجزاء لهم، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

والمراد: الذين أغووا المشركين وأضلوهم من الجن والإنس، كما جاء في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب].

وجاء في هذه السورة أنهم طلبوا رؤيتهم ليُهينوهم ويُذلُّوهم، فقالوا: ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ أي: في الدرك الأسفل من النار، أو ليكونا من الأذلين المهانين، وفي هذا بيان لما تكنه صدورهم لهم من الحقد والضغينة، ومن تبريء بعضهم من بعض.

وقد علموا -من غضب الله عليهم- أنه سبحانه أشد غضبًا على من أضلوا غيرهم، فأرادوا تيسير تمكنهم من الانتقام منهم، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل: ٨٨].

الْمَلَائِكَةُ تُطَمْئِنُ أَهْلَ الإِيمَانِ وَالاسْتِقَامَةِ وَتُبَشِّرُهُمْ بِالْجَنَّةِ

٣٠- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

وبعد استيفاء الكلام على عذاب المكذبين لله ورسوله، يتشوَّفُ السامع إلى معرفة حظ المؤمنين ووصف حالهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ وحده، فآمنوا به

ووحَّدوه واعتقدوا ذلك اعتقادًا جازمًا ولم يخشوْا أحدًا غيره ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ على التوحيد ونبذ الشرك، والعمل بشريعة الله تعالى، واستمروا على طاعته والإخلاص له، فكانوا مؤمنين حقًّا، مسلمين صدقًا، متمسكين بها في عبادتهم، وفي سلوكهم وأخلاقهم، وأقوالهم وأفعالهم، وثبتوا على ذلك حتى الممات.

عن سفيان الثقفي قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا غيرك، قال: «**قل آمنت بالله ثم استقم**»[1].

وقد أمر الله نبيه بالاستقامة، فقال سبحانه: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢].

وأمر المشركين بالتوبة من شركهم والاستقامة على منهج الله تعالى، فقال تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾.

وأمرنا سبحانه أن نفي بوعودنا وعهودنا مع من استقاموا معنا ووفوا بذلك، فقال جلَّ شأنه: ﴿فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧].

وقد فسر الخلفاء الأربعة معنى الاستقامة:

١- فقال أبو بكر ﷺ في ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾: لم يُشركوا بالله شيئًا.

٢- وقال عمر ﷺ: استقاموا على الطريقة لطاعته، ثم لم يَرُوغوا روَغَان الثعالب.

٣- وقال عثمان ﷺ: ثم أخلصوا العمل لله.

٤- وقال عليٌّ ﷺ: ثم أدَّوا الفرائض.

٥- ومن غير الخلفاء الأربعة، قال ابن عباس ﷺ: استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله.

٦- وكان الحسن يقول: اللهم أنت ربنا، فارزقنا الاستقامة.

٧- وقال أبو العالية: أخلَصوا له العمل والدين.

ومقتضى الاستقامة أن يكون الإنسان وسطًا غير مائل إلى الإفراط أو التفريط.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٣٨) والبخاري (٥/ ١٠٠) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٤٨٩) و«المسند» (١٥٤١٦) (١٩٤٣١) بإسناد صحيح ورجال ثقات، والترمذي برقم (١٠/ ٢٤) وابن ماجه (٣٩٧٢)وابن حبان (٥٦٩٨) والبيهقي في الشعب (٤٩٢٢).

وعناية أقطاب الإسلام ببيان معنى الاستقامة، تشير إلى أهميتها في الدين.

ثم بيَّن سبحانه أن أهل الاستقامة تتنزل عليهم الملائكة عند الاحتضار نزولًا خفيًّا، تحصُل آثاره في نفوس المؤمنين بالأمن والطمأنينة والتَّثْبيت، وصَرْفُ ما في نفوسهم من الخوف والحزن والفزع.

وهكذا فإن الملائكة تتنزل عليهم عند الموت، كما في حديث البراء ﷺ: **«إن الملائكة تقول لروح المؤمن: اخرجي أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب، كنت تعمُرينه، اخرُجي إلى رَوْح وريحان، وربٌّ غير غضبان»**[1].

كما تتنزل عليهم الملائكة عند خروجهم من قبورهم.

فقد أخرج ابن أبي حاتم عن جعفر بن سليمان قال: سمعت ثابتًا قرأ سورة حم السجدة، حتى بلغ الآية، فوقف، فقال: بلغنا أن العبد المؤمن حين يبعثه الله من قبره، يتلقاه الملكان اللذان كانا معه في الدنيا، فيقولان له: **«لا تخف ولا تحزن، وأبشر بالجنة»**، قال: فيؤمِّن خوفه، وتقرُّ عينه.

وقال زيد بن أسلم: يبشرونه عند موته وفي قبره وحين يُبعَث.

والآية تقتضي أن الملائكة تتنزل عليهم أيضًا في وقت الحشر، لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾﴾ فالملائكة تتلقى أعداء الله بالوزع، وهو حبْس الملائكة لهم حتى يكتملوا وينفصلوا عن المؤمنين، ونزول الملائكة على المؤمنين يكون بالأمن والبشرى ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بالبشرى عند الموت وعند البعث. ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟﴾ مما تقْدمون عليه من أمور الآخرة ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ على ما فاتكم من أمور الدنيا من أهل أو ولد أو مال أو جاه.

والخوف: غمٌّ في النفس، ينشأ عن ظن حصول مكروه شديد يقع في المستقبل.

---

(١) من حديث طويل في «المسند» (١٨٥٣٤) وأوله: (إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا...). إسناده صحيح ورجاله رجال الصحيح، وأخرجه ابن أبي شيبة (٣/ ٣١٠) والطبري في التفسير (٢٠٧٦٤) والحاكم (١/ ٣٧) وابن ماجه (١٥٤٩) وأبو داود (٣٢١٢) والطيالسي (٧٥٣) وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ٤٩) وقال: هو في الصحيح باختصار، رواه أحمد ورجاله الصحيح.

والحزن: غمٌّ في النفس، ينشأ عن وقوع مكروه، بفوات نفع أو حصول ضُرٍّ في الماضي.

فيتنزل ملكان على كل مؤمن، هما الحافظان اللذان كانا يكتبان أعماله في الدنيا، ويُلْقُون في أنفس المؤمنين ما يصرفهم عن الخوف والحزْن ويذكِّرهم بالجنة، كما قال تعالى: ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ بها في الدنيا، فإنهم واصلون إليها، مستقرون فيها، خالدون في نعيمها، فتحل فيهم السكينة، وتنشرح صدورهم بالراحة والطمأنينة؛ فلا يخافون غير الله تعالى، ولا يحزنون على ما يصيبهم، وهم فَرِحون بما يترقبون من فضل الله عليهم، فقد تحقق الأمن وزال الخوف، وبُشِّروا بالجنة تعجيلًا بمسرتهم.

قال في حاشية البيضاوي: إن الملائكة تتنزل حين الاحتضار على المؤمنين بهذه البشارة: ألَّا تخافوا من هول الموت، ولا من هول القبر، وشدائد القيامة، وإن المؤمن ينظر إلى حافظيْه قائميْن على رأسه يقولان له: لا تخف اليوم ولا تحزن، وأبشر بالجنة التي كنت تُوعَد، وإنك سترى اليوم أمورًا لم ترَ مثلها فلا تهولنَّك، فإنما يراد بها غيرك[١].

قال مجاهد في الآية: ألَّا تخافوا مما تقدمون عليه من الموت وأمر الآخرة، ولا تحزنوا على ما خلَّفتم من أمر دنياكم من ولد أو أهل أو ديْن، فإنا سنخْلُفكُم في ذلك كله[٢].

وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»** قلنا: يا رسول الله، كلنا نكره الموت، قال: **«ليس ذلك كراهية الموت، ولكن المؤمن إذا حُضِر جاءه البشير من الله بما هو صائر إليه فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقي الله، فأحب الله لقاءه، وإن الفاجر والكافر إذا حُضر جاءه بما هو صائر إليه من الشر، فكره لقاء الله، فكره الله لقاءه»**[٣]، ثم تقول الملائكة للمؤمنين:

٣١- ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾

أي: أن الملائكة يُعَرِّفُون أنفسهم للمؤمنين يوم لقاء الله، حتى يأنَسُوا بهم، وينشرحُوا

(١) «حاشية شيخ زاده على البيضاوي» (٣/ ٢٦١).

(٢) أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (١٣/ ١٠٦).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٦٨٤) و«المسند» (١٩/ ١٠٣) (١٢٠٤٧)، والنسائي في الكبرى (١٩٧٣) عن أبي هريرة، وأبو يعلى (٣٨٧٧) والبزار (٧٨٠) كشف.

لهم، وتزولَ عنهم دهشة القدوم والاغتراب، فيقولون لهم: نحن الذين كنا نصحبكم في الدنيا، فكنا نكتب حسناتكم، ونشهد عند الله بصلاتكم، ونحثكم على الخير ونزينه لكم، ونرهبكم من الشر ونقبِّحه لكم، ونثبتكم في النوازل والمصائب، خصوصًا عند الموت، وفي القبر، ويوم الحشر، وعلى الصراط، فنحن الذين نتولى حفظكم ومعونتكم في أمور الدنيا والآخرة، ومن كان الله وليه فاز بكل مطلب، ونجا من كل مخافة، فالملائكة تعين على الحق، كما تعين الشياطين على الباطل، والثواب والعقاب منوط بعمل الإنسان وكسبه، والملائكة يرقبون ذلك ويسجلونه ويشهدون به.

كما في حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: **«يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون»**[1].

وقد حفظ الملائكة العهد، فكانوا أعوانًا وأنصارًا للمؤمنين أيضًا، وهم في الآخرة يُسدِّدونهم ويؤنسونهم ويبشرونهم بالجنة بشارة المحب بفرح حبيبه، الذي يسعى للمزيد، حتى يوصلوهم إلى جنات النعيم قائلين لهم: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾ مما تختارونه وتقرُّ به أعينكم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ فكلُّ ما يخطر على بالكم، وما تتمنونه في أنفسكم، وكل ما تطلبونه وتشتهونه تجدونه بين أيديكم حيث كنتم، وهذا الصنف من الملائكة خاص برفقة المؤمنين وحفظهم والعناية بهم، وهم في مقابلة قرناء الكافرين من الشياطين، ونعيم المؤمنين محض فضل من الله تعالى، فهو:

٣٢- ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ۝٣٢﴾

أي: وما يُقدَّم للضيف عند نزوله من مأكل ومشرب ومكان وراحة، وثواب جزيل ونعيم مقيم هو حق الضيافة.

وأهل الجنة يُعْطَوْن هذا النعيم رزقًا وضيافةً، مهيأة لهم من ربٍّ واسع المغفرة، كثير الرحمة، حيث وفقهم لفعل الحسنات في الدنيا، ثم قبلها منهم وكافأهم عليها.

والنُّزُل: هو رزق النزيل الذي هو الضيف.

---

(١) البخاري (٥٥٥، ٧٤٨٦) ومسلم (٦٣٢) و«المسند» (٨١٢٠) وابن حبان (١٧٣٦) و«سنن النسائي الكبرى» (٤٥٩).

أَحْسَنُ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ

٣٣- ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾

لقد قال المشركون أسوأ الكلام حين قالوا لغيرهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ فصدُّوا الناس عن سبيل الله، وحين عملوا أسوأ الأعمال، فأشركوا مع الله غيره، وهذا الأسوأ مفهوم من مقابلة الأحسن في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: لا أحد أحسن قولًا، وأعظم منزلة، ممن دعا غيره إلى توحيد الله وعبادته وحده، فعلّم الجاهل، ووعظ الغافل والمعرض، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، ورغّب الناس في طلب العلم وحُسْن الخلق، وبر الوالدين وصلة الرحم، ونهاهم عن ضد ذلك، وأمرهم بالمحافظة على أداء ما كُلِّف به، فهذا خير ما يقوله إنسان لإنسان.

ولم يكتفِ بذلك بل أتبع هذه الدعوة بالعمل الصالح، الذي يجعله قدوة لغيره، فعمل صالحًا لدينه ودنياه بقوله وفعله، وجعل الإسلام دينه ومذهبه ﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لأمر الله وشرعه، المسارعين إلى الخيرات وترك الشهوات.

والآية عامة في كل من دعا إلى شرع الله، وأدى فرض الله، وامتثل أمره واجتنب نهيه، وكان من أمة محمد ﷺ، مسلم الديانة، فلا يوجد من هو أحسن منه قولًا، ولا أفضل عملًا، ولا أوضح طريقة.

والرسل هم أئمة الدعاة إلى الله تعالى على امتداد الزمان، ويأتي بعدهم كل من دعا إلى توحيد الله ونبذ الشرك وأهله.

ويدخل في ذلك المؤذِّنون دخولًا أوَّليًا؛ لأنهم يدعون الناس إلى أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وقد جاء في الحديث عن معاوية ﷺ: «**المؤذنون أطول الناس أعناقًا يوم القيامة**»[1] وهم المؤذنون الصلحاء.

وفي الحديث عن عائشة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**الإمام ضامن، والمؤذن مؤتمن، اللهم**

(١) من حديث معاوية في «صحيح مسلم» برقم (٣٨٧) وهو عند ابن أبي شيبة (١/ ٢٢٥) وابن ماجه (٧٢٥)، وصحيح ابن ماجه (٥٩٣).

أرشد الأئمة، واغفر للمؤذنين»[١].

وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**المؤذن يُغفر له مدَّ صوته، ويصدِّقه كل رطب ويابس»**[٢].

على أن الأذان عند نزول هذه الآية لم يكن موجودًا؛ لأن السورة مكية، والأذان شُرع بالمدينة بعد الهجرة، ولكن الآية تشمله بعمومها.

تلا الحسن البصري هذه الآية فقال: هذا حبيب الله، هذا وليُّ الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحبُّ أهل الأرض إلى الله، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحًا في إجابته، وقال: إنني من المسلمين، هذا خليفة الله[٣].

وفي الآية حثٌّ على الدعوة إلى الله سبحانه، وبيان فضل العلماء الداعين إليه على بصيرة، وفق ما جاء عن رسول الله ﷺ، وكل من دعا إلى الله بطريقة من الطرق فهو داخل في هذه الآية. **وللدعوة إلى الله تعالى مراتب**

الأولى: دعوة الأنبياء إلى الله تعالى بالمعجزات، وبالحجج والبراهين، وبالسيف لمن لم يُسلم ووقَف دون نشر الدعوة الإسلامية.

الثانية: دعوة العلماء بالحجج والبراهين، وبالحكمة والموعظة الحسنة لعامة المؤمنين، والجدال بالحسنى لأهل الكتاب.

الثالثة: دعوة المجاهدين في سبيل الله لنشر الدعوة، وفتح بلاد الكفر لإزالة العقبات من طريق الدعوة.

الرابعة: دعوة المؤذنين إلى الصلاة. وكل ذلك داخل في الآية.

---

(١) «المسند» (٢/ ٢٣٢) عن عائشة برقم (٢٤٣٦٣) وهو حديث صحيح لغيره (محققوه)، وعن أبي أمامة برقم (٢٢٢٣٨) بشطره الأول، وعن أبي هريرة برقم (٧١٦٩) بإسناد صحيح، وأخرجه ابن خزيمة (١٥٣٢) وأبو داود (٥١٨) والترمذي (٢٠٧) وهذا لفظهما عن أبي هريرة.

(٢) «صحيح سنن أبي داود» (٤٨٤) وابن أبي شيبة (١/ ٢٢٥) والمسند (٩٣٢٨، ٩٥٤٢) بأطول من ذلك، وهو حديث صحيح بطرقه وشواهده، بإسناد جيد، وأخرجه الطيالسي (٢٥٤٢) وابن ماجه (٧٢٤) وأبوداود (٥١٥) وابن حبان (١٦٦٦).

(٣) من «تفسير ابن كثير» للآية.

عِلَاجُ الْعَدَاوَةِ

٣٤- ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

أرشد الله سبحانه في هذه الآية إلى ما يُسبب نجاح الدعوة بالنسبة لغير المسلمين، وما يُنمّي المحبة والمودة بين المسلم وأخيه، ويتضمن ذلك: الثناء على المؤمنين والذمّ للمشركين، والثناء على صاحب الخلُق الحسن، والذم لصاحب الخلق السيئ، والتفاوت بينهما، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ﴾ التي يرضى الله بها ويثيب عليها ﴿وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ التي يبغضها الله ويعاقب عليها، أي: لا تستويان في ذاتهما، ولا في الآثار المترتبة عليهما، ولا يستوي فعل الحسنة مع فعل السيئة، ولا يستوي الإحسان إلى الخلق ولا الإساءة إليهم، لا في ذاتها ولا في وصفها ولا في جزائها ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن]

والحسنة تعم جميع أفراد جنسها، وأَوْلَاها التوحيد، والدعوة إلى الله تعالى؛ لما فيها من المنافع الدينية والدنيوية، ويدخل فيها الصفح عمن أساء.

والسيئة كذلك تستغرق جميع أفراد جنسها، وأولَاها الشرك، وكل دعوة سيئة مخالفة لشرع الله تعالى.

والدعوة إلى الله تعالى هي أحسن الكلام، وقد يقابَل المحسن أو الداعي إلى الله تعالى بالإساءة وسوء الأدب، وحينئذ لا ينبغي للداعية أن يغضب ويثور، أو يقابل المدعوَّ بالمثل، أو يقابل الشر بالشر، فإن الحسنة لا يستوي أثرها وقيمتها بالسيئة، وعندما تقابل السيئة بمثلها يزداد الطرف المقابل هياجًا وغضبًا وتبجُّحًا.

وأعظم حسنة: هي كلمة التوحيد. وأعظم سيئة: هي الشرك بالله تعالى.

فلا تستوي حسنة الذين آمنوا وعملوا الصالحات، واستقاموا على شرع الله، وأحسنوا إلى خلق الله، وسيئة الذين كفروا بالله، وكذَّبوا رسله، وأساؤوا إلى خلق الله.

وقد أمر سبحانه بمقابلة السيئة بالإحسان، وبالعفو والصفح عمن أساء، فقال تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أي: ادفع بعفوك وصفحك وحلمك وإحسانك من أساء إليك، وقابل إساءته إليك بالإحسان إليه.

ثم بيَّن سبحانه فائدة مقابلة السيئة بالحسنة، وما يترتب على هذه المعاملة، فبيَّن أنها تقلب العداوة محبة، وتجعل العدوَّ صديقًا، ذلكم قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ أي: إنك إن دفعت السيئة بالحسنة صار عدوك كالصديق القريب، خالص الصداقة في مودته ومحبته.

قال ابن عباس ﷺ: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم[1].

وقد جمعت هذه الآية مكارم الأخلاق وأنواع الحلم، ومن ذلك البدء بإلقاء السلام على من عرفت وعلى مَن لم تعرف، وحسن الأدب مع الصغير والكبير، والقريب والبعيد، وكظم الغيظ وعدم التشفِّي، والسماحة في البيع والشراء، والقضاء والاقتضاء.

وعن جابر بن عبد الله ﷺ أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف] سأل النبي ﷺ جبريل عن تأويلها، فقال له: **«حتى أسأل العالِمَ»**، فأتاه فقال: **«يا محمد، إن الله يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك»**[2].

والله تعالى يأمر رسوله بذلك؛ لأن خلُقه ﷺ منتهى الكمال البشري، كما قال ﷺ: **«بعثت لأتمم صالح الأخلاق»**[3].

---

(١) أخرجه الطبري (٢٠/ ٤٣٢) والبيهقي (٧/ ٤٥) وغيرهما.

(٢) أخرجه الطبري (١٥٥٥٩) مرسلًا، وابن حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (٣/ ٥٣١)، وأخرجه ابن المنذر كما في الدر (٣/ ٢٨٠) وللحديث شواهد دون ذكر جبريل أو نزول الآية.

(٣) من حديث أبي هريرة في مسند أحمد (٨٩٥٢) وفي لفظ (مكارم الأخلاق) وهو حديث صحيح بإسناد قوي، رجاله رجال الصحيح غير ابن عجلان فقد روى له مسلم متابعة، وهو قوي الحديث، وأخرجه البزار (٢٧٤٠) كشف، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٤٤٣٢) والبيهقي في الشعب (٧٩٧٨) والبخاري في الأدب المفرد (٢٧٣)، ومالك في الموطأ بلاغًا (٢/ ٩٠٤).

ولذا قالت عائشة ﵂: ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قطُّ، إلا أن تُنْتهك حرمات الله فيغضب لله[١]، وعلى الأمة أن تتخلق بأخلاق النبي ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ٤٠].

ومقابلة السيئة بمثلها هي العدل، وأفضل منها: كظم الغيظ، وأعلى من ذلك: العفو عمن أساء، وأعلى الدرجات: الإحسان إلى من أساء.

قال ﷻ: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

ووصف الله المؤمنين بقوله: ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [الرعد: ٢٢].

وقال جلَّ شأنه: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ﴾ [المؤمنون:٩٦].

وَوُصِفَ النبي ﷺ بأنه: لا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح.

والعداوة التي بين المشركين والنبي ﷺ هي عداوة في الدين.

ومعنى الآية على هذا: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ﴾ لكفره، كأنه بعد الإحسان ﴿وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ صديق محب أمّا من آمن بعد الكفر فليس بعدوٍّ، كما زالت عداوة عمر ﵁ للنبي ﷺ بعد إسلامه، حتى قال يومًا للنبي ﷺ: لأنت أحب إليَّ من نفسي التي بين جنبيَّ.

وكما زالت عداوة هند بنت عتبة زوج أبي سفيان، إذ قالت للنبي ﷺ: ما كان أهل خباء أحب إليَّ من أن يُذلُّوا من أهل خبائك، واليوم ما أهل خباء أحب إليَّ من أن يَعزُّوا من أهل خبائك، فقال لها النبي ﷺ: «**وأيضًا**» أي: وستزيدين حبًّا.

وقال مقاتل: نزلت هذه الآية في أبي سفيان، كان عدوًّا للنبي ﷺ في الجاهلية فصار بعد إسلامه وليًّا مصافيًا له بالإسلام وبالمصاهرة التي وقعت بينه وبينه.

والآية عامة في اكتساب المودة بالإحسان، وأولى الناس بذلك هم الدعاة إلى الله تعالى، وأيضًا من له حق كبير على الإنسان كالوالدين والأرحام والأقارب والأصحاب، فعليه أن يقابل إساءتهم بالإحسان، وقطيعتهم بالوصل، وظلمهم بالعفو، وبغضهم

---

(١) مسلم (٢٣٢٧) و«المسند» (٢٤٠٣٤) بنحوه والنسائي في الكبرى (٩١٦٥) والطبراني في الأوسط (٧٦٤٧) والترمذي في «الشمائل» (٣٤١) مطولًا ومختصرًا وانظر البخاري (٣٥٦٠).

بالحب، وجفاءهم باللين، وهجْرهم بالمودة، وبُخْلهم بالكرَم، وهكذا، قال تعالى:

٣٥- ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾

أي: وما يوفق لهذه الخصلة الحميدة إلا من أجبر نفسه على ما يحبه الله تعالى وترك ما يبغضه: إن مقابلة السيئة بالحسنة تحتاج إلى قلب كبير، وصدْرٍ رحب، وسماحة القادر على الإساءة، وتحتاج إلى مجاهدة النفس، والتحلِّي بالصبر في الأمور الشخصية، والدعوة إلى الله تعالى دون العدوان على العقيدة وفتنة المؤمنين.

أي: ولا يُوفَّق لهذه الخصلة الحميدة، ولا يُؤتَى القدرة على مقابلة السيئة بالإحسان إلا من تحلى بالصبر على المكاره، وتحمُّلِ الأذى، وكظْمِ الغيظ، والعفوِ والصفح.

ولا يحصل دفع السيئة بالحسنة إلا لصاحب نصيب وافر من الفضائل، والأدب الجم، والخلُق الحسن، والاهتداء والتقوى، والتواضع، ولين الجانب، فأجبر نفسه على ما يحبه الله تعالى.

ولا يُوفَّق لدفع السيئة بالحسنة، إلا صاحب نصيب عظيم من السعادة في الدنيا والآخرة.

قال الحسن في الآية: والله لا يصيبها صاحبها حتى يكظم غيظًا، ويصفح عن بعض ما يكره[1].

وقال أنس ﷺ في معنى الآية: الرجل يشتمه أخوه فيقول: إن كنتَ صادقًا يغفر الله لي، وإن كنتَ كاذبًا يغفر الله لك[2].

ورد أن رجلًا شتم أبا بكر بحضرة النبي ﷺ فسكت أبو بكر ساعة، ثم جاش به الغضب، فردَّ على الرجل، فقام النبي ﷺ فتبعه أبو بكر وقال: يا رسول الله، قمتَ حين انتصرتُ، فقال: «**إنه كان يرد عنك ملَك، فلما قَرُبْتَ تنتصر ذهب الملَك وجاء الشيطان، فما كنت لأجالسه**»[3].

فإذا صبّر الإنسان نفسه، وامتثل أمر ربه، وعرف جزيل ثوابه، وعلم أن مقابلة السيئة بمثلها لا تزيد العداوة إلا شدة، وأن مقابلتها بالإحسان لا تزيده إلا رِفعه، فإن ذلك يُهوِّن عليه الأمر، ويُرغِّبه في الفضل، بل ويتلذذ به.

---

(١) ،(٢) «الدر المنثور» (١٣/ ١١٥).

(٣) «تفسير ابن عطية» (٥/ ١٦).

عِلَاجُ الْغَضَبِ

٣٦- ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٦﴾

ولما ذكر الله سبحانه ما يقابَلُ به العدوُّ المسيء، من الناس بالإحسان، ذكر بعد ذلك ما يُدفع به العدوّ من الجن، وهو الاستعاذة بالله تعالى واللجوء إليه.

فقد يغضب الإنسان حين يقابَل بالسيئة، فيقلُّ صبرُه، أو يضيق صدره، فيجد في نفسه خواطر تدعوه إلى مقابلة السيئة بمثلها، فعليه في هذه الحالة أن يعْلَم أن ذلك نزغ من الشيطان، وأن دواءه أن يستعيذ بالله منه، فقد ضمن الله له أن يعيذه إذا استعاذه.
﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ النزغ: شبيه النخس، شُبِّه به الوسوسة، أي: وإما يُلْقينَّ الشيطان في نفسك وسْوسة، تحملك على مجازاة المسيء بالإساءة أو أشد منها ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي: الجأ إليه واعتصم به، ولُذ بجنابه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لاستعاذتك به ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأمور خلقه جميعًا.

١- والاستعاذة سرٌّ من أسرار الاتصال بين العبد وربه، كما قال ﷺ في حديث الأغر المزني ﷺ: **«إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»**[1].

٢- وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة ﷺ، عن النبيِّ ﷺ: **«إن الله تعالى يقول: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمْعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»**[2].

٣- وفي الحديث: عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«إن للشيطان لَمَّة بابن آدم، وللمَلَك لَمَّة، فأما لَمَّة الشيطان فإيعاد بالشر، وتكذيب بالحق، وأما لَمَّة الملَك فإيعاد بالخير، وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، فليحمد الله، ومن وجد**

(١) «صحيح مسلم» (٢٧٠٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٥٠٢).

الأخرى فليستعذ بالله من الشيطان»(١).

قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف].

وعلاج النزغ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف].

فإن سوَّل لك الشيطان ألا تعامل أعداءك بالحسنى، وزيَّن لك الانتقام منهم، وقال لك: كيف تُحسن إلى أعدائك، وفي الانتقام منهم قطع لكيدهم؟ فلا تأخذ بنزْغه، وخُذْ بما أمرْناك به، واستعذ بالله من أن يزلَّك الشيطان، فإن الله تعالى لا يخفى عليه أعداؤك، وهو يتولى جزاءهم.

٤- وقد كان النبي ﷺ إذا قام إلى الصلاة يقول: **«أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه»**(٢).

٥- وعن سليمان بن صُرَد رضي الله عنه قال: استبَّ رجلان عند النبي ﷺ فاشتدَّ غضب أحدهما، فقال النبي ﷺ: **«إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه الغضب: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»** فقال الرجل: أمجنون تُراني؟ فتلا رسول الله ﷺ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾(٣).

٦- وفي الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: **«لا يُشِرْ أحدكم على أخيه بالسلاح، لا ينزع الشيطان في يده، فيلقيه في حفرة من حفر النار»**(٤).

ولما كان الإعراض عن الجاهل أخفَّ على النفس من الإحسان إلى المسيء، فقد أُكِّدت الآية الأخيرة بضمير الفصل، والتعريف بالألف واللام.

---

(١) النسائي في «السنن الكبرى» (١٠٩٨٥) والترمذي (٢٩٨٨) وابن حبان (٩٩٧).

(٢) الحديث في «سنن أبي داود» (٧٦٤، ٧٧٥) والترمذي (٢٤٢) وابن ماجه (٨٠٧) والبيهقي (٢/ ٣٥) والنسائي في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (٤٢٥٢)و صححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٦٥٨) بنحوه عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) ابن أبي شيبة (٨/ ٣٤٥) وأحمد (٤٥/ ١٨٣) (٢٧٢٠٥) والبخاري (٣٢٨٢، ٦٠٤٨) ومسلم (٢٦١٠) وأبو داود (٤٧٨١) والنسائي في «الكبرى» (١٠٢٢٤) والحاكم (٢/ ٤٤١).

(٤) يُنظَر: البخاري (٧٠٧٢) ومسلم (٢٦١٧).

أَرْبَعٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ فِي الْكَوْنِ (اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

٣٧- ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ[1] إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾

ولما تحدثت السورة عن خلق السموات والأرض في أولها على أنهما من آيات الله الدالة على وحدانيته وكمال قدرته، انتقل هنا إلى الاستدلال بأحوال السموات والأرض، فابتدأ ببعض أحوال السماء، ومنها حال الليل والنهار، وطلوع الشمس والقمر، وثنّى ببعض أحوال الأرض في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ الآية بعد التالية.

واختلاف الليل والنهار آية من آيات الله، لا يَقْدِر عليها إلا الله، وحركة الشمس والقمر المستمرة المنتظمة لا يقدر عليها إلا الله ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ أي: ومن العلامات الدالة على عظمة الله وحكمته، ومن حجج الله تعالى على خلقه، ودلائله الدالة على وحدانيته وكمال قدرته: اختلاف الليل والنهار، واختلاف الشمس والقمر وتعاقبهما، وتسخيرهما لمصالح العباد، وهي آيات عجيبة تسير بنظام محكم، وتؤدي وظيفتها أداءً دقيقًا ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس]. وكل ذلك تحت تسخيره وقهره سبحانه.

وما دامت الشمس والقمر من مخلوقات الله تعالى، فإن المخلوق لا يُعبد، ولا يصح أن يكون شريكًا للخالق في العبادة، ولا يُسجد له، وإنما يُسجد للخالق المبدع ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ فإنهما مخلوقان مُدبَّران ﴿وَٱسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ ولا تشركوا معه غيره.

عن عائشة ﵂ قالت: كُسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ، فقام النبي ﷺ فصلى بالناس، فأطال القراءة، ثم ركع فأطال الركوع، ثم قام فأطال القيام وهو دون القيام الأول، ثم ركع فأطال الركوع وهو دون ركوعه الأول، ثم رفع رأسه فسجد سجدتين، ثم قام فصنع في الركعة الثانية مثل ذلك، ثم قام فقال: «**إن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا**

(١) وقف يعقوب بهاء السكت على (خلقهن).

لحياته، ولكنهما آيتان من آيات الله يريهما عباده، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة»[١].

والذين عبدوا الشمس والقمر هم الصابئة، بعد أن كانوا موحدين، ومنبعهم من العراق، وكانوا يزعمون أنهم يقصدون بالسجود لهما السجودَ لله تعالى، فنُهوا عن ذلك، وكان هذا في زمن إبراهيم عليه السلام حيث حاجَّهم في عبادة الليل والشمس والقمر.

ثم ظهرت عبادة الشمس في سبأ، كما جاء في قصة بلقيس أنهم يسجدون للشمس من دون الله، ولما تهوَّد أهل سبأ بقيت آثار عبادة الشمس في بعض بلاد العرب، فكان من أصنام العرب صنمٌ اسمه الشمس، وبه سَمَّوْا عبد شمس، وكان هذا الصنم يعْبده بنو تميم وضبة وتيمْ وعُكَل وأُدُّ.

وقيل: إن بعض كنانة عَبدُوا القمر، وكان بعض الناس يسجدون للشمس والقمر، ويزعمون أنهم يسجدون لله كالصابئين، فنهاهم الله عن ذلك، وأمرهم أن يخصوه بالعبادة[٢]، ثم قال الله تعالى لرسوله ﷺ:

٣٨- ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾

أي: فإن استكبر هؤلاء عن السجود لله تعالى، وصَمَّمُوا على السجود لغير الله، فالله تعالى غنيٌّ عن عبادتهم، ومِن مخلوقاته تعالى مَن يسجد له وينزِّهه عما لا يليق بجلاله ليلًا ونهارًا بصفة مستمرة، لا يملُّون ولا يفترون، يُنزِّهونه بالأقوال وينزِّهونه بالأعمال، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل].

وقال جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف].

هذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ أي: إن استكبر هؤلاء المشركون المعرضون

---

(١) «صحيح البخاري» (١٠٥٨) و«صحيح مسلم» (٩٠١).

(٢) يُنظَر: «التحرير والتنوير» (٢٤/ ٢٩٩).

عن السجود لله ﴿فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ وهم الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ أي ينزهونه عن كل نقص، فهم ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ أي: لا يفترون عن ذلك ولا يملُّون، كما قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء].

وقال تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

وهنا موضع سجود تلاوة، بعد ﴿لَا يَسْأَمُونَ﴾ عند جمهور الفقهاء، وعند مالك وأصحابه أن السجود عند ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

إِحْيَاءُ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا دَلِيلٌ عَلَى إِحْيَاءِ النَّاسِ مِنْ قُبُورِهِمْ

٣٩- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ[(١)] إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

ذكر الله سبحانه في هذه الآية بعض الأحوال الأرضية في الدلالة على انفراد الله تعالى بالخلق والملك والتدبير، لوجوب انفراده تعالى بالعبادة.

وكثيرًا ما يُضرب هذا الدليل مثلًا على إمكانية البعث والنشور.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ أي: ومن علامات وحدانية الله تعالى الدالة على كمال قدرته، وعلى وجوب العبادة له، أنك ترى الأرض يابسة جامدة ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ بقدرتنا من السماء، دبَّت فيها الحياة وتحرَّكتْ بالنبات، وارتفعت وانتفخت بسببه، ثم تصدَّعتْ عنه.

وقد صوَّر الله الأرض وهي تتحرك بإخراج النبات منها، بصورة الإنسان الحي المتحرك، ليستدل بذلك على إحياء الموتى ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى﴾ إن الذي أحيا هذه الأرض بالمطر وخروج النبات منها، لقادرٌ على إحياء الخلق بعد موتهم للحساب والجزاء ﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وكما لا تَعْجزُ قدرته تعالى على إحياء الأرض بعد موتها، فكذلك لا تعجز عن إحياء الموتى، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

(١) قرأ أبو جعفر (وربأت) أي: ارتفعت، وقرأ غيره (وربت) أي: زادت.

وكذلك يُحيى الله الموتى بالماء النازل من السماء عند نفخة البعث، فكما لا تعجز قدرته تعالى على إحياء الأرض بعد موتها، لا تعجز عن إحياء الموتى يوم البعث والنشور.

الإلحَادُ فِي آيَاتِ اللَّهِ عَوَاقِبُهُ وَخِيمَةٌ

٤٠- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ[1] فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾

أكثرت سورة فصلت من ذكر الآيات الكونية الدالة على وحدانية الله تعالى، كالسماء والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر.

وأكثرت كذلك من الآيات القولية ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾.

وبيَّنت موقف الكفار المكذبين بالآيات الكونية في مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾.

كما بيَّنت موقفهم من آيات القرآن في قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾.

وقد بيَّنت الآية التي معنا أن من يَصْرف آيات الله الكونية عن دلالاتها، ويُعْرض عن سماع القرآن، ويطْعن في صحته، ويَصْرف الناس عن الاستماع إليه، فهو غير خافٍ على الله تعالى، وسوف يعاقبه على ذلك، وهذا هو معنى الإلحاد في آيات الله، وهو يشمل الإلحاد في آيات الله الكوْنية والقوْليَّة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: يميلون بها عن الصواب والحق، فيحرفون كلام الله تعالى، ويصرفونه عن معناه الحقيقي، ويضعونه في غير مواضعه، ويؤوِّلونه تأويلًا فاسدًا، فيكفرون بخالق الكون، مع قيام البراهين الساطعة على وجوده تعالى ووحدانيته.

ويُلْحدون في القرآن بتحريفه وتعطيل أحكامه، ويُلْحدون فيه باللَّغَط والمكاء والتصْدية

(١) قرأ حمزة بفتح الياء والحاء من (يَلحَدون) مضارع لحد، وقرأ الباقون بضم الياء وكسر الحاء مضارع ألحد.

عند تلاوته إعراضًا عنه، وصرْفًا للناس عن اتباعه، أو إنكارًا وجحودًا له، أو تكذيبًا لما جاء فيه، هؤلاء الناس ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ فنحن مُطَّلعُون عليهم، نعلم سرهم ونجواهم، وظاهرهم وباطنهم، وسوف نحاسبهم ونجازيهم على أقوالهم وأفعالهم، فهم ليسوا بغائبين عن بصرنا، وهم في قبضتنا وتحت قدرتنا، وهذا تهديد ووعيد لهم.

ومن الإلحاد حمل ألفاظ القرآن على غير محملها أو تكذيبها.

قال عمر بن الخطاب ﷺ: إن هذا القرآن كلام الله، فضعوه على مواضعه، ولا تتبعوا فيه أهواءكم[1].

ثم بيَّن سبحانه الفرق الشاسع بين مصير المؤمنين والكافرين، والملحدين وغير الملحدين، فقال: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: أهذا الملحد في آيات الله، الذي يُطرَح في جهنم أفضل، أم الذي يأتي يوم القيامة آمنًا من عذاب الله، مستحقًّا لثوابه لإيمانه به وتصديقه بآياته؟

ولما تبيّن الحق من الباطل، وطريق النجاة من طريق الهلاك، توعَّد الله سبحانه الملحدين في آياته وهدَّدهم مرة أخرى، فقال: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ اسلكوا طريق الرشد أو اسلكوا طريق الغي، من أعمالكم القبيحة، فإنها لا تخفى على علّام الغيوب ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، وسيجازيكم عليها بجزائه العادل.

خَمْسَةُ أَوْصَافٍ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

٤١- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾﴾

والملحدون في آيات الله كافرون بالقرآن وما فيه، وهم لِكُفْرهم جديرُون بالعقوبة؛ لأن هذا القرآن إنما نزل ليُقْتدى به، ويُهتدى بهدْيه، لا ليُجحد ويُطْعن فيه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي: جحدوا هذا القرآن حين جاءهم، ومالُوا به عن الحق.

وخبر إن محذوف لتهويل الأمر، تقديره: خسروا الدنيا والآخرة، وهم هالكون معذبون بكفرهم.

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» ص ٣٥ .

وقيل: إن الخبر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ وما بينهما سبع جمل معترضة، ثم وصف الله سبحانه القرآن **بخمسة أوصاف**:

الْوَصْفُ الأَوَّلُ (أَنَّهُ ذِكْرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ)

إنه ذِكْر، يُذكِّر الناس بما يغفلون عنه مما فيه فوزهم وسعادتهم، وجاء هذا الوصف في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ﴾ ويتفرع من معنى الذكر أن هذا القرآن ذِكْر للعرب، ومفخرة لهم بين الأمم لكونه نزل بلغتهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزخرف:٤٤]. وينتفع بهذا الذكر من كانت فطرته مستعدة لقبول الحق والعمل به، ولم يكن تعيسًا شقيًّا، زائغًا عن قبول الحق، مطموس البصيرة.

الْوَصْفُ الثَّانِي (أَنَّهُ كِتَابٌ يَعْجَزُ الْخَلْقُ عَنْ مُعَارَضَتِهِ)

إنه كتاب عزيز ومنيع، عن أن يُعارَض أو يغالب، أو يَطعَن فيه الطاعنون، مُنزَّه عن كل عيب.

والعزيز: هو النفيس، عالي الشأن، قويُّ الحجة، يَغلب ولا يُغلب، لا نظير له، عجز الخلق عن معارضته، عزيز بإعزاز الله له ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ﴾.

الْوَصْفُ الثَّالِثُ (أَنَّهُ كِتَابٌ لَا يُحَرَّفُ وَلَا يُبَدَّلُ)

٤٢- ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢﴾

إنه كتاب لا يتطرق إليه الباطل ولا يخالطه، ولا يشتمل عليه بحال، بل ينتفي عنه الباطل في ظاهره وفي تأويله، فلا يوجد فيه ولا يداخله، وهو كتاب لا يقربه شيطان، ولا يتطرق إليه الشك، فقد تكفَّل الله بحفظه عند تنزيله، وفي ألفاظه ومعانيه، فالباطل لا يتطرق إليه من أية جهة من الجهات، لا بتحريف ولا بتغيير، ولا نقص ولا زيادة، وإنما هو محفوظ بحفظ الله تعالى، فلا يُبطله شيء، ولا تكذبه الكتب التي قبله، ولا يأتي بعده كتاب يُبطله، ولا تمتد إليه يد بالتحريف والتبديل ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر].

الْوَصْفُ الرَّابِعُ (أَنَّهُ كِتَابٌ يَشْتَمِلُ عَلَى الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ)

إنه كتاب مشتمل على الحكمة والمعرفة، فهو مُنزَّل من حكيم في صنعه وتدبير أمور خلقه، حكيم في أفعاله وشرعه، يضع الأمور في نصابها، وينزلها منازلها، وهو حكيم في نهيه وأمره: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ﴾ فكيف يأتيه الباطل، وقد أنزله صاحب الكمال المطلق والحكمة البالغة والصفات العليا؟

الْوَصْفُ الْخَامِسُ: (أَنَّهُ كِتَابٌ مُنَزَّلٌ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الْحَمْدَ)

إنه كتاب مُنزَّل من المحمود حمدًا كثيرًا، المستحق للحمد كله، والكلام يُحمد حين يجلب الخير ويدفع الشر، فلا يُطعن في لفظه ولا في معناه؛ لأنه مُنزل من حكيم ﴿حَمِيدٍ﴾، فهو سبحانه محمود في صفاته وأفعاله وأفضاله، وهذا الكتاب يشتمل على جميع المصالح الدينية والدنيوية، يجلب المنافع ويدفع المضار، التي يُحمد عليها.

تَكْذِيبُ الرُّسُلِ سُنَّةٌ مَاضِيَةٌ فِي الأُمَمِ

٤٣- ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ[1] لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾

ولما وُصف القرآن بأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كأن سائلًا سأل: فما بال هؤلاء الذين ألحدوا في القرآن وكفروا به، فإنهم قد طعنوا فيه؟ فكان الجواب: إن هذه سُنَّة الأنبياء مع جميع الأمم، فإن كُلًّا منهم لم يَعْدم مَن عانده وجحد ما جاء به.

فما قاله الجاحدون لرسالتك، -أيها النبي - المعاندون للقرآن، مِنْ وَصْفِك بالسحر والكذب والجنون، قد قال مِثْلَه مَنْ قبلَهم من الأمم لرسلهم، فقلوب المكذبين متشابهة، ومقالاتهم متماثلة، كأنهم تواصوْا بها، وهذا كقولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم:١٠] واقتراحهم الآيات على النبي ﷺ: كتفجير الأرض، وتفجير الأنهار في البساتين، أو يكون له بيت من زخرف ونحو ذلك.

فلسْتَ -أيها النبي- بدعًا من الرسل، لا في تكذيب القوم لك، ولا في تكذيب الدين

---

(١) قرأ هشام والكسائي ورويس بإشمام الكسر للضم في (قيل)، والباقون بالكسر الخالص.

الموحى به إليك.

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات].

وقد قيَّض الله للقرآن في كل زمان ومكان من يدفع عنه طعْن الطاعنين وأقوال المبْطلين.

وما دام الأمر كذلك فاصبر -يا محمد- على ما ينالك في سبيل الدعوة إلى الله تعالى من الأذى والتكذيب.

وفي هذا أبلغ تسْلية للنبي ﷺ، فكأن الله تعالى يقول له: إنْ كان ما أصابك من أذى قد أصاب مثله إخوانك، فاصبر كما صبروا.

ثم حثَّ الله رسوله على التجاوُز عما يناله من أذى ومن حُزْن على ما يسمعه من المكذبين بدعوته، ووعَدَه بأن يغفر له ويعفُو عنه، جزاء ما لقيه من الأذى في ذات الله تعالى.

والآية على هذا تسلية للنبي ﷺ وتثبيت لقلبه حتى يصبر ويعلم أن ما يلقاه من مكروه في سبيل نشر الدعوة قد لقيه مَنْ تقدَّمه من الرسل، فليتأسَّ بهم، ولْيمضِ في طريقه، ولا يهتم بشأنهم.

ويصح أن يكون المعنى: ما يقال لك -أيها الرسول- من الوحي المنزل، وما تُخاطَب به من عند الله تعالى، قد قيل للرسل من قبلك، فاصبر كما صبروا.

ثم بيَّن سبحانه أن الله تعالى يغفر للطائعين من أتباع الرسل، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ﴾ لك ولذنوب التائبين.

ثم توعَّد الله تعالى من كفروا برسل الله، وفي طليعتهم من آذوْا رسول الله ﷺ، فقال: ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ﴾ أي: لِمَنْ أصرَّ على كُفره وتكذيبه، ففوِّضْ أمرك إلى الله، فإنه سينتقم منهم، وفي هذا جماع الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد.

اخْتِيَارُ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ لُغَةً لِلرِّسَالَةِ الْعَامَّةِ

٤٤- ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ[1] وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾

ابتدأت السورة بتحدي المكذبين المعارضين، بإعجاز القرآن، وأبطلت مطاعنهم فيه، بقولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾ وقولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ كما أبطلت إلحادهم في القرآن وكُفْرهم به.

ثم عادت السورة في هذه الآية إلى بيان ما بدأت به من أن هذا الكتاب ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ فبيَّنتْ هنا، أنه لو كان القرآن بغير لغة العرب لقالوا: لولا بُيِّنت آياته بلغة نفهمها ولا يخاطبنا بكلام أعجمي، والسؤال يدور بالنسبة لكل لغة فوق هذه الأرض.

وهذا يدل على أن القوم لا تُجدي معهم الحجة، ولا ينقطع لهم جدال؛ لأنهم لا يطلبون الحق، وإنما هو تعنت وعناد وترويج لأهوائهم.

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن ينزل كتابه عربيًّا على نبي عربي بلسان قومه ليبين لهم، ولو أنزله بغير لغة العرب لاعترض المكذبون.

والمعنى: ولو جعلنا هذا القرآن الذي أنزلناه عليك -يا محمد- أعجميًّا بغير لغة العرب -لقال المشركون: هلَّا بُيِّنتْ آياته، فنفْقَهه ونعْلَمه؟ فإننا عرب لا نفهم لغة العجم، فكيف يكون هذا القرآن أعجميًّا، رغم أن الرسول الذي أنزل عليه عربي؟ أقرآن أعجمي ونبي عربي؟ ولو نزل بعض القرآن بلغة العرب وبعضه بلغة العجم لقالوا: هذا كلام مختلط.

وكان بعض الكفار يقول: هلَّا أُنزِل هذا القرآن بلغة العجم؟ فأُجيبوا بأنه لو كان الأمر كذلك لم تتركوا الاعتراض، ولصح لهم أن يقولوا: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾

(١) قرأ قالون وأبو عمرو وأبو جعفر بتحقيق الهمزة الأولى وتسهيل الثانية مع إدخال ألف بينهما في (ءاعجمي) وحقق الأولى وسهل الثانية من غير إدخال ابن كثير وابن ذكوان وحفص، ولورش وجهان: الأول كحفص، والثاني إبدال الثانية ألفًا مع المد المشبع، وقرأ هشام بإسقاط الأولى وتحقيق الثانية، والباقون بتحقيق الهمزتين بدون إدخال، ولا يجوز أن يُقرأ لحفص بتحقيق الهمزتين معًا، وتسهيل الهمزة الثانية يحتاج إلى تلقين وتدريب.

لأنَّا لا نفهمُه ولا نحيط به، أمَا وقد نزل القرآن بلُغتهم، فكيف يقولون ذلك؟ وهذا على سبيل الفرض.

قيل: إن رسول الله ﷺ كان يدخل على غلام يُسمَّى (يسار) وهوَ غلام عامر بن الحضرمي، وكان يهوديًا أعجميًا، يُكنَّى أبا فكيهة، فقال المشركون: إنما يُعلِّمه (يسار)، فضربه سيده، وقال: إنك تُعلِّم محمدًا؟ فقال: هو والله يعلِّمني، فأنزل الله الآية(١).

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ۝١٩٨ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ۝١٩٩﴾ [الشعراء] أي: ولو نزلناه بلغة العرب على بعض الأعجمين فقرأه عليهم بلغة العرب -ما آمنوا به.

والآية تشير إلى عموم الرسالة للعرب والعجم، وذلك أنه لَمَّا اصطفى الله سبحانه الرسول عربيًّا، وبعثه بين أمة عربية، كان أحق اللغات التي ينزل بها القرآن هي اللغة العربية، ولو نزل بغيرها لاستوتْ لُغات العالم في استحقاق ذلك، ووقع التحاسد بينهم، بخلاف العرب فقد كانوا في عُزلة عن بقية الأمم(٢).

وفي مقابل الذين قالوا ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ يوجد المؤمنون الموفقون، الذين انتفعوا بالقرآن وارتفعوا به، وقد بيَّن سبحانه ما تضمنه هذا القرآن، فقال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ أي: هو هدى للمؤمنين من الضلالة والجهل والكفر، ومزيل لما في صدورهم من الشكوك والأمراض، وهو رحمة وشفاء لهم من الأسقام البدنية والقلبية، وفي هذا نهي عن مساوىء الأخلاق، وحث على التوبة النصوح، وهي تغسل الذنوب وتشفي القلب، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾ [يونس].

أما غير المؤمنين فلا يزيدهم إلا خسارًا ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أي: في آذانهم صمم من سماعه وتدبُّره، وهو عمًى على قلوبهم فلا يهتدون به،

---

(١) «تفسير الخازن» (٤/ ٨٨).

(٢) يُنظَر: «التحرير والتنوير» (٢٤/ ٣١٣).

ولا ينتفعون بما فيه؛ وذلك لأن عنادهم في قبول القرآن كان سببًا لضلالهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة].

وعمى البصائر أشد ضررًا من عمى الأبصار، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

ونظرًا لإعراض المشركين عن القرآن، فكأنهم يُنادوْن من مكان بعيد لا يصل إليه الصوت، قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي: الذين لا يؤمنون بالقرآن ﴿يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: كمن يُنادَى وهو في مكان بعيد لا يسمع داعيًا ولا يجيب مناديًا، ولا يفقه ما يقال له، كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة].

وذلك لأن الذين لا ينتفعون بهدي القرآن قد سدّوا على أنفسهم أبواب الهدى بإعراضهم وكفرهم. وعنادهم، وإصرارهم على الجحود والعصيان.

اخْتِلَافُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي التَّوْرَاةِ سَابِقٌ عَلَى اخْتِلَافِهِمْ فِي الْقُرْآنِ

٤٥- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾

ثم أراد الله سبحانه أن يُسرِّي عن رسوله ﷺ فضرب له مثلًا بأن موسى عليه السلام قد أُوتي التوراة قبله، فاختلَف فيها بنو إسرائيل، فكان منهم من آمن ومنهم من كفر، وكان اختلافهم في التوراة أشد من اختلاف أمتك في القرآن، فقد كفر بدعوة موسى: فرعون وقومه، وبعض بني إسرائيل كقارون، وكفر به الذين عبدوا العجل في غياب موسى، وكذا الذين آمنوا بالتوراة وعطَّلُوا بعض أحكامها.

وقد عصم الله القرآن من مثل هذا الاختلاف؛ لأن الله تعالى تولّى حفظه بنفسه، ولم يكِلْ حفظه للأحبار والرهبان.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ أي: آتيناه التوراة كما آتيناك القرآن، فاختلف

فيها قومه، كما اختلف قومك عليك، فمنهم من آمن ومنهم من كذَّب، وهذه عادة قديمة في جميع الأمم مع جميع الرسل، فإنهم يختلفون في الكتب المنزلة على أنبيائهم.

ثم بيَّن سبحانه أنه لولا قضاؤه تعالى بإمهال المكذبين من أمته، وتأخير عقابهم إلى يوم القيامة، لأهلكهم في الدنيا بعذاب الاستئصال كالأمم السابقة، فقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ وهذه الكلمة هي كلمة تأخير العقاب، والإمهال إلى يوم القيامة، لكل من نزل فيهم كتاب سماوي، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [القصص: ٤٣].

فالأجل المسمَّى هو يوم القيامة، أي: لولا قضاء الله تعالى بتأخير العذاب عن قومك لفصَل بينهم بإهلاك الكافرين في الحال، وإن هؤلاء المشركين لفي شك من القرآن لتبلُّد عقولهم، وعمى أبصارهم ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أي: القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾ شديد الريبة، فلذلك كذبوه وجحدوه، وسُنَّة الله في خلقه لا تتخلف. قال تعالى:

٤٦- ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾

أي: إن هذا الإمهال، إعذار من الله تعالى للمختلفين في كتابه ليتداركوا أمرهم، ولأن الله تعالى لا يعاقب غير المجرم، وهي آية عامة في كل من أصلح أو أساء ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أي: من أطاع الله ورسوله، فآمن بالله تعالى وصدَّق برسول الله، وبما جاء به من عند الله، فإن ثواب عمله يعود عليه

﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي: ومَن عمل من السيئات فعصى الله ورسوله، فإن وزْر عمله يعود عليه ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ لا يعذب غير المذنب، ولا يزيد في عقاب المسيء، ولا ينقص من أجر المحسن، وفي هذا حث على فعل الخير وترك الشر، وبيان أنه لا تزور وازرة وزر أخرى.

والظلم: هو الاعتداء على حقوق الله تعالى أو حقوق العباد، ومن تمام عدل الله تعالى أنْ جعل كل درجات الظلم في رتبة الظلم الشديد بالنسبة لله تعالى.

و﴿بِظَلَّٰمٍ﴾ ليست صيغة مبالغة، وإنما هي صيغة نسبة، مثل نجَّار وحدَّاد وعطَّار، وليست صيغة مبالغة.

والله تعالى لا يظلم مثقال ذرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٤٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠].

أَرْبَعٌ مِنْ مَسَائِلِ الْغَيْبِ

٤٧- ﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى[1] قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾﴾

لَمَّا ذكر الله تعالى تأجيل عقاب المعارضين للقرآن إلى أجل مسمى هو يوم القيامة، وبيّن أن العمل الصالح والعمل السيئ يعود نفعهما على العبد وحده.

وبيَّن سبحانه أن من العمل السيئ إنكار البعث والنشور، والحساب والجزاء.

وكثيرًا ما كان المشركون إذا أُنذروا بالبعث استهزؤوا به، واستعجلوا مجيئه.

فبيَّن جلَّ شأنه في هذه الآية أن مردَّ علم وقت قيام الساعة إلى الله وحده، ولا سبيل للخلق إلى معرفته، فإذا سأل عنها سائل، قيل له: لا يعلم وقت قيامها إلا الله.

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: إلى الله وحده يُرجع عِلْمُ وقت قيام الساعة، فلا يعلم متى تقوم إلا هو، ولا يعلمها نبي مرسل ولا ملك مقرب، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ [النازعات].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧].

ولما سأل جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ عن قيام الساعة قال: **«ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»**[2].

ولما سأل رجل رسول الله ﷺ عن موعد قيام الساعة، صرف نظره إلى ما هو أهم، فقال له: **«ماذا أعددت لها؟»** أي: إن استعدادك لها بالعمل الصالح أوْلى من السؤال عن موعدها، وليس في عدم العلم بوقت قيام الساعة حجة على تكذيب الرسول ﷺ ولا نفي لمجيئها،

---

(١) قرأ ابن كثير بفتح ياء الإضافة من (شركائي) وصلًا، والباقون بإسكانها.

(٢) من حديث الإسلام والإيمان والإحسان في الصحيحين.

ولذا: فإن الله تعالى ذكر لقيام الساعة ثلاثة نظائر في الآية لا علم لأحد بها، وهي:

أوَّلًا: إن من أمور الغيب علم وقت خروج الثمرة من غلافها أو وعائها، حيث لا يعلم ذلك إلا الله تعالى ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ أي: لا تخرج الثمرة من أوعيتها إلا بعلم الله سبحانه، **والأكمام**: هي الأوعية التي تُخلق فيها الثمار، فكل ثمرة تُخْلق في كُمٍّ يحميها إلى أن تزهر، فتنضج، وتتفتح الأكمام عن الثمار، فلا تخرج ثمرة من كمها إلا بعلم الله سبحانه، وهذا شامل لمختلف أنواع الثمار والأشجار في المدن والصحارى، فلا تخرج ثمرة إلا وهو سبحانه يعلمها علمًا تفصيليًّا.

ثانيًا: ومن الغيب علم حمل الأنثى من الإنسان والحيوان، وتلقيحها من عدمه، فإن ذلك لا يكون إلا بعلم الله تعالى ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ أي: جنينًا في بطنها، فلا تحمل حامل إلا بعلمه تعالى، فكيف سوَّى المكذبون بين الله تعالى وبين من لا علم عنده ولا سمع ولا بصر.

ثالثًا: ومن أمور الغيب عِلْم وقْت وضْع الأجنة، فإن الحامل تكون مثقلة، ولا يعلم وقت وضعها بالدقيقة إلا الله تعالى ﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ يعود على الثمرات والحمل والوضع، فلا يخفى عليه شيء منها.

وكل ما يعرفه الإنسان عن الجنين قبل أن يولد، وعن الثمرة قبل أن تتفتح أكمامها، ونحو ذلك فليس من باب الغيب؛ لأنه حاصل وموجود.

وما يصيب فيه الرجل الصالح من القول، فيما هو غير ظاهر للناس، فهو من باب الفراسة والإلهام.

أما ما يقوله العرافون والمنجمون والكهنة فهو من باب الدجل والشعوذة[١].

الحقيقة العارية في الموقف العظيم:

وفي يوم القيامة يقال للمنكرين للبعث والنشور، توبيخًا لهم وإظهارا لكذبهم: أين شركاء الله الذين كنتم تُشركونهم مع الله في عبادتكم؟! قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ أي: الذين زعمتم أنهم آلهة، كي يدفعوا عنكم ما أنتم فيه من عذاب، أو يشفعوا لكم

(١) يُنظَر: «حاشية الجمل على الجلالين» (٤/ ٤٨) و«تفسير الخازن» (٤/ ٨٨).

عند الله؟ أين هم الآن في ساحة العرض والحساب؟ وعندئذ يتبرؤون منهم كما قال تعالى عنهم: ﴿قَالُوٓاْ﴾ مقرين ببطلان هذا الشرك وبطلان هذه الآلهة ﴿ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ﴾ أي: أخبرناك وأعلمناك الآن بالحقيقة، وهي أنه ما من أحد منا يشهد اليوم بأن لله تعالى شريكًا، فكلنا قد رجعنا إلى بطلان عبادتها وتبرأنا منها.

وهذه الشهادة تكون عند رؤيتهم للعذاب، حين يتبرأ التابع من المتبوع، والعابد من المعبود، وهم في عرصات القيامة يبحثون عن شركائهم، فلا يروْن منهم أحدًا، لقد انكشفت الحُجُب، واعترفنا بأنك أنت الله الواحد القهار. قال تعالى:

٤٨- ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ۝٤٨﴾

لقد غاب المعبودون عن أعين العابدين، فلم يروْهم في ساحة العرض، وذهبوا عنهم، فلم ينفعوهم بشيء، وكانوا قبل ذلك يعبدونهم في الدنيا، ويوم القيامة أيقنوا أنه لا ملجأ لهم إلا إلى الله، ولا خلاص لهم من عذاب الله ﴿وَظَنُّواْ﴾ أي: أيقنوا ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ﴾ أي: لا مهرب لهم ولا مفر من عقاب الله، فلا مُنقذ ينقذهم، ولا مغيث يغيثهم كما قال تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا ۝٥٣﴾ [الكهف].

فاحذروا الشرك - أيها المخاطبون - حتى لا تسوء عاقبتكم، ولا تخسروا دنياكم وأخراكم.

شَأْنُ الإِنْسَانِ الْكَافِرِ تَجاهَ السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ

٤٩- ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ۝٤٩﴾

وصف الله سبحانه المكذبين بقيام الساعة، باليأس والقنوط إذا أصابهم الشر، فإذا أصابهم الخير لم يشبعوا منه، واستكثروا منه وأسندوه لأنفسهم ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ﴾ أي: إن الإنسان بطبعه لا يملُّ من طلب الخير وجلْبه لنفسه، والاستزادة من متاع الدنيا، كالمال والصحة والجاه، وألوان النعيم، ولا يقنع بقليل ولا كثير منه، وكلما أتته الدنيا طلب المزيد.

فإذا أصابه الشر من الفقر والمرض وأنواع البلاء، فإنه ييأس، ويفقد الرجاء في الحصول على الخير، فيضيق صدره وينقطع قلبه، وتظهر آثار ذلك عليه ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ

﴿فَيَـُٔوسٌ﴾ من رحمة الله ﴿قَنُوطٌ﴾ سيئ الظن بربه.

وفي الحديث: عن عائشة ﵂ أن النبيَّ ﷺ قال: **«لو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنَّى أن يكون له ثالث، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب»**(١).

وهذا شأن غير المسلم، أما المسلم فإنه يقول: لئن مسني الشر زمنًا فقد حلَّ بي الخير أزمانًا، فهو يحمد الله تعالى في السراء والضراء.

وفي موضع آخر من القرآن استثنى الله سبحانه الصابرين العاملين للصالحات، فإنهم يشكرون الله على نعمه ويصبرون على ما أصابهم في أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم، قال تعالى ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [هود].

ثم ذكر تعالى حالة أخرى من حالات الإنسان الكافر، فقال:

٥٠ - ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ(٢) إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾

أي: ولئن أعطينا الإنسان غير المسلم نعمة منا من بعد ضر نزل به، فاغتنى بعد فقر، أو عُوفي بعد مرض، أو انتصر بعد هزيمة، فإنه لا يشكر الله تعالى، ولا يردُّ الفضل إليه، بل يطغى ويغتر، وينسى ما كان فيه من شدة، وينسب إلى نفسه ما هو فيه من خير أو جاه أو مال، بأنه قد أُعطي ذلك عن جدارة علمية، أو خبرة فنية، أو وراثة عن كابر، أو أنه حصل عليه بجِدِّه واجتهاده وسعيه الدؤوب، وهذا معنى ﴿لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى﴾ أي: بسعيي وكسْبي، فأنا مستحق له بعملي وبرضى ربي عليَّ، كما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ﴾ [القصص: ٧٨] فقد زعم أن النعمة وصلت إليه باستحقاقه لها، ولم يعلم أن الله تعالى يبتلي عباده بالغنى كما يبتليهم بالفقر، ويبتليهم بالخير كما يبتليهم بالشر؛ ليظهر الشاكر من الجاحد، والصابر من

---

(١) أخرجه البخاري عن ابن عباس (٦٤٣٦) ومسلم (١٠٤٩) و «المسند» (٢٤٢٧٦)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٢٨٠) والبزار في زوائد مسنده (٣٦٤٠) وأبو يعلى (٤٤٦٠) وعن ابن عباس في «المسند» (٣٥٠١) وعن زيد بن أرقم (١٩٢٨٠)، وأبو يعلى (٢٥٧٣) وابن حبان (٣٢٣١).

(٢) قرأ ورش وأبو عمرو وأبو جعفر وقالون بخلف عنه بفتح ياء الإضافة من (ربيّ) وصلًا، والباقون بإسكانها.

الْجَزِع، وكما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق].

ثم إن كان هذا القائل من أهل الشرك والكفر، وسمع الحديث عن القيامة وما فيها من بعث وحساب وجزاء، أنكر ذلك قائلًا: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ أي: لا أعتقد أن هناك بعثًا ونشورًا، والشك في البعث لا يكون إلا من الكافر، أو المتظاهر بالإسلام المبطن للكفر، فهو يقول: وعلى سبيل الفرض والاحتمال الضعيف، لو قامت الساعة، وأني سأرجع إلى ربي، كما يخبرنا الأنبياء، فإن لي الجنة عنده، وكما أنا سعيد في الدنيا فسأكون سعيدًا في الآخرة، ولي فيها أحسن وأفضل مما أنا فيه من نعيم الدنيا، وسيُحِسن إليَّ ربي في الآخرة كما أحسن إليَّ في الدنيا. فهو يتمنى ذلك على الله، مع إساءته العمل وسوء الاعتقاد، هذا معنى قوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ ومثله في سورة الكهف، قوله تعالى: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

وقد حكى الله سبحانه ذلك عن العاص بن وائل، حين طلب خبَّاب بن الأرتِّ مالًا له عنده، من أجرٍ له على صناعة سيف، فقال له: حتى تكفر بمحمد؟ قال خبَّاب: لا أكفر بمحمد حتى يُميتك الله ويبعثك، فقال: إني لميت فمبعوث؟ قال: نعم، فقال: لئن بعثني الله فسيكون لي مال فأعطيك، فأنزل الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧﴾ [مريم].

وربما كان هذا القول من باب الاستهزاء واستبعاد قيام الساعة.

وقد تجري أعمال بعض المسلمين على صورة من لا يظن الساعة قائمة كمن يفعل السيئات، ويقول: إن الله غفور رحيم، إن الله غني عن عذابنا.

ثم بيَّن سبحانه عاقبة الإنسان الكافر المنكر للبعث والنشور، فقال: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ أي: لنخبرنهم يوم القيامة بأعمالهم السيئة التي عملوها في الدنيا ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ بأن نريهم عكس ما اعتقدوه، فننزل بهم عذاب الذل والهوان، بدلًا من الحسنى والكرامة التي أيقنُوا أنها ستكون لهم في الآخرة، ونذيقهم العذاب الشديد فلا يمكنهم التخلص منه، فيخلدون في نار جهنم، لا يموتون فيها ولا يحيوْن!

شَأْنُ الإِنْسَانِ بِصِفَةٍ عَامَّةٍ

٥١- ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾

ذكر سبحانه في هذه الآية نوعًا آخر من الناس، يشمل المشرك والمسلم إلا من عصم الله، وهو أن الإنسان إن أصابته السراء والخير والنعم، كالصحة والرزق والجاه، طغى وتكبَّر ونسي شكْر ربه، وشُغل بلذَّاته، وفي هذا تفاوت كبير بين وقوع قلة الشكر والطغيان من الناس وكثْرته.

وهذا الإنسان إن أصابته الضراء وما يكره، كالفقر والمرض، أو أصابه الجزع، لم يصبر، فهو يلحُّ بكثرة السؤال لكشف الضر عنه سريعًا، فلا صبر في الضراء ولا شكر في السراء إلا من رحم الله.

وهذا نقد لسلوك الإنسان في الحالتين؛ لأنه لم يعرف ربه إلا في وقت الشدة ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ أي: إذا أنعمنا على جنس الإنسان، بصحة أو رزق أو غيرهما ﴿أَعْرَضَ﴾ أي: انصرف عن شكر المنعم سبحانه، ولم يتضرع إليه بالدعاء ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ عن ذكر ربه، فترفَّع وتكبَّر عن الانقياد للحق، وأبعد جانبه عن التفكر فيمن أنعم عليه، فإن أصابه ضرٌّ وبلاءٌ وشدةٌ فهو كثير الدعاء أن يكشف الله عنه ضره ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ أي: إنه يكثر الدعاء مُلحًّا فيه عندما يصيبه الشر.

ودعاء المشركين ربهم في الجاهلية، وسؤالهم رفع الضر عنهم، متوارث عمن سبقوهم من أهل الحنيفية ممن عاصروهم وتأثروا بهم، قبل أن تدخل عليهم عبادة الأصنام، فهي متأصلة فيهم، فإذا دعوا الله تعالى غفلوا عن منافاة أقوالهم لعقائدهم الشركيَّة.

ولهذه الآية نظائر كثيرة.

١- منها قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج].

٢- وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢].

٣- وقوله سبحانه: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [هود].

٤- وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء].

٥- وقوله أيضًا: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ﴾ [الزمر: ٤٩].

٦- وقوله ﷻ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ [الزمر: ٨].

اسْتِدْعَاءٌ لِأَهْلِ الإِلْحَادِ

٥٢- ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾

وقبل ختام السورة يعود السياق إلى الغرض الأصلي منها، وهو بيان حقيقة القرآن وصدقه، وصدق من جاء به ﷺ، وذلك في صورة استدعاء لمن ألْحدُوا في القرآن، وكفروا بالذكر لمّا جاءهم، حيث يُطلب منهم أن يُعْمِلوا النظر في دلائل صدق القرآن، فيتأملوا في إعجازه واتِّساقه، وتصديق بعضه بعضًا، وكونه مؤيدًا للكتب السابقة، وكون الكتب السابقة بشَّرَتْ به، ويتأملوا ما فيه من أحوال الأولين والآخرين، فإنَّ ما هم عليه من إنكار صدق القرآن، ليس صادرًا عن نظر وتمحيص، بل هو مجازفة وعدم تأمل، وانقياد لأهل الضلال.

﴿قُلْ﴾ يارسولنا لهؤلاء المكذبين ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِن كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾من غير شك ولا ارتياب ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ فأنكرتموه وجحدْتموه، مع ظهور الأدلة والبراهين على وجوب الإيمان، أخبروني ﴿مَنْ أَضَلُّ﴾ منكم، أي: لا أحد أضل ﴿مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: معاندة لله والرسول، لأنكم على خلاف بعيد عن الحق، بكفركم بالقرآن وتكذيبكم له، فقد تبين لكم الحق والصواب ثم عدلتم عنه إلى الباطل والجهل، فأنتم أضل الناس وأظلمهم.

وقد ذكر القرآن هذا التشكيك بين أهل الكفر وأهل الشقاق، ليتساءل مَنْ منهما أشد ضلالًا، وذلك مراعاة لاختلاف درجات المعاندين، ومجاراة لهم في ادِّعائهم، قال تعالى متوعِّدًا: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [البقرة:١٧٦].

فإن كنتم -أيها المكذبون- في شك من صحة هذا الكتاب، فسيُظهر الله لكم من آياته في السموات والأرض وفي أنفسكم عجيب صُنعه وبديع خلقه، وستكشف الأيام عن الحوادث الهائلة التي تجدّ في الكون، حتى يظهر لكم جليًا صدق هذا الكتاب وأن ما اشتمل عليه هو الحق، وكفى بالله شهيدا على صدقه وعلى إعجازه.

دَلَائِلُ صِدْقِ الْقُرْآنِ

٥٣- ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾

ثم إن الله تعالى قد وعد رسوله ﷺ بأنه سيغمُر المشركين والمكذبين بطائفة من آياته، يتبيَّنون منها أن القرآن من عند الله حقًّا، فلا يسعهم إلا الإيمان به، فهو غير محتاج إلى اعترافهم، وستظهر دلائل صدقه في الآفاق البعيدة عنهم وفي أنفسهم، وتتظاهر الأدلة على أنه الحق، فلا يجدون سبيلًا لإنكاره، بل سيؤمنون به يومئذ مع جميع من آمن.

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا﴾ أي: ستظهر لهؤلاء المشركين المكذبين أدلتنا على أن القرآن حق مُنزل من عند الله تعالى، وذلك فيما تضمنه من العجائب العلْوية والسفلية.

﴿فِى ٱلْـَٔافَاقِ﴾ أي: في أقطار السموات والأرض، من الشمس والقمر والنجوم، وجوف الأرض، والأشجار والنبات، والليل والنهار، والرياح والأمطار، والزرع والثمار، والرعد والبرق والصواعق، والجبال والبحار...، وما إلى ذلك.

﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: ونريهم عجائب قدرتنا في خلقهم وتكوينهم من عظيم الصنعة، وبديع الحكمة، بما أودعنا في الإنسان من حواس، وقُوى وعقل وروح، حتى سبيل الغائط والبول، فإن الرجل يأكل ويشرب من مكان واحد، ويتميز خروج ذلك من مكانين.

ونريهم بديع صنعة الله تعالى وحكمته في عيْنَيه اللتين هما قطرة ماء، ينظر بهما من الأرض إلى السماء، مسيرة خمس مئة عام.

وفي أُذنيه اللتين يفرق بهما بين الأصوات المختلفة.

وفيما يصيبهم من خير وشر ونعمة ونقمة، وغير ذلك من بديع حكمة الله تعالى ليظهر لهم أن هذا القرآن حق ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ موحى به من عند الله، لا يقبل الشك ولا يتطرق إليه.

وأكبر شاهد على صدق القرآن الكريم هو شهادة رب العالمين، فلا تلتفت إلى تكذيبهم ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فقد شهد الله له بالتصديق في قوله سبحانه: ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء].

ولا شيء أكبر من شهادة الله سبحانه: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩]. ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الرعد: ٤٣].

وفي هذه الآية طرف من الإعجاز بالإخبار بالغيب، فقد أخبرت بظهور هذا الدين في المشرق والمغرب، كما يشهد بذلك السابق واللاحق ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١].

وذلك باتساع رقعة الإسلام، ونقص أرض الكفر.

ومعنى الآيات في هذه الآية: أنها تشمل آيات القرآن، وتشمل آيات الله الكونية الدالة على وحدانيته تعالى، والدالة على صدق رسوله ﷺ.

والآفاق تشمل أقطار السموات والأرض، وما يحدثه الله فيهما من الحوادث العظيمة التي تظهر تباعًا، وما يتجلَّى لهم في أنفسهم من العلوم والمعارف التي لم تكن معروفة لأسلافهم، وما هو في علم الغيب مما يظهر فيما بعد، وما إلى ذلك من دلائل الإعجاز في الآية.

الإحَاطَةُ بِشُؤُونِ الْخَلْقِ جِمَاعُ مَا فِي السُّورَةِ

٥٤- ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾﴾

ختم الله السورة بجملتين: بيَّنت **الجملة الأولى**: أن السبب فيما ذكرتْه السورة من تكذيب المكذبين، وموقفهم من عدم توحيد الله تعالى، وعدم تصديق رسوله ﷺ، وتصديق الكتاب الذي نزل عليه، السبب في ذلك هو إنكارهم للبعث، ولو أنهم كانوا يؤمنون

بالبعث والحساب والجزاء، لانصرفتْ همتهم إلى العمل لما بعد الموت، فهم في شك من البعث والقيامة، وهمتهم منصرفة إلى الدنيا، وليس للآخرة حُسبان في توجههم، فلذلك لم يعملوا لها ولم يلتفتوا إليها.

ولمَا كانوا في مأمن من ذلك، أشركوا بالله تعالى، وكذَّبوا رسوله ﷺ، وكذَّبوا الوحي الذي نزل عليه.

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ﴾ ألا فانتبهوا يا قوم، إن المكذبين الكافرين بالله واليوم الآخر في شك عظيم من البعث بعد الممات، ولهذا لم يؤمنوا.

وهذه جملة جامعة لما في السورة من أحوال المشركين المكذبين بالبعث والنشور.

والجملة الأخرى: تتضمن إبطال أقوال المشركين وتقويم اعوجاجهم؛ لأن ذلك من آثار علم الله تعالى بالغيب والشهادة ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾.

ألا فانتبهوا يا قوم، فإن الله تعالى قد أحاط علمه بكل شيء، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

وهذا جماع ما في السورة من الإحاطة بشؤون الخلق جملة وتفصيلًا، وسوف يجازيهم الله على ما قدمت أيديهم، ولن يفلتوا من العقوبة، وهذا من براعة الختام.

تم تفسير (سورة فصلت) ولله الحمد والمنة



تَفْسِيرُ سُورَةِ الشُّورَى (٤٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الشورى هي السورة الثانية والأربعون في ترتيب المصحف، والتاسعة والستون في ترتيب النزول، كما رُوي عن جابر بن زيد، نزلت بعد سورة فصلت وقبل سورة الزخرف، في حدود سنة ثمان بعد البعثة، وقت انحباس المطر عن أهل مكة، واستمر نزولها إلى سنة تسع من البعثة، أي: بعد أن آمن نُقباء الأنصار ليلة العقبة.

وعدد آياتها عند أهل الكوفة ثلاث وخمسون آية، وعند أهل حمص واحد وخمسون آية، وعدَّها غيرهم خمسين آية.

وعدد كلماتها ثمان مئة وستون كلمة، وعدد حروفها ثلاثة آلاف وخمس مئة وثمانية وثمانون حرفًا.

وتسمى عند السلف سورة ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾، كما ترجم لها البخاري والترمذي، وقد يُختصر الاسم فيقال سورة ﴿عٓسٓقٓ ۝٢﴾، وتسميتها بسورة الشورى هو الأشهر.

وهي سورة مكية عند الجمهور، واستثنى بعضهم أربع آيات من قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ الآية [٢٣] وما بعدها، وقيل: إن آية ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ﴾ الآية [٢٧] نزلت في أهل الصُّفَّة، فتكون مدنية.

وقيل أيضًا: إن آية ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ۝٣٩﴾ مدنية، والأصح أنها مكية كلها.

وموضوعات سورة الشورى هي موضوعات السور المكية، والمحور الأساس الذي تدور عليه هو **الوحي والرسالة**، فتبدأ السورة وتنتهي بالحديث عن الوحي، ويتخللها تقرير مصدر الوحي والرسالة، وهي الحقيقة البارزة في محيط السورة:

١- ففي أول السورة بيان لمصدر الوحي، وأنه منزل من عند الله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣﴾.

ثم يأتي تقرير لمركز القيادة الجديدة في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ

أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ الآية [٧].

ثم تبيِّن الآيات وحدة الرسالة بين جميع الرسل: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ الآية [١٣].

وأشارت الآيات إلى أن الناس خالفوا هذه الوصية، وأن التفرق في الدين قد وقع ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ الآية [١٤].

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ الآية [١٤].

ويأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يمضي في طريق الدعوة إلى الله، تاركًا هذا الخلاف وراءه، وما على الرسول إلا الدعوة والبلاغ:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ الآية [٤٨].

وتختم السورة ببيان طرق نزول الوحي على رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ الآية [٥١].

ويقرر الله سبحانه أمية الرسول ﷺ في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ الآية [٥٢].

أما كيفية نزول الوحي على رسول الله ﷺ فقد بيَّنه حديث عائشة ﵂: أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: **«أحيانًا يأتي مثل صلصلة الجرس -وهو أشده عليَّ- فيُفصم عني وقد وعيتُ عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملَك رجلًا فيكلمني فأعي ما يقول»**. قالت عائشة ﵂: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصَّد عرقًا[١].

وقد بيَّنتْ آية الوحي الثانية في السورة أن الإسلام دين عام خالد، وأنه لقارات الدنيا جميعًا إلى آخر الدهر، ونقطة البداية كانت ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ فميدان البلاغ هو

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢) وهذا لفظه، وانظر (٣٢١٥) و«صحيح مسلم»: (٤/ ١٨١٦) برقم (٢٣٣٣) و(الموطأ) (١/ ٢٠٢) والترمذي (٣٦٣٤) و«المسند» (٢٤٣٠٩) وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وابن حبَّان (٣٨) و«سنن النسائي الكبرى» (١٠٠٨).

العالم كله، شرقُه وغربُه، ولم يمضِ نصف قرن على البعثة حتى بلغ الإسلام المشارق والمغارب، وأسقط أعلام الأمم التي استعمرت آسيا وأفريقيا.

وكان نزول الوحي على محمد ﷺ بعدما انقطعت صلة اليهود بالدعوة إلى الله تعالى، وجعلوا الدين ميراثًا قوميًّا، أما النصارى فقد غلب عليهم تعدد الآلهة وقصة الفداء، والحديث الطويل عن ابن الله كما يزعمون!!

جاء الإسلام فأعلن صلته الوثقى بموسى وعيسى عليهما السلام، وأكَّد أنه يقرر الوحي الذي نزل على جميع الرسل، ومضى النبي ﷺ في طريق الدعوة، فاستجابت له جماهير أهل الكتاب في آسيا الوسطى وشمال أفريقيا، كما ثاب الوثنيون إلى رشدهم في إيران وآذربيجان والهند والصين، وانزاحت السدود أمام الفيضان فانطلق.

والإسلام ينتشر حاليًا بصورة سريعة في أوربا وأمريكا، مخترقًا الحواجز والقيود، يدْحض حجج الخصوم وينفذ فيهم على قدم وساق ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ الآية [٢٤].

﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ الآية [١٦].

وقد شقَّ الإسلام طريقه حتى بلغ ما بلغ الليل والنهار، والأذان يرتفع في كل قطر يشهد لله تعالى بالوحدانية، ولمحمد ﷺ بصدق الرسالة، كأنه ساعة لا يتوقف لها دقٌّ، ولقد كذَب على الله بعضُ الناس وزوَّروا وحْيًا مُضحِكًا، فسُرعان ما انْمحى أثرهم، وانقضى زيفهم، وبقي الخلود للحق وحده[١].

٢- وقد ساقت السورة عددًا من آيات الله الكونية الدالة على وحدانيته سبحانه:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ﴾ الآية [٢٩].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ الآية [٣٣].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ الآية [٢٨].

٣- وفي مضمار الفضيلة والعدالة ذكَّرت السورة بعدة خصال ينجو بها العباد من غضب

(١) يُنظَر: «التفسير الموضوعي لسور القرآن» ص ٣٧٤ وما بعدها.

ربهم، تشمل: العمل للآخرة، وتفويض الأمر إلى الله تعالى، واجتناب كبائر الإثم والفواحش، والعفو عمن أساء، والاستجابة لله رب العالمين، وإقام الصلاة، وتحكيم الشورى بين الناس، والإنفاق من رزق الله، وذلك في الآيات من السادسة والثلاثين إلى الأربعين.

وحين يزداد اليهود تعلقًا بمواريثهم، ويقاتلوننا تدينًا، فلا بدَّ لنا من الاستجابة لأمر الله تعالى حتى ينصرنا الله عليهم ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ الآية [٤٧].

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى **قسمين**:

القسم الأول: من أول السورة إلى الآية السادسة والعشرين، وهو يتناول جانب الوحي والرسالة، وما يتصل بها، وذلك بعد افتتاحها بخمسة حروف من حروف الهجاء، فتقرر وحدانية الموحى به إلى الرسول ﷺ وإلى الرسل قبله، وفي هذا إشارة إلى أن الإسلام دين عام خالد إلى قارات الدنيا، وأن دين الله واحد يدعو إلى التوحيد ونبذ الشرك، ولو شاء الله لقسر الناس على التوحيد وجعلهم أمة واحدة، ولكنه سبحانه ترك لهم حرية الاختيار، وقال لهم: أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه، وجعل الناس فريقين: فريقًا في الجنة، وفريقًا في السعير.

ولأن هذا الموضوع هو محور السورة، فقد جاء ذكره في أولها وفي أثنائها وفي آخرها، حيث ابتدأت السورة ببيان أن الوحي قد نزل على محمد ﷺ كما نزل على الرسل قبله ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ الآية [٣].

وبعد ثلاث آيات من هذه الآية جاء ذكر الوحي خاصًا بمحمد ﷺ مع بيان أنه نزل بلسان العرب إلى عموم الخلق، وأن مكة المكرمة هي مركز انطلاق الدعوة العالمية ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ الآية [٧].

ثم جاء ذكر أولي العزم من الرسل، لبيان أن شرع الله الذي أوحاه إلى جميع الرسل واحد، وذلك في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ الآية [١٣].

وفي نهاية السورة جاء الحديث عن أنواع الوحي إلى جميع الرسل ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ الآية [٥١].

وقررت الآية بعدها أمية محمد ﷺ، وأنه قبل نزول الوحي عليه لم يكن يدري ما الكتاب ولا الإيمان.

وقد تناول هذا القسم إلى جوار ذلك ما يتصل بالوحي من عموم الرسالة الخاتمة، وتفرق الناس فيها، ووجوب التحاكم إلى ما أنزل الله تعالى عند الاختلاف، وأَمْرُ النبي ﷺ أن يمضي في طريق الدعوة إلى الله، ولا يتبع أهواء الضالين، وقد وعد الله من اتبع طريق الوحي سعادة الدنيا والآخرة، ويُحرم منها من انغمس في الشهوات في دنياه وترك الآخرة وراء ظهره، أو أشرك بالله تعالى وظلم نفسه.

القسم الثاني: من الآية السابعة والعشرين إلى نهاية السورة، وهو يتعلق بدلائل التوحيد في الكون، وفيه حشد لعدد من آيات الله تعالى في الكون من الرزق، ونزول الغيث، وخلق السموات والأرض وما فوقها من دواب، والسفن في البحار، والرياح المسخرة بإذن الله تعالى.

ويصف الله تبارك وتعالى المؤمنين بأوصاف، منها: التوكُّل على الله، واجتناب الكبائر والفواحش، والعفو والصفح، والاستجابة لأمر الله تعالى، وإقام الصلاة، والأخذ بمبدأ الشورى، والإنفاق في سبيل الله، وعدم قبول الظلم، وعدم مقابلة الإساءة بمثلها.

وقرر سبحانه أنه لا حرج في الانتصار بعد الظلم، وأن الصبر والعفو من عزائم الأمور.

وتخلل ذلك وعيد شديد وتخويف من النار، ووجوب الاستجابة لأمر الله تعالى قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله، وأشارت السورة إلى أن الله تعالى هو المعطي الوهاب، يهب لمن يشاء الذكور والإناث أو يقتصر على أحدهما.

وختمت السورة ببيان أن مهمة النبي ﷺ هي هداية الخلق إلى صراط الله، وإليه المرجع والمصير فيجازي كلًا بما يستحق.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْوَحْيُ يَصِلُ الأَرْضَ بِالسَّمَاءِ

١-٣- ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ[(١)] ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ[(٢)] إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣﴾

ابتدأت سورة الشورى بخمسة حروف من حروف الهجاء، كغيرها من السور المفتتحة بالحروف المقطعة، ولعلها تشير إلى عَجْز البشر عن معارضة القرآن، للدلالة على أنه منزَّل من عند الله تعالى، مع أنه مكون من الحروف التي ينطقون بها كلامهم، والتحدي قائم إلى يوم القيامة.

وفي هذه الحروف جذب الانتباه إلى البدء بكلام غير مألوف للتفكر فيه، والله أعلم بمراده منها.

ثم بيَّن سبحانه أن ما أوحى الله تعالى به إلى نبيه محمد ﷺ في هذه السورة من الدعوة إلى التوحيد، والبعث، ومكارم الأخلاق، وغيرها من المعاني، أوحى إليه مثله في غير هذه السورة، وأوحاه إلى مَن قبله من الرسل ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾.

أي: كما أنزل الله إليك -أيها الرسول- هذا القرآن أنزل الكتب والصحف على الأنبياء من قبلك، كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ۝١٦٣ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ﴾ [النساء].

---

(١) قرأ أبو جعفر بالسكت بدون تنفس على حروف الهجاء الخمسة، كأن كل حرف منها كلمة مستقلة، ويلزم منه إظهار النون من عين وسين وعدم إخفائها، ولكل من القراء العشرة ثلاثة أوجه في (عين) هي المد والتوسط والقصر، فالمد لأجل الساكن، والتوسط لسكون الياء وفتح ما قبلها، والقصر إجراءً للوصل مجرى الوقف، والأولى وصْل (حم) بـ(عسق)، وأمال الحاء من (حم) ابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي وخلف، وقلَّلها الأزرق، وقرأ أبو عمرو بالفتح والتقليل، وفتحها الباقون.
هذا: وقد عدّ الكوفي والحمصي (حم) و(عسق) آية، وتركهما غيرهما.

(٢) قرأ ابن كثير بالبناء للمفعول في (يُوحَى) و (إليك) نائب فاعل، ولفظ الجلالة فاعل بفعل مقدَّر، كأنه قيل: من يوحِي؟ فقيل: يوحي الله، وقرأ الباقون بالبناء للفاعل وهو (الله) و(إليك) متعلق بـ (يوحي).

وفي الآية إشارة إلى أن ما في السورة من عقائد وأحكام وآداب ومكارم أخلاق، إنما هو لتبليغ ذلك للناس؛ كي ينتفعوا ويعتبروا ويتعظوا.

وفي هذا بيان أن النبي ﷺ ليس بدعًا من الرسل، وأن طريقته طريقة من قبله من الرسل، وأن ما جاء به يماثل ما جاؤوا به من التوحيد والعقيدة.

والوحي متجدد النزول على النبي ﷺ مدة حياته كما يفيده الفعل المضارع ﴿يُوحِىٓ﴾؛ لكيلا يطمع المشركون في انقطاع الوحي عنه، وما إعراض بعض الناس عن الوحي المنزَّل إلا كإعراض الأمم السابقة عما جاءت به الرسل.

وكل ما جاء من عند الله تعالى حق وصدق، وهو تنزيل ممن اتصف بالألوهية والعزة والحكمة البالغة، وجميع ما في العالم العلوي والسفلي خلقه وملكه وتحت تدبيره.

وكأن سائلًا سأل: ومن يوحي إليك بهذا القرآن؟ فكان الجواب: هو ﴿ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ﴾ في ملكه، وفي انتقامه ممن عصاه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله وتدبير شؤون الكون.

حِكْمَةُ اللَّهِ تَقْتَضِي خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِتْقَانَ نِظَامِ الْعَالَمِ

٤- ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾﴾

ثم إن صفتي العزة والحكمة لا تتحققان إلا بخلق السموات والأرض وملكيتهما، وإتقان النظام الذي تُسيَّر به المخلوقات، وقد أكد الله تعالى هذا المعنى ببيان أن ما في الكون كله مملوك ومخلوق لله وحده.

ثم وصف الله تعالى نفسه بصفتين أُخريَيْن، وهما صفتا: العلُوّ والعظمة، فلا عَلِيَّ ولا عظيم غير الله سبحانه؛ لأن من عداه مفتقر إليه ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ بذاته وقُدْرته وقهره ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي له العظمة والكبرياء.

موقف البشر من الوحي:

لقد نزل الوحي على رسول الله ﷺ وقام بتبليغه للناس، وفسره بسلوكه في سيرته العطرة، فهل صوَّب الوحي كل خطأ؟ وهل محا الإسلام الشرك والوثنية؟

لقد بذل الرسول ﷺ الجهد، واجتهد الصحابة ومن بعدهم في الدعوة إلى الله تعالى ولا

يزالون، ولكن الذين تلقوا الوحي كانوا على فريقين: منهم من آمن، ومنهم من كفر. قال تعالى:

٥- ﴿تَكَادُ[١] ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ[٢] مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾

أي: توشك السموات على التصدع من كفر الكفار، أما المؤمنون فإن من في السموات يسألون الله تعالى لهم المغفرة والرحمة، وذلك أنه لما وصف الله نفسه بالعُلوِّ والعظمة، أخبر سبحانه أن السموات على عظم خلقهن تكاد تتشقق من علوِّ شأن الله تعالى وعظمته هيبة منه وإجلالًا، وخوفًا من مخالفة ما قدَّره الله لهن من التسخير ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾.

ويصح أن يكون المعنى: تكاد السموات يتفطرن من كثرة ما فيهن من الملائكة والكواكب وتصاريف الأقدار، ويوضح هذا قوله ﷺ من حديث أبي ذر ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «**إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطَّت السماء وحُقَّ لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه جبهة ملَك ساجد..**»[٣] ويرجحه قول الله تعالى بعدها: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾.

وفي موضع آخر من القرآن الكريم: أن السماء تكاد تنفطر لما فشا في الأرض من الإفساد، وعلى رأسه الشرك بالله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم].

---

(١) قرأ نافع والكسائي بياء التذكير في (يكاد)، والباقون بتاء التأنيث، وجاز تذكير الفعل وتأنيثه؛ لأن الفاعل وهو (السموات) مؤنث غير حقيقي.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف (يَتَفَطَّرْنَ) مضارع تفطر، بمعنى: تشقق، وقرأ الباقون (يَنْفَطِرْنَ) مضارع انفطر، بمعنى: انشق، وهم أبو عمرو وشعبة ويعقوب.

(٣) أخرجه ابن مردويه عن أنس بإسناد حسن كما في «الدر المنثور» (٩/ ٣٥٠) وأخرجه أحمد برقم (٢١٥١٦) عن أبي ذر، قال محققوه: حسن لغيره، وفيه مورق العجلي لم يسمع من أبي ذر، وأخرجه الترمذي بتحسين الألباني له عن أبي ذر أيضًا في «صحيح سنن الترمذي» (١٨٨٢) مطوَّلًا، وفي السنن (٢٣١) وابن ماجه (٤١٩٠). والبزار (٣٥٢٤) والبغوي (٤١٧٢) والطبراني (٣١٢٢) بإسناد قوي.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾ [الرحمن].

وقوله سبحانه: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾ [الانفطار].

وقوله ﷻ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ [الانشقاق].

وتشقُّق السموات يبدأ من الجهة التي فوق، على الجهة التي تحت، حيث صدرت كلمة الكفر من الأرض، فالسموات تخر على الأرض.

أو أن كل سماء تخرُّ على التي تحتها من قول المشركين: اتخذ الله ولدًا، أو تخرُّ من عظمة الله وجلاله.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الكرام مذعنون لعظمة الله تعالى خاضعون لجلاله، وهم ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: والملائكة حين يتلقون من الله تعالى أوامره يسبحونه ويحمدونه، فينزهون الله تعالى عن كل نقص ويصفونه بكل كمال، ويحمدونه لأنه أهل لذلك، قال تعالى ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣].

وقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل].

وهم ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء].

والتسبيح منهم يجري مجرى النفَس من الإنسان، وقُدِّم التسبيح على الحمد، ليُعلم أن تنزيه الله تعالى عما لا يليق به، أهم من إثبات صفة الكمال له سبحانه.

وحين تفيض الملائكة خيراتِ ربها على عباده، فإنها تستغفر لذنوب مَنْ في الأرض ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من المؤمنين بصفة خاصة، عما يصدر منهم مما لا يليق بعظمة الله تعالى كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧].

فيطلبون لهم عفو الله تعالى ومغفرته ورحمته، والكافر لا يستحق أن تستغفر له الملائكة.

وقيل: إن الملائكة يطلبون لهم الهداية، أو يطلبون من الله تعالى ألَّا يعاجلهم بالعقوبة، وهذا على معنى أن الاستغفار لمن في الأرض جميعًا.

أمَا وقد فسرتْها الآية الأخرى فهي خاصة بالمؤمنين، ويكون المراد بمن في الأرض: من يستحقون استغفار الملائكة لهم.

وقد أثبت القرآن أن الملائكة تلعن من يستحق اللعنة، كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١].

ثم ختم الله الآية بقوله سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ﴾ لذنوب المؤمنين من عباده ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بهم، فهو واسع الرحمة والمغفرة لمن يشاء من عباده، ولا يُسأل عما يفعل، ولو لا مغفرة الله تعالى ورحمته لعاجل خلقه بالعقوبة في الدنيا.

قال القرطبي: هيَّبَ وعظَّم في الابتداء، وألْطفَ وبشَّر في الانتهاء[١].

وفي وصفه تعالى بالمغفرة والرحمة، ما يوجب امتلاء القلوب بمحبته وإجلاله، وصرْف جميع أنواع العبادة له،وفي هذا إشارة إلى أن الشرك بالله تعالى أكبر الظلم وأفحش القول، ولذا: فقد ذم الله تعالى الشرك والشركاء في قوله:

٦- ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ۝٦﴾

ولما قامت الحجة على وحدانية الله تعالى بمقتضى وصْفه بالعزة والحكمة والعُلوِّ والعظمة، وعَلِمَ المؤمنون ذلك استغفرتْ لهم الملائكة، أمَّا الفريق الآخر الذي لم يؤمن بوحدانية الله تعالى فلا تهتم بشأنهم -أيها الرسول- فإن الله تعالى كفيل بهم، ولستَ عليهم بوكيل؛ لأن قلوبهم قد عميت عن تلك الأدلة ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ أي: اتخذوا غير الله آلهة يعبدونها ويتولَّونها، ويتخذونهم شفعاء وشركاء يقربونهم إلى الله زلفى، هؤلاء ليسوا أولياء لله على الحقيقة، لأنهم تولّوا الباطل والأنداد من دون الله، والله تعالى سيحاسبهم ويجازيهم.

قوله: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: يحفظ عليهم أعمالهم ليجازيهم بها يوم القيامة، خيرًا أو شرًا، فعليك البلاغ وعلينا الحساب، ولم يوكلك الله عليهم حتى تؤاخذهم بذنوبهم ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ لتحفظ أعمالهم، أو تُسأل عنها، إنما أنت منذر، وما أنت بموكَّل

(١) «تفسير القرطبي» (١٦/ ٥).

من الله على جبرهم على الإيمان، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [٤٨]. وأولياء الكفار المذكورون في الآية:

١- إما أن يراد بهم: الشياطين، **وعبادة الكفار لهم**: طاعتهم فيما زيَّنه لهم الشيطان من الكفر والمعاصي، فهو شرك الطاعة، كما قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ [يس].

وقال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ [مريم].

٢- وإما أن يراد بالولاية: عبادة الأوثان، أو التوسط بهم إلى الله تعالى، كما في الآية: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣].

عَالَمِيَّةُ الرِّسَالَةِ

٧- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا[1] رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾

ثم عادت الآيات إلى الحديث مرة أخرى لتبيِّن أن لسان الوحي المنزل على محمد ﷺ هو العربية، وكأن الآيات تقول: كذلك يوحي إليك الله العزيز الحكيم قرآنًا عربيًّا.

ولتُبيِّن أنه لا فرق بين الوحي المنزل على محمد ﷺ وبين ما أوحاه الله إلى الرسل قبله، إلا اختلاف اللغات، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

وبمثل هذا الوحي أوحى الله إلى رسوله محمد ﷺ قرآنًا معجزًا بلسان عربي لا لَبْس فيه ولا غموض؛ ليكون كلمة الله الأخيرة إلى الخلق أجمعين، قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] أي: وكلُّ من بلغته رسالة الإسلام من الثقلين إلى قيام الساعة، كما قال تعالى: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ [الجمعة: ٣].

---

(١) قرأ حمزة بخلف عنه بمد لام (لا ريب) أربع حركات للمبالغة، والباقون بالقصر.

وهذا معنى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

والقرية في القرآن، بمعنى: عاصمة المدن، فمكة هي المدينة الكبرى، وكُنيت أم القرى؛ لأنها أقدم المدن العربية، فسماها العرب أم القرى، والأم تطلق على الأصل، فهي أعظم القرى، وغيرها يتبعها كما يتبع الفرع الأصل، وهي قبلة أهل القرى جميعًا، وموضع حَجِّهم وعُمْرتهم، وفيها أول بيت وضع للناس، وفيها مقام إبراهيم، وحِجْر إسماعيل.

والمنذَرون هم أهل مكة ومن حولها، وكانت مكة نقطة الانطلاق بالدعوة إلى مشارق الأرض ومغاربها؛ لأنها أصلح مكان على وجه الأرض لنشأة الإسلام، وأصلح نقطة تبدأ منها عالمية الإسلام، حيث تقع في مكان يتوسط العالم.

فقد اقتضت حكمة الله تعالى اختيار الأمة العربية لتكون أوَّل من يتلقَّى الإسلام وينشره بين الأمم، ولو أن الله تعالى خاطب جميع الأمم بدعوة الإسلام أول نزوله، لاقتضى هذا أن ينزل القرآن بلغات لا تُحصى.

ولذا: فإن الله تعالى اختار أفضل البشر وأفضل اللغات، وأفضل الأمكنة، لينطلق منها الإسلام إلى عموم الثقلين، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ الآية [القصص: ٥٩].

وما حول مكة يشمل جميع الأرض، كما يوضحه قول الله تعالى:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان].

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

ومكة هي أحب البلاد إلى الله، كما جاء في الحديث: أن النبي ﷺ قال وهو واقف بالحَزْوَرَة في سوق مكة: «**والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت**»[١].

---

(١) من حديث عبد الله بن عدي بن حمراء الزهري في «سنن الترمذي» برقم (٣٩٢٥) وقال: حسن غريب صحيح، والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (٤٢٥٢) وابن ماجه برقم (٣١٠٨) والدارمي (٢/ ٢٣٩) و«المسند» (٤/ ٣٠٥) برقم (١٨٧١٥) بإسناد صحيح ورجال رجال الشيخين ثقات (محققوه) وعن أبي سلمة برقم (١٨٧١٨) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣٠٨٢)، وهو عند الدارمي (٢٥١٠).

وقد اختارها الله تعالى لتكون مقر الرسالة الأخيرة، حيث كانت المعمورة عند مولد هذه الرسالة تكاد تنحصر في أربع إمبراطوريات:

١- الرومان في أوربا، وطرف من آسيا وأفريقيا.

٢- فارس، وهي تسيطر على قسم كبير من آسيا وأفريقيا.

٣- الهند.

٤- الصين، وهما منغلقتان على نفسيهما، معزولتان بعقائدهما وسياستهما.

وكانت اليهودية شريعة مغلقة على بني إسرائيل، لا تضم شعوبًا أخرى، ولم تكن لها سيطرة على أية أرض، نتيجة اضطهاد الرومان والفرس لها.

وكانت المسيحية تسيطر على فلسطين وسورية ومصر، ولما دخل إمبراطور الرومان في المسيحية، دخلت معه أساطير الرومان الوثنية، فلم يعُد للمسيحية الأولى وجود.

وكان للعرب آلهة شتى من الملائكة والجن والكواكب والأصنام.

ومن هنا جاء الإسلام لينقذ البشرية فأخرج الجزيرة من الجاهلية إلى الإسلام، ومنها انتشرت الدعوة في أقطار الأرض، وتحقق إنذار أم القرى ومن حولها.

وكان الإنذار الأكبر والأكثر تكرارًا في القرآن، هو الإنذار بيوم الجمع، وهو يوم الحشر: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ويوم الجمع هو يوم القيامة، كما قال تعالى:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩].

والمعنى: لتنذر أم القرى، وتخوِّف الناس من أهوال يوم القيامة، وهو يوم لاشك في وقوعه، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ [مريم: ٣٩].

وسُمي يوم الجمع لأن الله تعالى يجمع فيه الخلائق:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء: ٨٧].

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٥٠﴾ [الواقعة].

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٢٥].

والناس في يوم الجمع فريقان ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ وهذا نتيجة لإنذار النبي ﷺ للناس، فمن آمن وصدَّق كان مصيره الجنة، ومن أعرض وكذَّب، كان مصيره النار؛ وذلك لأن الله تعالى خلق الخلق، وجعل منهم سعداء وهم أهل الجنة، وأشقياء وهم أهل السعير ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢].

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم قابضًا على كفه، ومعه كتابان، فقال: «**أتدرون ما هذان الكتابان**»؟ قلنا: لا، يا رسول الله، فقال للذي في يده اليمنى: «**هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل الجنة، وأسماء آبائهم وعشائرهم، وعِدَّتهم قبل أن يَستقرُّوا نُطَفًا في الأصلاب، وقبل أن يَستقرُّوا نُطفًا في الأرحام، إذ هم في الطِّينة منْجدلُون، فليس بزائد فيهم ولا ناقص منهم، إجمال من الله عليهم[1] إلى يوم القيامة**». ثم قال للذي في يساره: «**وهذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل النار، وأسماء آبائهم وعشائرهم، وعِدَّتهم قبل أن يَستقرُّوا نُطفًا في الأصلاب، وقبل أن يَستقرُّوا نُطفًا في الأرحام، إذ هم في الطين مُنْجدلون، فليس بزائد فيهم ولا ناقص، إجمال من الله تعالى عليهم إلى يوم القيامة**». فقال عبد الله بن عمرو: ففيم العمل إذًا؟ قال: «**اعملوا وسدِّدُوا وقاربوا، فإن صاحب الجنة يُختم له بعمل أهل الجنة، وإنْ عَمِل أيَّ عمل**»، ثم قال: «**﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾، عدل من الله تعالى**»[2].

وفي لفظ له ﷺ: «**إن الله تعالى لما خلق آدم نفضه نفض المزود، وأخرج منه كل ذريته، فخرج أمثال النَّغَف، فقبضهم قبضتين، ثم قال: شقي وسعيد، ثم ألقاهما، ثم قبضهما، فقال: فريق في الجنة وفريق في السعير**»[3].

---

(١) أي: إن الله تعالى جمعهم وأحصاهم وكمَّل أفرادهم بلا زيادة ولا نقصان.

(٢) «سنن الترمذي» برقم (٢١٤١) وقال: حسن غريب صحيح، وحسّنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (١٧٤٠) وهو في «المسند» (٢/ ١٦٧) (٦٥٦٣) من حديث طويل بنحوه، وإسناده ضعيف كما قال محققوه، لأن أبا قبيل المعافري مختلف فيه، وأخرجه النسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٤٧٣) وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٨٤٨) ويُنظَر: «معالم التنزيل» للبغوي (٧/ ١٨٥).

(٣) «تفسير الطبري» (٢٥/ ٧) وهو موقوف على عبد الله بن عمرو، قال ابن كثير: وهو أشبه بالصواب (٧/ ١٩٢).

وفي لفظ آخر: «**إن الله تبارك وتعالى قبض بيمينه قبضة، وأخرى باليد الأخرى، قال: هذه لهذه، وهذه لهذه، ولا أبالي**» فقا أبو عبد الله: فلا أدري في أي القبضتين أنا[١].

وفي الأثر: يدخل الخلْق كلهم الجنة، إلا ما لا خير فيه[٢].

فأهل الجنة هم من آمنوا بالله واتبعوا ما جاءهم به محمد ﷺ، وأهل النار هم الذين كفروا بالله وخالفوا ما جاءهم به محمد ﷺ.

اخْتِلَافُ النَّاسِ فِي التَّوْحِيدِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الْوَحْيُ

٨- ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

بيَّن ﷻ أن كونَ الناس فريقين أمْر مراد لله تعالى، أوْجد أسبابه وقدَّر نتائجه، ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة على دين واحد، إما التوحيد وإما الكفر، فيكون سلوكهم واحدًا، ومصيرهم واحدًا، إما جنة وإما نارًا، ولكنه سبحانه خلق الإنسان وجعل فيه استعدادات خاصة ينفرد بها عن الملائكة وعن الحيوانات وعن الشياطين، فلم يجعله ذا توجُّهٍ واحد، فيُطيع الله تعالى أو يخالفه، بل جعله مستعدًّا لقبول الهدى أو الضلال، له حرية واختيار بتصريف عقله وتوجُّه ميوله، فهو يكتسب أفعاله ويُحاسَب عليها، بعد أن بيَّن الله له الخير والشر، ورغَّبهُ في الأول وحذَّره من الثاني ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ فيجمع خلْقه على الهدى، ويجعلهم على ملة واحدة، هي دين الإسلام، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك ليتميز الخبيث من الطيب، وأهل الهدى من أهل الضلال.

﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ هذا هو **الفريق الأول**: أهل الهدى والإيمان، الذين يدخلون في ساحة الرحمة والرضوان من خواص خلْقه، فيُدخل الله في الإسلام من اختار طريق الهدى وسلك طريق النجاة.

أما الفريق الثاني فهم الذين قال الله عنهم: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنفسهم بالشرك والكفر

---

(١) أخرجه أحمد بسنده عن صحابي يقال له: أبو عبد الله، وهو القائل: فلا أدري في أي القبضتين أنا، «المسند» (٤/ ١٧٦) برقم (١٧٥٩٣، ٢٠٦٦٨). بإسناد صحيح ورجاله رجال الصحيح غير صحابية (محققوه) وأخرجه البزار (٢١٤٢) كشف الإستار، وله طرق متعددة.

(٢) رواه ابن جرير بسنده عن ابن حجيرة.

﴿مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يتولى أمرهم يوم القيامة ليدفع عنهم سوء العذاب، وليس لهم نصير ينصرهم من عقاب الله تعالى؛ فهم محرومون من الرحمة، وذلك لأنهم استحبوا العمى على الهدى، واختاروا طريق الضلال.

١- ويوضح ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ [السجدة].

٢- وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥].

٣- وقوله ﷻ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

٤- وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

ثم بيَّن سبحانه أن السبب في ضلال من ضلَّ هو اتخاذهم آلهة يعبدونها من دون الله، فقال:

٩- ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾

قرر سبحانه في هذه الآية أن الله وحده هو الولي، وهو الناصر، وهو الذي يحيي الموتى، وهو وحده القادر على كل شيء، فهذه أربع خصائص لله ﷻ: الولاية، والنصرة، وإحياء الموتى، والقدرة المطلقة.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أم، بمعنى: بل، أي: بل اتخذ المشركون أولياء غير الله تعالى يتولَّوْنهم وينصرونهم؟ وهذا إنكار عليهم من الله تعالى أن يتخذوا من دونه شفعاء، وإخبار لهم بأن الله هو الولي الحق وهو المعبود بحق.

﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ الذي يجب على الخلق أجمعين أن يتولَّوْه بالطاعة والعبادة، وهو سبحانه يتولى عباده جميعًا بتدبير شؤونهم ونفوذ القدَر فيهم، ويتولى عباده المؤمنين على وجه الخصوص، فيخرجهم من الظلمات إلى النور، ويعينهم في جميع الأمور.

﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ بالبعث والنشور، فهو القادر على إعادة الحياة إلى الناس بعد موتهم.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء، فكيف يتخذ الجاهلون أولياء من دونه؟!

فإن أرادوا وليًّا بحق، فالله هو الولي بالحق، لا وليَّ سواه.

وقدرة الله تعالى تتجلى في الموت والحياة، والخلق والإيجاد، وغير ذلك:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: ٢٧].

وقال جل شأنه: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧].

وقال سبحانه: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج: ٧٣].

المَرْجِعِيَّةُ الشَّرْعِيَّةُ إِلى خَالِقِ هَذَا الْكَوْنِ وَمُدَبِّرِ أَمْرِهِ

١٠ - ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾

أي: إن كل ما اختلف فيه الناس من أمر الدين في أصوله وفروعه، فإن حُكْمَه ومرجعَه في الدنيا إلى شرع الله، يحكم فيه العباد بما أنزل الله، وبما صح عن رسول الله، ولا يقبل حكمًا سواه، ويحكم الله فيه يوم القيامة بحكمه العادل، في كل ما يتعلق بالإيمان والكفر، والبعث وعدمه، والنفع والضر، وغير ذلك من أمور الدين، ويحكم الله كذلك فيما يكون بين الناس من خصومات، فإذا كان يوم القيامة فإنه يتضح فيه المحق من المبطل، حين يرى كلٌ من أهل الإيمان وأهل الكفر الثواب والعقاب، فيظهر للمشركين والمعاندين أنهم كانوا على باطل فيما يزعمون، وأن الله تعالى هو الواحد الأحد، الحكيم في حكمه، هو ربهم ومعبودهم وحده، لا شريك له، ولا توكُّل إلا عليه، ولا إنابة إلا إليه، ويوم القيامة تظهر الفرقة الناجية، ويظهر أهل الحق وأهل الضلال من الفرق والأحزاب والطوائف.

والآية تشير إلى المرجعية التي يقصدها البشر عند كل اختلاف يقع بين الناس من أمور الدنيا أو الآخرة، في حياة الإنسان العامة والخاصة، وفي الحياة الاجتماعية، وفي الاقتصاد والمعاش، والقضاء والسياسة، والأخلاق والسلوك، وما إلى ذلك.

كل ذلك وغيره مرد الحكم فيه إلى الله تعالى وإلى سنة رسول الله، فما حكما به فهو الحق، وما خالف ذلك فهو باطل، ولا يكون ذلك إلا فيما وقع فيه اختلاف بين الأمة، ومعنى ذلك أن اتفاق الأمة حجة.

فالقرآن دستور شامل لحياة البشر وأخراهم، فلا يُتحاكم إلا إلى الله، ولا مشرِّع إلا

الله، ولا مرجعية عند الاختلاف إلا إلى الله ورسوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [النساء: ٥٩].

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾ [النساء].

فمردُّ الحكم في أمور الدين والدنيا إلى شرع الله تعالى في كتابه، وفي سُنَّة رسوله ﷺ، والمرجع إلى الله تعالى في كل حال، ومن الآيات الدَّالة على ذلك.

١- قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٢٦].

٢- وقوله سبحانه: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾ [يوسف: ٤٠].

٣- وقوله ﷻ: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

٤- وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠].

٥- وقوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ [المائدة: ٤٩].

٦- وقوله عزَّ في علاه: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ﴾ [الأنعام: ١١٤].

وقد ختمت الآية بأصلين عظيمين هما: التوكل والإنابة، قال تعالى: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ أي: وعليه اعتمدت في جميع أموري، ومنها جلب المنافع ودفع المضار ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ أي: أتوجه بقلبي وبدني إليه بطاعتي وعبادتي.

قال تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾.

وقال ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣]. قال تعالى:

١١- ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ(١) ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾

أي: إن الله تعالى الذي يُتحاكم إليه، وعليه التوكل وإليه الإنابة، هو سبحانه خالق هذا

(١) قرأ قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر بإسكان الهاء من (وهْو)، والباقون بضمها.

الكون وموجده على غير مثال سبق ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: مبدع العالم العلوي والعالم السفلي خالقهما ومنشئهما، بمشيئته وإرادته وحكمته.

ومن قدرته تعالى أنه ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: أوجد لكم بقدرته من جنسكم نساء تسكنون إليهن، وتجمع بينكم وبينهن المودة والرحمة، وتنتشر منكم الذرية، ويحصل لكم النفع الكثير، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وقال سبحانه ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]

وقال أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

فالمراد بالأزواج: النساء، أي: الزوجات، وهذا يقتضي بالضرورة وجود الذكر والأنثى في الإنسان والحيوان، ولذا قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ أي: وخلق أيضًا للأنعام من جنسها إناثًا ليحصل التوالد والتناسل بينهما، ويعمُر هذا الكون، وأزواج الأنعام، هي: الإبل والبقر والضأن والمعز، فهي ثمانية أزواج: من الإبل اثنان، ومن البقر اثنان، ومن الضأن اثنان، ومن المعز اثنان، ولولا أنه سبحانه خلق الذكر والأنثى، لما كان هذا التوالد والتناسل في الإنسان والحيوان وغيرهما، فهو سبحانه ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي: يُكثِّر عددكم بسبب التزاوج للإنسان والحيوان، فَذَرأ، أي: خلق نسل الإنسان نعمة للناس، وخلق نسل الأنعام نعمة للناس، فكأن الزواج هو المنبع والمنْبت للتكاثر والتناسل.

وخالق الإنسان والحيوان، القادر على كل شيء، لا يماثله شيء في تدبيره وإنعامه، ولا يشبهه شيء في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله، فهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، لا يشبهه شيء من مخلوقاته، ولا يُشبَّه به أحد، إنه سبحانه ذات، غير مُشْبِهةٍ للذوات، ولا مُعطَّلة من الصفات، وهو السميع لأقوال العباد، العليم بأفعالهم.

فهو سبحانه منزه عن مشابهة خلقه في الذات والصفات والأفعال والأسماء.

فأسماؤه كلها حسنى، وصفاته صفات كمال وعظمة، وأفعاله أوجد بها المخلوقات

العظيمة من غير مشارك ولا منازع، فليس كمثله شيء لانفراده وتوحده بالكمال من كل وجه.

وهو سبحانه لا يخفى عليه شيء من أقوال خلقه وأعمالهم، وسيجازيهم على ما كسبت أيديهم، ذلكم قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ أي: ليس شِبْه ذاته شيء.

فقد أثبت الله تعالى لذاته مِثْلًا، ثم نفى عن ذلك المِثْل أن يكون له مماثل، ونَفْيُ المِثْل ينفي المثل، أي: ليس شيء مِثْلَ مثلِه، ونفي المماثلة تُبطل ما نسبوه لله تعالى من اتخاذ البنات، فنفت الآية أن يكون شيء من الموجودات مماثلًا لله تعالى.

وهذه الآية أصل في تنزيه الله تعالى عن مشابهة الحوادث، ونفي المماثلة لا ينفي أن الله تعالى متصف بصفات الكمال المعنوية: كالعلم والحياة والسمع والبصر، ولكنها لا تشبه صفات المخلوقات، فهي تثبت الصفات وتنفي مشابهة المخلوقات، وترد على المشبهة والمعطلة.

فالله تعالى لا يشبه شيئًا من مخلوقاته، ولا يُشبَّه به أحد، فلا تشابه بين الخالق والمخلوق، إذ إن صفات المخلوق لا تنفك عن الأعراض والأغراض، والله تعالى منزه عن ذلك، فليس كذاته ذات، ولا كاسمه اسم، ولا كفعله فعل.

وقد أثبت الله تعالى لنفسه في آخر الآية صفتي السمع والبصر؛ لئلَّا يُتوهَّم أن الله تعالى منزه عن الاتصاف بما اتصفت به المخلوقات من صفات الكمال المعنوية، ولكن صفات المخلوقات عارضة، وهي صفات واجبة لله تعالى[1].

وهو ا لسميع لجميع الأصوات باختلاف اللغات وتفنن الحاجات، وهو البصير، يرى النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ويرى سريان القوت في أعضاء الحيوانات الصغيرة، وسرياء الماء في الأغصان الدقيقة.

١٢- ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ ونتيجة لما تقدم من أن الله تعالى خالق هذا الكون ومبدعه، فإنه سبحانه.

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: له ملكهما، وبيده مفاتيح الرحمة والأرزاق، والنعم الظاهرة والباطنة، فهو المتصرف بما ينفع الناس من خيرات، وجميع الخلق مفتقرون إليه

---

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٢٤/ ٤٨).

في جلب الخير ودفع الضر، وهو المعطي المانع.

﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ﴾ أي: يوسِّع الرزق على من يشاء ويضيِّقه على من يشاء وفق الحكمة الإلهية ﴿إِنَّهُۥ﴾ تبارك وتعالى ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء، وهو سبحانه محيط بشؤون خلقه، ويعلم إذا كان الغنى أو الفقر خيرًا لعبده، فمشيئته تعالى جارية وفق علمه بما يناسب أحوال خلقه.

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ﴾ [فاطر: ٢]

دِينُ اللهِ وَاحِدٌ فِي أُصُولِهِ وَقَوَاعِدِهِ

١٣- ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ[1] وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾

وبعد أن امتنَّ الله على عباده بنعمة الرزق، امتنَّ عليهم بنعمة الوحي، وبيان الدين وتوضيحه، وكما عظَّم الله تعالى وحيه إلى نبيه في مطلع السورة، بيَّن هنا أنه شرع للمسلمين من الدين ما شرعه للأنبياء السابقين.

﴿شَرَعَ﴾ الله ﴿لَكُم﴾ أيها الناس ﴿مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ الذي أوحيناه إليك يا محمد، وهو خير الشرائع وأزكاها وأفضلها -وهو الإسلام- بمعناه العام، شرعه الله للمصطفين الأخيار، أولى العزم من الرسل وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامة عليهم أجمعين، وأولهم نوح عليه السلام ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ من التوحيد وأصول الشريعة التي اتفقت عليها الكتب والشرائع أن يبلغها للناس ويعمل بها ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ﴾ من العقائد وأصول الشرائع والأحكام، وهؤلاء الخمسة هم أولو العزم من الرسل، وهم أكابر الأنبياء، وأصحاب الشرائع، فلكل رسول منهم شرع جديد في الفروع، أما من عداهم من الرسل فقد كانوا يبلِّغون للناس شرع مَنْ قبلهم، كل واحد بعد الآخر، حتى ختم الله الرسالات بأفضل الرسل، وقد جمعت شريعته أصول الاعتقادات

(١) قرأ هشام (إبراهام)، والباقون (إبراهيم).

والأحكام في الشرائع المتقدمة

فالشرائع السابقة كانت تأمر بالتوحيد، والإيمان بالبعث، واليوم الآخر، وتقوى الله تعالى، بامتثال أمره واجتناب نهيه، وتدعو إلى مكارم الأخلاق، كما قال تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [الأعلى].

وقال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم].

وأعظم ما تدعو إليه الشرائع: توحيد الله ﷻ، ثم حفظ الضرورات الخمس: النفس، والعِرْض، والمال، والعقل، والنسب، ثم حفظ الحاجات التي لا تستقيم أحوال البشر بدونها.

ودين الإسلام يتضمن هذه الأصول، ويمتاز بتعليل الأحكام، وسدِّ الذرائع، ودرء المفاسد وجلب المصالح والنظر في الأدلة، ورفْع الحرج، والسماحة واليُسر، وشدة الاتصال بالفطرة.

ونوح ﷺ هو أول الرسل، فشريعته أساس الشرائع، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣].

وقد جاء نوح بتحريم الأمهات والأخوات والبنات[1].

وقد ذكرت الآية بعده محمدا ﷺ في قوله تعالى ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ فضمت الآية أول الرسل وآخرهم ثم ذكرت الثلاثة الآخرين.

أما شريعة إبراهيم ﷺ فهي أصل الحنيفية السمحة، وقد انتشرت هذه الشريعة بين العرب، وكانت أشهر الشرائع عندهم بسبب دعوة إسماعيل له، وظهور أثره في الحج والختان والكَرم والفُتوَّة.

---

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (١٣/ ١٣٥).

وشريعة موسى ﷺ هي أوسع الشرائع السابقة في تشريع الأحكام.

أما شريعة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهي الشريعة السابقة لشريعة الإسلام مباشرة.

وقد ذكر الله تعالى هؤلاء الرسل الخمسة في آية الميثاق: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ۝٧﴾ [الأحزاب].

وقُدِّم النبي ﷺ في آية الميثاق؛ لأن المقصود: بيان الأفضلية، أما في آية الوحي فإن المقصود: وصف دين الإسلام بالأصالة والاستقامة[١].

والوصية الوحيدة الصادرة لهؤلاء الرسل جميعًا هي ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ أي: اجعلوا دين الله واحدًا قائمًا مستمرًا محفوظًا من غير خلاف ولا اضطراب في الأصول التي لا تختلف فيها الشريعة، وهي: التوحيد ومسائل العقيدة، وأصول العبادات والشرائع، وترك الذنوب والكبائر، أقيموا أصول الدين وفروعه بأنفسكم واجتهدوا في إقامته على غيركم.

قال مجاهد: لم يبعث الله نبيًا قطُّ إلا وصَّاه بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإقرار لله بالطاعة، فذلك دينه الذي شرع الله.

وإقامة الدين: تعني القيام بتكاليفه تحت راية واحدة، وعدم الانحراف عنه، أي: أقيموه بالتوحيد والطاعة والعبادة لله وحده، ولا تختلفوا فيما أمركم الله به من إخلاص التوحيد، وطاعة رسله، وقبول شرعه، وآمنوا بكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقضاء والقدر خيره وشره.

وقد نهى الإسلام عن التفرق في أصول الدين والمسائل العامة فقال تعالى ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ أي تعاونوا على إقامة الدين حتى لا يحصل منكم تفرق واختلاف في أصول الدين وفروعه، فتصيروا فرقًا وأحزابًا وشيعًا، ومن مظاهر الاتفاق، الاجتماع في الحج والأعياد والجمعة والجماعات والجهاد ونحو ذلك من العبادات التي لا تتم إلا بالاجتماع وعدم التفرق.

وهناك اختلاف بين الرسل في الأمور الفرعية من العبادات بما يناسب أحوال الأمم، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

---

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (٢٤/ ٥١).

ومع أن الإسلام مؤيَّد بما سبقه من الشرائع الإلهية، فإن المشركين الذين يزعمون أنهم على ملة إبراهيم، وقفوا في وجه الإسلام، وعظُم عليهم ما يدعوهم إليه محمد ﷺ من توحيد الله تعالى، وإخلاص العبادة له. ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾.

وشَقَّ عليهم أيضًا أن ينزل القرآن على محمد ﷺ وهو رجل يتيم من بينهم، فقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

كما كبُر عليهم أن يكون الرسول بشرًا، فقالوا: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

وكبُر عليهم أن يكون الإله المعبود واحدًا، فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص]. قال تعالى ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات] وقال: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر]

وطلبوا من الرسول ﷺ أن يأتيهم بخوارق العادات، وأن يأتي إليهم بكتاب من السماء يقرؤونه، بعد أن يصعد إليها ليشهدوا له بالرسالة، فقالوا:

﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٣].

وطلبوا نزول الملائكة عليهم ورؤية الله ﷻ عيانًا، فقالوا:

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١].

وكبُر عليهم أيضًا أن ينتهي سلطانهم الديني بانتهاء عبادة الأوثان في الجزيرة، فتشبثوا بالشرك وتمسكوا به.

وجوابًا على هذا كله فقد بيَّن الله سبحانه أنه يصطفي للرسالة من يشاء من عباده.

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾
وقد اجتبى محمدًا ﷺ للرسالة، واجتبى هذه الأمة، واجتبى لها أفضل الرسالات.

والمجتبَى: هو من هداه الله إلى التوحيد ممن ينيب ويرجع إليه.

وهو سبحانه أعلم بسرائر خلقه ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي: يوفق للعمل بطاعته من يرجع إليه فيُيسر له طريق الهداية، كما قال تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ المائدة: ١٦]

﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ﴾ [لقمان: ١٥].

سَبَبُ التَّفَرُّقِ فِي الدِّينِ

١٤- ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾

وبعد أن أمر الله تعالى باجتماع المسلمين، نهاهم عن التفرق، ونهاهم أن لا يغتروا بما أنزل الله عليهم من كتاب، فإن أهل الكتاب لم يتفرقوا إلا بعد ما أنزل الله عليهم الكتاب، ففعلوا ضد ما يأمرهم كتابهم، فاحذروا أن تكونوا مثلهم، وهكذا فقد أوصى الله الأمم على ألسنة الرسل أن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه، وبيَّنت لهم الرسل مضار الاختلاف والتفرق، ومع ذلك فقد اختلفوا وصارُوا شيعًا وأحزابًا، مع نهيهم عن التفرق، وقيام الحجة عليهم بتبليغ الرسل لهم، فالمراد بالعلم في الآية: العلم بالنهي عن التفرق في الدين.

١- أي: وما تفرقت الأمم المكذبة لرسل الله في شرائعهم، إلا من بعد ما جاءهم العلم على لسان رسلهم، من النهي عن التفرق في الدين وبيان مفاسده ومضاره، فتفرقوا فيه مع علمهم بأن الفُرقة ضلال، وهم غير معذورين بالجهل عن نتائج التفرق في أمر الدين، وما جاءت به الرسل في كل زمان ومكان.

٢- ويجوز أن يكون المعنى: وما تفرقوا إلا من بعد مجيء النبي ﷺ بصفاته الموافقة لما في كتبهم، فتفرقوا بالطعن في رسالته بعد علمهم بمطابقته للأوصاف، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾ [البينة].

ثم إن سبب هذا التفرُّق: هو البغي والعناد والحسد طلبًا للرياسة، ومن باب الحميَّة، فهو الذي حملهم على اختلاق المطاعن فيه، وهذا هو معنى ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾.

ثم حذَّر الله المؤمنين من مثل هذا الاختلاف، فقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهذه الكلمة التي في الآية، هي ما أراده الله تعالى من إمهالهم وتأخير العذاب عنهم ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو موعد عذابهم في الدنيا أو الآخرة.

ثم بيَّن سبحانه أن الذين ورثوا الكتاب، وهم اليهود والنصارى ممن قال الله عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾

[البقرة]، قد اختلفوا وتفرقوا في شأن محمد ﷺ، وفي شأن هذا القرآن، بعدما علموا بصدقهما، كما بشرت بذلك التوراة والإنجيل، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة والإنجيل ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد المختلفين في الحق من الأمم السابقة ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي: لفي ريب من هذا الدين الذي جاء به صاحب الرسالة الأخيرة، وفي ريب من كتابه الذي جاء به، وهو واقع موقع الريبة والاختلاف المذموم.

فالمعنى: إنه كما تفرق أسلافهم في الدين قبل بعثة النبي ﷺ الموعود به في كتبهم، تفرق خَلَفُهُم من أهل الكتاب المعاصرين مثلهم، وهم الذين ورثوا الكتاب من بعد سلفهم، فهم في شك وتردد في شأن الرسالة الخاتمة، دون بذل الجهد في تحصيل اليقين.

بُنُودُ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي عَشْرِ جُمَلٍ

١٥- ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

بعد أن أمر الله سبحانه بإقامة الدين، ونهى عن التفرق فيه، وبعد بيان أن المؤمنين قد تلقَّوْا هذا الدين بالقبول والإنابة، وتلقاه المشركون بالإعراض عنه، وتلقاه أهل الكتاب بالشك فيه.

بعد ذلك: أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يمضي في طريق الدعوة إلى هذا الدين القيِّم، ويترك الذين شكوا فيه أو أعرضوا عنه.

وقد جاءت ألوان الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة في عشر جمل مستقلة، كل جملة منها منفصلة عن الأخرى، تضمنتها هذه الآية، وهي:

أوَّلًا: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ﴾ أي: فلأجل ما أمرناك به -أيها الرسول- من إقامة الدين والنهي عن التفرق فيه، ولأجل ما شرع الله لك من أمور الدين ما شرع، فادع إلى هذا الدين القيِّم الذي شرعه الله للأنبياء ووصاهم به، ادع -أيها النبي- عبادَ الله إلى الحق الذي بعثناك به، وأنزل له كتبه وأرسل له رسله، واجمعهم على كلمة التوحيد؛ حتى يسعدوا في دنياهم وأخراهم.

ثانيًا: ﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ أي: استقم كما أمرك الله على الصراط الذي كُلفت بالسير على نهجه، والزم سبيل الحق والرشاد، بلا إفراط ولا تفريط، ممتثلًا أوامر الله مجتنبًا نواهيه كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨] واستمر على تبليغ الرسالة.

ثالثًا: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي: لا تتبع -يا رسولنا- أهواء الذين شَكُّوا في الحق، وانحرفوا عن الدين، أو تفرقوا فيه وكانوا شيعًا وأحزابًا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وقال جلَّ شأنه: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

ولا تتبع أهواء المشركين الباطلة فيما يدعونك إليه من ترك التوحيد، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

ولا تعبأ بعصبيتهم الزائفة، ولا تنظر إلى خلاف من خالفك من الكفرة والمنافقين، فلا تتبع أهواءهم ولا تترك سبيل الاستقامة، فإنك إن اتبعت أهواءهم بعدما جاء من العلم إنك إذًا من الظالمين.

رابعًا: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ أي: ولا يحملنك طعنهم في دعوتك على عدم الإيمان بهذي كتبهم غير المحرفة، فأعْلِن أنك مصدق بجميع الكتب المنزلة من عند الله تعالى على الأنبياء قبلك.

وفي هذا مخالفة لليهود الذين قالوا: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠].

فهم يؤمنون بالتوراة ويكفرون بالإنجيل، أما المسلمون فقد قال الله تعالى عنهم: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ [آل عمران: ١١٩]. فلا تكن كالذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، ولتكن مناظرتك لهم مبنية على هذا الأصل الدال على هيمنة الإسلام على جميع الشرائع، ولو ناظرك أهل الكتاب مناظرة مبنية على الإيمان ببعض الكتب دون بعض فلا تُسلّم لهم بذلك، لأن من شرط كتابهم ورسولهم التصديق بهذا القرآن وبمن جاء به، كما أننا نؤمن بكتابهم ورسولهم في مرحلة سابقة للإسلام.

خامسًا: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أي: أمرني ربي أن أقيم العدل بينكم في الحكم إذا

تخاصمتم إليَّ، وأدعوكم إلى الحق، ولا أظلم أحدًا منكم لأجل عداوتكم، بل أُنفِّذ أمر الله فيكم، فلا ترَوْن مني جَوْرًا، كما أن عداوتنا لأهل الكتاب لا تمنعنا من العدل بينهم في الحكم.

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

والآية تدل على أن الرسول ﷺ سيكون له الحكم فيهم، وقد عدل النبي ﷺ فيهم، وأقرَّهم على أمرهم حتى ظاهروا عليه الأحزاب، كما أنه ﷺ أقام العدل في الحكم بين المسلمين إذا تخاصموا.

سادسًا: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ فهو إلهنا وإلهكم، وهو الخالق لنا ولكم، والمنعم علينا وعليكم بالنعم التي لا تُعدُّ ولا تُحْصى، وهو رب الجميع، ولستم أحق به منا، ونحن متفقون على توحيد الله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

فالله هو الشهيد علينا وعليكم، وهو المتولي أمورنا وأموركم، فيجب أن نفرده وحده بالعبادة.

سابعًا: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ لنا ثواب أعمالنا الصالحة، ولكم جزاء أعمالكم السيئة، وهو سبحانه سيجازي كُلًّا بعمله، فنحن بُرآء منكم لا نستفيد من حسناتكم، ولا نتضرر من سيئاتكم، ونحن لا نُسأل عن أعمالكم، وأنتم لا تُسألون عن أعمالنا.

ثامنًا: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ لا خصومة ولا جدال بيننا وبينكم بعدما تبيَّن الحق، فالجدال معكم ليس له جدوى؛ لأنكم مكابرون، فمن العبث الاستمرار فيه.

وبعد أن تبينت الحقائق وظهر الحق من الباطل، والهدى من الضلال، لم يبق للجدال والمنازعة محل، وليس أمامنا وأمامكم سوى العمل، والله سبحانه سيجازي كُلًّا بما عمل.

وليس في هذا نفي للاحتجاج عليهم مطلقًا، فقد حاجَّهم القرآن بعد نزول هذه الآية كثيرًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. فالمثْبَت: المجادلة بالحسنى، والمنفي: المناظرة في الحق بعدما استبان وظهر، وقامت عليه الأدلة.

تاسعًا: ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ أي: سأترك جدالكم لقلة جدْواه، وأُفوِّض أمري إلى الله؛ فإنه سبحانه سيجمع بيننا وبينكم يوم القيامة، فيقضي بيننا بالحق فيما اختلفنا فيه، والمخاطب هم

الذين يُثْبِتُون البعث ويؤمنون به ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ [سبأ: ٢٦].

عاشرًا: ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ فإن مصيرنا ومصيركم واحد، وإلى الله تعالى المرجع والمآب، فيجازي كلًّا بما يستحق.

والجمل الأربع الأخيرة تقتضي ترك القتال بين المؤمنين وغيرهم في الفترة المكية، حتى يأذن الله في قتالهم، والجمل قبلها موجَّهة إلى الرسول ﷺ لتقتدي به الأمة وتتأسى، كما في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]. فالمراد: بالنهي عن الشرك في الآية، الأمة؛ لأن وقوع الشرك من النبي ﷺ محال.

عُقُوبَةُ الْمُجَادِلِينَ فِيمَا جَاءَ بِهِ خَاتَمُ النَّبِيِّين

١٦- ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦)﴾

هذه الآية تقرير لقوله تعالى في الآية السابقة ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ فأخبر سبحانه في هذه الآية أن الذين يجادلون في الله بالحجج الباطلة والشبه المتناقضة بعد قيام الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة التي استجاب لها أصحاب العقول السليمة، هؤلاء المجادلون، حجتهم باطلة لأنها تخالف الحق وترده.

أي: وبعد وضوح القضية على هذا النحو، واستجابة المؤمنين لرسول الله ﷺ، فإن جدال المشركين في توحيد الله تعالى، لا يستحق الالتفات إليه، وحجتهم فاشلة، لا وزْن لها ولا حساب ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ أي: يُخاصمون في دين الله الذي أُرسلْ به محمدٌ ﷺ فيُدخِلون على الناس الشك في صحته، أو الشك في كونه قد نسخ اليهودية والنصرانية، أو الشك في كونه رسالة عامة إلى الناس كافة، طمعًا في أن تعود إليهم الجاهلية بعدما دخل الناس في الإسلام، هؤلاء حجتهم مردودة ومدفوعة، وهذا الجدل كقولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧].

وقولهم: ﴿إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [القصص: ٥٧].

وقولهم: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣)﴾ [ق].

قال مجاهد: وهؤلاء قوم توهَّموا أن الجاهلية تعود، فجادلوا الذين استجابوا للإسلام، لعلهم يردونهم إلى الجاهلية[١] وما أكثر أمثالهم في سائر العصور!

وكما قال أهل الكتاب: نحن الذين على دين إبراهيم، كتابُنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم، فنحن خير منكم، وأولى بالحق[٢]، وغير ذلك من محاولات صدِّ الناس عن الدخول في الإسلام.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾ أي: من بعد ما استجاب الناس لدعوة الإسلام، فدخلوا في دين الله أفواجًا، وهؤلاء القوم: ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أي: حجتهم باطلة، وخصومتهم ذاهبة لا قيمة لها ﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾ عظيم من الله تعالى في الحياة الدنيا لعصيانهم وإعراضهم عن حجج الله ﴿وَلَهُمۡ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾ هو النار وسعيرها، فهذه عقوبة كل مجادل للحق بالباطل.

أخرج ابن المنذر عن عكرمة قال: لما نزلت ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾ قال المشركون بمكة لمن بين أظهرهم من المؤمنين: قد دخل الناس في دين الله أفواجًا، فاخرجوا من بين أظهرنا، فعلام تقيمون بيننا؟ فنزلت ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾[٣].

ونظير هذا كثير، كما يحدث للأقليَّات الإسلامية في بلاد العالم غير المسلمة.

حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا

١٧- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ١٧﴾

بعد أن بين سبحانه أن محاجة الحق بالباطل داحضة، ذكر في هذه الآية قاعدة الجدال الحق، وبيّن أنه يقوم على أصلين هما: الكتاب والميزان، فقد اشتمل القرآن على الحق والصدق واليقين والأدلة الواضحة، واشتمل الميزان على العدل والإنصاف والقياس الصحيح، وجميع الدلائل العقلية والشرعية تدخل تحت هذين الأصلين، فالحجة تكون

(١) «تفسير ابن عطية» (٥/ ٣١) و«فتح القدير» في تفسير الآية.

(٢) أخرجه عبد الرزاق عن قتادة (٢/ ١٩٠) والطبري (٢٠/ ٤٨٩).

(٣) «الدر المنثور» (١٣/ ١٤٠).

فيهما والخروج عنهما جدال بالباطل فيه تناقض.

وفي هذه الآية أمْر بالعدل والإنصاف قبل أن يفاجأ الناس بيوم الحساب والميزان، فقد أنزل الله الكتب على أنبيائه لتحقيق العدل والإنصاف بين الناس، ومن أشد ما يجادل فيه المشركون إنكار البعث، في مثل قولهم: ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ [سبأ].

وقد دحض الله هذه الحجة في مواطن كثيرة من كتابه، منها قوله تعالى:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [طه].

أخرج الحاكم وغيره بسنده عن ابن عمر ﷺ أنه كان واقفًا بعرفة، فنظر إلى الشمس حين نزلت مثل التُّرس للغروب، فبكى واشتد بكاؤه، وتلا قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ فقيل له -أي: سئل عن سبب بكائه- فقال: ذكرت رسول الله ﷺ وهو واقف بمكاني هذا، فقال: **«أيها الناس، إنه لم يبق من دنياكم هذه فيما مضى إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى»**[١].

وقال أنس بن مالك ﷺ: كان الرجل منا يدخل الخلاء، فيحمل الإداوةَ من الماء، فإذا خرج توضأ خشية أن تقوم الساعة، وتكون عنده الفضلة من الطعام، فيقول: لا آكلُها حتى تقوم الساعة[٢].

وفي حديث جابر بن سمُرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«بُعثت أنا والساعة كهذه من هذه»**[٣].
ولفظ مسلم عن أنس **«بعثت أنا والساعة كهاتين»**[٤].

(١) صححه الحاكم (٢/ ٤٤٣) وقال الذهبي: فيه (كثير) هو ابن زيد، ضعَّفه النسائي دون غيره، انظر: «المستدرك» بتصرف، وأخرجه أحمد في المسند (٦١٧٣) قال محققوه: صحيح لغيره، وفيه ابن حنطب مدلس وقد عنعن.

(٢) أخرجه ابن مردويه كما في «الدر» (١٣/ ١٤٠).

(٣) «المسند» (٣١/ ٦١) (٢٠٨٧٠) قال محققوه: صحيح لغيره، وهو في الطبراني «الكبير» (١٨٤٣) و«الأوسط» (٤٩٦٧).

(٤) صحيح مسلم (٢٩٥١).

وقد بيَّن ﷻ في هذه الآية أن جزاء السائرين على الحق والناكبين عنه، يكون في يوم لا فرار منه، ولا محيص للعباد من لقائه، فمُدبِّر هذا الكون وخالقه هو الذي أنزل الكتاب والميزان، وهو وحده القادر على إحياء الناس بعد موتهم.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهو القرآن وسائر الكتب المنزلة من عند الله، أنزلها بالصدق القاطع، والحق الساطع في أحكامه وتشريعاته وأخباره، فهو سبحانه أنزل الكتاب ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: متضمنًا للحق في أوامره وأحكامه لهداية الناس وسعادتهم، والحق والعدل متلازمان، والدين المنزل في هذا الكتاب يدعو إلى التسوية في الحقوق والواجبات.

﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ هو العدل والإنصاف في إعطاء الحقوق، وفي المجادلة في الدين، وقد شُبِّه العدل بالميزان، وأصله آلة ذات كفتين متساويتين معلَّقتين في طرفي قضيب معتدل له عروة.

وسُمِّي العدل ميزانًا؛ لأن الميزان يحصل به العدل والإنصاف، فهو من تسمية الشيء باسم السبب، وهذا هو المعنى نفسه في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥] وجاء التعبير في هاتين الآيتين بالإنزال.

أما في سورة الرحمن فقد جاء التعبير بالوضع، فقال تعالى: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧]. وهذا يدل على أن المراد بالميزان في سورة الرحمن: آلة الوزن[١].

ثم بيَّن سبحانه أن الذي أنزل الكتاب والميزان، هو مقدِّر قيام الساعة، وهو الله جل شأنه، وأي شيء يُعْلمك -أيها السامع- لعل قيام الساعة يكون قريبًا كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

فيجب على العاقل أن يحذر منها ويستعدَّ لها فإنَّ عِلْمَ مجيئها عند رب العالمين.

حَالُ الْمُصَدِّقِ وَالْمُكَذِّبِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ

١٨- ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾

(١) يُنظَر: «أضواء البيان» للشيخ الشنقيطي (٧/ ١٨٤). بتصرف.

بيَّن جلَّ شأنه في هذه الآية، موقف كل من المكذبين والمؤمنين من قيام الساعة والإيمان بها:

أما المشركون والمكذبون، فإنهم ينكرونها، ويستهزئون من الحديث عنها، فيستعجلون قيامها تهكُّمًا وسُخرية ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ أي: يستعجل قيام الساعة الذين لا يصدقون بها؛ لأنهم لا يخافون منها.

أما المؤمنون فهم لا يستعجلون قيامها، وإنما يغتنمون بقاءهم في الدنيا للتوبة والعمل الصالح، وهم يتوخَّون النجاة منها بالطاعة والتقوى ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي خائفون وجلون من قيامها لإيمانهم بها وعلمهم بما تشتمل عليه من الحساب والجزاء، فهم يخافون ألّا تنجيهم أعمالهم ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا مرية فيه، قال تعالى:

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: يجادلون في قيامها ويشكون فيه ﴿لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: في ذهول شديد عن الصواب لإنكارهم عدل الله وحكمته، وأيّ ضلال أعظم ممن كذب بدار البقاء والخلود، وهي دار الجزاء التي يظهر فيها عدل الله وفضله، وقد تواترت أخبار الرسل والكتب على قيامها، وأن هذه الدنيا بالنسبة لها كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها، والإيمان بالآخرة لأحد أركان الإيمان، فالله تعالى لا يُعجزه شيء، وقد اقتضت حكمته سبحانه أن يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

سأل رجل رسول الله ﷺ بصوت جَهْوري وهو في بعض أسفاره، فناداه، فقال: يا محمد، فقال له النبي ﷺ نحوًا من صوته: **«هاؤم»** فقال: متى الساعة؟ فقال له رسول الله ﷺ: **«ويحك، إنها كائنة، فما أعددت لها؟»** فقال: حُب الله ورسوله، فقال ﷺ: **«أنت مع من أحببت»**[١].

الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ أَمَامَ رِزْقِ اللهِ سَوَاءٌ

١٩- ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾

ولما ذكر سبحانه الساعة، وبيَّن موقف الأبرار والفجار منها، بيَّن في هذه الآية أنه جلَّ

---

(١) ورد هذا الحديث من عدة طرق تبلغ درجة التواتر، وهو في البخاري برقم (٦١٦٧)، (٣٦٨٨) ومسلم برقم (٢١٣٩)، (٢٩٥٣) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

شأنه لم يعاجل الذين يمارون في الساعة بالعقوبة في الدنيا مع استحقاقهم للعذاب، فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ فهو سبحانه رؤوف رحيم بهم، عطوف عليهم، يفيض عليهم من صنوف بِرِّه ما لا تحصيه العقول، مع مجاهرتهم بالمعاصي، يعطي البَرَّ والفاجر، ولم يُهلكهم جوعًا بمعاصيهم.

ومن لطفه تعالى بهم أنه ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ الصالح والطالح، والمؤمن والكافر، وكلٌّ منهم أعجز من أن يرزق نفسه، ولو منع الله رزقه عن الكافر لمات جوعًا وعطشًا، ولذلك فإن الله تعالى أخرج الرزق من دائرة الإيمان والكفر، وعلَّقهُ بالأسباب الموصلة إليه، وجعله فتنةً وابتلاءً، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقال سبحانه: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

وقال أيضًا: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

جاء في الأثر: «**إن من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك**»[(١)].

ومشيئة الله تعالى تقتضي أن يكون الرزق في الدنيا لكل أحد من الخلق ليكون اللطف عامًّا، فلا يترك الله أحدًا منهم بلا رزق، مع تفضيل بعضهم على بعض فيه.

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾ [النحل: ٧١].

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢].

فالكل يشترك في رزق الله في الدنيا، وهذا الرزق هو في الأصل للمؤمنين، ويشاركهم فيه غيرهم في الدنيا، سواء جاء بالطرق المشروعة أم بغيرها، فإذا كان يوم القيامة فإن رزق الله تعالى يُختَص به المؤمنون، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ﴾ أي: الطيبات من الرزق ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

(١) يُنظر تخريجه في الآية رقم (٢٧) بنحوه، وقد ضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير برقم (٧٥) عن عمر ﷺ عند الخطيب البغدادي.

خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢] أي: يُختَص به المؤمنون في الآخرة فيكون خالصًا لهم دون غيرهم، والدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر.

ثم مجَّد الله نفسه بصفتين هما: القوة والعزة، فصفة القوة لبيان أن الله تعالى يرزق خلقه عن غير عجز ولا مصانعة، فهو الذي له القوة كلها، والقَوِي ينتفي عنه سبب الشح.

ولا قوة لأحد من المخلوقين إلا به، فهو الذي دانت له المخلوقات جميعًا.

وصفة العزة لبيان انتفاء سبب الفقر عنه، ورِزْقه تعالى منوط بحكمة عَلِمَها في أحوال خلقه.

﴿وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ في انتقامه ممن عصاه، لا يُغالَب ولا يُدافَع، وهذه الآية توطئة للآية التي بعدها.

ثَمَرَةُ الْعَمَلِ لِلدُّنْيَا وَالْعَمَلِ لِلْآخِرَةِ

٢٠- ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ[1] مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾

ولما بيَّن سبحانه أن غير المؤمنين يستعجلون قيام الساعة، وأن المؤمنين مشفقون منها، بيَّن هنا أن أكبر هَمِّ المؤمنين هو العمل للحياة الآخرة، وأن غير المؤمنين همتهم مقصورة، على العمل للحياة الدنيا.

والمعنى: من كان يقصد ثواب الآخرة ونعيمها، ورضوان الله تعالى، فأدى حقوق الله وحقوق العباد، وأنفق من ماله في سبيل الدعوة إلى الله، نزد له في عمله الحسن، فتُضَاعف له الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، إلى ما شاء الله من الزيادة، ونُعْطه من متاع الدنيا ما قُدِّر له، مع توفيقه وإعانته، وتسهيل سبيل الخير له.

ومن كان يريد بعمله الدنيا وحدها، وملذاتها وشهواتها نعطه من متاع الدنيا بعض ما

---

(١) قرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة بإسكان الهاء من (نُؤْتِهْ) وقرأ قالون ويعقوب باختلاس حركة الهاء من غير صلة، ولهشام ثلاثة أوجه هي: الإسكان والقصر والصلة، ولأبي جعفر وجهان: القصر والإسكان، وقرأ الباقون بكسر الهاء مع الصلة.

يطلبه مما قُدِّر له، وليس له ثواب ولا نعيم أُخْروي.

فعمل الآخرة تُضاعَف فيه الحسنات، وعمل الدنيا يُعطَى فيه العبد بعض ما يريد.

والحرث يراد به: العمل؛ لأن الحرَّاث يعمل وينتظر المنفعة بما عمل.

عن أُبَيّ بن كعب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«بشِّر هذه الأمة بالسناء والرفعة والنصر والتمكين في الأرض ما لم يطلبوا الدنيا بعمل الآخرة، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب»**[1] ومُريد حرث الدنيا لا يؤمن بالآخرة.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود].

وقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء].

جاء عن عثمان بن عفان ﷺ قال: خرج زيد بن ثابت من عند مروان بنصف النهار، قلت: ما بعث إليه هذه الساعة إلا لشيء سأل عنه، فسألته، فقال: سألنا عن أشياء سمعناها من رسول الله، سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من كانت الدنيا همه فرَّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتِبَ له، ومن كانت الآخرة همَّه جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»**[2].

وفي الحديث القدسي: عن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ تلا الآية، ثم قال: **«يقول الله ﷻ: ابن آدم، تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسدَّ فقرك، وإلا تفعل ملأتُ**

---

(١) «المسند» (٥/ ١٣٤) (٢١٢٢٠، ٢١٢٢٤) قال محققوه: إسناده قوي، وأخرجه ابن حبَّان (٢/ ١٣٢) وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١/ ٨٧) وهو عند البغوي في «شرح السُّنَّة» (١٤/ ٣٣٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه برقم (٤١٠٥) وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» برقم (٣٣١٣) وفي «السلسلة الصحيحة» برقم (٩٥٠) وأخرجه الترمذي عن أنس برقم (٢٥٩٦) وهو في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٠٠٥).

صدرك شغلًا ولم أسدَّ فقرك»[١].

وأخرج الطبري بسنده الحسن عن قتادة، قال في الآية: من آثر دنياه على آخرته لم نجعل له نصيبًا في الآخرة إلا النار، ولم نزده بذلك من الدنيا شيئًا، إلا رزقًا قد فُرِغ منه وقُسم له[٢] فمن لم يكن له قصد في العمل للآخرة حرمه الله منها، وإن شاء أعطاه من الدنيا أو حرمه، فيخسر دنياه وأخراه.

وعن ابن عمر مرفوعًا: **«من جعل الهمَّ همًّا واحدًا كفاه الله همَّ دنياه، ومن تَشعَّبَتْهُ الهموم لم يُبالِ الله في أيِّ أوْدية الدنيا هلك»**[٣].

التَّشْرِيعُ حَقُّ اللَّهِ وَحْدَهُ

٢١- ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾

لما بيَّن سبحانه أنه شرع لعباده ما وصَّى به رسله، وأنه جل شأنه أنزل لعباده الكتاب بالحق والميزان، بعد ذلك أشار سبحانه في هذه الآية إلى غير المتبعين لشرع الرسل، وغير المؤمنين بما أنزل الله من كتب، فأنَّبهم على جهلهم، ووبَّخهم على اتخاذهم شركاء من دون الله شرعوا لهم في دين الله ما لم يشرعه رب العالمين، من البدع وتحريم الحلال، وتحليل الحرام، وهذا ينطبق على كل نظام أو قانون أو تشريع مخالف لكتاب الله وسُنَّة رسوله، والدين لا يكون إلا بما شرعه الله، ليدين به العباد ويتقربوا إلى ربهم.

ولَمَّا بيَّن سبحانه قانون العمل والجزاء والسعي للدنيا والآخرة في الآية السابقة، أرْدفَهُ ببيان العمل الموجب لدخول النار، وهو ضربٌ من تفرُّقِ أهل الشرائع واختلافهم في أصل الدين، وتوبيخٌ للمشركين وإنكارٌ عليهم عبادتَهم غير الله تعالى.

---

(١) صحح إسناده الحاكم ووافقه الذهبي في «المستدرك» (٢/ ٤٤٣) وأخرجه الترمذي برقم (٢٤٦٦) وقال: حسن غريب، وأخرجه ابن حبَّان في صحيحه (٢/ ١١٩) (٣٩٣) وصححه الألباني في «السلسلة» برقم (٩٥٠) وأخرجه البيهقي (١٠٣٣٩).

(٢) «تفسير الطبري» (٢٠/ ٤٩١).

(٣) صححه الحاكم (٢/ ٤٤٣)، (٤/ ٣٢٨) و«صحيح الجامع الصغير» (٦٠٦٥).

و (أم) بمعنى: بل في الآية: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾.

والمعنى: بل ألهؤلاء المشركين بالله تعالى شركاء معهم في ضلالتهم، ابتدعوا لهم من الدين والشرع ما لم يأذن به الله، ففعلوا ما يشاركون الله به في الإلهية؟

وفي تشريع الديانات الأرضية من الشرك القديم ما لم يكن موجودًا عند العرب.

وليس لأحد من خلق الله كائنًا من كان؛ أن يُشرِّع للناس غير ما شرعه الله تعالى وأذِن به، لأن الله وحده هو المشرِّع، وهو مبدع هذا الكون ومدبره بالنواميس الكلية، فوضَع لهم أصولًا وقواعد عامة، وترك للبشر استنباط الأمور الجزئية المتجددة مع الحياة، في حدود المنهج الكلي والتشريعات العامة، وإذا اختلف البشر في شيء من هذا ردُّوه إلى الله تعالى، ورجعوا إلى الأصول العامة التي شرعها للناس، وما عدا هذا المنهج، فهو خروج على دين الله سبحانه الذي وصَّى به نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدًا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ومن الشرائع التي وضعها السابقون تحريم البَحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وتحليل الميتة والدم والقمار، وغير ذلك.

جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «**رأيت عمْرو بن لُحيٍّ يجرُّ قُصْبَه في النار كان أول من سيَّب السوائب**»[1] ومعنى يجر قصبه، أي: يجر أمعاءه.

وكان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة، وهو أول من فعل هذه الأشياء، وأدخل عبادة الأصنام في جزيرة العرب.

ومن الشرائع المعاصرة: عقوبة الزنى والسرقة وشرب الخمر ونحوها، المخالفة لشرع الله تعالى في بعض بلاد المسلمين، وتسوية المرأة بالرجل في الميراث، ومنع تعدد الزوجات في بعضها الآخر، وغير ذلك من القوانين الوضعية.

ثم بيَّن الله سبحانه أنه لولا قضاء الله وقدره الذي جعله فاصلًا بين الطوائف المختلفة للقضاء بينهم - وذلك بإمهالهم وعدم تعجيل العقاب لهم في الدنيا - لَقُضِي بينهم بتعجيل

---

(١) «صحيح البخاري» بأرقام (١٠٤٤، ٣٥٢١، ٤٦٢٣، ٤٦٢٤) و«صحيح مسلم» (٩٠١) مطوَّلًا.

العذاب لهم ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: ولولا أن الله حَكَم وقضى في سابق أزله أن الثواب والعقاب يكونان يوم القيامة، لَحكَم بين الكفار والمؤمنين في الدنيا، وعجَّل بثواب المؤمنين وعقاب الكافرين ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الكافرين بالله ﴿لَهُمْ﴾ يوم القيامة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: موجع ومؤلم، بسبب إصرارهم على الشرك بالله تعالى وموتهم عليه.

عِقَابُ الظَّالِمِينَ وَمَثُوبَةُ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ لِقَاءِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

ثم بيَّن سبحانه حال الظالمين عندما يصيبهم هذا العذاب المؤلم في الآخرة.

كما بيّن حال المؤمنين وهم في روضات الجنات ينعمون بما يشاؤون، فقال تعالى:

٢٢- ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ[1] وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾

١- ترى -أيها الرسول- الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك، خائفين خوفًا شديدًا من عذاب الله تعالى، بسبب ما اكتسبوا في الدنيا من أعمال خبيثة، وعلى رأسها الكفر.

ولما كان الكلام موجها للظالمين، وهم لا يوقنون بيوم القيامة، فقد أكد سبحانه على أن العقاب واقع بهم ولابد، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ أي: وهذا العذاب نازل بهم لا محالة، فهم ذائقوه حتمًا، سواء خافوا أم لم يخافوا.

والمقصود: استحضار صورة حال الظالمين يوم القيامة في ذهن المخاطَب، وهو مشفق على نفسه من عقاب أعماله السيئة عند نزول العذاب به، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾ [٤٤، ٤٥]. هذا هو حال الظالمين.

٢- أما الذين آمنوا وعملوا في دنياهم الأعمال الصالحة بقلوبهم وجوارحهم وألسنتهم من الواجبات والمستحبات فهم يوم القيامة يكونون في أشرف بقاع الجنة، لهم فيها ما يشاؤون من نعيم وخيرات.

---

(١) سكَّن الهاء من (وهْو) قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر، وضمها الباقون.

وهم ﴿فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ أي: في بساتين الجنات وقصورها ونعيم الآخرة، من الأنهار المتدفقة، والأشجار المثمرة، والمناظر الخلابة، والطيور المغردة، والأصوات الشجية، وما إلى ذلك فهم قد استقروا في هذه الروضات قبل عرْض الظالمين على الحساب وإشفاقهم من العقاب، لقد انقلب إشفاق المؤمنين على أنفسهم من معاصيهم في الدنيا اطمئنانًا، أما اطمئنان المشركين في الدنيا فقد انقلب خوفًا ورعبًا، كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [١٨].

لقد انعكس هذا الحال في الآخرة، مع ما للمؤمنين مما تشتهيه أنفسهم عند ربهم.

﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ من ألوان اللذائذ والنعيم والثواب العظيم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر].

والروضات هي أطيب بقاع الجنة، فدلَّ هذا على أن في الجنة بقاعًا دونها لمن هم من أهل القبلة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي أعطاه الله لهم من الفضل والكرامة ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ إنه فضل لا يوصف، ولا تنتهي إليه العقول، فلا فوز أعظم من رضى الله تعالى ، ولا نعيم أكبر من دار كرامته

وقد بيَّنت الآية -**أوَّلًا**- أن المؤمنين نزلوا أحسن منزل في الجنة.

وبيَّنت -**ثانيًا**- أن لهم ما يشتهون فيها من كل مالذوطاب.

وبيَّنت -**ثالثًا**- أنهم عند ربهم يَحظون بنعيم القرب منه سبحانه.

كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]

فأين ما فيه الظالمون من الذل والهوان والخوف المحقق، ممن هم في روضات الجنة، لهم فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؟!

إنه الفضل الأكبر الذي لا يوازيه شيء ولا يدانيه شرف.

ثم إن هذا الإكرام والإنعام الذي أعدَّه الله تعالى للمؤمنين في الآخرة، وأخبرنا به سبحانه في الدنيا، هو البشرى التي يبشر بها عباده الذين آمنوا به في الدنيا وأطاعوه، تعجيلًا لهم بالسرور ليتشوَّقوا إلى لقاء ربهم.

في هذه الآية ثلاث قضايا

٢٣- ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ[١] ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾

اشتملت هذه الآية على ثلاث جمل:

الجملة الأولى: في تحقيق بشرى المؤمنين برضوان الله تعالى وجنته، أي: ذلك الذي أخبرتكم به - أيها الناس - من البشرى والكرامة والنعيم المقيم في روضات الجنات، لمن آمنوا بالله وعملوا صالحًا، أمْر حاصل لهم في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ [الأحزاب].

وقال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ﴾ [يونس: ٢].

وكما بشَّر الله أولياءه الصالحين في قوله سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾ [يونس].

وبشَّر الشهداء في قوله تعالى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ [آل عمران: ١٧١].

والجملة الثانية من الآية: تنص على أن النبي ﷺ لايطلب أجرًا من أحد على تبليغ دعوته إلا أن يصل المُؤْذُون له في حياته ما بينهم وبينه من قرابة، ويتركوه ينشر رسالة الإسلام للعالمين، ويبلغ الناس رسالة ربه، ولا يحولون بينه وبين دعوته.

جاء في أسباب النزول: أن بعض الصحابة أرادوا أن يجمعوا مالًا للنبيِّ ﷺ يستعين به على النوائب، فلما فعلوا ذلك أنزل الله تعالى هذه الآية[٢] فقال لهم النبي ﷺ:

«لا أسألكم من أموالكم شيئًا، ولكن أسألكم ألا تؤذوني لقرابتي بيني وبينكم، فإنما قومي أحق من أطاعني وأجابني»[٣].

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي (يَبْشُرُ)، والباقون (يُبَشِّرُ).

(٢) يُنظَر: الطبراني في «الكبير» (٦٧٥٨) عن ابن عباس من طريق سعيد بن جبير، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٢١) و«زاد المسير» (٧/ ٢٨٣) والسيوطي في «أسباب النزول» (٢٥١).

(٣) «تفسير الطبري» (٢٠/ ٤٩٦).

فلا أسألكم على ما جئتكم به من البينات والهدى أجرا إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة، فتحفظوني ولا تؤذوني، وتوَدُّوني لصلة الرحم التي بيننا، وهذه المودة التي يطلبها النبي ﷺ من أقاربه أمر زائد على الإيمان به، لأن الإيمان بالرسول ﷺ وتقديم محبته على كل شيء بعد الإيمان بالله تعالى ومحبته، فرض على كل مسلم، فهو يطلب أن يُحبُّوه حبًّا زائدًا لأجل قرابته منهم.

وهكذا أمر الله نبيه أن يؤكد لمن عاصروا نزول الوحي من عشيرته وأهل بلدته: أنه ﷺ لا يسألهم أجرًا على تبليغ الدعوة، وإنما يسألهم المودة وحسن المعاملة، بأن يحفظوا حق القرابة منهم، وألَّا يُؤذوه حتى يبلغ رسالة ربه، وهذه الجملة، وهي قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ معترضة في سياق الآية.

قال قتادة: إن المشركين اجتمعوا في مجمع لهم، فقال بعضهم لبعض: أترون محمدًا يسأل على ما يتعاطاه أجرًا؟ فنزلت هذه الآية[1].

وهم يقصدون: إن كان يريد مالًا جمعوا له من أموالهم، كما حدث ذلك منهم أكثر من مرة.

ولما قال المشركون ذلك نزلت هذه الجملة في أثناء الآية.

ولهذه الجملة من الآية نظائر، منها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [ص: ٨٦].

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ﴾ [سبأ: ٤٧].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وهكذا قال نوح وهود وصالح ولوط وشعيب لأقوامهم: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الشعراء: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠].

وعن ابن عباس ﷺ قال: قالت الأنصار: فعلنا وفعلنا، وكأنهم افتخروا، فقال ابن عباس، أو العباس: لنا الفضل عليكم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأتاهم في مجالسهم، فقال: «**يا معشر الأنصار، ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله بي؟**» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**ألم تكونوا ضُلَّالًا فهداكم الله بي؟**» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**أفلا**

(١) رواه الواحدي في «أسباب النزول» (٣١٠).

تجيبوني؟» قالوا: ما نقول يا رسول الله؟ قال: «**ألا تقولون: ألم يخرجك قومك فآويناك؟ أَوَلم يكذبوك فصدقناك؟ أولم يخذلوك فنصرناك؟**» قال: فمازال يقول حتى جَثَوْا على الركب، وقالوا: أموالنا وما في أيدينا لله ورسوله، قال: فنزلت ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[1].

والمعنى: قل -أيها الرسول- للذين يَشُكُّون في قيام الساعة من المشركين: لا أسألكم على ما أدعوكم إليه من الحق الذي جئتكم به من عند الله عوضًا من أموالكم، إلا أن تَوَدُّوني في قرابتي منكم، وتصلوا الرحم الذي بيني وبينكم فلا تؤذوني، واتركوني أبلغ رسالة ربي، وعاملوني معاملة الودِّ، لا معاملة العداوة، من أجل القرابة التي بيننا في النسب القرشي.

سُئل ابن عباس في حضرة سعيد بن جبير عن هذه الآية، فابتدر سعيد، فقال: قربي آل محمد، فقال ابن عباس: عَجِلْتَ، إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: «**إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة**»[2].

وقال ابن عباس ﷺ: كان لرسول الله ﷺ قرابة من جميع قريش، فلما كذَّبوه وأبَوْا أن يتابعوه قال: يا قوم، إذا أبيتم أن تتابعوني فاحفظوا قرابتي فيكم، ولا يكن غيركم من العرب أوْلى بحفظي ونُصْرتي منكم[3].

وإنما سألهم معاملة المودة؛ لأن ذلك يعين على نشر الدعوة، فإن ترك مقاومته تجعله يتمكن من تبليغ الدعوة.

فالمراد بالقربى في الآية: قرابة الرحم، كأنه يقول لهم: إن لم تتبعوني للنبوة فاتبعوني للقرابة، هذا هو معنى الآية.

---

(١) «تفسير الطبري» (٢٠/ ٤٩٩) وابن مردويه كما في «تخريج الكشاف» (٣/ ٢٣٧) وفيه يزيد بن أبي زياد، ضعيف من رواية ابن عباس كما في «ضعيف الكشاف» ص ١٤٥ ، وهو في مسند أحمد برقم (١١٥٤٧) عن أبي سعيد الخدري من حديث طويل بنحوه، وليس فيه ذكر للآية بإسناد صحيح ورجال ثقات. وصححه الألباني عن سعد بن عبادة في فقه السيرة.

(٢) رواه البخاري برقم (٣٤٤٧، ٤٨١٨) وأحمد (١/ ٢٢٩) (٢٠٢٤، ٢٥٩٩) والترمذي (٣٢٥١) والطبري (٢٠/ ٤٩٥).

(٣) أخرجه الطبري بإسناد حسن عن علي بن أبي طلحة (٢٠/ ٤٩٥) والطبراني في «الكبير» (١٣٠٢٦).

ويوضح هذا ما أخرجه الحاكم (٢/ ٤٤٤) من طريق عمرو بن عون، حدثنا هشيم، أخبرنا داود بن أبي هند عن الشعبي قال: أكثر الناس علينا في هذه الآية ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عن ذلك، فكتب ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان أوسط بيت في قريش، ليس بطن من بطونهم إلا وقد وَلَدَه، فقال الله عز وجل: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ إلى ما أدعوكم إليه إلا أن تودّوني بقرابتي منكم وتحفظوني بها. قال هشيم: وأخبرني حصين، عن عكرمة عن ابن عباس بنحو من ذلك[1]. والمعنى: إلاأن تراعوا ما بيني وبينكم من قرابة فتصدقوني.

في محبة آل البيت:

أما محبة آل بيت النبي ﷺ فهي حاصلة من أدلة أخرى، منها:

١- ما جاء في خطبة النبي ﷺ بغدير خُمٍّ -بين مكة والمدينة- من رواية زيد بن أرقم، أن النبيَّ ﷺ حمد الله وأثنى عليه، وذكَّر ووعظ، ثم قال: **«أما بعد، ألا أيها الناس، إنما أنا بشر، يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب، وإني تارك فيكم الثقلين أولهما: كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به»** فحثَّ على كتاب الله ورغَّب فيه، وقال: **«وأهل بيتي، أذكِّركُم الله في أهل بيتي، أذكِّركُم الله في أهل بيتي»** فقال له حصين: ومَنْ أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: إن نساءه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرِم الصدقة بعده، قال: ومَن هم؟ قال: هم آل عليٍّ، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل العباس، قال: أكُل هؤلاء حُرموا الصَّدقة؟ قال: نعم[2].

٢- ولفظ الترمذي: **«إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله، حبل ممدود من السماء إلى الأرض، عِترتي، أهل بيتي، ولن**

(١) قال الحاكم: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه بهذه الزيادة، وهو صحيح على شرطهما: ونسبه الحافظ في الفتح (٨/ ٥٦٥) إلى سعيد بن منصور. اهـ تحقيق المسند (٤/ ٢٣٩). وهو عند ابن سعد (١/ ٢٤) والبيهقي في الدلائل (١/ ١٨٥).

(٢) مسلم برقم (٢٤٠٨) و«المسند» (٤/ ٣٦٦) برقم (١٩٢٦٥) من حديث طويل والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (٨١٧٥)، وأبوداود (٤٩٧٣).

يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلُفوني فيهما»[١].

٣- ووردت روايات أخرى تفيد أن آل بيت النبي هم أهل الكساء الذين أدخلهم النبي ﷺ في كسائه، وهم: علي وفاطمة والحسن والحسين، وجاء في حديث أم سلمة لما سألت رسول الله ﷺ: ألستُ من أهل بيتك؟ فقال: **«إنك إلى خير»**[٢]. ولعل النبي ﷺ لم يُدخل أم سلمة في الكساء، لأن فيه رجلًا أجنبيا عنها هو علي ﷺ ويشهد لهذا أن آية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣] جاءت في سياق الحديث عن زوجات النبي ﷺ، وأهل بيت الإنسان تطلق على زوجاته كما هو معلوم.

٤- وقال أبو بكر الصديق ﷺ: ارقبوا محمدًا ﷺ في أهل بيته[٣].

٥- وقال أبو بكر لعليٍّ ﷺ: والله لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليَّ من أن أصِلَ قرابتي[٤].

٦- وقال عمر بن الخطاب للعباس ﷺ: والله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليَّ من إسلام الخطاب لو أسلم! لأن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب[٥].

٧- ولما قال العباس للنبي ﷺ: إن قريشًا إذا لقونا لقونا بوجوه لا نعْرفها؛ فغضِب النبي ﷺ غضبًا شديدًا، وقال: **«والذي نفسي بيده، لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ورسوله»**[٦].

الجملة الثالثة من الآية: تنص على مضاعفة الأجر والجزاء لمن يعمل صالحًا من المؤمنين، أي ومن يفعل حسنة من صلاة أو صوم أو زكاة أو حج أو إحسان إلى الخلق ونحو ذلك ﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ بأن يشرح الله صدره ويُيسِّر أمره، وتكون هذه الحسنة سببًا

---

(١) «سنن الترمذي» برقم (٣٧٨٨) وقال: حسن غريب، وهو في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٩٨٠).

(٢) راجع تفسير سورة الأحزاب الآية [٣٣].

(٣) البخاري برقم (٣٧١٣، ٣٧٥١).

(٤) البخاري برقم (٣٧١٢).

(٥) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٠٣).

(٦) «المسند» (١/ ٢٠٧) برقم (١٧٧٢، ١٧٧٣) وإسناده ضعيف، وعن عبد المطلب بن ربيعة برقم (١٧٥١٦)، بإسناد ضعيف أيضا لضعف يزيد بن أبي زياد، ويزيد بن عطاء (محققوه) وأخرجه الحاكم عن العباس (١/ ٣٧٦) برقم (٥٤٣٣) وانظر: صحيح الجامع الصغير رقم (٧٠٧٨).

للتوفيق لعمل آخر، يزداد به عمل المؤمن وترتفع درجته عند الله ويحصل له الأجر والمثوبة.

وعوْدًا على مشهد الروضات والبُشْريات، فإن من يكتسب حسنة يبتغي بها وجه الله، ويتقرب بها إليه سبحانه، يضاعفها الله له من عشر حسنات فصاعدًا ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي: زدناه حُسْنًا من هذا الفضل الكبير ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١].

كما قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وقال سبحانه: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

وفي الحديث القدسي: عن ابن عباس ﷺ فيما يرويه رسول الله ﷺ عن ربه: **«من همَّ بحسنة فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة»**[1].

والله تعالى كثير المغفرة لمن يستحقها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي: غفور لعباده، شكور لحسناتهم وطاعتهم إياه، يغفر الذنوب ويستر العيوب ويتقبل الحسنات ويضاعفها.

تَنْزِيهُ سَاحَةِ الرَّسُولِ ﷺ عَنِ اخْتِلَاقِ الْقُرْآنِ

٢٤- ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ[2] ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾

وكما وبَّخ القرآن المشركين على أنهم شرعَوا في دين الله ما لم يأذن به، وبَّخهم أيضًا على شبهتهم الأخيرة في زعمهم أن محمدًا ﷺ لم يأتِ بشيء من عند الله، وأنه يكذب على الله تعالى فيما يدعوهم إليه، وفيما يتلوه عليهم من قرآن ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بل أيقول هؤلاء المكذبون: اختلق محمد الكذب على الله، فجاء بالذي يتلوه علينا اختلاقًا من عند نفسه؟ وهذه جرأة منهم وكذب على رسول الله ﷺ، حيث رموا النبي ﷺ بأشنع الأمور وأقبحها وهو إدعاء النبوة والكذب على الله تعالى: وفي هذا جرأة منهم على الله أيضًا، إذ كيف يمكّن محمدًا من هذه الدعوة الكاذبة في زعمهم، ثم يؤيده

---

(١) من حديث طويل في «صحيح البخاري» (٦٤٩١) و«صحيح مسلم» (١٣١).

(٢) وقف حمزة وأبو جعفر وهشام بخلف عنه بإبدال همزة (يشأ) ألفًا، وتُحرك بالكسر في حالة الوصل لجميع القراء.

بالمعجزات، وهو القادر على أن يختم على قلبه فلا يعي شيئًا ولا يدخل إليه خير.

فقال تعالى مبطلًا لِمَا قالوه: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي: إنك لو حدَّثْتَ نفسَكَ أن تفتري على الله الكذب، فإن الله تعالى يطبع على قلبك، فيُنْسيك القرآن، ويسْلُبه من صدْرك، ويسلبك عقلك الذي تفكر به في الكذب فلا تعقل ولا تنطق، ولكنك لم تفعل ذلك فأيَّدك الله وسدَّدك.

وفي هذا استبعاد الافتراء من رسول الله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة].

قال ابن عاشور: والمعنى أن افتراءَه على الله لا يهمكم حتى تناصبُوا محمدًا ﷺ العداء، فالله تعالى أولى منكم بأن يغار على انتهاك حرمة رسالته، وبأن يذبَّ عن جلاله، فلا تجعلوا هذه الدعوى همكم، فإن الله سبحانه لو شاء لختم على قلبك - أيها الرسول - فسلبك القدرة على أن تنسب إليه كلامًا[1].

ثم إن الله تعالى وعد بإظهار الإسلام ومحْو باطل المبطلين وبهتانهم، وتحقيق ما جاء به رسوله ﷺ، ولو أنه أتى بشيء باطل لمحاه الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ يذهبه ويمحقه، ويزيله ويفضحه بإيجاد أسباب زواله.

قال جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

وقال سبحانه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[الأنبياء: ١٨].

وقال أيضًا: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [يونس: ٨٢] التي لا تتغير ولا تتبدل، وبوعده الصادق الذي لا يتخلَّف، فيثبت الحق ويوضحه بإيجاد أسباب ظهوره، وبكلام الله المنزل وحججه وبراهينه، والله تعالى لا يخفى عليه افتراء مفترٍ، ولا صِدْق مُحقٍّ، فهو يعلم النوايا والمقاصد التي يضمرها الناس في عقولهم ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ يعلم ما في قلوب العباد، لا يخفى عليه شيء منها ولا من غيرها.

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (٢٤/ ٨٦).

بَابُ التَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ عَلَى مِصْرَاعَيْهِ

٢٥- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ[1] ﴿٢٥﴾﴾

وبعد أن ذكر سبحانه مشهد الظالمين المشفقين من العذاب وهو نازل بهم، وتوعَّد الذين يخاصمون في دين الله بالعذاب الشديد، وبعد أن دحض باطل الذين نسبُوا إلى النبي ﷺ الكذب على الله تعالى، بعد ذلك رغَّب سبحانه في التوبة والرجوع إلى الله تعالى من الضلالة، ففتح لهم الباب على مصراعيْه، فلا داعي للقنوط واللجاج في المعصية، ولا داعي للاستمرار على ارتكاب الذنوب ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ إذا رجعوا إلى توحيد الله وطاعته، فأقلعوا عن المعاصي، وأنابوا إليه سبحانه بصدق وإخلاص فهو يستر العيوب ﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فيغفرها ويمحوها ويسترها عليهم، بل ويحولها بفضله وإحسانه إلى حسنات، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾[الفرقان: ٧٠] وذلك بالنسبة لصغائر الذنوب وكبائرها.

والعفو عن السيئات يكون بالتوبة، وبأداء الحج المبرور، وبالشهادة في سبيل الله.

والعفو عن الصغائر يكون بترك الكبائر، وبالعمرة، وبالصلوات الخمس، وصلاة الجمعة إلى الجمعة، وهكذا.

قال عليٌّ ﷺ: **التوبة اسم يقع على ستة معانٍ:**

١- التوبة مما مضى من الذنوب والندامة عليها.

٢- وقضاء ما فاته من الفرائض.

٣- ورد المظالم إلى أهلها.

٤- وإذابة النفس في الطاعة كما ربَّيتها في المعصية.

٥- وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية.

---

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف ورويس بخلف عنه بتاء الخطاب في (تفعلون) على الالتفات، والباقون بياء الغيبة على نسق الآية، وهو الوجه الثاني لرويس.

٦- والبكاء بدل كل ضحك ضحِكته.

وعن السُّدِّي: هي صدق العزيمة على ترك الذنوب، والإنابة بالقلب إلى علّام الغيوب.

وعن سهل بن عبد الله التستري: التوبة الانتقال من الأحوال المذمومة إلى الأحوال المحمودة.

وقيل: ألّا يجد المرء حلاوة الذنب في القلب عند ذِكْره(١).

وهو سبحانه لا يخفى عليه شيء من أعمال الخلق، وسوف يجازيهم عليها.

﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ وهذا امتنان من الله تعالى بقبول توبتهم.

والتوبة واجبة من كل ذنب، فإن كانت معصية بين العبد وربه فلها **ثلاثة شروط**:

١- الإقلاع عن المعصية في الحال.

٢- والندم والتحسر على فعلها.

٣- والعزم الأكيد على عدم العودة إليها.

وإن كانت المعصية تتعلق بحق الآدمي أضيفُ إلى ذلك:

٤- أن يبرأ من حق صاحبها بردِّ الحق إليه، أو الاستحلال منها.

التوبة في الكتاب والسنة: ومن الآيات الواردة في الحث على التوبة:

١- قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء].

٢- وقوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء].

٣- وقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران].

---

(١) هذه الآثار الأربعة من «تفسير النسفي» للآية.

٤- وقوله ﷻ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

ومن الأحاديث الواردة في ذلك:

١- قول النبي ﷺ فيما يرويه أبو هريرة ﷺ: **«والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»**(١).

٢- وقوله ﷺ فيما يرويه ابن عمر ﷺ: **«يأيها الناس، توبوا إلى الله، فإني أتوب إليه في اليوم مئة مرة»**(٢).

٣- وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«للهُ أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض دويَّة مهلكة، معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته، فطلبها حتى إذا اشتد الحر والعطش، أو ما شاء الله، قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت، فوضع يده على ساعده ليموت فاستيقظ، فإذا راحلته عنده عليها طعامه وشرابه، فالله أفرح بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته»**(٣).

٤- وعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«للهُ أفرح بتوبة عبده حين يتوب عليه، من أحدكم كانت راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة فرحه: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح»**(٤).

٥- وعن صفوان بن عسال المُرَادِي أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله جعل بالمغرب بابًا، عرضُه مسيرة سبعين عامًا للتوبة، لا يُغلق ما لم تطلع الشمس من قِبله، وذلك قوله**

---

(١) من حديث أبي هريرة في البخاري برقم (٦٣٠٧).

(٢) من حديث الأغر بن بشار المزني عن ابن عمر في «صحيح مسلم» برقم (٢٧٠٢).

(٣) البخاري برقم (٦٣٠٨) ومسلم برقم (٢٧٤٤) والترمذي (٢٤٩٨).

(٤) البخاري برقم (٦٣٠٩) ومسلم برقم (٢٧٤٧) واللفظ له.

تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [١] [الأنعام: ١٥٨].

٦- وعن أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله ﷻ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها**»[٢].

ولما دعا الله عباده إلى التوبة من التقصير، كان الناس بحسب الاستجابة على قسمين: قسم استجاب لدعوة ربه، فلبى نداءه وانقاد له، وهؤلاء هم المؤمنون العاملون للصالحات، وقسم لم يستجب وهم الكافرون المعاندون، وقد اشتملت الآية التالية على القسمين معًا، والله سبحانه يستجيب دعاء الذين آمنوا، ويزيدهم عليه من فضله وإحسانه.

٢٦- ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾

أي: يستجيب الله لعباده التأئبين المؤمنين العاملين للصالحات، ما يرجونه منه من ثواب، وما يدعونه من خيري الدنيا والآخرة؛ لأنهم استجابوا لله ورسوله، وانقادوا لتعاليم الإسلام ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ توفيقًا ونشاطًا على العمل، ومضاعفة في الأجر والثواب، فيعطيهم ما طلبوا وأعظم منه، ويعطيهم من خير الدنيا ما لم يسألوه؛ لأنه لطيف بهم ومدبّر لمصالحهم، هذا حال المؤمنين وهم القسم الأول الذي استجاب لله والرسول فتاب وأناب إلى الله تعالى.

أما القسم الذي لم يستجب لله والرسول، فلم يُقبل على الله تعالى بالتوبة والإنابة، فقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾ بالله ورسوله غير المستجيبين لدعوته ﴿لَهُمْ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ موجع ومؤلم.

---

(١) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح، برقم (٣٥٣٦) من حديث طويل.
(٢) مسلم برقم (٢٧٥٩).

حِكْمَةُ اللهِ تَعَالَى فِي بَسْطِ الرِّزْقِ وَقَبْضِهِ

٢٧- ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ[1] بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ[2] إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾

وما دام الله سبحانه يزيد الذين استجابوا له من فضله وكرمه، فلماذا لم يوسع عليهم في الرزق مع أنهم يسألون ذلك؟

والجواب في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾.

أي أن الله تعالى لم يوسع عليهم في الدنيا سعة تضر بدينهم ودنياهم.

والبغي: هو تجاوز الحد في كل شيء، والتوسعة في الرزق فوق الحاجة، تجعل العبد يتجاوز حدوده غالبًا، ويتكبر في الأرض، ويطغى على غيره، ويترك شكر الله تعالى، وربما يقول كما قال قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾[القصص: ٧٨] فيكون بسط الرزق مفسدًا لهم في الغالب، فيحملهم على الاعتداء على الناس، والتعالي عليهم، ويجعلهم يغفلون عن الطاعة، ويقبلون على التمتع بشهوات الدنيا وملذاتها، ولو كان ذلك معصية وظلمًا قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ الْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق].

وقد ينسى العبد دعاء ربه واللجوء إليه في حال الثراء، وكثيرًا ما يُشغَل الثريُّ عن طاعة الله تعالى والعمل لأخراه.

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوٓا أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤].

ولما جاء مال البحرين إلى النبي ﷺ قال للأنصار لَمَّا تعرضوا له بعد صلاة الصبح: **«أبشروا وأمّلوا، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تُبسَط عليكم الدنيا كما بُسطت على مَن قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم»**[3]

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بسكون النون وتخفيف الزاي من (ينْزِل)، والباقون بفتح النون وتشديد الزاي.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بتسهيل همزة (يشاء إنه) الثانية وبإبدالها واوًا، والباقون بالتحقيق.

(٣) أخرجه البخاري عن عمرو بن عوف الأنصاري برقم (٤٠١٥) والترمذي (٢٤٦٢) وأحمد في المسند (١٨٩١٦) عن المسور بن مخرمة، عن عبيدة بإسناد صحيح على شرط الشيخين. (محققوه).

ونادرًا ما يكون الفقر سببًا للبغي.

وعن خبَّاب بن الأرتِّ ﷺ قال: فينا نزلت هذه الآية، وذلك أنَّا نظرنا إلى أموال بني النضير وبني قريظة وبني قينقاع، فتمنَّيناها، فنزلت[١].

ولعل خبَّابًا تمثَّل هذه الآية حين قال مقالته، فالآية مكية، وخبَّاب أنصاري.

وقد ورد عن عليٍّ وغيره أن الآية نزلت في أهل الصُّفة لَمَّا تمنَّوا الدنيا[٢].

أي: أنهم تمنَّوا أن يغنيهم الله ويبسط لهم الأموال والأرزاق، فأعلمهم الله تعالى أنه لو جاء الرزق على اختيار البشر واقتراحهم، لكان سبب بغيهم وإفسادهم، ولكنه تعالى أعلم بالمصلحة في كل أحد، فرُبَّ إنسان لا يصلح إلا بالفقر، وآخر لا يصلح إلا بالغنى[٣].

وقد فعل الله سبحانه ما فعل من بسط الرزق لعباده أو تضييقه عليهم؛ لأنه تعالى خبير بخفايا أحوال عباده، وطوايا نفوسهم، وما يؤول إليه حالهم، ولا ريب في أن البغي مع الفقر أقل، ومع البسط أكثر وأغلب، ولو عمَّ البسط لغلب البغي، وفسدت الأحوال.

ولو أن الله تعالى جعل جميع الناس في بسطة من الرزق، لاختلَّ نظام حياتهم، ببغْي بعضهم على بعض غالبًا، وهذا لا ينفي وجود أثرياء صالحين، منفعتهم متعدية إلى غيرهم، وفيهم خير كثير، وقال تعالى ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ﴾ [الزخرف: ٣٢]

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن ينزل الرزق وفق علمه بأحوال عباده ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ﴾ أي: يُنزل من الرزق لعباده بتقدير محسوب، على حسب مشيئته، وما تقتضيه حكمته البالغة: فيُفقر ويُغني، ويمنع ويعطي، ويقبض ويبسط وفق الحكمة الإلهية، ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ ۚ﴾ [النحل: ١٧] ولو أغناهم جميعًا لبغوا، ولو أفقرهم جميعًا لهلكوا.

جاء في الأثر: «**إن من عبادي من لا يصلحه الغنى، ولو أفقرته لأفسدتُ عليه دينه، وإن**

---

(١) يُنظَر: «زاد المسير» (٧/ ٢٨٧).

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٤٥) والبيهقي في «الشعب» (١٠٣٣١) وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٣٨) والطبراني كما في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٠٤) وغيرهم.

(٣) «تفسير ابن عطية» (٥/ ٣٦).

من عبادي من لا يُصلحه إلا الفقر، ولو أغنيتُه لأفسدتُ عليه دينه، وإن من عبادي من لا يُصلح إيمانه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يُصلح إيمانه إلا الصحة، ولو أمرضته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يُصلح إيمانه إلا المرض ولو عافيته لأفسده ذلك، إني أدبر أمر عبادي بعلمي بما في قلوبهم، إني خبير بصير(١).

وعن أبي الدرداء ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «**ما طلعت شمس قطُّ إلا بُعِث بِجَنبتيْها ملَكان، إنهما لَيُسْمِعان أهل الأرض إلا الثقلين: يا أيها الناس، هلمُّوا إلى ربكم، فإنَّ ما قلَّ وكفى خير مما كَثُر وألْهى، وما غربت شمس قطُّ إلا وبِجَنبتيْها ملكان يناديان: اللهم عجِّل لمنفق خلفًا، وعجل لممسك تلفًا**»(٢).

وقال قتادة: خير الرزق ما لا يُطغيك ولا يُلهيك(٣).

وفي الحديث: عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**اللهمَّ اجعل رزق آل محمد كفافًا**»(٤).

ولما عرض ملَك الجبال على النبيِّ ﷺ أن تكون له جبال مكة ذهبًا تسير معه أينما سار، قال: «**أجوع مرة فأسأل ربي، وأشبع مرة فأشكره**».

والله تعالى أعلم بشؤون خلقه ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ﴾ بما يصلحهم ﴿بَصِيرٌ﴾ بتدبير شؤونهم ومعرفة أحوالهم.

ثَلَاثَةٌ مِنْ دَلَائِلِ الْوَحْدَانِيَّةِ: أَوَّلًا: نِعْمَةُ الْمَاءِ مِنْ أَفْضَلِ الْأَرْزَاقِ

٢٨- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ(٥) ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾

ومن الرزق الذي ينزله الله بقدر على خلْقه: المطر، ونعمة الماء لا يختلف اثنان في أنها

---

(١) عند ابن أبي الدنيا (١) والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٢/ ٢٣٢) وابن عساكر في تاريخه (٤١/ ٢٨٥) وغيرهم.

(٢) «المستدرك» (٢/ ٤٤٤) برقم (٣٦٦٢) قال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وأخرجه ابن حبان (٣٣٢٩) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٧٠٦).

(٣) أخرجه الطبري بإسناد حسن.

(٤) «صحيح مسلم» (١٠٥٥) و«صحيح البخاري» (٦٤٦٠).

(٥) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بالتخفيف في (يُنْزِل الغيث)، والباقون بالتشديد.

أصل دوام الحياة، وإيجاد الغذاء الصالح للإنسان والحيوان ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ فيغيث به العباد والبلاد ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ فيغيثهم بعدما انقطع رجاؤهم ويئسوا من نزوله، فيكون هذا أدعى إلى شكره تعالى لكونه أتى وقت شدة الحاجة إليه قال تعالى:

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم: ٤٩، ٥٠].

ونزول المطر من مواطن إجابة الدعاء:

فعن سهل بن سعد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ثنتان ما تُردَّان: الدعاء عند النداء، وتحت المطر»**[١] والمراد بالنداء: الأذان.

قيل: إن الآية نزلت بسبب رفع القحط عن قريش بسبب دعوة النبي ﷺ بعد أن دام القحط عليهم سبع سنين، أكلوا فيها الجيف والعظام، وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الدخان].

عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ لَمَّا دعا قريشًا كذَّبوه واستعصَوْا عليه، فقال: **«اللهم أعنِّي عليهم بسبع كسبع يوسف»**[٢].

فأتاه أبو سفيان فقال: يا محمد، إن قومك قد هلكوا، فادع الله أن يكشف عنهم، فدعا، وكان هذا في المدينة النبوية.

ويؤيده ما رُوي أن هذه الآية نزلت في استسقاء النبي ﷺ لما سأله الأعرابي وهو في خطبة الجمعة.

وفي بعض الروايات أن النبي ﷺ قال: **«اللهم عليك بقريش، اللهم اشدُدْ وطْأتك على مُضَر، اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف»**[٣].

---

(١) الحاكم (٢/ ١١٣) والبيهقي في «السنن» (٣/ ٣٦٠) و«صحيح سنن أبي داود» (٢٢١٥) دون (وتحت المطر).

(٢) البخاري (١٠٠٧، ٤٨٢٢) ومسلم (٢٧٩٨) والترمذي (٣٢٥٤) و«المسند» (٤١٠٤) في حديث طويل وابن حبان (٤٧٦٤) و«سنن النسائي الكبرى» (١١١٣٨).

(٣) من حديث أبي هريرة في البخاري (١٠٠٦، ٨٠٤) ومسلم (٦٧٥) وسنن أبي داود (١٤٤٢) بتصحيح الألباني.

وقد سَمَّى الله المطر رحمة، فقال: ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ أي على خلقه، فيعمُّهم بالخير عن طريق ما ينتج من هذه الأمطار من خيرات وأرزاق وبركات وأقوات للإنسان والحيوان، فهو سبحانه الذي يتولى الخلق برحمته وإحسانه، حيث أغاثهم بعدما يئسوا.، فيفرحون ويستبشرون.

وربما لا يشعر بهذه النعمة أهل المُدن في عصرنا، حيث تتوافر لهم المياه بطريقة أو بأخرى، وتُعمل لها خزانات تحت الأرض وفوق المساكن، وتجري في المواسير، وأكثر من يَشعُر بالحاجة إلى المطر هم أهل البوادي، الذين تجفُّ أرضهم، وييبس زرعهم، وتَضْمُر مواشيهم من قلة الأمطار، ويحمدون الله كثيرًا عندما ينشر الله عليهم رحمته، ويتولاهم برعايته وعنايته، ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ الذي يتولى عباده ويدبر شؤونهم ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المحمود على كل حال، وبما أوصله لعباده من نعم لا تعد ولا تحصى.

ثانيًا: جَمْعُ الْمَخْلُوقَاتِ بَعْدَ تَفَرُّقِهَا آيَةٌ مُوجِبَةٌ لِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ

٢٩- ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾

وتمضي الآيات في ذكر ألوان من نعم الله تعالى، الدالة على عظيم قدرته، وعلى إمكانية البعث بعد الموت، ووجوب إفراده تعالى بالعبادة، فذكرت هذه الآية خلق السموات والأرض والدواب ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: العالم العلوي غير المشاهد بما فيه من الملائكة والكواكب والأفلاك، وكذا كل ما تجاوز الأرض إلى الجو والفضاء.

ومن آياته كذلك خلق العالم الأرضي بما عليه من الإنسان والحيوان والجماد والنبات وغير ذلك، ومن علامات الله الناصعة الدالة على كمال قدرته ما بثَّهُ ونشره في السموات والأرض من دواب لا يعلم عددها إلا الله ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ﴾ أي: وما فرَّق في مجموع السموات والأرض من دابة ومخلوقات كثيرة، وهذا يشمل: الناس والملائكة والجن، والحيوان والطير والوحوش والحشرات.

والدابة: هي كل ما يدبُّ على الأرض، وهو يشمل الطير؛ لأنه يمشي إذا نزل على الأرض.

إنها حياة مبثوثة في كل مكان: فوق سطح الأرض، وفي ثناياها، وفي أعماق البحر، وأجواء الفضاء.

والإنسان يعجز عن أن يجمع سِرْبًا من الطير الأليف ينفلت من أقفاصه، أو سِرْبًا من النحل يطير من خليته.

وأسراب النمل والحشرات والهوام والجراثيم لا يعلم مواطنها إلا الله.

وأسراب الأسماك وحيوان البحر لا يطَّلع عليها إلا الله، وقُطعان الوحوش والأنعام سائمة وشاردة في كل مكان، ومخلوقات هنا وهناك لا يعلمها إلا الله، ويجوز أن تكون في السموات موجودات أخرى تدب فيها، والله أعلم.

ثم بيَّن سبحانه أنه تعالى قادر على جمع الخلائق للحشر والحساب والجزاء ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ بعد موتهم ليوم القيامة ﴿إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ فلا يتعذر عليه شيء في أي وقت شاء ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠].

والمعنى: إن القادر على خلْق السموات والأرض وما فيهما من عدم، قادر على إعادة ما فيهما للبعث والجزاء، وفي بعض الأحاديث أن البهائم تُحشر ليُقتص لها ومنها.

اللهُ تَعَالَى يُؤَاخِذُ بِالذَّنْبِ وَمَا يَعْفُو عَنْهُ أَكْثَرُ

٣٠- ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا[1] كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾

هذا، ولما امتنَّ الله على عباده بنزول الغيث بعد قنوطهم منه، أعقب ذلك بالتنبيه على أن ما أصاب الناس من قحط أو بلاء أو فقر أو مرض أو هزيمة ونحو ذلك من المصائب والمحن، إنما هو بسبب ما اقترفت أيديهم من الذنوب والخطايا، وفي مقدمة ذلك الشرك بالله تعالى، فقال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم﴾ أيها الناس ﴿مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ في دينكم ودنياكم في أبدانكم وأموالكم وأولادكم، وفيما هو عزيز عليكم ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ من المعاصي والآثام، وعبَّر بالأيْدي لأن أكثر الأفعال تزاوَل بها، وفي هذا تنبيه على محاسبة النفس، وملاحظة الأحوال، وإزالة العوائق نحو امتثال ما يُرضي الله سبحانه؛ حتى لا يظن الناس أن العقوبة على الذنوب مقصورة على الدار الآخرة، وحتى يعلموا أن الله تعالى قد

---

(١) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر (بما كسبت) بدون فاء، على أن (ما) في (أصابكم) موصولة مبتدأ و (بما كسبت) خبر، وقرأ الباقون (فبما) بالفاء، على أن (ما) شرطية، ويجوز أن تكون موصولة.

يعاقبهم عليها في الدنيا، والخطاب عام للمؤمنين وغيرهم.

والمصيبة: اسم للحادثة التي تصيب الإنسان بضرٍّ أو مكروه، وما يصيب الناس من ضرٍّ أو مكروه في الدنيا هو جزاء أعمالهم التي لا يرضاها الله تعالى، وهذا الجزاء غير مطَّرد، فقد يعاقب الله قومًا على أعمالهم في الدنيا، وقد يترك قومًا إلى جزاء الآخرة، وقد يبتلى قومًا رفعًا لدرجاتهم، فجزاء الآخرة هو الجزاء المطَّرد الموعود به في الخير أو الشر، وجزاء الدنيا قد يحصل أو لا يحصل:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [النحل: ٦١].

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

ومن رحمة الله بعباده أنه لا يؤاخذهم بكل ما كسبوا، بل يعفو ويصفح عن كثير من الذنوب فلا يؤاخذ عليها، قال تعالى: ﴿وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ أي: من السيئات، فيتجاوز عنها.

وقد وردت **آيات وأحاديث** كثيرة تقرر أن ما يصيب الناس من المصائب في الدنيا فهو بما جنته أيديهم.

١- قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ [الروم: ٤١].

٢- وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عمران].

٣- وقال جلَّ شأنه: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾[الفجر] فتضييق الرزق بسبب إهانة اليتيم وما بعده مما جاء في الآيات.

٤- وقد خاطب الله تعالى بني إسرائيل بقوله: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[البقرة:٨٥].

٥- وقال تعالى عن اليهود أيضًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ

فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ [الأعراف].

٦- وقال عنهم أيضًا: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

٧- وقال تعالى في المنافقين: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [التوبة] وهكذا.

وجاءت في هذا المعنى آثار وأحاديث، كثيرة منها ما يلي:

١- «**لا تصيب عبدا نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر**»[1].

٢- و «**إن الرجل ليحرم الرزق بسبب الذنب يصيبه**»[2].

٣- قال خبَّاب بن الأرتِّ: إنا آمنا بالله، وجاهدنا في سبيله، فوجب أجرنا على الله، فمنا من ذهب لم يأخذ من أجره شيئًا، منهم مصعب بن عمير مات وما ترك إلا بردة كنا إذا غطَّينا بها رأسه بدتْ رجلاه، وإذا غطَّينا رجليه بدا رأسه، فأمرنا رسول الله أن نغطي بها رأسه، ونضع على رجليه من الإذخر، ومنهم من عُجِّلت له ثمرته فهو يهدبُها.[3]

والشاهد: أن من الناس من ضُيِّق عليه، ومنهم من وُسِّع عليه، وليس هذا ولا ذاك دليل على محبة الله تعالى أو بغضه.

٤- وعن عليٍّ ﷺ قال: ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله ﷻ حدَّثنا بها رسول الله ﷺ، قال: «﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ وسأفسرها لك يا عليُّ: ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم، والله تعالى أحْلم من أن يُثنِّي عليه العقوبة في الآخرة، وما عفا الله عنه في الدنيا فالله تعالى أكرم من أن يعود بعد عفوه»[4].

---

(١) «سنن الترمذي» عن أبي موسى (٣٢٥٢) وهو ضعيف الإسناد كما في «ضعيف سنن الترمذي» (٦٤٠).

(٢) «سنن ابن ماجه». وقد ضعفه الألباني عن ثوبان في ضعيف الترغيب والترهيب (١٤٧٣).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» برقم (٣٩١٤) وصحيح مسلم، (٩٤٠) والمسند (٢١٠٥٨) والطبراني (٣٦٦١) وابن أبي شيبة (٣/ ٢٦٠).

(٤) «المسند» (١/ ٨٥) برقم (٦٤٩) بإسناد ضعيف (محققوه) وأبو يعلى (٤٥٣، ٦٠٨) والحاكم (٢/ ٤٤٥) والحكيم (٢/ ٣٣). وعبد بن حميد (٨٧).

٥- وعن عليٍّ ﷺ، عن النبيِّ ﷺ: **«من أصاب حَدًّا فعجَّل عقوبته في الدنيا، فالله أعدل من أن يُثنِّي على عبده العقوبة في الآخرة، ومن أصاب حَدًّا فستره الله عليه وعفا عنه، فالله أكمل من أن يعود إلى شيء قد عفا عنه»**[١].

٦- وعن معاوية بن أبي سفيان ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما من شيء يصيب المؤمن في جسده يؤذيه إلا كَفَّر عنه به من سيئاته»**[٢].

٧- وعن عائشة ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: **«إذا كثرت ذنوب العبد، ولم يكن له ما يكفِّرها من العمل ابتلاه الله بالحزن ليكفرها عنه»**[٣].

٨- وفي الأثر: **«والذي نفس محمد بيده، ما من خَدْش عود، ولا اختلاج عِرْق، ولا عَثْرة قدم إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر»**[٤].

٩- وعن عمران بن حصين ﷺ أنه دخل عليه بعض أصحابه، وكان قد ابتُلي في جسده، فقال له بعضهم: إنا لنبتئس لك لما نرى فيك، قال: فلا تبتئس بما ترى، فإن ما ترى بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر، ثم تلا الآية[٥].

١٠- وقال الضحاك: ما نعلم أحدًا حفظ القرآن ثم نسيه إلا بذنب، ثم قرأ الآية وقال: وأي مصيبة أعظم من نسيان القرآن؟![٦].

---

(١) الترمذي برقم (٢٦٢٦) وقال: حديث حسن غريب صحيح، وابن ماجه برقم (٢٦٠٤) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ٤٤٥) وصححه أحمد شاكر في «المسند» (٢/ ١١٨) برقم (٧٧٥)، وحسن إسناده محققو المسند وأخرجه البزار (٤٨٢) وفي الباب عن عبادة بن الصامت في البخاري (١٨) ومسلم (١٧٠٩).

(٢) «المسند» (٤/ ٩٨) برقم (١٦٨٩٩) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٣٠١): رجال أحمد رجال الصحيحوقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم، وأخرجه البيهقي في الشعب (٩٨٧٤) والطبراني في الأوسط (٥٨٤٣) وابن أبي شيبة (٣/ ٢٣٠) وغيرهم.

(٣) «المسند» (٦/ ١٥٧) برقم (٢٥٢٣٦) وفيه ليْث بن أبي سُلَيم ضعيف، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، (محققوه) وأخرجه البزار (٣٢٦٠) في «الزوائد»، وانظر: «مجمع الزوائد» (٣/ ٢٩١) فقد حسن إسناده.

(٤) رواه هناد بن السري في «الزهد» برقم (٤٣١) عن الحسن البصري مرسلًا، ويُنظَر: «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٢٤١).

(٥) الحاكم (٢/ ٤٤٥) والبيهقي في «الشعب» (٩٨١٣، ٩٩٧٣) وابن أبي الدنيا (٢٤٩).

(٦) البيهقي في «الشعب» (١٩٦٥) وابن أبي شيبة (١/ ٤٧٨) وابن المبارك (٨٥).

١١- وفي الحديث: عن أبي سعيد وأبي هريرة ﷺأن النبي ﷺ قال: **«والذي نفسي بيده، ما يصيب المؤمن من نَصَب ولا وَصب ولا هم ولا حُزن، إلا كفَّر الله عنه بها من خطاياه حتى الشوكة يشاكها»**[١].

ولما كانت المصيبة في الدنيا قد تكون جزاءً على فعل الشر، فإن خيرات الدنيا قد تكون جزاء على فعل الخير.

كما أن الله تعالى رفع الخوف من المستقبل، والحزن على الماضي بالنسبة لأولياء الله الصالحين، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وكما آثر الله في الدنيا يوسف على إخوته فقالوا: ﴿لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩١]

وكما قال تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨].

وكما وعد الله عباده المؤمنين بالتمكين في الأرض والاستخلاف فيها، وتبديل خوفهم أمنًا.

وثواب الدنيا لا يمنع ثواب الآخرة، وقد يصاب بعض الصالحين بمصائب ونكبات لزيادة أجورهم ورفع درجاتهم في الآخرة، كما أن كثرة الخير والنعم قد تكون إمهالًا واستدراجًا، وهو سبحانه أعلم بخفايا خلقه ونواياهم.

وعفْوُ الله تعالى عن المذنبين من عباده عفْوٌ عن قُدْرة، وليس عن عجز.

قُدْرَةُ اللَّهِ تَعَالَى لَا يُعْجِزُهَا شَيءٌ

٣١- ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾

أي: لستُم -أيها الناس- بناجين ولا مفْلتين من قدرة الله تعالى؛ لأن قدرته لا يعجزها شيء، وليس هناك من ينصركم من عذاب الله أو يمنعكم منه ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ﴾ يتولى أمركم فيوصل لكم المنافع ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفع عنكم المضار، فأنتم في قبضة الله وتحت تصرفه في متقلّبكم ومثواكم.

ولما كان العرب إذا خافوا سطْوة مَلِك أو عظيم، سكنوا الجهات البعيدة والصعبة، وكان المشركون يعتقدون أن وجودهم في مكة يحميهم من العقاب، لذا قال تعالى: ﴿وَمَآ

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٦٤١، ٥٦٤٢) و«صحيح مسلم» (٢٥٧٣).

أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فقيَّد سبحانه عدم إمكانية الهرب من قدرة الله تعالى، بالأرض، ليُفهم منه أنهم في قبضة الله تعالى في أي مكان من الأرض أي: إن هربتم من أقطارها كل مهرب، وذلك لأن المخاطبين بالآية يعيشون في الأرض دون السماء.

ثَالِثًا: جَرْيُ السُّفُنِ وَتَوَقُّفُهَا فِي الْبِحَارِ مِنْ دَلَائِلِ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ

٣٢- ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ[١] فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ[٢] ﴿٣٢﴾﴾

ولَمَّا بيَّن سبحانه أن الناس في حالتيْ حلول المصائب وكشفها عنهم، غير خارجين من قبضة القُدرة الإلهية، ساق لعباده بعد ذلك مثالًا لحلول المصائب، وتذكيرًا لهم برفعها عنهم إن شاء الله تعالى، فذكَّرهم بالسفُن وهي تجري في البحر، وبيّن أن الله تعالى لو أراد أن يشلَّ حركتها بإسكان الريح، فتتعطل السفينة بمن على ظهرها، في خضمِّ المياه وأمواج البحر، لفعل.

المعنى: ومن آيات الله تعالى الدالة على قدرته الباهرة، وسلطانه القاهر: السفن العظيمة كالجبال الشاهقة، وهي تجري في عرْض البحر بما تحمل من أثقال.

والجوار: جمع جارية، وهي السفينة تجري في البحر، والمراكب النارية والشراعية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ [الحاقة].

والأعلام: جمع علَم، وهو الجبل الكبير المرتفع، وسُمي علمًا؛ لأن الناس تسترشد به في سيرهم.

وقد سخر الله السفن وحفظها من الأمواج وجعلها تحملكم وتحمل أمتعتكم إلى البلدان والأقطار البعيدة. قال تعالى:

٣٣- ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ[٣] فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾

أي: لو شاء الذي أجرى هذه السفن في البحر لأسكن الريح وأوقفها، فتبقى السفن

---

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بإثبات الياء وصلًا من (الجوار) وابن كثير ويعقوب بإثباتها وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها في الحالين.

(٢) عدّ الكوفي والحمصى (كالأعلام) آية، وأسقطها من العدد غيرهما.

(٣) قرأ نافع وأبو جعفر بجمع (الريح)، والباقون بإفرادها.

ساكنة ثابتة على ظهر البحر لا تتحرك ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرناه لكم من جرْي السفن ووقوفها في البحر بقدرة الله تعالى ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي: لدلالات عظام، وحجج ظاهرة على قدرة الله تعالى ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على طاعة الله تعالى ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمه وأفضاله، فالخوف يدعو إلى الصبر، والنجاة تدعو إلى الشكر، والمؤمن يصبر على الضراء ويشكر على السراء.

ولا ينتفع بهذه العظات إلا المؤمن، فيعلم أن الله تعالى منفرد بالألوهية، فيفرده بالعبادة، أما غير المؤمن فإنه يمر على هذه الآيات فلا يعتبر.

قال أبو حيان: وإنما ذكر السفن الجارية في البحر؛ لما فيها من عظيم دلائل القدرة من جهة أن الماء جسم لطيف شفاف، يغوص فيه الثقيل، والسفن تحمل الأجسام الثقيلة الكثيفة، ومع ذلك جعل الله تعالى في الماء قوة يحملها بها، ويمنعها من الغوص، ثم جعل الرياح سببًا لسيرها، فإذا أراد أن ترسُو أسكن الريح، فلا تبرح عن مكانها[1]. قال تعالى:

٣٤، ٣٥- ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ[2] الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾

أي: وإن يشأ سبحانه يجعل الريح عواصف، فيُغرق هذه السفن ومن فيها، ويهلكهم بسبب ذنوبهم ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ أي: يهلكهن بالغرق والتلف ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ أي: بسبب ذنوب وخطايا الراكبين في السفن.

وإن يشأ سبحانه أسكن الريح فتظَلّ السفينة مستقرة ثابتة على ظهر البحر.

فإن أراد سبحانه أهلك أناسًا وأنجى أناسًا، وهو جلَّ شأنه يعفو عن كثير من الذنوب فلا يعاقب عليها، ولا يوبق أهلها مع استحقاقهم للعقاب.

ومع هذه الدلائل على وحدانية الله تعالى، فإن الملحدين ينصرفون عن الإيمان بها ويجادلون فيها، ويُعرضون عن التأمل فيها، وقد أعلمهم الله تعالى أنه لا مهرب لهم ولا منجى من عذاب الله، فلا محيد لهم ولا محيص من عقاب الله لهم على ذنوبهم وكُفرهم به؛ لأنهم يجادلون بالباطل في آيات الله الدالة على وحدانيته وكمال قدرته.

---

(١) «البحر المحيط»: (٧/ ٥٢٠).

(٢) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر برفع (ويعلمُ) على الاستئناف، والباقون بالنصب وهو منصوب بأن مقدرة.

والمعنى: ويعلم الجاحدون أنهم إذا وقعوا في كرب فلا مُنَجِّي لهم إلا الله، فإذا توسطوا البحر وغشيتهم الأمواج والرياح، فلا يدفع الهلاك عنهم بالغرق فيه إلا الله.

ومن هنا وجب على العباد أن يفردوا الله تعالى بالعبادة، ويُخلصوا له الولاء والطاعة، ويفروا إليه بالتوبة والإنابة.

ثَلاثَةَ عَشَرَ صِفَةً لِلْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ

٣٦- ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾

ولَمَّا بيَّن سبحانه أنه لو بسط الرزق لعباده لبغوا في الأرض، وأن من الناس أثرياء منعمًا عليهم، وفقراء محرومين، ذكَّر - جل شأنه - أهل المال والمتاع، بأن متاع الدنيا زائل، وأن ما عند الله خير وأبقى، والموفَّق هو الذي يسعى للآخرة ولا يجعل الدنيا أكبر همه، فإنَّ ما أعطاكم الله -أيها الناس- من المال والمتاع والبنين والنساء والشهوات، هو متاع قليل لكم في الحياة الدنيا، سرعان ما يزول ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧].

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]. والآية تزهِّد في الدنيا وترغِّب في الآخرة، وتذكر الأعمال الموصلة إلى رضوان الله جل وعلا. قال تعالى:

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ تعالى من النعيم المقيم، والثواب الجزيل ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ زمانًا، لا يزول ولا يفنى، لأن نعيم الآخرة دائم مستمر، فلا تُقدِّموا الفاني على الباقي، فهو خير وأبقى ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسله، وتزوَّدوا بالأعمال الصالحة، واصبروا على ترك الملذات، وكونوا من المتوكلين على الله في جميع أحوالكم، والتوكُّل يجعل العبد يتوجَّه بالعبادة إلى الله وحده، ويتوجه إليه أيضًا بقضاء حوائجه في كل ما تعجز عنه قدرة البشر.

والمؤمن والكافر يستويان في متاع الحياة الدنيا، فإذا صارا إلى الله تعالى كان ما عند الله من الثواب خير وأبقى للمؤمن.

الْوَصْفَانِ الْأَوَّلُ وَالثَّانِي: الإِيمَانُ والتَّوَكُّلُ

وقد وصف الله تعالى المؤمنين في هذه الآية **بصفتين هما: (الإيمان والتوكل)** فالإيمان هو أساس قبول الأعمال، وهو جواز السفر للدار الآخرة، وهو إقرار بالقلب، ونطق

باللسان، وعمل بالجوارح، فهو يشمل العقيدة والشريعة، ولا بُدّ فيه من الإيمان بالله ربًّا وبمحمد نبيًّا، وبالقرآن شريعة ومنهاجًا، وبالكعبة قبلة، ولا بُدّ فيه من الإيمان بالوحي، والكتب المنزلة من عند الله تعالى، والإيمان بالملائكة والرسل والجن وباليوم الآخر وما فيه من حشر وحساب وجزاء والإيمان بالقضاء والقدر.

والتوكل على الله تعالى يعني الاعتماد عليه، والاستعانة به، وتفويض الأمر إليه، في جميع الأمور بعد الأخذ في الأسباب المشروعة، وهؤلاء قد جمعوا بين الإيمان المستلزم للأعمال الصالحة وبين التوكل وهو آليّة العمل، فكل عمل لا يصحبه الاعتماد على الله تعالى، فهو عمل غير تام.

ثم وصفهم الله تعالى بعد ذلك ببقية الأوصاف في الآيات السبع التالية. **وهذه الأوصاف هي:**

٣- اجتناب كبائر الإثم والفواحش. ٤- والمغفرة عند الغضب.

٥- والاستجابة لله تعالى. ٦- وإقام الصلاة. ٧- وتحقيق مبدأ الشورى.

٨- والإنفاق من رزق الله. ٩- والانتصار من الباغي. ١٠، ١١- العدل والفضل.

١٢- دفع الصائل. ١٣- الصبر والصفح.

فهذه **أحد عشر صفة** لمن ادَّخر الله لهم الثواب الآجل على حُسْن أعمالهم بالإضافة إلى صفتي الإيمان والتوكل، وتمضي الآيات في وصف أهل الإيمان والتوكل :

الْوَصْفُ الثَّالِثُ: اجْتِنَابُ الْكَبَائِرِ وَالْفَوَاحِشَ

٣٧- ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ[1] ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

إن طهارة القلب، ونظافة السلوك، أثر من آثار الإيمان الصحيح، **والفاحشة**: هي الفِعْلة الموصوفة بالشناعة التي شدد الدين في النهي عنها، وتوعَّد عليها بالعذاب، أوْ وَضع لها عقوبات في الدنيا، وذلك مثل: قتل النفس، والزنى، والسرقة، والحرابة، وكل ما عظُم قُبحه من الأقوال والأفعال.

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف (كبير الإثم) مفرد يراد به اسم الجنس، وقرأ الباقون (كبائر الإثم) جمع كبيرة.

وكبائر الإثم ليست محدودة في عدد معين، ويجمعها: كل ما توعد الله عليه بالنار أو الغضب أو العذاب، ومنها السبع الموبِقَات التي جاءت في حديث أبي هريرة ﷺ أنها: الإشراك بالله، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والسحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات.

وجاءت روايات في تعيين بعض الكبائر، كعقوق الوالدين، وشهادة الزور، وشرب الخمر، والسرقة، واليمين الغموس، ومنع فضل الماء، وفضل الكلأ، واستحلال حرمة بيت الله الحرام، وقتل الرجل ولده خشية أن يَطْعَم معه، والزنى بزوجة الجار، وسب الرجل لوالديه، وسباب المسلم وقتاله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، وسوء الظن بالله، والغلول، والذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا، وكل ذنب استوجب فاعله حدًّا من حدود الله، أو جاء الوعيد عليه بنار أو لعنة أو غضب أو عذاب.

والمعنى: والذين يجتنبون كبائر ما نهى الله عنه، وما فحُش وقبُح من أنواع المعاصي، كالشرك، والقتل، وعقوق الوالدين، والربا، وأكل أموال الناس بالباطل.

وأُطلقت الفاحشة في القرآن على خصوص الزنى، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء].

كما أُطلقت الفاحشة على نكاح زوجة الأب في الجاهلية في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ [النساء].

واجتناب كبائر الإثم والفواحش يُكفِّر صغائر الذنوب كما قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء].

والفاحشة هي الذنب الكبير الذي تدعو إليه النفس كالزنى، والكبيرة لا يكون فيها شهوة نفس، وهذا الفرق يكون عند اقترانهما، أما اذا انفردا فكل منهما يدخل في الآخر.

الْوَصْفُ الرَّابِعُ: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾.

أي: ومن شيمة المؤمنين المغفرة عند الغضب، فيملكون أنفسهم عند اندفاع ثورة الغضب، فلا يغلب غضبهم حِلْمهم، وذلك في معاملة المسلمين بعضهم مع بعض، فلا يغضبون على من أساء إليهم، فيكظمون غيظهم، ويصفحون عن المسيء طلبًا لثواب الله

تعالى وعفوه، وهذا من محاسن الأخلاق.

والمذموم هو الغضب في **أمور الدنيا**، وقد نصح النبي ﷺ من سأله الوصية فقال له: **«لا تغضب»**[(١)] ثلاث مرات.

والغضب من الشيطان يعالَج بالوضوء والاغتسال، والصلاة، وتغيير المكان، وتغيير الحالة التي عليها الإنسان، فيجلس إن كان قائماً، ويتكيء إن كان جالسًا.. وهكذا.

أما **أمور الدين** فإن المؤمن يغضب إذا انتهكت حرمات الله، أو اعتُدِيَ على بيوت الله، أو احتُلّ جزء من بلاد المسلمين، أو وُجِّهتْ إهانة إلى كلام الله تعالى أو إلى رسوله ﷺ أو سبّ أحد أصحاب رسول الله ﷺ.. الخ

ففي حديث عائشة ﵂: ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط، إلا أن تُنتهك حرمة الله، فينتقم بها لله[(٢)].

قال الصاوي: من مكارم الأخلاق التجاوز والحلم عند حصول الغضب، ولكن يشترط أن يكون الحلم غير مُخلٍّ بالمروءة ولا بالواجب، كما إذا انتهكت حرمات الله فالواجب حينئذ الغضب لا الحلم. ولهذا قال الشافعي: من استُغضب فلم يغضب فهو حمار.

وقال الشاعر: وحلم الفتى في غير موضعه جهل[(٣)].

فالغضب ليس شرًا كله، وهو لله ولدينه وللحق والعدل غضب مطلوب.

والمؤمنون المتوكلون يتجملون بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، فصار الحلم لهم سجية، وحسن الخلق لهم طبيعة، فهم يكظمون غيظهم ويعفون عمن أساء، ويقابلون السيئة بالإحسان، قال تعالى ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت] .

(١) من حديث أبي هريرة في صحيح البخاري برقم (٦١١٦).
(٢) البخاري برقم (٦١٢٦).
(٣) «حاشية الصاوي على الجلالين» (٤/ ٤٠).

الْوَصْفُ الْخَامِسُ: الاِسْتِجَابَةُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ:

٣٨- ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾

ومن صفات المؤمنين: الاستجابة إلى توحيد الله وطاعته، وإزالة العوائق الكامنة في نفوسهم فيما بينهم وبين ربهم من الشهوات والنزوات والأهواء ليكون الطريق إلى الله مفتوحًا وموصولًا، وممن استجابوا لله والرسول حين دُعوا إلى الإسلام: (الأنصار) في بدء الدعوة وبعد الهجرة ﷺ.

قيل: إن هذا ثناء من الله تعالى عليهم وأنها نزلت فيهم.

والاستجابة لله والرسول ثابتة لجميع من آمن بالله وصدَّق برسول الله، فامتثل أمر الله واجتنب نهيه.

وأول من بدأ هذه الاستجابة أبو بكر، وعلي، وخديجة، وعبد الله بن مسعود، وسعد بن أبي وقاص، ونقباء الأنصار أصحاب بيعة العقبة رضي الله عن الجميع.

الْوَصْفُ السَّادِسُ: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾

ومن الاستجابة لله تعالى: إقامة الصلاة المفروضة في أوقاتها بحدودها وشروطها وآدابها، والإكثار من النوافل، والصلاة أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وكان الأنصار الذين بايعوا النبي ﷺ ليلة العقبة قد سألوه أن يرسل إليهم من يُقْرِئهم القرآن ويؤمهم في الصلاة، فأرسل إليهم مصعب بن عميْر، وكان ذلك قبل الهجرة.

والصلاة هي الصورة الأولى للاستجابة لله تعالى، وهي الصلة بين العبد وربه، وفيها مظهر المساواة بين المسلمين الرُّكَّع السجود، فلا ترتفع رأس قبل رأس، ولا تتقدم رِجْل على رِجْل، ولا منكب على منكب، ويستوي في صفوفها الحاكم والمحكوم والغنى والفقير.

الْوَصْفُ السَّابِعُ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾

ومن صفات المؤمنين أنهم يتشاورون فيما بينهم من أمور، ولا يتعجلون، ولا يُبْرمون أمرًا من أمور الدنيا إلا بعد مشورة أهل الحَلِّ والعقد.

وقد أمر الله رسوله بالشورى، فقال سبحانه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وكان النبي ﷺ يشاور أصحابه في الحروب وغيرها وهو الذي يوحى إليه، كما حدث في غزوات: بدر، وأحد، والأحزاب، تطييبًا لخاطرهم، وأخْذًا برأي صاحب الخبرة فيهم.

ولما حضرت الوفاة عمر بن الخطاب ﷺ - حين طُعن -جعل الأمر بعده شورى في ستة نفر، هم: عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف ﷺ أجمعين، فاجتمع رأيهم على عثمان ﷺ.

قال الحسن: ما تشاور قوم إلا هُدوا لأرشد أمورهم، ولا خاب من استخار ولا ندم من استشار.

وقال ابن العربي: **الشورى** أُلفة للجماعة، ومسبار للعقول، وسبب إلى الصواب، وقال الشاعر:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن برأي لبيب أو نصيحة حازم

وكان الصحابة يتشاورون في الأحكام التي لا نص فيها ويستنبطونها من الكتاب والسُّنَّة، كما تشاوروا في الخلافة بعد موت رسول الله ﷺ[١]، وفي ميراث الجد، وحروب الردة[٢].

وقد عُرف الأنصار بالتشاور في الأمور الهامة، ولما بلغتهم دعوة النبي ﷺ اجتمعوا في دار أبي أيوب الأنصاري، وأجمعوا أمرهم على الإيمان به ونُصرته، فاهتدوا بسبب الشورى إلى الإسلام.

والشورى تكون بين من يهمهم الأمر من أهل الرأي، وهي سر بين المتشاورين، ولا يُستشَار في المسائل الشرعية قطعية الثبوت، فلا يُستشار نواب الشعب مثلًا في إباحة الخمر وتناوله، ولا بيعه وتداوله، ولا في تطبيق شرع الله من عدمه، ولا في إقامة الحدود، ونحو ذلك؛ إذ لا مجال للرأي فيها، وإنما تكون الشورى في المسائل التي لا حكم للشرع فيها، من الأمور الدينية والدنيوية بحيث لا يستبد أحد برأيه بل يجتمع أهل العقد والحل ويتشاورون فيما بينهم ويأخذون بما فيه مصلحة العباد والبلاد.

الْوَصْفُ الثَّامِنُ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾

ومن صفات المؤمنين أنهم ينفقون في سبيل الله ممّا أعطاهم الله من الأموال وغيرها، في النفقات الواجبة كالزكاة والنفقة على من تجب إعالتهم، وكذا النفقة المستحبة كالصدقات على المحتاجين وفي وجوه الخير والبر.

والإنفاق العام من رزق الله تعالى وَرَدَ الأمرُ به في مكة المكرمة، وهو نَصٌّ مبكِّر للزكاة

(١) كما في «تفسير البيضاوي» (٢/ ١٧٥). بتصرف.

(٢) «تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٦).

المفروضة التي حُدِّدتْ أنصبتها ومقاديرها في السنة الثانية من الهجرة.

والإنفاق على المحتاجين وفي وجوه البر والخير، سمة من سمات المؤمنين.

الْوَصْفُ التَّاسِعُ: الانْتِصَارُ مِنَ الْبَاغِي

٣٩- ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾

ومن صفات المؤمنين: الانتصار من البغي، ورد العدوان، وعدم الخضوع للظلم، فهم أعزة بالله تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]. فالمؤمن ينتصر ممن بَغَى عليه، ولا يعتدي على غيره، وإن صبَر على الأذى من أخيه المسلم، ففي عاقبة صبره خير كثير، ولكنه لا يقبل الظلم ولا الضيم ولا الاعتداء على دينه أو كرامته، وإنما ينتصر لله، وينتصر لنفسه وعرضه وماله، ويقابل العدوان بما يدفعه ويرْدعه.

والبغي: هو الاعتداء على الحق، والانتصار من الباغي أمر مطلوب، والانتصار للنفس رادع للباغي عن التوغل في بغيه، وفي هذا الردع عون على انتشار الإسلام.

قال إبراهيم النخعي: كان المؤمنون يكرهون أن يُستذلُّوا، وكانوا إذا قدَرُوا عفَوْا، وقيل: إن العفو إغراء للسفيه.

وقال عطاء في الآية: هم المؤمنون الذين أخرجهم الكفار من مكة وبغوْا عليهم، ثم مكَّنهم الله ﷻ في الأرض حتى انتصروا ممن ظلمهم.

وكان المؤمنون يكرهون أن يُذِلُّوا أنفسهم فيجترئ عليهم الفُسَّاق.

والانتصار من البغي لا يكون مع العجز، بل مع القدرة على الانتقام ممن بغى عليهم. كما قال يوسف لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

١- وكما عفا رسول الله ﷺ عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدُوه عام الحديبية، ونزلوا من جبل التنعيم لاغتياله، فلَمَّا تمكّن منهم منَّ عليهم، مع قدرته على الانتقام.

٢- وعفا النبي ﷺ عن غَوْرَث بن الحارث الذي أراد أن يقتله وهو نائم، فتمكَّن الرسول منه، ودعا أصحابه ثم عفا عنه.

٣- وعفا ﷺ عن لبيد بن الأعصم الذي سحره.

٤- وعفا ﷺ عن زينب أخت مرحب اليهودي الخيبري الذي قتله محمود بن مسلمة، وكانت قد وضعت السُّم في ذراع الشاة يوم خيبر للنبي ﷺ فأخبرته الذراع، فدعاها فاعترفت، فقال: ما حملكِ على ذلك؟ قالت: أردتُ أن أعرف إن لم تكن نبيًّا استرحنا منك، فأطلَقها ﷺ، ولَمَّا مات من هذا السُّم بِشْر بن البراء قتلَها به.

الْوَصْفُ العَاشِر وَالْحَادِي عَشَرَ: الْعَدْلُ وَالْفَضْلُ

٤٠- ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾

والانتصار من الباغي يكون بمثله دون زيادة ولا تجاوز لحد الظلم أو العدوان.

وقد ذكرت الآية أن مراتب العقوبات ثلاث: العدل والفضل والظلم، وفي سورة آل عمران: [آية ١٤٣] زيادة كظم الغيظ، الإحسان إلى من أساء، وعليه:

١- فإن كظم الغيظ هو المرتبة الأولى من مراتب العفو.

٢-والمرتبة الثانية: هي **العدل**: وهو جزاء السيئة بسيئة مثلها، دون زيادة ولا نقص، فالنفس تُقتل في النفس، والجوارح بمثلها، والمال يُضمن بمثله.

والمراد بالسيئة الأولى في الآية: الأذى الذي يُلحقه الباغي بالمعتدَى عليه، وليس المراد بها: المعصية التي لا يرضاها الله تعالى.

والمراد بالسيئة الثانية: الجزاء الذي يلحق بالمعتدِي، وإنما سُمِّي سيئة لتشابههما في الصورة.

والمقابلة بالمثل تكون بنحو ما إذا قال لك قائل: أخزاك الله، فقل له: أخزاك الله، ولا تزد على ذلك.

وإذا شتمك فاشْتمه بمثلها ولا تعتدِ، وكذلك الأمر في الجراحات والدماء والجنايات فإن الجزاء يكون بمثل ما جنى الفاعل.

والمعنى: وجزاء سيئة المسيء عقوبته بسيئة مثلها من غير زيادة.

وهذا كقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل].

٣- أما **المرتبة الثالثة فهي مرتبة الفضل**، وهو العفو والصفح عن المسيء، فشَرَعَ الله تعالى العدل وندب إلى الفضل، وهو العفو، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة: ٤٥].

ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ أي: إن ذلك لا يضيع عند الله تعالى، كما صحَّ في الحديث عن أبي هريرة مرفوعًا: **«وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا»**[1].

أي: فمن عفا عن المسيء وترك عقابه، وأصلح الودَّ بينه وبين المعفو عنه ابتغاء وجه الله تعالى؛ فأجر عفوه على الله تعالى، يجزيه أجرًا عظيمًا وثوابًا كبيرًا، وقد أتبع الله العفو بالإصلاح فقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ ليشير إلى أن الجاني إذا كان لا يليق بالعفو وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته، فلا مانع من ذلك، .

وقد جعل الله أجر العافي عليه ترغيبًا في العفو وحملًا عليه، لأن الله تعالى يحب العفو، والجزاء من جنس العمل.

وقد وردت آثار تفيد أنه إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: أين الذين أجرهم على الله؟ فيقوم من عفا وأصلح عن أخيه في الدنيا فيؤمر بهم إلى الجنة[2].

وهكذا فإن العفو عمن أساء يأتي في المرتبة الثالثة بعد مقابلة السيئة بمثلها، وكظم الغيظ.

٤- ويلي مرتبة العفو: **الإحسان إلى من أساء**، جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

فهذه أربع مراتب: الكظم والعدل والعفو والإحسان، وكلها مراتب للعفو.

ومن أمثلة العفو ما جاء في صحيح مسلم عن عُبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت أنه خرج هو وأبوه لطلب العلم، فلقيا أبا اليُسْر صاحب رسول الله ﷺ، فقال له أبوه: أرى في وجهك سنعة غضب، فقال: نعم، كان لي دَيْن على فلان، فأتيت بيته، فلما سمع صوتي اختبأ، فقلت: اخرج إليَّ، فخرج، فقلت: ما حملك أن اختبأت مني؟ قال: خشيت والله أن أحدثك فأكذب عليك، وأنت صاحب رسول الله، وكنتُ والله معسرًا،

(١) «صحيح مسلم» (٢٥٨٨).

(٢) يُنظَر: البيهقي في «السنن» (٨٣١٣، ٨٣٢٧، ٨٣٣٠) مرسلاً ومسندًا.

قال: فأتى بصحيفة فمحاها بيده، وقال: إن وجدتَ قضاءً فاقْضِ، وإلا فأنت في حل، هذا حال العافين عن الناس.

ومما ورد في العفو ما رواه أبو هريرة ﷺ أن رجلًا شتم أبا بكر ﷺ والنبي ﷺ جالس، فجعل النبي ﷺ يعجب ويبتسم، فلما أكثر الرجل من السب والشتم، رد عليه أبو بكر بعض قوله، فغضب النبي ﷺ وقام، فلحقه أبو بكر، فقال: يا رسول الله، إنه كان يشتمني وأنت جالس، فلما رددْتُ عليه بعض قوله، غضبتَ وقمتَ! قال ﷺ: **«إنه كان معك ملَك يردُّ عنك، فلما رددتَ عليه بعض قوله حضر الشيطان، فلم أكن لأقعد مع الشيطان»**، ثم قال: **«يا أبا بكر، ثلاث كلهن حق: ما من عبد ظُلم بمظلمة، فيُغضي عنها لله، إلا أعز الله بها نصْرَه، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة، إلا زاده الله بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة، إلا زاده الله بها قلة»**[1].

وقد مدح الله المغفرة عند الغضب، كما مدح الانتصار على الباغي؛ لأن التذلل لمن بغى ليس من صفات المؤمن، فالانتصار عند البغي فضيلة، والعفو عند الغضب فضيلة.

٥- **وهناك مرتبة خامسة، هي مرتبة الظلم**: وهم الذين يعتدون على غيرهم أو يزيدون في العقوبة.

وعن حال الظالم الباغي فإن الله تعالى يقول فيه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين يبدؤون بالعدوان على الناس ويسيئون إليهم.

واستشفَّ بعضهم من هذه الآية **أقسام الناس الثلاثة**:

(أ) **المقتصد**، وهو الذي يقتصُّ بقدر حقه بلا زيادة، وهذا هو المقابل للسيئة بمثلها.

(ب) **السابق بالخيرات**، وهو المعنيُّ بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

(ج) **الظالم**، وهو المعتدِي، المشار إليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

فأمر بالعدل، وندب إلى الفضل وهو العفو، ونهى عن الظلم.

---

(١) «المسند» (٢/٤٣٦) (٩٦٢٤) قال محققوه: حسن لغيره، وهذا هو شطر الحديث الأول، وأخرجه وأبو داود برقم (٤٨٩٦، ٤٨٩٧) و«صحيح سنن أبي داود» (٤٠٩٥) قال ابن كثير: وهذا الحديث في غاية الحسن في المعنى، والحديث في «السلسلة الصحيحة» (٢٣٧٦) مرسلًا، وقد روى موصولًا عن سعيد بن المسيب بإسناد حسن في الطبراني في الأوسط (٧٢٣٥).

الْوَصْفُ الثَّانِي عَشَرَ: دَفْعُ الصَّائِلِ

٤١- ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾

أكَّد الله سبحانه في هذه الآية أن دفع الصائل أمر محمود، وليس على من فعله مؤاخذة ولا معاقبة، فقال سبحانه: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ أي: من دافع عن نفسه، وانتصر ممن ظلمه فأخذ حقه دون عدوان ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنتصرون لأنفسهم ﴿مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ أي: ليس عليهم حرج ولا عقوبة ولا مؤاخذة، ولا لوم عليهم من غيرهم؛ لأنهم باشروا حقهم الذي شرعه الله لهم، فقابلوا السيئة بمثلها، وانتصرُوا لدينهم وعِرْضهم بعد ظلم الظالم لهم، وهذا كقوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الشورى] أما من أراد أن يوقع البغي أو الظلم بغيره من غير أن يقع منه شيء فإنه لا يجازى بالمثل، وإنما يؤدب تأديبًا يردعه ويزجره عما صدر منه.

ثم بيَّن سبحانه على من تقع المسؤولية، وعلى من تقع المؤاخذة والمعاقبة، فقال تعالى:

٤٢- ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

أي: إنما تقع المؤاخذة على الذين يعتدُون على الناس ظلمًا وعدوانًا، ويتجاوزُون الحد الذي أباحه لهم ربهم إلى ما لم يأذن لهم فيه، فيفسدون في الأرض بغير الحق، ويتكبرون على الناس ويتجبرون عليهم، ويعتدون على الأنفس والأموال والأعراض.

والبغي لا يكون إلا في الأرض، ولا يكون إلا بغير حق، وهو يشمل ظلم الناس والبغي عليهم في أموالهم وأعراضهم وأنفسهم.

والبغي: هو الاعتداء على الحق الذي وضعه الله للناس في الأرض، أما الاعتداء على المبطل لأجل باطله فلا يسمى بغيًا، وإنما هو انتصار.

والآية تشمل ظلم غير المسلمين للمسلمين، وتشمل ظلم المسلمين بعضهم بعضًا، ولا تستقيم أحوال الناس، ولا يسُود العدل بينهم وفي الأرض ظالم لا يجد من يكُفُّه ويمنعُه من ظلمه، أو باغٍ جائرٌ لا يجد من يقاومه ويقتص منه.

ثم توعَّد الله هذا الصنف من الناس بالعذاب المؤلم لقلوبهم وأبدانهم يوم القيامة فقال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: بسبب ظلمهم وبغيهم.

الْوَصْفُ الثَّالِثَ عَشَرَ: الصَّبْرُ وَالصَّفْحُ

٤٣- ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾

ختم الله صفات المؤمنين في هذه الآيات، بصفتي الصبر، والعفو والصفح، وقد مدح الله تعالى الصابر على ما يناله من الأذى، فهو يستر السيئة، ويعفو ويصفح عمن أساء إليه، ولا ينتصر لنفسه، ويَعِدُه بالثواب الجزيل وحسن الجزاء. وبيَّن سبحانه أن هذا الخلُق من عزائم الأمور، وعُلوِّ الهمة، وفي هذا بيان لمزيَّة المؤمنين الذين يتحملون الأذى من غيرهم ويصبرون عليه، ولا ينتصفون ممن أذاهم.

وفي هذا ترغيب في العفو، والصبر على الأذى بين المسلمين، أما بين المسلمين والكافرين فإن الحكم في ذلك يرجع إلى المصلحة في العفو أو المؤاخذة.

ومجموع هذه الصفات يرسم طابعًا مميزًا للمؤمن المتوكل الذي يُؤْثر الآخرة على الدنيا، ويقود البشرية إلى صلاح الدنيا والدين، بإجتناب الفواحش والكبائر، والاستجابة لله والرسول، وإقام الصلاة، والإنفاق في وجوه الخير، والتشاور في الأمور، والانتصار من الباغي، والعدل والفضل، ودفع الصائل، والصبر والصفح.

وقد أُكدت الجملة الأخيرة في هذه الآية بأربع مؤكدات، هي: اللام، وإن، ولام الابتداء، والوصف بالمصدر ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ وذلك تنويهًا بفضل الصبر والعفو والتسامح، وأنه من الأمور التي حث الله عليها وأكدها، وأخبر أنه لا يُلَقَّاها إلا أهل الصبر، ولا يوفَّق لها إلا أولوا العزائم والهمم العالية، فإن عدم الانتصار للنفس أمر شاق، والصبر على الأذى ومقابلته بالإحسان أشق، ولكنه يسير على من جاهد هواه واستعان بالله وهضم نفسه واستعلى بها إلى مصاف المحسنين.

أَهْلُ الضَّلَالِ تُسَدُّ عَلَيْهِمْ طُرُقُ النَّجَاةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

٤٤- ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾

وبعد تقرير صفات المؤمنين، يعرض القرآن صورة الضالين الظالمين، وما ينتظرهم من ذل وخسران يوم لقاء رب العالمين.

فبعد ذِكرِ هداية من أراد الله له أن يهتدي، يأتي ذِكْرُ من قدَّر الله عليه الضلال، فهو لا يجد غير الله تعالى وليًّا ينصره وينقذه من العذاب.

وقد دعا الله تعالى الناس إلى الهداية بواسطة رسله فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: ٢٥] كما نهاهم عن الكفر والضلال.

وبيَّن سبحانه أن الضال، والظالم لنفسه، الخارج عن طاعة الله تعالى، غير قابل للهدى، محروم من توفيق الله تعالى له، فهو سبحانه لا يهدي القوم الضالين، ولا الظالمين، ولا الكافرين، ولا الفاسقين..

ومن يَصْرِفْهُ الله عن طريق الرشاد والهدى، بسبب ظلمه وزيغ قلبه، وعدم قابليته للهداية، فليس له ناصر يهديه إلى سبيل الرشاد ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٣٣].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ الآية [٤٦].

فالذي يُؤْثر الغيَّ على الرشْد، يخذُلْه الله، ويُبعده عن طريق الهدى؛ لأنه ليس من أهلها، نظرًا لفساد فطرته، وذلك لأن قضاء الله تعالى لا يُردُّ، ومشيئته لا معقِّب لها، فإذا عَلِمَ الله تعالى من العبد في الأزل، أنه من أهل الضلال، لم يكن له وليٌّ غير الله تعالى ينصره ويُجيرُه مِنْ جزاء هذا الضلال، فهؤلاء لا يجدون لهم مُعينًا ولا وليًّا، ولا يجدون إلا الندامة على ما فات، عندما يرَوْن العذاب، فيقولون: هل من سبيل إلى العودة إلى الدنيا مرة أخرى لتدارُك ما فاتنا فيها؟ ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ بأعينهم يوم القيامة يرونه منظرًا شنيعًا فظيعًا، عندئذ يُظهرون الندم والحزن على ما سلف منهم، ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ أي: يقولون لربهم أو لخزنة النار: هل لنا من سبيل إلى الرجوع

إلى الدنيا لنعمل بطاعتك؟ فلا يُجابون إلى ذلك، لأنهم يطلبون أمرًا محالًا .

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٧ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝٢٨﴾ [الأنعام].

ثُمَّ بيَّن سبحانه حال الظالمين لأنفسهم بالشرك والكفر يوم القيامة في الآية التالية

لقد كان الظالمون طغاة جبابرة في الدنيا، فناسب أن يكون الذل والانكسار هو السِّمة البارزة لهم يوم القيامة، فيتهاوى كِبْرياؤهم، ويتطلَّعون في يأس ولهفة إلى بارقة أمل للخلاص مما هم فيه دون جدوى. قال تعالى:

٤٥- ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ۝٤٥﴾

إنهم يُعرَضون على النار وهم خاشعون، ليس من التقوى، ولا من الحياء، ولكن من الذل والهوان، في خضوع واستكانة، صاغرين متضائلين، لقد حاولوا الخروج من النار والهرب منها، ولَمَّا لم يجدوا طريقًا لذلك زاد انكسارهم، فهم يُعرضون على النار عرْضًا مؤلِمًا من شدة ما أصابهم، فأبصارُهم منكَّسة، لا يستطيعون رفع أعينهم، إنهم ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾.

أي: ينظرون نظرًا خفيًّا، كمُسارقة النظر من شدة الخوف، ومن هوْل ما يروْن من العذاب، كحال الخائف الهارب من ملاحقة النار له، فهو يجْري ويلتفت وراءه بين الفيْنة والفيْنة لينظر هل اقتربت النار منه؟

وهو يشبه المحبوس للقتل او القصاص، ينظر إلى السيف نظرة الكاره، وهو لا يَقْدر أن يفتح أجفانه ويملأ عينيه منه، قال سبحانه يصف الظالمين في آية أخرى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾ [الغاشية].

ولما عاين أهل الجنة ما حلَّ بالكفار من سوء العاقبة والانكسار والذلة، تحدثوا بنعمة الله عليهم ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بالله ورسوله، الفائزون برضى الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾

حقًّا هم ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بدخول النار، وخسران أهليهم حيث لم ينفعوهم بشيء، وكانوا معهم في النار، وإن كان أهلُوهم في الجنة، فإنهم لن يستطيعوا الوصول إليهم، فقد حيل بينهم وبين ما يشتهون، وفوَّتوا على أنفسهم جزيل الثواب، وحصل لهم العقاب الأليم، وحيل بينهم وبين أهليهم، فلم يجتمعوا بهم، إنها خسارة لا تعدلها خسارة!!

ويأتي التعليق على مشهد المعروضين على النار بقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: في عذاب دائم يوم القيامة، لا ينقطع عنهم، ولا يزول ولا يحول، إنه خسران كامل تام، لا خسران أفظع منه، فالنار لهم دار إقامة لا يبرحونها، ولا يحيون فيها ولا يموتون، ولا يفتر عنهم شيء من عذابها وهم فيها آيسون من رحمة الله.

لقد كان المشركون وهم في الدنيا يزعمون أن لهم آلهة تنفعهم عند الله، فرد الله عليهم بقوله:

٤٦- ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾

أي: وما كان لهؤلاء الكافرين حين يعذبهم الله يوم القيامة، أعوان وأنصار ينصرونهم من عذاب الله، ولا يشفعون لهم عند الله، وقد كانوا في الدنيا يُمنُّون أنفسهم بذلك فيخيب أملهم يوم لقاء الله، قال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ عن طريق الهداية والرشاد بسبب ظلمه وكفره وفساد فطرته ﴿فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ أي: ليس له طريق يوصله إلى الحق في الدنيا، ولا طريق يوصله إلى الجنة، لقد سُدَّت عليه طرق النجاة والخلاص، فالهداية والإضلال بيد الله تعالى دون سواه، وهؤلاء قد ضلوا عن سبيل الله حين زعموا أن لهم شركاء من دون الله يجلبون لهم النفع ويدفعون عنهم الضر.

تَنْبِيهٌ وَإِنْذَارٌ

٤٧- ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾

بعد أن أثنى الله تعالى على المؤمنين وذكَر أوصافهم، وسجَّل على الكافرين الضلال والعذاب، وجَّه سبحانه خطابًا جامعًا يـأمـر فيه الكفار بالاستجابة لله والرسول، قبل فوات الأوان بالخروج من الدنيا، فيطيعون ربهم ويمتثلون أمره، قبل أن يأتي يوم العذاب، فهو يوم

لا رجعة فيه، ولا يجدون لأنفسهم مكانًا يتقون فيه عذاب النار، ولا يمكنهم التنصل من ذنوبهم، فلا يسعهم إلا الاعتراف، ولهذا وجه الله لهم هذا النداء:

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم﴾ أيها الكفار بالإيمان والطاعة لربكم خالقكم ورازقكم، ومحييكم ومميتكم، استجيبوا لدعوة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ولْتكن استجابتكم لداعي الله تعالى عاجلة في الدنيا من قبل أن يأتي يوم القيامة، أو يأتيكم الموت، وهو يوم لا يستطيع أحد ردَّه أو دفْعه، إنه يوم يأتي في وقت محدد -في علم الله تعالى- لا يتخلَّف عنه أبدا، وهذا معنى ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ هو يوم القيامة، أو هو نهاية الأجل في الدنيا ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ﴾.

الملجأ: هو المكان الذي يأوي إليه الإنسان عند الشدائد ليتقي المكروه، فليس للكفار ملاذ يلوذون به، أو يفرون إليه يوم القيامة، ينجيهم من عذاب الله ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾ [القيامة].

وليس لكم من مكان يستركم، أو تتنكَّرون فيه، هذا معنى ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي وليس لكم القدرة على إنكار شيء مما اكتسبتموه في الدنيا من الكفر والمعاصي؛ لأنه مسجل عليكم في صحف أعمالكم، وعندما يحدث إنكار من بعضهم، فإن الحجة تقوم عليهم بشهادة الجوارح.

وما ينزل بهم من عذاب الله تعالى إنما هو بسبب كفرهم وإعراضهم عن الحق.

وفي الآية دليل على ذم التسويف، والأمر بالمبادرة إلى العمل الصالح، فإن للتأخير آفات وموانع، وهكذا يأمر الله عباده بالاستجابة له بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، والمبادرة إلى ذلك وعدم التسويف، من قبل أن يأتي يوم القيامة، حيث لا يمكن استدراك ما فات، وليس هناك ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه، وليس هناك من ينكر على العبد ما يقترفه من جرائم ومنكرات، وفي الآية ذم لطول الأمل ودعوة إلى اغتنام وقت المهلة.

وَظِيفَةُ الرَّسُولِ وَطَبِيعَةُ الإِنْسَانِ

٤٨- ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾

ولَمَّا أمر الله نبيه بدعوة الناس إلى الاستجابة لله والرسول، أعلم رسوله بعد ذلك بموقفه من المعْرضين عن الدعوة، ليعذُرَه فيما قام به، ويبيِّن له أنه غير مقصِّر في الدعوة والبلاغ والإنذار.

فإن أعرض المعاندون بعد هذا كله، فما على الرسول إلا البلاغ، وتوصيل الحجة، وهو ليس متكفِّلًا بهم، ولا حفيظًا عليهم ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ أي: إن أعرض المكذبون عن الإيمان بالله ورسوله وأعرضوا عن إجابة الداعي، ولم يقبلوا هداية الرحمن؛ فلا تحزن -أيها الرسول- فإنا لم نُرسلْك لتكون رقيبًا عليهم، ضامنًا لهدايتهم، أو مكرِهًا لهم على الإيمان، وإنما أرسلناك لتبليغ الدعوة، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وقد ثبت أجرك على الله، سواء أعرضوا أو آمنوا، وحسابهم على الذي يحفظ أعمالهم، وهذا معنى ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي: لست حافظًا لأعمالهم تحاسبهم عليها، ولا موكَّلًا بهم، ولا رقيبًا عليهم ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال جلَّ شأنه: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]

وقد بلَّغْتَ رسالة ربك، وفي هذا إيناس للرسول ﷺ وإزالة لهمِّه، وتسلية له.

ثم إن الله تعالى يقول لرسوله: لا تحزن من إعراضهم عن دعوتك، فقد أعرضوا عن نعمتي وعن إنذاري، وإنَّ معاملتهم لربهم بالبطر بالنعمة، وبالكفر عند الشدة، يخفف عنك معاملتهم لك، ويبيِّن أن هذا خلُقٌ مرتكزٌ فيهم، وفي هذا بيان لطبيعة الإنسان وكُفرانه بنعم الله تعالى قال سبحانه: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ أي: إذا أعطينا الإنسان -وهو يشمل عموم الناس، والكافر بصفة خاصة-: إذا أعطيناه منا رحمة، أي غنى وسعة من المال، أو نصرًا وأمْنًا، أو صحة وولدًا وجاهًا ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ وسُرَّ، وانشرح لها ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ مصيبة من فقر ومرض، أو هزيمة وبلاء، أو شدة وخوف

﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بسبب ما قدمته أيديهم من معاصي الله ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ جحودٌ لنعمة ربه، شديد الكفر به، يعدد المصائب وينسى النعم، وهذا شأن الإنسان الكافر.

أما المؤمن فإنه يشكر عند النعم، ويصبر عند البلاء والنقم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج].

قال الرازي: نِعَمُ الله تعالى في الدنيا وإن كانت عظيمة، إلا أنها بالنسبة إلى سعادة الآخرة كالقطْر بالنسبة إلى البحر، فلذلك سماها ذوْقًا، فبيَّن تعالى أن الإنسان إذا فاز بهذا القدر القليل من النعيم في الدنيا، فإنه يفرح بها، ويعظُم غروره بسببها، ويقع في العجب والكبر، ويظن أنه فاز بكل المنى، وذلك لجهله بحال الدنيا وبحال الآخرة[١].

وقال الصاوي: الحكمة في تصدير النعمة بـ﴿إِذَآ﴾ والبلاء بـ﴿إِن﴾ هو الإشارة إلى أن النعمة محققة الحصول، بخلاف البلاء؛ لأن رحمة الله تعالى تغلب غضبه[٢].

وشأن المؤمن كما قال النبي ﷺ: «**إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن**»[٣].

أَحْوَالُ النَّاسِ فِي الْإِنْجَابِ وَعَدَمِهِ يَجْرِي وَفْقَ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَحِكْمَتِهِ

٤٩، ٥٠- ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ[٤] إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

لَمَّا ذكر الله سبحانه نتيجة إذاقة الإنسان للرحمة وإصابته بضدها، أتبع ذلك ببيان أن الله تعالى له الملك، يقسم النعمة والبلاء كيف أراد، فهو المتصرف في الكون كله، عُلويِّه وسُفليِّه، وهو المتصرف بالخلق والإيجاد كيف يشاء، وله مطلق التصرف في أمور خلقه وفق حكمته، فيعطي ويمنع، وقدرته نافذة في الكائنات كيف يشاء، لا راد لقضائه

---

(١) «التفسير الكبير» (٢٧/ ١٨٤).

(٢) «حاشية الصاوي» (٤/ ٤١).

(٣) من حديث صهيب في «صحيح مسلم» برقم (٢٩٩).

(٤) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بتسهيل الهمزة الثانية وإبدالها واوًا من (يشاء إناثا)، وحققها غيرهم.

ولا معقب لحكمه، له ملك ما في السموات والأرض، وليس لأحد معه شيء -اشتراكًا ولا استقلالًا- يخلق ما يشاء دون وصاية من أحد عليه، ولا اختيار لشيء معين ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وما فيهما وما بينهما، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع.

ثم فصَّل سبحانه بعض مظاهر قدرته وإرادته النافذة، فقال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ لا ذكور معهن ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ لا إناث معهم ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ أي: يجمع بينهما لبعض خلقه ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ لا يولد له ذكر ولا أنثى.

وقد اشتمل هذا النصُّ على **تقسيم الناس إلى أربعة أقسام**:

١- منهم من يرزقه الله البنات فقط.

٢- ومنهم من يرزقه الله البنين فقط.

٣- ومنهم من يرزقه الذكور والإناث معًا.

٤- ومنهم من يكون عقيمًا لا نسل له ولا ولد. وهكذا خلَق الله الخلق:

أ- فآدم خُلق من غير ذكر ولا أنثى.

ب- وخُلقت حواء من ذكر دون أنثى.

جـ - وخُلق عيسى من أنثى دون ذكر.

د- وخُلق بقية الخلق من ذكر وأنثى.

وقيل: نزلت هذه الآية في الأنبياء ﷺ، حيث وهب الله للوط وشعيب إناثًا فقط، ووهب لإبراهيم ذكورًا فقط، ووهب لمحمد ذكورًا وإناثًا، وجعل عيسى ويحيى عقيمين، والآية عامة في جميع الناس.

وقدَّم الإناث في الذِّكر تشريفًا لهن، وتأنيسًا بهن، وإشارة إلى الاهتمام بهن وحُسن تربيتهن، ففي الحديث عن عائشة مرفوعًا: **«من ابتُلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كُنَّ له سترًا من النار»**[1].

(١) من حديث عائشة في البخاري (١٤١٨، ٥٩٩٥) ومسلم (٢٦٢٩) والترمذي (١٩١٦).

ولأن سياق الكلام في الآية، للدلالة على أنه تعالى يفعل ما يشاء، وليس ما يشاء الناس، ولأن الذكور أحب إليهم من الإناث غالبًا، فأحوال العباد في حب الأولاد مختلفة، والإنجاب يكون وفق حكمته سبحانه ومشيئته، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ عليم بما يخلُق وما يُصلح أحوال عباده، قدير على خلْق ما يشاء، لا يعجزه شيء أراد خلقه، فخلْق الله تعالى ليس عاريًا عن الحكمة، وإنما يجري وفق علمه تعالى وحكمته.

أَنْوَاعُ الْوَحْيِ

٥١- ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ[1] رَسُولًا فَيُوحِيَ[2] بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

ولما كان موضوع السورة هو كون القرآن وحيًا من عند الله سبحانه، فقد بُدئت بالحديث عن الوحي في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾.

وخُتِمَتْ أيضًا بالحديث عن الوحي لرد شبهة المشركين في أن الرسول لا يكون بشرًا، وقد شق عليهم دعوة الرسول إليهم، كما قال تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [١٣] فهذا من قبيل ردِّ العَجُز على الصدر، لبيان أن شأن النبي ﷺ في ذلك شأن جميع الرسل في نزول الوحي عليه، حيث لم يخاطبهم الله تعالى إلا بأحد أوجه ثلاثة ذكرتْها الآية، وقد سُمِّي الوحي روحًا، لأن الجسد يحيا بالروح، والقلوب والأرواح تحيا بالقرآن وتحيا به أمور الدنيا والدين.

قيل في **أسباب النزول**: إن اليهود قالوا للنبي ﷺ: ألَا تُكَلِّم الله وتنظر إليه إن كنت نبيًّا، كما كلمه موسى ونظر إليه؟ فقال: «**لم ينظر موسى إلى الله تعالى**»، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾[3].

---

(١) ،(٢) قرأ نافع وابن ذكوان بخلف عنه برفع اللام من (يرسلُ) وإسكان الياء بعد الحاء من (فيوحي) على أن (يرسل) جملة مستأنفة أو خبر لمبتدأ محذوف، أو هو يرسل، فـ (يوحي) مرفوع بضمة مقدرة عطفًا على (يرسل)، وقرأ الباقون بنصب اللام والياء، وهما منصوبان بأن مضمرة، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر معطوف على (وحيًا).

(٣) «تفسير الخازن» (٤/ ١٠٠) والقرطبي (١٦/ ٥٣) والواحدي (٣١١).

وقد خاض اليهود وغيرهم في معنى تكليم الله لموسى، وقالوا بالتجسيم، فنزلت الآية لتبيِّن صورة تكليم الله تعالى لعباده.

وكان المكذبون قد قالوا للنبي ﷺ ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٨] فرد الله عليهم بهذه الآية، لبيان أن تكليم الله تعالى لا يكون إلا لخواص خلقه من الأنبياء والمرسلين.

أي: وما صح وما استقام لأحد من بني آدم أن يكلمه الله في حال من الأحوال إلا بطريق من طرق الوحي الثلاثة، ومنها الوحي في اليقظة أو المنام، بأن يُلْقيه الله في قلب الرسول، من غير إرسال ملَك، ولا مخاطبة منه شفاهًا، أو عن طريق الإلهام بالنفْث في الرُّوع ﴿أَوْ﴾ يكلمه شفاهًا ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ فيسمع كلامه ولا يراه، كما حصل لموسى عليه السلام وليس المراد بالحجاب الفاصل، أو الحاجز المادي، وإنما المعنى أنه محجوب عن رؤية الله تعالى في الدنيا ﴿أَوْ﴾ يكلمه بواسطة الرسول؛ بحيث ﴿يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ أي: ملَكًا من ملائكة الله ﴿فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ كما كان ينزل جبريل إلى النبي المرسل إليه، فيوحي إليه بإذن ربه ما يشاء الله إيحاءه.

يقول الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله: وليس كل بشر يرشح للوحي، بل يصطفي الله له طبائع خاصة ومعادن قوية، والأنبياء ليسوا سواء في طاقاتهم واستعداداتهم، كما أن نجوم السماء ليست سواء في أحجامها وأشعتها، والذي يُكلَّف بهداية مدينة غير الذي يُكلَّف بهداية قُطر، غير الذي يُكلَّف بهداية العالم على مرِّ العصور، وقد بعث الله محمدًا بكتاب فيه شفاء الإنسانية على اختلاف الزمان والمكان، وقد بلَّغ الكتاب علمًا، وأقامهُ دولة، وورَّثهُ حضارة، وتركه حصانة للعالم أجمع من الزيغ والردى[1].

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ عليٌّ بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، قد قَهر كل شيء، ودانت له جميع المخلوقات، وهو سبحانه حكيم في تدبير أمور خلقه، يضع الأمور في نصابها.

وفي الآية إثبات صفة الكلام لله تعالى على الوجه اللائق بجلاله وعظيم سلطانه من غير تشبيه ولا تعطيل.

---

(١) «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم» ص ٣٧٨ .

وقد بيَّنت الآية أن وحي الله تعالى إلى رسله على **ثلاثة أنواع**:

الأول: عن طريق الإلقاء في القلب يقظةً أو منامًا، وهو معنى التكلم في الآية، بمعنى: بلوغ مراد الله تعالى إلى النبي -أي نبيٍّ- بعلم يُلقى في نفسه عن طريق المنام أو الإلهام، يكون حجة له؛ لأنه عَلِم عِلْمًا ضروريًّا من عند الله، ويكون حجة للأمة لعصمة الرسول من وسوسة الشيطان.

وأول ما بُدئ به الوحي على النبي محمد ﷺ هو الرؤيا المنامية، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، واستمر هذا لمدة ستة أشهر، ثم نزل عليه جبريل في غار حراء.

ففي الحديث عن أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل»** وفي لفظ **«إني رأيت دار هجرتكم وهي في حرَّة ذات نخل، فوقع في وهْلِي أنها اليمامة، أو هجَر، فإذا هي طابة»**[1].

ورؤيا الأنبياء حق كما حدث لخليل الرحمن حين أُمر في المنام أن يذبح ولده إسماعيل.

أما وحي الإلهام، فإنه كما قال النبي ﷺ من حديث ابن عباس ﷺ: **«رأيت بقرًا تذبح فبقْرٌ والله خير»**[2] أي: رأيت هذه الكلمة، من جملة الرؤيا، والبقْر: شق البطن، وقد أوَّل النبي رؤيا البقرة، بما أصاب المسلمين يوم أحد، وقوله ﷺ: **«ورأيت والله خير»** فهو ما أتى الله به بعد ذلك من النصر بعد الهزيمة.

وليست رؤيا المنام ولا الإلهام، حجة لغير الأنبياء، وبالنسبة للأنبياء فإنها جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة، ومن هذا القبيل في أصح القولين ما جاء عن النبي ﷺ: **«إن روح القُدس نفَث في رُوعي أن نفْسًا لن تموت حتى تستوفي رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب»**[3].

النوع الثاني: أن يكون الكلام من وراء حجاب، يسمعه سامعه، ولا يرى مصدره،

---

(١) ينظر: صحيح البخاري (٣٦٢٢) وصحيح مسلم (٢٢٧٢) بنحوه.

(٢) «المسند» (٢٤٤٥)، بإسناد حسن، وأخرجه الطبراني (١٠٧٣٣) والحاكم (٣/ ٣٩) وغيرهم.

(٣) «شرح السُّنَّة» للبغوي (١٤/ ٣٠٤) عن ابن مسعود. وصححه الألباني عن أبي أمامة في صحيح الجامع (٢٠٨٥) وهو في التمهيد لابن عبد البر (١/ ٢٨٤).

وهذا النوع مختص بموسى ومحمد ﷺ، فقد كلَّم الله موسى في البقعة المباركة من الشجرة، ولموسى أنواع أخرى من الوحي كما لسائر الرسل.

وقد حصل هذا النوع من الوحي للنبي ﷺ ليلة المعراج في حديث فرْضية الصلاة، وقد أشارت إليه سورة النجم في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [النجم].

قال ﷺ لجابر بن عبد الله رضي الله عنه: **«ما كلَّم الله أحدًا إلا من وراء حجاب، وإن الله كلَّم أباك كفاحًا»**[١] وكان أبوه قد قُتِلَ يوم أُحد، وتكليم الله له كان في البرزخ، والآية تتحدث عن الوحي في الدنيا.

النوع الثالث: أن يرسل الله الملَك إلى النبي فيبلِّغ إليه كلامًا يسمعه ويعيه، وهو غالب ما يُوجَّه إلى الأنبياء من كلام الله تعالى.

قال تعالى في شأن زكريا عليه السلام: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٩].

وقال في إبراهيم عليه السلام: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ [الصافات: ١٠٤، ١٠٥].

وقال في موسى عليه السلام: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤].

أما الطرق التي أوحى الله بها إلى رسول الله ﷺ **فهي أربعة أنواع**:

الأول: ما كان يُلقيه الملَك في رُوعه وقلبه من غير أن يراه.

الثاني: أن يتمثل له الملَك رجلًا فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول.

الثالث: أن الوحي كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه، حتى إن جبينه ليتفصَّد عرقًا في اليوم الشديد البرد، وحتى إن راحلته لتبرُك به إلى الأرض إن كان راكبًا عليها.

ولقد جاءه الوحي مرة وفخْذهُ على فخْذ زيد بن ثابت فثَقلت عليه حتى كادت ترضُّها.

الرابع: أنه يرى الملَك في صورته التي خلقه الله عليها، فيوحي إليه ما يشاء، وقد

---

(١) الترمذي برقم (٣٠١٠) وقال: حسن غريب من هذا الوجه. وهو في المستدرك (٣/ ٢٢٤) برقم (٤٩١٤) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٧٩٠٥).

حدث ذلك مرتين: مرة في غار حراء، أول ما نزل عليه الوحي، ومرة أخرى ليلة المعراج عند سدرة المنتهى(١).

ثم أعقب الحديث عن الوحي ببيان أن القرآن نزل من عند الله تعالى.

هِدَايَةُ الْبَشَرِ عَلَى يَدِ أُمِّيِّ الْعَرَبِ

٥٢- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾

أي: وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك -أيها الرسول- أوحينا إليك قرآنًا من عندنا، وقد سماه الله روحًا؛ لأن الأرواح تحيا به، كما تحيا الأبدان بالغذاء، وفيه حياة النفوس من الجهل، وفيه الحياة من موت الكفر، وهو ربيع القلوب، كما أن الغيث ربيع الأرض، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣].

وقبل نزول القرآن عليك لم تكن تعرف شيئًا عن الكتب الإلهية، ومنها القرآن، حتى عرَّفناك به ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ وما كنت تعرف شيئًا عن حقيقة الإيمان الشرعي من صفات الله تعالى وأصول الدين، ولم تكن تدرك شيئًا عن تفصيل شرائع الله وأحكام دينه ولا عن أخبار السابقين واللاحقين، بل كنت أميا لا تخط ولا تقرأ.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

وقال سبحانه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: ٣].

وقد كان النبي ﷺ مؤمنًا بوجود الله تعالى ووحدانيته قبل نزول الوحي عليه؛ لأن الأنبياء معصومون من الشرك وعبادة الأوثان، قبل النبوة وبعدها.

وقد جعل الله هذا القرآن نورًا وضياء للناس وهدى ورحمة ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ أي: جعلنا هذا القرآن ضياء يَهتدى به من وفَّقه الله للهداية، فيخرجه من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الابتداع

(١) يُنظَر: «زاد المعاد» لابن القيم. في كلامه عن الوحي.

إلى الاتباع كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: إن الله تعالى يهدي من يشاء بدعوة النبي ﷺ وواسطته، وفي هذا تعريض بالمشركين لعدم اهتدائهم.

وكان مالك بن دينار يقول: يا أهل القرآن، ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ فإن القرآن ربيع القلوب، كما أن الغيث ربيع الأرض[1].

ثم إن هذا الطريق هو طريق الله الذي يملك هذا الكون وإليه المرجع والمصير:

٥٣- ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾

أي: إن هذا الصراط هو شرع الله ورحمته، أنزله من يملك هذا الكون، ولا يعزب عنه شيء فيه، فهو دين لا عوج فيه، يُصلح الله تعالى به العباد والبلاد، وإلى الله تصير الأمور من الخير والشر، فيجازي كلًّا بعمله، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ.

تم تفسير (**سورة الشورى**) ولله الحمد والمنة

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٦/ ٥٥).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الزُّخْرُفِ (٤٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الزخرف هي السورة الثالثة والأربعون في ترتيب المصحف، والثانية والستون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الشورى وقبل سورة الدُّخَان.

وعدد آياتها تسع وثمانون آية في جميع المصاحف، إلا المصحف الشامي فهي فيه ثمان وثمانون آية.

وعدد كلماتها ثلاث وثلاثون وسبع مئة كلمة.

وعدد حروفها ثلاثة آلاف وأربع مئة حرف.

وسُمِّيت سورة (الزخرف) لقوله تعالى فيها: ﴿وَزُخْرُفًاۚ﴾ الآية [٣٥] ولم ترد هذه الكلمة في غيرها من السور، وسَمَّاها البخاري: سورة حم الزخرف.

وهي سورة مكية، وقيل: إن آية ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ الآية [٤٥] نزلت بالمسجد الأقصى.

وحادثة الإسراء والمعراج كانت قبل الهجرة، فهي آية مكية أيضًا.

وموضوع سورة الزخرف كالسور المكية تناولت:

(أ) جانب التوحيد: فذكرتْ تناقض المشركين في اعترافهم بأن الله تعالى هو الخالق الرازق، مدبر شؤون الخلق، يحيي ويميت ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩﴾.

ومع ذلك فقد عبدوا غيره، وزعموا أن الملائكة بنات الله، مع اعتقادهم بأن البنات أقل شأنًا من الأولاد! وجمعوا بين الإقرار بوجود الله تعالى واتخاذهم آلهة يعبدونها شركاء لله تعالى.

وقد أبطلت السورة حججهم ومعاذيرهم، وصححت انحراف العقيدة لديهم، ورَدَّتْهم إلى الفطرة السليمة، وبرَّأت عيسى ﷺ من قولهم، كما برَّأت الملائكة من افتراءاتهم ﴿قُلْ

إن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾.

وأقامت السورة عددًا من دلائل القدرة والوحدانية مُنْبثَّة في هذا الكون الفسيح: في السماء والأرض، والجبال والوهاد، والبحار والأنهار، والماء الهاطل من السماء، والسفن التي تسير فوق سطح الماء، والأنعام التي سخرها الله تعالى للبشر ليأكلوا لحومها، ويركبوا ظهورها.

(ب) **وتناولت السورة مصدر الوحي، وصدق القرآن**، وفنَّدتِ الشبه التي أثارها المشركون حوْل رسالة محمد ﷺ، فقد اقترحوا أن ينزل القرآن على زعيم مكة أو زعيم الطائف، لا على يتيم قريش، فبيَّن سبحانه أن الجاه والثراء ليْسَا ميزانًا لاصطفاء العبد واختياره، فلو شاء الله لجعل ﴿لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ .

وأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يستمسك بما أوحى إليه به، فهو على صراط مستقيم، وبيَّن له أن هذا القرآن شرف رفيع له ولقومه، والرسالة فضل الله يؤتيه من يشاء.

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ﴾ الآية [٣٢].

(ج) **وفي الحديث عن البعث والجزاء** بيَّنتِ السورة مصير المؤمنين، حيث يقال لهم عند قيام الساعة: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

كما بيَّنتْ مصير المجرمين الأسود ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

وأهل الجنة يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب، ولهم فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون.

أما أهل النار فإنهم يحاولون الخروج من النار فلا يستطيعون ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠].

ثم يستغيثون بخزنة النار فلا يغيثونهم ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾ [غافر]

فيلْجؤون في النهاية إلى الخازن الأكبر ﴿وَنَادَوْا يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ فيجيبهم بعد وقت طويل: ﴿إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

(د) وتذكُر السورة جانبًا من **أحوال الأمم السابقة** مع رسلهم لِيُذكِّر كل رسول أمته بما حدث لهم من عواقب؛ حتى لا يغترُّوا بإمهال الله تعالى لهم، ويخص بالذكر طرفًا من رسالة إبراهيم ﷺ، وكيف أنه جعل كلمة التوحيد أثرًا باقيًا في عقبه، والمشركون يقولون إنهم على ملَّته، وهم يخالفونها، فيشركون مع الله غيره.

(هـ) كما تناولت السورة طرفًا من **قصة موسى مع فرعون**، وكيف أن فرعون كذَّب موسى وطارده هو وقومه حتى بلغوا البحر الأحمر، وعبَر بنو إسرائيل البحر يقودهم موسى ﷺ، وأراد فرعون اللحاق بهم، فغرق في اليمِّ، هو ومن معه جميعًا، ولما أحس فرعون الغرق ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

وعن ابن عباس ﷺ: أنه لَمَّا أغرق الله فرعون، ونطق بكلمة التوحيد، جعل جبريل يأخذ من طين البحر المستقر في قعره ويدسُّه في فمه، ثم لفظت الأمواج جُثَّة الملك السابق، ورأى الناس على شاطئ البحر رُفاتًا مكْسُوًّا بالوحل، وفمًا مليئًا بالطين!

أين أساور الذهب التي كانت في معصميه؟ لقد اختفت مع الألوهية المزوَّرة! لقد كان الرجل المغرور مثالًا للتكبُّر والجبروت ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ .

وهكذا يختفي المبطلون عن دنيا الناس لتستقبلهم عرصات القيامة بنارها المؤججة.

(و) وتذكُر السورة طرفًا من **سيرة عيسى** ﷺ، يدور حول الجدل في شأنه، حيث يقول بعضهم: إنه إله ثانٍ، فهو الإله الابن، وإن جبريل -روح القدس- إله ثالث، والإله الأول هو الأب.

وفتنة ولادة عيسى من غير أب، رشَّحت عيسى ﷺ ليكون ابنًا لله كما يزعمون، ويشاء الله سبحانه أن يعيده إلى الأرض مرة أخرى ليُكذِّب بنفسه أنه إله أو ابن للإله، ويؤكد أنه عبد مرسل من عند الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ .

وعلى الدعاة إلى الله تعالى أن يثابروا في إرشادهم دون يأس ولا ملل.

وقد خُتمت السورة بهذا المعنى بعد بيان حال السعداء وحال الأشقياء.

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى خمسة مقاطع:

المقطع الأول: الآيات السبع الأُول من السورة، بالإضافة إلى الآيات من ٢٣-٤٥ وهذه الآيات تتحدث عن الوحي والرسالة، ويبدأ ذلك بالحديث عن القرآن، ويُثنِّى بالحديث عن خاتم النبيين، وفي ثنايا ذلك يأتي ذكر خليل الرحمن أبي الأنبياء، ليقرر عقيدة التوحيد ونفي الشرك وأهله.

المقطع الثاني: من الآية ٨- ٢٢ وفيه براهين التوحيد والرد على من أشرك مع الله غيره.

المقطع الثالث: يتناول طرفًا من رسالة موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه، وكيف أن الله تعالى أيده بالمعجزات الدالة على صدقه في دعواه، ولكن فرعون وَصَفَهُ بالساحر، وادّعى أن له مُلْك مصر، وطلبَ معجزات أخرى، كنزول الملائكة عليه، أو يُلقى عليه أسْورة من ذهب، وقد استغرق هذا من الآية ٤٦-٥٦ في السورة.

المقطع الرابع: من الآية ٥٧-٦٥ وفيه تقرير أن عيسى عليه السلام عبد ورسول، وأنه سينزل قرب قيام الساعة، وأن الله تعالى سيحكم بين عباده فيما اختلفوا فيه من شأن عيسى وغيره.

أما المقطع الخامس: فهو من الآية ٦٦ إلى نهاية السورة، وفيه حديث عن مصير المتقين والمجرمين، وما يوعدون به من الجنة والنار، وهو مقطع فيه ترغيب وترهيب، ووعْد ووعيد، وتنديد بالمشركين والمكذبين في كل زمان ومكان، ولَفْت أنظارهم إلى صفحة الكون المرئية، والمقروءة، فإن هذا من شأنه أن يأخذ بأيديهم إلى طريق النجاة.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

فَاتِحَةُ السُّورَةِ

١، ٢- ﴿حمٓ[١] ① وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ②﴾

ابتدأت سورة الزخرف بحرفي الحاء والميم تنبيهًا على إعجاز القرآن، وأنه مكوَّن من حروف الهجاء التي يتألَّف منها كلام العرب، مع عجزهم عن معارضته، وهم أرباب الفصاحة والبلاغة، وإيقاظًا لعقولهم؛ حتى يتأملوا في هذا النسيج العجيب من الكلام لعلَّهم يهتدون إلى ما فيه.

ثم أقسم سبحانه بالقرآن البيِّن الواضح في ألفاظه ومعانيه، المُظْهر لطريق الحق من طريق الضلال، المشرِّع للبشرية ما تحتاج إليه من الأحكام الشرعية، المبيِّن لكل ما يحتاج إليه العباد من أمور الدنياوالآخرة.

على أن هذا القرآن جعله الله عربيًّا واضح الدلالة؛ كي يصدِّقوا به ولا يكذبوه، ولكن الكافرين لمكابرتهم لم يؤمنوا، كأنهم بلا عقول.

والقسَم بالقرآن تنويهٌ بشأنه، والمخاطَب بالقسَم هم المنكِرون للقرآن، والمقسَم به هو نفسه المقسَم عليه، إشارة إلى أن القرآن بلغ الغاية في الشرف؛ إذ لا يوجد ما هو أولى بجواب القسَم منه[٢]. أو أن المقسم عليه هو قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ والمعنى واحد، إذ أن القرآن هو المذكور في الآيتين.

وقد نزل القرآن على الرسول ﷺ كلامًا ملفوظًا غير مكتوب، وسماه الله كتابًا باعتبار أن الله تعالى أنزله ليُكْتب، وأن الأمة مأمورة بكتابته.

---

(١) سكت أبو جعفر على: حا، وميم سكتة لطيفة بدون تنفس، وفي الحاء فتح وإمالة وتقليل كما في السورة السابقة. هذا: وقد عدّ (حم) آية الكوفي وحده وتركها غيره.

(٢) يُنظَر: «تفسير الشيخ الطاهر بن عاشور» (٢٤/ ١٥٩).

عُرُوبَةُ الْقُرْآنِ وَعُلُوُّ مَكَانَتِهِ

٣، ٤ -﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ[1] ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾

أنزل الله تعالى هذا القرآن على رسوله محمد ﷺ بلسان العرب لعلهم يفهمونه، ويتدبرون معانيه وحججه ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ﴾ أي: صيَّرنا هذا القرآن بقدرتنا وحكمتنا ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ أي: إن أسلوبه الحكيم غير خارج عن طوق البشر، فقد نزل بلسان العرب؛ كي يفهموه ويعملوا بأوامره ونواهيه وتوجيهاته وإرشاداته. ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ألفاظه ومعانيه، فتتدبروه وتعملوا بما فيه، وهذا بمثابة الحكمة من نزوله قرآنًا عربيًّا.

وفي الآيتين وصف للوحي المنزل على محمد ﷺ بأنه: ﴿كِتَٰبٌ﴾ محفوظ في الصدور، وأنه ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ مقروءا على ألسنة الأمة، وأنه نزل بأشرف اللغات، وأوسعها دلالة على المعاني العديدة، وهي اللغة العربية، وقد أنزله الله على أهل هذه اللغة؛ لأنهم أفهم لدقائقها، واصطفى خاتم الرسل منهم، ليكون عن طريقهم مبلِّغًا مرادَ الله تعالى إلى جميع الأمم؛ كي ينتشر هذا الدين في العالم، فعليهم أن يُعملوا عقولهم، ويثوبوا إلى رشدهم فيؤمنوا به ويعملوا بما فيه.

وقد يسَّر الله تعالى فهمه لكل من تعقَّل معانيه وتدبره بإخلاص.

وتكرار ذِكْرِ عروبة القرآن، تأكيد للرسالة التي حملها العرب للعالم، ويوم يستغني العرب عن القرآن ويتركونه وراء ظهورهم، فسيكونون أذلَّ شعوب الأرض! فإن الأمم التي كفرت بوحي الله، خسرت دينها ودنياها، ولن يكون العرب خيرًا منها!

وهذا القرآن كائن وثابت في أصل الكتب السماوية ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: اللوح المحفوظ ﴿لَدَيْنَا﴾ أي: عندنا، في الملأ الأعلى في أعلى الرتب وأفضلها، فهو عِلْمُ الله تعالى المحقق الموثَّق، وهو كتاب موصوف بالعلو والحكمة، وهذا معنى ﴿لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ عليٌّ في قدره وشرفه، محكم النظم والمعاني، حكيم فيما اشتمل عليه من الأوامر والنواهي والأخبار، فليس فيه حكم مخالف للعدل والحكمة، لا اختلاف فيه ولا تناقض.

---

(١) قرأ حمزة والكسائي بكسر همزة (أم) وصلًا، لمناسبة الياء قبلها، والبدء يكون بالضم، وقرأ الباقون بضم الهمزة وصلًا وبدءًا، والكسر والضم فيها لغتان.

وما اشتمل عليه القرآن من معانٍ، صدَر عن علم الله تعالى، وهو كتاب لا يقبل الشك، ولا يمسه إلا طاهر كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الواقعة].

وقال سبحانه: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس].

أخرج الإمام أحمد وغيره عن عبد الله بن عباس ﷺ قال: إن أول ما خلق الله القلم، فأمره أن يكتب ما يريد أن يخلُق، فالكتاب عنده، ثم قرأ ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾[1].

الدَّاعِيَةُ إِلَى اللهِ يَمْضِي فِي دَعْوَتِهِ وَإِنْ أَعْرَضَ عَنْهُ النَّاسُ وَآذَوْهُ

٥- ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن[2] كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾﴾

أي: ومع هذه المكانة العالية للقرآن الكريم فإن المكذبين أعرضوا عنه، وظنوا أنهم بإعراضهم عنه سيترك الله تذكيرهم به، ويترك تجديد دعوتهم للهداية.

وهذه الآية تخبر أن من حكمة الله تعالى ألّا يترك عباده هملًا، دون أن يرسل إليهم رسولًا، وينزل عليهم كتابًا ولو كانوا مسرفين ظالمين لأنفسهم.

قال قتادة: لو أن هذا القرآن رُفع حين ردَّه الأوائل لهلكوا، ولكن الله برحمته كرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة[3].

والمعنى: أفنُعرض عنكم، ونترك إنزال القرآن إليكم، لأجل إصراركم وإعراضكم عنه، وعدم انقيادكم له، وإسرافكم في عدم الإيمان به، وهذا من لطف الله تعالى ورحمته بالأمة، حيث لم يترك دعوتها إلى الخير مع إسرافها وإعراضها، بل إنَّ إعراضكم -أيها المكذبون- عما نزل من القرآن يبعثُنا على تجديد التذكير به، بإنزال شيء آخر منه إلى أن

---

(١) كتاب «السُّنَّة» برقم (٨٩٨) والطبري (٢٥/ ٤٨) وإسناده صحيح كما في مرويات أحمد في التفسير برقم (١٤٩) وهو في «المسند» مطوّلًا عن عُبادة بن الصامت (٢٢٧٠٥، ٢٢٧٠٧) وهو حديث صحيح بنحوه بدون ذكر الآية وأخرجه مطوّلًا ومختصرًا الطيالسي (٥٧٧) والترمذي (٢١٥٥) وأبو داود (٤٧٠٠) وغيرهم.

(٢) قرأ نافع وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف بكسر همزة (أن) على أنها شرطية، وجواب الشرط مقدر يفسره (أفنضرب) والمعنى: إن أسرفتم نترككم، والباقون بفتح الهمزة على تقدير حرف العلة، أي: لأن كنتم.

(٣) «التفسير الكبير» للفخر الرازي (٢٧/ ١٩٥) و«تفسير الطبري» (٢٠/ ٥٤٩).

يكتمل نزوله، ثم يبقى بين يدي البشر يعاودون تكراره رجاء أن ينتفع به من ينتفع، ويهتدي به من يهتدي، فإن آمنتم واهتديتم فهو من توفيق الله لكم، وإن لم تؤمنوا فقد قامت عليكم الحجة، وكنتم على بينة من أمركم.

فإعادة التذكير بالقرآن ليست قليلة الجدوى، ورحمة الله بعباده لا تقتضي قطع الإرشاد عنهم، وإسرافهم في الإعراض عنه لا تقتضي ترك مصلحتهم وترك مداومة وعْظهم وتذكيرهم حتى يرجعوا إلى الحق، فيهتدي به مَنْ عنده استعداد للهداية، وتقوم الحجة على أهل الشقاوة.

ثم بيَّن سبحانه أن عدم الإصغاء للدعوة، هو شأن الأمم السابقة مع رسل الله تعالى، فلا تأس -أيها الرسول- ولا تحزن على إعراض قومك. قال تعالى:

٦، ٧- ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ[1]﴾

أي: كثيرًا من الأنبياء أرسلناهم في القرون التي مضت قبل قومك يا محمد، فما أكثر الرسل الذين أرسلناهم لهداية أقوامهم، فأعرضوا عنهم وكذبوهم، فاصبر على أذى قومك كما صبروا، فإن هذا من سنة الله في خلقه، أن يرسل إليهم رسلًا، يأمرونهم بعبادة الله وحده فيكذبونهم ويسخرون منهم ويستهزؤون بهم، فيعاقبهم الله تعالى ويستأصل شأفتهم.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات: ٧١-٧٣].

لقد هلكوا وانقرضوا، وجاء بعدهم قوم آخرون.

وهؤلاء السابقون لم نرسل إليهم رسولًا لهدايتهم إلا استهزؤوا به وسخروا منه، وأعرضوا عنه، كما يحدُث معك أيها النبي، قال تعالى:

٨- ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾

أي: فكان نتيجة تكذيب الأمم لرسل الله، واستهزائهم بهم، أنْ أهلك الله الأمم

(١) حذف أبو جعفر همزة (يستهزئون) وصلًا ووقفًا مع الزاي بعدها واو، ووقف حمزة بتسهيل الهمزة الثانية بينها وبين الواو، وبإبدالها ياء خالصة.

المكذبة، مع أنهم كانوا أطغى منكم وأعتى، وأشد قوة وأكثر مالًا، ومع هذا فكانت عقوبتهم أن أهلكهم الله بسبب كفرهم وطغيانهم واستهزائهم بأنبيائهم.

فليحذر المكذبون للقرآن أن يحل بهم ما حل بغيرهم، فقد ضرب الله لهم الأمثال التي يعتبرون بها ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

١- كما قال تعالى: ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ [غافر].

٢- وقال سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَـٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾ [محمد].

٣- وقال جلَّ شأنه: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ٨٥].

٤- وقال أيضًا: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

٥- وقال ﷻ: ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [٥٦].

الْمُشْرِكُونَ يَعْتَرِفُونَ بِوُجُودِ الْخَالِقِ وَلَكِنَّهُمْ لَا يَتَوَجَّهُونَ لَهُ بِالعِبَادَةَ

ثم تعجَّب الله سبحانه من حال المكذبين للقرآن، فإنهم مع إقرارهم بوجود الله تعالى يعبدون غيره.

٩- ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾

أي: والله الذي لا إله غيره لئن سألتهم -يا محمد- مَن خلق هذا الكون، بما فيه من الأجرام العلوية والسفلية؟ ليقولنَّ بدون تردُّد: خلقهن الله، ولم ينكروا ذلك، وما دام الأمر كذلك فلا يستحق العبادة غير الله، ولكنهم مع إقرارهم بأن الله تعالى هو الخالق الموجد، فإنهم يتخذون وسائط بينهم وبين الله، أو يعبدون غيره، أو يتخذون آلهة تشفَع لهم عنده، وهذا تناقض عقلي، وجهل وسفه، إذ كيف يعترفون بخالق هذا الكون ثم يعبدون غيره؟

وقد بُعث النبي ﷺ لتحقيق التوحيد، وإبطال الوسائط بينه وبين خلقه.

ووصْفُ الله تعالى بالعزة والعلم، ليس من كلامهم؛ لأن المستقَرَأ من كلامهم، قولهم: خلقهن الله، فيكون المعنى أنهم لما قالوا: خلقهن الله، وصف الله نفسه بهاتين الصفتين[1] فهو العزيز في سلطانه، الذي دانت لعزته جميع المخلوقات، العليم بكل شيء في هذا الكون، أوائلها وأواخرها، ظواهرها وبواطنها، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

ثَلَاثَةُ أَدِلَّةٍ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ

ثم ساق سبحانه ثلاثة من أدلة تفرُّده تعالى بالإلهية، وهي: الأرض، والماء، والسفن والأنعام.

الدَّلِيلُ الأَوَّلُ: بَسْطُ الْأَرْضِ وَتَسْخِيرُهَا

١٠- ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا[2] وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾

أي: أن الله تعالى بسط الأرض وفرشها وذلَّلها لكم، وجعلها صالحة لإنبات الزرع، وجعلها قرارًا للعباد يتمكنون من سكناها والبناء عليها واستخراج كنوزها كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥].

وقال جلَّ شأنه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾﴾ [النبأ: ٦].

وجعل سبحانه الامتنان على عباده في ظاهر الأرض وهو سطحها، حيث مهَّدها وبسطها سبحانه؛ وجعل انبساطها لنفع الساكنين عليها.

أما كرويتها فليست فيها منفعة ظاهرة للناس، ولذا لم يأتِ الامتنان بها.

وقد جعل الله سبحانه في هذه الأرض طُرقًا ومسالك لنفع العباد والبلاد فقال:

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: وجعل الأرض صالحة للسَّيْر عليها، فجعل فيها طُرُقًا ومسالك ومنافذ بين سلاسل الجبال المتصلة من بلد لبلد، ومن قُطر لقطر، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح].

---

(١) يُنظَر: «حاشية الكشاف» (٤/ ٢٣٨).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب (مهادا)، والباقون (مهدا) وهما مصدران بمعنى واحد.

وهذه الطرق لنفع العباد والبلاد، وتذليل الأسفار، ووسائل العيش، وجلْب المنافع.

ثم بيَّن سبحانه الحكمة من ذلك، فقال: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ بتذليل الأرض ومسالكها إلى قدرة الخالق الحكيم، فتُفْردوه بالعبادة، ولعلكم تهتدون في السير في طرقها إلى منافعكم ومصالحكم الدنيوية.

الدَّلِيلُ الثَّانِي: نِعْمَةُ المَاءِ

١١- ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا[1] كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ[2] ﴿١١﴾﴾

أي: إن الله تعالى نزَّل الماء بمقدار معين على قدر حاجتكم ومصلحتكم، ليس طُوفانًا مُغْرِقًا، ولا قاصرًا عن الحاجة، بل بما يؤدي الغرض، ويفي بالمصلحة، من غير زيادة ولا نقصان، فتحيا به أنفسكم وأنعامكم ونباتكم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر] ينفع ولا يضر.

وقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨].

وقال في هذه الآية: ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي: أحييناها بعد موتها، وأخرجنا بهذا الماء النازل من السماء: النبات والزرع، وأحيينا هذه الأرض بالماء بعد أن كانت هامدة جامدة مُجْدبة.

وبمثل هذا الإحياء للأرض بعد موتها تخرجون -أيها الناس- من قبوركم أحياء يوم القيامة، وهذا معنى: ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أي: للبعث والحساب بعد فنائكم، كما نُخرج النبات من الأرض الميتة، وفي هذا تهوين لأمر البعث، وردٌّ على منكريه.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [فصلت: ٣٩].

وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف].

---

(١) قرأ أبو جعفر بتشديد الياء وكسرها من (ميِّتا)، والباقون بياء ساكنة مخففة.

(٢) قرأ ابن ذكوان وحمزة والكسائي وخلف (تخرجون) بالبناء للفاعل، والباقون بالبناء للمفعول.

الدَّلِيلُ الثَّالِثُ: تَسْخِيرُ وَسَائِلِ الانْتِقَالِ لِلإِنْسَانِ

ولما امتنَّ الله على عباده بخلق وسائل الحياة أتبعها بوسائل اكتساب المعاش، ومنها وسائل الإنتاج، وهذه الوسائل تشمل السفن والأنعام، قال تعالى:

١٢- ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾﴾

أي: إن الله سبحانه خلق الأصناف المختلفة: الذكر والأنثى من جميع المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات].

وقال في شأن الأنعام: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣].

وعن الثمرات قال سبحانه: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الرعد: ٣].

وقال جلَّ شأنه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس].

وقد خلق الله الأصناف كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون، من ليل ونهار، وحرٍّ وبرْد، ذكر وأنثى، وغير ذلك.

وجعل لكم وسائل للتنقل والمواصلات في السفن البحرية، الشراعية والنارية، وعلى ظهور الأنعام، كما جعل لكم وسائل مختلفة في البر والجو للتنقل وحمل المتاع.

وقد خص الله سبحانه من الأصناف: الذكر والأنثى من الأنعام؛ لأن المقصود من الآية الامتنان بوسائل السفر والمواصلات، وأهمها وقت تنزيل القرآن: السفن والإبل، والقرآن يخاطب الناس بما يفهمون، ويفتح الباب أمام كل جديد بصورة عامة، كما قال تعالى في هذا الصدد: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[النحل: ٨].

وهنا قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ وقُدِّم الفلْك على الأنعام ليُرتَّب على الأنعام ما ذكر بعدها، ولأن الفلْك لا يشملها لفظ الأزواج، وجمع بين الفلك والأنعام لتشابه الفلك بالدابة، بجامع السَّيْر في كلٍّ.

والمعنى: إن الله تعالى سخَّر لكم من السفن ما تركبون في البحر، ومن البهائم: كالإبل، والخيل، والبغال، والحمير ما تركبون في السير.

ثم بيَّن سبحانه وجوب شكر المنعم على نعمتي السفن والأنعام بقلوبنا، وإعلان ذلك الشكر بألسنتنا:

دُعَاءُ السَّفَرِ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ

١٣، ١٤- ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾

أي: إن الله تعالى سخَّر لكم من السفن والأنعام ما تركبونه؛ لكي تستقروا على ظهور ما تركبون، سفينة كانت، أو دابة، أو سيارة، أو درَّاجة، أو طائرة، ونحو ذلك.

﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: تذكرون الله تعالى بقلوبكم وتحْمدونه أنْ سخَّر لكم وسيلة الركوب في البر والبحر والجو؛ وتعترفون بالنعمة لمن سخرها فتشكروه وتثنوا عليه، وذلك لأن ذكر النعمة حال التلبُّس بمنافعها أوْقع في النفس، وأدْعى للشكر عليها، وأجْدر بعدم نسيانها، واستشعار بفضل الله تعالى، وفي هذا تعريض بغير المسلمين ممن لا يذكرون الله تعالى عند هذه النعم.

ثم علَّمنا سبحانه **دعاء السفر** بإعلان الشكر باللسان، فقال: ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ أي: وما كنا قادرين ولا مستطيعين تذليله، لولا قدرتك وإعانتك يا رب، بمعنى: لولا أن الله تعالى سخَّر لنا هذا المركب، وجعله منقادًا لأمرنا لكُنَّا أضعف وأعجز من تذليل وسائل السفر والتنقل فيها، فإن من بيْن ما يركبه الإنسان، ما هو أكثر قوة وأكبر جثة من راكبه، ومع ذلك فهو مسخَّر لراكبه يُصَرِّفُه يمينًا وشمالًا، وأمام وخلف، وهذا يستدعي التفكر في البر والبحر والجو والريح والماء، كيف ذللها الله تعالى لخدمة الإنسان ونفعه.

فالمقرن: هو المستولي على الأمر، الضابط له، الذي يمسك بزمامه.

أما **التسخير** فهو التذليل والتطويع.

وتسخير الله للدواب معناه: خلْقُه إياها قابلة للترويض، وفق مراد الراكب.

وتسخير الفلك: خلْق البحر صالحًا لحمل السفن فوق مائه، وجعْل الرياح تهب، فتدفع السفن على الماء، وهكذا.

وقد خُتِم هذا الثناء والشكر ببيان مرجعنا إلى الله تعالى بالبعث بعد الموت للحساب والجزاء، والقادر على عودتنا إليه يوم القيامة قادر على إعادة المسافر سالِمًا إلى أهله، ففي دعاء السفر إدْماج تلقين العباد إقرارهم بالبعث، وفي الأمر بالسير والعودة من السفر، استدلال على الأمر العظيم وهو البعث بعد الموت.

وفي الآية أمر بالإقرار بالبعث، وترديد القول به، كما نبَّه سبحانه بالزاد الدنيوي على الزاد الأخروي، فقال: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وكما نبَّه باللباس الدنيوي على اللباس الأخروي فقال: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

والله الذي أفاض على خلقه بهذه النعم هو الذي يستحق أن يُعبد دون سواه.

أدعية الركوب في السفر:

١- عن عبد الله بن عمر ﷺ أن النبي ﷺ كان إذا ركب راحلته كبَّر ثلاثًا، ثم قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ ثم يقول: **«اللهمَّ إني أسألك في سفري هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهمَّ هوِّن علينا السفر، واطْوِ لنا البعيد، اللهمَّ أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهمَّ اصْحَبْنا في سفرنا، واخلُفْنا في أهلنا»**.

وكان ﷺ إذا رجع إلى أهله قال: **«آيبون تائبون إن شاء الله، عابدون لربنا حامدون»**[(١)].

٢- وفي حديث علي بن أبي طالب ﷺ أن النبيَّ ﷺ حمد الله ثلاثًا قبل التكبير[(٢)].

٣- وفي حديث أسامة بن زيد عن محمد بن حمزة أنه سمع أباه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«فوق ظهر كل بعير شيطان، فإن ركبْتموه فسمُّوا الله ﷻ، ثم لا تُقَصِّرُوا**

---

(١) رواه مسلم برقم (١٣٤٢) ورواه أحمد في «المسند»(٢/ ١٤٤) برقم (٦٣١١) وأبو داود برقم (٢٥٩٩) والترمذي برقم (٣٤٤٧) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١٠٣٨٢) والحاكم (٢٢٥٤).

(٢) يُنظر: «المسند» (١/ ٩٧) وأبو داود برقم (٢٦٠٢) وغيرهما.

عن حاجاتكم»[1].

٤- وفي ركوب السفن خاصة يزيد المسلم: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود: ٤١].

ويقول عند النزول منها: «اللهم أنزلنا منزلا مباركا وأنت خير المنزلين».

٥- ولفظ مسلم عن عبد الله بن عمر ﷺ أن النبي ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجًا للسفر حمد الله تعالى، وسبَّح وكبَّر ثلاثًا، ثم قال: **«سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، اللهمَّ إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهمَّ هوِّن علينا سفرنا هذا، واطْوِ عنَّا بُعده، اللهمَّ أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهمَّ إني أعوذ بك من وعْثاء السفر وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في الأهل والمال والولد»**.

وإذا رجع قالَهُن، وزاد فيهن: **«آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون»**[2].

ولعل هذه الرواية هي الرواية التي في الحديث الأول مع فارق إفراد الضمير وجمعه.

٦- وعن عليِّ بن ربيعة قال: شهدت عليَّ بن أبي طالب ﷺ وقد أُتي بدابة ليركبها فلما وضع رجله في الركاب قال: (بسم الله)، فلما استوى على ظهرها، قال: (الحمد لله)، ثلاث مرات، ثم قال: (الله أكبر)، ثلاث مرات، ثم قال: (سبحانك إني ظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)[3].

ويستحب أن يقول الراكب: الحمد لله الذي هدانا للإسلام، ثم يدعو بعدها بدعاء الركوب.

وكان طاوس إذا ركب قال: اللهمَّ هذا من منِّك وفضلك، فلك الحمد ربنا، ثم يقرأ الآية[4].

---

(١) «المسند» (٣/ ٤٩٤) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٣١): رجاله رجال الصحيح غير محمد بن حمزة وهو ثقة، وهو في «المسند» برقم (١٦٠٩) قال محققو المسند: إسناده حسن، وأخرجه الحاكم (١/ ٤٤٤) وهو في «صحيح الجامع الصغير» (٣٩١٨) بتصحيح الألباني له.

(٢) هذا لفظ مسلم، وهو أشملها وأوضحها، ورقمه (١٣٤٢) وانظر «سنن أبي داود» (٢٥٩٩).

(٣) هذه رواية الترمذي وقال: حسن غريب، وهو مرفوع، ورقمه (٣٤٤٦) وأخرجه الطيالسي (١٣٤) وعبد الرزاق (١٩٤٨٠) وابن أبي شيبة (١٠/ ٢٨٤) وهو في «صحيح سنن أبي داود» (٢٢٦٧) وفي «سنن أبي داود» (٢٦٠٢) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٥٠٢).

(٤) «تفسير الطبري» (٢٠/ ٥٥٩).

أخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، عن سليمان بن يسار، أن قومًا كانوا في سفر، فكانوا إذا ركبوا قرؤوا الآية ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى﴾ وكان فيهم رجل له ناقة هزيلة لا تتحرك، فقال: أما أنا فأنا لهذا مُقْرِن، أي: أنا المذلِّل لها، وليست هي المذلَّلةُ لي، فوثبتْ به الناقة ونفرتْ، فصرعتْه فاندقت عنقه[1].

إِبطَالُ خُرَافَةِ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ

١٥، ١٦- ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا[2] إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾

وبعد أن امتنَّ الله تعالى على عباده بنعمة تذليل الأرض، والماء، ووسائل التنقل، وهي من أدلة القدرة الإلهية التي تُوجب التوجُّه بالعبادة إلى الله وحده، وكان السياق قبل ذلك يتعلق بمنْ يعترفون بوجود الله تعالى ويتوجهون بالعبادة إلى غيره، بعد ذلك عادت الآيات إلى التعجب من تناقض أقوالهم وأفعالهم لِتُفنِّد شُبه المشركين، ومنها قولهم: الملائكة بنات الله.

فكيف يستقيم لهم **أوَّلًا** - أن يُقروا بأن الله تعالى خالق كل شيء، ويجعلوا له شركاء؟

وكيف يستقيم - **ثانيًا** - أن يكون المخلوق إلهًا؟

وكيف يستقيم - **ثالثا** - لخالق الكائنات كلها أن يتخذ البنات دون البنين؟

﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ أي: جعل المشركون لله من خلقه نصيبًا هو قولهم: الملائكة بنات الله، فالمراد بالجزء في الآية: الولد؛ لأنه بُضعة وفرْع من والده، وكما قيل: أولادنا أكبادنا، والجزء بعضٌ من كلٍّ، وقطعة منه.

والمراد بالجزء هنا: البنات، فهنَّ جزء من عباد الله، وقولهم في الملائكة كقولهم في الأنعام: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦].

---

(١) ذكرتُ بعض ألفاظه بالمعنى، «الدر المنثور» (١٣/ ١٩٢).

(٢) قرأ شعبة بضم الزاي من (جُزءًا)، وقرأ أبو جعفر بحذف الهمزة وتشديد الزاي، وقرأ الباقون بإسكان الزاي، ووقف عليها حمزة بنقل حركة الهمزة إلى ما قبلها.

والله تعالى واحد أحد، فرد صمد، لم يتخذ صاحبة ولا ولد، ولم يكن له كفوًا أحد، لا والد له ولا ولد، ولا ندّ له ولا شريك ولا نظير.

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ﴾ وهذا استنكار من الله تعالى على من زعم أن الملائكة بنات الله، فوصَفَه بأنه شديد الكفر؛ لأن المشرك جحود لنعم الله عليه، مُظهر لجحوده وكفره، يعدِّد المصائب وينسى النعم.

ثم أخذ الله ﷻ يُبطل معتقدهم في بنوة الملائكة لله تعالى؛ لأنه ينافي الكمال الذي تقتضيه الإلهية، فيأتي بهذا الإنكار الشديد:

أتزعمون - أيها الجاهلون - أن ربكم اتخذ من خلقه بناتٍ وأنتم لا ترضونها لأنفسكم ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ۝٥٨﴾ [النحل].

وفي الوقت ذاته تخصون أنفسكم بالبنين وتجعلونها لكم؟ ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ۝٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢﴾ [النجم].

فلو جاز فرضًا وتمثيلًا اتخاذ الولد لله، أما تستحُون من الشطط في القسمة، ومن إيثار ما هو أحب لأنفسكم عليه سبحانه؟ ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ﴾ [النحل: ٦٢].

﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ۝٥٧﴾ [النحل].

﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ۝٤٠﴾ [الإسراء].

واتخاذ الله الولد باطل من عدة أوجه: إذ إن الخلق كلهم عباد الله، والعبودية تنافي الولادة، والولد جزء من الوالد، ومحال أن يكون لله تعالى ولد، لأنه سبحانه ليس كمثله شيء، والبنات في نظر الناس أقل شأنًا من البنين، فإذا كان للمشركين البنين ولله البنات - كما يزعمون - فمعنى ذلك أنهم أفضل من الله تعالى، وهذا كفر ما بعده كفر.

إن المشركين لجهلهم وكفرهم، يزعمون أن الملائكة بنات الله، والحال أن الواحد منهم إذا بشره مبشر بأن امرأته ولدتْ أنثى، اسْوَدَّ وجهه من شدة الحزن، وصار ممتلئًا همًّا وكربًا:

١٧- ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝١٧﴾

أي: إذا بُشِّر الرجل بالأنثى التي نسبها للرحمن، حين زعم أن الملائكة بنات الله،

﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ من سوء البشارة بالأنثى من كراهتهم وشدة بغضهم لهن ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوء غمًّا وحُزنًا، فكيف يرضوْن لله ما لا يرْضونه لأنفسهم؟ تعالى الله وتقدَّس عما يقوله الكافرون علوًّا كبيرًا.

وهذا حكاية لحالهم، وتوبيخ لهم، وتعجُّب من فساد مقالتهم، وتشنيع عليهم بنسبة النقص إلى الله تعالى، وهو يُفضي إلى الاستخفاف بجانب الإلهية، ويدلُّ على قلة عقولهم وسفاهة تفكيرهم.

وقد روَى بعض العرب أن امرأته ولدتْ أنثى، فهجر البيت الذي فيه المرأة[١].

وَصْفُ الأُنْثَى بِالزِّينَةِ وَالضَّعْفِ

ثم أضاف سبحانه إلى تبكيت المشركين السابق تبكيتًا آخر، وإنكارًا إلى إنكار، فقال:

١٨- ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾

الوصف الأول: أأتخذ الله مَنْ يُنشَّأ في الحلية بناتٍ له؟ والحِلْية تكون من الذهب والماس والفضة، وتُتخذ للبنت في وقت مبكر من بدْء عمرها، وتصحب أطوار حياتها، فتُخرَم أُذناها ليُجعل فيهما القُرط، بخلاف الصبي؛ لأن البنات لا غنى لهن عن الزينة لتعزيز مكانتهن، ولذا فإنهُنَّ يُنشَّأن على الدَّعة والنعومة، فكيف تجترئون وتنسبون إلى الله تعالى من يُربَّى في الزينة، ويضعفُ عن مقاومة الصعاب، والقيام بمهام الأمور، وذلك لضعف المرأة عن الرجل غالبًا في القوة البدنية والعقلية.

أما **الوصف الآخر للأنثى**: فهو قصورها في الجدال والمحاجة، والدفاع عن النفس، وضعْفُها في قتال العدو والدفاع عن نفسها، وهذا في غالب الأمر، فلا يمنع وجود بعض الإناث أقوى من بعض الرجال، فالمرأة ضعيفة عاجزة عن الانتصار لنفسها، كما قال بعض العرب وقد بُشِّر ببنت: ما هي بنعْم الولد، نَصْرُها بكاء، وبِرُّها سرقة[٢].

وقالت المرأة التي هجرها زوجها حين ولدت الأنثى:

---

(١) «التفسير الكبير» (٢٧/ ٢٠١).

(٢) «التسهيل لعلوم التنزيل» (٤/ ٢٦).

ما لأبي حمزة لا يأتينا ... يظل في البيت الذي يلينا

غضبان أن لا نلد البنينا ... ليس لنا من أمرنا ما شينا

وإنما نأخذ ما أعطينا ... حكمة رب ذي اقتدار فينا

ولما ادَّعت (سَجَاح بنتُ الحارث) النبوَّة في بني تميم أيام حروب الردة، وكان قد ادَّعى النبوة قبلها مسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، وطليحة بن خُويلد الأسدي.

فقال عُطاردُ بن حاجب التميمي:

أضحَتْ نبيَّتُنا أنثى نُطيف بها ... وأصبَحتْ أنبياء الناس ذُكرانا

إِبْطَالُ الزَّعْمِ بِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ إِنَاثٌ بِالدَّلِيلِ الْعَقْلِي وَالنَّقْلِي

١٩ - ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ(١) الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا(٢) خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾

وتمضي الآيات في إبطال مزاعم المشركين، فقد حكموا بأن الملائكة إناث من سَرَوات الجن، أي: من أشرف أمهات الجن، وسَرَوَات: جمع سريَّة، وهي الأم الشريفة، فهل كانوا حاضرين وقت أن خلقناهم فرأوهم إناثًا، ثم وصفوهم بذلك؟ ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ واطَّلعوا على خِلْقتهم، حتى يحكُموا بأنهم إناث؟ قال تعالى: ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥١].

وكما تجرؤوا على الله تعالى فنسبوا له البنات، تجرؤا على ملائكة الله الكرام، فجعلوهم إناثًا وأشركوهم مع الله تعالى.

ثم قرر سبحانه أن شهادتهم هذه مسجلة ومدونة عليهم في صحف أعمالهم، وأنهم سيُسألون عنها يوم القيامة، ضمن أعمالهم السيئة، ويعاقبهم الله تعالى على افترائهم الكذب عليه ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾.

وإذن فلا يوجد للمشركين مستند عقلي ولا نقلي على جواز عبادتهم للملائكة.

---

(١) قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي وخلف (عباد) جمع عبد، وقرأ الباقون (عند) ظرف مكان.

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر (أشهدوا) بهمزتين: الأولى محققة مفتوحة، والثانية مسهلة مضمومة مع إسكان الشين، فعلًا رباعيًا مبنيًا للمفعول دخلت عليه همزة الاستفهام، وأدخل أبو جعفر ألفًا بين الهمزتين، وقالون بخلف عنه، والباقون بهمزة واحدة مفتوحة محققة، فعلًا ثلاثيًا مبنيًا للفاعل دخلت عليه همزة الاستفهام.

قال تعالى في بيان الدليل العقلي:

٢٠- ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾

في هذه الآية إبطال لحجة المشركين في عبادتهم للملائكة بدليل عقلي، وذلك أن المشركين لم يكتفوا بجعل الملائكة إناثًا، بل زعموا أن الله تعالى رضي بعبادتهم لهم، وتوهَّموا أنه سبحانه لو أراد لهم ألَّا يعبدوا غيره لصرفهم عن ذلك، فاحتجوا على عبادتهم الملائكة بالمشيئة، وهذه حجة باطلة عقلا وشرعًا، فهم لم يحضروا خلق الملائكة ولم يشاهدوهم، والعاقل لا يحتج بالقدر.

وقد أقام الله سبحانه الحجة على العباد بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وأمرهم ألا يعبدوا إلا إياه، فاحتجاجهم بالقضاء والقدر مِنْ أبطل الباطل، وهي كلمة حق يراد بها باطل، وقد نهاهم الله تعالى عن عبادة غير الله تعالى عن طريق إنذار الرسل لهم.

ثم قرَّر سبحانه أنهم قالوا ذلك بغير دليل ولا برهان؛ لأن مشيئة الله تعالى لا يعلمها أحد غيره، والمشيئة غير الرضى، والله تعالى لا يرضى لعباده الكفر.

وقد اقتضت حكمته تعالى أن يجعل للإنسان القدرة على اختيار طريق الحق أو الباطل، وهؤلاء قد اختاروا طريق الضلال، واستحبوا الكفر على الإيمان دون أن يكرههم أحد على ذلك، فما قالوه مجرد كذب وظن فاسد ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ﴾ فليس لما يقولونه حقيقة ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: ما هو إلا تخرُّص وافتراء، ليس عندهم فيه من الله خبر ولا برهان.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال سبحانه: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

قال المفسرون: حكى الله تعالى عن كفار العرب **ثلاثة أقوال شنيعة**:

الأول: أنهم نسبوا إلى الله الولد.

الثاني: أنهم نسبوا إليه البنات دون البنين.

الثالث: أنهم حكموا على الملائكة المكرمين بالأنوثة بلا دليل ولا برهان، فكذَّبهم

القرآن في تلك الأقوال، ثم ازدادوا ضلالًا وبهتانًا، فزعموا أن ذلك برضى الله تعالى.

وقال ابن مسعود: كان نفر من العرب يعبدون الجن، وأقوام يعبدون الملائكة، مثل بني مُلَيْح، وهم حيٌّ من خزاعة.

والضمير في ﴿عَبَدْنَٰهُم﴾ عائد إلى معلوم من المقام، وهو عبادة غير الله تعالى، ولو أرادوا خصوص الملائكة لقالوا: مَا عَبَدْنَاها، أو: مَا عَبَدْنَاهُن.

وقد ذكر الله تعالى في هذه الآية **أربع مسائل**:

الأولى: أن الكفار افتروا على الله الكذب بزعمهم أن الملائكة إناث، وأنهم بنات الله.

الثانية: أن الله تعالى وبَّخهم على ذلك توبيخًا شديدًا، وأنكر عليهم ما قالوه.

الثالثة: أن شهادتهم الكاذبة ستُكتب عليهم.

الرابعة: أنهم سيُسألون عنها يوم القيامة.

وقد وُضِّحت هذه المسائل الأربع في مواضع كثيرة من القرآن الكريم.(١)

قال تعالى في بيان الدليل النقلي:

٢١- ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾

وفي هذه الآية إبطال حجة المشركين في عبادتهم للملائكة بدليل نقلي، وذلك أنه بعد أن نفى سبحانه أن تكون للكافرين حجة عقلية على قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ نفى جلَّ شأنه أن تكون لهم حجة نقلية في ذلك، فهم لم يحضروا خلق الملائكة، ولم يُعْطوْا كتابًا قبل القرآن يحتجون به على عبادتهم لهم.

والمعنى: أشهدوا خلْق الملائكة فرأوهم إناثًا، أم أعطيناهم كتابًا قبل هذا القرآن، يشهد بصحة أقوالهم، ويقول لهم: اعبدوا غير الله، فهم متمسكون بما فيه، ويعملون بتوجيهاته؟

والجواب: أن الأمر ليس كذلك، فإن الله تعالى أرسل محمدًا بشيرًا ونذيرًا، ولم يأتهم نذير غير محمد ﷺ، ولم يأتهم بدليل نقلي ولا عقلي على أن الملائكة إناث وأنهم بنات

(١) يُنظَر: «أضواء البيان» للشيخ الشنقيطي (٧/ ٢١٩) وما بعدها.

الله، فلم يبق إلا الباطل.

قال تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الروم].

قال الفخر الرازي: هل وجدوا ذلك الباطل في كتاب منزل قبل القرآن حتى يُعوِّلوا عليه ويتمسكوا به[1].

السَّبَبُ الْوَحِيدُ هُوَ تَقْلِيدُ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ

٢٢- ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾

لم يبق للمشركين إلا شبهة تقليد آبائهم الضالين، فهم يردّون دعوة الرسل باتباع ما عليه من سبقهم من الآباء والأجداد، وبتأثير البيئة والمجتمع.

وهكذا: أخبر سبحانه أن غير مشركي هذه الأمة من الأمم السابقة قد قال هذه المقالة ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ فليس لدى الجميع مستند عقلي ولا نقلي على صحة عبادتهم للملائكة، ولا على كونهم إناثًا، وإنما مستندهم الوحيد هو تقليد آبائهم في جهلهم وكفرهم؛ حيث قالوا: إنا وجدنا آباءنا على طريقة ومذهب ودين -وهي عبادة الملائكة أو الأوثان- ونحن سائرون على طريقتهم، متبعون آثارهم، فهم لم يفكِّروا ولم يتأملوا في أنَّ ما يفعلونه موافق للحق والصواب، بل كانوا كقطيع الأغنام الذي يسير خلف راعيه، دون أن يعرف إلى أي طريق يسير.

التَّقْلِيدُ سُنَّةٌ جَارِيَةٌ فِي الْأُمَمِ

٢٣- ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾

أي: وكما تبع هؤلاء الكافرون آباءهم بغير حجة، ولا مستند عقلي ولا نقلي، كذلك فعل مَنْ قبلهم من المكذبين لجميع الرسل، فما بعثنا قبلك -يا محمد- رسولًا في أمة من الأمم إلا قالوا مثل مقالتهم، ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ ينذرهم عقابنا على كفرهم بنا،

(١) «التفسير الكبير» (٢٧/ ٢٠٦).

فأنذَرهم وحذَّرهم سخَطنا وحلول عقوبتنا ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ وهم الذين أبطرتْهم النعمة والملذات من الرؤساء والكبار ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ أي: على ملة ودين وطريقة متبعة ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي: على منهاجهم وطريقتهم ﴿مُّقْتَدُونَ﴾ سائرون ومتبعون.

فهؤلاء ليسو بأول من قال هذه المقالة، والاحتجاج بتقليد الآباء ليس المقصود به اتباع الحق والهدى، إنما هو محض تعصب يراد به نُصرة الباطل.

والآية تسلية للرسول ﷺ ودلالة على أن التقليد قديم، فلا تحزن -أيها الرسول - لإعراض من أعرض عن دعوتك، فإن هذا شأن السابقين في الكفر والضلال، وخَصَّ المترفين بالذكر إشارة إلى أن الذي صرفهم عن الحق وعدم التدبر والتأمل، هو كثرة النعم وحب الجاه والسلطان، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات].

عُقُوبَةُ مَنْ أَصَرَّ عَلَى مُخَالَفَةِ هَدْيِ الرُّسُلِ

٢٤- ﴿قَٰلَ(١) أَوَلَوْ جِئْتُكُم(٢) بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾

أي: قال كل نبي لقومه حين أنذرهم عذاب الله: أتقتدون بآبائكم وتتبعونهم في الضلال ولو جئتكم بدين أهْدى وأرْشد مما كانوا عليه؟

﴿قَٰلَ﴾ رسول الله محمد ﷺ وكذا من سبقه من الرسل صلوات الله عليهم، لكل من عارضهم بهذه الشبهة الباطلة، وفي القراءة الأخرى (قل): ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ﴾ أي: أتتبعون آباءكم ولو جئتكم من عند ربكم بما هو أوضح وأبْين وأهدى إلى طريق الحق، وأصوب وأدل على سبيل الرشاد، فهل تتبعوني لأجل الهدى؟ وهو خير وأفضل ﴿مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ من الدين والملة؟ ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي: قال المترفون في عناد وجحود: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ جاحدون منكرون لما جئتم به من هداية، ونحن باقون على دين آبائنا.

---

(١) قرأ حفص وابن عامر (قال) فعل ماضٍ، وقرأ الباقون (قل) فعل أمر.

(٢) قرأ أبو جعفر (جئناكم) على إسناد الفعل إلى ضمير الجمع، والمراد: الرسول ومن قبله من الرسل، وقرأ غيره (جئتكم) على إسناد الفعل إلى ضمير المتكلم وهو الرسول ﷺ، وأبدل أبو جعفر وأبو عمرو الهمزة حرف مد بخلف عن أبي عمرو، وكذا حمزة عند الوقف.

وفي هذا دعوة لهم للنظر وإعمال الفكر، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]. قال تعالى مبيِّنًا عقوبة المقلدين في الكفر:

٢٥- ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾

أي وبسبب تكذيب المشركين للحق، وبإصرارهم على تقليد آبائهم في الكفر بالتوحيد والإيمان والبعث والنشور، وعدم تصديق الرسالة، فإنهم قد استحقوا الانتقام منهم، قال تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: أحللنا العقوبة بهذه الأمم المكذبة لرسل الله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿فَٱنظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ بآيات الله ورسله، لقد أخذناهم أخذ عزيز مقتدر، فدمرناهم تدميرًا.

فليحذر قومك -يا محمد- أن يستمروا على تكذيبهم فيصيبهم مثل ما أصاب مَن قبلهم.

ثَلَاثَةُ أَمْثِلَةٍ مِنْ دَعْوَةِ الرُّسُلِ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى

أَوَّلًا: دَعْوَةُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام

٢٦، ٢٧- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ[1]﴾

ولما ذكَّر الله المشركين بالأمم الماضية، وجعل الرسل السابقين أسوة لمحمد ﷺ، ساق ثلاثة أمثلة من مواقف الأمم مع رسل الله: إبراهيم ومحمد وموسى عليهم السلام، وقد بدأ بإبراهيم؛ لأنهم يدَّعون أنهم على ملته، فكان الأجدر بهم أن يتَّبعوه في التوحيد وسلامة الفطرة، كما قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [٢٣] فكذَّبهم القرآن في هذا، وأبطل ما قالوه؛ وأخبر عن دينه الذي ورَّثه ذريته، لأن إبراهيم جاء بكلمة التوحيد الخالصة، ومن أجلها هجَر أباه وقومه، بعد أن تعرَّض للقتل والتحريق: ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ [الصافات].

(١) قرأ يعقوب بإثبات الياء في (سيهدين) وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها في الحالين.

والمعنى: واذكر -يا محمد- وقت أن قال إبراهيم لأبيه وقومه الذين كانوا يعبدون ما يعبده قومك: إنني بريء من هذه الأوثان التي تعبدونها من دون الله، هذا هو حال جدكم إبراهيم أعظم آبائكم، ومحط فخركم، والْمُجمَع على محبته منكم، وأنتم تعتزُّون به، وتفتخرون بالانتساب إليه، فلماذا لا تقلِّدونه في توحيد الله تعالى، وإنكار عبادة الأصنام.

وتقدُّم ذِكْرِ أبي إبراهيم على قومه في الآية؛ لأن إبراهيم كان لا يتسامح في عبادة الأصنام مع أقرب الناس إليه وهو أبوه، وليكون كلام إبراهيم قدوة لإبطال قول المشركين: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [٢٢] فهلَّا اقتديتم بأبيكم إبراهيم.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الممتحنة: ٤] ولفظ ﴿بَرَآءٌ﴾ أبلغ في التبرؤ من عبادتهم.

وبعد أن تبرأ إبراهيم من عبادتهم قال: لكني أعبد الذي خلقني وأنشأني من العدم، وفطرني بقدرته، أو أنا لا أوافقكم إلا على عبادة الله الذي خلقني، ثم علل ذلك بأن الله هو المنجِّي من العذاب، فإنه هو الذي سيهدين إلى الصراط المستقيم، وهذا هو معنى الاستثناء ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ أي: إني لا أعبد إلا الذي خلقني على غير مثال سابق ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ ويوفقني لاتباع سبيل الرشاد، وقد هداني الله إلى بطلان عبادتكم واستبدالها بعبادة الواحد القهار.

ففي قوله تعالى ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ﴾ نفى لكل ما يعبد من دون الله وقوله ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ إثبات العبادة لله وحده.

وهذا كقوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ [الشعراء].

وقوله سبحانه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام].

اسْتِمْرَارُ التَّوحِيدِ فِي نَسْلِ إِبْرَاهِيمَ

٢٨- ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

أي: وجعل إبراهيم كلمة التوحيد التي تكلم بها -وهي: **لا إله إلا الله**- باقية في ذريته

إلى يوم الدين، وفيها نفي الإلهية عما سوى الله تعالى، وإثباتها لله وحده، وهذا معنى ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ هذا هو النفي، ثم قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ وهذا هو الإثبات، فقد تبرَّأ إبراهيم من عبادة آلهة المشركين، وأثبت عبادته لله وحده وهذا معنى **لا إله إلا الله**: ففي (**لا إله**) نفي لكل ما يعبد من دون الله، وفي (**إلا الله**) إثبات العبادة لله وحده.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]

والعقب: الذرية، ويدخل فيهم ولد البنت لقوله تعالى عن نوح ﷺ:

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنعام].

ولا يزال في ذرية إبراهيم من يوحِّد الله تعالى إلى يوم القيامة.

وقد تسبب إبراهيم في بقاء كلمة التوحيد في قومه؛ لأنه وصَّى بها أولاده من بعده، وظلُّوا يتوارثون هذه الوصية خلفًا عن سلف: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة].

كما سأل إبراهيم ربه لذريته الإيمان والصلاح في قوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾ [إبراهيم].

وقوله: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

كما دعا إبراهيم ربه أن يبعث فيهم رسولًا منهم، فقال: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وقد أجاب الله دعاءه، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

وقال ﷺ: «**أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى**»[(١)].

وقيل: إن الضمير في ﴿وَجَعَلَهَا﴾ يعود على الله تعالى.

---

(١) من حديث أبي أمامة في «المسند» (٢٢٢٦١) وهو حديث صحيح لغيره كما قال محققوه، وأخرجه الطيالسي (١١٤٠) والطبراني في «الكبير» (٧٧٢٩) والبيهقي (١/ ٨٤) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٩٢٥).

ثَانِيًا: دَعْوَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَى التَّوْحِيدِ

ثم بيَّن ﷻ أنه لم يُجب دعوة إبراهيم جميع ذريته، ولم يجعل كلمة التوحيد باقية في جميع عقبه؛ لأن كثيرًا من نسله كذَّبوا محمدًا ﷺ، وقالوا: إنه ساحر، ومنهم من مات على ذلك، فلم تزل كلمة التوحيد موجودة في ذرية إبراهيم ﵇ حتى دخلهم الترف والطغيان، فكان منهم الظالم لنفسه، ومنهم السابق بالخيرات، ومنهم المقتصد.

وقد بيَّن سبحانه عاقبة من فرَّطوا في وصية إبراهيم، فقال:

٢٩- ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾﴾

أي: إن الله تعالى أمهل المكذبين برسول الله إبراهيم ﷺ فلم يعاجلهم بالعقوبة، لعلهم يرجعون عن كفرهم، وأمدَّهم بالمال والمتاع وطول العمر والنعمة، هم وآباءهم إلى أن جاءهم الحق وهو القرآن، ورسول مبين هو محمد ﷺ، حيث جاءهم برسالة واضحة المعالم، فبيَّن لهم الهدى من الضلال، وأقام لهم الأدلة العقلية والنقلية على توحيد الله سبحانه، وعلى صِدْق رسوله ﷺ، ولكنهم اغتروا بما هم فيه من مهلة، واشتغلوا بالنعيم واتباع الشهوات، وعوَّلوا على تقليد الآباء، ولم يتفكروا فيما جاءهم به محمد ﷺ فأعرضوا عن توحيد الله وتصديق رسوله.

ومدة المهلة التي تمتَّعت بها ذرية إبراهيم دون عقوبة، هي الفترة التي تُركوا فيها بدون رسالة، وهي ما بين عيسى ومحمد، أي: المدة بين آخر رسول قبل محمد ﷺ، وهو عيسى ﵇ إلى أن جاء محمد ﷺ وهذه المدة تزيد على خمسة قرون.

أما الآباء فالمراد بهم: الذين جلبوا عبادة الأصنام وسنُّوها بين الناس، مثل عَمْرو بن لُحَيٍّ، ومَنْ عبدها مِنْ بعده، وقد انتهى هذا التمتع بمجيء النبي محمد ﷺ فأُخذوا بالعذاب يوم بدر، ويوم حنين، ويوم الأحزاب، وغير ذلك، وهم ممن قال الله فيهم: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨].

وهدى الله من بقي منهم يوم فتح مكة، وعام الوفود، وما بعد ذلك.

وقد أخبر الله سبحانه أن الظالمين لأنفسهم بالشرك لا يكونون أئمة يُقتدى بهم، كما قال تعالى لإبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وبيَّن سبحانه أن من نسل إبراهيم وإسماعيل من هو: ﴿مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣].

وقال سبحانه: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا لا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ [النساء: ٥٤، ٥٥].

وقال أيضًا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الحديد].

وفي الآية التالية بيان لموقف المكذبين من دعوة الإسلام؛ قال تعالى:

٣٠- ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

أي: ولما انتهت مهلة التمتع لأهل الفترة، جاءهم محمد ﷺ بالقرآن العظيم ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن الكفر إلى الإيمان، فكان موقفهم منه أن قالوا عن القرآن: إنه سحر، وليس من كلام الله، فكفروا به، وكفروا بالرسول الخاتم، وجحدوا رسالته عُتُوًّا واستكبارًا وحسدًا.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ وهو القرآن المنزل على رسول الله محمد ﷺ ﴿قَالُوا﴾ عن القرآن ﴿هَٰذَا سِحْرٌ﴾ يسحرنا به، وليس بوحي، وقالوا عن محمد ﷺ: إنه ساحر، فكانوا قبل مجيء القرآن في غفلة وتساهُل، وبعد مجيء القرآن في عناد ومكابرة.

ثم إنهم كفروا بالقرآن الذي وصفوه بالسحر، حيث قالوا: ﴿وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾. وهذا من أعظم المعاندة، فإنهم لم يكتفوا بمجرد الإعراض عن الحق، ولا بجحوده، وإنما قدحوا فيه، وجعلوه بمنزلة السحر الباطل، الذي لا يأتي به إلا السحَرة الذي يفترون على الله الكذب، والذي حملهم على هذا هو طغيانهم بما متَّعهم الله به هم وآباؤهم.

اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ

٣١- ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾

أي: إن الكفار حسدوا محمدًا ﷺ على النبوة، واستبعدوا أن ينزل الوحي على فقير يتيم، وظنوا أن الرسالة ينبغي أن ينالها كبير القوم، صاحب المال والجاه، فلو كان هذا القرآن حقًّا من عند الله، فهلّا نزل على رجل عظيم من إحدى هاتين القريتين (مكة أو الطائف) الوليد بن المغيرة في مكة، وعروة بن مسعود الثقفي في الطائف، هذه رواية قتادة(١) وهو المشهور.

وقال مجاهد: عنَوْا بعظيم مكة: عُتبة بن ربيعة، وبعظيم الطائف: كنانة بن عبد ياليل(٢). وقيل غير ذلك.

إن المتتبع لسير الأنبياء يجد أن الحقد والحسد هو الذي يعترض طريق الرسل، فهؤلاء قوم ثمود يقولون عن نبيهم صالح ﷺ: ﴿أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾ [القمر].

وهذا فرعون يقول عن موسى ﷺ: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾

وقد اعترض بنو إسرائيل على تنصيب طالوت ملكًا، فقالوا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ وجاء الرد عليهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾[البقرة: ٢٤٧].

وهكذا اعترض كفار قريش على رسالة محمد ﷺ، فقالوا: ﴿أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨]، واقترحوا على النبي ﷺ بعقولهم الفاسدة، أن ينزل هذا القرآن على أحد الرجلين من أهل مكة أو الطائف.

يقول الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله-: إن تنوير الأقطار، وتحرير العبيد، ونقل الأجيال من القاع إلى القمة، يتطلب معادن خاصة، ورجالًا من طراز نفسيّ رفيع، ولا يُرشَّح لذلك شخص لديه مال كثير يُنفقه في مآربه وملذاته، والبشر من الناحية المادية

---

(١) أخرجها الطبري بسند حسن (٢٠/ ٥٨٢).

(٢) أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في «الدر المنثور» (١٣/ ٢٠٢).

يرأس بعضهم بعضًا، فالمهندس يأمر العامل، والقائد يأمر الجندي.

ولكن ما علاقة ذلك بزكاة الروح، وسناء الضمير، وزراعة الخير في أرجاء الحياة؟ ولذلك يقول الله تعالى ردًّا على تعيين أحد العُمد نبيًّا[1]:

٣٢- ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ[2] رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾

والمراد برحمة ربك: النبوة والرسالة، أي: أَهُمْ يمنحون النبوة، فيخصون بها من شاؤوا، ويمنعونها عمن شاءوا، حتى يقترحوا أن تكون لفلان الثّريّ، أو لفلان كبير القوم، وفي هذا تجهيل لهم وتعجُّب من اعتراضهم، وكأن بأيديهم مفاتيح الرحمة يضعونها حيث شاؤوا؟!

إن تفاوت الناس في أمور الدنيا لا دخل له في اصطفاء الرسل الذين يصنعهم الله على عينيه ليُربُّوا البشر، ويخرجوهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

ولما كانت رسالة النبي ﷺ رحمة للعالمين سَمَّاها القرآن رحمة، وجعل تحكمهم فيها تحكمًا في رحمة الله تعالى، فقال: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾. أي: أهم الخزان لرحمة الله، وبيدهم مفاتيحها، فيعطون النبوة من شاؤوا ويمنعونها من شاؤوا؟

ثم ضرب سبحانه مثلًا على ذلك بتفضيل بعض الناس على بعض في الرزق، وَفْق ما تقتضيه الحكمة الإلهية، فقال سبحانه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ من الأرزاق والأقوات وغير ذلك، فجعلنا هذا غنيًّا وهذا فقيرًا، وفاوتْنا بينهم في الأموال والأرزاق، وإذا كان أمر المعيشة مع قلة شأنه، لم نتركه لهم، بل تولَّيْنا قِسْمته بأنفسنا، فكيف نترك أمر النبوة لأهوائهم، وهو عظيم الشأن؟

وإذا كنا لم نترك الحظوظ الفانية، ونمن بها على الخلق، فأَوْلَى بنا ألا نترك الحظوظ الشريفة الباقية، فإذا كانت أرزاق العباد بيد الله، يوسعها على من يشاء، ويضيقها على من

---

(١) «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن» ص ٣٨١ .

(٢) وقف ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب على (رحمت) بالهاء، ووقف الباقون بالتاء تبعًا للرسم، وذلك في الموضعين معًا وقد رسمت في المصحف بالتاء المفتوحة.

يشاء، بحسب حكمته، فإن مقام النبوة والرسالة أحق وأولى أن يكون بيد الله تعالى.

وكما أن الله تعالى ببالغ حكمته يدبر شؤون خلقه، فيجعل هذا قويًّا وهذا ضعيفًا، وهذا مالكًا وهذا مملوكًا، وهذا صحيحًا وهذا مريضًا؛ ليحتاج بعضهم إلى بعض، فيكون بعضهم سببًا لبعض في المعاش وأمور الحياة، كذلك الأمر، فإن الله تعالى رفع بعض خلقه على بعض في الرزق ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ أي: نحن قسمنا بينهم أسباب معيشتهم ليستعين بعضهم ببعض، فيتعارفوا ويتجمَّعُوا لأجل حاجة بعضهم إلى بعض، فتتكون من ذلك القبائل والمدن، وليكون كلٌّ منهم مُسخَّرًا عند الآخر، ويخدم بعضهم بعضًا لينتظم أمر الحياة، فينتفع بعضهم من بعض، ولو كان الناس متساوين عِلْمًا وغِنًى وجاهًا وحِرْفة، لم يخدُم أحد أحدًا، فيُفضي هذا إلى فساد نظام الحياة؛ إذ لا يستقيم أن يكون الإنسان تاجرًا وعالِمًا وخبَّازًا وسبَّاكًا وخيَّاطًا ومَلِكًا وجنديًّا . . . إلخ.

فلابد من أن يخدم الناس بعضهم بعضًا، ويرأس بعضهم بعضًا، وما يظفر به الناس من مال ومتاع وجاه وسلطان، لا يدل على خيْريَّة ولا أفضلية، فقد يبسط الله الرزق لقوم وهم حطب جهنم، وقد يُبتلى بالرق والعبودية مَنْ هم ملوك الجنة، أمثال: عمار بن ياسر، وبلال بن رباح ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المؤمنون].

قال قتادة: تلْقى ضعيف القوة، قليل الحيلة، عَيِيَّ اللسان، موسَّعًا عليه في الرزق، وتلقى شديد الحيلة، بسيط اللسان، مقتَّرًا عليه في الرزق[١].

ولفظ: ﴿سِخْرِيًّا﴾ من التسخير، وليس من السُّخرية، وهذا كقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾ [النحل: ٧١].

وقوله سبحانه: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء].

وكما أن رسالة النبي ﷺ رحمة للعالمين، فهي أيضًا رحمة له ﷺ، ودرجة النبوة أفضل ألف مرة من المال والمتاع والجاه، ولذا قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: بالرسالة والنبوة

---

(١) أخرجه الطبري بسند حسن (٢٠/ ٥٨٤).

﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: من المال والمتاع، وفي هذا جواب لمن قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

ولو أنهم عرفوا عُلُوّ قدْر النبي ﷺ وعظيم منزلته عند الله تعالى، وعرفوا الخصائص والصفات التي حبا الله بها محمدًا ﷺ، لعلموا أنه أعظم الرجال قدرًا، وأكملهم عقلًا، وأفضلهم خُلقًا، وإليه تنتهي أوصـاف الرجال، وهو الرجل الأول في العالم على الإطلاق، فلا ينبغي بحال أن يفضَّل عليه غيره، ولا أن يقدَّم عليه غيره، فهو ﷺ سيد ولد آدم ولا فخر ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس]

وكذلك رحمة الله تعالى بإدخال المؤمنين الجنة خير وأبقى مما يجمعون من حطام الدنيا الفاني.

التَّوْسِعَةُ فِي الرِّزْقِ لَيْسَتْ دَلِيلًا عَلَى مَحَبَّةِ اللهِ تَعَالَى

٣٣، ٣٤- ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ[1] سُقُفًا[2] مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾﴾

وتمضي الآيات في بيان الآثار المترتبة على كفر من كفر بصاحب الرسالة العالمية.

أي: ولولا أن يُخدع الناس جميعًا بتنعيم الكفار، لجَعَلَ الله حظوظ الدنيا تنهمر عليهم، ومن حكمة الله تعالى أن أغنى بعض الناس وأفقر بعضًا، ولو أن الله تعالى وسَّع على المسلمين كثيرًا في الرزق لأقبل الناس على الإسلام لأجل الدنيا، وكان إسلامهم نفاقًا.

وهذه الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة، وقد ادَّخر الله للمؤمنين عنده دار الكرامة والنعيم.

ولولا أن يَرْغَبَ الناس في الكفر، فيُقبلوا عليه جميعًا، حبًّا في الدنيا وزخرفها، فلا يبقى في الأرض مؤمن، بل يجتمعون على الكفر لأجل المال، ويظنون أن سعادة الدنيا

---

(١) قرأ قالون وابن كثير وابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي وخلف بكسر الباء من (لِبيوتهم) وفي الآية التالية (ولِبيوتهم)، وقرأ الباقون بضم الباء في الموضعين معًا، وهما لغتان.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح السين وإسكان القاف من (سَقْفا) على الإفراد، لإرادة الجنس، والباقون بضمها على الجمع.

من المال والمتاع ملازمة للكفر، لولا ذلك، لخصص الله هذه الدنيا للكفار، وجعل لهم القصور الشاهقة، المزخرفة بأنواع الزينة والنقوش، وجَعَل سقُفها من الفضة الخالصة، وجعل لهم مصاعد وسلالم من فضة يرتقُون عليها، وجعل أبواب بيوتهم وأسرَّة منامهم من فضة، زيادة في الرفاهية والنعيم؛ وتَرَكَ المسلمين في الدنيا بدون هذه الرفاهية لِمَا ادَّخره لهم في الآخرة من نعيم وخيرات، وذلك لأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر.

ولكنه سبحانه أغنى بعض الكفار وأفقر بعضًا، وأغنى بعض المؤمنين وأفقر بعضًا؛ لتستقيم شؤون الحياة، ويُقبل الناس على الإيمان أو الكفر دون مؤثرات، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: لولا كراهية أن يكون الناس كلهم كفارًا، وجماعة واحدة على دين واحد هو الكفر ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: لأعطى الله الكفار ثراءً فاحشًا ووسَّع عليهم غاية التوسعة، ومكَّن لهم من الدنيا لحقارتها عند الله تعالى، وجعل ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ أي: جعل سقف البيوت من فضة، وجعل المعارج وهي السلالم والمصاعد من فضة أيضًا ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي: يصعدون عليها ويرتقون، وهذا من مظاهر الثراء.

ولجعل أبواب بيوتهم أيضًا من فضة، وجعل أسرَّتهم التي يتكئون عليها كلها من فضة.

وكذلك الأمر، لو أن الله تعالى وسَّع على المسلمين في الدنيا فأغدق عليهم بالمال والمتاع، لو حدث هذا لأقبل الناس على الإسلام من أجل الدنيا، وفي هذا مفسدة ونفاق وفتنة. قال تعالى:

٣٥- ﴿وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا[1] مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾

أي: وجعل كل ما سبق من المساكن والأثاث من ذهب أيضًا، فتُزيَّن الأبواب والسرر والمصاعد، وأسقف المنازل بالذهب، وتُزخرَف به، ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَزُخْرُفًا﴾ قيل: إن الزخرف هو الذهب نفسه، وقيل: هو أساس البيت وما يُتخَذ له من الستور والنمارق ونحوها.

---

(١) قرأ عاصم وحمزة وابن جماز وهشام بخلف عنه بتشديد الميم من (لَمَّا) على أنها بمعنى: إلا وإن نافية، وقرأ الباقون بتخفيف الميم وهو الوجه الثاني لهشام على أنَّ (إنْ) مخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة.

ولعل لفظ الزخرف يشمل الذهب والفضة وغيرهما مما يُزخرف ويُنقش به، ويشمل الستائر والنمارق والنقوش، وقِطَع الزينة ونحو ذلك.

وكل هذا نعيم زائل، ومتاع فانٍ، ولو أراد الله أن يخصَّ به الكافرين لفعل.

ولولا أن يرغب الناس في الكفر، فيُقبلوا عليه حين يرون هذه التوسعة على الكفار، ويكونوا أمة واحدة على دين واحد هو الكفر، لولا هذا لفعل الله ذلك سبحانه، ولكنه تعالى لم يشأ ذلك؛ لأنه جعل الناس فريقين: فريقًا في الجنة، وفريقًا في السعير. قال تعالى:

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود].

ثم بيَّن سبحانه أن متاع الدنيا قليل زائل، وأن نعيم الآخرة مدَّخر عند الله للمتقين، فقال تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وهم الذين اتقوا الشرك والمعاصي، وآمنوا بالله وحده، وعملوا بطاعته، وفي هذا وعد كريم، وتحريض على التقوى.

والإنسان يستمتع قليلًا بما في الدنيا، والمتاع الدائم خاص بالمتقين في الآخرة، فهم أهل السعادة الأبدية، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران].

أحاديث في المعنى:

١- عن سهل بن سعد ﷺ قال: كنا مع النبي ﷺ بذي الحليفة، فإذا هو بشاة ميِّتة، شائلة برجلها، فقال: **«أترون هذه هيِّنة على صاحبها؟ فوالذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله، من هذه على صاحبها، ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها قطرة ماء أبدًا»**[1].

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٣٢٠) وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه برقم (٤١١٠) وهذا لفظه وهو في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣١٨) وانظر: «معالم التنزيل» للبغوي (٧/ ٢١٣). وصححه الألباني أيضًا في السلسلة الصحيحة (٦٨٦ و٢٤٨٢).

٢- وعن المستورد بن شداد ﷺ، جَدِّ بني فهر، قال: كنت في الركب الذين وقفوا مع رسول الله ﷺ على السَّخْلة الميتة، فقال ﷺ: **«أترون هذه هانت على أهلها حين ألقوها»**؟ قالوا: من هوانها ألقوها يا رسول الله، قال: **«فإن الدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها»**[1].

٣- وعن قتادة بن النعمان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا أحب الله عبدًا حماه من الدنيا كما يَظَلُّ أحدكم يحمي سقيمه الماء»**[2].

٤- وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»**[3].

٥- وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها، فإنها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة»**[4].

ولما رأى عمر ﷺ رسول الله ﷺ قد أثَّر الحصير في جنبه، ابتدرتْ عيناه بالبكاء، وقال: يا رسول الله، هذا كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه، وكان رسول الله ﷺ متكئًا فجلس، وقال: **«أوَفي شك أنت يابن الخطاب؟ أولئك قوم عُجِّلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا»**.

وفي رواية: **«أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة»**[5].

وفي الآية دليل على أن الله تعالى قد يمنع بعض خلقه شيئًا من نعمه حتى لا يتسرعوا في الكفروالمعاصي بسبب حب الدنيا ،وكل ما فيها من متاع منغص ومكدر، والآخرة خير للمتقين بامتثال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه، وفي الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فشتان ما بين الدنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (١٨٩٠) وهو في «سنن ابن ماجه» برقم (٤١١١). وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٣١٩) والتعليق الرغيب (٤/ ١٠١).

(٢) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن غريب، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (١٦٥٩) و«صحيح مشكاة المصابيح» (٥٢٥٠).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٩٥٦).

(٤) البخاري (٥٦٣٣، ٥٤٢٦) ومسلم (٢٠٦٧).

(٥) البخاري (٨٩، ٤٩١٣) ومسلم (١٤٧٩).

تَسْلِيطُ الشَّيَاطِينِ عَلَى أَهْلِ الضَّلَالِ عُقُوبَةً لَهُمْ

٣٦- ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ[1] لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾

نوَّهت سورة الزخرف بشأن القرآن العظيم، وبيَّنتْ أنه ذِكْر وبيان للناس، وأن الله تعالى لا يترك تذكير الناس به لإعراضهم عنه، ووصفتْ السورة تناقض عقائد المكذبين في عبادة غير الله تعالى مع اعترافهم بوجوده سبحانه، وبيَّنتْ أن سبب ذلك هو التقليد لمن سبقهم، وأنهم وصفوا القرآن بأنه سحر، واعترضوا على كون الرسول يتيمًا فقيرًا.

بعد ذلك بيَّن سبحانه أن من يُعرض عن القرآن وعن عبادة الرحمن، يهيئ الله له قرينًا من الشياطين يضله ويغويه، ولا ينفك عن الوسوسة له، عقوبة له على تأصيل الضلال فيه.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: ومن يتعامَ ويتغافلْ عن القرآن الكريم ويُعرض عن العمل بما فيه، فلا يخاف عقابًا ولا يرجو ثوابًا، ولا يهتدي بهداه، فهو ممن لا ينفع فيهم الإنذار، ولا تفيدهم الموعظة، ولذلك فإن الله تعالى يجعل لكلٍّ منهم شيطانًا يلازمه، وهذا معنى: ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ وهذا القرين يضله ويغويه مدة حياته، جزاء إعراضه عن ذكر الله تعالى، فهو مصاحب له، يمنعه من الحلال، ويحثُّه على الحرام، والسبب في ذلك أنه لما زاغ قلبه عن الهدى أزاغ الله قلبه عنه، فهو قد رضي هذا الطريق باختياره، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وقال أيضًا: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

وقال سبحانه: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥].

فالله تعالى يعاقب على المعصية بالزيادة في المعاصي، ويجازي على الحسنات.

ولا عذر لهؤلاء المعرضين عن ذكر الله، لأنهم متمكنون من الهداية قادرون عليها ولكنهم تركوا الحق ورغبوا في الباطل.

---

(١) قرأ يعقوب وشعبة بخلف عنه بالياء في (نقيِّض) موافقة للسياق، والفاعل ضمير يعود على الرحمن، وقرأ الباقون بنون العظمة على الالتفات، وهو الوجه الثاني لشعبة.

وهؤلاء الشياطين يَحُولُون بينهم وبين طُرق الهداية، فيزيِّنُون لهم العمل السيئ فيرونه حسنًا في أعينهم، قال تعالى عن قرناء السوء:

٣٧- ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ[1] أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾

أي: إن الشياطين يصدون الناس عن سبيل الحق، ويُبغِّضون لهم الإيمان بالله تعالى والعمل بطاعته، ويظن هؤلاء المعرضون أنهم على الحق والهدى بتزيين الشيطان لهم ما هم عليه من ضلال ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ﴾ [فاطر: ٨].

وقد يؤمن الكافر في الدنيا فينقطع هذا الإغواء، ويبتعد عن طريق الشيطان.

وهكذا يجد المبطلون أعوانًا يتجاوبون معهم، وينصرون باطلهم بطريقة أو بأخرى، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ﴾ [الأنعام: ١١٢]. وما من أحد إلا ومعه قرين من الجن:

١- عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينه من الجن»** قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: **«وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير»**[2].

ولفظ **«فأسلم»** وردت برفع الميم، بمعنى: أسلمُ أنا من شره وفتنته.

ووردت بفتح الميم، أي: إن القرين قد أسلمَ وصار مؤمنًا فلا يأمرني إلا بخير.

٢- وعن عائشة ﷺ أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلًا، قالت: فغِرْتُ عليه، فجاء فرأى ما أصنع، فقال: **«ما لك يا عائشة أغِرْتِ»**؟ فقلت: وما لي لا يغار مثلي على مثلك؟ فقال: **«لقد جاءك شيطانُك»** قلت: يا رسول الله، أوَ معي شيطان؟ قال: **«نعم،**

---

(١) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر بفتح السين من (يحسَبون)، والباقون بكسرها.

(٢) «صحيح مسلم» (٢٨١٤) وانظر: رواية ابن عباس في «المسند» (٣٢٣٢).

ومع كل إنسان» قلت: ومعكَ؟ قال: **«نعم، ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم»**(١).

وقرين الكافر يلازمه، أما قرين المؤمن فيتخوَّله ويتتبع غفلاته.

٣- أخرج الإمام أحمد في كتاب **الزهد** عن وهب بن منبه قال: ليس من الآدميين أحدٌ إلا ومعه شيطان موكَّل به، أما الكافر فيأكل معه من طعامه، ويشرب معه من شرابه، وينام معه على فراشه، وأما المؤمن فهو مُجانِب له ينتظره متى يصيب منه غفلة أو غرة، فيثبُ عليه، وأحب الآدميين إلى الشيطان، الأكول النؤوم.

٤- وعن سعيد الجُزَيْري قال: بلغنا أن الكافر إذا بُعث يوم القيامة من قبره أخذ بيده شيطان، فلم يفارقه حتى يُصَيِّرهما الله إلى النار، فذلك حين يقول: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ قال: وأما المؤمن فيوكَّل به مَلَك حتى يُقضَى بين الناس أو يَصيرَ إلى الجنة.

وشياطين الإنس يقيِّضون للمؤمنين قرناء منهم لإغوائهم وإضلالهم:

عن محمد بن عثمان المخزومي أن قريشًا قالت: قيِّضُوا لكل رجل من أصحاب محمد رجُلًا يأخذه، فقيَّضُوا لأبي بكر طلحةَ بن عبيد الله، فأتاه وهو في القوم، فقال أبو بكر: إلامَ تدعوني؟ قال: أدعوك إلى عبادة اللات والعزى، قال أبو بكر: وما اللاتُ؟ قال: ربُّنا، قال: وما العُزَّى؟ قال: بنات الله، قال أبو بكر: فمن أمهم؟ فسكت طلحة فلم يجبْه، فقال طلحة لأصحابه: أجيبوا الرجل، فسكت القوم، فقال طلحة: قم يا أبا بكر، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فأنزل الله ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾(٢).

وإذا كان حال المعرض عن ذكر الله في الدنيا، هو ا لضلال وإغواء القرين، فإنه في الآخرة يندم ويتحسر ويَحزن، ويبرؤ من قرينه، كما قال تعالى:

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٨١٥).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما في «الدر» (١٣/١٠٦) و«أسباب النزول» للسيوطي (٢٥٣).

٣٨- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا[(١)] قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾

أي: فإذا كان يوم القيامة، فإن كل قرين يُحشر مع قرينه، وعندئذ يتمنَّى الكافر أن يكون بينه وبين قرينه الذي أغواه أمدًا بعيدًا كما بين المشرق والمغرب وهو يسُبُّه ويذُمُّه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ أي: الذي أعرض عن ذكر الرحمن، جاء هو وقرينه يوم القيامة للحساب والجزاء ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ أي: قال المعرض لقرينه: وددتُ أن بيني وبينك بُعدَ ما بين المشرق والمغرب ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ أنت حيث أغويتني، وهكذا يتبرأ الشيطان ممن أضله، ويقول: لقد كان هو على ضلال ﴿۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾﴾[ق].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان]

قال أبو سعيد الخدري ﷺ: إذا بُعث الكافر زُوِّج بقرينه من الشياطين فلا يفارقه حتى يصيرا إلى النار، حيث يُربط معه بسلسلة.

ويقال للمشرق والمغرب: المشرقين، من باب التغليب، كما يقال: الظهرين لصلاتي الظهر والعصر، والمراد بهما: مكان شروق الشمس ومكان غروبها في الأفق، أو الجهة التي تبدُو منها الشمس عند الشروق والغروب. قال تعالى:

٣٩- ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾

أي: ولكل واحد من القَرين وقرينه نصيبه الأوفر من العذاب يوم القيامة، واشتراكهم في العذاب لا يخفف عن فريق دون فريق، وإلقاء اللَّوْم والتبعة من كل منهما على الآخر لا يفيد شيئًا، فالمشرك مؤاخذ بطاعته للقرين، والقَرين مؤاخذ بإضلاله وإغوائه لقرينه، وكلهم مشتركون في العذاب ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أيها المعرضون عن كتاب الله وسُنَّة رسوله اشتراككم أنتم وقرناؤكم في العذاب، فقد اشتركتم في العذاب لاشتراككم في

(١) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وشعبة وأبو جعفر بألف بعد الهمزة من (جاءنا) على التثنية، والباقون بغير ألف، والفاعل ضمير يعود على (مَن).

الظلم، حيث كنتم في الدنيا مشركين بالله ﴿إِنَّكُمْ﴾ يومئذ وأنتم في عرصات القيامة ﴿فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أنتم وقرناؤكم، فكما اشتركتم في الكفر في الدنيا تشتركون اليوم في العذاب، وهذا بخلاف ما يحدث في الدنيا، فإن المصيبة فيها إذا عمَّت هانت، وتسلّى بعضهم ببعض، ولن ينفعكم ندمكم، ولا تمنيكم العودة للدنيا لتدارُك ما فاتكم.

واشتراككم في العذاب لن يخفف عنكم شيئًا منه، وإلقاؤكم بالمسؤولية على من أضلوكم، وسؤالكم لهم مضاعفة العذاب لا يفيدكم شيئًا، كما قال تعالى عنهم: ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾﴾ [ص].

وقال سبحانه ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب].

لَا سَبِيلَ إِلَى هِدَايَةِ مَنِ اسْتَحَبَّ الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ

٤٠- ﴿أَفَأَنتَ[1] تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾

ولما بيَّن سبحانه أن المعرضين عن ذكر الله تعالى متوغِّلون في الضلال، وأن انفكاكهم عنه أمر عسير؛ لأن مقارنة الشياطين لهم مستمرة، بعد ذلك هوَّن الله تعالى على النبي ﷺ أَمْرَ تصميمهم على الكفر؛ حتى لا يحزن، فبيَّن تعالى أنهم بمنزلة الصم والْعُمْي في عدم انتفاعهم بالقرآن وما فيه ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ أي: هل أنت -يا محمد- تقدر أن تُسمع من أصمَّه الله عن سماع الحق ﴿أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ أي: هل تقدر أن ترشد إلى طريق الهُدَى من أعمى الله قلبه عن إبصاره، وهل تقدر أن تهدي ﴿مَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: من حاد عن طريق الحق بشكل واضح؟ إنك لا تملك هداية مَنْ هُمْ بمنزلة الصم والعمي؛ إذ ليس ذلك إليك -أيها الرسول- إنما عليك البلاغ، وليس عليك هداهم، ولكن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [النحل].

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] فأنت لا تستطيع أن تُسمعهم ولا تهديهم، بل الله سبحانه يسمعهم ويهديهم، وكما أن الأصم لا يسمع، والأعمى لا

---

(١) قرأ الأصبهاني بتسهيل الهمزة الثانية من (أفأنت) وكذا حمزة عند الوقف، وحققها الآخرون.

يُبصر، والضال لا يهتدى، فهؤلاء قد فسدت فطرهم وعقولهم بإعراضهم عن الذكر، واستحداثهم عقائد فاسدة تحول بينهم وبين الهدى.

وفي الآية ثلاثة أوصاف لغير المسلمين، فهم: صمٌّ، وعميٌّ، وفي ضلال بيِّن، فانصرافهم عن الاستماع إلى القرآن والنظر في آياته يشبه حال الصُمِّ الْعُمْيِ، والضلال المبين أعم منهما، وفيه تنبيه على عموم أحوالهم، فلا يضيق صدرك بهم -أيها الرسول- واصبر على أذى قومك، وما عليك إلا البلاغ.

حُلُولُ الْعِقَابِ بِالْكُفَّارِ حَاصِلٌ إِنْ عَاجِلًا أَوْ آجِلًا

٤١، ٤٢- ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ(١) بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ(٢) الَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾

وعد الله رسوله بالانتقام من أهل الضلال إن عاجلًا أو آجلًا، فعذابهم حاصل سواء في حياة النبي ﷺ أو بعد مماته، كما أن الله تعالى مُظْهِرٌ دينه، في حياة النبي ﷺ أو بعد مماته ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ أي: إن توفيْناك -أيها النبي- قبل نصرك على المكذبين من قومك وقبل أن ترى بعينك ما نعدهم به من العذاب ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ أي: فاعلم أن وعدنا صادق، وأننا سننتقم منهم ولا بد في الدنيا أو الآخرة، والانتقام منهم من أجْل إعراضهم عن أمرنا وديننا، وقد كان المشركون يتربصون الموت للنبي ﷺ حتى يستريحوا من دعوته، فأعلَمه الله تعالى أنهم لن يفْلتوا من العقاب الدنيوي أو الأخروي، بعد رحيله ورحيلهم عن الدنيا، هذه هي الحالة الأولى،وهي تتضمن وعيدهم بالعذاب بعد مماته.

ثم ذكر الله تعالى الحالة الأخرى، وهي عذاب المكذبين في حياة النبي ﷺ، فيرى بعينيه ما توعَّدهم الله به قبل مماته، وهذا معنى ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾ أي: من العذاب الذي ينزل بهم في حياتك، كما حدث للمشركين يوم بدر، ويوم حنين، ويوم الأحزاب، حيث قُتل صناديدهم على مرأى من رسول الله ﷺ ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ أي: فهم في قبضتنا وتحت تصرفنا، ولن يفلتوا من عقابنا، سواء في الدنيا أو الآخرة، أو

(١) ،(٢) قرأ رويس بتخفيف النون في (نذهبنَ) و (نرينك) وإذا وقف على (نذهبن) وقف بالألف على الأصل في نون التوكيد الخفيفة، وقرأ غيره بالتشديد فيهما.

فيهما معًا، وسوف نُظهر دينك عليهم، ونُخزيهم بيدك ويد المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾ [الرعد].

ولم يقبض الله تعالى رسوله ﷺ حتى أقرَّ عينه من أعدائه وحكَّمه في نواصيهم، وأظهره الله عليهم، فأعزّ دينه، وأعلى كلمته، ونشر دينه في قارّات الدنيا.

في حديث أبي بُردة عن أبيه قال: صلينا المغرب مع رسول الله ﷺ، ثم قلنا: لو جلسنا حتى نصلي معه العشاء؟ قال: فجلسنا، فخرج علينا فقال: **«ما زلتم ها هنا»**؟ قلنا: يا رسول الله، صلينا معك المغرب، ثم قلنا: نجلس حتى نصلي معك العشاء، قال: **«أحسنتم، أو أصبتم»** قال: فرفع رأسه إلى السماء، وكان كثيرًا ما يرفع رأسه للسماء، فقال: **«النجوم أَمَنَة للسماء، فإذا ذهبت النجوم، أتى السماء ما تُوعَد، وأنا أَمَنَة لأصحابي، فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون»**[1].

وأخرج الطبري بسنده عن قتادة قال عند تلاوته لهذه الآية: ذهب النبي ﷺ وبقيت النقمة، ولم يُرِ الله نبيه ﷺ في أمته شيئًا يكرهه حتى مضى، ولم يكن نبي قطُّ من الأنبياء إلا ورأى العقوبة في أمته، إلا نبيكم ﷺ، قال: وذُكِر لنا أن رسول الله ﷺ أُرِيَ -أي: أطلعه الله على- ما يصيب أمته من بعده، فما رُئي ضاحكًا منبسطًا حتى قبضه الله ﷻ[2].

التَّمَسُّكُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فِي مُوَاجَهَةِ أَهْلِ الضَّلَالِ

ولما هوَّن الله على رسوله ما يلاقيه من شدة الحرص على إيمانهم، ووعده بالنصر عليهم، أمره بالثبات على دينه، ودوام التمسك بكتابه، وألا يتضجر من تصميمهم على الكفر ونفورهم من الحق. قال تعالى:

٤٣- ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٣١).

(٢) «تفسير الطبري» (٢٥/ ٤٥) وصححه الحاكم والذهبي (٢/ ٤٤٧) وأخرجه عبد الرزاق (٢/ ١٩٧) والبيهقي في «الشعب» برقم (١٤١٠) والضياء المقدسي في «المختارة» برقم (٢٠٩٧).

أي: استمر -أيها الرسول- على التمسك بما أوحاه الله إليك في هذا القرآن من الامتثال لأوامره واجتناب نواهيه، والدعوة إليه وإن كذَّبك من كذَّب ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ موصل إلى رضوان الله تعالى ودار كرامته، وهو الإسلام، دين الله الذي شرعه لك، وأنت مداوم على العمل بالذي أوحى إليك، ثابت على منهج الله، مستقيم على دينه.

متمسك بالعروة الوثقى، متخلق بخلق القرآن وآدابه، وإذا علم الإنسان أنه على الحق زاده ذلك تمسّكًا به واهتداء بهديه، لأنه على أصل أصيل، خاليًا من الشكوك والأوهام والظلم والجور.

وفي هذا تثبيت للنبي ﷺ وثناء عليه، وبيان أنه ﷺ راسخ في الاهتداء، ملازم لأقوم الطرق، ولم يزغ قيْد أنملة عما بعثه الله به، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]. وهذا القرآن شرف لك ولأمتك، قال تعالى:

٤٤- ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾

وبعد أن أثنى الله على رسوله ﷺ أثنى على كتابه، فبيَّن أن هذا القرآن شرف عظيم للرسول ﷺ ولأمته، أي: إن الذي أوحينا إليك -أيها الرسول- لَشَرف وفخر عظيم لك ولأمتك، حيث أُنزل هذا القرآن في أرضهم وبِلُغتهم على رجل منهم ليحْملوه إلى العالم، فهم أفهم الناس له، وينبغي أن يكونوا أفقه الناس به، عالمين بمقتضاه، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] أي: فيه شرفكم وعزكم، فالذكر بمعنى: الشرف والعزة والمجد والفخر والمنقبة.

وقوم النبي ﷺ هم قريش وسائر العرب، فإنهم نالوا بذلك شرف الدنيا والآخرة، ففتحوا البلاد شرقًا وغربًا، وصارت فيهم الخلافة والملك.

والقرآن سبب الذكر؛ لأنه أكسب قومه شرفًا يُذكرون في العالمين بسببه، وقد نزل القرآن بلسان العرب، فاحتاج أهل اللغات كلهم إلى لسانهم، فشُرِّفوا بذلك على لسان أهل اللغات جميعًا، ولولا هذا ما عرف أحدٌ العربَ من الأمم الكبرى.

ثم بيَّن سبحانه أن المسلمين سيُسألون يوم القيامة عن مقدار تمسكهم بأوامره ونواهيه، والقيام بحقه، قال تعالى: ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ أي عن شكر هذه النعمة والقيام بحقها، والانتفاع بها والعمل بما فيها، وهو سؤال توبيخ وتهديد، كما قال تعالى: ﴿سَتُكْتَبُ

﴿شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [١٩].

ومما ورد في العرب والخلافة والحكم بسبب شرف هذه الأمة وشرف كتابها:

١- روى ابن عباس ﷺ أن النبيَّ ﷺ كان إذا سئل: لمن هذا الأمر بعدك؟ لم يجب بشيء حتى نزلت هذه الآية، فكان بعد ذلك إذا سئل قال: **«لقريش»**(١).

٢- وعن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان»**(٢).

٣- وعن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن هذا الأمر في قريش، لا يعاديهم أحد إلا أكبَّه الله تعالى على وجهه ما أقاموا الدين»**(٣).

٤- قال ابن عطية: قال ابن عباس ﷺ: كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على القبائل، فإذا قالوا له: فلمن يكون الأمر بعدك؟ سكت، حتى إذا نزلت هذه الآية، فكان إذا سئل عن ذلك قال: **«لقريش»** (٤).

٥- قال عديُّ بن حاتم ﷺ: كنت قاعدًا عند رسول الله ﷺ، فقال: **«ألا إن الله عَلِمَ ما في قلبي من حُبي لقومي، فَسَرَّني فيهم فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾**، فجعل الذكر والشرف لقومي في كتابه... فالحمد لله الذي جعل الصِّدِّيق من قومي، والشهيد من قومي، والأئمة من قومي، إن الله قلَّب العباد ظهرًا لبطن، فكان خيرَ العرب قريشٌ...».

قال عديٌّ: ما رأيت رسول الله ﷺ ذُكِرتْ عنده قريش بخير قطُّ، إلا سرَّه، حتى يتبيَّن ذلك السرور للناس كلهم في وجهه(٥).

وكما أن القرآن شرفٌ للنبي ﷺ ولأمته، فإنه تذكرة للناس، يتعظون به، ويذكرون أوامره ونواهيه فيهتدون بهديه.

(١) رواه ابن عدي (٣/ ١٢٧٢). وانظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٥/ ٥٧).
(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٥٠١، ٧١٤٠) و«صحيح مسلم» برقم (١٨٢٠).
(٣) «صحيح البخاري» برقم (٣٥٠٠، ٧١٣٩).
(٤) «تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٧).
(٥) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٧/ ٨٦) (٢٠١) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٣): فيه حصين السلولي ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

تَوْحِيدُ اللَّهِ تَعَالَى جَاءَتْ بِهِ كُلُّ رِسَالَةٍ

ولما قال المشركون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [٢٢] أي: على دين الشرك ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ﴾ [٢٠] أمر الله رسوله أن يستقرئ شرائع الرسل السابقين وما جاء في كتبهم، ويتتبع أخبارهم، هل يجد فيها عبادة آلهة غير عبادة الله تعالى؟ فقال سبحانه:

٤٥- ﴿وَسْـَٔلْ(١) مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ(٢) أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

أي: اسأل -أيها الرسول- أتباع الرسل السابقين وحملة شرائعهم، أجاءت رسلهم بعبادة غير عبادة الله تعالى؟ فإنهم يخبرونك أن ذلك لم يقع، وأن جميع الرسل -أولهم وآخرهم- يدعون إلى عبادةِ الله وحده ونبذ الشرك وأهله ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء] وكل رسول بعثه الله إلى قومه يقول لهم ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [هود: ٦١] وغيرها، وإذا كان الأمر كذلك، فليس آباؤكم -أيها المشركون- بأهدى من رسل الله الأولين، وأنتم تكذبون رسولنا؛ لأنه أمركم بإفراد الله تعالى بالعبادة.

ولما كان سؤال الرسل السابقين متعذِّرًا كان لا بدَّ من حمل الآية على سؤال أتباع الرسل، واستقراء كتبهم وشرائعهم، فلم يأمر الله تعالى بعبادة غيره على لسان أحد من رسله، وفي هذا ردٌّ على المشركين في زعمهم؛ وأنه لا مستند لهم في شركهم لا من عقل صحيح ولا نقل عن الرسل.

وقد نفى الله تعالى أن يكون راضيًا عن عبادة غيره معه، فقال: ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ فإن جميع الرسل دَعَوْا إلى عبادة الله وحده، ونهوْا عن عبادة ما سواه، وقد كانت للمشركين عقائد مختلفة في عبادتهم للأصنام:

١- فمنهم من يجعل الأصنام آلهة، شركاء لله تعالى.

٢- ومنهم من يزعم أنه يعبد الأصنام لتُقرِّبه إلى الله زلفى.

---

(١) حذف همزة (واسأل) ونقل حركتها إلى ما قبلها: ابن كثير والكسائي وأبو جعفر، وحققها غيرهم.

(٢) سكَّن السين من (رسْلنا) أبو عمرو، وضمها غيره.

٣- ومنهم من يزعم أن الأصنام تشفع له عند الله تعالى.

وقد نفى الله تعالى هذا كله في الآية، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وفي رواية عن ابن عباس ﷺ: أنه لما أُسري برسول الله ﷺ بعث الله ﷻ آدم وولده من المرسلين، فأذَّن جبريل ثم أقام، وقال: يا محمد، تقدَّم فصلِّ بهم، فلما فرغ من الصلاة قال له جبريل: سل يا محمد من أرسلنا من قبلك من رسلنا (الآية) فقال النبي ﷺ: **«لا أسأل قد اكتفيت»**.

هذا قول الزهري، وسعيد بن جبير، وابن زيد، قالوا: جمع الله له الرسل ليلة أُسري به، وأُمر أن يسألهم، فلم يشكَّ ولم يسأل، فعلى هذا قال بعضهم: إن هذه الآية نزلت ببيت المقدس ليلة الإسراء.

وقال أكثر المفسرين: سل -أيها الرسول- مؤمني أهل الكتاب الذين أُرسلتْ إليهم الأنبياء: هل جاءتهم الرسل إلا بالتوحيد؟[1].

وعلى هذا فيكون المراد بالمسؤول في الآية: إما مؤمني أهل الكتاب، وإما الرسل السابقين ليلة المعراج، والأول أرجح.

قال قتادة في معنى الآية: سل أهل التوراة والإنجيل: هل جاءت الرسل إلا بالتوحيد؟[2].

هذا: وليس المقصود من الآية حقيقة السؤال، إذ ليس من الممكن سؤال من مضى على موتهم وقت طويل، وإنما المراد تقرير وتأكيد ما بعد السؤال، وهو أن الرسل لم يأتوا إلا بالتوحيد، فإن أريد سؤال الرسل في ليلة العروج حين أحياهم الله تعالى له ليصلى بهم إمامًا، فيراد بالسؤال حينئذٍ حقيقته، إذ لا مانع منه، والغرض منه أيضًا تقرير وتأكيد التوحيد وعدم الشرك بالله تعالى.

---

(١) وعلى هذا أكثر الروايات عن ابن عباس، وقال به مجاهد وقتادة والضحاك والسدي والحسن ومقاتل، يُنظَر: «تفسير الخازن» (٤/ ١٠٧) و«تفسير ابن عطية» (٥/ ٥٧) وابن كثير (٧/ ٢٣٠).

(٢) «تفسير الطبري» (٢٠/ ٦٠٥) و«مصنف عبد الرزاق» (١٠٢١٠) وتفسيره (٢/ ١٩٧).

ثَالِثًا: قِصَّةُ مُوسَى مَعَ فِرْعَوْنَ

٤٦- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾﴾

سيقت هذه السورة إطفاءً لفتنة الثراء والجبروت، فقد جاء موسى يطلب من فرعون أن يؤمن بالله، ويكف عن ظلمه للمستضعفين، ولما فرغت سورة الزخرف من بيان حال الرسول ﷺ مع قومه، وذكرتْ حال إبراهيم ﷺ مع قومه -أتبعت ذلك ببيان حال موسى ﷺ مع طغاة قومه واستهزائهم به، وهذا تفصيل لمجمل قول الله تعالى في أول السورة: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾﴾ .

والمعنى: والله لقد أرسلنا موسى بالمعجزات التسع، والآيات الباهرات، والحجج البينات الدالة على صدقه ﷺ، كالعصا واليد، أرسلناه ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ﴾ وهم أشراف قومه من الأمراء والوزراء، والقادة والأتباع، والرعايا من المصريين وبني إسرائيل، يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وينهاهم عن عبادة ما سواه، أرسلنا موسى إلى قومه، كما أرسلناك يا نبيَّ الله إلى العالمين ﴿فَقَالَ﴾ لهم موسى: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أرسلني ربي لأدعوكم إلى عبادة الواحد القهار، وأخلِّص بني إسرائيل من ظلم فرعون واستعباده لهم.

اسْتِخْفَافُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ بِمَا جَاءَ بِهِ مُوسَى مِنْ مُعْجِزَاتٍ

٤٧- ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم﴾ موسى ﷺ ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على صدقه في دعوته: كالطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم، ونقص الزروع والأنفس والثمرات، إذا بفرعون وقومه يسخرون ويستهزئون بالآيات التي جاء بها ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ ليوهموا أتباعهم أن هذه الآيات سحر وأنهم قادرون عليها، فردوها وأنكروها واستهزؤوا بها ظلمًا وعُلوًّا وليس عن قصور في الآيات أو عدم وضوح لها، كما فعلَتْ قريش مع النبي ﷺ وصحبه.

ومع أن موسى جاءهم بآيات كبيرة عظيمة، إلا أنهم كانوا يستخِفُّون بها مكابرة وعنادًا. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [المطففين] قال تعالى:

٤٨- ﴿وَمَا نُرِيهِم[١] مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾

أي: وما نُري فرعون وملأه من حجة ومعجزة، إلا وهي أعظم من التي قبلها، وأوضح وأدل على صدق ما يدعوهم إليه موسى، تكاد هذه الآية من جلالها تُنسيهم الآية التي قبلها.

وكان من ضمن هذه الآيات، ألوان من العذاب الدنيوي، كالقحط والقُمَّل والضفادع، والجراد ووجود الدم في الماء عقوبة لهم ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ أي: عاقبناهم بأنواع العذاب الشديد ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن كفرهم وشركهم بالله تعالى إلى توحيده وطاعته.

وعن هذا العذاب الذي أخذهم الله به يقول سبحانه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف].

ويقول أيضًا: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأعراف].

وفي هذا تعريض بالمكذبين بالنبي الخاتم لئلا يصيب هذه الأمة ما أصاب أسلافهم.

فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ يَطْلُبُونَ مِنْ مُوسَى رَفْعَ الْعَذَابِ عَنْهُمْ

٤٩- ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ[٢] ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾

أي: لما أخذ الله فرعون وقومه بالعذاب على يد موسى ﷺ سألوه أن يدعو الله لهم أن يكشف العذاب عنهم، وكانوا يحترمون الساحر ويسمونه عالما، كما جاء في قول الله تعالى على لسانهم: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الشعراء].

ويجوز أن يكون قولهم هذا من باب التهكم بموسى. عليه السلام

وكان السحر بأيدي الكهنة، ومن مظاهره تحنيط الموتى لسلامة الجثث من التعفُّن، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ أي: قال فرعون وملؤه لموسى: يا أيها العالم، قالوا ذلك تعظيمًا وتزلُّفًا له، وكان الساحر فيهم عظيمًا موقَّرًا، ولم يكن السِّحر مذمومًا عندهم، قالوا لموسى: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أن دعوتك مستجابة، أن يكشف العذاب

---

(١) ضم يعقوب الهاء من (نريهُم)، وكسرها غيره.

(٢) قرأ ابن عامر بضم هاء (أيهُ الساحر) وصلًا، إتباعًا لضم الياء، والباقون بفتحها، ووقف عليها بالألف: أبو عمرو والكسائي ويعقوب، ووقف غيرهم بالسكون وحذف الألف إتباعًا للرسم.

عمن اهتدى، فقد خصَّك الله بالنبوة والرسالة.

فالعهد يفسَّر: بإجابة الدعاء، أو بكشف العذاب، أو بمنصب النبوة، ولا تضارب بينها، فموسى نبي مجاب الدعاء، وبدعائه يكشف الله العذاب عمن اهتدى، ولهذا قالوا: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ أي: إن كشفت عنا العذاب فإننا سنهتدي ونؤمن بما جئت به.

أو يكون المعنى: أنهم كانوا يزعمون أنهم على هدى.

ومن سوء أدبهم أنهم قالوا: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ كأنه سبحانه ليس ربًّا لهم. قال تعالى:

٥٠- ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾

أي: فدعا موسى ربه، فكشف الله عنهم العذاب، ولكنهم لم يؤمنوا، فنقضوا عهدهم واستمروا على كفرهم ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ الذي حلَّ بهم بدعوة موسى ربه أن يرفع عنهم العذاب، فرفعه الله عنهم ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ ينقضون عهدهم، فيغدرُون ويستمرون، ويُصرُّون على كفرهم وضلالهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف].

فِرْعَوْنُ يُعَظِّمُ نَفْسَهُ

وبعد أن كشف الله عنهم العذاب بدعوة موسى عليه السلام، خشي فرعون على قومه أن يتأثروا بموسى، فيتبعوه ويؤمنوا برسالته، وخشي أن ينتشر دينه بين عامة الناس إن كشف الله عنهم العذاب بسبب دعوة موسى عليه السلام، ولذلك فإن فرعون أمر مناديًا ينادي في الناس يذكِّرهم بعظمة نفسه ليثبِّتهم على طاعته، ويستمروا في ولائهم له. قال تعالى:

٥١- ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ[1] أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾

أي: جمع فرعون عظماء قومه وأعلن فيهم متبجحًا ومفتخرًا ﴿قَالَ﴾ مستعليًا بباطله، قد غرّه ملكه، وأطغاه ماله وجنوده: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ﴾ مهد الحضارات ومجرى

(١) فتح الياء من (تحتيَ) في حالة الوصل: نافع والبزي وأبو عمرو وأبو جعفر، وسكَّنها غيرهم.

النيل العظيم، لا ينازعني فيه منازع، ولا يخالفني فيه مخالف، ألستُ المالك لها المتصرف فيها؟ وفضلًا عن ذلك فإن أنهار مصر وخُلْجانها المتفرعة من نهر النيل تجري بأمري تحت قدميَّ، وتحت قصوري ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾؟ ومنها فرع دمياط، وفرع رشيد اللذان يُعرفان بالدلتا، وفرع تنيس، وترعة الإسماعيلية، والريَّاح، وغيرها، وهذا النيل يجري في مملكته من أسوان إلى البحر الأحمر ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ عظمتي وقوتي وسعة ملكي، وسلطاني، وضعفَ موسى وفقره؟ ورتَّب فرعون على ذلك أنه ربهم الأعلى، فجمع الناس وأعلن فيهم ذلك ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات]. كما ادَّعى لنفسه الإلهية، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

إن مُلْك مصر وما فيها من أنهار لا يساوي هباءة في مُلْك الله الواسع، ومثْل فرعون لا يعقل هذا المعنى، فإن هذا الفكر يحتاج إلى قلوب عامرة بالإيمان، لتعقد الموازنة بين ملكوت الله في العالمين العلوي والسفلي، وبين ملك مصر الصغير الزهيد الذي يزول بزوال ملكه!

وقد افتخر فرعون بأمر خارج عن ذاته، ولم يفتخر بأفعال حميدة ولا صفات سديدة.

أخرج ابن أبي حاتم عن الأسود بن يزيد قال: قلت لعائشة: ألا تعجبين من رجل من الطلقاء ينازع أصحاب محمد ﷺ في الخلافة؟ قالت: وما تَعْجَبُ من ذلك؟ هو سلطان الله يؤتيه البر والفاجر، وقد ملك فرعون أهل مصر أربع مئة سنة.

وفرعون الذي بُعث موسى في زمنه هو **منفتاح الثاني** بن **رمسيس الثاني** الذي وُلد موسى في أيامه وتربَّى عنده.

فِرْعَوْنُ يَنْتَقِصُ مِنْ شَأْنِ مُوسَى عليه السلام

انتقل فرعون من تعظيم نفسه، إلى التنقيص من شأن موسى ﷺ في نفوس القوم، ليُظهر الفرق في نظره بينه وبين موسى الذي يحقِّر دين فرعون وعبادة قومه له، فقال:

٥٢- ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ[١] وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾

أي: قال فرعون: بل أنا خير من هذا الذي لا عزَّ له، فهو يمتهن نفسه في قضاء حاجاته بنفسه لضعفه وحقارته، وهو لا جاه له ولا سلطان، ولا مال له ولا سطوة، يعني بذلك موسى عليه السلام، فهو يقول: أنا العزيز وهو الذليل، فأنا خير منه.

فالْمَهين: هو الذليل الضعيف، أراد أنه غريب في أرض مصر، وليس له أهل يعتز بهم.

ثم ذكَّر فرعون الناس بأمر قديم كان قد عرفه عن موسى في الصغر، وهو في بيت فرعون، ويريد بذلك التنقيص من شأن موسى في أعين الناس فقال: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أي: لا يكاد يُظهر كلامه، أو يُفصح عن مراده، وذلك لعُقْدة كانت في لسانه.

ولم يعْلم فرعون أن الله تعالى قد أذهب عن موسى هذه العُقدة حين دعا ربه قائلًا: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾ [طه]

فأجاب الله دعاءه بقوله سبحانه: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦].

قال سفيان: كان في لسانه شيء من الجمرة التي وضعها في فيه وهو صغير.

والذي حمل فرعون على وصف موسى عليه السلام بهذين الوصفين -هو الكفر والعناد، والصد عن سبيل الله بالترويج على رعيته، لينصرفوا عن موسى ودعوته.

شُبْهَتَانِ لِفِرْعَوْنَ يَنْفِي بِهِمَا رِسَالَةَ مُوسَى عليه السلام

الشُّبْهَةُ الْأُولَى: أَنَّ مُوسَى يَفْتَقِدُ شِعَارَ الْمُلُوكِ فِي زَعْمِهِ

٥٣- ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ[٢] مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾

وكان شعار ملوك فارس ومصر والفراعنة أن يُقلَّد الملِك بسوارين على الرسْغيْن، وسوارين على العضُديْن، ويُطوَّق بطوق من ذهب.

قال مجاهد: كانوا إذا أرادوا أن يجعلوا رَجُلًا رئيسًا عليهم سوَّرُوه بسوارَيْن، وطوَّقوه

(١) ترك الشامي والكوفي (هو مهين) من العدد، وعدها آية غيرهما من أئمة عد آي القرآن.

(٢) قرأ حفص ويعقوب (أَسْوِرَة) جمع سوار، وقرأ الباقون (أَسَاوِرَ) فيكون جمعاً للجمع.

بطوق من ذهب علامة لسيادته[١].

وقد تخيل فرعون أن رتبة الرسالة كرتبة الملوك، وحيث إن موسى عليه السلام يفتقد شعار الملوك المعروف لديهم، فإن الرسالة تنتفي عنه في زعمهم، ولذا قال فرعون: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ أي: هلَّا أُلقي على موسى -إن كان صادقًا أنه رسول رب العالمين- أسورة من ذهب، وفرعون لا يعلم أن الذهب حلية النساء، إن الرجولة شيء، والأساور والقلادات شيء آخر!! وهذا يشبه قول أبي جهل عن النبيِّ ﷺ: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾.

الشُّبْهَةُ الثَّانِيَةُ: عَدَمُ تَصْدِيقِ الْمَلائِكَةِ لِمُوسَى -كَمَا يَزْعُمُ فِرْعَوْن-

ثم اعترض فرعون وقومه على موسى عليه السلام، بما اعترض به المشركون على محمد ﷺ في زعمهم أن الرسول لا يكون بشرًا، وإذا كان الرسول من البشر فإنه يحتاج إلى صحبة ملَك يصدقه في دعواه، فقالوا في اعتراضهم الثاني: ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ أي: هلَّا جاء معه بملائكة اقترن بعضهم ببعض، فتتابعوا يشهدون له بأنه رسول الله إلينا؟ فأوْهَم فرعون قومه أن الرسل لابد أن يكونوا على هيئة الملوك ومحفوفين بالملائكة.

قال أبو حيَّان: لَمَّا وصف فرعون نفسه بالعزة والمُلك، ووازن بينه وبين موسى عليه السلام، ووصفه بالضَّعف وقلَّة الأعوان، اعترض عليه فقال: إن كان صادقًا فهلَّا ملَّكه ربه وسوَّره، وجعل الملائكة أنصاره؟[٢].

أَسْرَى الِاسْتِعْبَادِ الطَّوِيلِ يَجْنُونَ ثَمَرَةَ ضَعْفِهِمْ وَخُنُوعِهِمْ

٥٤- ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾

ولما أن كان القوم متهيئين لاتِّباع موسى لِمَا رَأَوْهُ من الآيات، أثَّر فرعون بكلامه عليهم، واستخف عقولهم، فأسرعوا إلى تصديق رأس الكفر؛ لأنهم كانوا يؤلهون فرعون، وبعد أن حصل لهم تردُّد في شأن بعثة موسى عليه السلام، لم يلبثوا أن رجعوا إلى طاعة فرعون بأدنى سبب، لقرب عهدهم بالكفر، ذلكم قول الله تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾ أي:

(١) «تفسير القرطبي» (١٦/ ١٠٠) والخازن (٤/ ١٠٨) وبحاشيته النسفي.

(٢) «البحر المحيط» (٨/ ٢٢).

استخف فرعون عقول قومه بما أبدى لهم من شُبَه لا حقيقة لها ولا دليل عليها، ولا تروج إلا على ضعفاء العقول لجهلهم، وطلب منهم سرعة الاستجابة لِمَا دعاهم إليه من الضلال ﴿فَأَطَاعُوهُۚ﴾ وكذَّبوا موسى ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ خارجين عن طاعة الله وعن صراطه المستقيم، وبسبب فسقهم سلط الله عليهم فرعون وجنوده، يزينون لهم الشرك والشرور.

مَصِيرُ الظَّلَمَةِ

٥٥، ٥٦- ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا[١] وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾

بيَّن سبحانه أن المقصود من قصة موسى مع فرعون: هو بيان ما لَحِق بفرعون وقومه من سوء العاقبة ليعتبر بها المكذِّبون بالقرآن وبرسول الإسلام ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أي: أسخطونا وأغضبونا وعصوْنا بكفران النعمة وعصيان ربهم المنعِم عليهم ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: لَمَّا أفرطوا في المعاصي استوجبوا أن يعجِّل الله لهم العذاب في الدنيا بانتقامه منهم، فأهلكهم الله بجنس ما تكبَّر به فرعون، فكل من تعزَّز بشيء أهلكه الله به، وقد تكبَّر فرعون بأن أنهار مصر تجري من تحت قصوره، فأهلكه الله وقومه بالغرق في البحر ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ولم نُبق منهم أحدًا.

عن عقبة بن عامر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا رأيت الله ﷻ يعطي العبد ما شاء، وهو مقيم على معاصيه -فإنما ذلك استدراج له**»، ثم تلا: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ [الأنعام][٢].

وعن طارق بن شهاب قال: كنت عند عبد الله، فذُكر عنده موت الفجأة، فقال: تخفيف على المؤمنين، وحسرة على الكافرين، ثم قرأ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾[٣].

---

(١) قرأ حمزة والكسائي بضم السين واللام من (سُلُفًا) جمع سلف والباقون بفتحهما، اسم جمع سالف، أو مصدر يطلق على الجماعة، من سلف الرجل آباءه المتقدمين.

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» برقم (٩٢٦٨) ورواه أحمد عن رشدين بن سعد في «المسند» (٤/ ١٤٥) (١٧٣١١) حديث حسن في إسناده رشدين بن سعد، وباقي رجاله ثقات، (محققوه) والبيهقي في «الشعب» (٤٥٤٠). والطبري في التفسير (٧/ ١٩٥).

(٣) أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم كما في «الدر» (١٣/ ٢١٨).

لقد خرج موسى ببني إسرائيل من مصر، وطارده فرعون وقومه، واستنفر في مطاردته لموسى مَن هم فوق العشرين ودون الأربعين من الشباب، لقد استخفَّ عقولهم[١] لَمَّا وجدهم لا يردُّون له أمرًا، ولا يرفضون له طلبًا، فأطاعوه ولحقوا بموسى وبني إسرائيل، حتى بلغوا البحر الأحمر.

وعبَر بنو إسرائيل البحر يقودهم موسى عليه السلام، ولما أراد فرعون أن يعبُر البحر خلْفه، أطبق الله البحر عليه هو وقومه، فلما أحس بالغرق ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

وردَّ الله عليه إيمانه الذي جاء في وقت الغرغرة، إذ ليس فيه اعتراف صريح برب الأرض والسماء، فهو لم يعترف مباشرة بأن له إلهًا، وإنما هو يؤمن بإله بني إسرائيل، قال الله تعالى له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: ٩١، ٩٢].

ولفظَتْ أمواج البحر جثة الملك السابق، ورأى الناس على شاطىء البحر جثة مكسُوَّةً بالوحل، وفمًا مليئًا بالطين!!

لقد اختفت الألوهية المزوَّرة، واختفت أساور الذهب من معصِميْ فرعون إلى الأبد!!

وأخبرنا رب العالمين عن مصيره وهو في البرزخ في قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦].

كما أخبرنا سبحانه عن مصيره في الآخرة، فقال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

وهكذا مصير كل الفراعنة والظلمة والطغاة في كل زمان ومكان!!

وقد بيَّن سبحانه أنه قد جعل فرعون وقومه عبرة وعظة لمن يأتي بعدهم ممن كذَّب بالرسول الخاتم ﷺ ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ أي: جعلنا فرعون وقومه الذين أغرقناهم في البحر الأحمر ﴿سَلَفًا﴾ لمن يأتي بعدهم ممن يعمل عملهم، فيكذِّب رسل الله، ولم يتوجَّه

(١) ذكر ذلك ابن عبد الحكم في «فتوح مصر» عن عكرمة ص ٢٣ .

بالعبادة لله وحده، وجعلناهم عبرة لكل من يظلم ويطغى ويتجبر، وجعلناهم ﴿سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ أي: جعلنا المتقدمين عبرة للمتأخرين في استحقاق العذاب لمن كذَّب برسالة محمد ﷺ، وهي قصة عظيمة تجري مجرى المثل.

جَدَلٌ حَوْلَ مَصِيرِ عِيسَى عليه السلام فِي الآخِرَةِ

٥٧- ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ[1] ﴿٥٧﴾﴾

عطف سبحانه على قصة موسى طرفًا من قصة عيسى عليه السلام، وهذا الجانب من قصتي موسى وعيسى لم يُذكر إلا في هذه السورة.

ولما نزل قول الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ [الأنبياء: ٩٨، ٩٩].

ولما كان النصارى يزعمون بأن عيسى إله، فقد أثار هذا لغطًا وجدلًا، إذ كيف يكون عيسى إلهًا أو ابنًا للإله، على حدِّ زعمهم، ثم يكون مصيره النار؟! وبدَهي أن الآية تتعلق بالأصنام التي تُعبد من دون الله، بدليل أن (ما) في ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ لغير العاقل، على أن عيسى لا دخل له في جهل الجاهلين وغُلُوِّ المغالين، كما أن الآية بعدها ردَّت على هذا اللغو: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء].

وبهذا المعنى حدث جدال بين عبد الله بن الزِّبعْرى والنبي ﷺ، والذي عليه أكثر المفسرين أن سبب نزول هذه الآية هو الإشارة إلى ما جاء في سورة الأنبياء ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [آية: ٩٨] حيث قال عبد الله بن الزِّبعْرى قبل إسلامه للنبي ﷺ: أخاصة لنا هذه الآية ولآلهتنا، أم لجميع الأمم؟ فقال ﷺ: «**هي لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم**»، قال: خصمتُك ورب الكعبة، ألست تزعم أن عيسى ابن مريم نبي، وقد عبدَتْه النصارى، فإن كان عيسى في النار، فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه، ففرح بكلامه من حضر من المشركين، وضجَّ أهل مكة بذلك، فنزلت آية الأنبياء، ونزلت هذه الآية.

ويزيدُ بعضهم في كلام ابن الزِّبعْرى: وقد عَبدتْ بنو مُلَيْح الملائكة، فإن كان عيسى

---

(١) قرأ نافع وابن عامر والكسائي وأبو جعفر وخلف بضم الصاد من (يصُدون)، والباقون بكسرها.

والملائكة في النار فقد رضينا.

وهكذا لما قال ابن الزِّبعرى: إن كان عيسى وعزير والملائكة في النار فقد رضينا أن نكون معهم نحن وآلهتنا، سكت النبي ﷺ انتظارًا للوحي، فظنوا أنه أُلزم الحجة، فضحك المشركون وضجوا وارتفعت أصواتهم، فنزلت آية سورة الأنبياء.

ولو تأمل ابن الزِّبعرى الآية ما اعترض عليها؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ ولم يقل: وَمن تَعْبُدُونَ!! و﴿مَآ﴾ لغير العاقل من الأصنام ونحوها، وليس الملائكة ولا المسيح، ولذلك فإن النبي ﷺ قال لابن الزِّبعرى: «**ما أجهلك بلغة قومك؟ أما فهمت أن ﴿مَآ﴾ لما لا يعقل**»[1]؟

والمراد بالمثَل: الحجة التي تجري مجرى المثَل، والصد هو الضجيج.

والذي جعل عيسى مثلًا للمجادلة هو ابن الزِّبعرى، ولما أجابهم النبي ﷺ بأن الآية لجميع الأمم، إنما عَنَى المعبودات التي هي من جنس الأصنام، وهي لا تفقه ولا تتصف بذكاء، بخلاف الصالحين الذين شهد لهم القرآن برفعة الدرجة قبل هذه الآية وبعدها، إذ لا لبْس في ذلك، فلا يخفى أن عيسى وأمثاله ليسوا حصب جهنم، والقول بأن سورة الزخرف نزلت قبل سورة الأنبياء ليس محل اتفاق، ولا هو محقق السند[2].

ومعنى الآية: ولما ضَرب المشركون عيسى ابن مريم مثلًا لعبادة الأصنام والأنداد، حيث نَهى الله عن عبادته، وجعل عبادته بمنزلة عبادة الأوثان، وذلك حين خاصم ابن الزِّبعرى وغيره النبي ﷺ وحاجُّوه بعبادة النصارى للمسيح، وعبادة اليهود لعزير، وعبادة بني مُلَيح للملائكة، حينئذ فاجأك -يا محمد- كفار قريش بسبب هذه المحاجة بارتفاع الأصوات بالصياح والضجيج والضحك فرحًا وسرورًا، ويزعمون أنهم قد غلبوا في حجتهم.

وقال المشركون: رضينا أن تكون آلهتنا بمنزلة عيسى وعزير والملائكة، فأنزل الله قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء].

فبيَّنت الآية أن الذي يُلقى في النار من آلهة المشركين هي الأصنام المشار إليها بـ﴿مَآ﴾

---

(١) ينظر: أسنى المطالب (١٢٢٥) ج١ ص ٢٤٢.

(٢) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٢٤/ ٢٣٦).

التي لغير العاقل، وليس الملائكة والمسيح، كما يدخل النار من رضي بعبادتهم من دون الله، والذين سبقت لهم من الله الحسنى قبل وبعد هذه الآية لم يرضوْا بعبادتهم لهم، بل ولا يعرفون عنها شيئًا، **وقد ورد في هذه الآية أحاديث، منها:**

(أ) أخرج الإمام أحمد وغيره بسنده عن ابن عباس ﵄ قال: لقد علمتُ آية من القرآن ما سألني عنها رجل قط، فما أدري أعَلِمها الناس فلم يَسألوا عنها، أم لم يَفْطنوا لها فيسألوا عنها؟ ثم طفق يحدثنا، فلما قام، تَلاَومْنا ألا نكون سألناه عنها، فقلتُ: أنا لها إذا راح غدًا -والقائل هو أبو يحيى، مولى ابن عقيل الأنصاري- فلما راح الغد، قلت: يابن عباس، ذكرْتَ أمس أن آية من القرآن لم يسألك عنها رجل قطُّ، فلا تدري أعَلِمها الناس فلم يسألوا عنها، أم لم يَفْطِنُوا لها، فقلت: أخبرني عنها، وعن اللاتي قرأت قبلها، قال: نعم، إن رسول الله ﷺ قال لقريش: **«يا معشر قريش، إنه ليس أحد يُعبد من دون الله فيه خيرٌ»** وقد علمتْ قريش أن النصارى تعبدُ عيسى ابن مريم، وما تقول في محمد، فقالوا: يا محمد، ألسْتَ تزعم أن عيسى كان نبيًّا وعبْدًا من عباد الله صالحًا، فلئن كنتَ صادقًا، فإن آلهتهم لَكَما تقولون، قال: فأنزل الله ﷻ: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧﴾ قال: قلت: ما يصدون؟ قال: يضجُّون ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [٦١]. قال: **«خروج عيسى ابن مريم ﵇ قبل القيامة»**[1].

(ب) وذكر ابن إسحاق في السيرة قال: جلس رسول الله ﷺ -فيما بلغني- يومًا مع الوليد بن المغيرة في المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ فعرض له النضر بن الحارث، فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨﴾[الأنبياء: ٩٨].

---

(١) يُنظَر: «المسند» بتصحيح أحمد شاكر (٣٢٨/٤) (٢٩٢١) وحسن إسناده محققوه برقم (٢٩١٨) ورجاله ثقات رجال الصحيح غير عاصم بن أبي النجود فقد روى له أصحاب السنن، وابن حبَّان برقم (٦٨١٧) والطبراني في «الكبير» برقم (١٢٧٤٠) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (١٠٤/٧) فيه عاصم بن بهدلة وثَّقه أحمد وغيره وبقية رجاله رجال الصحيح، وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤٤٨/٢) وصححه السيوطي في «أسباب النزول» ص ١٨٩ .

ثم قام رسول الله ﷺ وأقبل عبد الله بن الزِّبعرى التميمي حتى جلس، فقال له الوليد ابن المغيرة: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد، وقد زعم محمدا أنَّا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبد الله بن الزِّبعرى: أما والله لو وجدتُه لخصمْتُه، سَلُوا محمدًا: أكُلُّ ما يُعبد من دون الله في جهنم مع مَن عَبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيرًا، والنصارى تعبد المسيح ابن مريم، فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزِّبعرى، ورأوْا أنه قد احتجَّ وخاصم، فذُكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: **«كلُّ مَنْ أحبَّ أن يُعبد من دون الله فهو مع من عَبَدَهُ، فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته»** فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١] أي: عيسى وعُزير ومن عُبد معهما من الأحبار والرهبان الذين مضوْا على طاعة الله، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أربابًا من دون الله.

ونزل فيما يذكرُون أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بنات الله قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦].

ونزل فيما يُذكر من أمر عيسى وأنه يُعْبَد من دون الله، وتعجُّب الوليد ومَنْ حضره من حُجته وخصومته نزل قوله تعالى: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾[1].

(ج) وأخرج الطبري بسند حسن عن السُّدِّي في ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ﴾ الآية [٥٨] قال: خاصموه فقالوا: يزعم أن كل من عُبد من دون الله في النار، فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى وعزير والملائكة، هؤلاء قد عُبدوا من دون الله، فأنزل الله تعالى براءة عيسى ؇.

(د) وعن ابن عباس ﷺ أن المشركين لما سمعوا من النبي ﷺ بيان ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ﴾ [آل عمران: ٥٩] وليس خَلْقهُ من دون أب بأعجب من خلْق آدم من دون أب ولا أم، قالوا: نحن أهدى من النصارى؛ لأنهم عبدُوا آدميًا، ونحن عبدنا الملائكة، فنزل: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾[2]. قال تعالى:

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٥٨).

(٢) «تفسير ابن عطية» (٥/ ٦٠) وهو ضمن رواية ابن إسحاق السابقة في «سيرة ابن هشام» (١/ ٣٥٨).

٥٨- ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا[١] خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨﴾

أي: قال المشركون للنبي ﷺ: آآلهتنا التي نعبدها خير أم عيسى الذي يعبده قومه؟ قالوا ذلك على سبيل الجدل من أجل الوصول إلى باطلهم، فإذا كان عيسى في النار فنحن نقبل أن نكون معه نحن وآلهتنا.

وإذا تقرر عندنا وعندك - أيها الرسول - أن عيسى من عباد الله المقربين الذين لهم العاقبة الحسنة، فلِمَ سوَّيْت بينه وبين الأصنام في النهي عن عبادة الجميع؟ فلولا أن حجتك باطلة ما حدث هذا التناقض، ولِمَ قلت: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]. وهذا لفظ يعم الأصنام وعيسى - في زعمهم -.

والجواب: أن الإسلام قد نهى عن كل ما يعبد من دون الله، عيسى وغيره، وعيسى عبدا أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة، وقد جعله الله مثلا لبني إسرائيل يعرفون به قدرة الله تعالى على خلْق مولود من غير أب.

ثم إن (ما) من ﴿وَمَا تَعۡبُدُونَ﴾ لغير العاقل، فلا يدخل فيها عيسى، مع أن الخطاب في آية سورة الأنبياء للمشركين في مكة، وقد كانوا يعبدون أصنامًا ولا يعبدون عيسى عليه السلام. وكذلك فإن عيسى وغيره من الأنبياء والأولياء داخلون في ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١] وبهذا فإن الشبه التي أوردوها شبه واهية قد تم دحضها.[٢]

ثم أبطل الله قولهم وكشف عن مكنون صدورهم، فقال سبحانه: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ﴾ أي: ما قالوا هذا القول في شأن عيسى ﷺ إلا على وجه الجدل والمكابرة وليس لطلب الحق، فلا تهتم بأمرهم، فهم قوم شديدو الخصومة واللجاج بالباطل، وهذا معنى ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ أي: يقصدون الغلبة في المناظرة، سواء أكانت بحق أم بباطل، فوضْع عيسى عليه السلام لا يخفى عليهم، وهم يعرفون أنه ليس من حطب جهنم ولكنهم قوم مغالطون، يجادلون بالباطل مع ظهور الحق.

---

(١) اجتمع في آآلهتنا ثلاث همزات، فسهَّل الثانية نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ورويس، واتفقوا على إثبات الأولى محققة، وإبدال الثالثة ألفًا، ولورش ثلاثة وجوه المد في البدل.

(٢) ينظر: كلام الشيخ ابن سعدي في تفسيره لهذه الآية.

عن أبي أمامة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ما ضلَّ قوم بعد هُدًى كانوا عليه، إلا أُورثوا الجدل، ثم تلا: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾»**[1].

وعنه ﷺ أن رسول الله ﷺ خرج على الناس وهم يتنازعون في القرآن، فغضب غضبًا شديدًا حتى كأنما صُبَّ على وجهه الخلُّ، ثم قال: **«لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، فإنه ما ضلَّ قوم إلا أُتوا الجدل»** ثم تلا الآية[2].

عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ

٥٩- ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾

قرر الله سبحانه في هذه الآية عبودية عيسى لله ﷻ، ردًّا على النصارى الذين ادَّعوْا إلهيَّته وعبدُوه، فهو عبْد وليس بإله، والعبودية تنافي الإلهية، وقد فضله الله بالنبوة والرسالة كسائر الأنبياء، فقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: ما عيسى إلا عبد من عباد الله، وليس بإله، ولا ابن للإله، كما زعم النصارى، وقد أنعمنا عليه بالنبوة، وشرفناه بالرسالة، فقد خلق الله عيسى من غير أب، وأيده بالمعجزات الباهرات كإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: جعلنا ولادته من غير أب، آية وعبرة يُستدل بها على قدرة الله تعالى في خلق المولود من غير أب، وفي هذا رفع لمنزلة عيسى ﷺ وتحديد منزلته، ونفْي الغلو فيه، أو التنقيص منه.

وفي الآية إبطال لمن ألَّه عيسى، بزعمه أنه جزء من الله تعالى؛ لأنه خُلق بكلمة الله.

ولما كان بنو إسرائيل قد ضعُف إيمانهم بالغيب، وطال عهدهم بالرسل، بعث الله إليهم عيسى مجدِّدًا لإيمانهم، مؤيَّدًا بالمعجزات من عند الله، فناصبوه العداء، وسعوْا للتنكيل به وقتله، فعصمه الله منهم، ورفَعَه من بينهم.

---

(١) «المسند» (٥/ ٢٥٦) (٢٢١٦٤، ٢٢٢٠٤) والترمذي برقم (٣٣٥٣) وهو حديث حسن بطرقه وشواهده كما قال محققوه، وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة ١٠١ والطبراني (٨٠٦٧) وهو عند البيهقي في الشعب (٨٤٣٨)، وقال: حديث حسن غريب صحيح، وابن ماجه برقم (٤٨) و«صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ١٥) و«تفسير الطبري» (٢٥/ ٥٣) و«المستدرك» (٢/ ٤٤٧). وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٢) «تفسير الطبري» (٢٥/ ٥٣).

وفي تخصيص بني إسرائيل بالذكر إشارة إلى أن عيسى عليه السلام لم يُبعث إلا لبني إسرائيل، وأنه لم يدْعُ غير بني إسرائيل إلى اتباع دينه، ومن اتبعه من غيرهم كان تقليدًا لدعوته؛ لأنها أنقذته من ظلمات الشرك والوثنية[١].

الْمَلَائِكَةُ مَسْكَنُهُمْ السَّمَوَاتُ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَسْكَنَهُمْ الْأَرْضَ

٦٠- ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِي ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾

ولما أبطل سبحانه زعم النصارى في عيسى، أبطل زعم المشركين في أن الرسل يكونون من الملائكة، فبيَّن أنهم عباد لله، جعلهم الله في العالم العلوي، كما جعل بني آدم في العالم السفلي، ولو شاء سبحانه لعكس الأمر، فجعل الملائكة في الأرض، كي يرسل إليهم ملائكة من جنسهم، أما أنتم - يا معشر البشر - فلا تطيقون رؤية الملائكة، ومن رحمته بكم أن أرسل لكم رسلًا من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والتلَقيّ عنهم، وكذلك فإن سكْنى الملائكة في العالم العلوي لا يدل على بنوَّتهم لله تعالى، كما أن تميُّز عيسى ﷺ بخلْقه بكلمة: كُنْ، لا تقتضي أن يكون إلهًا أو جزءًا من الإله، أو ابنًا له!!

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم﴾. يصح أن تكون مِنْ للبدلية، أي: لو أردنا لجعلنا بدلًا منكم ملائكة يسكنون الأرض فيعمرونها، ويكونون خلَفًا عنكم فيها، يخلُف بعضهم بعضًا فيها بعد أن نُهلككم.

ويصح أن تكون مِنْ للتبعيض، بمعنى: لو أردنا لجعلنا منكم يا رجال، ملائكة عن طريق التوالد، من غير واسطة نساء، فهذا أمر هيِّن على الله تعالى، مع أنه أعجب من ولادة عيسى عليه السلام بدون أب، فقدرة الله تعالى لا يعجزها شيء، وهو سبحانه قادر أن يأتي بأعجب مما تتعجبون منه[٢].

بيَّن جلَّ شأنه موقف بني إسرائيل من دعوته، فقال تعالى:

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: ولما أرسل الله عيسى إلى بني إسرائيل وأيده بالمعجزات الواضحة الدالة على صدق رسالته كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله، ﴿قَالَ﴾ لهم عيسى ناصحًا ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ وهي النبوة والرسالة، وما تحمله من تكاليف وتشريعات ومواعظ، وكانت أصول دعوته ومبادئها متفقة مع عقائدهم التي ورثوها عن التوراة، وكانت مهمة عيسى أن يبيِّن لهم المختلَف فيه، ويُحلَّ لهم بعض ما حُرِّم عليهم بسبب ظلمهم ومعاصيهم، ولذا فإن عيسى عليه السلام قال لهم: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وقوله: ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ إشارة إلى أنه يبيِّن لهم بعض ما يختلفون فيه من أمور الدين، وليس الكُلَّ، فيصححها ويوضحها لهم كما جاء بها الإنجيل مما اختلفت فيه أفهام اليهود من أحكام التوراة، كما جاء على لسانه في قوله تعالى: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٥٠]. فأوضح لكم صوابه وجوابه، فيزول عنكم اللبس، فقد جاء عيسى مكملا ومتمما لشريعة موسى، ولأحكام التوراة.

وكان عيسى ﷺ قد أُرسل إلى قوم موحدين، ولكن ظهر الشرك في فرقة منهم قالوا: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

ولذلك فقد كان البند الأول في دعوته لهم هو التوحيد، وإخلاص الطاعة والعبادة لله وحده ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وصُونوا أنفسكم عن كل ما يُغضب الله تعالى، فتجتنبوا عذاب النار ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أمرتكم به من تقوى الله وطاعته، وما نهيتكم عنه من الذنوب والموبقات، واستقيموا على ذلك إلى الممات.

وقد علم الله سبحانه أن فريقًا من قوم عيسى سيُغالون فيه، ويزعمُون بُنُوَّته لله تعالى فجاء هذا الإعلان على لسان عيسى عليه السلام مقررًا عبوديته لله ﷻ:

٦٤- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾

أي: أنا مَرْبوبٌ لله تعالى، وأنا وأنتم عبيد الله، فقراء إليه، مشتركون في عبادته وحده، وما دام التوحيد ثابتًا لله تعالى، فيجب إفراده تعالى بالعبادة دون سواه، وإخلاص التوحيد والعبادة له ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ وحده، ولا تشركوا معه غيره، فإن هذا الذي

أمرتكم به من تقوى الله تعالى، وإفراده بالإلهية، هو الطريق الموصِّل إلى سعادة الدنيا والآخرة ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ﴾ أي: وهو دين الله الحق، الذي لا يُقبل من أحد سواه، وهو طريقه الموصل إلى جنة الله، وكرامته.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ [مريم: ٣٦]. وفي هذا إقرار بتوحيد الربوبية، بأن الله تعالى هو المربي لجميع خلقه بنعمه الظاهرة والباطنة، وفيه أيضًا إقرار بتوحيد العبادة بعبادته وحده لا شريك له، وفيه رد على النصارى، فهو يقول لهم: أنا عبد مربوب لله، ولست إلها ولا ابنًا للاله.

تَفَرُّقُ بَنِي إِسْرَائِيلَ شِيَعًا وَأَحْزَابًا

٦٥- ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ۝٦٥﴾

أي: فلما جاءهم عيسى بالبينات والمعجزات الباهرات، قابلوها بالتكذيب، وافترقوا في هذا التكذيب، وفي هذه الآية، بيان أن اليهود قد اختلفوا في كثير من شريعة موسى ﷺ، ولما جاء المسيح ﷺ وجدهم فرقًا وشِيَعًا، وأهم **فرق اليهود أربع**:

(أ) طائفة الصَّدُوقيِّين: نسبة إلى **صدُوق** الذي كانت ذريته تقوم على شؤون الهيكل منذ عهدي داود وسليمان، وكانت فرقة متشددة في العبادة، تُنكر البدع، وتترخص في الاستمتاع بالشهوات، ولا تعترف بيوم القيامة.

(ب) وطائفة الفريسيِّين: أهل الزهد والتصوف، وهم يعترفون بيوم القيامة، ويُنكرون على الصَّدُوقيِّين تشدُّدهم في العبادة وجحود البعث والنشور.

(ج) وطائفة السامريِّين: وهم خَليط من اليهود والآشوريين، وهؤلاء يدينون بالعهد القديم، ويُنكرون ما أضيف إليه في العهود المتأخرة.

(د) وطائفة الآسينيين: وهم يعيشون في عزلة عن بقية الطوائف، فيهم شدة وتقشف، ويتأثرون ببعض المذاهب الفلسفية.

وهناك نِحَل فردية كثيرة لا يزالون راضخين لذلِّ الرومان، ينتظرون الخلاصَ على يد

المخلِّص المنتظر[١].

ولما جاءهم عيسى اختلفوا، فمنهم من صدَّقه، وهم: يحيى وزكريا، ومريم أم عيسى، والحواريون الاثنا عشر، وبعض النساء، مثل: مريم المجدليَّة، ونفر قليل.

وكفر به جمهور اليهود وأحبارهم، وهمُّوا بقتْله وصلْبه حتى رفعه الله إليه، ثم انتشر الحواريُّون يدعون إلى شريعة عيسى ﷺ فاتَّبعهم أقوام في الشام واليونان، وبعد رفع عيسى ﷺ اختلفوا في أصول الديانة، فتفرقوا ثلاث فرق: فكان منهم مَنْ جعله إلهًا، ومنهم مَن قال: إنه ابن الله، ومنهم مَن قال: إن الإله مكون من ثلاثة، وهو ثالثهم، وضاعت كلمة التوحيد التي جاء بها عيسى، وضاعت دعوته بين الناس، وأهم **فرق النصارى ثلاث**:

(أ) **النسطورية**، وهم الذين قالوا: عيسى ابن الله.

(ب) **واليعقوبية**، وهم الذين قالوا: عيسى هو الله، أي: إن الله تعالى قد حلَّ فيه.

(ج) **والمَلْكانيَّة**، وهم الكاثوليك، الذين قالوا: عيسى ثالث ثلاثة: الأب، وهو الله، والابن وهو عيسى، والروح القدس وهو جبريل ﷺ.

وهذا الاختلاف حدث بعد وقت طويل من رفع عيسى ﷺ، وقد أفضى بهم هذا الاختلاف إلى أن صار أكثرهم مشركين.

ذلكم قول الله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ أي: اختلفوا في أمر عيسى، فمنهم مَن قال: إنه عبد الله ورسوله، وهو القول الحق، ومنهم من قال بالبنوَّة، ومنهم مَنْ ألَّهه، ومنهم مَن قال بالتثليث، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

ثم توعَّد الله سبحانه كل من أشرك بالله تعالى، ووصف عيسى بغير ما وصفه الله به، فقال سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ أي: هلاك ودمار وعذاب أليم لمن ظلموا أنفسهم بالشرك، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٧]. فما أشد حُزن الظالمين، وما أعظم خسرانهم؟

ثم بيَّن سبحانه أن هذا العذاب واقع بهم لا محالة في يوم قريب يأتيهم فجأة، فقال تعالى:

(١) يُنظَر: «عبقرية المسيح» عباس العقاد.

٦٦- ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾

أي: ما ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون، المختلفون في شأن عيسى عليه السلام إلا أن تقوم القيامة فجأة، دون أن يشعروا بقيامها، فيعاقبهم الله على شركهم وعلى سوء أقوالهم وأفعالهم.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾ [محمد].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [يونس].

فإذا جاءت الساعة، فلا تَسأل عن حال من كذّب بها، واستهزأ بما جاء فيها؟

ثَمَرَةُ الْحُبِّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضِ فِي اللَّهِ

٦٧- ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾

أي: أن أخلاء الدنيا الذين جمعهم الكفر والتكذيب والاستهزاء والمعصية، يعادي بعضهم بعضًا يوم الموقف العظيم، فإن محبتهم في الدنيا تنقلب إلى عداوة في الآخرة، حين يتبيّن لهم ضلال ما كانوا عليه في الدنيا، ولأن محبتهم لم تكن لله تعالى.

وهكذا: يتعاون أعداء الإسلام على النَّيل من الإسلام وأهله، ويجتمع الأصدقاء أو الصديقان على الخير أو الشر، وقديمًا كان المشركون يجتمعون في نواديهم ومجالسهم، ويتعاونون فيما بينهم على اضطهاد النبي ﷺ ومناوأة الإسلام، فبيَّن الله تعالى أن الأصدقاء المتعاونين على الشر والإثم والعدوان في الدنيا يكونون أعداء يوم القيامة؛ لأنهم استخدموا صداقتهم في إغراء بعضهم بعضًا على الكفر أو الشرك أو ارتكاب المعاصي، وإن تفاوتُوا في دركات النار يوم القيامة. ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾

أي: إن الأصدقاء المتعاونين في الدنيا على معاصي الله تعالى، يتبرَّأ بعضهم من بعض يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وقال سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾.

فكلُّ خلة وصداقة لغير الله تعالى تنقلب يوم القيامة عداوة.

أما المتقون فإن صداقتهم في الدنيا تنفعهم في الآخرة؛ لأنها تقوم على الخير والعمل الصالح، والتعاون على البر والتقوى، ولذا فإن الله تعالى استثناهم من العداوة يوم القيامة، فقال: ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ لأن صداقتهم تقوم على المحبة في الله ولله، وليست لأغراض دنيوية، ولا على شهوات ولا عصبيَّة، ولذلك فإنها دائمة في الدنيا والآخرة.

وفي الآية إنذار لمن تقوم صداقتهم على محاربة الحق ومناصرة الباطل، وفيها بشارة عظيمة للمؤمنين الذين بَنَوْا صداقتهم على طاعة الله ونُصرة دينه والعمل بشريعته.

جاء في حديث السبعة الذين يُظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: **«ورجلان تحابَّا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه»**[1].

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لو أن رجلين تحابَّا في الله، أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب، لجمع الله بينهما يوم القيامة، يقول: هذا الذي أحببْته فيَّ»**[2].

وأُثِر عن عليٍّ ﷺ: أن خليليْن مؤمنين، وخليلين كافرين ماتوا، فالْتقتْ أرواحهم، وقيل لهم: لِيُثْنِ كل واحد منكم على صاحبه، فقال كل واحد من المؤمنيْن لصاحبه: نِعْمَ الصاحبُ، ونِعْمَ الأخُ، ونعم الخليل، وقال كل واحد من الكافريْن: بئسَ الأخُ، وبئس الصاحبُ، وبئس الخليلُ[3].

بُشْرَى لِلْمُتَحَابِّينَ فِي اللَّهِ

ثم بشَّر الله عباده المتقين المتحابِّين بجلاله بأنه يقال لهم يوم القيامة:

٦٨، ٦٩- ﴿يَٰعِبَادِ[4] لَا خَوْفٌ[5] عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا

(١) من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» برقم (١٠٣١) و«صحيح البخاري» برقم (٦٦٠، ١٤٢٣).

(٢) «مختصر تاريخ دمشق» لابن منظور (٢٧/ ٧٩). وإسناده متكلم فيه، راجع الميزان (٢٢٢٦).

(٣) يُنظَر: «تفسير عبد الرزاق» (٢/ ١٦٤) والطبري (٢٠/ ٦٤٠) والبيهقي في «الشعب» (٩٤٤٣).

(٤) قرأ شعبة ورويس بخلف عنه بفتح الياء وصلًا وسكونها وقفًا مع إثباتها بعد الدال من (يا عباد لا خوف) وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ورويس في وجهه الثاني بإثباتها ساكنة في الحالين، والباقون بحذفها في الحالين.

(٥) قرأ يعقوب بفتح الفاء من (لا خوفَ) على أن لا نافية للجنس، والباقون بالرفع مع التنوين على أن لا نافية للوحدة.

وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾

أي: لا تخافوا يوم القيامة -أيها المؤمنون- من عقابي في المستقبل، ولا تحزنوا على ما فاتكم من متاع الدنيا، ولا على ما نزل بكم من مكروه، فأنتم آمنون مطمئنون، وذلك أن الناس حين يُبعَثون من قبورهم، ما من أحد منهم إلا فزع، فينادي منادٍ بهذه الآية، فيرجوها الناس كلهم، فيُطمئن الله المؤمنين بأنهم لا يخافون شيئًا في هذا اليوم العصيب، ولا يخافون من أي شيء يغمُّهم في المستقبل، وكُل ما فاتهم من حظوظ الدنيا ومتاعها لا يحزنون عليه، فإن ما عند الله خير وأبقى ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

وقد وصف الله تعالى من ينتفي عنهم الخوف والحزن في هذه السورة بالإيمان والإسلام.

ووصفهم في موضع آخر بالإيمان والتقوى، وبيَّن أنهم أولياء الله، فقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس].

ووصفهم أيضا بالإيمان والاستقامة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت] وغير ذلك.

ثم وصف الله هؤلاء المتقين، الذين لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أي: الذين صدَّقوا بالقرآن، وبالآيات الكونية الدالة على وحدانية الله تعالى وصدَّق نبيه ﷺ ﴿وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ أي: وكانوا في الدنيا خاضعين لحكم الله وطاعته، منقادين لأمره ونهيه، مخلصين وجوههم له.

والإيمان: تصديق واعتقاد، وعمل.

والإسلام: إتيان بأركان الإسلام الخمسة، كما في حديث جبريل.

وهؤلاء قد عملوا بما جاءت به الرسل، وانقادوا لله بقلوبهم وجوارحهم، فالإسلام: اعتقاد يتمثل في أركان الإيمان الستة، وعمل يتمثل في الأركان الخمسة، وهؤلاء قد جمعوا بين العلم والعمل. ويقال لهؤلاء المؤمنين يوم القيامة:

٧٠- ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

والأزواج، إما أن يُراد بها: الزوجات، أي: نساؤهم من أهل الدنيا والحور العين؛ لأن في هذا تمام النعيم، ولعله أرجح.

وإما أن يُراد بها: النُّظراء والقُرناء من أمثالهم وأشباههم في الإيمان والطاعة.

ومعنى ﴿تُحۡبَرُونَ﴾ تُنعَّمون وتفرحون وتُسرُّون، من الحُبور والسرور، كما في قوله تعالى ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ١٥﴾ [الروم].

ويشبه ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ٥٥ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ٥٦﴾ [يس].

فيا أيها المؤمنون المنقادون لله والرسول: ادخلوا دار النعيم، والقرار، أنتم ومن كان مماثلًا لكم في إيمانكم وأعمالكم الصالحة، وفي مقدمة هؤلاء: زوجاتكم وأولادكم ومن تحبون في الله، تُنعّمون وتكرمون، ويدخل عليكم الفرح والحبور والسرور.

مِنْ نَعِيمِ أَهْلِ الْجَنَّةِ

ثم ذكر سبحانه بعض النعيم الذي كرَّم به عباده المؤمنين، فقال:

٧١- ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ[(١)] ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٧١﴾

أي: بعد أن يدخل المؤمنون الجنة هم وأزواجهم، يخدمهم ويطوف عليهم ولدان مخلدون في الجنة، بألوان من الأطعمة في أوانٍ من ذهب، وألوان من الأشربة في أكواب من ذهب، وأواني الجنة وكؤوسها كلها من ذهب وفضة، كما قال تعالى:
﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ ١٥ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا ١٦﴾ [الإنسان].

وقال سبحانه: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ٢٤﴾ [الطور].

وقال جل شأنه: ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ١٧ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ١٨﴾ [الواقعة]

---

(١) قرأ نافع وابن عامر وحفص وأبو جعفر (ما تشتهيه) بزيادة هاء بعد الياء يعود على (ما) الموصولة، والباقون (ما تشتهي) بحذف الهاء؛ لأن (ما) مفعول، وعائد المفعول يجوز حذفه، كقوله تعالى: (هذا الذي بعث الله رسولًا) أي: بعثه الله.

وقال أيضًا: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإنسان]

وفي الحديث: عن حذيفة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تلبسوا الحرير ولا الديباج، ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة»**[١].

والصِّحاف: جمع صَحْفة، وهي: إناء واسع مستدير، يوضع فيه الطعام أو الفاكهة، وهو دون القصْعة التي تتسع لإشباع عشرة من الناس.

وقد اتخذ عمر بن الخطاب ﷺ صِحافًا على عدد أزواج النبي ﷺ، وكان لا يؤتى إليه بفاكهة ونحوها إلا أرسل إليهن منها في تلك الصِّحاف[٢].

وبعد أن ذكر الله سبحانه الجنة، وبيَّن أنها موضع الحُبور، وفيها ألوان النعيم: الطعام والشراب، يُقدَّم لهم في أوانٍ من الذهب والفضة، ذكر بيانًا كُليًّا يجمع كل الملذات والشهوات، قال جلَّ شأنه: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ وقد حصرت هذه الجملة أنواع النعم كلها؛ لأن النعم إما أن تشتهيها القلوب، أو تستلذها العيون، والله تعالى يخلق لأهل الجنة من الشهوات ما يليق بعالم الخلود من السمُوِّ وعُلوِّ الشأن، والنفس قد تشتهي ما لا تراه العين، فيؤتى به في صورة جميلة إكمالًا للنعمة، وكل ما تشتهيه النفوس من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح، وما تستلذه العين من مناظر حسنة، وأشجار محدقة، ومبان مزخرفة وغير ذلك، كل هذا حاصل في الجنة، ومعد لأهلها على أكمل وجه، كما قال تعالى ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يس]

وهو نعيم دائم لا يحول ولا يزول ولا ينقطع.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قلنا: يا رسول الله، إن الولد من قرة العين وتمام السرور، فهل يولد لأهل الجنة؟ فقال: **«إن المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة، كان حمْله ووضْعه وسِنُّه في ساعة كما يشتهي»**[٣].

(١) «صحيح البخاري» برقم (٥٤٢٦، ٥٦٣٢) و«صحيح مسلم» برقم (٢٠٦٧).

(٢) «تفسير التحرير والتنوير» (٢٤/ ٣٥٤).

(٣) «المسند» (١٧/ ١١٦)، (١٨/ ٢٨٧) (١١٠٦٣، ١١٧٦٤) وإسناده حسن كما قال محققوه، وابن ماجه (٤٣٣٨) والترمذي (٢٥٦٣) وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» برقم (٣٥٠٠) وابن حبَّان (٧٤٠٤) والبيهقي في «البعث» (٥٨٧) والدارمي (٢/ ٣٣٧).

قال الترمذي: اختلف أهل العلم في هذا: فقال بعضهم: في الجنة جماع ولا يكون ولد.

وقال البخاري: إذا اشتهى المؤمن الولد كان في ساعة واحدة كما اشتهى، ولكنه لا يشتهي.

وجاء عن أبي رُزيْن العُقَيْلي عن النبي ﷺ قال: «إن أهل الجنة لا يكون لهم ولد»[١].

ثم إن هذا الحُبور، وسعة الرزق، ونيل الشهوات نعيم دائم مستمر لا ينقطع ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ خلودًا أبديًا.

دُخُولُ الْجَنَّةِ بِفَضْلِ اللَّهِ، وَدَرَجَاتُ أَهْلِهَا بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ

٧٢، ٧٣- ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧٢ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾

بيَّن سبحانه أن السبب في هذا النعيم الدائم الذي أعده الله للمؤمنين في الجنة، هو ما قدَّموه لأنفسهم في الدنيا من صالح الأقوال وصالح الأعمال التي تقبَّلها الله منهم، فأوْصلتْهم إلى هذه المنزلة العالية.

والمعنى: إن هذه الجنة قد أورثكم الله إياها بسبب ما كنتم تعملون في الدنيا من الخيرات والأعمال الصالحات، وقد صارت لكم بفضل الله تعالى وإحسانه ورحمته جزاء لكم، فإنه لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله، ولكن برحمة الله تعالى وفضله، وإنما تتفاوت الدرجات في الجنة بحسب الأعمال الصالحة زيادة ونقصانًا.

فدخول الجنة بفضل الله تعالى، أما حظوظهم فيها فعلى قدر أعمالهم.

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**كل أهل النار يرى منزله من الجنة حسْرة فيقول**: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: ٥٧]

وكل أهل الجنة يرى منزله من النار، فيقول: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣] ليكون له شكرًا»[٢].

---

(١) ينظر: تحقيق المسند (١١٨/١٧) وحديث أبي رُزين من زوائد عبد الله بن أحمد، وإسناده ضعيف، وانظر هذه المسألة في حادي الأرواح لابن القيم ٢ ٣١٢ والبيهقي في البعث والنشور ص٢٢٠.

(٢) رواه أحمد في مسنده مختصرًا من طريق أبي بكر بن عياش (٢/ ٥١٢) برقم (١٠٦٥٢). وإسناده صحيح على شرط البخاري (محققوه) وهو في سنن النسائي الكبرى (١١٤٥٤) والحاكم (٢/ ٤٣٥) وصححه بموافقة الذهبي على شرط الشيخين وعند البيهقي في البعث والنشور (٢٤٣).

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار، فالكافر يرث المؤمن منزله من النار، والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة، وذلك قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾** [المؤمنون][1].

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة].

والعمل الصالح الذي يتقبله الله تعالى يكون سببًا لدخول الجنة، وهذا الدخول محض فضل من الله تعالى، كما قال ﷺ فيما رواه أبو هريرة ﷺ: **«لن يُدخِل أحدًا منكم عملُه الجنة»**، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **«ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة»**[2].

ومن نعيم الجنة: الفواكه الكثيرة، والثمار الشهية اللذيذة، وكل ما أعد الله لكم -أيها المؤمنون- في الجنة من أنواع الفواكه والثمار، وألوان المطاعم والمشارب مما تأكلونه تفكُّهًا وتلذُّذًا، وليس بسبب الجوع والحاجة إلى الغذاء، وكل ما يُؤكَل من ثمار الجنة يُخْلَفُ بَدلُه، جاء في الأثر: **«لا ينزع أحد في الجنة من ثمرها ثمرة إلا نبت مكانها مثْلَاها»**[3]

وفي الجنة ألوان من النعم ذكرها القرآن، منها:

(أ) المآكل:

١- ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الواقعة].

٢- ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الواقعة].

(ب) والمشارب:

١- ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الإنسان].

٢- ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾ [الإنسان].

---

(١) بتصحيح الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٣٥٠٣) وهو في السنن برقم (٤٣٤١) وفي فيض القدير (٥/ ٤٦٨) وفي السلسلة الصحيحة (٢٢٧٩).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٥٦٧٣) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨١٦).

(٣) «تفسير الخازن» (٤/ ١١٠).

نُزُولُ عِيسَى عليه السلام لِيَنْضَمَّ إِلَى الْعَالَمِ الْإِسْلَامِي وَيُؤَكِّدَ دَعْوَةَ التَّوْحِيدِ

٦١- ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ[1] هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾

بيَّن سبحانه في هذه الآية أن نزول عيسى عليه السلام حيًّا إلى الأرض في آخر الزمان، من علامات الساعة الكبرى، حيث يُعرف قُرْبها بخروجه على الناس، ويكون ذلك علامة على نهاية الدنيا ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي: وإن نزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة لدليل على قرب وقوع الساعة، ويدل على صحة هذا المعنى قراءة الأعمش: (وإنه لَعَلَم للساعة) بفتح العين واللام، أي: شرط وعلامة لها، وهي قراءة غير متواترة ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ أي: لا تشكُّوا في قيامها، فإنها آتية لا محالة، وعيسى سيُعْلِمُكم بقيامها ويخبركم بأحوالها وأهوالها.

وإن القادر على نزول عيسى عليه السلام، والقادر على خلقه بدون أب، قادر على بعث الموتى من قبورهم.

﴿وَٱتَّبِعُونِۚ﴾ أيها الناس فيما جئتكم به من عند الله، بامتثال ما أمرتكم به واجتناب ما نهيتكم عنه، فهو الطريق القويم، الذي يأخذ بأيديكم إلى الجنة، ويوصِّلكم إلى سعادتي الدنيا والآخرة ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾، أي هذا طريق موصل إلى جنة الله ورضوانه.

وقد تواترت الأحاديث بنزول عيسى عليه السلام آخر الزمان، ومنها:

١- ما جاء في الصحيحين وغيرهما: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«والذي نفسي بيده، ليوشكنَّ أن ينزل فيكم ابن مريم، حكَمًا عادلًا، فيكسر الصليب، ويقتُل الخنزير، ويضَع الجزية، ويفيض المال، حتى لا يقبله أحد»**[2].

٢- وفي رواية أبي داود عن أبي هريرة رضي الله عنه أيضًا: أن رسول الله ﷺ قال: **«ليس بيني وبين عيسى نبي، وإنه نازل فيكم، فإذا رأيتموه فاعرفوه، فإنه رجل مرْبوع إلى الحمرة والبياض، ينزل بين مَمْصرتيْن، كأنَّ رأسه يقْطر، ولو لم يُصبْه بلَل، فيقاتل الناس على الإسلام، فيدقُّ الصليب، ويقتُل الخنزير، ويضع الجزية، ويُهلك الله تعالى في زمانه**

(١) قرأ أبو عمرو وأبو جعفر بإثبات الياء وصلًا من (واتبعون) وأثبتها يعقوب بإثباتها وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها في الحالين.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٢٢٢٢) و«صحيح مسلم» برقم (١٥٥) و«سنن ابن ماجه» (٤٠٧٨).

الْمِلَلَ كلها إلا الإسلام، ويهلك الدجال، ثم يمكث في الأرض أربعين سنة، ثم يُتَوَفَّى، ويصلِّي عليه المسلمون». (١) والمَمْصَرَة: ثياب فيها صُفرة خفيفة.

٣- وفي رواية: «أن عيسى ينزل وبيده حَربة، هي التي يقتل بها الدجَّال، فيأتي بيت المقدس، والناس في صلاة العصر، فيتأخر الإمام فيقدِّمه عيسى، ويصلي خلفه على شريعة محمد ﷺ، ثم يقتل الخنازير، ويكسر الصليب، ويُخرِّب البيع والكنائس، ويقتُل النصارى إلا من آمن».

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩].

ولما أمر سبحانه باتباع أمره واجتناب نهيه في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ﴾ حذَّرنا جلَّ شأنه من اتباع الشيطان، وصدِّه لنا عن دين الله، وعنْ طريقه القويم، فقال تعالى:

٦٢- ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾

أي: لا يصْرفكم الشيطان -أيها الناس- ويحول بينكم وبين طاعة الله ورسوله، بوسوسته وتزيينه للشهوات والشبهات، فعداوته ظاهرة وكيده واضح ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ١٤٢]. وهو حريص على إغوائكم وإضلالكم.

مَوْقِفُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ دَعْوَةِ عِيسَى عليه السلام

٦٣- ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ(٢) ﴿٦٣﴾﴾

ولما ذكر سبحانه العبد المنعَم عليه، وهو عيسى عليه السلام وذكر أنه علَم على مجيء الساعة،

---

(١) صحيح سنن أبي داود (٣٦٣٥) وفي سنن أبي داود (٤٣٢٤) وفي السلسلة الصحيحة (٢١٨٢) وانظر: رواية المسند (٧٩٠٣) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات، وانظر: رواية عثمان بن أبي العاص الثَّقفي في المسند (١٧٩٠٠) بسند ضعيف (محققوه) وقصة نزول عيسى عليه السلام في صحيح مسلم عن أبي هريرة (٢٨٩٧) والمسند (٧٦٧٩).

(٢) قرأ يعقوب بإثبات الياء وصلًا ووقفًا في (وأطيعون)، والباقون بحذفها في الحالين.

٣- ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [محمد: ١٥].

٤- ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤)﴾ [الحاقة].

(ج) والملابس:

١- ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣].

٢- ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [الكهف: ٣١].

(د) والحليُّ:

١- ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [فاطر: ٣٣].

٢- ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١].

(هـ) والأواني:

١- ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨)﴾ [الواقعة].

٢- ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ الزخرف [٧١].

(و) والمناكح:

١- ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥].

٢- ﴿وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الواقعة].

٣- ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨)﴾ [الواقعة].

(ز) والفُرُش والسُّرُر:

١- ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤].

٢- ﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣)﴾ [الإنسان].

٣- ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦)﴾ [الواقعة].

٤- ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦)﴾ [الغاشية].

٥- ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦)﴾ [الرحمن].

(ح) والخدم:

١- ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا (١٩)﴾ [الإنسان].

٢- ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الطور].

وقد وصف الله نعيم الجنة بقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإنسان].

أَهْلُ الشَّقَاءِ وَعَذَابُهُمْ

وبعد أن ذكر سبحانه حال السعداء الأبرار، أعقب ذلك بذكر حال الأشقياء الفجار، فقال:

٧٤، ٧٥- ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾

إن الكافرين بالحق، الراسخين في الإجرام، الذين اكتسبوا الذنوب بكفرهم، وماتوا عليه، مقيمون في نار جهنم بصفة دائمة لا يُقضى عليهم فيموتوا، ولا يُخفَّفُ عنهم من عذاب جهنم ولا لحظة واحدة، فهم في عذاب مستمر لا ينقطع، وهم آيسون من رحمة الله تعالى، قد انقطع رجاؤهم من كل خير، وهم في أقصى درجات الحزن والذل واليأس ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ أي: لا ينقطع عنهم العذاب ﴿وَهُمْ فِيهِ﴾ أي: في عذاب جهنم ﴿مُّبْلِسُونَ﴾ في حزن وغم دائم، يائسون من الفرج ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [٦٥]. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦].

وقال سبحانه: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [النبأ].

وقال جلَّ شأنه: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧] أي: عذابًا مستمرًّا.

وقال أيضًا: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [البقرة].

وهم يسألون الخروج من النار ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

فيأتيهم الجواب ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون]

والمسلم يدعو ربه أن يصرف عنه هذا العذاب فيقول: ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥]. قال تعالى:

٧٦- ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾

أي: وما هم فيه من العذاب، إنما هو بسبب إصرارهم على الشرك والكفر، وعدم الإيمان بالنبي الخاتم ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ أي: وما وضعنا العذاب في غير موضعه بنزول

العذاب المهين بهم ﴿وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم حين وضعوا العبادة في غير موضعها، وحين فرَّطوا في جنب الله، وحين عرَّضوا أنفسهم للخلود في نار جهنم، بسبب أنهم استحبوا العمى على الهدى، وبدَّلوا الإيمان بالكفر، فَلَمْ نعذبهم بغير ذنب، ولكنهم جَنَوْا على أنفسهم فكفروا بالله، وكذَّبوا رسوله.

أَهْلُ النَّارِ يَسْتَغِيثُونَ بِخَازِنِهَا

٧٧- ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾

١- وحين يطول العذاب على الكفارفي النار **يحاولون الخروج منها** دون جدوى،كما قال تعالى عن أهل النار: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠].

وقال أيضًا: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

وقال سبحانه عنهم: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة].

٢- ثم إنهم يسألون الله تعالى يوم القيامة أن **يميتهم بالقضاء عليهم**، فلا يجابون إلى ذلك ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾ [طه].

وقال ﷻ عن الكافر: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧].

وقال عنه أيضًا: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الأعلى].

٣- وبعد يأسهم من الموت الدائم، ومن الخروج من النار، أو العودة إلى الدنيا، يتوجهون إلى **خزنة جهنم** ويطلبون منهم أن يخفف الله عنهم ولو يومًا واحدًا من العذاب: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾ [غافر]. فلم يستجيبو لهم.

٤- بعد ذلك يتوجهون إلى **مالك خازن النار** فيطلبون منه في ذلة وانكسار أن يميتهم ربهم، فيهلكهم مرة واحدة، حتى يستريحوا من العذاب ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ إنهم

في ضيق وكرب وعذاب متجدِّد، كلما هدأت نار جهنم زادهم الله لهيبًا وسعيرًا ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦] ويأتي الرد عليهم بما يزيدهم غمًّا على غمٍّ ﴿قَالَ﴾ مالك ﴿إِنَّكُم مَّكِثُونَ﴾ لا خروج لكم منها، ولا محيد لكم عنها، فلن تستريحوا من العذاب، ولن تَحيوْا حياة فيها راحة وأمان، فلا خلاص لكم من العذاب أبدًا.

أخرج البخاري بسنده أن رسول الله ﷺ قرأ على المنبر: ﴿وَنَادَوْا يَمَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾[1].

أي: ليقبض أرواحنا فيُريحنا مما نحن فيه، وجاءت أقاويل في المدة التي يسكت فيها مالك، ثم يجيبهم، فقيل: بعد ألف سنة، وهو قول ابن عباس، وقيل: بعد مئة سنة، وهو قول كعب، وقيل: بعد أربعين سنة، وهو قول عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: هانت والله دعوتهم على مالك، وعلى رب مالك، وقيل: ثمانين سنة، وقيل: ثلاثون سنة، وهو قول أنس[2].

وهكذا أفادت الآية أن الكفار يريدون الخروج من النار بشتى الطرق، فلا يستطيعون، ثم يستغيثون بخزنة النار يطلبون منهم تخفيف العذاب فلا يُجابون، ثم يلجؤون في النهاية إلى مالك خازن النار يطلبون القضاء عليهم بالموت النهائي، فيجيبهم: إنكم ماكثون مخلدون في النار!! ثم بيَّن سبحانه السبب في عذاب الكفار، فقال:

٧٨- ﴿لَقَدْ جِئْنَكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾

هذا الحق الذي جاء من عند الله تعالى، هو الوحي الذي نزل به جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ، وقد كان هذا الحق واضحًا على ألسنة الرسل، ولم يتركوا وسيلة إلا سلكوها معكم في الإرشاد إلى طريق الهدى، وهذا الحق يوجب عليكم أن تتبعوه، ولو أنكم اتبعتموه لفزتم وسعدتم في الدارين ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ﴾ الذي جاءت به الرسل ﴿كَرِهُونَ﴾ نافرون من الحق، مشمئزون منه، مبغضون له لكونه مخالفًا لأهوائكم وشهواتكم، فأعرضتم عنه ولم تعملوا به، ولذلك فقد شقيتم شقاء لا سعادة بعدها.

وقال تعالى: ﴿أَكْثَرَكُمْ﴾ ولم يقل جميعكم؛ لأن **المشركين فريقان**:

أحدهما: **الطواغيت ورؤساء الكفر**، وهم القادة والكبراء، الذين يصدون الناس عن

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٨١٩).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٤١) والخازن (٤/ ١١٠) والشوكاني (٤/ ٥٤٢) وابن الجوزي (٧/ ٣٣٠).

سبيل الله، ويقفون حجر عثرة في طريق الدعوة.

والآخر: الأتباع وعامة الناس، وهم قلة منهم، ولم تكن كارهة للحق، ولكنها كانت منقادة.

والمراد بالأكثرية: الفريق الأول؛ لأن الحق يتسبب في زوال سلطانهم وتعطيل منافعهم، ولذلك لم يتبعوه.

مِنَ الْأَسْبَابِ الْمُوجِبَةِ لِعَذَابِ أَهْلِ النَّارِ

٧٩- ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

لا يفتأ أعداء الإسلام يدبرون له المكايد، ويحاولون إطفاء نوره في كل زمان ومكان، ويوم القيامة يكون هذا من أعظم الأسباب الموجبة لعذاب الله لهم، فكما أحكموا وأتقنوا التآمر على الإسلام وأهله في الدنيا، فإن الجزاء يكون من جنس العمل يوم لقاء الله، فيلحق بهم من الأذى بمقدار كيدهم الذي دبروه للإسلام.

وحقيقة الإبرام هو الفتل المحكم، واستُعمِل في الآية بمعنى: العزم والتدبير، وإبرام الله لهم: عقوبتهم على تدبيرهم، ومجازاتهم على ظلمهم.

والمعنى: وبعد عدم الاستجابة لاستغاثة أهل النار بخازنها، وبيان سبب خلودهم فيها، أنَّبهم الله تعالى ووبَّخهم على ما كان منهم في الدنيا من الأسباب الموجبة لتعذيبهم، ومنها: مكْرهم السيئ بالحق وأهله، وكثْرة ما دبَّرُوه من كيد للإسلام ورسول الإسلام للقضاء على هذه الدعوة، وهم يظنون أن مكرهم هذا سيؤدي إلى نتيجة، ولا يعلمون أن مكر الله تعالى أعظم من مكرهم ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا﴾ بل أأحْكم المشركون أمرًا وأتقنوه ليكيدوا به للحق الذي جاءهم من عند الله؟ فيدحضوه بالباطل المزخرف؟ ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ إنا مدبرون لهم من العذاب والتنكيل بهم ما يخزيهم، ومدبرون ما ينقض هذا الباطل ويبطله، قال تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾[آل عمران].

وقال سبحانه: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النمل].

وقال أيضًا: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق].

وقال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ الأنبياء: ١٨]

اللهُ تَعَالَى مُحِيطٌ بِمَا يُدَبَّرُ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ

٨٠- ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا[1] لَدَيْهِمْ[2] يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾

هذا إعلام من الله تعالى بأنه لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وأن الملائكة تسجل كل ما يحدث في الكون من قول وعمل.

ثم إن مكر المكذبين لله ورسوله يحدث فيما بينهم بطريق التناجي، كما يحدث داخل النفس، وقد تآمر المشركون على قتل رسول الله ﷺ في دار الندوة ليلة الهجرة.

وهكذا، يتآمر أعداء الإسلام عليه في كل زمان ومكان، وقد وبَّخهم الله تعالى على هذا في قوله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾ أيظن هؤلاء القوم أنَّا لا نسمع ما يجول في صدورهم ويُسرُّونه في أنفسهم، وما يتناجوْن به فيما بينهم؟ فلذلك أقدموا على المعاصي، وظنوا أنهم غير معاقبين.

فالسر: ما حدَّث به الإنسان نفسه، **والنجوى**: ما يتكلم به الإنسان مع غيره سرًّا.

ورد أن الأخنس بن شريق، والأسْود بن عبْد يغوث اجتمعا، فقال الأخنس: أترى أن الله يسمع سرَّنا، فقال الآخر: يسمع نجوانا ولا يسمع سرَّنا، فنزلت الآية[3].

وقال محمد بن كعب القرظي: بينا ثلاثة بيْن الكعبة وأستارها: قُرَشيَّان وثقفيٌّ، أو ثقفيَّان وقرشيٌّ، فقال واحد منهم: ترون الله يسمع كلامنا؟ فقال واحد: إذا جهرتم سمع، وإذا أسررتم لم يسمع، فنزلت الآية[4].

قال تعالى في رد هذا الزعم: ﴿بَلَىٰ﴾ نسمع ونعلم سرهم ونجواهم ﴿وَرُسُلُنَا﴾ من الملائكة الكرام، الحفظة لأقوال العباد وأفعالهم ﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي: يُسجِّلون عليهم

---

(١) سكَّن السين من (رسْلنا) أبو عمرو، وضمها الباقون.

(٢) ضم الهاء من (لديهُم) حمزة ويعقوب، وكسرها الباقون.

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل» (٤/ ٣٣).

(٤) الطبري (٢٠/ ٦٥٣) وقد صحَّ هذا المعنى عن ابن مسعود، كما جاء في «المسند» (٢٢١، ٣٨٧٥، ٤٢٣٨) والبخاري (٤٨١٧) ومسلم (٢٧٧٥) والترمذي (٣٢٤٩) والنسائي في «الكبرى» (١١٤٦٨) وأن هذا كان سببًا لنزول قوله تعالى: (وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ) الآية [فصلت: ٢٢].

كل ما عملوا، وهم ملازمون لهم يكتبون كل صغيرة وكبيرة، كما قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق].

وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار].

ويوم القيامة ينطق كتاب الأعمال بالحق: ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية].

فالملائكة تُسجل الأقوال والأفعال، والله تعالى يعلم السر والنجوى والعلانية، ويعلم ما هو أخفى من السر، كالهمِّ والخواطر والأطياف والظن والحس، وما إلى ذلك.

ويوم القيامة يجدوا ما عملوا حاضرًا، فيجازيهم الله عليه.

تَنْزِيهُ اللهِ تَعَالَى عَنِ اتِّخَاذِ الْوَلَدِ

قال سبحانه مخاطبًا رسوله ﷺ: ليُبلغ أُمّته، ويُنْذر كل مشرك إلى قيام الساعة:

٨١- ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ[(١)] فَأَنَا[(٢)] أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾﴾

هذه الآية ردٌّ على الذين جعلوا الملائكة إناثًا، والذين ضربوا ابن مريم مثلًا؛ لنفي الولد عن الله تعالى بكل وجه من الوجوه.

وذلك أنه لما ذكر سبحانه ثواب المؤمنين في الجنة، وعقاب المجرمين في نار جهنم، بسبب زعمهم أن الملائكة بنات الله، وأن عيسى ابن الله، أعقب ذلك بقيام الحجة الدامغة على المشركين، بنفي أن يكون لله تعالى ولد.

﴿قُلْ﴾ - أيها الرسول - للمشركين الذي يقولون بإثبات البنوَّة لله تعالى، وهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لا والد له ولا ولد: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ على سبيل الفرض والتقدير، أو على سبيل الجدل والخصومة، كما يقول المشركون ويزعمون ﴿فَأَنَا أَوَّلُ

---

(١) قرأ حمزة والكسائي بضم الواو وسكون اللام من (وُلْد) جمع ولَد، مثل: أَسَد وأُسْد، وقرأ الباقون بفتحهما، اسم مفرد، قائم مقام الجمع، وقيل لغتان.

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر بإثبات ألف (أنا) وصلًا فتكون من قبيل المد المنفصل، وقرأ الباقون بحذفها وصلًا، وأثبتها الجميع عند الوقف.

﴿ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ لذلك الولد؛ لأن ابن الإله يكون نسلًا للذات الإلهية، وجزءًا منها فلا يكون إلا إلهًا، وأنا أول المنقادين لله تعالى، ولكل ما يحبه الله سبحانه، ولكني أول المنكرين لأن يكون لله ولدا ، وأشدهم له نفيًا؛ إذ لو كان للرحمن ولد، لكان محمد بن عبدالله، أفضل الرسل - أول من عبده، ولم يسبقه إليه المشركون، وأنا أعلم أن الإله الحق مستحق للعبادة، ولكنه جلَّ شأنه منزه عن الزوجة والولد، فإن ثبت ما تقولونه بالدليل فأنا أول من يعبده، وفي هذا نفيٌ للولد على أبلغ الوجوه وإنكار له، تقدَّس الله تعالى عن الصاحبة والولد.

ورد أن النضر بن عبد الدار بن قُصيٍّ قال: إن الملائكة بنات الله، فنزلت الآية، فقال النضر: ألا تروْن أنه قد صدَّقني؟ فقال له الوليد بن المغيرة: ما صدَّقك، ولكن قال: إن كان للرحمن ولد فأنا أول الموحدين من أهل مكة، المنزِّهين له عن الولد(١).

وكلام النضر يقتضي أنَّ إنْ شرطية، وهو مطابق لما يعتقده الكفار من نسبة الولد لله تعالى.

وكلام الوليد يعني أنَّ إنْ نافية، وهو يقتضي تنزيه الله تعالى عن الولد، ومخالفة المشركين في دعواهم، وذلك لأن الشرط إذا عُلِّق به أمر مستحيل لا يمكن الربط بينه وبين الجزاء، إلا إذا كان الجزاء مستحيلًا أيضًا.

قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾ [الفرقان: ٢].

وقال جلَّ شأنه: ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ [الزمر: ٤].

١- قال البخاري في تفسير الآية ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾: الآنفين(٢).

أي: أنا أول الجاحدين المنكرين لما قُلْتم، وأنا أول من يَغْضب للرحمن أن يقال: له ولد.

والمعنى على هذا: إن كان للرحمن ولد -كما تزعمون أيها المشركون- فأنا أول مَن

---

(١) من «تفسير الكشاف» للآية، وانظر: «أضواء البيان» للشنقيطي (٧/ ٣٠٤).

(٢) «فتح الباري» (٨/ ٥٦٨).

عبد الرحمن، فإنه لا شريك له، ولا ولد له.

٢- وقال ابن عباس: ﴿إِن كَانَ﴾ أي: ما كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين، أي: الشاهدين له بذلك[١].

٣- وعن مجاهد قال: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ كما تقولون ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ المؤمنين بالله، فقولوا ما شئتم[٢].

٤- وقال قتادة: إن ذلك لم يكن، ولا ينبغي[٣].

وعلى هذا يتبيَّن أن معنى قول من قال: إنَّ إنْ شرطية: إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين لهذا الولد، وهذا على سبيل الفرض والتقدير، قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم].

ويحتمل أن يكون معنى الآية: إن كان للرحمن ولد، فأنا أول العابدين لله، ومن عبادتي لله، أن أُثبت ما أثبته لنفسه، وأنفي ما نفاه، فهذا من العبادات القولية الاعتقادية، فلو كان هذا حقًّا لكنت أول مثبت له، ثم نزَّه الله تعالى نفسه عن اتخاذ الشريك والولد، فقال:

٨٢- ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾

فهو سبحانه خالق هذا الكون ومالكه، وهو رب العالم العلوي، ورب العالم السفلي، وما فيهما وما بينهما، ورب العرش العظيم المحيط بهما، فالكون كله في يده وتحت قبضته، فكيف يكون له ولد؟ تنزه الله وتقدَّس عما يصفونه به من الكذب والافتراء من نسبة المشركين الولد إلى الله تعالى، وغير ذلك مما يزعمون من الباطل، فهو سبحانه المتعالي عن كل ما وصفه به الكافرون من صفات لا تليق بجلاله، وقد أكدت الآية ذلك

---

(١) أخرجه الطبري بسند حسن عن أبي طلحة (٢٠/ ٦٥٤).

(٢) أخرجه الطبري بسند صحيح، وعبد بن حميد كما في «الدر» (١٣/ ٢٤١).

(٣) أخرجه الطبري بسند صحيح (٢٠/ ٦٥٥).

بتكرار لفظ: ﴿رَبِّ﴾ ثلاث مرات.

ثم توعَّد الله المفترين عليه الكذب، وهدَّدهم بسوء المصير يوم القيامة حيث قال:

٨٣- ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَٰقُوا(١) يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾

سمَّى الله سبحانه ما يقوله المشركون من أن عيسى ابن الله، أو أن عزيرًا ابن الله: لعبًا ولهوًا وخوضًا في الباطل، وما دام الأمر كذلك فاتركهم -أيها الداعي إلى الله- يخوضوا في باطلهم، ويلعبوا في دنياهم، فعلومهم ضارة غير نافعة، لأنها تعارض الحق وما جاءت به الرسل، وأعمالهم لعب وسفاهة، لا تزكى النفوس، ولا تثمر المعارف، فاتركهم ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ أي: الذي وعدهم الله فيه بالعذاب، إما في الدنيا، وإما في الآخرة، أو فيهما معًا، فإنهم سيلْقون جزاء أقوالهم الباطلة، وأفعالهم الشنيعة إن عاجلًا أو آجلًا، ونظير هذه الآية في سورة المعارج الآية [٤٢]. وقال تعالى:

﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الطور].

وفي الآية تيئيس للنبي ﷺ من جدْوى المحاجة والمجادلة معهم.

اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمَعْبُودُ لِأَهْلِ الْأَرْضِ وَأَهْلِ السَّمَاءِ

٨٤- ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ(٢) إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾

هذه الآية رد على الذين جعلوا لله شركاء في الأرض، والذين جعلوا له شركاء في السماء؛ لبيان أن إله الأرض والسماء واحد، وهو المعبود فيهما معًا، وفيه نفي إلهية غير الله تعالى في الأرض والسماء، وذلك أنه لما نفى سبحانه أن يكون له ولد، نفى في هذه الآية أن يكون له شريك في الإلهية.

---

(١) قرأ أبو جعفر (يَلْقَوْا) مضارع لقى، وقرأ الباقون (يُلَاقُوا) من الملاقاة.

(٢) قرأ قالون والبزي بتسهيل الهمزة الأولى مع المد والقصر من (في السماء إله) وأسقطها أبو عمرو مع المد والقصر، وسهَّل الثانية الأصبهاني وأبو جعفر، وللأزرق تسهيل الثانية وإبدالها حرف مد مع القصر، ولقنبل ثلاثة أوجه: ١- إسقاط الهمزة الأولى مع المد والقصر. ٢- تسهيل الهمزة الثانية. ٣- إبدالها حرف مد مع القصر ولرويس وجهان هما: إسقاط الهمزة الأولى مع القصر والمد، وتسهيل الهمزة الثانية، والباقون بتحقيق الهمزتين.

لقد زعم المشركون أن لله تعالى شركاء في الأرض، وهم الأصنام، وزعموا أن له شركاء في السماء، وهم الملائكة، حيث جعلوهم إناثًا، وجعلوهم بنات الله، فأبطل الله تعالى زعم الفريقين في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ أي: هو الله وحده لا غيره، المعبود بحق في السماء وفي الأرض، وهو الإله الوحيد لأهل السماء وأهل الأرض، يعبده من فيهما، وكلهم خاضعون له، والإله في الآية بمعنى: المعبود، فالمعبود واحد والعابد متعدد.

قال قتادة: هو الذي يُعبَد في السماء ويُعبَد في الأرض[1].

فأهل السماوات كلهم، والمؤمنون من أهل الأرض، يعبدونه ويعظمونه ويخضعون لجلاله، كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ الإسراء: ٤٤].

وقال سبحانه ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد:١٥].

فالله سبحانه هو المعبود بحق، يعبده الخلائق كلهم طائعين مختارين أو كارهين.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنعام].

فالإله بمعنى المعبود فيهما، وهو معبود واحد، ولكن العابد متعدد، فمنه من في السماء، ومنه من في الأرض.

ثم وصف الله نفسه بالحكمة والعلم، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي أحكم خلْقه وأتْقن شرعه، فما خلق شيئًا إلا لحكمة، ولا شرع شيئًا إلا لحكمة، وهو ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بكل شيء من أحوال خلقه، لا يخفى عليه شيء منها.

والوصفان -الحكمة والعلم- فيهما تحقيق، وهو ذكر الشيء بدليله.

وفيهما تدقيق، وهو تتميم الدليل بالاستدلال عليه، والأول هو العلم، والثاني هو الحكمة.

---

(١) الطبري (٢٠/ ٦٥٩) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٩١١).

اللهُ تَعَالَى يَمْلِكُ الْعَالَمَ الْبَاقِي وَالْعَالَمَ الْفَانِي

٨٥- ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[1]﴾

أثنى الله تعالى على نفسه، ومجَّد ذاته العليَّة، ليعلِّمنا كيف نثني عليه ونمجده سبحانه، ومع هذا التنزيه ذكر جلَّ شأنه أنه مالك هذا الكون، ومقتضى ذلك تنزيهه سبحانه عن الشريك والولد.

ومع أنه جلَّ شأنه يملك العالم الفاني، فإنه يملك العالم الباقي، ويعلم متى تقوم الساعة، وهي بداية الدار الباقية التي يرجع فيها العباد إلى ربهم.

وتبارك: فعل ماض، أي: تعالى الله وتعظَّم، وتكاثر خيره وبركته، وعظُم ملكه، وهو وحده له سلطان السموات السبع، والأرضين السبع، وما فيهما وما بينهما من الأشياء كلها، وهو بكل شيء عليم، ولا يعلم الغيب إلا هو، ومن ذلك علم قيام الساعة ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ التي تقوم فيها القيامة، ويُحشر فيها الخلق من قبورهم لموقف الحساب، فلا يعلم متى تقوم إلا الله ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: تُردُّون -أيها الناس- إلى ربكم بعد مماتكم، فيجازي كُلًّا بما يستحق.

الشَّفَاعَةُ الْمَرْدُودَةُ وَالشَّفَاعَةُ الْمَقْبُولَةُ

٨٦- ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾

هذه الآية في نفي الشفاعة عن الأصنام ونحوها، وإثباتها لمن شهد لله بالوحدانية، كالمسيح وعزير والملائكة، وذلك أنه لما أخبر سبحانه أنه يملك العالم الفاني والعالم الباقي، أعلمنا أن ما يعبده بعض الناس من دون الله، لا يقدر على الشفاعة لهم عند الله، ولا يجلب لهم خيرًا ولا يدفع عنهم ضرًّا، وهذا معنى ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ أي: لا يملك المعبودون الشفاعة لأحد من الناس، فكل من دُعي من دون الله، من الأنبياء والملائكة وغيرهم، لا يملكون الشفاعة، ولا يشفعون إلا بإذن الله، ولا

(١) قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي ورويس وخلف العاشر بياء الغيب في (ترجعون) لمناسبة (يخوضوا ويلعبوا)، والباقون بتاء الخطاب على الالتفات.

يشفعون إلا لمن ارتضى.

ثم استثنى الله تعالى ممن عُبِدُوا من دون الله مَن شهد بالحق، فأقرَّ بتوحيد الله، وبنبوة محمد ﷺ، كعُزيْر وعيسى والملائكة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة ما أقروا وشهدوا به واعتقدوه بقلوبهم، من التوحيد الخالص لله عز وجل، وشهدوا بالنبوة والرسالة لرسل الله وصدق ما جاؤوا به من أصول الدين وفروعه وحقائقه وعقائده وشرائعه، وشهدوا باليوم الآخر وما فيه من بعث وحشر ونشر وحساب وجزاء، فإن شفاعة هؤلاء وأمثالهم تنفع عند الله تعالى -وإن كانوا قد عُبدوا من دون الله- لأنهم شهدوا بالحق، أي: بالوحدانية لله تعالى، وذلك إذا أذن الله في الشفاعة للشافع، ورضي عن المشفوع له.

قال قتادة: الملائكة وعيسى وعزير لهم عند الله شفاعة[1].

وذلك لأنهم شهدوا بالحق، أي: بكلمة الإخلاص، وهم يعلمون أن الله حق، ويعلمون حال من يستحق الشفاعة.

كما أنه لا يملك أحد أن يشفع لأحد إلا لمن آمن بالله تعالى، وشهد الشهادة الحق وهي شهادة التوحيد، فإن الشفاعة تجوز له بعد الإذن فيها، والرضى عن المشفوع له.

أما الكافر فلا يملك أحد أن يشفع له، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [طه].

قيل: إن النضر بن الحارث ونفرًا معه قالوا: إن كان ما يقول محمد حقًّا فنحن نتولى الملائكة، فهم أحق بالشفاعة من محمد ﷺ، فنزلت الآية[2].

تَنَاقُضُ الْمُشْرِكِينَ بَيْنَ أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ

٨٧- ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾

في كلمة جامعة: بيَّن ﷻ في هذه الآية تَناقُض المشركين بين أقوالهم وأفعالهم، لإبطال مزاعم المشركين في عبادتهم لغير الله تعالى، مع إقرارهم له بالوجود والتصرف في الكون.

---

(١) عبد الرزاق (٢/ ٢٠٣) وابن جرير (٢٠/ ٦٦٢).

(٢) «تفسير الخازن» (٤/ ١١١).

والمعنى: ولئن سألت -أيها الداعي إلى الله- المشركين بالله: من خلقهم، ومن خلق هذا الكون، ومن يرزق، ومن يُحيي ويُميت، ومن يدبر الأمر؟ ليقولن في الإجابة على ذلك ونحوه: الله الذي خلقنا ورزقنا..، فهم معترفون بوجود الله تعالى، ولكنهم يتوجهون بالعبادة لغيره، وهذا الإقرار معلوم من حال المشركين المعاصرين والسابقين:

كقول ضِمَام بن ثعلبة للنبي ﷺ: أسألك بربك ورب مَن قبلك، آلله أرسلك؟[1].

فقوله هذا فيه إقرار بوجود الله تعالى، وأنه رب كل شيء ومليكه.

ومن ذلك تلبية المشركين في الحج أيام الجاهلية، فهم يقولون: لبيك اللهمَّ لبيك، لبيك لا شريك لبيك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك.

إنهم يُقرّون بوجود الله تعالى، ويُلَبُّون له، ولكنهم يُثْبتون معه شريكًا، وفي نفس الوقت يُقرّون بأن هذا الشريك مملوك لله تعالى، وهو لا يملك شيئًا، وهذا تناقض عجيب، فما الحاجة إلى هذا الشريك إذا كان مملوكًا لله، وهو لا يملك شيئًا، وما دام الأمر كذلك ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ كيف ينقلبون وينصرفون عن عبادة الله تعالى، ويشركون به غيره، وكيف ينصرفون عن التوحيد إلى الشرك، وعن عبادة الرحمن إلى عبادة الأوثان، مع اعترافهم بوجود الخالق؟ إنه أمر يدعو إلى العجب! لأن إقرارهم بتوحيد الربوبية يستلزم إقرارهم بتوحيد الإلهية، وفي هذا إبطال للشرك، ووجوب إفراد الله تعالى بالعبادة.

الرَّسُولُ ﷺ يَشْكُو غَيْرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى رَبِّهِ

٨٨- ﴿وَقِيلِهِۦ[2] يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

هذه شكوى من النبي ﷺ إلى ربه سبحانه فيمن لا يؤمنون به إلى قيام الساعة، وذلك أنه لَمَّا لم يتزحزح الكفار في عصر التنزيل عن كفرهم قيْد أنملة، ويئس الرسول ﷺ من إيمانهم، التجأ إلى ربه مفوِّضًا أمره إليه، شاكيًا حالهم له، بأنهم قوم معاندون جبَّارون،

---

(١) «تفسير التحرير والتنوير» لابن عاشور (٢٤/ ٢٧١).

(٢) قرأ عاصم وحمزة بكسر اللام والهاء مع الصلة في (وقيله) عطفًا على (الساعة) وهي مصدر، وقرأ الباقون بفتح اللام وضم الهاء مع الصلة (وقيلَهُ) عطفًا على محل (الساعة) أي: وعنده أن يعلم الساعة ويعلم قيله يا رب.

لا يصدقون برسالته ولا بالقرآن.

وهذه الآية معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي وعنده علم قول الرسول ﷺ ﴿يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الزخرف].

ومعنى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ﴾ أي: إن محمدًا ﷺ شكا إلى ربه قومه الذين كذبوه، فقال: يارب، إن هؤلاء قوم لا يؤمنون بك ولا بما أرسلتني به إليهم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: شكا إلى الله تعالى تخلُّف قومه عن الإيمان.

وقال قتادة: هذا نبيكم يشكو قومه إلى ربه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان].

والقيل بمعنى: القول، وهو خبر بمعنى الإنشاء، أي: وقوله: يارب.

إِجَابَةُ اللهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ

٨٩- ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَـٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ[2] ﴿٨٩﴾﴾

هذه إجابة الله تعالى على شكوى رسوله ﷺ بتوجيهه ألَّا يطمع في إيمان الكفار المكذبين المعاندين، وأن يُعْرِض عنهم ولا يبالي بهم، مع أن الله تعالى قادر على تعجيل عقابهم، ولكنه سبحانه حليم يمهل ولا يهمل، ويؤخر عقوبتهم لعلهم يتوبوا ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ سامحهم، واعف عنهم، ولا تقابلهم بمثل ما يقابلونك به من الأذى ﴿وَقُلْ سَلَـٰمٌ﴾ أي: سلِّم عليهم سلام متاركة ومسالمة، ولا يبْدُرُ منك لهم إلا السلام الذي يقوله أولو الألباب والبصائر للجاهلين، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص].

وقوله في وصف عباد الرحمن ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴿٦٣﴾ [الفرقان]

---

(١) «تفسير الخازن» (٤/ ١١٢) و«تفسير الطبري» (٢٠/ ٦٦٤).

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بياء الغيب في (يعلمون) لمناسبة (فاصفح عنهم)، وقرأ الباقون بتاء الخطاب على الالتفات.

ومن صفات المؤمنين أنهم إذا مرُّوا باللغو مرُّوا كرامًا ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ [المؤمنون].

إنهم لا يقابلون السيئة بمثلها، ولكنهم يعفون ويصفحون، وقد كان هذا في الفترة المكية قبل الأمر بقتال الكفار، ثم شرع الإسلام القتال لرد العدوان، ولإزالة العوائق أمام نشر الدعوة، وأخذَ بعضهم من الآية جواز إلقاء السلام على اليهود والنصارى:

أخرج ابن أبي شيبة عن عون بن عبد الله قال: سأل محمد بن كعب عمرَ بنَ عبد العزيز عن ابتداء أهل الذمة بالسلام، فقال: نردُّ عليهم ولا نبتدئهم، قلت: فكيف تقول أنت؟ قال: ما أرى بأسًا أن نبدأهم، قلت: لِمَ؟ قال: لقول الله تعالى: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾[1]. وقد امتثل النبي أمر ربه، فقابل أذاهم بالعفو والصفح والإحسان.

ثم إن الله تعالى توعَّدهم وهدَّدهم بأنهم سوف يلقوْن من العذاب والنكال جزاء عنادهم وجحودهم ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة إجرامهم وتكذيبهم، وفي هذا إيذان بانتهاء السورة.

وعلى الدعاة إلى الله تعالى أن يثابروا في إرشادهم دون كلل ولا ملل، وأن يصبروا على ما يلقونه من أذى في سبيل نشر الدعوة. وهو سبحانه منتقم من المكذِّبين في كل زمان ومكان.

تم تفسير (**سورة الزخرف**) ولله الحمد والمنة.



(١) يُنظَر: ابن أبي شيبة (٨/ ٤٣٩) (٨/ ٤٦٨).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الدُّخَانِ (٤٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الدُّخَان) هي السورة الرابعة والأربعون في ترتيب المصحف، والثالثة والستون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الزخرف) وقبل سورة الجاثية.

وعدد آياتها عند أهل الكوفة تسع وخمسون آية[1].

وعدد كلماتها ثلاث مئة وست وأربعون كلمة.

وعدد حروفها ألف وأربع مئة وواحد وثلاثون حرفًا.

وسُمِّيت سورة (الدُّخَان) لوقوع لفظ الدُّخَان فيها، على أنه آية من آيات الله تعالى، وتسمى سورة (حم الدُّخَان).

وهي سورة مكية عند الجمهور، واستثنى بعضهم ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [١٥]. بناء على أن مشركي مكة أرسلوا إلى النبي ﷺ وفْدًا وهو في المدينة يطلبون الدعاء لهم، لرفع ما هم فيه من قحط وجدب وجوع.

وافتتاح السورة يُشْبه السورة التي قبلها، من القسَم بالقرآن، والتنويه بشأنه وشرفه، وبيَّنتْ هذه السورة أن وقْت نزوله هو ليلة القدر، التي يُفْرق فيها كل أمر حكيم ويُبْرم، فهي الليلة التي تُفصَّل وتُدبَّر فيها أمور الخلق من كل عام، فتظهر هذه الأمور للملائكة.

وقد بُوركت هذه الليلة لنزول الوحي فيها، وبركة هذا القرآن لأنه يصنع من البشر ملائكة، ولأنه صنع من العرب أمة ذات حضارة لا تغيب عنها الشمس.

ثم أضربتِ آيات هذه السورة عن هذا الحديث المتعلق بالقرآن ونزوله، لتتناول شأن القوم الذين قاوموا الدعوة، وكانوا في شك وارتياب منها، فعاقبهم الله تعالى في الدنيا بعذاب الجوع، بسبب دعاء النبي ﷺ عليهم، جزاء إعراضهم عن تدبر القرآن، ليعلموا أن إجابة دعوة النبي ﷺ دليل على أنه رسول من عند الله تبارك وتعالى، كما انتقم الله منهم يوم بدر.

---

(١) وست وخمسون آية عند أهل المدينة ومكة والشام، وسبع وخمسون آية عند أهل البصرة.

ثم تحدثت الآيات في هذه السورة عن حمَلة الوحي قبل هذه الأمة، وما حلَّ بهم من العذاب نتيجة الطغيان والجبروت، فقد ناشد موسى فرعون أن يطلق سراح قومه، وأن يتركهم يرتحلون معه من مصر، ولكن فرعون أبى إلا حبْسهم على الأذى، فكانت العاقبة أن أهلكه الله ومن معه جميعًا، وتركوا بعد هلاكهم: القصور والدور، والحدائق والبساتين، والأنهار والعيون.. فقد أورثها الله بني إسرائيل في أرض أخرى، بعد هلاك فرعون وقومه، وسرعان ما حاد بنو إسرائيل عن تراث أنبيائهم، فعاثُوا في الأرض فسادًا، وعاقبة الظَّلَمة واحدة في كل عصر ومصر.

وقد اختار الله تعالى العرب بعدهم، وأورثهم القرآن العظيم، فسارُوا به أشواطًا، ثم تخلَّوْا عنه إلا قليلًا، فأصبحوا شراذم ينال منهم كلُّ جبار؛ لأن الله تعالى قد وعد المؤمنين الصالحين الذين أخلصوا للوحي المنزل عليهم أن يرثوا خير الدنيا والآخرة.

ومن لا يعمل للدار الآخرة، ويسْخَر من الحياة بعد الموت، ويَعُدُّ ذلك خُرافة -فهو في جاهلية عمياء، مهما أوتي من الحضارة المادية والعلم الدنيوي ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾﴾ .

والله تعالى سيجمع الآباء والأبناء ليحاسبهم على ما قدمتْ أيديهم، فليست هذه الحياة الدنيا عبثًا ولا لهوًا ولا لعبًا ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

ومنكرو البعث والنشور ليسوا بأكرم على الله تعالى ممن سبقهم من الأمم الطاغية، وسُنَّة الله لا تتخلف.

إنها سورة ذات آيات قصيرة، تُبْرِز ألوانًا متعددة من تهديد المكذبين بالرسالة الأخيرة، فتُذكِّرهم بالقحط تارة، وبما حلَّ بالأمم المكذبة تارة، وبما ينتظرهم من العذاب المهين إن استمروا على كفرهم تارة أخرى.

وآيات هذه السورة تطوف بالمسلم في عوالم شتى: بين السماء والأرض، والدنيا والآخرة، والجحيم والجنة، والماضي والحاضر، والغيب والشهادة، والموت والحياة، وكل هذا لبيان الحق والحكمة التي خلق الله هذا الكون من أجلها.

وقد خُتِمت السورة بما ينتظر الأشرار والأخيار من النعيم أو العذاب.

أما مصير الكفار فقد صورته هذه الآيات: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ .

ومصير المتقين صَوَّرَتْه هذه الآيات: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٢﴾ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

وعلى هذا فيمكن تقسيم السورة إلى **ثلاثة مقاطع**:

المقطع الأول: من أولها إلى الآية السادسة عشرة، وهذا المقطع فيه الثناء على القرآن الكريم، وأن الله تعالى قد أنزله في ليلة مباركة، يدبِّر فيها شؤون الخلق إلى مثلها من العام التالي، وقد نزل هذا القرآن رحمة من عند الله رب العالمين، أما من كذَّب بالقرآن فشكَّ وارتاب فيه، فقد أنذرتْه الآيات بعذاب أليم يعمُّ الناس، ويستغيثون فيه إلى ربهم؛ ليكشف عنهم ما هم فيه من العذاب جزاء تكذيبهم لخاتم المرسلين، ووصْفهم له بما لا يليق بجنابه، وإعراضهم عنه ﷺ.

المقطع الثاني: من الآية السابعة عشرة إلى الآية السابعة والثلاثين، وهي آيات تتحدث عن قوم فرعون وما حلَّ بهم من العذاب، لتبيِّن لنا أن عاقبة الظلم واحدة في كل عصر ومصر، وأن ما حدث لقوم فرعون من ضياع وتشرُّد يحدث لكل من طغى وتجبر وأنكر البعث والنشور، فكذَّب بالله ورسله واليوم الآخر.

أما المقطع الثالث: فهو من الآية الثامنة والثلاثين إلى نهاية السورة، وهو مقطع يبيِّن الحق الذي خلقت من أجله السموات والأرض، وأن الله تعالى سيجمع الأولين والآخرين في يوم يشتد فيه الحساب ليحاسب كلًّا على ما قدمت يداه، فيأكل الأشرار من شجرة الزقوم، ويُصب فوق رؤوسهم الحميم، يُصْهر به ما في بطونهم والجلود، ويأكل الأخيار مما ينتظرهم من النعيم المقيم، وكل ما يشتهون من فاكهة وطعام وشراب، ويلبسون السندس والإستبرق، ويتزوجون الحور العين، ونعيمهم دائم لا ينقطع بفضل الله تعالى ورحمته.

وقد بُدئت السورة بالحديث عن القرآن، وخُتِمت بالحديث عنه أيضًا.

إن هذا القرآن يوقظ الغافلين، ويصنع أمة ذات رسالة عظيمة ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ

يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾. وهذا مؤذن بانتهاء السورة.

من الآثار الواردة في سورة الدُّخَان:

عن الأسود بن يزيد، وعلقمة: أن رجلًا أتى عبد الله بنَ مسعود ﷺ فقال: قرأتُ المُفصَّل في ركعة، فقال عبد الله: بل هذَذْتَ كهذِّ الشِّعر -أي: أسرعت في القراءة- وكنثْر الدَّقَل -الدَّقل: هو التمر الرديء اليابس، أي: إن قراءتك غير جيدة- ولكن رسول الله ﷺ كان يقرأ النظائر في ركعة، فذكر عشر ركعات بعشرين سورة، عن تأليف عبد الله-أي: وفق ترتيب السور في مصحف ابن مسعود- آخرهن: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾ والدُّخَان[1].

وقال ابن مسعود ﷺ: لقد علمتُ النظائر التي كان يصلي بهن رسول الله ﷺ: الذاريات والطور، واقتربت والرحمن، والواقعة و ن، والحاقة والمزمل، ولا أقسم بيوم القيامة وهل أتى على الإنسان، والمرسلات، وعم يتساءلون، والنازعات وعبس، وويل للمطففين وإذا الشمس كورت، وحم الدُّخَان[2].

وقد وردت جملة من الأحاديث في فضل سورة الدُّخَان تركناها لضعف سندها.



(١) الطبراني في «الكبير» (٩٨٥٥) وهو مطولًا في «المسند» (٣٩٦٨) وهو حديث صحيح، وأبي داود (١٣٩٦) و«صحيح سنن أبي داود» (١٢٤). وانظر نحوه مطولًا دون ذكر الأية في المسند (٣٦٠٧).

(٢) الطبراني (٩٨٦١، ٩٨٦٢) وهو في البخاري (٧٧٥، ٤٩٩٦) ومسلم (٨٢٢) دون سرْد السور.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

تَقْدِيرُ أُمُورِ الْعِبَادِ فِي اللَّيْلَةِ الْمُبَارَكَةِ

١-٣- ﴿حمٓ[١] ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ[٢] فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾﴾

ابتدأت سورة الدُّخَان بحرفي الحاء والميم، من حروف الهجاء المقطعة، وهي من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله، وربما تشير هذه الحروف إلى أن هذا القرآن مكوَّن من الحروف التي ينطق بها المكذِّبون، فإن كانوا في شك منه فليأتوا بمثل أقصر سورة.

وفي هذا الافتتاح الغريب جذْبٌ للانتباه، للتفكُّر في معانيه، لعلهم يهتدون بهديه.

ثم أقسم الله تعالى بالقرآن البيِّن في أهدافه، الواضح في أحكامه، الفارق بين الهدَى والضلال، المعجز في ألفاظه ومعانيه، وفي هذا تنْويهٌ بشرف القرآن الكريم، وتعظيمٌ لشأنه.

وجواب القسم: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ أي: ابتدأنا نزول القرآن في ليلة القدر من شهر رمضان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ [القدر].
وهو قسم بالقرآن على القرآن.

وقال سبحانه: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر].

والليلة المباركة هي ليلة القدر من شهر رمضان، وهي ليلة كثيرة الخير والبركة، نزل فيها أفضل الكلام في أفضل الليالي على أفضل الخلق، بأفضل اللغات، لينذر قومًا عمتهم الجهالة، وغلب عليهم الشقاء، فيستضيئوا بنوره ويهتدوا بهديه، كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥] وهي الليلة التي ابتدأ فيها نزول القرآن على محمد ﷺ في غار حراء بجبل النور، ولهذا السبب، كان ثواب العبادة فيها خيرًا من ألف شهر، أي: بما يساوي عمرًا

---

(١) سكت أبو جعفر على الحاء والميم سكتة لطيفة بدون تنفس من (حم) وأمال الحاء ابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي وخلف، وقللها الأزرق، ولأبي عمرو الفتح والتقليل. وقد عد الكوفي (حم) آية وتركها غيره.

(٢) قرأ ابن كثير بصلة هاء (أنزلناه) بحرف مد، والباقون بعدم الصلة.

آخر يضاف إلى عمر الإنسان، لو كان عمره نحو ثلاثة وثمانين عامًا، فإذا أضيف إلى ذلك أن إحياءها صادف وجود المسلم في المسجد الحرام، والركعة فيه بمئة ألف ركعة، كان ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وقد تضافرت الأحاديث على أن ليلة القدر في العشر الأواخر من شهر رمضان.

وقد نزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ في السماء السابعة إلى بيت العزة في السماء الدنيا.

كما روى سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ قال: فُصِلَ القرآن من الذكر، فوُضع في بيت العزة في السماء الدنيا، فجعل جبريل ﷺ يُنزله على النبي ﷺ ويرتله ترتيلًا[1].

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس أيضًا قال: أُنزِل القرآن جملة واحدة في ليلة القدر إلى السماء الدنيا، وكان بمواقع النجوم، وكان الله ينزله على رسوله ﷺ بعضه في إثر بعض...[2].

وقد نزل القرآن من السماء الدنيا مفرَّقًا حسب الحوادث والوقائع والأحوال، على مدى ثلاثة وعشرين عامًا هي مدة الرسالة المحمدية، تثبيتًا لفؤاد النبي ﷺ، وتجدُّدًا لنزول الوحي، وتدرُّجًا في التربية والتكليف، وتيسيرًا للحفظ والفهم والاستيعاب.

وجاء عن الشعبي أن القرآن ابتدأ نزوله في ليلة القدر.

وليلة القدر ليلة مباركة، كثيرة الخيرات، تتنزل فيها الملائكة، وينزل فيها جبريل ﷺ، وهي ليلة سلام وأمان حتى مطلع الفجر، وقد أمدَّها الله تعالى بتلك البركة في كل عام ليستمر مضاعفة الثواب فيها إلى يوم القيامة، وقد تختلف ليلة القدر من عام إلى آخر، وليلتها تختلف من بلد إلى بلد لا يتَّفقان في جزء من الليل؛ لأن بداية الشهر ليست واحدة في بلاد العالم الإسلامي كله، وفضل الله واسع.

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٢٣) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٧/ ١٣١) والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٢٣) وقال: هذا حديث صحيح على شرطهما ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

أخرج عبد بن حميد عن أبي الجَلْد، قال: نزلت صُحُف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لستٌّ خلوْن من رمضان، وأُنزِل الزبور لاثْنَتَيْ عشرةَ ليلةً خلَتْ من رمضان، وأُنْزِل الإنجيل لثماني عشرة ليلةً خلتْ من رمضان، وأُنزل القرآن لأربع وعشرين[١].

فالليلة التي يُفرق فيها كل أمر حكيم ويبرم، هي ليلة القدر، وليست ليلة النصف من شعبان، كما قال بعضهم بناء على آثار وأحاديث وردت في ذلك، ولم يصح منها شيء[٢]. ولا أصل لما يفعله بعض الناس فيها من الاحتفال بها، والدعاء فيها بدعاء معيّن، وتخصيصها بصلاة بنية طول العمر، أوسعة الرزق، ونحو ذلك.

والذي صحَّ عن ليلة النصف من شعبان هو رفع الأعمال إلى الله تعالى فيها، وتحويل القبلة فيها، فقد صحَّ في حديث معاذ بن جبل ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «**يطَّلِع الله في ليلة النصف من شعبان، فيغفر لجميع خلقه إلا لمشرك أو مشاحن**»[٣].

وأحاديث تحويل القبلة معروفة وهي مذكورة في موضعها من سورة البقرة.

ولا علاقة لهذا بتقدير الأمور فيها.

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ الناس بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وتبليغهم ما ينفعهم وما يضرهم لتقوم الحجة على العباد في وجوب ترك الشرك والمعاصي وسائر الذنوب.

---

(١) «الدر المنثور» (١٣/ ٢٤٨) وقد صحَّ هذا المعنى من حديث واثلة بن الأسقع مرفوعًا في الطبراني «الكبير» (١٨٥) والمسند (١٦٩٨٤) قال محققوه: وفيه عمران بن قطان تفرّد به، وقد ضعفه قوم ووثقه آخرون، قالوا: وبقية رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين عدا عبد الرحمن بن عبدالله وهو ثقة، أخرج له البخاري متابعة، والبيهقي في «الشعب» (٢٢٤٨) و«صحيح الجامع» (١٥٠٩) و«سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٥٧٥) وغيرها.

(٢) انظر: «الدر المنثور» (١٣/ ٢٥٢-٢٦١) وكلها أحاديث ضعيفة أو موضوعة.

(٣) أخرجه البيهقي برقم (٣٨٣٣) وابن حبان (٥٦٦٥) وصححه الألباني في كتاب «السُّنَّة» لابن أبي عاصم برقم (٥١٢) وفي «السلسلة الصحيحة» (٣/ ١٣٥). وأخرجه أحمد في المسند عن عبدالله بن عمرو برقم (٦٦٤٢) إلا أنه قال (إلا لاثنين: مشاحن، وقاتل نفس) وهو حديث صحيح بشواهده، وجاء الحديث عن أبي موسى الأشعري عند ابن ماجه (١٣٩٠) وعن أبي هريرة عند البزار (٢٠٤٦) وغيرهم من طرق كثيرة.

أَرْسَلَ اللهُ الرُّسُلَ رَحْمَةً لِلْعِبَادِ

٤-٦- ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

وليلة القدر هي التي يُفْرق فيها كل أمر حكيم، أي: محكم، لا يتغير ولا يتبدَّل من أرزاق العباد وآجالهم وسائر أحوالهم. ويُبْرم، أي: يُقضى ويُفْصَل فيها ما يراد قضاؤه للناس من اللوح المحفوظ مما هو كائن في السنَة المقبلة من الخير والشر، والنفع والضر، فيُدفع إلى الكتَبة من الملائكة كل أمر محكم من الآجال والأرزاق، والأعمال والأحوال، والخير والشر، والبسط والقبض في تلك السَّنة، وغير ذلك مما يكون فيها إلى آخرها، لا يُبدَّل ولا يُغيَّر، فلا رادَّ لقضائه ولا معقِّب لحكمه.

فالأمر الحكيم: هو الأمر الذي أحكمه الله تعالى وأتقنه، من النظُم المدبِّرة لأمر الكون، فتُفصَّل وتُميَّز في هذه الليلة وتكتب في صحائف الملائكة، وبعض هذه الأمور تنفِّذها الملائكة، وبعضها ينفذِّها الرسل، وبعضها يقُوم به الإنسان نفسه.

وقد وكل الله الملائكة بأن تكتب كل ما سيجري على العبد وهو في بطن أمه، ووكلهم به بعد وجوده في الدنيا، يكتبون عليه أعماله ويحفظونها، وفي كل ليلة قَدْرٍ، يقدّر فيها ما يكون في السنة المقبلة.

وهذا لا يتنافى مع المحو والإثبات اليومي، أو الأسبوعي، أو السنوي، الذي يكون في صحف الملائكة، بسبب محو الحسنات للسيئات، كما قال تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ فإن المحصلة النهائية لأعمال العباد تكون موافقة لما هو في اللوح المحفوظ، ولذا قال تعالى في نهاية الآية: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩].

قال ابن عباس ﷺ: يُكتبُ من أم الكتاب في ليلة القدر، ما يكون في السَّنة من رزق، أو موت، أو حياة، أو مطر، حتى يُكْتَبَ الحُجَّاجُ، يحُجُّ فلان ويحج فلان[1].

وقال عكرمة: يؤذن للحجاج ببيت الله في ليلة القدر، فيُكْتبون بأسمائهم وأسماء آبائهم

---

(١) أخرجه محمد بن نصر ص ١٠٥ وابن المنذر وابن أبي حاتم.

فلا يغادر منهم أحد، ولا يُزاد فيهما ولا يُنقص منهما[١].

والشقاء والسعادة ليس فيهما تغيير، وكذا الموت والحياة، فكلها ثابتة في اللوح المحفوظ، والذي ينزل إلى الملائكة في هذه الليلة هو ما سيقع من أحوال العباد في العام المقبل.

قال ابن عباس ﷺ: إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق، وقد وقع اسمه في الموتى، ثم قرأ الآيات. وقال: ففي تلك الليلة يُفْرق أمر الدنيا إلى مثلها من قابل: موت، أو حياة، أو رزق، كل أمر الدنيا يفرق تلك الليلة إلى مثلها من قابل[٢].

ولأن أمْر الله تعالى نافذ لا محالة، وفق اقتضاء علمه وتدبيره، فهو أمر حاصل من الله تعالى، يُرْسِلُ به الأنبياء إلى البشر بالشرائع الإلهية لهدايتهم وإرشادهم، فإنه ﴿أَمْرًا﴾ أنزلناه ﴿مِّنْ عِندِنَا﴾ نقدره في تلك الليلة ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ محمدًا ﷺ ومَنْ قبله من الرسل، يبلِّغون البشر شرع ربهم وأمره ونهيه.

وقد أنزلنا القرآن في الليلة المباركة -ليلة القدر- رحمةً بهذه الأمة، وأرسلنا الرسل جميعًا إلى الخلق: رحمة بهم لإخراجهم من الظلمات إلى النور، ولإنقاذهم من النار والفوز بالجنة؛ حتى يجتنبوا السيئات ويكتسبوا الحسنات، أرسلناهم ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ -أيها الرسول- أي: من أجل الرأفة والرحمة بالمرسل إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء].

وما دامت الرسالة رحمة، فإن الرسول أيضًا رحمة، أرسله الله تعالى لتقويم الناس ولإصلاح عقائدهم وأعمالهم، وكفِّهم عن الفساد، فما رحم الله عباده برحمة أجلّ من هدايتهم بالكتب وإرسال الرسل ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال العباد، ، يسمع جميع الأصوات ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوال جميع خلقه الظاهرة والباطنة. قال تعالى:

٧- ﴿رَبِّ[٣] ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾﴾

---

(١) ابن أبي شيبة (٤/ ١١٧).

(٢) صححه الحاكم والذهبي (٢/ ٤٤٨) والبيهقي في «الشعب» برقم (٣٣٨٨) قال المحقق: إسناد رجاله ثقات، وهو عند الطبري (٢١/ ١٠).

(٣) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف بخفض (ربِّ) بدلًا من (ربك)، والباقون بالرفع، خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو رب.

إنه ﷻ خالق الكون وما فيه من الأشياء كلها ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ أي: خالقهما وموجدهما، وخالق ما بينهما من الهواء والمخلوقات التي لا يعلمها إلا هو سبحانه، والمشركون يُقرُّون بذلك، ويُقرُّون بأن الأصنام لا تخلُق شيئًا، وهذا يُلزمهم بالتوجُّه في عبادتهم إلى الله وحده، ولكن أفعالهم تخالف أقوالهم، والجدير بالعبادة هو الخالق وليس المخلوق ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧].

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [النحل].

والأصنام لا تسمع ولا تعلم، ولا تنفع ولا تضر.

وفي هذا إيقاظ لعقول الشاكِّين، فلا مجال للشك في الإله الحق، المستحق للعبادة دون سواه، فـ ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ بذلك فاعلموا أن رب المخلوقات هو الإله الواحد.

فجواب الشرط محذوف، أي: إن كنتم من أهل اليقين، فاعلموا أن الله تعالى رب السموات والأرض وما فيهما وما بينهما. قال تعالى:

٨- ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾

أي لا معبود بحق إلا الله وحده لا شريك له، فلا يستحق العبادة أحد غيره، لا رب غيره، ولا معبود سواه، وهو سبحانه المتصف بصفات الجلال والكمال، يُحيي الأموات، ويميت الأحياء، وسيجمعكم بعد موتكم فيجازيكم بعملكم إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

وهو سبحانه خالقكم وخالق مَنْ سبقكم، فهو الذي ربَّاكم بنعَمِه، وربَّى آباءكم الذين أنتم من نسلهم، ويُربِّي سائر الخلق إلى قيام الساعة.

والمشركون لا ينازعون في أن الله تعالى هو المحيي المميت، وأن الأصنام لا تحيي ولا تميت، وإذن فهي لا تستحق العبادة؛ لأنها لا تضر ولا تنفع، وهذا كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وذكر الآباء الأولين حجةٌ أعظم من ذِكْر الآباء الأقربين، ليسجل الله عليهم الإلزام بعدم جحد الأدلة وعدم كفران النعمة.

الدُّخَانُ الْمُرْتَقَبُ

٩، ١٠- ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ۝١٠﴾

ثم بيَّن سبحانه أن إقرار المشركين بأن الله تعالى هو الخالق الرازق، غير صادر عن علم ويقين ثابت، بل هو كالْعَدَم؛ لأنهم خَلَطوهُ بالشك، فحملهم على اللعب والاستهزاء ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾ من الحق، وليسوا موقنين بما يقولونه من أن الله تعالى هو الخالق الرازق، إنهم غافلون عما خُلقوا له، واشتغلوا باللعب الباطل الذي لا يجلب لهم إلا الضرر، فهم ﴿يَلْعَبُونَ﴾ فلا يصدقون به؛ لأنهم لا يتدبَّرون البراهين القاطعة، ولا يُميِّزون بين الحق والباطل، والنافع والضار، ولو كان إقرارهم بأن الله تعالى هو الخالق الرازق، صادر عن إيمان ويقين، لحملهم هذا على توحيد الله تعالى، وتوجيه العبادة إليه وحده، وعدم اتخاذ وسطاء بينهم وبين الله تعالى، ولكنه إقرار هش، واعتراف أجوف.

ثم توعَّد الله سبحانه الجاحدين بالتوحيد، المكذبين للرسالة، فتوعَّدهم بالبطش والانتقام منهم في الدنيا قبل الآخرة، فخاطب الله نبيه، وأمره أن يترقب وينتظر نزول عذاب الله بهم.

وهذا الدُّخَان المذكور في الآية، قيل: إنه من أشراط الساعة، يأخذ بأنفاس الناس، ويصيب المؤمنين كهيئة الدخان، يمكث في الأرض أربعين يومًا.

وقيل: إنه أمر قد مضى وحدث لأهل مكة لَمَّا دعا عليهم النبي ﷺ، فكان أحدهم يرى ما بين السماء والأرض كأنه دخان من شدة الجوع، فهو دخان بالنسبة لأبصارهم، وليس بدخان على الحقيقة في هذا القول.

والمعنى: انتظر -أيها الرسول- على هؤلاء المشركين يوم يأتي عذابهم من السماء بدخان واضح كثيف، يعُمُّ الناس ويراه كل أحد.

والدُّخَان في الأصل: هو ما يتصاعد من النار، وهو أيضًا: الغبار الذي تثيره الرياح من الأرض الشديدة الجفاف، فيتصاعد إلى أعلى كما يتصاعد الغُبار الذي تثيره سنابك الخيل.

وللمفسرين في تفسير الآية **اتجاهات:**

الاتجاه الأول: قال بعضهم: إن الدُّخَان قد وقع فعلًا لأهل مكة، لَمَّا أصرُّوا على كفرهم وإعراضهم، فدعا عليهم الرسول ﷺ فأصابهم القحط والجوع، حتى أكلوا الجيف مدة سبع سنين، وكان الرجل يُحدِّث أخاه فيَسمع صوته ولا يراه لشدة الدُّخَان بين السماء والأرض، وذلك أن الجائع جدًّا، يضعُف بصره، فيُصاب بظُلْمة، ويرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدُّخَان، وممن قال بهذا عبد الله بن مسعود، وأبو العالية، وإبراهيم النخعي[1]. وعلى هذا فإن المراد بالدخان، ما يكون في عين الرائي من شدة الجوع وليس بدخان على وجه الحقيقة.

من أدلة الاتجاه الأول: ما جاء في الصحيحين وغيرهما، عن مسروق قال: دخلْنا المسجد -يعني: مسجد الكوفة- عند أبواب كندة فإذا رجل يقُصُّ على أصحابه ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ يسألهم: أتدرُون ما ذلك الدُّخَان؟ قال: ذاك دخان يأتي يوم القيامة، فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمنين منه شبْه الزكام.

قال: فأتيْنا ابن مسعود ﷺ، فذكرنا ذلك له، وكان مضطجعًا ففزع فقعد، وقال: إن الله ﷻ قال لنبيكم: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [ص]. إن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم، سأُحدِّثكم عن ذلك: إن قريشًا لَمَّا أبطأت عن الإسلام واستعْصتْ على رسول الله ﷺ دَعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم من الجَهْد والجوع حتى أكلوا العظام والميْتة، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء، فلا يروْن إلا الدُّخَان.

وفي رواية: فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدُّخَان من الجَهْد. قال الله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ قال: فأتى رسول الله ﷺ، فقيل: يا رسول الله، استسق الله لِمُضَر، فإنها قد هلكت، فاستسقى لهم فَسُقوا، فأنزل الله ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ [١٥].

قال ابن مسعود: فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم، فأنزل الله ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ قال: يعني يوم بدر.

---

(١) يُنظَر: «تفسير ابن عطية» (٥/ ٦٩).

قال ابن مسعود: مضى خمس: الدُّخَان، والروم، والقمر، والبطشة، واللِّزام[١].

وأخرج الطبري وابن أبي حاتم عن عكرمة مولى ابن عباس قال: قال ابن مسعود: البطشة الكبرى يوم بدر، وأنا أقول: هي يوم القيامة[٢].

الاتجاه الثاني: أنه دخان يحدث قرب قيام الساعة، ويكون من أماراتها، ويصيب المؤمن منه مثل الزكام، ويدخل في مسامع الكافر والمنافق حتى يكون كالرأس الحنيذ، فينفخه، ويكون كالسكران، ويخرج من منخريه وأذنيه، وممن قال بهذا على بن أبي طالب، وزيد بن علي، وابن عمر، وابن عباس، والحسن بن أبي الحسن، وأبو سعيد الخدري.

والتهديد بهذا اليوم كالوعيد المتكرر في القرآن الكريم، وأنه آتٍ قريب الحصول، وعليهم أن يترقبُوه، ولكل اتجاه منهما أدلته الصحيحة:

ومن أدلة الاتجاه الثاني: ما رواه حذيفة بن أسيد الغفاري ﷺ قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة، ونحن نتذاكر الساعة، فقال: «**لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدُّخَان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم، والدجال، وثلاثة خسوف: خسْف بالمشرق، وخسْف بالمغرب، وخسْف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعْر عدَن تسوق الناس -أو تحشر الناس- فتبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا**»[٣].

وفي حديث حذيفة بن أسيد: أن النبيَّ ﷺ قال: «**إن أول آيات الساعة: الدُّخَان، ونزول عيسى ابن مريم، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى الحشر، تَقيل معهم إذا قالوا**»، قال حذيفة: يا رسول الله، وما الدُّخَان؟ فتلا رسول الله ﷺ الآية ثم قال: «**يملأ ما بين المشرق والمغرب، يمكث أربعين يومًا وليلة، أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكمة، وأما**

(١) يُنظَر: دليل الاتجاه الأول المذكور في البخاري بأرقام (٤٧٧٤، ٤٨٢١، ٤٨٢٤) ومسلم بأرقام (٢١٥٦، ٢١٥٧، ٢٧٩٨) والترمذي (٣٢٥٤) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٠٢، ١١٤٨١) والطبراني (٩٠٤٦، ٩٠٤٨) وغيرهم، و«المسند» (٣٦١٣، ٤١٠٤) بإسناد صحيح على شرط الشيخين.

(٢) قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح عنه (٧/ ٢٤٨) وهو في الطبري (٢١/ ٢٧).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٠١).

الكافر فيكون بمنزلة السكران، يخرج من منخريه وأذنيه ودبره»[١].

قال الطبراني: إن صحَّ حديث حذيفة يكون قد مرَّ دخان ويأتي دخان.

قال الشوكاني: ولا منافاة بين كون هذه الآية نازلة في الدُّخَان الذي كان يتراءى لقريش من الجوع، وبين كون الدُّخَان من آيات الساعة وعلاماتها وأشراطها[٢].

فقد صح الحديث بكلٍّ منهما، وليس هناك ما يمنع من الجمع بينهما.

الاتجاه الثالث: وقيل: إنه الدخان الذي يغشى الناس ويعمهم حين تقترب النار من المجرمين في يوم القيامة، وقد توعدهم الله بهذا العذاب، وأمر نبيه أن ينتظر بهم ذلك اليوم.

وهذه هي طريقة القرآن في الترهيب والوعيد، وتسلية الرسول ﷺ بانتظار عذابهم. ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾.

ويقال هذا للكافر حين يطلب الرجوع إلى الدنيا، فيقال له: قد ذهب وقت الرجوع[٣].

وقال الشيخ محمد الغزالي: وهناك رأي آخر أميل إليه: ربما كان الدُّخَان آية يكشف عنها الغد، وكما يَوْجل العالم الآن من **ثُقْب الأُوزُون** وخطره على الناس قد تتمخض الآفاق عن مصيبة داهمة وعذاب أليم لما شاع في الأرض من إلحاد وفسوق، ولما يلقاه الإسلام من خصومة وجفاء، ولما يُوجَّه إلى شخص الرسول من مفتريات[٤].

وهذا اتجاه رابع في معنى الدخان.

قلت: والأحاديث السابقة تشير إلى ما قاله الطبري، من أنه مرّ دُخان ويأتي دُخان. قال تعالى:

١١، ١٢- ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾

---

(١) «معالم التنزيل» للبغوي (٧/ ٢٣٠) و«تفسير الطبري» (٢٥/ ٦٨) قال الحافظ في «الفتح» بلفظ: قال حذيفة: يا رسول الله، وما الدخان؟ (٨/ ٥٧٣): إسناده ضعيف.، وقال في عون المعبود عن اللفظ المثبت في المتن إسناده صحيح ورجاله رجال الصحيح (١١/ ٢٩١).

(٢) «فتح القدير» (٤/ ٥٤٩).

(٣) ينظر: تفسير الشيخ ابن سعدي رحمه الله في تفسير الآية.

(٤) «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن» ص ٣٨٥ .

أي: وهذا الدُّخَان يعم الناس ويحيط بهم من كل جانب، فيكون خفيفًا على المؤمن، فيصيبه مثل الزكام، ويكون شديدًا على الكافر والمنافق، فيملأ جوفه ويخرج من منخريه وأذنيه ودُبره، ويجعله كالسكران، ويجعلهم يتضرعون إلى الله تعالى ويقولون: هذا عذاب شديد الألم، عظيم الهول ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي: يحيط بهم، فيقولون أو يقال لهم: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ شديد الألم.

ورد أن كفار قريش جاؤوا إلى النبي ﷺ يقولون: إنْ كشف الله عنا ما نحن فيه من جوع أسلمنا، فهم يسألون الله تعالى أن يرفع عنهم هذا العذاب، فيقولون: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ﴾ الذي نحن فيه، فإن كشفْته عنا آمنا برسولك واتبعنا دعوته ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ هذا وعْد منهم بالإيمان، وقد أجاب الله دعاءهم فصرفه عنهم، وأخبر أنهم سيعودون إلى الاستكبار والتكذيب وأن الله تعالى سيعاقبهم بالبطشة الكبرى ﴿إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الزخرف].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الأعراف].

وهكذا يقول الكافرون عند معاينة العذاب: ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

اسْتِبْعَادُ إِيمَانِ الْكُفَّارِ

١٣، ١٤- ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾

ثم إن الله تعالى كذَّب وعْدهم بالإيمان، حين قالوا ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ وبيَّن أنه أمر مستبعد، فقال: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي: من أين لهم أن يتذكروا، وهم قد تركوا الذكرى وراء ظهورهم، فقد جاءهم رسول مبين هو محمد ﷺ فكفروا به، وأعرضوا عنه، ووصفوه بالجنون!

قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾ [سبأ].

وكيف يتذكرون وهم في شك يلعبون؟ فمن أين يحصل لهم الإيمان والخوف من الله تعالى عند ظهور الدُّخَان المبين، وقد سُدَّت عليهم طرق الهداية، بطعْنهم في الرسول ﷺ الذي لم يترك بابًا من أبواب الخير إلا أرشدهم إليه، ولم يترك وسيلة من وسائل الهداية إلا سلكها معهم ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ مؤيَّد بالآيات الباهرات، والمعجزات الظاهرات، وهو محمد ﷺ فلم يؤمنوا به ولم يتبعُوه.

بل شكُّوا في رسالته، وأعرضوا عنه، ووصفوه مرة بأنه يُعلِّمه غيره، ومرة بأنه مجنون، ومرة بأنه ساحر، وهكذا ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾ وكذَّبوه ﴿وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ﴾ علَّمه بشر، أو علَّمه الكهنة، أو الشياطين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣]. ونسبوه إلى الجنون فقالوا: إنه ﴿مَّجْنُونٌ﴾ فهو يهذي ويتخبط وليس برسول. قال تعالى مُبيِّنًا أنه سيكشف عنهم شيئًا من العذاب، ولكنهم لن يُقْلعوا عن الكفر:

١٥- ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾

أعلم الله تعالى نبيَّه بأنه سيُجيب سؤالهم الذي سألوه في قولهم: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ﴾ وأنه سبحانه سيكشف عنهم العذاب المتوعَّد به مدَّةً من الزمن، ثم أخبر سبحانه أنهم سيعودون مرة أخرى إلى ما كانوا عليه من الكفر، هذا معنى ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ وهو يتضمن أن كشف العذاب عنهم قليلًا بعد وصوله إليهم، يكون في الدنيا، وأنهم سيستمرون فيما هم فيه من الضلال والطغيان، ولا يلزم من ذلك أن يكون العذاب قد باشرهم ونزل بهم، كما قال تعالى عن قوم يونس: ﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

والمعنى الآخر للآية: أن الله تعالى لو كشف عنهم العذاب في الآخرة ورجعوا إلى الدنيا لعادوا إلى ما كانوا فيه من الكفر، وهذا معنى ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: إنا سنكشف عنكم العذاب في المستقبل زمنًا ﴿قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ أي: ثم تعودون إلى ما كنتم عليه من الشرك والعصيان، ولن تُوَفُّوا بعهدكم؛ لأنهم كعادتهم يتضرعون إلى الله تعالى في حالة الخوف والضر، فإذا زال عنهم ما هم فيه رجعوا إلى ما كانوا عليه.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]

وذلك لأنه لم يوجد منهم إيمان أصلًا حتى يتركوه ويعودوا إلى الكفر، وإنما الذي وُجد منهم هو الوعد بالإيمان إذا انكشف عنهم العذاب، فلما انكشف عنهم العذاب نقضوا عهودهم، وهذه المدة التي أمسكوا فيها عن إيذاء النبي ﷺ هي المدة التي أرْسلوا فيها وفْدهم إلى المدينة ليسأل الرسول ﷺ أن يدعو الله تعالى لهم أن يكشف عنهم القحط، فإنهم توقَّفُوا خلالها عن الطعن والذم فيه، وهذا شأن أهل الكفر في كل زمان ومكان، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الزمر: ٨].

ورَد أن الله تعالى كشف عن أهل مكة القحط بعد استسقاء النبي ﷺ لهم، ثم عادوا، فعاودهم القحط بعد سبع سنين، وهكذا وصف الله أهل الكفر والتكذيب بقوله: ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المؤمنون].

وليست هذه هي المرة الوحيدة التي أغاث الله فيها العباد والبلاد ببركة دعاء النبي ﷺ، فقد حدث هذا مرارًا.

ومن ذلك ما جاء في الصحيح وغيره عن أنس ﷺ: أن رجلًا جاء يوم الجمعة والنبي ﷺ يخطب، فقال: يا رسول الله، هلك الزرع والضرع، فادع الله أن يسقينا، فرفع يديه وقال: **«اللهم اسقنا»** ثلاثًا، وما يُرى في السماء قَزَعة سحاب، فأُمطِروا من الجمعة إلى الجمعة، حتى سالت الأودية، وسال وادي قَنَاةَ، شهرًا، فأتاه آتٍ في الجمعة القابلة، هو الأول أو غيره، فقال: يا رسول الله، تقطعت السبل، فادع الله أن يمسك المطر عنا، فقال: **«اللهم حوالينا ولا علينا»**(١).

فتفرَّقت السحب، حتى صارت المدينة في شبه الإكليل من السحاب.

---

(١) يُنظَر الحديث في: البخاري (١٠١٣-١٠١٩) ومسلم (٨٩٧) وأبي داود (١١٧٥) والنسائي في «الكبرى» (٨١٨) وابن حبَّان (٢٨٥٧) و«المسند» (٧٢١٣) وابن ماجه (١٢٧١).

الْبَطْشَةُ الْكُبْرَى

١٦- ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ[١] ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾

هذا وعيدٌ من الله تعالى بأنه سيعاقب الظالمين يوم القيامة، وهو يوم البطشة الكبرى، وهذا قول ابن عباس والحسن وعكرمة وقتادة.

وقال ابن مسعود وأُبَيُّ بن كعب ومجاهد: هو يوم بدر[٢] ولعل الأول هو المراد.

فقد بيَّن سبحانه في هذه الآية الانتقام الذي وعد الرسول ﷺ به أئمة الكفر.

أي: يوم نعذب جميع الكفار العذاب الأكبر يوم القيامة، فهو يوم الانتقام التام، وهو أعظم أنواع البطش، وأشدُّه وأدْوَمُه، حيث يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

وهذا لا يمنع أن تصيبهم في الدنيا ألوان من العذاب، كما حدث للمشركين يوم بدر، فقُتل سبعون من صناديدهم.

وفي رواية ابن عباس ﷺ: أن البطشة الكبرى يوم القيامة، .

روى ابن مسعود ﷺ أنها يوم بدر.

وفي هذا إشارة إلى عذاب الدنيا والآخرة، ولكن البطشة الكبرى على الإطلاق هي عذاب يوم القيامة، وهو الأرجح فيما يظهر لي، والعلم عند الله.

الِاعْتِبَارُ بِمَا حَدَثَ لِفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ مِنْ عِقَابٍ

١٧- ﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

ذكَّر الله تعالى كفار هذه الأمة بما حلَّ بفرعون وقومه من الطغاة قبلهم، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: ولقد ابتلينا واختبرنا قبل مكذبي هذه الأمة، قوم فرعون، فأرسلنا إليهم موسى، كما أرسلنا إلى الأمم قبلهم رسلنا فكذبوهم، أو ابتليناهم بسعة الرزق فطغَوْا وبغَوْا، ولفرعون نظائر، ولقومه نظائر:

---

(١) قرأ أبو جعفر بضم الطاء من (نبطُش)، والباقون بكسرها، وهما لغتان.

(٢) يُنظَر: «تفسير ابن عطية» (٥/ ٧٠) و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٥١) وغيرهما.

فمن هذه الأمة في عصر التنزيل: أبوجهل وهو يشبه فرعون، وقوم فرعون يشبهون كفار قريش، وموسى يشبه محمدًا، وبنو إسرائيل يشبهون المسلمين، وكما انتقمنا من قوم فرعون ننتقم من كفار هذه الأمة، ﴿وَجَآءَهُمْ﴾ أي: قد أُرسل إلى هذه الأمة ﴿رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ هو محمد ﷺ، كما أُرسل إلى فرعون وقومه رسول كريم، أي: رسول شريف من أكرم عباد الله، ومن خيرة الرسل، ومن خيرة الناس وأكرمهم، وهو موسى ﷺ.

وأصل **الفتنة**: اختبار الذهب بالنار لمعرفة جوْدته من رداءته، وقد فَتَن الله قوم فرعون، أي: امتحنهم بالسراء والضراء، وبالتوسعة والتضييق عليهم، وأرسل لهم رسولًا كريم الحسب والنسب لعلهم يثوبون إلى رشدهم، أو يُقْلعون عن كفرهم، ولمَّا لم يهتدوا أهلكهم الله فأغرقهم أجمعين.

مُوسَى يَطْلُبُ مِنْ فِرْعَوْنَ إِطْلَاقَ سَرَاحِ بَنِي إِسْرَائِيلَ

١٨، ١٩ - ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ[1] ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾

وقد أرسل الله موسى ﷺ ليدعو فرعون إلى الإيمان، ويُخلِّص بني إسرائيل من ذُله واستعباده لهم، ولَمَّا لم يؤمن فرعون توجَّه إليه موسى يطلب منه بني إسرائيل ليخرج بهم من مصر، فهم بمثابة الأمانة عند فرعون، وموسى يطلب منه أداء هذه الأمانة، فيقول: ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَىَّ﴾ أي: سلِّموا إليَّ ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ من بني إسرائيل، وأطلقوهم من عذابكم، وأرْسِلوهم معي ليتحرَّرُوا من الذل والهوان، ويعيشوا أحرارًا، فإنهم أهلي وعشيرتي، وقد استعبدتموهم بغير حق، فأرسلوهم ليعبدوا ربهم، وهذا كما قال تعالى لموسى وهارون: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه: ٤٧].

وقال سبحانه: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾ [الشعراء].

ثم أعلمهم موسى ﷺ بأنه رسول الله إليهم، مؤتمن على وحي الله تعالى، وهو لهم ناصح أمين، يجب عليهم أن يستجيبوا له، فقال: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من رب العالمين لتعبدوا الله وحده لا شريك له ﴿أَمِينٌ﴾ على وحي الله ورسالته، لا أكتمكم منه شيئًا، ولا

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (إنيَ آتيكم) في حالة الوصل، والباقون بإسكانها.

أزيد فيه ولا أنقص منه، وهذا يوجب تمام الانقياد له.

ثم نهى موسى فرعون وقومه عن الاستكبار في الأرض، والعلو على أمر الله ورسوله، فقال: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: استجيبوا لدعوتي وأطلقوا سراح بني إسرائيل، ولا تتكبروا على الله بتكذيب رسله والاستكبار عن عبادته ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وإن الله تعالى قد أيَّدني بحجة واضحة، وبرهان ساطع على رسالتي إليكم ﴿إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بمعجزات بيِّنات على صدق رسالتي إليكم. فكذبوه وهمّوا بقتله، فاستجار بالله تعالى من شرورهم.

فِرْعَوْنُ يَتَوَعَّدُ مُوسَى بِالرَّجْمِ

٢٠، ٢١- ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا[1] لِي فَاعْتَزِلُونِ[2] ﴿٢١﴾﴾

فلما طلب موسى عليه السلام من فرعون إطلاق سراح بني إسرائيل وتخليصهم من أسْرِه وسلطانه، توعَّده بالقتل، فالتجأ إلى الله تعالى وتعوَّذ به من أن يؤذوه بقول أو فعل.

والمعنى: إني استجرت بخالقي وخالقكم أن تقتلوني رميًا بالحجارة، فهو يخوِّفهم الله الذي يمنعهم من الاعتداء عليه؛ حتى لا يتراجع عن دعوته لهم بحال من الأحوال، وكان من عادتهم عقاب من يخالف دينهم رميًا بالحجارة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣].

وإن لم تصدقوا بالمعجزات التي أيدني الله بها فلا ترجمُوني، ولكن اعْتزلُوني وأعْتزلكم، واتركوني وشأني، ولا تضعوا العقبات في طريقي، حتى أبلِّغ رسالة ربي، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، فخلُّوا سبيلي، وكُفُّوا عن أذاي؛ فإنه لا موالاة ولا صلة بيني وبينكم ما دمتم مُصرين على الكفر.

---

(١) قرأ ورش وأبو عمرو بخلف عنه وأبو جعفر بإبدال همزة (تؤمنوا لي) واوًا في الحالين، وحمزة وقفًا، وفتح ورش ياء الإضافة، وأسكنها الباقون.

(٢) قرأ ورش بإثبات الياء من (ترجمون) و (فاعتزلون) وصلًا، وأثبتهما يعقوب وصلًا ووقفًا، وحذفهما الباقون في الحالين.

وهكذا فقد طلب موسى ﷺ منهم أن يؤمنوا به، ثم طلب منهم أن يعتزلوه ويكُفوا عنه شرهم إن لم يؤمنوا به، ولكنهم لم يؤمنوا به ولم يعتزلوه، بل ظلوا متمردين عليه محاربين لدعوته، ولم يطلقوا له سراح بني إسرائيل، وحينئذ دعا عليهم.

مُوسَى يَدْعُو عَلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ

٢٢- ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

وَلَمَّا كذَّبوا موسى ولم يستجيبوا لدعوته، وأصرُّوا على أذاه، وعدم التخلية بينه وبين الدعوة إلى الله تعالى، ولَمَّا لم يُطْلقُوا سراح بني إسرائيل، ولم يجدْ موسى منهم آذانًا صاغية، بعد أن طال مقامه بينهم، وأقام حجج الله عليهم، ولم يزدْهم ذلك إلا كفرًا وعنادًا، عندئذ دعا ربه دعوة نفذت فيهم ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ مشركون بالله، كافرون به، وقد جاءت دعوته عليهم في قوله تعالى حكاية عنه: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [يونس].

وفي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس] كأنَّ موسى ﷺ دعا ربه بقلب حار، يقول: يارب، إن فرعون وشيعته قوم راسخون في الكفر والإجرام، فأنزِلْ بهم عقابك الذي يستحقونه.

أَمْرُ اللَّهِ لِمُوسَى أَنْ يَخْرُجَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ

٢٣، ٢٤- ﴿فَأَسْرِ[1] بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾

أجاب الله دعاء موسى ﷺ، فأمره أن يخرج من بين أظهرهم خفية، وهذا معنى ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا﴾ أي: أوحينا إلى موسى، وقلنا له: اخرج ببني إسرائيل ومن آمن معك من أهل مصر، من الذين اتبعوك منهم دون الذين كذَّبوك، اخرُج ليلًا. فالسُّرَى هو السيْر ليلًا، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١].

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر بهمزة وصل في (فأسر). والباقون بهمزة قطع.

وقال تعالى: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٥٢﴾ [الشعراء].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ۝٧٧﴾ [طه].

ثم أخبر الله تعالى موسى ﷺ بأن حكمته وتدبيره تقضي بأن يتقدم هو وقومه حتى يتبعهم فرعون وجنوده، فينجي الله المتقدمين ويُغرق المتأخرين، وهذا معنى ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ أي: يتبعكم فرعون وجنوده.

وقد وجَّه الله تعالى موسى ﷺ، بأنه إذا وصل إلى البحر الأحمر فلْيضرب البحر بعصاه، فإنه سينفلق بإذن الله تعالى اثني عشر طريقًا بعدد أسباط بني إسرائيل، وسوف يتراكم الماء بعضه فوق بعض، فيتجمَّد كالجبل الأشم، ويكون قعْره يابسًا، فاعبُر -ياموسى- أنت ومن معك البحر، ولا تحاول أن تضرب البحر بعصاك مرة أخرى بعد خروجك منه، بل اتركه هادئًا ساكنًا على حالته حتى يغترَّ فرعون وجنوده، فينزلوا البحر ليَلْحقوا بك، فيُطبِق الله عليهم البحر، فيغرقوا ويَهْلكوا جميعًا، وينجي الله بَدَن فرعون؛ ليكون آية وعبرة لمن يأتي بعده على مر الأيام.

﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ الرَّهْو: هو الساكن الهادئ، أو هو الفُرجة الواسعة، أي: اتركه مفتوحًا كما هو على حالته التي كان عليها حين سلكْتَه، ساكنًا غير مضطرب ليسلكه فرعون وجنوده ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ أي: إن أعداءك سيُغْرَقون فيه غرقًا يدمِّرهم ويهلكهم، فلا تخش من أن يلحق بك فرعون وجنده، فإنهم سيدْخلون البحر ولن يخرجوا منه، وفي هذا طَمْأنة لموسى ﷺ ومعجزة له، وقد أعلمه الله بهذا مسبقًا؛ كي يبقى فارغ القلب من شرهم وإيذائهم، مطمئنًا إلى أنهم لن يُدْرِكوه.

أخرج الطبري بسند حسن عن قتادة قال: لما خرج آخر بني إسرائيل أراد نبي الله ﷺ أن يضرب البحر بعصاه حتى يعود كما كان، مخافة آل فرعون أن يُدركوه، فقيل له: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ۝٢٤﴾.

ولَمّا خرج آخر رجل من بني إسرائيل وعبر البحر، نزل في أثَرهم فرعون وجنده، فأمر الله البحر أن ينطبق عليهم، فغرقوا عن آخرهم، ونجي الله فرعون جسدًا بلا روح، ليكون

عبرة للطغاة في كل زمان ومكان، وترك بنو إسرائيل ما مُتّعُوا به في الدنيا من النعيم، وأورثه الله بني إسرائيل الذين كانوا مستعبدين لفرعون وقومه.

وِرَاثَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِمِثْلِ حَضَارَةِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ

٢٥-٢٧- ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ[١] ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ[٢]﴾

ثم بيَّن الله سبحانه العبرة من عاقبة الظالمين المغرورين، فبعد أن أغرق الله فرعون وقومه، خلَّفُوا وراءهم الكثير مما ورثه آخرون ، حيث تركوه لغيرهم ممن جاء بعدهم، فما أكثر ما ترك هؤلاء المهلَكون المغرَقون من بساتين، وجنات ناضرة، وحدائق غنَّاء، وأنهار وعيون من المياه جارية، فقد كانت الحدائق بحافتَيْ نهر النيل من أوله إلى آخره على الجانبين، ما بين أسوان إلى رشيد، وله تسعة فروع في الإسكندرية ودمياط والفيوم.. إلخ، كلها متصلة ببعضها.

وكم تركوا من زروع كثيرة تبلغ ما بلغ النيل، فأرض مصر تُروى بالماء الجاري في القنوات والجداول، وفيها الكثير من جميع أنواع الزراعة والأشجار والثمار والنبات.

وكم تركوا من منازل جميلة، وقصور عظيمة، ومجالس ومساكن مزينة بألوان الزينة والزخارف، وقد سمى الله تعالى ذلك: مقامًا كريمًا.

وكم ترك بنو إسرائيل من عيشة مترفة بكثرة النعم، ورغد العيش، وكثرة الفاكهة، مع الرفاهية والسرور، يأكلون ويشربون ويلبسون ما شاؤوا، مما يتلذذون به مع الجاه والحكْم، فسُلِبوا هذا كله.

والنَّعمة بفتح النون: هي الرفاهية والبهجة والسرور، مع وجود من يتمتع بها.

وبكسر النون: كثرة المال والمتاع، ولا يلزم وجود من يتمتع بهما.

قال الفخر الرازي: بيَّن تعالى أنه بعد غرقهم تركوا هذه الأشياء الخمسة: الجنات،

---

(١) قرأ ابن كثير وابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي بكسر العين من (عِيون)، وضمها غيرهم، وهما لغتان.

(٢) قرأ أبو جعفر بحذف الألف من (فاكهين) على أنها صفة مشبهة، من فكِه أو عجب أو تلذذ أو تفكَّه، والباقون بإثبات الألف، اسم فاعل، أي: أصحاب فاكهة.

والعيون، والزروع، والمقام الكريم -وهي المنازل والمجالس الحسَنة- ونَعْمة العيش، وهي حُسْنه ونضارته[١]. قال تعالى:

٢٨- ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾

أي: وبمثل هذا العقاب يعاقب الله من كذَّب وبدَّل نعمة الله كُفرًا، وقد أورث الله تلك النعم من بعد فرعون وقومه، قومًا آخرين خلَفوهم من بني إسرائيل، وهؤلاء الآخرون فسَّرهم قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء].

وبنو إسرائيل لم يَرِثُوا مُلْك فرعون بالذات، ولكنهم ورثوا مُلكًا مثله في أرض أخرى، ولا يصح أن بني إسرائيل ورثوا أرض مصر؛ لأنهم لم يرجعوا إلى مصر بعد أن خرجوا منها مع موسى ولم يتملكوها على مر التاريخ.

فالمعنى: أن بني إسرائيل ورثوا الملك والنعمة التي زالت عن فرعون وملئه في أماكن أخرى.

قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

بُكَاءُ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ عَلَى مَنْ مَاتَ مُؤْمِنًا

٢٩- ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ[٢] ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

ولَمَّا أهلك الله فرعون وقومه وأتلف ما كانوا فيه من نعيم ومتاع، لم يحزن لموتهم أحد، ولم يأس أحد على فراقهم، بل استبشر بهلاكهم وهلاك حرثهم ونسلهم كل أحد، حتى السماء والأرض، لأنهم لم يتركوا خلفهم إلا ما يوجب مقت الله تعالى وغضبه، وقد كانوا ملء السمع والبصر، يُذِلُّون غيرهم، ويملكون الجنّات والعيون، ولم يؤخر الله عذابهم للآخرة، أو ليوم آخر من الدنيا، بل نزل بهم الغرق والهلاك دون تأخير ولا تسويف.

ولم تكن لهم أعمال صالحة تصعد إلى أبواب السماء، فتبكي السماء على فقدهم، وليست لهم في الأرض بقاع عبدوا الله فيها فَفَقَدَتْهُم، فلهذا استحقوا ألا يُنظَروا ولا

(١) «التفسير الكبير» (٢٧/ ٢٤٦).

(٢) ضم الهاء من (عليهُم) حمزة والكسائي وخلف ويعقوب، والباقون بكسرها.

يؤخّروا لكفرهم وإجرامهم وعُتُوِّهم وعنادهم، وقد كانت الدنيا أعظم شيء عندهم فذهبوا وبقيت الدنيا كما هي على قدر حالها.

ولم يمهل الله فرعون وقومه بل عاجلهم بالعقوبة في الدنيا ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

وقد وردت آثار كثيرة في هذا المعنى، منها:

(أ) ما أخرجه ابن أبي حاتم بسنده: أن رجلًا سأل عليًّا ﷺ: هل تبكي السماء والأرض على أحد؟ فقال له: لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبلك، إنه ليس من عبد إلا له مُصلًّى في الأرض، ومصعد عمله من السماء، وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح في الأرض، ولا عمل يصعد في السماء، ثم قرأ الآية[١] والسماء والأرض لا يبكيان على كافر.

(ب) وأخرج ابن جرير بسنده أن رجلًا سأل ابن عباس ﷺ عن الآية: هل تبكي السماء والأرض على أحد؟ قال: نعم، إنه ليس أحد من الخلائق إلا وله باب في السماء، منه ينزل رزقه، وفيه يصعد عمله، فإذا مات المؤمن فأُغلق بابه من السماء الذي كان يصعد فيه عمله، ويتنزل منه رزقه بكى عليه، وإذا فقد مُصلَّاه من الأرض التي كان يصلِّي فيها، ويذكر الله فيها بكت عليه، وإن قوم فرعون لم تكن لهم آثار صالحة، ولم يكن يصعد إلى الله منهم خير، فلم تبك عليهم السماء والأرض[٢].

قيل: إن بكاء السماء حُمرة أطرافها، كما قيل: إن السماء احمرت يوم قتل الحسين بن علي، وقيل: إنها تبكي عليهم أربعين صباحًا.

(ج) قال سعيد بن جبير: لم تبك عليهم السماء؛ لأنهم لم يكونوا يُرفع لهم فيها عمل صالح، ولم تبك عليهم الأرض؛ لأنهم لم يكونوا يعملون فيها بعمل صالح[٣].

(د) وفي الأثر: **«ما مات مؤمن في غربة غابت عنه فيها بواكيه، إلا بكت عليه السماء والأرض»**[٤].

(هـ) وقال مجاهد: وما للأرض لا تبكي على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود؟.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٥٣).

(٢) «تفسير الطبري» (٢٥/ ٧٤) والبيهقي (٣٢٨٨).

(٣) وأخرجه عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (١٣/ ٢٧٥).

(٤) عن شريح بن عبيد الحضرمي مرسلًا، «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٣).

وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتكبيره وتسبيحه فيها دويٌّ كدويِّ النحل؟[١].

(ز) وأخرج الطبري بسند حسن عن قتادة، قال: بقاع المؤمن التي كان يصلي عليها من الأرض تبكي عليه إذا مات، وبقاعُه من السماء التي كان يرفع فيها عمله.

ثَلَاثُ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ

٣٠، ٣١- ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ[٢] مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾

في هاتين الآيتين، والآيتين بعدهما **ثلاث نعم** أنعم الله بها على بني إسرائيل:

النِّعْمَةُ الْأُولَى: نِعْمَةُ إِنْجَائِهِمْ مِنْ ذُلِّ فِرْعَوْنَ وَقَهْرِهِ:

وذلك أنه لَمَّا ذكر تعالى إهلاك فرعون وقومه أردفه بذكر إحسانه إلى بني إسرائيل؛ ليشكروا ربهم على نعمه وإحسانه.

لقد كان عبور البحر هلاكًا لفرعون وقومه، ونجاة لموسى وبني إسرائيل، حيث أنقذناهم من عذاب فرعون الذي كان يذلهم بقتل أبنائهم واستخدام نسائهم، وإهانتهم بإرهاقهم في الأعمال الشاقة: كالحفْر وصناعة اللبِن من الطين والتِّبْن لبناء المدُن التي كان يبنيها في أرجاء البلاد.

نجيناهم من طغيان فرعون المفرط في تعذيبهم وإهانتهم، إنه كان مسرفًا في العلُوِّ والتكبُّر، متجاوزًا الحد في الإجرام والطغيان، وفي هذا تخفيف عن النبي ﷺ وتسلية له، وتبشيره بأن الله تعالى سيُنجِّيه هو والمؤمنين معه من المشركين وكيدهم، فإنهم لم يبلغوا ما بلَغه فرعون من التجبُّر والإمكانات.

النِّعْمَةُ الثَّانِيَةُ: تَفْضِيلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ -لأَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ- عَلَى الْوَثَنِيِّينَ

٣٢- ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾

ولكل زمان عالَم، واليهود في زمانهم كانوا أفضل عالمي زمانهم، وأعلم أهل زمانهم؛

---

(١) أبو الشيخ في «العظمة» (١١٨٣).

(٢) سهَّل أبو جعفر همزة (إسرائيل) الثانية مع المد والقصر، ومثله حمزة عند الوقف، والباقون بالتحقيق.

لأنهم أهل كتاب، وغيرهم كانوا وثنيين، وأهل الكتاب يؤمنون بالله ورُسُل زمانهم، فهم خير من الوثنيين الذين يعبدون الحجارة، فاختيارهم وأفضليتهم على غيرهم في وقتهم أمر طبعيٌّ، ولا يقتضي تفضيلهم على الأمم الأخرى.

والمعنى: ولقد اصطفينا بني إسرائيل وشرفناهم على علم منا باستحقاقهم التفضيل على الوثنيين ونحوهم ممن لا يؤمن بالله تعالى واليوم الآخر، وهذا الاصطفاء على العالمين جاء في آيات أخر، كقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [البقرة].

وقوله سبحانه: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف].

وهذا الوصف في مقابلة الوثنيين المعاصرين لهم، فلاشك أن أهل الكتاب أفضل من عبدة الأوثان.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] والمراد: عالمي زمانها؛ لأن خديجة ﵂ أفضل منها، وآسية بنت مزاحم، امرأة فرعون أفضل منها، أومساوية لها في الفضل، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام.

وهذا الاصطفاء لبني إسرائيل في عصرهم كان قبل تبديلهم وتحريفهم للتوراة، وقبل قتلهم الأنبياء، وإفسادهم في الأرض، وتجرُّئهم على الله تعالى، فلما فعلوا ذلك ضرب الله عليهم الذل والمسكنة، وباؤوا بغضب من الله، واختار الله المسلمين بعدهم اختيارًا نسبيًّا على حُسن استقامتهم وقيامهم بما أُنيط بهم من التكاليف ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] مطلقًا، وليست الخيرية مقصورة على عصر دون عصر، بل هي قائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وشروط هذه الخيرية هي: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإيمان بالله تعالى.

النِّعْمَةُ الثَّالِثَةُ: مَا حَبَاهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنْ نِعَمٍ وَهُمْ فِي التِّيهِ

٣٣- ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم مِّنَ ٱلۡأٓيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٞاْ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾

أي: وقد أعطى الله بني إسرائيل على يد موسى ﷺ كثيرًا من المعجزات الخارقة للعادة، وأعطاهم من الحجُج والبراهين ما فيه اختبار وامتحان ظاهر لمن يتدبر ويتأمل، وهذه الآيات مثل: فلْق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المنِّ والسلوى، وتفجير الماء من الحجر اثنتي عشرة عينًا، وغير ذلك من الآيات التي لم تحصُل لسواهم من الناس، وقد أعطيناهم ذلك لننظر كيف يعملون، بإظهار ذلك في عالم الوجود، كما اختبرناهم بالرخاء والشدة، والسراء والضراء ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف].

الْيَهُودُ يُنْكِرُونَ الْبَعْثَ وَالنُّشُورَ

٣٤-٣٦- ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ[1] ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

ولما كان الحديث من أول السورة عن غير المؤمنين بالله ورسوله واليوم الآخر، وجاءت قصة فرعون وقومه في هذا السياق للدلالة على إصرارهم على الضلالة والكفر، وكلاهما من المكذبين بالبعث والنشور، ومثل هؤلاء وأولئك، اليهود المشار إليهم بـ ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ في هذه الآية، وسياق الحديث عنهم، فإنهم ينكرون البعث بالجسد والروح معًا، فأشار القرآن إليهم إشارة ازْدراء واحتقار لما قالوه عن اليوم الآخر، وإنكارهم لما فيه من البعث والحساب والجزاء على الأقوال والأعمال، فكانوا يقولون: ما هي إلا الموتة التي نموتها، فهي الموتة الأولى والآخرة، فإذا متْنا فلا بعث ولا حياة ولا نشور، وليس هناك من موت سوى الموت المزيل لحياتنا، وليس بعده حياة أخرى، فلا حساب ولا جزاء.

ثم احتجُّوا على نفْي البعث بأن الأموات السابقين لم يرْجع أحد منهم إلى الحياة، فقالوا: ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا﴾ الذين ماتوا من قبل ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أن الله يبعث مَنْ في القبور أحياء، أعيدوا لهم الحياة واجعلوهم يخرجون إلينا مرة أخرى لنراهم، فلو كان البعث ممكنًا معقولًا فعجِّلوا لنا إحياء مَنْ مات منهم لنصدِّقكم في دعوى البعث يوم القيامة، وهذا الكلام فيه مغالطة؛ لأن البعث لا يكون في الدنيا، بل يكون في الآخرة.

قال القرطبي: قائل هذا أبو جهل، قال: يا محمد، إن كنت صادقًا في قولك فابعث لنا رجلين

(١) عدّ الكوفي وحده (ليقولون) آية، ولم يعدها غيره.

من آبائنا، أحدهما: قُصيُّ بن كلاب، فإنه كان رجلًا صادقًا لنسأله عما يكون بعد الموت.

ولذا: فإن بعض المفسرين يرى أن هذه الآية تتعلق بالمشركين الوثنيين الذين ينكرون البعث والنشور.

قلت: والآيات تتحدث عن بني إسرائيل، ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ۝٣٠﴾ فسياق الحديث بما فيه إنكار البعث والنشور عن اليهود، والآية تنطبق على كل منكر للبعث والحساب والجزاء.

عَاقِبَةُ الظُّلْمِ فِي كُلِّ عَصْرٍ وَاحِدَةٌ

٣٧- ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ أَهْلَكْنَٰهُمْۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ۝٣٧﴾

ولما ضَرب القرآن مثلًا سابقًا بفرعون وملئه، ضرب مثلًا لاحقًا بقوم تُبَّع، فقال: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ هل المكذبون بالبعث، خير وأحب إلى الله تعالى من أهل سبأ، ملوك اليمن؟ أم هم أشد وأقوى من سائر الأمم الكافرة، وقد كانوا أكثر مالًا وأشد قوة، وأعظم نعيمًا، كقوم عاد وثمود وأضرابهم من الأمم العاتية؟ فإنهم ليسوا خيرا منهم، وقد اشترك الجميع في الإجرام، فليتوقعوا أن يصيبهم ما أصاب أسلافهم من الهلاك، فقد أهلكنا مَن قبلهم وخرَّبنا بلادهم، وفرقناهم شذَرَ مَذَر، لإجرامهم وإصرارهم على الكفر بالله ورسوله المبعوث فيهم، فليحذروا أن يصيبهم ما أصاب أمثالهم، وفي هذا تهديد ووعيد لكل من كفر بالله والرسول الخاتم، فإنهم ليسوا بخير ولا أقوى ممن سبقهم، حتى نصْفح عنهم ولا نهلكهم، وهم بالله كافرون.

وقوم تُبَّع هم سكان اليمن وحضرموت، من حمير وسبأ، وقد جاء ذكرهم في قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤﴾ [ق].

وتُبَّع لَقب لكل مَنْ ملَك اليمن كلها، مثل: كسرى وقيصر وفرعون والنجاشي، ويقال تُبَّع؛ لأن الملوك تتْبعه، واسمه **أسعد**، وكنيته **أبو كريب**، وكانت دولته قبل البعثة المحمدية بألف، أو سبع مئة سنة، وهو تُبَّع الأوسط، قيل: إنه ملَك ثلاث مئة وستًا وعشرين سنة.

وكانت عائشة تقول: لا تسبُّوا تُبَّعًا؛ فإنه كان رجلًا صالحًا، ألا ترى أن الله تعالى ذمَّ قومه، ولم يذمَّه[١]. وقد وردت **آثار تتعلق بإسلامه**:

أخرج الطبراني وابن مردويه بسند صحيح عن ابن عباس ﵁ عن النبي ﷺ قال: **«لا تسبوا تُبَّعًا فإنه قد أسلم»**[٢].

قيل: إنه كان على دين إبراهيم، وقد اهتدى إليه على يد حَبْرَيْن من أحبار يهود.

وعن سهل بن سعد الساعدي ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تسبُّوا تُبَّعًا فإنه كان قد أسلم»**[٣].

وعن عائشة ﵂ قالت: كان تبع رجلًا صالحًا، ألا ترى أن الله عز وجل ذمَّ قومه ولم يذُمّه[٤] . وقد جاء النهي عن سبِّ تبع في آثار كثيرة[٥] .

ولا يطلق لقب تُبَّع قديمًا إلا على مَنْ ملَك جميع بلاد حمير وسبأ وحضرموت، وكان يسير بغزواته إلى كل مكان تطلع عليه الشمس، كما فعل ذو القرنين، ولعل الله تعالى أهلك قومه بعد موته.

وقد علل الله سبحانه عذاب قوم تبع ومَنْ قبلهم من الأمم بسبب أنهم كانوا قومًا مجرمين.

الْحِكْمَةُ مِنْ خَلْقِ هَذَا الْكَوْنِ

٣٨، ٣٩- ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾

بيَّن ﷻ أنه لو لم يكن هناك بعث ولا حساب ولا جزاء، لكان خلق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما عبثًا، فقد خلق الله هذا الكون بالحق، أي: لحكمة عظيمة، وهي عبادته

(١) الحاكم (٢/ ٤٥٠).

(٢) صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٤٢٣) وهو في الطبراني برقم (١١٧٩٠).

(٣) «المسند» (٢٢٨٨٠) قال محققوه: حسن لغيره، وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٦٠١٣) و«الأوسط» (٢٢) وغيرهم.

(٤) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٥٠) من طريق عبدالرزاق، عن معمر، عن الزهري، عن عروة، ورجاله ثقات رجال الشيخين.

(٥) منها ما أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٢٠٩).

سبحانه وعدم مساواة المحسن بالمسيء، والمؤمن بالكافر، فيُجازى كل فاعل على فعله، ويكافئ كل عامل بما يناسب عمله، فلم يخلقهما الله تعالى لمجرد اللهو أو لغير غرض صحيح، كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص:٢٧].

المراد بـ (الحق):

وهذا الحق الذي خُلقت من أجله السموات والأرض، يظهر في النظام الدقيق الذي يحكم هذا الكون في بَرِّه وبحره وجوِّه، وغاباته وسهوله وأوديته وجباله وكواكبه وأفلاكه، وهذا من موجبات إفراد الله تعالى بالعبادة، فقد خلق الله الخلق ليعرفوه، فيوحدوه ويعبدوه، ومن ثم يكون الحساب والجزاء، والتفرقة بين مَنْ عبده ومن لم يعبده.

ويظهر هذا الحق في الحساب الذي يفصل بين المسلمين والمجرمين، والذاكرين والغافلين يوم القيامة ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [القلم]. ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ [السجدة: ١٨].

﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص].

والحق هو العدل، وهو الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية، ولو لم يكن هناك بعث ولا حساب ولا جزاء لكان خلْق الخلْق للفناء وليس للبقاء، فيكون هذا عبثًا ولعبًا وباطلًا وسُدًى لا فائدة فيه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلا يتفكرون في خلق السموات والأرض، لانطماس بصائرهم واستحواذ الشيطان على من لا يرجون ثوابًا ولا يخافون عقابًا، وهم الكفار والمشركون، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ [الحجر: ٨٥].

فَخَلْقُهُما في ذاته حق، وخلقهما مشتمل على الحق، والغاية من خلقهما حق.

والمسلم يصلي ويزكي ويحج، والكافر لا يفعل شيئًا من ذلك، ولا يجازَى كلٌّ منهما في الدنيا على شيء، ولو لم يكن هناك يوم يُفرِّق بينهما، ويُنصف فيه المظلوم من الظالم، لم يكن لهذه الحياة معنى ولا غاية، ولَمَّا كان المكذبون بالبعث والنشور لا يعلمون ذلك أنكروه.

قال المفسرون: إن الله تعالى قد خلق النوع الإنساني، وخلق ما تنتظم به أسباب

معاشهم، من السقف المرفوع، والمهاد المفروش، وما بينهما من عجائب المصنوعات، وبدائع المخلوقات، ثم كلَّفهم بالإيمان والطاعة، فآمن البعض وكفر البعض، فلابد إذًا من دار جزاء يُثاب فيها المحسن ويُعاقب فيها المسيء لتُجزى كل نفس بما كسبت، ولولم يحصُل البعث والجزاء لكان هذا الخلق لَهْوًا وعبثًا، وتَنزَّه الله عن ذلك[1].

يَوْمُ الْقِيَامَةِ هُوَ يَوْمُ إِحْقَاقِ الْحَقِّ

٤٠، ٤١- ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾

وميقات الخلق جميعًا، للفصل والقضاء بين الأولين والآخرين، وبين المختلفين في الدنيا، هو يوم الحساب والجزاء، فيوم القيامة هو موعد القضاء بين الخلائق فيما قدَّموا في دنياهم من خير أو شر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾﴾ [النبأ].

وقال سبحانه: ﴿لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾﴾ [المرسلات].

وقال أيضًا: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ٣].

وسيجمع الله الخلائق كلهم، فيُحضرهم ويُحضر أعمالهم، ويكون الثواب والعقاب عليها.

وفي يوم الحساب والجزاء لا ينفع قريب قريبه، ولا ينفع صديق صديقه، ولا حميم حميمه، ولا يدفع أحد عن أحد شيئًا، ولو كان أقرب الناس إليه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣].

والمولى: هو القريب والحليف، وأولياؤهم في الدنيا الذين يظنون أنهم ينفعونهم لا يفيدونهم شيئًا، وليس هناك من يغضب لهم فينصرهم، فالله غالب على أمره، ولا يقْوى أحد أن يرفع الضر عن غيره مهما كانت قوته وبأسه، قال تعالى مستثنيًا مَنْ رَحِمهم الله تعالى من عذابه:

٤٢- ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾

ثم استثنى الله سبحانه من عدم قبول الشفاعة والنصرة، مَنْ رحم الله من المؤمنين، فإنه

---

(١) «صفوة التفاسير» للشيخ محمد علي الصابوني (١٥/ ٦٥).

قد يُشفع له عند ربه، بعد إذن الله للشافع والرضى عن المشفوع له، وهو الذي ينتفع ويرتفع برحمة الله تعالى التي تَسبَّب فيها وسَعَى لها.

أي: لكن مَن رحمه الله، فإنه لا يحتاج إلى من يُغْني عنه أو ينصره، وعلى هذا فهو استثناء منقطع، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

والأولى أنه استثناء متصل، معناه: لا يغني قريب عن قريبه إلا المؤمنين، فإن الشفاعة تُقبل منهم ولهم، حيث يشفعون في غيرهم، ويشفع فيهم الأنبياء والصالحون بعد الإذن لهم فيها. .

ثم وصف الله نفسه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الذي لا يُكرِهُه أحد على العدول عن مراده، وهو واسع الرحمة، يرحم من يشاء بمحض مشيئته، وهو سبحانه عزيز في انتقامه ممن عصاه، رحيم بأوليائه وأهل طاعته.

طَعَامُ أَهْلِ النَّارِ وَعَذَابُهُمْ

٤٣-٤٦- ﴿إِنَّ شَجَرَتَ[1] ٱلزَّقُّومِ[2] ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى[3] فِى ٱلْبُطُونِ[4] ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾

ولما ذكر سبحانه أن الناس فريقان في يوم الفصل: فريق مرحوم، وهم أهل السعادة، وفريق معذَّب، وهم أهل السعير، الآثمون بعمل الكفر والمعاصي، بعد ذلك وصف سبحانه شيئًا من عذاب الكفار، ثم أتْبعه بشيء من نعيم الأبرار ليجمع بين الترغيب والترهيب، فأخبر جلَّ شأنه عن شجرة الزقوم التي هي طعام أهل النار، وهي الشجرة الملعونة التي خلقها الله في قعر جهنم، وسميت كذلك لأنها من الزَّقم وهو: الابتلاع بشدة.

وقد جاء في سورة (الواقعة) التي نزلت قبل سورة (الدُّخَان): البدء بالأكل منها، فقال

---

(١) وقف ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب بالهاء في (شجرت) على الأصل في هاء التأنيث، ووقف الباقون بالتاء تبعًا للرسم، وأمال هاءها الكسائي عند الوقف عليها بخلف عنه.

(٢) عد المدني الأول والدمشقي والبصري والكوفي لفظ (الزقوم) آية، وتركها المدني الأخير والمكي والحمصي.

(٣) قرأ ابن كثير وحفص ورويس بياء التذكير في (يغلي)، والباقون بتاء التأنيث، والفاعل ضمير يعود إلى (شجرة).

(٤) ترك المدني الأول والدمشقي قوله تعالى (في البطون) من العدد، وعدها آية غيرهما.

سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝٥١ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ [الواقعة].

وهي الشجرة الملعونة المشار إليها في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء: ٦٠].

وجاء منبتُها ووصفُها أبشع منظر، في قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۝٦٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ۝٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٦٥ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٦٦﴾ [الصافات].

وثمر هذه الشجرة طعام صاحب الآثام الكثيرة، وعلى رأسها الشرك بالله تعالى، فهي ﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤﴾ أي: طعام الآثم الفاجر الكافر.

وثمر شجرة الزقوم في شناعته وبشاعته يشبه المعْدن المذاب، أو رديء الزيت الحار في سواد لونه وذوَبانه، وهو يجرجر في بطون المشركين ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ وهو الزيت المغلي أو النحاس المذاب، أو هو الصديد المُنْتن، خبيث الريح والطعم، شديد الحرارة.

وهو ﴿يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ﴾ ويقرقر فيها.

وثمر شجرة الزقوم أيضًا؛ كالماء شديد الحرارة، الذي تَقطَّع من الغليان، أي: إن ثمر شجرة الزقوم يغلي في بطون الكافرين، كما يغلي الماء الحار.

جاء في الحديث: عن ابن عباس ﷺ مرفوعًا: «**لو أن قطرة من الزقوم قطرتْ في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم، فكيف بمن تكون طعامه**»[1].

ولما نزلت هذه الآية سخر أبو جهل، وقال: يَعدُنا محمد أن في جهنم الزقوم، وإنما هو الثريد بالزبد والتمر، ثم يأتي لأصحابه بالزبد والتمر، ويقول لهم مستهزئًا وساخرًا: تزقَّموا[2]. ثم يقال لملائكة العذاب:

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس ﷺ، وقال: حديث حسن صحيح، وهو برقم (٢٥٨٥). وفي المسند (٢٧٣٥، ٣١٣٦) بنحوه وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه الطيالسي (٢٦٤٣) وابن ماجه (٤٣٢٥) وابن حبان (٧٤٧٠) والطبراني (١١٠٦٨) وغيرهم.

(٢) يُنظَر: «تفسير القرطبي» (١٦/ ١٤٩) وغيره.

٤٧، ٤٨- ﴿خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ[1] إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٤٧ ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ۝٤٨﴾

أي: ويقال لخزنة جهنم: خذوا هذا الفاجر الآثم فادفعوه وسوقوه بعنف، وجُرُّوه من تلابيبه بشدة إلى وسط الجحيم ﴿خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ﴾ أي: اجذبوه وأوثقوه من مجامع عنقه، وجُرُّوه من تلابيبه ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي: إلى وسط النار، كما يُقاد المجرم المحكوم عليه بالإعدام إلى السجن أو إلى ساحة القصاص.

ثم أفرِغوا فوق رأسه الماء الذي تناهت شدة حرارته، حتى تغلي رأسه من حرارة هذا الماء فلا يفارقه العذاب، كما قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ۝١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ۝٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ۝٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ۝٢٢﴾ [الحج].

وقال سبحانه: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ۝٣٢ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٣٣﴾ [الحاقة].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ۝٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠﴾ [إبراهيم]. ويقال للكافر:

٤٩، ٥٠- ﴿ذُقۡ إِنَّكَ[2] أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ۝٤٩ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ ۝٥٠﴾

ويقال لهذا الأثيم الشقي يوم القيامة تهكمًا واستهزاءً: تذوَّق مرارة هذا العذاب الذي تُعذَّب به اليوم، لقد كنت في الدنيا معزَّزًا في قومك، صاحب الكلمة المسموعة، والأمر المطاع، مكرَّمًا بينهم، فأنت اليوم ذليل مهان.

﴿ذُقۡ﴾ هذا العذاب الأليم، والعقاب الوخيم، فقد كنت في الدنيا تزعم أنك عزيز ستُمنع من عذاب الله، وأنك كريم على الله فلا تصاب بالعذاب، واليوم ظهر لك الحق وتبيّن أنك الذليل المهان.

عن عكرمة قال: لقي رسول الله ﷺ أبا جهل، فقال: إن الله تعالى أمرني أن أقول

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر ويعقوب بضم التاء في (فاعتلوه)، والباقون بكسرها، وهما لغتان.

(٢) قرأ الكسائي بفتح همزة (إنك) على تقدير لام العلة، أي: لأنك، والباقون بكسرها على الاستئناف.

لك: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ [القيامة]. قال: فنزع ثوبه من يده وقال: بأي شيء تهدِّدني؟ والله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئًا، إني لمن أعزِّ هذا الوادي وأكرمه على قومه، فقتله الله يوم بدر وأذلَّه، وجعله عبرة بكلمته، وأنزل الله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾[١].

لقد كنت - أيها الجاهل المغرور - تزعم في الدنيا أنك أنت العزيز الكريم، فأنت اليوم في غاية الذل والمهانة.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: إن لله تعالى ثلاثة أثواب: اتِّزار العزة، وتسرْبل الرحمة، وارْتداء الكبرياء، فمن تعزَّز بغير ما أعزَّه الله، فذلك الذي يقال له: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ ومن رحم الناس رحمه الله، فذلك الذي تسرْبل بسرباله الذي ينبغي له، فإن الله تعالى يقول: **«لا ينبغي لمن نازعني أن أدخله الجنة»**[٢].

ويقال للكفار وهم يعذبون يوم القيامة على سبيل التوبيخ: هذا هو العذاب الذي كنتم تُكذبون به وتشكُّون في وقوعه وأنتم في الدنيا ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الطور].

هذا هو العذاب حقيقة واقعة يصب فوق رؤوسكم، فهل هو سحر، أم أنتم لا ترونه؟

ولما كان إنكارهم للبعث خاليًا من العلم اليقيني كان ذلك بمنزلة الشك، فهم يجادلون فيه وهم في الدنيا، ويوم القيامة يقال لهم: هذه هي الآخرة التي كنتم تشكون فيها.

نَعِيمُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَتَأْمِينُ مَطَالِبِهِمْ

٥١، ٥٢- ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ[٣] أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ[٤]﴾

---

(١) أخرجه الأموي في مغازيه كما في «الدر المنثور» و«تفسير ابن كثير» للآية وفي «تفسير الطبري» (٢٥/ ٨٠) والواحدي ص ٣١٢ .

(٢) صححه الحاكم والذهبي، «المستدرك» (٢/ ٤٥١).

(٣) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بضم ميم (مُقام) الأولى بمعنى: الإقامة، والباقون بفتحها بمعنى: موضع إقامة.

(٤) قرأ ابن كثير وابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي بكسر العين من (عِيون)، والباقون بضمها.

للمسلم في الجنة ستة مطالب أساسية، يؤمِّنها له رب العالمين:

الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: الْمَسْكَنُ الآمِنُ:

وذلك أنه لما ذكر سبحانه أهوال أهل النار، أتبعه بنعيم أهل الجنة، فبيَّن سبحانه أن الذين اتقوا ربهم، فامتثلوا أمره واجتنبوا نهيه وهم في الدنيا، وجعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية، هم اليوم في أمن وسلامة من الأمراض ومن الأحزان والآفات.

والمقام الأمين هو: المسكن الآمن من كل المكاره والمخاوف، وقد بدأ وصف نعيم المتقين به؛ لأن الأمن والسلامة والإيواء أول مطلب يحتاجه الإنسان في موطن إقامته.

الْمَطْلَبُ الثَّانِي: الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ:

فأهل الجنة يأكلون من ثمارها، ويشربون من أنهار العسل واللبن والخمر والمياه التي تجري في ربوع الجنة، فهم في حدائق وبساتين نضرة، وعيون جارية ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥].

وهم يأكلون لحوم الطير والفواكه الكثيرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الواقعة] وقال أيضًا: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الواقعة].

هذا جزاء المتقين، الذين اتقوا سخط الله تعالى وعذابه، فتركوا المعاصي وفعلوا الطاعات، فاستحقوا رضى الله وثوابه، وهم في ظل ظليل من كثرة الأشجار والثمار والفواكه، والعيون الجارية، وما إلى ذلك.

الْمَطْلَبُ الثَّالِثُ: الْمَلْبَسُ وَسَتْرُ الْعَوْرَةِ

٥٣، ٥٤- ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾﴾

إن المتقين يلبسون في الجنة اللباس الحرير الأخضر، من غليظ الديباج ورقيقه، وهما السندس والإستبرق، ويجلس بعضهم في مقابلة بعض، من باب المؤانسة والمودة والمسامرة.

والسندس: أجود أنواع الحرير وأرقُّه.

والإستبرق: ما كان سميكًا من الديباج والحرير، ويُلبس فوق الثياب.

قال تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [الكهف: ٣١] أي: يلبسون ما رقَّ من الديباج وما غلُظ منه.

وهم في مجالسهم يقابل بعضهم بعضًا لتمام الأنس والمحبة، حتى ينظر بعضهم إلى بعض، ولا يستدبر بعضهم بعضًا، وهم متكئون على الفرش المرفوعة المبطنة بالديباج الغليظ، كما قال تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الواقعة].

وقال أيضًا: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ [الطور: ٢٠].

وثمار الجنة تدنو منهم كلما أرادوا لتكون في متناول أيديهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٤].

الْمَطْلَبُ الرَّابِعُ: زَوْجَاتُ أَهْلِ الْجَنَّةِ، مِنَ الْحُورِ الْعِينِ:

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: وكما أعطينا هؤلاء المتقين في الآخرة من النعيم بإدخالهم الجنات، وإلباسهم فيها من السندس والاستبرق، أكرمناهم بزوجات حسان جميلات واسعات العيون، يحار الطرف فيهن لجمالهن وحُسْنهن، أحللناهن لهم، لكلٍّ منهم ما شاء منهن، والمرأة الحوْراء هي: البيضاء، والعيناء: واسعة العينين.

والحور العين يشمل: النساء اللاتي كنَّ زوجات في الدنيا ممن قال الله فيهن: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَـٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾ [الواقعة].

كما يشمل الحور العين من النساء اللاتي يخلقهن الله في الجنة ممن قال فيهن: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الواقعة]

وقد وصف الله الحور العين بقوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦].

وقوله أيضًا: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾ [الرحمن].

الْمَطْلَبُ الْخَامِسُ: مَا يُؤْكَلُ لِلتَّلَذُّذِ وَالتَّفَكُّهِ

٥٥- ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾

وأهل الجنة في الجنة يطلبون من الخدم كل ما يشتهونه من فواكه الجنة، وهم في مأمن

من انقطاعها أو نفادها صيفًا وشتاءً، وفي مأمن من التخم والأسقام والآلام، وهم آمنون من الموت، ومن التعب والنصب، ومن الشيطان والوساوس ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾ أي: يطلبون من غيرهم أن يأتوا لهم ﴿بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ أي: بإحضار كل ما يشتهون من الفواكه والملذات من كل ما له اسم في الدنيا، وما ليس له اسم، ولا نظير له في الدنيا، فمهما طلبوا من كل ما لذّ وطاب أُحضر لهم في الحال دون تعب ولا مقابل، حالة كونهم: ﴿ءَامِنِينَ﴾ من التخمة والأمراض، وهم غير خائفين من فنائها.

المَطْلَبُ السَّادِسُ: دَوَامُ النَّعِيمِ فِي الْجَنَّةِ

٥٦، ٥٧- ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾

وأهل الجنة في بقاء دائم، لا يموتون أبدًا ولا يذوقون غير الموتة التي ذاقوها في الدنيا؛ فتم لهم كل محبوب ومرغوب، حيث حصل لهم النعيم، واندفع عنهم عذاب الجحيم، فضلًا من الله وكرمًا، فهو الذي وفّقهم للأعمال الصالحة التي نالوا بها هذه الدرجة.

فقد صح في الحديث: عن ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا صار أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار جيء بالموت حتى يُجعل بين الجنة والنار، ثم يُذبح، ثم ينادي مناد: يا أهل الجنة، لا موت، ويا أهل النار، لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحًا إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزنا إلى حزنهم**»(١).

وفي الحديث الآخر: عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**ينادي منادٍ: إنّ لكم أن تصحُّوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوْا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبُّوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعَموا فلا تبأسوا أبدًا**»(٢).

ومع هذا النعيم العظيم، فإن الله تعالى سلَّم أهل الجنة ونجَّاهم من العذاب الشديد،

---

(١) يُنظَر الحديث عن أبي سعيد في «المسند» (٣/٩) برقم (٥٩٩٣، ٦٠٢٢) حديث صحيح، إسناده قوي ورجاله ثقات (محققوه) وفي البخاري عن ابن عمر من هذه الرواية (٦٥٤٨) ومسلم (٢٨٥٠)، والبغوي في شرح السنة (٤٣٦٧) وابن حبان (٧٤٧٤).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٣٧) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة.

أي: نجَّاهم وزحزحهم عن النار، فحصل لهم المطلوب والنجاة من المرهوب.

قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وكما أن أهل الجنة لا يذوقون طعم الموت، فإنهم لا ينامون؛ لأن النوم أخو الموت، والله تعالى يُذهب عنهم دواعي النوم وأسبابه.

عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قيل: يا رسول الله، أينام أهل الجنة؟ قال: «**لا، النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا يموتون ولا ينامون**»[١].

والنجاة من النار والفوز بالجنة هما محض فضل وكرم وإحسان من الله تعالى: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: تفضل الله عليهم بما أعطاهم من نعيم

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ فلا يساويه فوز، ولا يدانيه فضل؛ إذ ليس هناك فوز بعده.

جاء في حديث عائشة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «**سدِّدوا، وقاربوا، وأبشروا، فإنه لا يُدخِل أحدًا الجنة عملُه**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة**»[٢].

خِتَامُ السُّورَةِ بِمَا بُدِئَتْ بِهِ

٥٨- ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

وكما بدئت السورة بالحديث عن القرآن، فإنها خُتمت بالحديث عنه أيضًا، فقررت أن الله تعالى جعل فهم هذا القرآن يسيرًا سهلًا ليعتبر به من يعتبر ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ أي: سهَّلنا لفظ القرآن ومعناه، وجعلناه بلغتك -أيها الرسول- بأفصح الألسنة وأجلِّها ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيهتدون بهديه، وينتفعون بما فيه، فيقفون عند حدوده، ويتركون ما فيه ضررهم، ويمتثلون أوامره ويجتنبون نواهيه، قال تعالى:
﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم: ٩٧].

---

(١) صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٠٨٧) وأخرجه البزار في «كشف الأستار» (٣٥١٧) والطبراني في «الكبير» (٩١٩، ٨٨١٦) والبيهقي (٤٨٤).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦٤٦٧) وهذا لفظه، وانظر: (٦٤٦٤) و«صحيح مسلم» (٢٨١٨).

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف:١٢]. وهكذا كل رسول أرسله الله تعالى بلسان قومه ليبيِّن لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء.

المُسْتَقْبَلُ لِلإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى

٥٩- ﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

أي: فإن لم يهتدوا بهدي القرآن، ولم يستجيبوا لك -أيها الرسول- فانتظر النصر الذي وعدك الله به، كما نصرك حين دعوت عليهم أن يجعلها الله عليهم سنين كسني يوسف، فإنهم منتظرون مثل ذلك وأشد منه.

وفرق بين الانتظارَيْن، فرسول الله وأتباعه ينتظرون الخير، والمكذبون ينتظرون الشر.

وهذا معنى ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ أي: انتظر -يا رسولنا- نصرَ الله لك، وما يحل بهم من عقاب ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ موتك وقهرك، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الطور].

وسيعلمون لمن تكون النُّصرة والظفر، وعُلوُّ الكلمة في الدنيا والآخرة، إنها لك أيها الرسول الخاتم، ولمن اتبعك من المؤمنين، وسوف نُخيِّب ظنونهم وآمالهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر] وقال سبحانه: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة].

وفي هذا وعد للرسول ﷺ، ووعيد للمشركين، وهو مؤذن بانتهاء السورة.

تم تفسير (سورة الدخان) ولله الحمد والمنة.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْجَاثِيَةِ (٤٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الجاثية) هي السورة الخامسة والأربعون في ترتيب المصحف، والرابعة والستون في ترتيب النزول، نزلت في مكانها هذا بعد سورة (الدخان) وقبل سورة الأحقاف.

وعدد آياتها عند أهل الكوفة سبع وثلاثون آية، وست وثلاثون آية عند غيرهم؛ لأنهم لم يعدُّوا ﴿حمٓ ۝١﴾ آية، وعدها الكوفي وحده.

وعدد كلماتها أربع مئة وثمان وثمانون كلمة.

وعدد حروفها ألفان ومئة وواحد وتسعون حرفًا.

وتسمَّى **سورةَ الجاثية** لورود هذا اللفظ فيها دون غيرها، كما تسمى: **سورة (الشريعة)** لورود لفظ شريعة فيها في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ الآية [١٨].

ويقال لها: سورة **حم الجاثية**، و **سورة الدهر** لورود لفظ الدهر فيها في قوله تعالى حكاية عن الكفار: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ الآية [٢٤].

فهذه أربعة أسماء، أشهرها سورة (الجاثية).

وهي سورة مكية، واستثنى بعضهم قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ الآية [١٤]. وقالوا: إنها مدنية.

والسورة تتناول موضوعات السور المكية الثلاثة، وهي: جانب التوحيد، ونُبوَّة محمد ﷺ، والإيمان بالبعث والجزاء.

والمحور المهم الذي تدور حوله السورة هو جانب التوحيد، فهي تقيم الأدلة والبراهين على وحدانية الله تعالى، وتحث على دراسة الكون واكتشاف آياته، وتلفت النظر إلى ملكوت السموات والأرض وما حويا من عجائب، وتأخذ بيد المتأمل فيهما إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة.

ففي السموات آيات، وفي الأرض آيات، وفي خلق البشر والدواب وسائر المخلوقات

آيات، وفي تعاقب الليل والنهار آيات، وفي تسخير الرياح والأمطار آيات، وكلها شواهد ناطقة بقدرة الله تعالى ووحدانيته، تدل على أن الله وحده هو مصدر هذه النعم الظاهرة والباطنة، وأنه لا خالق ولا رازق إلا هو.

وفي هذا دعم البناء العقلي للإيمان، وإقامته على الفكر السَّويِّ، والبصر النافذ.

وهذه الدراسة النظرية لآيات الله في الكون تقود إلى الإيمان بالله تعالى، إلى جانب توظيف كل ما في الكون لمصلحة الإنسان وإسعاده: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

(وإلى جانب العلوم العقلية والكونية، توجد علوم شرعية نقلية، تقود البشر إلى سبيل الرشاد، ومع ذلك فإن من قاموا بغزو الفضاء بَقَوْا على كُفرهم، وكثير ممن يروْن الأجنة تتخلّق في البطون، بدل أن يعترفوا بالخالق سبحانه، قالوا: إن الفاعل مجهول! وهو إلحاد يعم الحضارة الحديثة في غرب أوربا وشرقها، ويمتدُّ دُخانها إلى بقية القارات، ومن هنا فهو علم ظاهري لا يُهذِّب نفسًا، ولا يَصْقُل فكرًا، كالدواب التي تحمل صناديق الكتب ولا علم لها بما حوت).[(١)]، **وتبيِّن السورة مواقف الناس من استقبال الدعوة:**

١- فمنهم شديد العناد، المكابر في الحق، المصرُّ على الضلالة ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾.

٢- ومنهم من لا يشعر بالفرق بين مَن يعمل السيئات ومن يعمل الصالحات، فينتج عن هذا التصور السيئ أنه لا يقيم وزنًا للإيمان الخالص، وكأن المكتسب للصالحات والمكتسب للسيئات في ميزان الله واحد ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

٣- ومنهم من ليس له مرجعية في سلوكه وعبادته إلا اتباع هواه ونفسه الأمارة بالسوء، ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ الآية [٢٣].

٤- ومنهم من يُنكر الآخرة ولا يؤمن بالبعث والنشور ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ

(١) يُنظَر: «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم» للشيخ محمد الغزالي، ص ٣٨٨ .

وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ الآية [٢٤].

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ الآية.

ويجوز أن يكون هؤلاء جميعًا فرقة واحدة، ويجوز أن يكونوا فرقًا متعددة[1].

وجاء في ختام السورة بيان عاقبة الأخيار والأشرار ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ الآية [٣٠].

﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ الآية.

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى **مقطعين**:

المقطع الأول: يتحدث عن القرآن ومصدره، واستقبال المعارضين له بالرفض والاستكبار ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ الآية [٨].

ومن ثَمَّ يتحدث المقطع عن طريقة القرآن في علاجهم بالوعيد الشديد، ولفْت النظر إلى آيات الله الكونية، المنبثة في هذا العالم الفسيح.

ويتضمن هذا المقطع رحمة الله بعباده في عدم التعجيل بعقوبة الضالين عن الحق، ووجوب التريُّث في عرض الدعوة عليهم، وإعطائهم الفرصة، وتخفيف الوطأة عليهم ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ الآية.

كما يتضمن هذا المقطع الحديث عن علماء بني إسرائيل، ومقابلتهم لفضل الله عليهم بالجحود والعصيان والبغي والاختلاف ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ الآيتان.

وقد استغرق هذا المقطع من أول السورة إلى الآية الثالثة والعشرين منها.

أما المقطع الآخر فهو يتناول الحديث عن اليوم الآخر، فيواجه منكري البعث

(١) يُنظَر: «في ظلال القرآن» (٥/ ٣٢١٩).

والمتشككين فيه بالأدلة الدامغة والبراهين القاطعة، على أن الله تعالى يحيي الخلائق بعد موتهم، وتنطق صحف أعمالهم بما قدموه لأنفسهم، فيحاسبهم الله تعالى، ويدخل المؤمنين في رحمته، وينْسى الكافرين في نار جهنم كما نسوا لقاء يومهم هذا، ثم لا يخرجون من النار ولا يُقبل منهم عذر.

وفي نهاية السورة ينطلق صوت التوحيد، ليحمد الله تعالى كلٌّ من في أرضه وسمائه وملكوته، على الخلق والرزق والتدبير، وينحني كل طاغية وجبار أمام صاحب الكبرياء المطلق، صاحب العزة والقدرة والحكمة، فهو العزيز الحكيم في بداية السورة ونهايتها.

ويطابق آخر السورة أولها في تمجيد الله تعالى، وذِكْرِ اسمين من أسمائه الحسنى، هما العزيز الحكيم، وفي ذلك إيذان بانقضاء السورة.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

افْتِتَاحُ السُّورَةِ

١، ٢- ﴿حمٓ[1] ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾

افتُتِحت سورة (الجاثية) بحرفي الحاء والميم من حروف التهجّي المقطّعة، وحقيقة العلم بها عند الله تعالى، والمختار أنها للتنبيه على إعجاز القرآن، وفيها دعوة للتأمل في آيات الله تعالى للاهتداء بها والعمل بما فيها.

وأشارت الآية بعدهما إلى أن هذا الكتاب المنزل من عند الله تعالى مكون من هذه الحروف، ومُوحى به إلى رسول الله ﷺ، وهو كتاب مشتمل على دلائل الإيمان واليقين والحقيقة، معجز في بلاغته ومعانيه وحِكمه وأحكامه، مُنزَّل من عند الله، العزيز في ملكه وانتقامه، الحكيم في صنعه وتدبير أمور خلقه، المتصف بصفات الجلال والكمال، له العزة الكاملة والحكمة التامة، المنعم على خلقه بجليل، النعم فمصدر القرآن هو الله، وقد أنزله لصالح العباد والبلاد.

سِتَّةُ أَدِلَّةٍ كَوْنِيَّةٍ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ:

ثم ساقت السورة في أولها **ستة أدلة كونية** على وحدانية الله تعالى وقدرته:

الدَّلِيلُ الأَوَّلُ :خَلْقُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

٣- ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾

إن في السموات السبع اللاتي منهن نزول الغيث، وهي مرفوعة بلا عمد، ومزيَّنة بالمصابيح، لا ترى فيها من تفاوت، وفيها الملائكة والعرش والكرسي وسدرة المنتهى، وفيها الكواكب والأفلاك وما إلى ذلك.

وفي الأرض التي خُلق البشر من تُربتها، ومنها يخرج الزرع والنبات، والمعادن، وهي

(١) سكت أبو جعفر على الحاء والميم من (حم)، وأمال الحاء ابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي وخلف، وقللها الأزرق، ولأبي عمرو الفتح والتقليل، وتُمد الميم ست حركات للجميع.

مبسوطة وممهدة للسعي فيها على المعاش، ومثبَّتة بالجبال، وفيها البحار والأنهار والمحيطات.. وعليها يحيى الإنسان والحيوان والطيور، والسباع والوحوش..

إن في كل ذلك لأدلة وبراهين ساطعة لمن ينتفعون بحجج الله تعالى وآياته، فيدركون أن الخالق للسموات والأرض، هو الله المستحق للطاعة والعبادة، وقد جاء التصريح بخلْقهما في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران].

والخطاب في الآية موجَّه إلى المؤمنين، الذين لا ينكرون دلائل التوحيد، فهم الذين ينتفعون بهذه الآيات.

أما غير المؤمنين فقد قال الله تعالى عنهم: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

الدَّلِيلُ الثَّانِي: خَلْقُ الْإِنْسَانِ

٤- ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ(١) لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾

﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ أيها الناس من نطفة، فعلقة، فمضغة، إلى أن يُخرجكم الله من بطون أمهاتكم خلقًا من بعد خلق، في ظلمات ثلاث، وفي تشكيل أعضائكم، وما جعل الله فيكم من الحواس والعقل، آيات دالة على قدرة الخلاق العظيم، كما قال تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِيٓ أَنفُسِهِم﴾ [الروم: ٨].

وقال أيضًا: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات].

الدَّلِيلُ الثَّالِثُ: خَلْقُ الدَّوَابِّ وَسَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ ﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ﴾:

أي: وما ينشره الله تعالى ويفرقه من أنواع المخلوقات التي تدب على وجه الأرض من: الإنسان والحيوان والدواب والطيور والوحوش والسباع والحشرات، وما في البحر

(١) قرأ حمزة والكسائي ويعقوب بنصب التاء بالكسرة في (آياتٍ لقوم يوقنون) و (آياتٍ لقوم يعقلون) عطفًا على اسم (إن)، والمعنى: إن في خلقكم، وإن في اختلاف الليل والنهار، وخبر إن (وفي خلقكم) و(في اختلاف الليل والنهار)، وقرأ الباقون بالرفع فيهما على الابتداء، والجار والمجرور قبله خبر.

من الأصناف المختلفة للأسماك والحيتان، وسائر المخلوقات التي لا تُحصى ولا تُعدُّ على ظهر الأرض، إن في ذلك وغيره لآيات لمن يوقن بالله تعالى وشرعه، وفي الآية تعميم بعد تخصيص، فبعد أن خص الله الإنسان بالذكر، وهو ممَّا يدب على الأرض، عمم بذكر سائر الدواب، وفي هذا تكريم للإنسان وتمييز له عن غيره من مخلوقات العالم الأرضي.

إن في كل هذا آيات للموقنين بالله ورسوله واليوم الآخر وما فيه بعث وحساب.

والدابة: اسم لكل ما يدبُّ على وجه الأرض من غير الإنسان، وتُطلق على ما يدب بالأرجل دون الطائر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]. قال تعالى:

٥- ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ[1] ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥﴾

الدَّلِيلُ الرَّابِعُ: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾

أي: وإن في تفاوت الليل والنهار بالطول والقصر، والظلمة والنور، والحرارة والبرودة، وتعاقبهما دون أن يسبق أحدهما الآخر، وسيْرهما على نظام دقيق مطَّرد لا ينْخرم ولا يختل، لآياتٍ عظيمة لأصحاب العقول والعلوم والمعارف، على عظيم قدرة الله تعالى ووحدانيته ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠].

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢].

الدَّلِيلُ الْخَامِسُ: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾:

لَمَّا كان الماء سببًا للرزق، بإخراج الزرع والثمار والنبات من الأرض، سَمَّى الله المطر النازل من السماء رزقًا.

أي: ومن آيات الله تعالى إنزال المطر من السحاب على الأرض، فتهتز الأرض وتربُو وتُنبت من كل زوج بهيج بعد أن كانت جدباء يابسة لا نبات فيها ولا زرع، وفي ذلك آية عظيمة دالة على قدرة الله تعالى، ومن ذلك إحياء الموتى.

قال سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف بإفراد (الرياح) على إرادة الجنس، وقرأ الباقون بالجمع لاختلاف أنواع الرياح.

أَحْيَاهَا لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ [فصلت: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق]

وغير ذلك من الآيات كثير.

الدَّلِيلُ السَّادِسُ: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾:

ومن آيات الله الدالة على وحدانيته: تصريف الرياح في الجهات المختلفة جنوبًا وشمالًا، وشرقًا وغربًا، وتنقُّلها من حال إلى حال، تارة حارة، وتارة باردة، فيها الصَّبا وفيها الدَّبُور، وكل هذا لمنافع العباد والبلاد، وفي ذلك ﴿ءَايَٰتٌ﴾ واضحة على وحدانية الله تعالى ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ عن الله حججه وأدلته، من ذوي العقول النيِّرة والبصائر النافذة.

قال الصاوي والجمَل: ذَكَر الله ﷻ ستة أدلة في ثلاث آيات، خَتَم الأولى بـ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، والثانية بـ ﴿يُوقِنُونَ﴾، والثالثة بـ ﴿يَعْقِلُونَ﴾ ووجْهُ التغاير بينها في التعبير أن الإنسان إذا تأمل في السموات والأرض، وأنه لا بدَّ لهما من صانع آمَنَ، وإذا نظر في خلْق نفسه ونحوها ازداد إيمانًا فأيقن، وإذا نظر في سائر الحوادث كمُل عقلُه واستحْكم عِلْمه[1].

ومن ناحية أخرى فقد خُتمت الآية الأولى بالإيمان؛ نظرًا لأن الآيات التي في السموات والأرض ذُكرت مجملة غير مفصَّلة، فكأن الإحالة عليها إحالة على شيء غامض يثيره الفكر، ويخبر به الشرع، ويدخل ذلك في دائرة الإيمان والتصديق.

وخُتمت الآية الثانية باليقين؛ لأن خلْق البشر والحيوان أكثر غموضًا من خلق السموات والأرض، وهذا يحتاج إلى نظر يؤدي إلى اليقين في المعتقد.

أما اختلاف الليل والنهار، والعبرة بالمطر والرياح، فجُعِلت لقوم يعقلون؛ لأن كل

---

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» (٤/ ٦٣) و«حاشية الجمل على الجلالين» (٤/ ١١٢).

عاقل يحصل له فهمها وإدراكها[١].

والمعنى: إن الذين انتفعوا بالآيات الكونية الدالة على وجود الله تعالى ووحدانيته، هم المؤمنون الموقنون العاقلون، فوُزِّعت هذه الأوصاف الثلاثة على الآيات الثلاث لتكون أوقع في نفس السامع والقارئ.

والمراد بالأوصاف الثلاثة واحد، فالمؤمنون هم الذين يوقنون، فيعلمون ولا يكابرون، ويعقلون بالنظر الصحيح، دلالة المؤثِّر على الأثر، وأن هذا الكون لا بدَّ له من صانع واحد، وقُدِّم وصف الإيمان لشرفه؛ ولأنه أساس لغيره. قال تعالى:

٦- ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ[٢] حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ[٣] ۝٦﴾

هذه حجج الله وآياته الكونية ممثلة في خلْق السموات والأرض، وخلْق الناس، وخلْق الدواب، واختلاف الليل والنهار، وإنزال الماء من السماء، وإحياء الأرض به، وتصريف الرياح.

هذه الأدلة والبراهين على وحدانية الله تعالى وقدرته، نقصُّها عليك يا محمد بالحق المبين الذي لا غموض فيه ولا التباس ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ فإذا لم يصدق الكفار والملحدون في كل زمان ومكان بهذه البراهين الساطعة المتلُوَّة علينا في كتاب الله تعالى ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ أي ومن لم يصدق بهذه الحجج والبراهين، فبأي كلام وبأي أدلة يصدق؟

فالمراد بالحديث: القرآن، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقوله أيضًا: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: ٥٠].

وقوله سبحانه: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩﴾ [النجم].

والآية هي العلامة، وتطلق على الآية القرآنية، كما في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ

---

(١) انظر: «تفسير ابن عطية» (٥/ ٧٩) بتصرف.

(٢) قرأ الأصبهاني بإبدال همزة (فبأي) ياء وصلًا ووقفًا، وكذا حمزة عند الوقف.

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص وأبو جعفر وروح بياء الغيبة جريًا على السياق في (يؤمنون)، والباقون بتاء الخطاب لمناسبة (وفي خلقكم).

﴿تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ [البقرة].

كما تُطلَق على الآية الكونية، كالسموات والأرض، وتطلق أيضًا على المعجزة وخوارق العادات، ولعل المراد بها هنا: الآيات الكونية المشار إليها في الآيات الثلاث السابقة.

وبعد هذه الآيات البينات، والأدلة الواضحات على صدق القرآن العظيم، وصحة ما اشتمل عليه من الأحكام والحكم والأخبار والبعث والنشور، قسمت آيات السورة الناس إلى قسمين، بالنسبة إلى الانتفاع بآياته تعالى من عدمه:

قسم يستدلون بهذه الآيات على وحدانية الله تعالى وقدرته، ويتفكرون فيها، فينتفعون بها وتصل بهم إلى درجة اليقين، وهم المؤمنون.

وقسم لا ينتفع بها، فيعرض عنها ولا تترك في نفسه أثرًا، بل يسخر منها ويستهزيء بها، وهم الكافرون.

وقد سبق الحديث عن القسم الأول وهم المؤمنون المنتفعون بآيات الله، ويأتي القسم الثاني في الآيات التالية:

الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ لِمَنْ لَا يَنْتَفِعُونَ بِدَلَائِلِ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى

٧، ٨- ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن(١) لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

أما من كفر بالله تعالى وبآياته، مع ظهور الأدلة والبراهين على لزوم الإيمان به سبحانه، فإنه مُتوعَّد بالويل والثُّبور، لأنه مجرم بقلبه ولسانه وجوارحه، كثير الإفك، مرتكب للآثام، كثير الكذب والافتراء، مرتكب للذنوب بقلبه وجوارحه، سيئ الظاهر والباطن، وأي هلاك شديد، وأي دمار وحسرة وندامة يوم القيامة، أعظم من هذا الهلاك، وأكبر من هذا الوبال الذي جره على نفسه!!

والإيمان بالله يستلزم الإيمان بآيات الله، والكفر بالله يستلزم الكفر بآياته، وهذا الأفاك الأثيم ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ﴾ في غاية الوضوح والجلاء، ولو أنها نزلت على جبل

---

(١) قرأ الأصبهاني بتسهيل همزة (كأن لم) في الحالين ومثله حمزة عند الوقف بخلف عنه.

لرأيته خاشعًا متصدِّعًا من خشية الله، ولكن الكافر يتمادى في كفره وعناده؛ لأنها لم توافق هواه ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ فهو يتعالى في نفسه عن الانقياد لله ورسوله، كأنه لم يسمع ما تُلي عليه من آيات الله ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [سبأ: ٣١].

فبشِّر -أيها الرسول- هذا الأفَّاك الأثيم بعذاب مؤلم موجع في نار جهنم يوم القيامة ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ أي: أخبره خبرًا يظهر أثره على الوجه ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأنه أصرَّ على كفره، واستحب العمى على الهدى، وهذا من باب التهكم والاستهزاء.

قيل: إن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث، كان يأتي بأحاديث الأعاجم، ويُشغل بها الناس عن سماع القرآن[1]. فسماه الله أفَّاكًا وتوعّده بعذاب مؤلم.

والآية عامة في كل مضاد لدين الله، وفيها تهديد لكل من انطبقت عليه هذه الأوصاف الثلاثة، وهي: كثرة الكذب، وكثرة اقتراف المعاصي، والإصرار على الباطل، ويدخل فيها النضر بن الحارث وأبو جهل وسائر أئمة الكفر دخولًا أوَّليًّا.

ثم قال تعالى في تتمة أوصاف الكافر:

٩- ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾﴾

أي ومن شأن الإنسان الكافر أنه إذا بلغه شيء من آيات الله الدالة على وحدانيته، بالَغ في الاستهزاء والسخرية بآيات الله كلها، إمعانًا منه في الضلال ﴿وَإِذَا عَلِمَ﴾ أي: وصل إلى علم هذا الأفَّاك الأثيم ﴿مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا﴾ مما نزل على محمد ﷺ ﴿اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ فهو لم يقتصر على الاستهزاء بما بلغه من آيات، بل يسْخر من آيات الله كلها ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الأفَّاكون المستهزئون بالقرآن، المعرضون عن الإيمان به والعمل بما فيه ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يهينهم ويخزيهم يوم القيامة، جزاء استهزائهم بآيات الله تعالى.

ومن هنا فقد نهى الإسلام عن السفر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله أذى، فإذا أمن ذلك الجانب، أو كان القصد الاستفادة والاطلاع فقد زال السبب.

---

(١) من «تفسير النسفي» وغيره للآية.

عِقَابُ المُسْتَهْزِئِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى

١٠ - ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

وفضلًا عما يصيب المستهزئين بآيات الله في الدنيا من القتل والأسر والضُّر، فإن أمامهم نار جهنم تنتظرهم في الدار الآخرة، جزاء تكبُّرهم وإعراضهم عن الحق وهذا معنى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ﴾ أي: من قُدَّامهم وأمامهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ فهم متوجِّهون إليها، وهي في انتظارهم، ولا يفيدهم شيئًا مما اكتسبوه في الدنيا من مال ومتاع وجاه وهذا معنى ﴿وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا﴾ أي: ولا تدفع عنهم أموالهم ولو شيئًا قليلًا من عذاب الله يوم لقائه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾﴾ [آل عمران].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٣٦].

ولا تُغني عنهم أيضًا معبوداتهم الباطلة التي كانوا يعبدونها وهم في الدنيا، ويزعمون أنها تشفع لهم عند الله، وهذا معنى ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ فكما أن المال والولد لا يدفع عنهم ولو شيئًا يسيرًا من عذاب الله، فإن آلهتهم التي عبدوها من دون الله، أو تقربوا بها إلى الله، لا تنفعهم شيئًا كذلك، وقد كانوا يطمعون في شفاعتهم وهم في الدنيا، قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يعلم مقدار هَوْلِه وشدَّته إلا الله.

وذِكْرُ العذاب العظيم الأخروي بعد العذاب المهين المخزي المذل، يفيد أنه عذاب دنيوي، أما العذاب الأليم، فهو العذاب المؤلم الموجع يوم لقاء الله تبارك وتعالى.

فهذه ثلاثة أنواع من العذاب: مهين، وعظيم، وأليم، والأول دنيوي، أي عذاب مذلّ مُخزٍ فاضح في الدنيا، وما عداه أُخروي، والعظيم أشد من الأليم، ويلي كل ذلك عذاب رابع هو أشد أنواع العذاب، وهو عذاب من رجز أليم.

وهذه الآيات تهديد ووعيد لكل من اتصف بكثرة الكذب، وكثرة اقتراف السيئات، والإصرار على الباطل.

بُشْرَى وَإِنْذَارٌ

١١- ﴿هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ(١) ﴿١١﴾﴾

وصف الله تعالى القرآن المشتمل على ما سبق، بأنه كتاب كامل في الهداية لمن آمن به واتبعه، والمشار إليه في ﴿هَٰذَا﴾ هو الآيات التي تقدم ذكرها في السورة، وأنها هدى لمن يُقبِل عليها ولا يُعرِض عنها، أما من كفر بها فقد حَرَم نفسه من الهداية واستحق العذاب يوم لقاء الله تعالى.

﴿هَٰذَا هُدًى﴾ أي: هذا القرآن الذي أوحيناه إليك -يا محمد- في أعلى درجات الهداية وأكملها، فهو هدى من الضلالة، ودليل على الحق، يهدي من اتبعه وعمل به إلى صراط مستقيم، ويهدي إلى معرفة الله تعالى، وإلى معرفة رسله وكتبه، ويهدي إلى معرفة أولياء الله وأعدائه، ويهدي إلى الأعمال الصالحة، وينهي عن الأعمال السيئة، ويبين الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة، فالمهتدون به هم الفائزون المفلحون.

أما الذين جحدوا القرآن ولم يؤمنوا به فهم يوم القيامة في أشد أنواع العذاب ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ وهو أسوأ أنواع العذاب؛ لأن الرجز أشد العذاب وأكثره إيلامًا، قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٢]. وفي الآية بشرى لمن انتفع واهتدى بما في القرآن، وإنذار لمن تولى وأعرض.

الْبَحْرُ الْعَظِيمُ مُسَخَّرٌ لِلْإِنْسَانِ الضَّعِيفِ

١٢- ﴿۞ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

ثم إن الآيات الكونية لا يكفي الوقوف عند التأمل فيها، بل لا بدَّ من استخدامها واستغلالها لصالح الإنسان، فقد سخَّرها له رب العالمين ليغوص في أعماقها، ولا تكتمل سعادة الإنسان في الدنيا إلا بالانتفاع بما يَنْزل من السماء، وما يخرج من الأرض، وما فيهما وما بينهما كالطاقة الشمسية، والهواء، والفضاء.

(١) قرأ ابن كثير وحفص ويعقوب برفع (أليمٌ) صفة لعذاب، وقرأ الباقون بخفضها صفة لـ (رجز).

والله تعالى هو الذي ذلَّل لكم البحر على ضخامته، وسخَّره لتسير السفن على سطح الماء بمشيئته وقدرته دون أن تغوص في أعماقه، وليس في مقدور أحد من البشر أن يجعل السفينة تطفُو على وجه الماء دون أن تسقط فيه، ولا يقدر على ذلك إلا رب العالمين، وفي هذا عبرة لكم، فقد سخَّر الله لكم هذه السفن وهذه المراكب لتستخدموها في التجارة ونقل البضائع، وفي الجهاد والسفر للحج وغيره.

وابتغاءُ فضل الله تعالى -كما يطلق على طلب الرزق بالتجارة ونحوها- فإنه يُطلق أيضًا على استخراج منافع البحر وكنوزه بالغوْص فيه لاستخراج اللؤلؤ والمرجان واللحم الطَّري... ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ربكم على ما أنعم به عليكم وتفضَّل، فتعبدوه وحده، وتطيعوه فيما يأمركم به وينهاكم عنه، فإنكم إن شكرتموه زادكم من نعمه، وأثابكم على شكره، وإن أنكرتموها وكفرتم بها، فإن عذاب الله شديد وعقابه أليم.

كُلُّ مَا فِي الْكَوْنِ مُسَخَّرٌ لِخِدْمَةِ الْإِنْسَانِ

١٣- ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

وبعد تخصيص البحر بالذكر لمنفعة الإنسان، عمَّم ﷻ تسخير جميع ما في العالم العلوي والعالم السفلي لنفع الإنسان في كل ما تحصُل به فائدته: كالشمس للضياء، والمطر للشراب، والكواكب للاهتداء بها في ظلمات البر والبحر، والشجر للاستظلال وتصنيع الأخشاب، والأنعام لأكل لحومها والانتفاع من أوبارها وأشعارها وأصوافها وجلودها، والركوب عليها، والحرث.

وهكذا سخَّر الله للإنسان: الجبال، والبحار والأنهار، والنبات والأشجار، وغير ذلك، أمّا مَا في السموات والأرض -مما لا يفيد الإنسان- فهو غير مقصود في الآية، كالشُّهب في السماء، والزلازل البركانية في الأرض، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من شمس وقمر ونجوم وأفلاك ثوابت وسيارات ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ كالجبال وأجناس المعادن، والبحار، والدواب والأودية، والشجر والثمر والسفن، والحيوانات وغير ذلك لمنافعكم ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] أي: أن جميع هذه النعم منَّة من الله تعالى أنعم بها عليكم، وفَضْلٌ

تفضَّل به على خلقه، فاعبدوه وحده، ولا تجعلوا له شريكًا.

ومن تأمل في رغيف الخبز فقط يدرك أنه لم يصل إليه إلا بعد أن اشترك في صنعه عشرات من الناس، بدءًا من الحرث والزرع، ومرورًا بالطحين والعجين، وانتهاء بالنار والفرن، وكل هؤلاء سخَّرهم الله تعالى لشيء واحد.

وهذا يوجب شكر المنعم سبحانه وتدبر آياته وأحكامه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ إن في هذا التسخير للكون لخدمة الإنسان ونفعه، لدلائل على تفرد الله تعالى بالإلهية، إذا تفكَّر فيها الإنسان اهتدى، فالفكر منبع الإيمان، وخُصَّ المتفكرون بالذكر؛ لأنهم الذين ينتفعون بما في أيديهم من نِعَم، وبالتأمل السليم ينتقل الإنسان من مرحلة الظن إلى مرحلة اليقين التي يَجزم بها أن الله تعالى هو المستحق للعبادة دون سواه ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

أَدَبُ الْإِسْلَامِ فِي التَّسَامُحِ مَعَ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ

١٤- ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ[1] قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يصبروا على أذى غيرهم ممن لا يرجون ثواب الله ولا يخافون وقائعهُ بالعاصين، فإن الله تعالى سيجزي كل قوم بما كانوا يكسبون، فيجزيكم خيرا على صبركم وصفحكم، ويجزيهم شرا إذا استمروا في كفرهم.

وهذه الآية يأمر الله تبارك وتعالى فيها المؤمنين أن يصفحوا عما يصدر من غير المسلمين من أقوال وأفعال رديئة، وألَّا يعاقبوهم، وهذا من باب التأليف لقلوبهم، والترغيب في إسلامهم، وحسن التعامل والتوادُّ مع غير المسلمين، ممن لهم عهد وذمة.

والذين لا يرجون أيام الله هم الذين لا يتوقعون وقائع الله تعالى بأعدائه؛ ولا ما يُنْزِلُه بهم من حوادث وفتن في مستقبل أيامهم، لأنهم لا يخشون على أنفسهم أن يحل بهم مثل

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم ويعقوب بالياء والبناء للفاعل في (لِيَجزي) والفاعل ضمير يعود على (الله) تعالى و (قومًا) مفعول به، وقرأ أبو جعفر بالياء والبناء للمفعول، وقرأ الباقون بنون العظمة والبناء للفاعل.

ما حلَّ بالأمم المكذبة لرسل الله من عذاب وهلاك، فهم لا يصدقون بذلك، ولا يؤملون نصر الله تعالى للمسلمين.

ولما ذكر سبحانه دلائل التوحيد والقدرة، أردفها بتعليم فضائل الأخلاق ومحاسن الأفعال، فحثَّ المؤمنين على التجاوز والصفح عما يصدُر من غير المسلمين من كلمات بذيئة وتصرُّفات قبيحة، حتى يأتي أمر الله.

وهكذا أَمَرَ الله تعالى رسوله ﷺ أن يوجِّه من صدَّقوا بالله واتبعوه، أن يعفوا ويتجاوزُوا عن مساوئ غير المسلمين، الذين لا يرجون ثواب الله، ولا يخافون بأسه عندما يجدون منهم أذى أو مكروه.

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟﴾ أي: يعفوا ويصفحوا ويتجاوزوا ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ من غير المسلمين الذين لا يحاربوننا، أي: يصبروا على أذى مَن لا يخافون عقاب الله تعالى، ممن لا يؤمنون باليوم الآخر، ليكون في هذا تأليف لقلوبهم، وفي التجاوز عن أذاهم مصلحة الهدوء والمسالمة بين المسلمين وغيرهم، مما يسبب انتشار الإسلام، وتهيئة نفوسهم إلى الدخول فيه، سيما عندما يرون حسن الأخلاق ومقابلة السيئة بالحسنة عن قوة وعزة وكرامة، لا عن ضعف وذل وهوان، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

فإذا أصرَّ غير المسلمين على الكفر والعناد، ووقفوا حائلًا دون نشر الدعوة، وحاربوا الإسلام وأهله، فقد أمر الله المؤمنين بالجهاد في سبيله، وقد نزلت هذه الآية في وقت كثُر فيه المسلمون وأحسُّوا بالعزة والمنعة، فأمرهم الله بالصفح والعفو.

قال قتادة: ما زال نبي الله يأمر بالعفو ويحث عليه، ويرغِّب فيه حتى أمر أن يعفُوَ عمن لا يرجو أيام الله[١].

المراد بـ ﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾

١- وأيام الله، يراد بها: أيام القتال المشهورة بين قبائل العرب، كما يقال: أيام عَبْس، وأيام داحِس والغَبْراء، وأيام البَسُوس.

---

(١) أخرجه عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (١٣/ ٢٩٥).

٢- ويراد بها أيضًا: الذين لا يؤمِّلون في نصر الله لهم، ولا يخطر ببالهم أنهم منصورون.

٣- ويراد بأيام الله أيضًا في القرآن: الأيام التي يحصل فيها مزيد من فضل الله تعالى ونعمته، كقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥].

٤- والمراد بالذين لا يرجون أيام الله أيضًا في الآية: هم الذين لا يخافون عقابه ولا يرجون ثوابه؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث والحساب والجزاء.

وقد تكرر معنى هذه الآية في القرآن، قال تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران].

وجاء هذا النصح والإرشاد للنبي ﷺ في القرآن كثيرًا، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾ [المائدة: ١٣].

وقد وجَّه الله المسلمين ألا ينتصروا لأنفسهم، ليجزيهم الله خيرًا على إيمانهم، وعلى ما أوذوا في سبيله، وهذا معنى ﴿لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ ليُعاقب الله المشركين على ما اكتسبوه في الدنيا من الآثام وإيذاء المؤمنين، والمراد بلفظ: ﴿قَوْمًۢا﴾ هم الكفار.

فيكون المعنى: ليجزي الله الكفار بما عملوا من السيئات، كأنه قال: لا تكافؤوهم أنتم لنكافئهم نحن.

أو أن المعنى: ليجزي الله كل قوم بما عملوا من خير أو شر.

ومما جاء في أسباب نزول هذه الآية ما يلي:

١- ما رواه مكي بن أبي طالب: أن رجلًا من المشركين شتم عمر بن الخطاب ﷺ، فهمَّ أن يبطش به، قال ابن العربي: وهذا لم يصح.

وفي لفظ: أن رجلًا من غِفار شتم عمر فهمَّ أن يبطش به، فنزلت[1].

٢- وعن ميمون بن مهران عن ابن عباس ﷺ أنه لما نزل ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا

---

(١) من «تفسير الكشاف» للآية (٤/ ٢٨٨).

حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] قال فنحاص اليهودي: احتاج رب محمد، فلَمَّا سمع عمر ذلك اشتمل على سيفه وخرج في طلبه، فنزلت الآية[١].

٣- ومن ذلك ما رواه ابن عباس ﷺ أيضًا عن عطاء: أنها نزلت في غزوة (بني المصطلق)، لما نزلوا على بئر (المُريسيع)، فأرسل عبد الله بن أُبيٍّ غلامه ليستقي من البئر فأبطأ، فلما أتاه قال: ما حبسك؟ قال: غلام عمر قعد على فم البئر، فما ترك أحدًا يسقي حتى ملأ قِرَب النبي ﷺ وقِرَب أبي بكر، وملأه لمولاه، فقال عبد الله بن أُبيٍّ: ما مَثَلُنا ومَثَلُ هؤلاء إلا كما قال القائل: سَمِّن كلبَك يأكُلْك، فهمَّ عمر بقتله، فنزلت الآية[٢].

٤- وقال القُرظي والسُّدِّي: نزلت في أناس من أصحاب النبي ﷺ من أهل مكة أصابهم أذى شديد من المشركين، فشكَوْا ذلك لرسول الله ﷺ فأمرهم الله بالتجاوز[٣].

٥- وأخرج ابن عساكر عن أبي مسلم الخوْلاني أنه قال لجارية له: لولا أن الله تعالى يقول: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ لأوْجعْتُكِ، فقالت: والله إني لمِمَّن يرجو أيامه، فما لكَ لا تُوجِعَني؟ فقال: إن الله يأمرني أن أغفر لمن لا يرجو أيامه، فعمَّنْ يرجو أيامه أحرى، انطلقي فأنت حرة[٤].

وقيل: إن الآية منسوخة بآيات القتال، كما جاء ذلك عن ابن عباس وقتادة[٥].

قال ابن عطية: وهذه آية منسوخة بآية القتال، وقالت فرقة: الآية محكمة، وهي تتضمن الغفران عمومًا[٦].

قلت: ولعل الأخير هو الأصوب والأوْلَى، فإن العفو أقرب للتقوى في أحوال السلم والهدنة، وأدعى للترغيب في الإسلام وعدم التنفير منه.

---

(١) الواحدي في «أسباب النزول» (٢١٥) و«تفسير الطبري» (١٦/ ١٦١).

(٢) ذكره الألوسي بدون سند عن عطاء، يُنظَر: الواحدي (٣١٢) و«زاد المسير» (٧/ ٣٥٧) و«تفسير القرطبي» (١٦/ ١٦١).

(٣) ذكره البغوي والخازن بدون سند في تفسيرهما للآية.

(٤) ابن عساكر (٢٧/ ٢١٨).

(٥) كما في الطبري (٢١/ ٨٠) و«الدر المنثور» (١٣/ ٢٩٥) وابن كثير (٧/ ٢٦٦).

(٦) «تفسير ابن عطية» (٥/ ٨٢).

ثم أعقب الله ذلك بما يؤكد عدالة الجزاء، وتحمُّل كل نفس تبعة أعمالها.

١٥ - ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ[1] ﴿١٥﴾﴾

أي: من عمِل من عباد الله بطاعته فثواب عمله يعود عليه وحده، ومن ذلك حسن التعامل مع الآخرين، ومن عمل عملًا سيئًا فقد جنى على نفسه، وعقاب عمله يعود عليه، ويوم القيامة ترون ذلك الجزاء رأيَ العين، بعد أن تصيروا إلى ربكم، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

نِعَمٌ سِتٌّ أَنْعَمَ اللهُ بِهَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ

١٦ - ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ[2] وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

وبعد أن عدَّد الله تعالى بعض نعمه على جميع خلقه، خصَّ بني إسرائيل بذكر بعض ما أنعم به عليهم، وبيَّن أنهم كانوا يُقرُّون بنبوة محمد ﷺ قبل مجيئه، فلما جاءهم ما عرفوه، أي: فلما بُعِث محمد ﷺ اختلفوا عليه، وكفر به أكثرهم.

وقد ذكرت هذه الآية خمس نعم منَّ الله بها على بني إسرئيل، تضاف إليها نعمة سادسة ذُكرت في الآية التالية:

وأُولى هذه النعم: أن الله تعالى **أعطاهم التوراة** التي نزلت على موسى، **والإنجيل** الذي نزل على عيسى، **والزبور** الذي نزل على داود لتكون هذه الكتب هداية لهم من الضلالة ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤].

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: ٤٧].

﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

وثانيتها: أن الله تعالى **أعطاهم الحكمة**، وهي الفهم والفقه في الأحكام، حتى يتمكنوا من القضاء بها بين الناس، والفصل في الخصومات، قال تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ

---

(١) قرأ يعقوب بالبناء للفاعل في (تَرجعون)، والباقون بالبناء للمفعول.

(٢) قرأ نافع بالهمز بعد الواو المدية في (والنبوءة)، والباقون بالواو المشددة (والنبوَّة).

﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف: ١٥٩].

كما جعل لهم السيادة على أنفسهم، فلا تحكمهم أمة أخرى في زمانهم إلى أن جاء عيسى عليه السلام.

وثالثتها: أن الله تعالى جعل فيهم **عددًا كبيرًا من الأنبياء**، فأكثر الأنبياء من ذرية إبراهيم عليه السلام، وكانت النبوة فيهم من نسل يعقوب عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المائدة: ٢٠].

ورابعتها: أن الله تعالى **رزقهم من الأقوات** والأطعمة والمشارب والملابس والثمار الطيبة، فأنزل عليهم المنَّ والسَّلْوى، ووسَّع عليهم في دنياهم ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٥٧] وأورثهم دنيا فرعون وقومه.

وخامستُها: أن الله تعالى **فضَّلهم في زمانهم** بالتوحيد -وهو أصل الديانة- على الوثنيين والمشركين، وأعطاهم من النعم ما لم يُعطِ أحدًا غيرهم، وجعلهم أفضل أمم زمانهم ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [البقرة: ٤٧].

ثم ضرب الله الذلة والمسكنة عليهم بسبب قتلهم الأنبياء وإفسادهم في الأرض، وكان ذلك كله قبل أن تُنسخ شريعتهم بالشريعة التي تلتْها، والمراد بـ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مجموع الناس الموجودين في زمن موسى عليه السلام.

وفي زمن محمد ﷺ لم يكن لواحد منهم وجود، كما أن أمة محمد ﷺ لم يكن واحد منهم موجودًا في زمن موسى ﷺ، وعلى هذا فإن أمة محمد ﷺ غير داخلة في العالمين الموجودين في زمن موسى عليه السلام، فليسوا منهم، جاء في حديث معاوية بن حَيْدة القشيري أن النبي ﷺ قال في أمته: **«أنتم توفون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله»**(١).

وقال سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] أي: للناس جميعًا إلى قيام الساعة. قال تعالى:

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٠٠١٥) وهذا لفظه، وانظر (٢٠٠٢٥) قال محققوه: إسناده حسن، وهو في «سنن الترمذي» وعند ابن ماجه عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده برقم (٤٢٨٨) وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم (٣٤٦١) و«مستدرك الحاكم» (١٠٢٣) والطبراني في الكبير (١٩/ ١٠٣٠).

١٧- ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾

أي وآتينا بني إسرائيل دلائل واضحة، ومعجزات رأوْها على يد موسى عليه السلام، تبين لهم حكم الله فيهم، حتى يقوموا بواجبها على أكمل وجه، ويجتمعوا على الحق الذي بينه الله لهم، ولكنهم اختلفوا وعكسوا القضية.

والنعمة السادسة: أن الله تعالى أعطى بني إسرائيل في التوراة **شريعة واضحة** تبيِّن الحلال والحرام، والحسن والقبيح، والحق والباطل، لا عوج فيها ولا لَبس، وقد ذكر الله هذه النعم ليقول لنبيه ﷺ: لا تحزن -يا محمد- على كفر قومك؛ فإنا قد آتينا بني إسرائيل الكتاب والنعم العظيمة، فلم يشكروا، وأصروا على الكفر، فكذلك قومك.

والبيِّنة: هي الحجة الظاهرة، **والأمر**: هو الشأن العظيم، والأمر القدَري الذي أوصله إليهم أي: وآتيناهم بواسطة رسلهم وكتبهم، حجج الحق والهدى في شؤون الأمة، فلم يترك موسى ومَنْ بعده من الأنبياء شيئًا من أمور دينهم ودنياهم إلا أوْضحوه وبيَّنُوه، ومما بيَّنته شريعتهم بلا لَبس ولا غموض مبعث محمد ﷺ ووجوب إيمانهم به عندما يُبعث، فهو ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وهو الذي قال الله عنه: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

قال ابن عباس في تفسير ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾: بيَّنَّا لهم أمر النبي ﷺ وشواهد نُبوَّته، بأنه يهاجر من تهامة إلى يثرب وينصره أهلها[1].

ومع أن الله تعالى بيَّن لليهود في التوراة أمر محمد ﷺ على أكمل وجه، ولكنهم اختلفوا في شأنه بعد بعثته وتحقق قيام الحجج والبراهين على صدقه ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟﴾ أي: لم يقع الخلاف بين اليهود في شأن رسالة محمد ﷺ ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ بمبعث النبي ﷺ، والدليل القاطع على صحة رسالته، فجعلوا ما يوجب زوال الخلاف موجبًا لثبوته، وكان هذا الاختلاف عن حسد وعناد، وخوفًا على ذهاب الرياسة منهم،

(١) «حاشية الجمل» (٤/١١٦).

فكان اختلافهم ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ عن عمد ومكابرة وحسد وظلم، وعن علم منهم بصدقه ﷺ فهم ممن أضله الله على علم، ولو اختلفوا قبل مجيئه ﷺ لكان لهم عذر في ذلك؛ لأن الاختلاف بعد العلم أقبح وأشنع، ولم يكن اختلافهم بسبب الوصول إلى الحق، بل بسبب البغي والحسد.

قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾﴾[البينة].

والمفروض أن العلم يرفع الخلاف، ولكنه في هذه المسألة كان سببًا في الخلاف؛ لأنهم لم يقصدوا العلم في حد ذاته، وإنما قصدوا طلب الرياسة؛ وذلك لأنهم علموا وعاندوا[1].

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ إن ربك -يا محمد- يحكم بين المختلفين من بني إسرائيل ومن سائر العباد يوم فصل القضاء فيما اختلفوا فيه من أمر الدين والدنيا، وفيما اختلفوا فيه من الإيمان بمحمد ﷺ.

وفي الآية تحذير لهذه الأمة أن يكونوا مثلهم، فينزل بهم عقاب الله الذي يستحقونه.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [يونس].

انْتِقَالُ الرِّسَالَةِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى الْعَرَبِ

١٨- ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾

وبعد بني إسرائيل كتب الله الخلافة في الأرض لرسالة جديدة، ورسول جديد، يَرُدُّ إلى شريعة الله منهجها الصحيح، بعد أن تطرق إليها التحريف والتبديل على أيدي بني إسرائيل، وهذه الشريعة يكون الحكم فيها لله وحده، وليس إلى الأهواء المتقلبة ممن لا يعلمون شيئًا ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ﴾ أيها الرسول، بعد أنبياء بني إسرائيل ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي: شرعنا لك شريعة كاملة تدعو إلى كل خير، وتنهي عن كل شر، على منهاج واضح من أمر الدين، وعلى سنة قويمة، وطريقة حميدة سديدة.

---

(١) يُنظَر: «التفسير الكبير» للفخر الرازي (٢٧/ ٢٦٥).

والشريعة في الأصل: هي مورد المياه، وهي في اللغة: المذهب والملة، ويراد بها: ما شرعه الله لعباده من أمور الدين، ومنها الفرائض والحدود والأوامر والنواهي، وقد أمر الله رسوله محمدًا ﷺ أن يتَّبع شرعه ولا يحيد عنه ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾ فإن في اتباعها السعادة الأبدية والفوز والفلاح في الدنيا والآخرة ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ اتبع الشريعة التي أوحينا بها إليك، ولا تتبع أهواء الجاهلين بشرع الله المتبعين لشهواتهم وضلالاتهم من الذين لا يعلمون الحق، ويخالفون شرع الله وشرع رسوله بأهوائهم وإرادتهم.

والآية تدل على كمال الدين الإسلامي وشرفه ووجوب الانقياد له، وعدم اتباع أهواء الملحدين والجاحدين.

قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

وقال سبحانه: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

وهؤلاء الضالون الذين يدعونك إلى اتباع أهوائهم لن يدفعوا عنك شيئًا من عذاب الله إن اتبعت أهواءهم. قال تعالى:

١٩- ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾

إن هؤلاء الضالين لن يدفعوا عنك عذاب الله، إن اتبعت أهواءهم، فهم ظالمون يوالي بعضهم بعضًا، ويوافق بعضهم بعضًا، والله يتولى المتقين فيخرجهم من الظلمات إلى النور.

قيل: إن كفار قريش قالوا للنبي ﷺ: ارجع إلى دين آبائك فإنهم كانوا أفضل منك، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: المتجاوزين حدود الله من اليهود والمنافقين وغيرهم ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي: بعض الظالمين أنصار بعض على المؤمنين بالله وأهل طاعته، وذلك في الدنيا، أما في الآخرة فإن ولايتهم تنقلب إلى عداوة.

والمتبعون لأهوائهم ظالمون، يوالي بعضهم بعضًا، أما أنت -يا رسول الله- فإن أولياءك المتقون ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وهو ناصرهم في الدنيا والآخرة، وأنت إمام المتقين وقدوتهم، فاثبت على شريعتنا لتنال رضانا وعطاءنا.

وفي هذا توجيه للأمة كي يتمسكوا بالإسلام، ولا ينحرفوا إلى شيء من التيارات الضالة. قال تعالى:

٢٠- ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

أي: هذا الإعلان للناس على لسان محمد ﷺ باتباع شرع الله تعالى، وبيان أن الله - جلَّ شأنه - وليُّ من اتبعه، وفي هذه الشريعة براهين ودلائل للناس فيما يختلفون فيه من أحكام، والإشارة إلى القرآن الكريم، وما فيه من بصائر للناس في أمور دينهم ودنياهم، وما فيه من الهدى والرحمة للموقنين به المهتدين بهديه، فيزداد يقينهم وتَزْكُوا نفوسهم.

والله تعالى يُثني على القرآن في هذه الآية، ويبيِّن أن فيه الهداية للناس عامة، فهم يدركون به حقائق الأمور، كما تُبصر العين حقيقة المرئيات، والقرآن للقلب بمنزلة البصر للعين.

﴿هَٰذَا﴾ القرآن ﴿بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾ يخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الضلال إلى الهدى، يعرفون به طريق الرشاد، ويميزون به الحق من الباطل، بما فيه من حجج وبراهين تكشف للقلب الطريق.

والذين ينتفعون بحجج القرآن وهداياته هم المؤمنون الذين يوقنون بصحته، ويعلمون أنه تنزيل من الله العزيز الحكيم، فهو هدى لهم من الضلالة، ورحمة لمن اتبعه وعمل به، أمَّا أعمى البصيرة فإنه لا ينتفع بما فيه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة].

وقال أيضًا: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء].

لَا يَسْتَوِي الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ

ولَمَّا بيَّن سبحانه ضلالات بني إسرائيل، وبيَّن أن القرآن نور وهداية لمن تمسك به، أعقبه ببيان أنه لا يتساوى المؤمن مع الكافر، ولا البر مع الفاجر، لا في الدنيا ولا في الآخرة، فقال تعالى:

٢١- ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً[1] مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾

أي: أظنَّ الذين اكتسبوا المعاصي والذنوب، وعلى رأسها الشرك والكفر، ممن خالفوا أمر ربهم، وعبدوا غيره، وكذَّبوا رسل الله، أظنَّ هؤلاء أنهم يستوون مع المؤمنين العاملين للصالحات، المخلصين لله العبادة، المصدقين لرسل الله، العاملين بشرعه.

كلَّا، لا يستوون، فالمؤمنون يحْيَون في الدنيا حياة طيبة، ليس فيها هموم ولا أحقاد ولا خوف، وفي الآخرة ينالون رضى الله تعالى والفوز بالجنة، وأهل الشرك والكفر أشقياء في الدنيا والآخرة، فشتَّان ما بين الفريقين:

قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾﴾ [السجدة].

وقال سبحانه: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص]. وقال جل شأنه: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [القلم].

فالمؤمنون العاملون للصالحات، لهم الفوز والفلاح والسعادة والثواب والعاجل والآجل، والمسيئون لهم الغضب والشقاء والعذاب في الدنيا والآخرة.

قال مجاهد: المؤمن يموت مؤمنًا ويُبعَث مؤمنًا، والكافر يموت كافرًا ويُبعَث كافرًا[2] فمحيا المؤمنين ومماتهم سواء، ومحيا الكافرين ومماتهم سواء.

ويدخل في الآية، نفي المساواة بين عصاة المؤمنين وغير العصاة منهم، فلا يستوي المحسن والمسيء، والطائع والعاصي ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: ساء حكمهم بالمساواة بين الأبرار والفجار في الدار الآخرة، وقد يستوون في الدنيا، أو يكون أهل السيئات أوفر حظًا من أهل الصالحات، ولكنهم في الآخرة لا يستوون، فقد خلق الله الخلق لإظهار

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بالنصب والتنوين في (سواءً) على أنه حال من الضمير في (نجعلهم) و(محياهم) فاعل، و(مماتهم) معطوف عليه، وقرأ الباقون بالرفع على أنه خبر مقدم و(محياهم) مبتدأ مؤخر و(مماتهم) معطوف عليه.

(٢) «تفسير الطبري» (٢١/ ٨٨) و«تفسير القرطبي» (١٦/ ١٦٦).

الحق فأمرهم بطاعته، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، ومن عدْله وحكمته ألا يستوي: المؤمن والكافر، والطائع والعاصي، والظالم والمظلوم.

وفي هذا توبيخ لمن اكتسبوا السيئات على حكمهم الباطل، فإن أهل الجنة وأهل النار لا يستوون، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر].

إن في هذه التسوية سوء ظن بالله تعالى، وسوء ظن بعدله بيْن من أطاع ومن عصى.

قال مسروق: قال لي رجل من أهل مكة: هذا مقام أخيك تميم الداري، ولقد رأيته قام ذات ليلة حتى أصبح أو قرُب أن يُصبح، يقرأ آية من كتاب الله، يركع بها ويسجد، ويبكي وهو عند المقام: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾[1].

وعن الفضيل بن عياض أنه بلغها، فجعل يرددها ويبكي، ويقول: يا فضيل، ليت شعري، من أي الفريقين أنت؟[2].

وكان الربيع بن خُثَيْم يصلي فمرَّ بهذه الآية ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فلم يزل يكررها حتى أصبح[3].

وذكر البغوي وابن عطية: أن الآية نزلت في نفر من مشركي مكة، قالوا للمؤمنين: لئن كان ما تقولون حقًّا لنفضُلَنَّ عليكم في الآخرة، كما فُضِّلنا عليكم في الدنيا.

وفي لفظ آخر: والله ما أنتم على شيء، ولئن كان البعث حقًّا لحَالُنا أفضل من حالكم في الآخرة، كما أن حالنا أفضل منكم في الدنيا، وهذا كقوله تعالى حكاية عن منكري البعث: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

وقوله أيضًا: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [فصلت: ٥٠].

---

(١) «تفسير الخازن» (٤/ ١٢٠) وابن المبارك (٩٤) وابن أبي شيبة (٢/ ٤٧٧) وعبد الله بن أحمد (ص ١٨٢) والطبراني (١٢٥٠).

(٢) «تفسير النسفي» بحاشية «تفسير الخازن».

(٣) ابن أبي شيبة (٢/ ٤٧٧).

والآية تأمر بالثبات على الطاعة، وتحذر من اقتراف المعاصي.

الْمَقْصُودُ مِنْ خَلْقِ الْعَالَمِ: إِظْهَارُ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ بَيْنَ مَنْ أَطَاعَ وَمَنْ عَصَى

٢٢- ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

ثم أكد سبحانه نَفْي المساواة بين المؤمنين والكافرين، فبيَّن أن المقصود من خلْق العالم هو إظهار الحق والعدل بيْن من أطاع الله تعالى ومن عصاه، ولا يتم هذا إلا في يوم القيامة ليحصل التفاوت بين المحقين والمبطلين في الدرجات والدركات، ويُقتص من الظالم للمظلوم، ومن هنا كان حشْر الناس للحساب والجزاء تحقيقًا للعدل الإلهي، وللحق الذي قامت عليه السموات والأرض.

قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ المقتضي للعدل بين العباد بمعاقبة المسيء وإثابة المحسن، ولو لم يكن هذا الجزاء بعد الموت لذهبت الحكمة والعلة التي خلق الله الخلق من أجلها، وهذا معنى ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: لكي يُجزى كل إنسان بعمله من خير أو شر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فلا يُنقص في ثواب المؤمن، ولا يُزاد في عذاب الكافر.

وهكذا، فقد خلق الخلق ليعرفوه فيوحدوه ويعبدوه، وأنعم عليهم بنعمه الظاهرة والباطنة ثم أمرهم ونهاهم، وفي يوم البعث والحساب استحق المطيع ثواب الله، واستحق العاصي عقاب الله، ولا يظلم ربك أحدا.

اتِّبَاعُ هَوَى النَّفْسِ ضَلَالٌ مُهْلِكٌ

٢٣- ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً[1] فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ[2] ﴿٢٣﴾﴾

ولما ذكر الله - سبحانه - ما يزعمه الذين اكتسبوا السيئات بأنهم يكونون في الآخرة في عزة ونعمة كما كانوا في الدنيا، بيَّن جلَّ شأنه أن كلامهم هذا مبني على المغالطة

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف (غَشْوَة)، والباقون (غِشَاوة) وهما لغتان بمعنى: الغطاء.

(٢) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بتخفيف الذال من (تذكرون)، والباقون بتشديدها.

واتباع الهوى، فهم لن يكونوا آمنين من أهوال البعث، ولا يُرجى لهم اهتداء لتمكُّن الضلال من قلوبهم؛ لأن حواسهم وقلوبهم كالمختوم عليها، لا تنتفع بالوعظ ولا تقتنع بالحجج والبراهين.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أخبرني يا محمد عن حال من اتخذ هواه إلهًا، فلا يهوى شيئًا إلا فعله، فهو مِطْواع لهوى نفسه، يتبع ما تميل إليه النفس، كأنه يعبد الهوى؛ لأنه لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، فلا يخاف الله، ولا يُحرِّم ما حرَّم الله، فكأن الهوى معبوده، وذلك أن العرب كانت تعبد الحجارة والذهب والفضة، فإذا رأوْا شيئًا أحسن من الأول رمُوا الأول وكَسَّرُوه وعبدوا الآخر.

قال ابن عباس ﷺ: كان الرجل من العرب يعبد الحجر، فإذا وجد أحسن منه أخذه وألقى الآخر[١].

وقال في معنى الآية: ذاك الكافر اتخذ دينه بغير هدى من الله ولا برهان، وأضله الله في سابق علمه[٢].

ومن الكلمات المأثورة: **«ثلاث من المهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني»**[٣].

والعاقل يتبع إشارة عقله ويترك إشارة هواه.

وفي الأثر: **«إذا رأيت شحًّا مطاعًا، وهوًى متَّبعًا، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بنفسك»**[٤].

وهذه الآية وإن كانت قد نزلت في هوى الكفر إلا أنها تتناول جميع هوى النفس الأمارة.

---

(١) النسائي في «السنن الكبرى» (١١٤٨٥) والحاكم (٢/ ٣٥٢) وابن جرير عن سعيد بن جبير (٢١/ ٩٣).

(٢) ابن جرير (٢١/ ٩٢) والبيهقي (٣٣٤).

(٣) حسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٨٠٢) ج ٤٤١٢ وقوله (والعاجز) رواه الترمذي عن شداد بن أوس، بدون (الأماني) برقم (٢٤٥٩) وقال: هذا حديث حسن،وانظر مشكاة المصابيح (٥٢٨٩) فقد ضعف الألباني هذا المقطع.

(٤) عن جُبيْر بن نُفيْر كما في «تفسير الطبري» (١١/ ١٤٢). وهو عن أبي ثعلبة الخشني عند ابن حبان وأبي داود والترمذي بتضعيف الألباني في السلسلة الضعيفة (٢٣٤٤).

والناس في اتباع **الهوى أقسام ثلاثة:**

١- منهم من يغلِّب هواه ونفسه وشيطانه، فهو ممن قال الله عنهم: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥].

وجاء في وصف عمر ﷺ: **«والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سالكًا فجًّا إلا سلك فجًّا غير فجك»**[١].

وقال ﷺ في حديث بريدة: **«إن الشيطان ليخاف منك يا عمر...»**[٢].

وقال ﷺ في حديث عائشة: **«إني لأنظر إلى شياطين الإنس والجن قد فروا من عمر»**[٣].

وفي حديث ابن مسعود ﷺ: أن النبي ﷺ قال عن نفسه: **«ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينه من الجن»** قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: **«وإياي، إلا أن الله قد أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير»**[٤].

فصار زمام الشيطان بيد النبي ﷺ، وهذا هو صاحب النفس المطمئنة.

٢- ومنهم من غلبه الهوى والشيطان، فصارا معبوديْه، لا يشيران عليه بشيء إلا فعله، فهذا ممن قال الله فيهم: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ وهو صاحب النفس الأمَّارة.

٣- ومنهم من كان مجاهدًا لنفسه وهواه، فهو في جهاد مستمر مع الهوى والشيطان، تارة يغلبانه وتارة يغلبهما، وهذا حال أكثر الناس، فإن مات على ذلك فهو مجاهد لنفسه وهواه، كما جاء في الأثر: **«جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم»** وهذا هو صاحب النفس اللوامة.

والصنف الأول: من الناس وهو الذي يغلب نفسه وهواه، يشبه الملائكة، فقد خُلِقوا بلا شهوة تنازع عقولهم، فهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وهؤلاء يغلبون شهواتهم وأهواءهم، ويتبعون إشارة العقل الراشد.

---

(١) من حديث سعد بن أبي وقاص في صحيح البخاري برقم (٣١٢٠).

(٢) «جامع الترمذي» في حديث طويل برقم (٣٦٩٠) قال أبوعيسى: هذا حديث صحيح غريب من حديث بريدة.

(٣) «جامع الترمذي» (٣٦٩١) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وهو حديث طويل.

(٤) «صحيح مسلم» (٢٨١٤) وعن عائشة (٢٨١٥).

والصنف الثاني: وهو الذي تغلبه نفسه وهواه، يشبه الدواب، فإن لهم شهوة وليست لهم عقول، ولذا: فإن الذكَر من الدواب يقع على الأنثى في قارعة الطريق دون استحياء، وهؤلاء تتحكم فيهم شهواتهم وتغلبهم أهواؤهم.

أما الصنف الثالث: وهم الذين يغلبون هواهم تارة، ويغلبهم الهوى تارة أخرى، فهو شأن عامة البشر، فقد ركَّب الله فيهم العقل والشهوة معًا، فهما يتنازعان، فإن غلب العقل كان العبد شبيهًا بالملائكة، وإن غلبت الشهوة كان شبيهًا بالدواب.

وهؤلاء الذين عبدوا هواهم لهم عقول سليمة، وقد تكون دعوة النبي ﷺ قد بلَغتْهم، وعلى هذا فهُم على علم بما يعبدون وما يذَرون، ولكن أسباب الضلالة قد أحاطت بهم من كل جانب، ولذا قال تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ فهو متمكن من العلم بما يفعل، ولو تجرَّد من المكابرة والميل إلى الهوى لاستقام وحسُن حاله، وهو كاليهود الذين أُشربت قلوبهم حب عبادة العجل، وقالوا لموسى: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

قال مقاتل: إن الآية نزلت في أبي جهل بسبب حديثٍ جَرَى بينه وبين الوليد بن المغيرة، كانا يطوفان ليلة، فتحدَّثا في شأن النبي ﷺ، فقال أبو جهل: والله إني لأعلم أنه لصادق، فقال له المغيرة: مَهْ، وما دلَّك على ذلك؟ قال: كنا نسميه في صباه الصادق الأمين، فلمَّا تمَّ عقله وكمُل رشده نسميه الكذَّاب الخائن؟ قال: فما يمنعك أن تؤمن به؟ قال: تتحدث عني بنات قريش، أني قد اتبعتُ يتيم أبي طالب من أجل كِسْرَة، واللَّاتِ والعُزَّى، لا أتَّبعه أبدًا؛ فنزلت الآية[1].

وكان الحارث بن قيس السَّهمي أحد المستهزئين، يعبد من الأصنام ما تهواه نفسه، فشمله نزول الآية [2].

والآية تحذِّر المسلم أن يكون الباعث له في أعماله هو الهوى دون النظر في الدليل واتباع الحق.

جاء في الأثر: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به**»[3].

---

(١) ،(٢) «تفسير التحرير والتنوير» (١٢/ ٣٥٩).

(٣) عن عبد الله بن عمرو، قال الحافظ في ا لفتح: رجاله ثقات، وصححه النووي في آخر الأربعين، وضعف إسناده الألباني في مشكاة المصابيح (١٦٧).

وقال أبو الدرداء: إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعَمله وعلمه، فإن كان عَملُه تبعًا لهواه فيومه يوم سوء، وإن كان عمله تبعًا لِعلمه فيومه يوم صالح.

والمتبع لهواه بعد بلوغ العلم إليه بمبعث محمد ﷺ وقيام الحجة عليه بما جاء في خاتمة الرسالات، هو شخص لا يتأثر بالمواعظ، ولا يتفكر في الآيات والنذُر، وذلك بسبب فساد الفطرة عنده، فقد ختم الله على سمعه وقلبه، فهو لا ينتفع بما يسمع، ولا يعقل شيئًا، وقد جعل الله على بصره غطاء، فلا يُبصِر حُجَّة يستضيء أو يسترشد بها، وهذا معنى ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ أي: جعل على بصره غطاء؛ حتى لا يرى الحق ولا يرى حجة يستضيء بها.

وقُدِّم السمع على القلب؛ لأن المتبع لهواه قد عقد قلبه على تلبية رغبات النفس، فكان هذا صارفًا للسمع عن تلقِّي الهداية، وقُدِّم ختم القلب على السمع في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] لأن القلب هو الأصل، ولأن الكفار يستوي عندهم الإنذار وعدمه، وليس في استطاعة أحد أن يهدي من أضله الله، بسبب إيثاره لمراد نفسه على مراد الله ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ أي: من يوفقه لإصابة الحق والرشد بعد إضلال الله له؟

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أيها الناس، فتعلمون أن مَن فعل الله به ذلك فلن يهتدي أبدًا، ولن يجد لنفسه وليًّا ولا مرشدًا.

قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان: ٤٣].

وقد وصف الله أهل الضلال في هذه الآية **بأربعة أوصاف**، هي:

١- عبادة الهوى. ٢- وضلالهم على علم.

٣- والطبْع على أسماعهم وقلوبهم.

٤- وجعْل الغشاوة على أبصارهم.

وكلُّ وصف منها يقتضي الضلالة، فالهدى لا يصل إليهم بوجه من الوجوه، لأنهم قد سدُّوا على أنفسهم أبواب الهداية، وفتحوا لها أبواب الغواية.

الدَّهْرِيُّونَ وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ

٢٤، ٢٥ ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾

ومن ضلالات المكذبين بالله ورسوله، إنكارهم للبعث والنشور، فهم يقولون: إن هذه الحياة التي نحن فيها هي الحياة الأولى والأخيرة، ولا توجد حياة سواها، فنحن نموت ثم يحيا أولادنا بعدنا، أو يموت بعضنا ويحيا بعض آخر إلى زمن معين، أو نكون أمواتًا في أصلاب آبائنا ثم نَحْيا عند الولادة ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: ليس بعد هذا العالَم عالَم آخر، فالحياة هي حياة هذا العالَم لا غير، وإذا مات من كان حيًّا خلَفه من يوجد بعده.

وهذا إنكار وتكذيب للبعث والحساب، ثم قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ﴾ أي: وما يفنينا إلا مَرُّ الأيام والليالي وطول العمر، فيحيا أناس ويموت أناس، ومن مات لا يرجع إلى الحياة مرة أخرى، فلا حساب ولا جزاء، فالحياة في زعمهم تكون بتكوين الطبيعة، والممات يكون بفعل الدهر، والزمن هو المؤثر في الموت، فكيف يُرجى لمن أهلكه الدهر أن يعود حيًّا؟ فهم بهذا ينكرون أن يكون لهم ربٌّ يفنيهم ويُهلكهم.

قال ابن كثير: هذا قول الدهرية من الكفار، ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد، ومُرادهم: ما ثَمَّ إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وليس هناك معاد ولا قيامة، وهذا قول الفلاسفة الدهريين، المنكرين للصانع سبحانه، المعتقدين أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا وكذَّبوا المعقول والمنقول[١].

وقال الفخر الرازي: يريدون أن الموجب للحياة والموت تأثيرات الطبائع، وحركات الأفلاك، ولا حاجة إلى الخالق المختار، فهذه الطائفة جمعت بين إنكار الإله، وإنكار البعث والقيامة[٢].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٦٩) بتصرف.

(٢) «التفسير الكبير» (٢٧/ ٢٧٥).

قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي: ليس لهم فيما قالوه مستند عقلي ولا نقلي، وهم يتكلمون بالظن والوهم والخيال من غير حجة ولا بيِّنة، وهم بهذا قد أنكروا المعاد، وكذبوا الرسل من غير دليل ولا برهان.

وقد كان العرب في جاهليتهم إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة، قالوا: يا خيبة الدهر، فهم يسندون تلك الأفعال إلى الدهر، ويسبُّون الله ﷻ؛ لأنه فاعل ذلك في الحقيقة، فلهذا نهى الله عن سب الدهر؛ لأن الذي يسندون إليه هذه الأفعال هو الله تعالى(١).

فهذه الآية رد على الدهرية الذين يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار، ودورة الزمان، وينسبون الحياة والموت إلى الدهر، وإذا أصابهم مكروه سبُّوا الدهر، ومثْلهم الملاحدة الذين لا يعتقدون بوجود إله مبدع لهذا الكون، وأنه قد خُلق صُدفة، ومنهم من يقول: إن الطبيعة أبدعت وصنعت، وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون.

فالطبيعة لا تبدع شيئًا، والأَوْلَى أن يقال: الخليقة، بمعنى: المخلوقة لله تعالى.

وليس الدهر من أسماء الله الحسنى، وبهذا يُفسَّر حديث أبي هريرة ﵁: أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار**»(٢).

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنعام].

وقوله تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المؤمنون].

وقوله سبحانه: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات].

وهؤلاء الدهريون وأشباههم ممن قالوا: لا حياة بعد الموت، إذا تُلِيت عليهم آيات القرآن الواضحة، الدالة على البعث والنشور، لم يعارضوها بما يبطلها، وإنما يقولون: إن

---

(١) يُنظَر: «تفسير الخازن» (٤/ ١٢٠) وابن كثير (٧/ ٢٦٨) بتصرف.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٨٢٦، ٦١٨١) و«صحيح مسلم» برقم (٢٢٤٦) و«سنن أبي داود» برقم (٥٢٧٤) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٦٨٧) وأحمد (٧٢٤٥) والطبري (٢١/ ٩٧).

كان البعث حقًّا فأحيُوا لنا آباءنا الذين ماتوا إن كنتم صادقين، وهذا سلاح العاجز الذي يَخرُج عن دائرة البحث والمناظرة، مكابرة وعنادًا، وقد توهَّموا أن هذا حجة لهم، قال تعالى في وصفهم: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على منكري البعث والنشور ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ الدالة على البعث والحساب والجزاء في هذا القرآن، وهي آيات ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحة الدلالة على إحياء الناس بعد موتهم، لم يكن لهم ردٌّ إلا قولهم: أحيُوا لنا آباءنا الذين ماتوا من قبل إن كنتم صادقين في قولكم، وهذا معنى ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾. فزعموا أن صدق الرسل متوقف على إحياء آبائهم الأولين، وهم كذبه فيما طلبوا، فلو جاءتهم الرسل بكل آية لم يؤمنوا، وإنما قصدهم بهذا ردّ دعوة الرسل.

وقد سمَّى القرآن قولهم هذا حجة من باب التهكم؛ لأنهم ساقوه مساق الحجة.

ثم أبطل الله تعالى قولهم بما يُلجمهم، فقال:

٢٦- ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا[1] رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

قل -أيها الرسول- لمنكري البعث والحساب والجزاء: الله تعالى يحييكم في الدنيا ما شاء لكم الحياة، ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم في الدنيا، وكما أنشأكم من العدم، وابتدأ خلقكم من نطفة، فإنه سبحانه يبعثكم للحساب والجزاء؛ لأن من قدر على البدء، فإنه يكون قادرًا على الإعادة من باب أَوْلَى ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾ أي: يحشركم جميعًا أحياء ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لإثابة المطيع وعقاب العاصي، وهو يوم ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لاشك في مجيئه، فوقوعه مقطوع به ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله تعالى محييهم ومميتهم لجهلهم وقصور نظرهم ولاستيلاء الهوى والشيطان على قلوبهم.

قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة].

وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الروم: ٤٠].

---

(١) قرأ حمزة بخلف عنه بمد لام (لا ريب) أربع حركات للمبالغة في النفي، والباقون بالقصر.

مِنْ مَشَاهِدِ الْقِيَامَةِ

٢٧- ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

ثم شرع سبحانه يُفَصِّل أحوال يوم القيامة وأهوالها؛ كي يستعدَّ الخلق للقاء ربهم بالإيمان والعمل الصالح، فبعد أن قرر سبحانه أنه قادر على إحياء الخلق في الآخرة بعد أن أحياهم في الدنيا، عمَّم جلَّ شأنه هذه القدرة على الكون كله، فبيَّن سبحانه أنه مالك السموات والأرض في الدنيا والآخرة، فالكل خلْقُه، والكل مملوك له، والكل عبيده ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ المتصرف في العالمين العلوي والسفلي، وما فيهما وما بينهما، وهو المتصرف أيضًا يوم قيام الساعة، حين يُبعث الناس من قبورهم للحشر والحساب، حيث ينفرد سبحانه بتدبير شؤون الخلق وتصريف أحواله في الداريْن، وهو اليوم الذي يخسر فيه الكافرون بالله، الجاحدون لما أنزل الله على رسوله من الآيات البينات والدلائل الواضحات، يخسرون أنفسهم وأهليهم في نار جهنم وبئس المصير ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾. الذين جاؤوا بالباطل ليدحضوا به الحق، وكانت أعمالهم باطلة، فبطل كل ذلك يوم لقاء الله، وظهر الحق من الباطل.

كان أحد السلف يتكلم بما يُضحك، فسمعهُ سفيان الثوري فقال له: أما علمت أن لله يومًا يخسر فيه المبطلون؟ فما زال الرجل متأثرًا بما سمع حتى لقي ربه، قال تعالى:
﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[غافر: ٧٨]

والمبطلون هم الكافرون حيث يكون مصيرهم النار.

والمبطلون: هم أصحاب الأباطيل في معتقداتهم وأقوالهم وأعمالهم، وأعظم الباطل الشرك بالله تعالى، ثم إن المشرك بعد ذلك يكون في دركات النار، بعضها أدنى من بعض، وما من دركة منها إلا وهي خسارة على فاعلها.

الْأُمَمُ تَجْثُو بَيْنَ يَدَيِ الْخَالِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرْقُبُ مَصِيرَهَا

٢٨- ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ[1] أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

(١) قرأ يعقوب بنصب (كلَّ) الثانية على أنها بدل من (كلَّ) الأولى، والباقون بالرفع على أنها مبتدأ، وجملة (تدعى) خبر.

وفي يوم القيامة ترى -يا محمد- كل جماعة من الناس يجمعهم دين واحد جاء به رسولهم، تأتي هذه الأمة وهي باركة على ركبها، وأطراف أناملها، في حالة ترقُّب وتحفُّز من الخوف والرعب وشدة الهول والفزع، كما يجثُو الخصوم بين يدي الحاكم في ذل وانكسار ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ وهذا الجثُوُّ يكون حينما يُؤتى بجهنم، وتزفُر زفرة، فلا يبقى أحد إلا جثا على ركبتيه، حتى إبراهيم الخليل يجثو ويقول: نفسي، نفسي، لا أسألك اليوم إلا نفسي، وحتى إن عيسى ليقول: لا أسألك اليوم إلا نفسي، لا أسألك اليوم مريم التي ولدتني[١].

قال سلمان الفارسي ﷺ: إن في القيامة ساعة هي عشر سنين، يخرُّ الناس فيها جُثاة على الرُّكَب حتى إبراهيم ينادي ربه: لا أسألك إلا نفسي[٢].

إنه يوم تشيب فيه الوِلْدان، فكل أمة تتميز عن غيرها، وتجثو على ركبها، تترقب مصيرها في تلهُّف وقلق ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار].

جاء عن قتادة: أنه إذا كان يوم القيامة يقال لكل أمة: من كان يعبد شيئًا فلْيتْبعه، فيكون لعبدة الأوثان قادة تأخذ بأيديهم إلى النار، فتقذفهم فيها، فتبقى أمة محمد وأهل الكتاب، فيقال لليهود: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد الله وعزيرًا، إلا قليلًا منهم، فيؤخذ بهم ذات الشمال، ثم يُدعى النصارى فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد الله والمسيح، إلا قليلًا منهم، فيؤخذ بهم ذات الشمال، وتبقى أمة محمد فيقال لهم: ماذا كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد الله وحده، وإنما فارقْنا هؤلاء مخافة يومنا هذا، فيؤذن للمؤمنين في السجود، فيسجد المؤمنون، وبين كل مؤمن منافق، فيقْسو ظهر المنافق عن السجود، ويجعل الله سجود المؤمنين عليه توبيخًا وصغارًا وحسرة وندامة[٣].

قال تعالى: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم ﴿تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾. والمراد بالكتاب في الآية أحد أمرين:

الأول: كتاب الشريعة الخاص بهذه الأمة، كالقرآن والتوراة والإنجيل والزبور،

---

(١) روى هذا المعنى ابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٧١).

(٢) «تفسير الخازن» (٤/ ١٢١).

(٣) يُنظَر: «تفسير الطبري» (٢١/ ١٠١) بتصرف واختصار.

وصحف إبراهيم وصحف إدريس وصحف شيث، وغير ذلك، لِتُعرض أعمال هذه الأمة على ما في كتابها من الأوامر والنواهي.

كما جاء في الحديث عن أبي مالك الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ: «**والقرآن حجة لك أو عليك**»(١).

فأمة موسى تدعى إلى ما في التوراة من أحكام، وأمة عيسى تدعى إلى ما في الإنجيل من أحكام، وأمة محمد تدعى إلى مافي القرآن من عقيدة وشريعة، وهكذا سائر الأمم، كل أمة تدعى إلى شرعها الذي كلفت به، هل قامت بما فيه فتثاب، أو ضيّعت فتعاقب؟

الثاني: أن يراد بالكتاب: صحيفة تسجيل الأعمال، وما سجل فيها من خير وشر، فلكل واحد من كل أمة، كتاب عمله الخاص به، يقرؤه بنفسه ويُجزى بما فيه.

كما قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء].

وقال جلَّ شأنه: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾ [الإسراء].

وقال سبحانه: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف].

ويؤتى بالنبيين والشهداء، ويُنبَّأ كل إنسان بما قدَّم وأخَّر، ثم يقال للجموع الجاثمة التي تترقب مصيرها في لهف: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير أو شر وفق أعمالكم في الدنيا.

والمأوى: هو المسكن الدائم والخلود في نار جهنم.

والآية تصف شيًا من أهوال يوم القيامة ليحذر العباد ويستعدُّوا له.

الْمَلَائِكَةُ تَنْسَخُ أَعْمَالَ الْعِبَادِ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ وَتُسَجِّلُهَا فِي صُحُفِ أَعْمَالِهِمْ

٢٩- ﴿هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

إما أن يراد بالكتاب في الآية اللوح المحفوظ، أو صحيفة الأعمال، أو كتاب الشريعة

(١) في صحيح مسلم (٢٢٣) عن أبي مالك الأشعري.

الخاص بكل أمة، أو القرآن الكريم.

والمعنى: هذا كتاب الله الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ، يفصل بينكم بالحق، وينطق بما فعله الناس من حسنات وسيئات، إن الله يأمر الملائكة أن تسجل أعمال بني آدم، ليطابقوه بما هو مستنسخ من اللوح المحفوظ، كي يحاسَبوا على ما ارتكبوه من مخالفات.

وليس هناك شيء يُنسى، أو شيء يضيع، فكل شيء مسجَّل، وعِلْمُ الله تعالى لا ينِدُّ عنه شيء ولا تغيب عنه ذرة ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾

أي: يشهد عليكم بأن أعمالكم مخالفة لما في كتاب شريعتكم المنسوخ من اللوح المحفوظ، وهذا على أن المراد بالكتاب: كتاب الشريعة.

أو أن جميع أعمالكم مكتوبة في صحائف أعمالكم بلا زيادة ولا نقص، وهذا على أن المراد بالكتاب: صحيفة العمل، فقد كان سبحانه يأمر الملائكة الحفظة بكتابة أعمالكم ﴿إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ كنا نأمر الملائكة ونكلفهم بكتابة أعمالكم.

قيل: إن الملائكة إذا رَفَعَتْ أعمال العباد إلى الله تعالى أمر سبحانه أن يُثبت منها ما فيه ثواب وعقاب، ويسقط منها ما لا ثواب فيه ولا عقاب.

قال عليُّ بن أبي طالب: إن لله ملائكة ينزلون كل يوم بشيء يكتبون فيه أعمال بني آدم(١).

وقال ابن عباس: إن الله وكَّل ملائكة ينسخون من أم الكتاب في رمضان كل ما سيكون من أعمال بني آدم (٢).

ويفسر القولين ما ورد عن ابن عباس: أن الملائكة تكتب أعمال العباد، ثم تصعد بها إلى السماء، فيقابلون ملائكة ديوان الأعمال ليطابقوا ما في صحف الأعمال، على ما أُبرز لهم من اللوح المحفوظ في كل ليلة قدْر(٣).

والاستنساخ لا يكون إلا من كتاب، وحقيقة النسخ هي النقل من أصل إلى آخر، والحفظة تنسخ كل ما يفعله العباد من اللوح المحفوظ ثم يمسكونه عندهم ليطابقوا عليه

---

(١) ،(٢) «تفسير ابن جرير» (٢٥/ ٩٥).

(٣) يُنظَر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٧١).

أفعالهم التي فعلوها في الدنيا.

فالمعنى: أن الملائكة تنسخ كل عام ما يكون من أعمال بني آدم، والاستنساخ لا يكون إلا من أصل، كما أن الله تعالى يكلف الحفظة بنسخ أعمال العباد، أي: كتابتها، والآية تشمل المعنيين معًا.

النَّاسُ فَرِيقَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

٣٠- ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾

تنقسم الأمم الجاثية، المحتشدة في أرض المحشر، ممن كانوا في البرزخ على مدى الأجيال واختلاف الأجناس، إلى فريقين لا ثالث لهما: الذين آمنوا، والذين كفروا، وهم حزب الله وحزب الشيطان، ويدخل تحتهما جميع الملل والنحل ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسله، فامتثلوا أمره واجتنبوا نهيه ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: صدقوا في إيمانهم وتزودوا بالأعمال الصالحة الواجبة والمستحبة، التي ترفع درجاتهم عند رب العالمين ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: يدخلهم ربهم في جنة رضوانه، برحمته وفضله، فيفوزون بالنعيم المقيم، وقد سُمِّيت الجنة رحمة؛ لأن فيها تتنزل الرحمة ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: الفوز الذي لا يدانيه فوز، فهو فوز بيِّن لا فوز بعده، إذا حصل للعبد تم له كل خير واندفع عنه كل شر. قال تعالى:

٣١- ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

المراد بآيات الله في الآية: آيات القرآن، الدالة على وحدانيته تعالى، فالذين جحدوا وحدانية الله تعالى وكذَّبوا رسله يقال لهم تقريعًا وتوبيخًا: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى﴾ التي أنزلتها على رسلي، وعلى رأسها سيد الكتب -وهو القرآن- المنزل على سيد الخلق محمد ﷺ ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ في الدنيا على ألسنة الرسل، وعلى ألسنة الدعاة إلى الله تعالى بعدهم، وهي مشتملة على دلائل وحدانيتي وتصديق رسلي، وبينتُ لكم فيها ما ينفعكم وما يضركم ﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الاستماع إليها والإيمان بها ﴿وَكُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ عادتكم الإجرام واقتراف السيئات والمنكرات، فلم تنتفعوا بالمواعظ، ولم تستفيدوا بما تُلي عليكم، ولا ما أصاب الأمم قبلكم، فاليوم تجزون بما كنتم تعملون.

إِنْكَارُ السَّاعَةِ أَوْ الشَّكُّ فِي قِيَامِهَا كُفْرٌ

٣٢- ﴿وَإِذَا قِيلَ[١] إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ[٢] لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾

أي: وكنتم في الدنيا -أيها المجرمون- إذا ذُكرت لكم الساعة، وقيل لكم: إنها آتية لا محالة، وأن وعد الله بمجيئها حق لاريب فيه، أنكرتُم ذلك، واستبعدتم حصولها، وقلتم: لا نعرف شيئًا اسمه الساعة، ولا نؤمن بها، ونعتقد أن قولكم بقيام الساعة مبني على الظن والوهم، وليس عن يقين وعلم.

فالمعنى: ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ لكم أيها المنكرون المكذبون لليوم الآخر وما فيه من بعث وحشر ونشر وحساب وجزاء ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ ببعث الناس من قبورهم ﴿حَقٌّ﴾ لاشك فيه ﴿وَالسَّاعَةُ﴾ آتية ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم﴾ على وجه الاستغراب والاستبعاد ﴿مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ لا نعرف عنها شيئًا، ولا نتوقع وقوعها إلا توهُّمًا ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ فنحن نسمع الناس يقولون بالبعث والنشور ونحن لا نصدق ذلك ولا نؤمن بالغيبيات ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أي: لسنا متحققين أن الساعة آتية.

لقد قلتم هذا -أيها الجاحدون المكذبون- في الدنيا، وها أنتم الآن ترون القيامة رأي العين، وتروْن الجحيم وقد برزتْ للعيان، والمصير السيئ في انتظاركم. قال تعالى:

٣٣- ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾﴾

وفي هذا اليوم يظهر لمنكري البعث سيئات أعمالهم وعقوبتها حين يروْن بأعينهم عذاب النار ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي: وظهر لهؤلاء الذين كانوا يكذبون بآيات الله، عقوبة ما عملوه في الدنيا من أعمال قبيحة كانوا لا يتوقعونها ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾. أي: ونزل بهم من عذاب الله جزاء ما كانوا يسخرون منه في الدنيا، وهذا الاستهزاء يعم

---

(١) قرأ بإشمام حركة الكسر للضم في (قيل) هشام والكسائي ورويس، والباقون بالياء الخالصة، ومثلها في الآية الخامسة والثلاثين.

(٢) قرأ حمزة بنصب (والساعةَ) عطفًا على (وعدَ الله)، والباقون بالرفع على أنها مبتدأ و(لاريب فيها) خبر.

كل استهزاء بالإسلام وأهله، كالاستهزاء بالبعث والنشور، والاستهزاء بالإسلام ورسول الإسلام، و الاستهزاء بكِتَاب المسلمين وعلمائهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

وحينما يدخل المكذبون نار جهنم، فإنهم يُحاطون بسرادقها ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩] وهذا معنى ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: أحاط بهم العذاب من كل جانب، وذلك بسبب إنكارهم للبعث والنشور. قال تعالى:

٣٤- ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ[1] ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝﴾

وبعد أن يُودَع المجرمون في النار، وتحيط بهم من كل جهة، يقول لهم خزنة النار على سبيل التأنيب والزجر: لقد أنكرتم في الدنيا لقاء ربكم هذا، فاليوم نترككم في العذاب وننساكم فيه، كما تركتم في الدنيا طاعة ربكم، ولم تتزوَّدُوا لهذا اليوم ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾ نترككم في عذاب جهنم تخلدون فيها ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: جزاء ما تركتم الإيمان بربكم، وتركتم العمل للقائه في هذا اليوم ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ هي مسكنكم ودار إقامتكم التي تستقرون فيها، وبئس المسكن والقرار، وليس هناك من ينصركم أو يخفف عنكم شيئًا من العذاب ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يدفعون عنكم عذاب الله تعالى.

صحَّ عن رسول الله ﷺ من حديث أبي هريرة ﷺ: أن الله تعالى يقول لبعض العباد يوم القيامة: **«ألم أُكرمك، وأُسوِّدْك، وأزوِّجْك، وأُسخِّر لك الخيل والإبل، وأذَرْك تَرْأَسُ وتَرْبع؟ فيقول: بلى. قال: فيقول: أفظننت أنك مُلَاقِيَّ؟ فيقول: لا، فيقول الله تعالى: فإني أنساك كما نسيتني»**[2].

مِنْ أَسْبَابِ عَذَابِ الْكُفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

٣٥- ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ[3] مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾

---

(١) أبدل همزة (مأواكم) ألفًا أبو عمرو بخلف عنه وأبو جعفر بلا خلاف، وكلاهما في حالتي الوصل والوقف وحمزة وقفًا فقط، وحققها غيرهم في الحالين، وكلها لهجات عربية.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٦٨).

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف بالبناء للفاعل في (يخرجون)، والباقون بالبناء للمفعول.

بيَّن الله ﷻ في هذه الآية سبب العذاب الذي أحْدق بالكفار وأحاط بهم من كل جانب، وأنه يرجع إلى **أمرين**:

الأول: استهزاؤهم بالقرآن وتكذيبهم بما جاء فيه.

الثاني: أنهم خُدعوا بالدنيا وزُخرفها، فظنُّوا أن لا حياة بعدها ولا بعث ولا نشور ﴿ذَٰلِكُم﴾ أي: هذا الذي حلَّ بكم من العذاب المهين بسبب اتخاذكم ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ فسخرتم من آيات الله في كتابه، وسخرتم من حججه وبراهينه الدالة على وحدانيته ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ فخدَعتكم بزينتها وزخرفها وما فيها من متاع، فانصرفتم إليها، وعملتم لها، وتركتم العمل للدار الباقية.

ثم يُسدَل الستار عليهم بإعلان مصيرهم الأخير، وبيان أنهم متروكون في نار جهنم لا يخرجون منها، ولا يُطلَب منهم اعتذار ولا عتاب ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ لا يخرج الكفار من النار بعد أن دخلوها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

وقال سبحانه: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [الحج].

وكما أنهم لا يخرجون من النار لا يُطلب منهم أن يُرضُوا ربهم بالتوبة والإنابة؛ لأنها لا تنفع في هذا اليوم، وهذا معنى ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الروم].

وقال سبحانه ﴿فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [فصلت]

حَقُّ الرُّبُوبِيَّةِ

٣٦- ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾﴾

وتُختَم السورة بحمد الله تعالى وتمجيده والثناء عليه لإنعامه علينا بدين الإسلام، وعلى نعمه التي لا تعد ولا تحصى، فوجب علينا أن نحمده كما علَّمنا، فهو رب هذا الكون كله، خالقه ومالكه، ومدبر أمره ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ على نعمه التي لا تُعدّ ولا تحصى، ولا يستحق الحمد أحد سواه، فهو سبحانه ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ رب الخلائق أجمعين،

وقد حمده أهل السموات، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٥].

ومَنْ حمده من أهل الأرض فقد أدَّى حق الربوبية، وهو سبحانه الذي خلقهم ورزقهم وربّاهم وأنعم عليهم بنعمه الظاهرة والباطنة، ومَنْ حمد غير الله تعالى كان مستحقًّا لعذاب النار.

وقد كُرر لفظ: ﴿رَبِّ﴾ في الآية على قِصَرها ثلاث مرات، تنويهًا بشأن الربوبية، وبيانًا باستحقاقه تعالى للحمد وحده دون أحد من الخلائق أجمعين.

٣٧- ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

وحمد الله تعالى ليس لفائدة تعود عليه سبحانه، إنما هو لنفع الخلق وتزكية نفوسهم، كما أن عبادته وطاعته جلَّ شأنه تعود عليهم، فالله تعالى لا تضره معصية العصاة ولا تنفعه طاعة المطيعين، وهو الغني عنهم، لا يحتاج إليهم في شيء، وهو صاحب الكبرياء والعظمة ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ أي: العظمة، والجلال، والعلوُّ، والسلطان، والقهر، والقوة، والقدرة، والكمال ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغلب ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله وتدبير شؤون خلقه، تبارك الله رب العالمين، والعبادة مبنية على محبة الله تعالى والذل له.

جاء في الحديث القدسي: «**يقول الله تعالى: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحدًا منهما أسكنتُه ناري**»[1].

وذلك لأن صفتيْ الكبرياء والعظمة من الصفات اللازمة المختصة بالله تعالى، التي لا تنبغي لغيره، وليستا كسائر الصفات التي يمكن أن يتصف بها البشر، كالحلم والرحمة والكرم، ولذلك شُبِّهَتا بالرداء والإزار؛ لأن الإنسان لا يشاركه أحد في ردائه وإزاره.

وقد خُتِمت السورة بصفتي العزة والحكمة لله تعالى، كما بدئت بهما.

تم تفسير (**سورة الجاثية**) ولله الحمد والمنة.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٢٠) عن أبي هريرة وأبي سعيد وابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه، وأخرجه ابن أبي شيبة (٩/٨٩) وأبو داود (٤٠٩٠) وابن ماجه (٤١٧٤) وهو في صحيح ابن ماجه (٣٣٦٥) والسلسلة الصحيحة (٥٤١) والروض النضير (٦٧٧) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٢٢).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَحْقَافِ (٤٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الأحقاف هي السورة السادسة والأربعون في ترتيب المصحف، والخامسة والستون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الجاثية وقبل سورة الذاريات، وهي آخر سوَر آل حميم السبع، وقد نزلت السور السبع وفق ترتيبها الحالي في المصحف.

وعدد آياتها خمس وثلاثون آية في المصحف الكوفي، وأربع وثلاثون آية في بقية المصاحف.

وعدد كلماتها ست مئة وأربع وأربعون كلمة.

وعدد حروفها ألفان وخمس مئة وخمسة وتسعون حرفًا.

وسُمِّيت بسورة الأحقاف لورود كلمة الأحقاف فيها دون غيرها من السور.

قال ابن مسعود ﷺ: أقرأني رسول الله ﷺ سورة من آل حم وهي الأحقاف[١].

وهي سورة مكية، قال ابن عباس والزبير ﷺ: نزلت سورة **حم الأحقاف** بمكة[٢].

وذكر ابن عطية[٣] استثناء آيتين، هما قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾الآية [١٠] فإنها أشارت إلى إسلام عبد الله بن سلام، وإسلامه كان بعد الهجرة، وقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾الآية [٣٥].

والأسس التي يقوم عليها بناء الإسلام ثلاثة هي: التوحيد، والرسالة، والبعث، وهذه العناصر الثلاثة يعالجها القرآن في كل السور المكية علاجًا أساسيًّا؛ وذلك لأن قضية الإيمان بوحدانية الله تعالى، وبعْثة محمد ﷺ، والإيمان باليوم الآخر وما فيه من حساب

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» من حديث طويل بسند جيد (٧/ ٨٨) (٣٩٨١) قال محققوه: إسناده حسن من أجل عاصم بن أبي النجود، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين غير ابن عياش فمن رجال البخاري وأخرجه أحمد أيضًا مختصر (٣٧٢٤) بإسناد صحيح، وأخرجه الحاكم (٢/ ٢٢٣). وأبو يعلى (٥٠٥٧) وابن حبان (٤٧٦) والطبري (١/ ١٢).

(٢) أخرجه ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (١٣/ ٣١٠) وذكره الألوسي في تفسيره.

(٣) في تفسيره (٥/ ٩١).

وجزاء، هي المحور الذي تدور عليه آداب الإسلام ونظمُه وشرائعه كلها:

١- ومن الآيات التي تناولت جانب التوحيد قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الآية [٤].

فإن آلهة المشركين عجزتْ عجزًا تامًّا عن خلْق أي شيء، ولم يقُل أحد: إن الله تعالى خلَق قارَّة آسيا، وإن هناك ربًّا آخر خلَق قارَّة أفريقيا، ولم يقل أحد: إن الشمس من خلْق الله، والقَمر من خلْق رب آخر، فدعاء غير الله تعالى لا وزْن له، ولو بلغ دعاء المشركين لآلهتهم عنان السماء ما رجعتْ بشيء ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥﴾ الآية [٥].

٢- وفيما يتعلق بصاحب الرسالة ﷺ فإن المشركين يقولون: إن القرآن مِنْ وضْع محمد ﷺ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ﴾ [٨].

وكانت الإجابة على قولهم هذا في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ﴾ الآية [٩].

وليس لأهل مكة عذر في إنكار النبوَّات، فإن اليهود في المدينة يتبعون موسى ﷺ، والصالحون منهم آمنوا بمحمد ﷺ قال تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ﴾الآية [١].

ويذكِّر الله تعالى رسوله ﷺ في هذه السورة برسالة أخيه هود ﷺ إلى أهل الأحقاف، ولَمَّا كذبوه استأصل الله شأفتهم، وأتى عليهم، فاحذروا -أيها المسلمون- عقاب الله، وآمِنوا بالرسول الخاتم.

وإذا كان بعض الإنس لم يستجب لداعي الله، فإن نفرًا من الجن استمع إلى القرآن واهتدى بهديه، أفلا يدفعهم ذلك إلى التأمل؟ وإذا كان بعض بني آدم قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] فإن الجن رجعوا إلى قومهم بعد أن استمعوا للقرآن منذرين ومخوفين لهم عذاب الله إن لم يؤمنوا.

٣- وفيما يتعلق بالبعث، فإن لهذا العالَم أجلًا ينتهي عنده، ثم تبدأ حياة ثانية، نحصُد فيها ما غرسْنا ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ الآية [٣].

ويوم القيامة يُعرض الكفار على النار، بسبب انغماسهم في الشهوات، واستفراغ الجهد في الاستمتاع بالملذات ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ الآية [٢٠].

وعند العرض على النار، يُسأل الكفار عن الحق الذي أنكروه في الدنيا، وهو البعث والنشور، فيعترفون بعد فوات الأوان ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

والقرآن يُعرِّض بمنكري البعث، ويهدِّدهم بسوء المصير ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الآية [٣٣].

وفي نهاية السورة يُطلب من محمد ﷺ التأسي بمن سبقه من أولي العزم من الرسل ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ الآية [٣٥].

وعندما يطول الكفاح، فإن ذكريات الماضي كلها تكون كأنها لحظات، وهكذا مجيء الساعة بعد رحلة الدنيا ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ الآية [٣٥].

وكل ما سبق ذكره بلاغ للناس ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾الآية [٣٥].

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى **أربعة مقاطع**:

المقطع الأول: من أولها إلى الآية الرابعة عشرة، وفيه إشارة إلى كتاب الله تعالى والوحي المنزل على رسول الله ﷺ، ومن آيات القرآن، إلى آيات الكون في السموات والأرض، ثم تَشرع السورة في المناظرة بين الرسول ﷺ والمشركين بالله تعالى، فتُبيِّن أنهم لا يستندون في عقيدتهم الباطلة إلى حق من القول، ولا مأثور من العلم.

وتفنِّد آيات السورة شُبَه المكذبين بالقرآن، فتردُّ عليها بالحجة الدامغة والبرهان الساطع، وتقيم الدليل على المكذبين بالوحي المنزل على خاتم المرسلين بمن اهتدى من بني إسرائيل للحق، فأسلم عندما عرف أن القرآن مُصدِّق لما في التوراة، كما قال تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ الآية [١٠].

وقال جل شأنه: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾الآية [١٢].

المقطع الثاني: من الآية الخامسة عشرة إلى الآية التاسعة عشرة، وفي هذا المقطع

تعرض السورة إلى مثالين للابن الصالح، المستقيم في فطرته، البار بوالديه، كلما ازداد عمرًا ازداد تقى وصلاحًا وإحسانًا لوالديه.

والابن الشقي، المنحرف عن الفطرة، العاق لوالديه، الذي يَسْخَر من الإيمان، ويهزأ بالبعث والنشور، وتبيِّن السورة مصير كلٍّ منهما يوم لقاء الله تعالى.

المقطع الثالث: من الآية العشرين إلى الآية السابعة والعشرين، وفيه عرض لقصة قوم هود ﷺ، الذين كذَّبوا رسولهم وطغوا في البلاد، واغتروا بقوتهم وجبروتهم، وأصرُّوا على كفرهم، فأرسل الله عليهم الريح العقيم ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ الآية [٢٥].

وكما أهلك الله قوم عاد، أهلك ما حولهم من القرى، ولم تستطع آلهتهم أن تدفع عنهم شيئًا من عذاب الله تعالى، فظهر إفكهم وافتراؤهم.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الآية]

المقطع الرابع: من الآية الثامنة والعشرين إلى نهاية السورة، وهو يتناول قصة نفر من الجن صرفهم الله لاستماع القرآن من الرسول محمد ﷺ فآمنوا به وبلَّغوه لأقوامهم، وشهدوا له بأنه الحق، وأنه يصدق التوراة التي قبله، فعادوا إليهم منذرين يحذِّرونهم عذاب الله تعالى إن لم يؤمنوا.

ويتضمن هذا المقطع الإشارة إلى بدء الخلق وإعادته، وأن الكافرين بالله ورسوله يُعرضون يوم القيامة على النار فيُقرون بما كانوا به ينكرون، ولكن الوقت قد فات، فلا رجعة ولا توبة ولا ندم، فهذا يوم الحساب والجزاء.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْكِتَابُ الْمَقْرُوءُ وَالْكِتَابُ الْمَنْظُورُ فِي صَفَحَاتِ الْكَوْنِ

أَوَّلًا: الْكِتَابُ الْمَقْرُوءُ

١، ٢- ﴿حمٓ[1] ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾

بدأت سورة الأحقاف بحرفي الحاء والميم، كالسور الست التي سبقتْها، وهي السورة السابعة والأخيرة من سور آل حميم، وهذه الكلمات ﴿حمٓ ۝١﴾ و ﴿طسٓ﴾ و﴿الٓر﴾... إلخ، ليست مألوفة لدى العرب، فمعناها مجهول لديهم، وهي تسترعي انتباه من يسمعها ليتأملها ويتدبر ما بعدها، فيسمع حِكَمًا وحُجَجًا ومواعظ، لعلها تصادف قلبه فيهتدي بها، وفي هذا إشارة إلى العلاقة بين الأحرف العربية التي يتداولها العرب، والكتاب المبين المكوَّن منها على غير مثال من كلام البشر، وفيها أيضًا لَمْس للعلاقة بين الكتاب المقروء والكتاب المنظور في صفحات الكون.

وإلى جوار ذلك فإن في هذه الحروف دلالة على أن القرآن المعجز مكوَّن من هذه الحروف التي يعرفونها، ومع ذلك فقد عجزوا عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ١٤].

ثم أخبر سبحانه أن هذا القرآن منزل من عند الله على خاتم رسله وأنبيائه، وقد وصَف الله نفسه بأنه صاحب العزة الغالبة، والسلطان القاهر، وهو الحكيم في أقواله وأفعاله وتدبير شؤون خلقه.

وفي الآيتين ثناء من الله تعالى على كتابه وتعظيم لشأنه، ويتضمن ذلك إرشاد العباد إلى الاهتداء بنوره، والإقبال على تدبر آياته، واستخراج كنوزه.

---

(١) سكت أبو جعفر على حا وميم سكتة لطيفة بدون تنفس، وأمال الحاء ابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي وخلف، وقللها ورش وأبو عمرو.

هذا: وقد انفرد الكوفي بعد (حم) آية، وتركها غيره.

ثانيًا: الْكِتَابُ المَنْظور

٣- ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾

في هذه الآية موعظة وتذكير، كأن الله تعالى يقول: انتبهوا أيها الناس، وانظروا ما يراد بكم، ولِمَ خُلقتم، فإن من آيات الله الكونية، السموات والأرض، وما فيهما وما بينهما من مخلوقات، لا يعلمها إلا الله، وخلْقهما لله تعالى محلٌّ اتفاق بين المسلمين والمشركين، فلا جَرَم أن يكون خلْقهما مُثبِتًا لوحدانية الله تعالى، ومُثبِتًا للبعث والنشور؛ لأن الله تعالى خلق الخلق ليعبدوه في الحياة الأولى التي لها أجل تنتهي عنده، ثم يَرْحَلون إلى الدار الأخرى التي لا نهاية لها ليحاسَبوا فيها على الامتحان الذي عُقد لهم في الدنيا، ويُجْزَوْا عليه جزاء لا ينتهي أمده: إما سعادةً أبديةً، وإما شقاءً أبديًّا، وهذه هي الحكمة من خلْق الخلق، وهو الحق الذي خلَق الله الكون به، ولولا هذا الهدف والغاية لكان خلْق الناس عبثًا ولهوًا وباطلًا.

﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ لم نخلق هذا الكون عبثًا ولا سُدًى، ولا لهوًا ولا باطلًا، بل خلقناهما ليعرف العباد ربهم فيعبدوه ويوحدوه، ويعلموا أنه قادر على بعْثهم بعد موتهم، وليقيموا الحق والعدل بينهم في الدنيا، فلا يظلم أحد أحدًا، ولا يعتدي أحد على أحد، ما دام القصاص والانتصار للمظلوم سيكون في يوم الحشر والنشر، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ﴾ [ص: ٢٧].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان].

وقال أيضًا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ﴾ [الحجر: ٨٥].

والله تعالى هو الذي خلق الخلق، وسخر لهم ما في السموات وما في الأرض، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، وأرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وأمرهم ونهاهم، وأخبرهم أن هذه الدنيا دار ممر، وأن الآخرة دار مقر، وأن ما عملوا في الدنيا سيجزون عليه يوم القيامة.

وهكذا، فإن كل مخلوق حادث، وكل حادث يقبل الفناء، وهذا الفناء سيَعْرض

للسموات والأرض وما بينهما؛ لأن حكمة الله تعالى تقضي بانعدام هذا العالم واستبْداله بعالم آخر أعظم منه، هو الدار الآخرة، وفناء هذا العالم يدلُّ دلالة عقلية على البعث.

ومن هنا فإن بقاء السموات والأرض محدود بوقت معين، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ وهذا الأجل جعلناه موعدًا لنهاية هذا العالم، وعند حلول هذا الأجل، تتبدل الأرض غير الأرض والسموات، ولكن منكري البعث ممن لا يؤمنون بالله واليوم الآخر لا يتعظون ولا يتفكرون، فيجحدوا وحدانية الله تعالى، وينكروا البعث والحساب والجزاء، ويُعرِضوا عما أُنْذر به القرآن ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾.

قَضِيَّةُ التَّوْحِيدِ وَالشِّرْكِ فِي مُنَاظَرَةٍ تَتَكَوَّنُ مِنْ ثَلَاثِ حُجَجٍ

٤- ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم[1] مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي[2] بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾﴾

وبعد تقرير إثبات الوحدانية لله تعالى، أبطل سبحانه صفة الألوهية عن غيره جلَّ شأنه، عن طريق المناظرة بين الكفار والمشركين وبين رسول الله ﷺ ليُلجئهم إلى الاعتراف بالعجْز عن معارضة الحجة، وفي هذه المناظرة طُلب منهم الإجابة عن **ثلاثة أسئلة**:

أولها: هل هناك أحد غير الله تعالى خلق شيئًا من هذه الأرض التي نحيا عليها؟ هل خلقوا جبالًا؟ هل أجرَوْا أنهارًا؟ هل أوجدوا حيوانًا؟ هل أنبتوا أشجارًا؟.

الجواب بإقرارهم: لا.

ثانيها: هل هناك أحد مشارك لله تعالى في خلق سمواته؟ فخلَق جرمًا من أجرام السماوات؟ أو خلَق مَلَكًا من الملائكة؟ أو خلَق العرش أو الكرسي.

الجواب على لسانهم: لا.

---

(١) سهَّل الهمزة الثانية من (أرأيتم) نافع وأبو جعفر، وحذفها الكسائي، وحققها الآخرون.

(٢) أبدل الهمزة الساكنة ياء ساكنة في حالة الوصل ورش وأبو عمرو بخلف عنه وأبو جعفر من (السموات ائتوني) والكل يبدأ بياء مدية بعد همزة الوصل المكسورة، فهمزة القطع الساكنة تبدل حرف مد من جنس حركة همزة الوصل قبلها، ويُنطق في الوصل بهمزة قطع ساكنة بعد التاء المكسورة، وتسقط همزة الوصل حالة الوصل.

ثالثها: هل يوجد لديكم دليل نقلي على أن أي كائن على وجه البسيطة، قد خلَق شيئًا على وجه الاستقلال، أو شارك في خلقه؟ الجواب: لا يوجد.

الحجة الأولى: نَفْيُ الخلْقِ عن غير الله تعالى:

﴿قُلْ﴾ يارسولنا لكل من كفر بالله ﴿أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أخبروني عمن تزعمون أنهم آلهة من الأصنام وأصحاب القبور والبقر والطواغيت ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرشدوني وأخبروني أيَّ جُزء خَلقوا من أجزاء الأرض؟ وأيَّ مكان منها خَلقُوه، أو خَلَقوا مما على سطحها من: إنسان أو حيوان، أو حجر أو شجر، أو غير ذلك؟ وما دام الأمر كذلك فإن خالق هذا الكون هو رب العالمين.

وهم يعترفون بذلك ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨]

الحجة الثانية: نفي الشريك في الخلق مع الله تعالى

قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: أم لهم مع الله نصيب ومشاركة في خلق السموات . . .؟ والأدلة على نفي كل ذلك كثيرة، منها:

١- قال تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: ١١].

٢- وقال سبحانه: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ [الأعراف].

٣- وقال أيضًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

٤- وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ [الفرقان].

فإذا لم يكن شيء من الأرض ولا من السماء مخلوقًا لهم، بطل أن تكون هذه المعبودات آلهة لخروج المخلوقات عن خلْقهم، وإذا بطل أن يكون لغير الله خلْق، بطل أن يكون هناك تصرف في تلك المخلوقات لغير الله، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ [فاطر: ٤٠].

الحجة الثالثة: نفي وجود الدليل النقلي على أن لغير الله تعالى شيئًا من الخلق:

قال سبحانه: ﴿ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ﴾ أي: هاتوا كتابًا من الكتب المنزلة على أنبياء الله قبل القرآن ليشهد لهم بأنهم خَلقُوا جُزْءًا من الأرض، أو شاركوا في خلق السموات.

فإن لم يوجد دليل عقلي ولا نقلي يشهد لكم، فَأْتُوا ببقية من علم الأولين غير مسطورة في الكتب، وهذا معنى ﴿أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي: ائتوني بفضْلة أثرٍ من علم الأولين تشهد أن لغير الله تعالى شيئًا من الخلق، وهذا توسيع عليهم في أنواع الحجة ليكون العجز أوقع، والحجة أبين.

قال ابن عباس: لا أعلمه إلا عن النبي ﷺ: الأثارة: الخط[1]، أي: الشيء المكتوب المأثور.

قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ [القصص: ٥٠].

وقال سبحانه: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٤﴾ [هود]. فإن لم تفعلوا فأنتم كاذبون فيما تزعمون.

والمراد من الآية: أن كل ما يُعبد من دون الله لا مدخل له في خلق شيء من العالم السفلي أو العالم العلوي، والكل مخلوق لله وحده، ومن هنا فهو سبحانه المستحق للعبادة دون سواه.

وهكذا أقام القرآن الحجة عليهم، وألزمهم ببطلان ما هم عليه من ضلال، فكل الكتب المنزلة من عند الله جاءت بالتوحيد وإبطال الشرك، فليس لهم في عبادة غير الله تعالى مستند من عقل أونقل[2].

وجميع رسل الله قد أمروا بالتوحيد ونَهوْا عن الشرك ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦] وكل رسول جاء ليقول لقومه ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾ [هود: ٨٤]

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٩٢) بتحقيق أحمد شاكر، وإسناده صحيح على شرط الشيخين، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، «المجمع» (١/ ١٩٢) وصححه الحاكم والذهبي (٢/ ٤٥٤) وابن حجر في «الفتح» (٨/ ٥٧٩) والطبراني (١٠٧٢٥).

(٢) يُنظَر: «البحر المحيط» (٨/ ٥٥).

لَا أَحَدَ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى

٥- ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾

ولَمَّا لقَّن الله رسوله محاجة المشركين وإفحامهم تعجَّب القرآن من حالهم وضلالهم، ووبَّخهم على عبادة غير الله تعالى، فبيَّن سبحانه أنه لا يوجد أحد أشد ضلالًا، وأعجب حالًا، وأكثر جهلًا ممن يعبدون من دون الله تعالى من لا يملك ضرًّا ولا نفعًا، ولا يسمع دعاء الداعين، ولا يعلم حاجات المحتاجين، ولا يستجيب لمن ناداه أبدًا.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ أي: لا أحد أضل ولا أجهل ﴿مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: يعبد غير الله تعالى ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فهم لا قُدْرة لهم على إجابة أحد ممن دعوْهم ما دامت الدنيا وإلى أن تقوم الساعة، فضلًا عن جلب نفع أو دفع ضُرٍّ.

قال تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا ٱسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الأعراف].

وليس هذا فحسب، بل إن الآلهة المزعومة في غفلة تامة عن عبادة العابدين، ولا تعلم عنها شيئًا، ولا قدرة لها على شيء؛ لأنها من الأموات أو من الجماد أو الحيوان، كعُبَّاد البقر ونحوهم، فهي غافلة عن دعاء من يعبدها، عاجزة عن نفعه أو ضره، وهذا معنى ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ سواء أكانوا من الإنس، أم من الجن، أم من الأوثان.

هذا حالهم في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة كانوا لهم أعداء يلعن بعضهم بعضًا ويكفر بعضهم ببعض:

الْعَدَاوَةُ بَيْنَ الْعَابِدِ وَالْمَعْبُودِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

٦- ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾

فإذا كان يوم القيامة، وجمع الله الناس للحساب والجزاء، صار الكفار مع من عبدوهم

من دون الله أعداء، يلعن بعضهم بعضًا، ويتبرأ بعضهم من بعض ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ يوم القيامة للحساب والجزاء ﴿كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ قيل: إن الله تعالى يخلق في الأصنام والكواكب حياة فتُكذِّبهم، أما الملائكة وعزير والمسيح والشياطين فإنهم يتبرؤون ممن عبدوهم، وهذا معنى ﴿وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ يجحدون عبادتهم لهم ويُكذِّبونهم.

١- كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يونس].

٢- وقال سبحانه على لسان المعبودين: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣].

٣- وقال جلَّ شأنه: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم].

٤- وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥].

٥- وقال أيضًا: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الفرقان].

قَضِيَّةُ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ: دَعْوَى أَنَّ الْقُرْآنَ سِحْرٌ

٧- ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾

وبعد أن قررت السورة قضية التوحيد والشرك، تتناول في الآيات التالية قضية الوحي والرسالة، وموقف المكذبين من رسول الله ﷺ، فبيَّن ﷻ أن آيات القرآن إذا تُليت عليهم صباحَ مساءَ، تُبيِّن لهم دلائل التوحيد وغيره، حتى تأخذ بأيديهم إلى الحق، فإنهم لا يتدبرونها، وإنما يغالطون ويقولون عن القرآن: إنه سحر ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: إذا قرئت عليهم آيات القرآن الواضحات التي لا يشك فيها أحد ولا يرتاب فيها مرتاب، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي: حين جاءهم القرآن واستمعوا إليه ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: هذا سحر ظاهر، دون تفكُّر ولا تأمُّل، وقد وصفوا القرآن بأنه سحر؛

لأن الإسلام يفرق بين المسلم والكافر، سواء أكانا زوجين أم أخوين، أم والدًا وولده، وفي وصفهم للقرآن بالسحر دليل على عجزهم عن الإتيان بمثل أقصر سورة من هذا القرآن، وفيه قلب للحقائق التي لا تروج إلا على ضعفاء العقول، وإلا فإن ما بين السحر وبين القرآن من الفرق، ما هو أعظم مما بين السماء والأرض، إذ كيف يقاس الحق بالسحر، والسحر لا يصدر إلا من ساحرٍ ضال، خبيث النفس والعمل، والقرآن كلام رب العالمين، سبحانك هذا بهتان عظيم.

إِبْطَالُ الْقَوْلِ بِأَنَّ الْقُرْآنَ مُفْتَرَى

٨- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾

ثم إن الله تعالى يقول لرسوله ﷺ: دع قولهم بأن القرآن سحر، واستمع لما هو أعجب منه، وهو قولهم: إن محمدًا افترى هذا القرآن، فزعم أنه وحي من عند الله ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ بل أيقول المكذبون: إن محمدًا اختلق القرآن وافتراه من عند نفسه؟

وقد أُمر الرسول ﷺ أن يجيبهم بقوله: إن افتريتُه عاقبني الله معاقبة لا تملكون ردَّها، فقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾ على سبيل الفرض والتقدير، كما تدَّعون ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: إن كنت قد اختلقْتُ هذا القرآن فإن الله تعالى سيعاقبني على ذلك، وليس في إمكانكم دفْع عقاب الله عني، وأنا أعلم علم اليقين أني إن فعلتُ شيئًا من ذلك فإن الله تعالى سيعاقبني أشد العقاب.

١- كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة].

٢- وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء].

٣- وقال جلَّ شأنه: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ [الجن: ٢٢، ٢٣].

وسبب هذا الوعيد الشديد أن الله تعالى لا يقرُّ أحدًا على أن يُبلِّغ إلى الناس شيئًا لم يأمره بتبليغه، ولا يمكن لأحد أن يفتري على الله شيئًا؛ لأنه يعلم كل شيء، ومن ذلك علمهُ تعالى بما يقولونه عن القرآن، كقولهم: إنه سحر أو شعر أو كهانة ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: هو جلَّ وعلا أعلم بما تخوضون في القرآن وما تقْدحون فيه من وجوه الطعن المختلفة ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ فإنه سبحانه يشهد لي بالصدق والبلاغ وأن القرآن من عنده، ويشهد عليكم بالجحود والتكذيب ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦].

ثم إن الله تعالى دعاهم إلى التوبة مع ما صدر منهم من معاندة الحق ومخاصمته فقال:

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لعباده إن تابوا وأنابوا إليه، ورجعوا عن كفرهم وهو ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين، ورحيم بالكافرين حيث لم يعاجلهم في الدنيا بالعقوبة، وفي هذا وعد للكافرين بالمغفرة والرحمة إن هم رجعوا عن كفرهم وتابوا إلى ربهم، وأقلعوا عما هم فيه، فإن الله تعالى يوفقهم للتوبة ويقبلها منهم، ويتجاوز عن سيئاتهم، ويثيبهم على توبتهم.

لَسْتُ أَوَّلَ رَسُولٍ وَلَا عِلْمَ لِي بِالْمُسْتَقْبَلِ إِلَّا عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ

٩- ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا[1] إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾

يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يجيب الجاحدين لرسالته، القائلين إن محمدًا ﷺ افترى هذا القرآن من عنده، فيقول: ﴿قُلْ﴾ يا رسولنا لمن جحد رسالتك ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ لستُ أول رسل الله إلى خلقه، بل سبقني رسل وأنبياء قبْلي كثيرون، فكيف تنكرون نبوتي، وتشكُّون في دعوتي، وأنا مبلِّغ عن ربي، لا أعلم شيئًا من المستقبل في أمور الدنيا ولا الآخرة إلا ما أعلمني الله به عن طريق الوحي؟

وقد كان المشركون يسألون النبي ﷺ عن أشياء تقع في المستقبل من باب الاستهزاء، فيقول أحدهم إذا ضلَّتْ ناقته: أين ناقتي؟ ويقول غيره: مَنْ أبي؟ ونحو ذلك، فأمر الله

---

(١) قرأ قالون بخلف عنه بمد (أنا) وصلًا، فيكون من باب المد المنفصل، وقرأ الباقون بحذف الألف وصلًا وهو الوجه الثاني لقالون، وأثبتها وقفًا الجميع.

رسوله أن يُعْلمهم بأنه لا يعلم شيئًا من أمور المستقبل، فيقول: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]

وقُصارى ما أعلمه هو ما يخبرني الله تعالى به عن طريق الوحي ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾.

ولا أبتدع شيئًا من عندي، فقد أعلمني الله مثلًا: أن المشركين في النار، وأن بعد الموت بعثًا، وأنني سأهاجر إلى أرض ذات نخل بين حرَّتين، وهكذا.

﴿وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ فأنا أشق طريق الدعوة ولا أعلم نتائج المعركة بيني وبينكم، ولكن أصدع بأمر الله مستندًا إلى ركن شديد، وسأظل أدعو إليه حتى آخر رمق في حياتي، ألتحق بعده بالرفيق الأعلى، فإذا كانت هذه مبادئ من يفتري الكذب على الله، فأين يكون الصدق إذن؟

هذا هو المعنى المناسب لسياق الآية، وهو أن الرسول ﷺ لا يدري ما يُفعل به في الدنيا، هل سيبقى في وطنه مكة أم سيخرج منها؟ وماذا ستسفر عنه الدعوة مع المعارضين؟ وكان هذا في مرحلة من مراحل الدعوة ثم أعلمه الله تعالى أنه قد حفظ دمه وعصمه كما سيأتي، أما بالنسبة للآخرة فقد أخبره ربه بأن له الجنة.

فعدم معرفة النبي ﷺ بما يُفعل به خاصٌّ بالدنيا على هذا المعنى، فإنه ﷺ لا يدري ماذا يفعل به المشركون، هل سيؤمنون به أم يكفرون؟ هل سيحدث بالأرض خسْف أو زلازل أو براكين، أم لا؟ وهكذا، ما لم يُعْلمه الله تعالى بشيء مما سيحدث عن طريق الوحي، فيكون هذا بتعليم الله له.

الرسول يعلم ما يُفعل به في الآخرة:

أما بالنسبة إلى الدار الآخرة فإن النبي ﷺ يدري ما يُفعل به فيها، فهو يجزم ويقطع بأنه في الجنة، وأن من كذَّبه في النار، كما أخبره ربه بذلك.

وعليه يُحمل حديث أم العلاء، وكانت قد بايعت النبي ﷺ، ولما اقترع الأنصار على استضافة المهاجرين وإسكانهم عندهم، كان من نصيبهم عثمان بن مظعون ﷺ، فلما مرض عثمان قالت: فمرَّضْناه حتى توفَّاه الله، فلما غُسِّل وكُفِّن في أثوابه دخل عليه رسول الله ﷺ فقلتُ: رحمةُ الله عليك يا أبا السائب، شهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال رسول

الله ﷺ: «**وما يدريك أن الله أكرمه**»؟ فقلت: لا أدري، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فقال ﷺ: «**أما هو فقد جاءه اليقين من ربه، وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يُفعل بي**» قال يعقوب (**به**) قالت: فقلت: والله لا أُزكِّي أحدًا بعده أبدًا، وأحزنني ذلك، فنمت فأُريت لعثمان عينًا تجري، فجئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك، فقال ﷺ: «**ذاك عمله**»[1]. لأنه مات مرابطًا وعمل المرابط لا ينقطع.

وفي لفظ للبخاري أيضًا: «**ما أدري وأنا رسول الله ما يُفعل به**»[2]. يعني عثمان بن مظعون.

قال ابن كثير: وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ، بدليل قولها: فأحزنني ذلك.

وفي هذا وأمثاله دليل على أنه لا يُقطع لمعيَّن بالجنة، إلا الذين نصَّ الشارع على تعيينهم، كالعشرة المبشرين بالجنة، وعبد الله بن سلام، والغُميصاء، وبلال، وسراقة، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر، والقراء السبعين الذين قُتِلوا في بئر معونة، وزيد بن حارثة، وجعفر، وابن رواحة[3].

وعلى هذا فإن المراد بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ أن هذا بالنسبة إلى الدنيا، أما في الآخرة فقد علم ﷺ أنه في الجنة[4].

ومنه ما قيل: إن النبي ﷺ كان لا يدري ما يُفعل به في الآخرة، وأن هذا كان في صدر الإسلام، ثم نسختْها آية الفتح ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [آية: ٢].

فخرج إلى الناس فبشَّرهم بأن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقال رجل من

---

(١) يُنظَر: «صحيح البخاري» بأرقام (١٢٤٣، ٢٦٨٧، ٣٩٢٩، ٧٠٠٣) من حديث خارجة بن زيد بن ثابت، وقد انفرد به، و«المسند» (٦/ ٤٣٦) (٢٧٤٥٧) إسناده صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين غير أبي كامل الخراساني وهو ثقة، قاله محققوه، والنسائي في «السنن الكبرى» (٧٦٣٤) والبيهقي في «السنن» (٤/ ٧٦) من طرق الزهري والحاكم (١/ ٣٧٨) وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي و«مصنف عبد الرزاق» (٢٠٤٢٢) والطبراني في «الكبير» (٣٣٧) وغيرهم، وكلهم من طرق متعددة.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٢٦٨٧).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٧٧).

(٤) يُنظَر: «تفسير الخازن» (٤/ ١٢٣) والطبري (٢١/ ١٢٥) وابن أبي حاتم، كما في «تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٧٨).

المؤمنين: هنيئًا لك يا نبي الله، قد علمنا الآن ما يُفعل بك، فماذا يُفعل بنا؟ فأنزل الله تعالى ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ [الأحزاب].

وقال أيضًا: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ [الفتح: ٥] فبيَّن الله ما يُفعل به وبهم[١].

وعليه يُحمل قول الحسن أن النبي ﷺ كان يعلم ما يُفعل به في الآخرة، أي: بعد صدر الإسلام حين أخذ الله ميثاقه في الرسل وأعلمه به، فإن آية الميثاق مدنية، وهذه السورة مكية.

وكان ﷺ لا يدري ما يفعل الله به في الدنيا أيضًا حتى أعلمه الله تعالى به، فقد أعلمه أنه لن يُقتل بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠].

يقول: أحطت لك بالعرب ألَّا يقتلوك، فعرف أنه لا يُقتل، ثم أنزل الله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الفتح: ٢٨].

فعلم أن دينه سيظهر على سائر الديانات، وقال له في أمته: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال] فعلم ما يصنع الله به وبأمته[٢]. حيث حفظه وعصم دمه بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

فالخلاصة: أن الله تعالى قد أعلم نبيه عن طريق الوحي ما يُفعل به وبأمته في الدنيا والآخرة.

ومهمة النبي ﷺ مقصورة على الإنذار، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أبيِّن لكم ما أُمرت أن أنذركم به، وأُوضِّح لكم الحق من الباطل، والحلال من الحرام، وأخوِّفكم سوء المصير إذا بقيتم على شرككم، وهو ﷺ مبشر لمن أطاع ربه بدخول الجنة:

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢].

---

(١) «تفسير الطبري» (٢١/ ١٢١) أخرجه أبو داود في ناسخه من طريق عكرمة عن ابن عباس، كما في «الدر المنثور» (١٣/ ٣١٣)، وهو في المنار المنيف ج١ مذكور في الضعاف.

(٢) أخرجه الطبري بهذا المعنى (٢١/ ١٢٢).

لَا عُذْرَ لِأَهْلِ الْكِتَابِ فِي إِنْكَارِ الْوَحْيِ الْمُنَزَّلِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ

١٠ - ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾

ثم ذكر سبحانه وتعالى حجة أخرى، لمن يطعنون في القرآن لعلها تردُّ المكذبين إلى الحق، فذكَّرهم بإيمان بعض بني إسرائيل: ﴿قُلْ﴾ أيها الرسول لمن جحد رسالتك، وجحد القرآن الذي جئت به: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني ماذا تقولون ﴿إِن كَانَ﴾ هذا القرآن قد نزل ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ حقًّا والحال أنكم قد كذَّبتم ﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ مع أن شاهدًا من بني إسرائيل هو عبد الله بن سلام قد شهد بالصدق على مثله في المعنى والتوحيد، وهو التوراة، فآمن الشاهد بالقرآن وبمن جاء به، واستكبرتم أنتم عن الإيمان به، ألستم تكونون على رأس الظالمين الجاحدين لكل ما هو حق وصدق؟

والآية لم تشر إلى عبد الله بن سلام صراحة، وقد صح في الحديث أنه المراد في الآية كما سيأتي، وهي تنطق بأن شاهدًا موفقًا للحق، من الذين عندهم علم من الكتب المنزلة، قد آمن واهتدى، واستكبرتم أنتم - أيها الجاهلون المكذبون - فهل يوجد ظلم وكفر أعظم من هذا؟

وجواب الشرط في الآية محذوف، تقديره: أفترون أنفسكم ضالين؟ أو: ألستم تكونون ظالمين لأنفسكم بالكفر، وظالمين للحق الذي جئتكم به من عند ربكم؟

ونظيره قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾ [فصلت].

شاهد بني إسرائيل على مثل القرآن:

واختلف أهل التفسير في المراد بالشاهد من قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ على ثلاثة أقوال:

فقيل: هو موسى عليه السلام.

وقيل: هو شاهد غير معين من بني إسرائيل.

وقيل: هو عبد الله بن سلام.

ودليل القول الأول: قول مسروق: والله ما نزلت هذه الآية في عبد الله بن سلام؛ لأن آل حميم نزلت بمكة، وإنما أسلم عبد الله بن سلام بالمدينة، ونزلت الآية في محاجة كانت من رسول الله ﷺ لقومه(١).

والتوراة في الأصل مثل القرآن، في المعنى والأمر بالتوحيد، فشهد موسى على التوراة، وشهد محمد على القرآن، وكلٌّ منهما يصدِّق الآخر.

فيكون المعنى: وشهد موسى على التوراة، وهي مثل القرآن، كما شهد محمد على القرآن أنه كلام الله، فآمن مَنْ آمن بموسى والتوراة، واستكبرتم أنتم يا معشر العرب أن تؤمنوا بمحمد والقرآن(٢).

ودليل القول الثاني: أن الشاهد اسم جنس يعمُّ عبد الله بن سلام وغيره، فإن الآية مكية، وإسلام عبد الله كان بالمدينة، وهي كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [القصص: ٥٣].

وقوله أيضًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الإسراء].

وقد كان لأهل مكة صلة ومخالطة بيهود المدينة وخيبر في التجارة، فلما ظهرت دعوة النبي ﷺ كان أهل مكة يسألون من يلْقون من اليهود عن أمر الديانات والرسل، فكانوا يخبرونهم ببعض الأخبار عن رسالة موسى وكتابه، وكيف أظهره الله على فرعون(٣).

والقول الثالث: هو قول الجمهور أن المراد بالشاهد: هو عبد الله بن سلام، واستدلوا على ذلك بالأحاديث والآثار، منها:

١- عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه ﷺ قال: ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشي على وجه الأرض: إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام، قال: وفيه

---

(١) الطبري (٢١/ ١٢٥) وابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» و«الدر المنثور» للآية.

(٢) «تفسير الخازن» بتصرف (٤/ ١٢٥).

(٣) قال بهذا ابن جرير وابن أبي حاتم والشعبي وابن عبد البر في «الاستيعاب»، يُنظَر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٧٨) و«تفسير التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٠).

نزلت ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾[(١)].

٢- وصحَّ من حديث عوف بن مالك الأشجعي ﷺ، أنه كان يمشي مع النبي ﷺ فدخلا كنيسة اليهود بالمدينة يوم عيدهم، وكرهوا دخولها عليهم، فقال ﷺ: «**يا معشر اليهود، أرُوني اثني عشر رجلًا يشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، يحط الله عن كل يهوديٍّ تحتَ أديمِ السماء الغضبَ الذي عليه**» قال لهم ذلك ثلاثًا، فلم يجبه أحد، فقال: «**أبيتم، فوالله إنِّي لأنا الحاشر، وأنا العاقب، وأنا المقفِّي، آمنتم أو كذَّبتم**».

قال عوف: فانصرفْنا، ولما اقتربنا من الخروج، إذْ برجل مِنْ خلْفِنا يقول: كما أنت يا محمد، ثم توجَّه إلى اليهود، فقال: أيُّ رجل تعلمون فيكم يا معشر اليهود؟ قالوا: ما نعلم أن فينا رجلًا أعلم منك بكتاب الله ولا أفقه، ولا مِنْ أبيك ولا مِنْ جَدِّك مِنْ قبلِك، قال: فإني أشهد له بالله، أنه نبي الله الذي تجدونه في التوراة، قالوا: كذبت، وردُّوا عليه شرًّا، فقال رسول الله ﷺ: «**أثنيتم عليه من الخير آنفًا ما أثنيتم، ولَمَّا آمن كذَّبتموه وقلتم ما قلتم، لن يُقبَل قولكم**» قال عوف: فخرجنا ونحن ثلاثة: رسول الله ﷺ، وأنا، وعبد الله بن سلام، فأنزل الله الآية: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾[(٢)].

ففي هذا الحديث أن الآية نزلت في عبد الله بن سلام وهي مدنية كما قال ابن عطية وغيره.

٣- وروى البخاري وغيره عن أنس بن مالك ﷺ قال: بلغ عبد الله بن سلام مَقْدَم النبي ﷺ المدينة، وهو في أرض يخترف النخل، فأتاه وقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه، ومن أي شيء ينزع إلى أخواله؟ فقال ﷺ: «**أخبرَني بهن آنفًا جبريل**»، قال: فقال عبد الله: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٨١٢) و«صحيح مسلم» (٢٤٨٣) والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٢٥٢) والطبري (٢١/ ١٢٦).

(٢) أخرجه ابن حبان بإسناد صحيح برقم (٧٦٢) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، «المستدرك» (٣/ ٤١٥) وأحمد في «المسند» (٦/ ٢٥) (٢٣٩٨٤) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، والطبراني في «الكبير» برقم (٨٣) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٠٦): رجاله رجال الصحيح، وأبو يعلى كما في «الإتحاف» (٥٣٩٩).

﴿لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [البقرة: ٩٧].

فقال رسول الله ﷺ: **«أمَّا أَوَّل أشراط الساعة: فَنَارٌ تَحشُر الناس من المشرق إلى المغرب، وأمَّا أول طعام يأكله أهل الجنة: فزيادة كبِد الحوت، وأمَّا الشَّبَه في الولد: فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه، كان الشَّبه له، وإذا سبقت كان الشَّبَه لها»**، قال: أشهد أنك رسول الله، ثم قال: يا رسول الله، إن اليهود قوم بُهْت، إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهَتُوني، فجاءت اليهود، ودخل عبد الله البيت، فقال ﷺ: **«أيُّ رجل فيكم عبد الله بن سلام»**؟ قالوا: أعْلَمَنا وابنُ أعْلمِنا، وخيْرُنا وابن خيْرِنا، فقال ﷺ: **«أفرأيتم إن أسلم عبد الله»**؟ قالوا: أعاذه الله من ذلك.

زاد في رواية: فأعاد عليهم، فقالوا مثل ذلك، قال: فخرج عبد الله إليهم فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، فقالوا: شرُّنا وابن شرِّنا، ووقعوا فيه.

وفي رواية ثالثة: فقال عبد الله بن سلام: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله[١].

وعلى هذا فإن عبد الله بن سلام آمن بالنبي ﷺ وشهد بصحة نبوته، واستكبر اليهود فلم يؤمنوا، وعليه فالآية مدنية[٢] وعبد الله بن سلام أول من أسلم بالمدينة.

٤- وأخرج الطبري بسند صحيح عن مجاهد، وسند حسن عن قتادة: أن الآية نزلت في عبد الله بن سلام.

٥- وفي سنن الترمذي وغيره عن عبد الله بن سلام أنه قال: فيَّ نزلت آيات من كتاب الله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ونزل فيَّ: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[٣] [الرعد: ٤٣].

قلت: هذه أدلة صحيحة تشير إلى أن الآية مدنية نزلت في عبد الله بن سلام، وأنه المقصود

---

(١) «صحيح البخاري» بأرقام (٣٣٢٩، ٣٩١١، ٣٩٣٨، ٤٤٨٠) و«صحيح مسلم» (١٤٧٠) و«المسند» (١٢٠٥٧) وابن حبَّان (٧١٦١) و«السنن الكبرى» للنسائي (٨١٩٧).

(٢) وبهذا قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعكرمة، ويوسف بن عبد الله بن سلام، وهلال بن يساف، والسُّدي، والثوري، ومالك بن أنس.

(٣) الترمذي (٣٢٥٦، ٣٨٠٣) والطبري (٢١/ ١٢٧) وابن مردويه كما في «الفتح» (٧/ ١٣٠).

بالشاهد في الآية، فقد شهد بصحة التوراة المماثلة للقرآن في كونهما من عند الله، وأن كليهما يدعو إلى التوحيد، فلما بعث محمد ﷺ آمن به عبد الله بن سلام كما بشرت التوراة، وشهد بصدق القرآن، واستكبر اليهود عن الإيمان به.

وقد ختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وعدم الإيمان برسالة خاتم النبيين أشد الظلم وأعظم الكفر، والله تعالى لا يوفِّق الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله تعالى وجحودهم بوحدانيته، إلى الإسلام وإصابة الحق.

احْتِقَارُ الضُّعَفَاءِ أَمْرٌ مَذْمُومٌ يَمْقُتُهُ الإِسْلَامُ

١١- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ﴿١١﴾﴾

وتمضي الآيات في سرْد أقوال المكذبين الجاحدين برسالة محمد ﷺ فتُبيِّن أن أول من سارع إلى الدخول في الإسلام كان الفقراء والموالي، أمثال: بلال، وعمَّار، وابن مسعود، وصهيب، وخبَّاب، وسُميَّة، وأمَة رُوميَّة كانت من السابقين إلى الإسلام وعذَّبها المشركون، ومن أعتقهن أبو بكر ﷺ.

عن عروة بن الزبير ﷺ، أن عظماء قريش قالوا: لو كان ما جاء به محمد خيرًا ما سبقتْنا إليه زَنِّيرة[1]، وزنِّيرة كانت أمة لعمر ﷺ أسلمت قبله، وكان يضربها على إسلامها.

فكان إسلام هؤلاء وأشباههم مغمزًا في نظر المتكبرين من قريش، فهم يزعمون أن لهم العظمة والجاه والسبق إلى كل مكرمة؛ لأنهم أصحاب المال والسلطان، أما هؤلاء الفقراء من الضعفاء والعبيد فإنهم لا خير فيهم، ولا سبْق لهم إلى خير، وهكذا قال اليهود عن عبد الله بن سلام حين أسلم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: جحدوا نبوة محمد ﷺ، وردّوا دعوته، وهم قبيلتا أَسَد وغطَفان، قالوا علَى وجه السخرية والاستهزاء ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وهم قبيلتا جهينة ومزينة ﴿لَوۡ كَانَ﴾ دين محمد وما جاء به حقًّا وخيرًا ﴿مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾ أي: ما سبقنا إلى التصديق

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (١٢/ ٢٢).

به فلان وفلان من المستضعفين والموالي والإماء الذين أسلموا، وهم لا يعلمون أن الله تعالى يختص برحمته من يشاء، ويؤتي فضله من يشاء، فنحن كبار القوم وسادتهم وهم الضعفاء الفقراء، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣].

وكما قال قوم نوح له: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

وهكذا، فإنهم لما لم يهضموا أنفسهم على الإيمان به، أخذوا يذموه، وإلا فأيّ دليل على أن الحق لا يكون حقا إلا إذا اتبعه أوّلًا كبار القوم؟! فهل هم أزكى نفوسًا أوأكمل عقولًا؟ أم أن الهدى بأيديهم؟

والجواب: لا شيء من ذلك، وما هو إلا تخاذل وانطماس بصيرة، نسأل الله العفو والعافية.

ثم بيَّن سبحانه أن غير المسلمين إذا لم تحصل لهم هداية بالقرآن، وبما جاء عن رسول الله ﷺ، فإنهم سيستمرون في عنادهم واستكبارهم وطعنهم في القرآن، فقال جلَّ شأنه: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ﴾ مع وضوح دلائله وإعجازه ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي: يقولون: إنَّ هذا القرآن كذب مأثور عن الأقدمين من أخبار السابقين، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان].

﴿وَإِذْ﴾ في الآية ظرف لكلام محذوف تقديره: وإذ لم يهتدوا بالقرآن ظَهَر عنادهم واستكبارهم، وقالوا: هذا إفك قديم.

وقد استوفت السورة وجوه الطعن في القرآن من قولهم: ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وقولهم: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾، وقولهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾، وقولهم: ﴿إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ فلا مطمع في إقلاعهم عن الضلال في المستقبل، كما لم يقلعوا عنه في الماضي.

ثم بيّن - سبحانه - أن القرآن هو الحق الذي لامرية فيه، وقد نزل موافقا لأفضل الكتب السماوية بعد القرآن وهو ا لتوراة:

الْوَحْيُ الَّذِي نَزَلَ عَلَى مُوسَى هُوَ الْوَحْيُ الَّذِي نَزَلَ بِالْكِتَابِ الْمُهَيْمِنِ

١٢- ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ[1] ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه أن وحي الله إلى الرسل، سُنَّة إلهية معلومة، ومن أشهرها التوراة التي نزلت على موسى ﷺ وهو بشَر، كما أن القرآن نزل على محمد ﷺ وهو بشَر مثله، فكيف تصفون القرآن بأنه إفك، وقد سبقه كتاب موسى وأنتم تعرفونه؟ ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أي: وأنزلنا -قبل هذا القرآن- التوراة التي نزلت على موسى، وجعلناها قُدوة يؤتم بها في دين الله وشرائعه كما يؤتم بالإمام، وجعلناها رحمة لمن آمن بها وعمل بما فيها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤].

قال الفخر الرازي: ووجه تعلُّق الآية بما قبلها أن المشركين طعنوا في صحة القرآن، وقالوا: لو كان خيرًا لَمَا سبقنا إليه هؤلاء الضعفاء الصعاليك، فردَّ الله عليهم بأنكم لا تُنازعون أن الله تعالى أنزل التوراة على موسى، وجعلها إمامًا يُقتدى به، ثم إنها مشتملة على البشارة بمحمد ﷺ فإذا سلَّمتم كونها من عند الله، فاقبلوا حكمها بأن محمدًا ﷺ رسول الله حقًّا من عند الله[2].

ثم أثنى سبحانه على هذا القرآن، وبيَّن أنه الكتاب المهيمن على الكتب السماوية التي نزلت قبله، فقال: ﴿وَهَٰذَا﴾ أي: القرآن ﴿كِتَٰبٌ﴾ عظيم الشأن ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ لما قبله من الكتب، بموافقته لها ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي: أنزلناه بلسان عربي، هو أفصح اللغات، وأنفذها في نفوس السامعين، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الدخان].

وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٤].

فالقرآن كتاب عظيم الشأن، وهو أفصح بيانًا، وأظهر برهانًا، وأبلغ إعجازًا من التوراة.

---

(١) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب والبزي بخلف عنه بتاء الخطاب في (لتنذر)، والمخاطَب هو النبي ﷺ، والباقون بياء الغيب وهو الوجه الثاني للبزي، والضمير يرجع إلى القرآن.

(٢) «التفسير الكبير» (٢٨/ ١٢).

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يجعل وظيفة هذا القرآن إنذارًا للظالمين بسوء المصير إذا أصرُّوا على ظلمهم، وبُشرى حسنة لمن آمن وأحسن، فقال: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم بالكفر والشرك والمعاصي والفسق والفجور، إن استمروا على ما هم فيه ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ الذين أطاعوا ربهم، وأحسنوا في إيمانهم وهم في الدنيا، وأحسنوا في طاعتهم لله، وأحسنوا في تعاملهم مع الناس.

الإِحْسَانُ إِيمَانٌ وَاسْتِقَامَةٌ

١٣- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا[1] هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾

ولما ذكر سبحانه أن المحسنين لهم البشرى، بيَّن جلَّ شأنه أن المحسنين هم الذين قالوا: ربنا الله، فشهدوا له بالوحدانية والتزموا طاعته، ثم استقاموا على أعمالهم مدة حياتهم، وأن البشرى التي أعدها الله لهم، هي عدم الخوف من المستقبل، وعدم الحزن على ما مضى، وأنهم أصحاب الجنة، فالمحسنون هم الذين قالوا بألسنتهم: ربنا الله، واعتقدوها في ضمائرهم، ثم استقاموا على ذلك في أقوالهم وأفعالهم، فأخلصوا لله في إيمانهم وطاعتهم لكل ما أمر الله به، واجتنبوا بقوة، كل ما نهاهم الله عنه، وثبتوا على ذلك، فجمعوا بين التوحيد والإيمان، والاستقامة على شرع الله، واتخذوه منهج حياة يشمل كل نشاط وكل اتجاه، وكل حركة وكل خالجة، فلله العبادة وحده، ومنه الخشية، وعليه الاعتماد، ولا خوفَ إلا منه، ولا احتكام إلا إلى شريعته، ولا اهتداء إلا بهديه.

ثم إن الذين استقاموا وثبتوا على طاعة الله، لا يخافون من مكروه يصيبهم في الآخرة، ولا يخافون من الفزع الأكبر إذا خاف الناس، ولا يفزعون إذا فزع الناس من أهوال يوم القيامة، ولا يحزنون على شيء تركوه وراءهم من حظوظ الدنيا؛ لأنهم في سعادة مستمرة، وسرور دائم، لا يعكِّره خوف من مستقبل مجهول، ولا حزن على أمر قد مضى. قال تعالى مبيِّنًا مصير أهل الإيمان والاستقامة:

---

(١) قرأ يعقوب بفتح الفاء من غير تنوين على أن (لا) نافية للجنس، والباقون بالرفع مع التنوين على أن (لا) نافية للوحدة.

١٤- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤﴾

أما مصير أهل الاستقامة في الآخرة فهو الخلود الأبدي في جنة نعيم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين جمعوا بين التوحيد والإيمان والاستقامة، الموصوفون بالثبات على دين الله هم ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ لهم فيها ما يشاؤون من ألوان النعيم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ ماكثين فيها أبدًا، وقد نالوا هذا الجزاء الطيب بما قدموه من عمل صالح في دنياهم ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ في الدنيا من إيمان واستقامة وورع وإخلاص.

بِرُّ الْوَالِدَيْنِ قَرِينُ الْإِيمَانِ

١٥- ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ[1] حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهًا[2] وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهًاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ[3] ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ[4] أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحًا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٥﴾

وقد جرت عادة القرآن الكريم أن يبدأ في وصاياه بتوحيد الله تعالى وعدم الإشراك به، ويُثنِّي ببر الوالدين والإحسان إليهما، ولما ذكر سبحانه أن المؤمنين المستقيمين على شرع الله لا يخافون ولا يحزنون، وأن مصيرهم إلى جنة ربهم، أعقب ذلك بوصية الإنسان أن يُحسن إلى والديه.

وكما بيَّنت الآيات السابقة أن بعض الناس استجاب لدعوة النبي ﷺ وبعضهم كفر به، بيَّن سبحانه أن بعض الناس أيضًا قد يكون مؤمنًا بارًّا بوالديه محسنًا إليهما، وبعضهم قد يكون كافرًا منكرًا للبعث عاقًّا لوالديه، فذكر في هذه الآية والتي بعدها مثالًا للابن المؤمن البار، وفي الآيتين بعدهما مثالًا آخر للابن الكافر العاق.

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف العاشر (إِحْسَانًا) على أنه مصدر حُذف عامله، أي: وصيناه أن يحسن إليهما إحسانًا، وقرأ الباقون (حُسْنًا) مفعول به.

(٢) قرأ ابن ذكوان وعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف وهشام بخلف عنه بضم الكاف في (كُرهًا)، والباقون بفتحها وهو الوجه الثاني لهشام، وهما لغتان بمعنى واحد.

(٣) قرأ يعقوب (وفَصْلُهُ)، والباقون (وفصاله) وهما مصدران بمعنى واحد.

(٤) قرأ الأزرق والبزي بفتح ياء الإضافة من (أوزعنيَ أن)، والباقون بإسكانها.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا﴾ أي: أمرناه أن يحسن صحبة والديه، بالقول للطيف، والكلام اللين، وبذل المال والنفقة، وطيب العشرة، وحسن الخلق، برًّا بهما في حياتهما وبعد مماتهما؛ وذلك لأن لهما الفضل الثاني بعد الله ﷻ في وجوده في هذه الحياة، وقد جعل الله رضاه في رضاهما، وسخطه في سخطهما، وأمر بحسن صحبتهما ولو كانا مشركين، وأمر بطاعتهما في غير معصية الله تعالى وإن ظلماه.

ومن الآيات التي أمرت بالإحسان إليهما:

١- قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [النساء: ٣٦].

٢- وقوله أيضًا: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

٣- وقوله سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨].

٤- وقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤].

٥- وقوله : ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الأنعام: ١٥١]

ثم أفردت الآية سبب الأمر بالإحسان إلى الأم، إشارة إلى أن حقها آكد من حق الأب، فقال سبحانه: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أي: حملته جنينًا في بطنها على مشقة وتعب من حمله، تعبًا يجعلها كارهة للحمل حين أثقلت به.

وولدته على مشقة وتعب بأوجاع وآلام، جعلتها كارهة لوضعه حين جاءها الطلْق والمخاض، ولم يشاركها الأب في شيء من ذلك، وقد حملته أمه ضعفًا على ضعف، كلما ازدادت مدة الحمل ازداد الثقل والضعف.

وقد جعل الإسلام للأم ثلاثة أرباع البر بسبب الحمل، ثم الوضع، ثم الرضاعة، والربع للأب، وهذا ما يشير إليه حديث أبي هريرة ﷺ حين قال رجل: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «**أمك**» قال: ثم من؟ قال: «**أمك**» قال: ثم من؟ قال: «**أمك**» قال: ثم من؟ قال: «**أبوك**»[1].

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٩٧١) و«صحيح مسلم» (٢٥٤٨).

ثم ذكر سبحانه ما بعد الحمل والولادة من الرضاعة التي يحيا بها الطفل، ويُدفع عنه بها ألم الجوع.

وضُمت مدة الحمل إلى مدة الرضاعة للتداخل الذي بينهما من حيث الزيادة والنقصان، فقال جلَّ شأنه: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ﴾ أي: فطامه ﴿ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ فمدة الحمل قد تكون ستة أشهر، أو سبعة أشهر، أو ثمانية أشهر، أو تسعة، وهو الغالب.

مدة الحمل:

فإذا كانت مدة الحمل تسعة أشهر، كانت مدة الرضاع واحدًا وعشرين شهرًا.

وإذا كانت مدة الحمل ثمانية أشهر، كانت مدة الرضاع اثنين وعشرين شهرًا.

وإذا كانت مدة الحمل سبعة أشهر، كانت مدة الرضاع ثلاثة وعشرين شهرًا.

وإذا كانت مدة الحمل ستة أشهر، كانت مدة الرضاع أربعة وعشرين شهرًا.

وهي أقصى مدة الرضاع التي قال الله عنها:

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وقال أيضًا: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤].

فكل نقص في أشهر مدة الحمل، يُعوَّض عنه بشهر زائد في مدة الرضاع؛ لأن نقصان مدة الحمل يؤثِّر في تكوين الطفل.

قال ابن عباس ﷺ: إذا حملت المرأة تسعة أشهر، أرضعت واحدًا وعشرين شهرًا، وإذا حملت ستة أشهر، أرضعت أربعة وعشرين شهرًا.

وهذه الآية تتسع لأن تكون مدة الحمل من ستة إلى تسعة أشهر.

وقد استدل علي بن أبي طالب ﷺ بهذه الآية مع آية سورة البقرة ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ﴾ [البقرة: ٢٣٣] على أن أقل مدة الحمل تكون ستة أشهر، وبه قال ابن عباس ﷺ.

وقد ورد عن بعْجَةَ بنِ عبد الله الجهني قال: تزوج رجل منا امرأة من جهينة، فولدت لتمام ستة أشهر، فانطلق زوجها إلى عثمان بن عفان، فذكر له ذلك، فبعث إليها عثمان،

فلما أُتي بها أمر برجمها، فبلغ ذلك عليًا فأتاه، فقال: أما تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قال: أما سمعت قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ فلم نجده بقي إلا ستة أشهر، فرجع عثمان إلى ذلك[1]. وقد بُني هذا الحكم على شمول اللفظ القرآني له.

وعن أبي حرب بن أبي الأسود الدؤلي عن أبيه قال: رُفع إلى عمر امرأة ولَدتْ لستة أشهر، فسأل عنها أصحاب النبي ﷺ، فقال عليٌّ ﷺ: لا رجْم عليها، ألا ترى أن الله تعالى يقول: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ وقال أيضًا: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]. وكان الحمل ها هنا ستة أشهر، قال: ثم بلَغنا أنها ولدتْ آخر لستة أشهر[2].

بلوغ الأشد والدعاء للنفس وللوالدين:

وبعد أن بقي الإنسان في بطن أمه ما بقي، وبعد أن وضعتْه وأرضعتْه وفطمتْه وتولّتْه برعايتها، واستمرت حياته على ذلك حتى بلغ كمال قوّته وشبابه في سن الثالثة والثلاثين، ثم جاوزها حتى بلغ استكمال القوة العقلية والبدنية في سن الأربعين، فشكر ربه على ما أسبغ عليه من نعم في أطوار حياته، وسأله التوفيق للعمل الصالح وصلاح الذرية، وهذا معنى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي: واستمر الإنسان المؤمن بالله واليوم الآخر، البارُّ بوالديه، على الإحسان إليهما، من سن الطفولة وفترة المراهقة، إلى سن الشباب، حتى بلغ أشده بكمال القوة العقلية والجسدية، وهي الفترة من سن الثلاثين إلى سن الأربعين التي قال الله عنها: ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ وهي أكمل المدة، كما قال تعالى عن موسى ﷺ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص: ١٤].

وعندما يبلغ الإنسان سن الرشد، يطلب العون من الله تعالى على زيادة الإحسان إلى والديه، بأن يلهمه الشكر على نعمه عليه وعلى والديه.

ومن جملة النعم التي يُنعِم الله بها على الابن، أن يوفقه إلى الإحسان إلى والديه، ومن نعم الله تعالى على الوالدين: أن سخر لهما هذا الولد ليحسن إليهما، فدعا ربه بهذا

---

(١) «الدر المنثور» للسيوطي (٧/ ٤٤١) عن ابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) «مصنف عبد الرزاق» (١٣٤٤٤).

الدعاء: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ﴾ أي وفِّقني يا رب، وألْهمني أن أشكُر نِعم الدين ونِعَم الدنيا، وشُكْرُ الله تعالى بصَرْف النعم في طاعته وعدم استعمالها في معاصيه، وهي ﴿ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ﴾ بها ﴿عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ بالهداية، وحنَّنْتَ قلبيهما عليَّ حين ربياني صغيرًا.

شكا أبو معشر ابنَهُ إلى طلحة بن مُصرِّف، فقال: استعن عليه بهذه الآية ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾.

فالإنسان يستمر في إحسانه إلى الوالدين مدى حياته، ولا يفتُر عن الإحسان إليهما بكل وجه حتى بالدعاء لهما.

وخص بالذكر بلوغ الأشد، حيث تكثُر الأعباء والأعمال، وتزداد المشاغل، فلا ينبغي أن يشغله ذلك عن بر والديه والإحسان إليهما.

كما تشير الآية إلى أن دعاء الإنسان لنفسه ولذريته وزوجته، لا يُنسيه الدعاء لوالديه بظهر الغيب عند مناجاته لربه.

وتشير الآية أيضًا إلى إكثار الإنسان من التضرع إلى ربه، والتزود بالعمل الصالح عند بلوغ الأشد، فهو السن التي يوحي الله فيها إلى الأنبياء في الغالب.

وقد علَّمنا الله تعالى الدعاء إلى الوالدين بعد موتهما في قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤].

ووعد الله تعالى بإجابة الدعاء على لسان رسوله ﷺ في حديث أبي هريرة ﷺ: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[١].

وعن أبي أُسيْد مالك بن ربيعة الساعدي: أن رجلًا من بني سلمة قال للنبي ﷺ: هل بقي عليَّ من برِّ أبويَّ شيء أبرهما به بعد موتهما؟ فقال ﷺ: «**نعم، الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإكرام صديقهما، وإنفاذ عهدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما**»[٢].

---

(١) «صحيح مسلم» (١٦٣١).

(٢) أبو داود (٥١٤٢) وابن حبَّان (٢٠٣٠) وفي سنده علي بن عبيد الساعدي، لم يوثقه غير ابن حبَّان، وبقية رجاله ثقات. وهو في مستدرك الحاكم برقم (٧٢٦٠).

وفي حديث الفضل بن عباس ﷺ أن المرأة الخثْعميَّة قالت لرسول الله ﷺ في حجة الوداع: إن فريضة الله على عباده في الحج أدركتْ أبي شيخًا كبيرًا لا يثبتُ على الراحلة، أفيُجزئ أن أحج عنه، قال: «نعم، حجي عنه»[١].

ويشترط أن تكون قد حجَّت عن نفسها، وهذا الحج غير واجب على أبيها؛ لأنه عاجز ببدنه، وحجها عنه يُجزىء.

وعندما يدعو الإنسان لنفسه ولوالديه ينبغي عليه أن يسأل ربه صلاح الذرية، فكما أحسن إلى والديه عليه أن يُحسن إلى أولاده، فيدعو لهم بالصلاح قائلًا: ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ ودعوة الوالد لولده مظنة الإجابة.

في سبب النزول:

قيل: إن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق ﷺ، وذلك أنه عندما كان ابن ثماني عشرة سنة، وكان النبي ﷺ ابن عشرين سنة، صحبه في تجارة إلى الشام، فنزلا منزلًا فيه سدرة، فقعد النبي ﷺ في ظلها، ومضى أبو بكر إلى راهب هناك يسأله عن الدين، فقال له الراهب: مَن الرجل الذي في ظل السدرة؟ قال: هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، فقال الراهب: هذا والله نبي، وما استظل تحتها بعد عيسى أحد إلا هذا، وهو نبي آخر الزمان، فوقع في قلب أبي بكر اليقين والتصديق، فكان لا يُفارق النبي ﷺ في سفر ولا حضر، فلما بلغ رسول الله ﷺ أربعين سنة أكرمه الله تعالى بنبوته، واختصه برسالته، فآمن به أبو بكر وصدَّقه، وهو ابن ثمان وثلاثين سنة، فلما بلغ أربعين سنة دعا ربه ﷻ بما ورد في الآية ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾ إلخ الآية[٢].

وقال علي بن أبي طالب ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ إنها نزلت في أبي بكر ﷺ، أسلم أبواه جميعًا، ولم يجتمع لأحد من المهاجرين أن أسلم أبواه غيره، فأوْصاه الله بهما، ولزم ذلك مَن بعده.

---

(١) البخاري (١٥١٣، ٦٢٢٨) ومسلم (١٣٣٤) وأبو داود (١٨٠٩) و«المسند» (١٨٩٠) وابن حبَّان (٣٩٨٩) والنسائي في «السنن الكبرى» (٣٦٠٧).

(٢) «تفسير الخازن» (٤/ ١٢٥) و«أسباب النزول» للواحدي (٢١٦) و«الدر المنثور» (٦/ ٤٠).

ولما دعا أبو بكر ربه أن يعمل صالحًا يرضاه، أجاب الله تعالى دعاءه، فأعتق تسعة من المؤمنين يُعذَّبون في الله، منهم: بلال، ولم يُرِد أبوبكر شيئًا من الخير إلا أعانه الله عليه، كما قال ابن عباس . ﷺ

ولما دعا أبوبكر ربه أن يُصلح له في ذريته، أجابه الله تعالى، فلم يكن له ولد إلا آمن، فاجتمع لأبي بكر إسلام أبويْه: أبي قحافة، عثمان بن عمر، وأم الخير بنت صخر بن عمرو، وابنه عبد الرحمن، ومحمد بن عبد الرحمن، فهؤلاء أربعة: أبو بكر، وأبوه، وابنه عبد الرحمن، وابن ابنه محمد، كلهم أدركوا النبي ﷺ وأسلموا، ولم يجتمع ذلك لأحد من الصحابة غير أبي بكر.

وقد طلب هذا الداعي من الله تعالى ثلاثة أشياء:

الأول: أن يوفقه للشكر على النعمة.

والثاني: أن يوفقه للإتيان بالطاعة المرضيَّة عنده سبحانه.

والثالث: أن يصلح له في ذريته، وهذا كمال السعادة البشرية[١].

والآية عامة، ويدخل فيها أبو بكر ﷺ دخولًا أوَّليًا.

ثم يتوسل العبد إلى ربه بعمله الصالح أن يتقبل منه دعاءه، فيقول: ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من جميع الذنوب ﴿وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المتمسكين بالإسلام، الملتزمين بالأوامر والنواهي الشرعية، المنقادين لحكم الكتاب والسنة.

وفي الآية إرشاد إلى تجديد التوبة والإنابة إلى الله ﷻ، والإكثار من ذلك في أواخر العمر. قال تعالى:

١٦- ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ[٢] عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

(١) «حاشية البيضاوي» (٣/ ٣٣٦).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة وأبو جعفر ويعقوب (يُتَقَبَّلُ) بالياء والبناء للمجهول، ورفع (أحسنُ) نائب فاعل (ويُتجاوز) بالبناء للمجهول والياء، ونائب فاعل (يُتجاوز) الجار والمجرور بعده، وقرأ الباقون (نتقبل) بالنون والبناء للمعلوم ونصب (أحسنَ) مع البناء للفاعل في (ونتجاوز).

ثم بيَّن سبحانه أن الذين تابوا وأنابوا إلى ربهم، وسألوه أن يوفقهم للعمل الصالح، وأن يصلح لهم ذريتهم، هم الذين يتقبل الله أعمالهم الصالحة في عداد الصالحين، ويغفر لهم ذنوبهم ويدخلهم الجنة، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الموصوفون بما سبق ذكره ﴿ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ﴾ أي: نتقبل منهم ﴿أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ من صالحات الأعمال وأفضلها، ونجازيهم على أعمالهم بأفضلها ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ نصفح عنهم، ولا نعاقبهم عليها، ونجعلهم ﴿فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ الذين نكرمهم بالعفو والغفران ﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ على ألسنة الرسل، هذا هو وعد الله الحق الذي وعدهم به على ألسنة الرسل في الدنيا.

وهو أصدق القائلين، والله لا يخلف الميعاد.

ولما ذكر الله تعالى حال الابن الصالح البار بوالديه، أعقبه بذكر حال الابن العاق، وهو أشر الحالات:

عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ قَرِينُ الْكُفْرِ

١٧- ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ[(١)] لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ[(٢)] أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٧﴾

أما المثل الآخر فهو للابن الكافر العاق لوالديْه المسلميْن، وهذا يُمثِّل فئة موجودة في أرجاء العالم قديمًا وحديثًا، وكان منهم في العصر النبوي: أبناء مشركين، أسلم آباؤهم ودعُوهم إلى الدخول في الإسلام، فلم يستجيبوا لهم، وأغلظُوا لهم في القول، فضموا إلى الكفر عقوق الوالدين.

فالمراد بهذه الآية وقت نزولها: فريق من الناس، أسلم آباؤهم وبقي أبناؤهم على الشرك، والآية لا تعني شخصًا معينًا، فهي عامة في كل من ينطبق عليه الوصف.

---

(١) قرأ نافع وحفص وأبو جعفر بكسر الفاء منونة، من (أف) وهي لغة أهل الحجاز واليمن، والتنوين للتنكير، وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب بفتح الفاء بلا تنوين، وعدم التنوين بقصد عدم التنكير، والباقون بكسر النون بلا تنوين.

(٢) قرأ هشام (أتعداني) بنون واحدة مشددة، على إدغام نون الرفع في نون الوقاية، والباقون بنونين مكسورتين خفيفتين. وفتح ياء الإضافة نافع وابن كثير وأبو جعفر، وأسكنها الباقون.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ﴾ حين دعواه إلى الإسلام، وخوّفاه من عذاب اليوم الآخر ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ كلمة ﴿أُفٍّ﴾ تصْدُر عن قائلها عند التضجر من شيء، أي: والذين يقولون لوالديْهم حين يَدْعُونهم إلى اعتناق الإسلام، إنني أكره ذلك وأتضجر منه، أُفٌّ لكما ولِمَا جئتما به، أتدعُوانني إلى الإسلام، والإقرار بالبعث والنشور والحياة مرة أخرى، وقد ماتت أمم كثيرة، ومضت عليها أحقاب من الزمن، فهو يستبعد ذلك وينكره، لأنه لم يخرج أحد ممن مات قبل ذلك للدنيا مرة ثانية؟ ﴿أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ﴾ من قبري حيًّا ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ أي: هلك قبلي كثير من الناس فلم يُبعث منهم أحد؟ ووالداه خائفان عليه من النار، ويسألان الله له الهداية، ويَطْلُبان له الغوْث، ويحثّانه على الإيمان بالله وطاعته، وهذا معنى: ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ له قائلين: ﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾ بالله وصدِّق بما جاء به رسوله، واعمل صالحًا، فإن الهلاك والعذاب محقق لمن لم يؤمن بالله ورسوله، ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث والحساب والجزاء حق لا شك فيه.

إنهما يبذلان قصارى جهدهما، ويسعيان في هدايته أشد السعي، ومن حرصهما أنهما يستغيثان الله له، استغاثة الغريق، ويتوجّهان له، ويُبينان له الحق من الضلال. ويقيمان له الأدلة، فلا يزداد هذا العاق إلا عُتوًّا ونفورًا واستكبارًا، فيكون جواب الابن الشقي لأبويه ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما هذا الذي تقولانه من الإيمان بالله والبعث والنشور، إلا خرافات وأباطيل سطَّرها الأولون، وليس لها أصل حقيقي، وإنما هو منقول عن حكايات السابقين التي سُجِّلت في كتبهم، وليس من عند الله، ولا أوحاه الله إلى محمد ﷺ.

والآية تصور لهْفة الوالدين على إيمان ولدهما، حيث ترتعش أفئدتهما خوفًا عليه، ويلتمسان له الهداية، ولكن الابن الجاحد العاق يُصِرُّ على كفره ويستمر في جحوده.

الآية عامة في كل كافر عاق لوالديه:

١- أخرج البخاري بسنده عن يوسفَ بنِ ماهَك قال: كان مَرْوان على الحجاز، استعمله معاوية بن أبي سفيان، فخطب، وجعل يذكُر يزيد بن معاوية، لكي يُبايَع له بعد أبيه، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئًا، فقال: خذوه، فدخل بيت عائشة ﵂، فلم يقدرُوا عليه، فقال مروان: إن هذا الذي أُنزل فيه: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾.

فقالت عائشة من وراء حجاب: ما أنزل الله فينا شيئًا من القرآن إلا أن الله أنزل عُذْري[١].

ومروان هو ابن الحكم بن أبي العاص الأموي، والحَكَم، عم عثمان بن عفان ﷺ، وكان من مسلمة الفتح، وله أدنى نصيب من الصحبة، وكان عبد الرحمن قد قال له: أَهِرَقْليَّة؟ إن أبا بكر والله ما جعلها في أحد من ولده[٢].

ومعنى **أَهِرَقْلِيَّة**، أي: كُلَّما مات هرقل ورث هرقل، وكلما مات قيصر ورث قيصر، وفي لفظ: سُنَّة هرقل وقيْصر[٣].

قلت: ومروان بن الحكم هو الذي أدخل قبر النبي ﷺ في المسجد النبوي، وله مخالفات شرعية أخرى.

٢- وعن محمد بن زياد قال: لما بايع معاوية لابنه، قال مروان: سُنَّة أبي بكر وعمر، فقال عبد الرحمن: سُنَّة هرقل وقيصر، فقال مروان: هذا الذي أنزل الله فيه: ﴿وَالَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ فبلغ ذلك عائشة فقالت: كذب مروان، كذب مروان، والله ما هو به، ولو شئتُ أن أسمي الذي أُنزِلَتْ فيه لسمَّيتُه، ولكنَّ رسول الله ﷺ لعن أبا مروان، ومروان في صلبه، فمروان فَضَضٌ -أي: قطعة- من لعنة الله[٤].

٣- وعن الشعبي قال: سمعت عبدالله بن الزبير وهو مستند إلى الكعبة وهو يقول: ورب هذه الكعبة، لقد لعن رسول الله ﷺ فلانًا وما وَلَدَ من صلبه[٥].

والمراد بفلان: الحكَم، والمراد بما وَلَد: مروان.

ولفظ البزار (ورب هذا البيت لقد لعن الله الحكم وما وَلَد على لسان نبيه)[٦].

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٨٢٧).

(٢) من رواية ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٧/ ٤٤٤).

(٣) كما في رواية النسائي في «السنن الكبرى» (١١٤٩١).

(٤) النسائي في «السنن الكبرى» (١١٤٩١) وفي ط الرسالة (١١٤٢٧) وابن المنذر كما في «الفتح» (٨/ ٥٧٧) والحاكم وصححه (٤/ ٤٨١) وابن مردويه كما في «تخريج الكشاف» (٣/ ٢٨٢). وفي التحفة (١٧٥٨٧).

(٥) مسند أحمد (١٦١٢٨) رجاله ثقات رجال الشيخين كما قال محققوه، والطبراني في الكبير (٢٨٩).

(٦) زوائد البزار (١٦٢٣) من طريق عبدالرزاق.

ولفظ الحاكم (أن رسول الله ﷺ لعن الحَكَم وَوَلَده)(١).

٤- وعن عبدالله بن البهي مولى الزبير، قال: كنت في المسجد ومروان يخطب، فقال عبدالرحمن بن أبي بكر: والله ما استخلف أحدا من أهله، فقال مروان: أنت الذي نزلت فيك ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ فقال عبدالرحمن: كذبتَ ولكنَّ رسول الله ﷺ لعن أباك)(٢)

٥- وأخرج عبد الرزاق من طريق مكي، أنه سمع عائشة تُنكر أن تكون الآية نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر، وقالت: إنما نزلت في فلان، وسمَّتْ رجلًا.
قال الحافظ ابن حجر: ونفْيُ عائشة أصح إسنادًا وأولى بالقبول(٣).

والأمر كما قالت عائشة ﵂، من أن الآية لم تنزل في عبد الرحمن بن أبي بكر، ويدل على أن الآية لا تتعلق به، أن الله تعالى توعَّد مَن وصفهم في الآية، بأنهم قد وجبت عليهم كلمة الله بالعذاب يوم القيامة، وأنهم من الخاسرين الهالكين، وهذا لا يكون إلا لمن مات على الكفر، وعبد الرحمن قد أسلم قبل فتح مكة، وحسُن إسلامه، ومات على الإيمان والهُدى، ولو أنه فعل شيئًا من الذنوب قبل إسلامه فإنه لا يُتوعد بالعذاب؛ لأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله.

فالآية لا يراد بها شخص معين بل يراد بها كل من كان موصوفًا بهذه الصفة.

قال تعالى في عقوبة الكافر العاق لوالديه:

١٨- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾

فقد بيَّن سبحانه وتعالى أن هؤلاء المجرمين الذين ماتوا على الكفر وإنكار البعث والنشور، قد وجب عليهم عذاب الله، وحلَّ بهم سخطه، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي:

---

(١) المستدرك (٤/ ٤٨١) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي بقوله: الرشديني ضعفه ابن عدي.

(٢) أخرجه البزار في البحر الزخار (٢٢٧٣) من طريق عبدالرحمن بن مغراء، عن إسماعيل بن أبي خالد به.

(٣) «تفسير عبد الرزاق» (٧/ ٣٨٠) و«تفسير القرطبي» (١٦/ ١٩٧) و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٧٩) وقوله: أصح إسنادًا، أي: من رواية السُّدِّي.
وعند ابن أبي حاتم أن الآية نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر، وهي رواية ضعيفة.

الكافرون العاقُّون هم ﴿ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ أي: وجبت عليهم كلمة العذاب في قوله تعالى: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] وذلك في جملة من حقَّت عليهم كلمة الله في الأمم السابقة من الإنس والجن ﴿فِيٓ﴾ جملة ﴿أُمَمٖ﴾ من أصحاب النار سيدخلون معهم ويغرقون في تيارهم، وهؤلاء ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم﴾ أي: قد مضت هذه الأمم من قبلُ، من الكفرة الفجار ﴿مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ ممن كفروا بالله وكذَّبُوا رسله، وكانوا عاقين لآبائهم ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ لأنهم باعوا الهدى بالضلال، والنعيم بالعذاب، واستحبُّوا الكفر على الإيمان، وهؤلاء ضل سعيهم، وخسروا آخرتهم، فلم يحصلوا على نعيم، ولم يَسْلَموا من نار الجحيم. قال تعالى:

١٩- ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ[1] أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝١٩﴾

بيَّن جلَّ شأنه أن لكل فريق من الأبناء البررة، المؤمنين بالله واليوم الآخر، المحسنين لآبائهم، لهم درجات ومراتب عالية في الجنان، هذا فريق.

وكذا الأبناء الفجرة، الكافرين بالله واليوم الآخر، العاقِّين لآبائهم، لهم دركات في النار.

وهذا هو الفريق الآخر، وكلاهما متفاوت في مقدار النعيم والعذاب.

والآية عامة فيهم وفي غيرهم من كل برٍّ وفاجرٍ

﴿وَلِكُلّٖ﴾ من أهل الخير والشر، من المؤمنين والكافرين ﴿دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ﴾ أي: لهم منازل عند الله يوم القيامة، وفْق أعمالهم التي عملوها في الدنيا، كلٌّ بمقدار ما عمل ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمۡ﴾ جزاء ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ التي قدَّمُوها لأنفسهم في الدنيا كل حسب مرتبته من الخير والشر ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ بزيادة سيئاتهم ولا نقصان حسناتهم، بل يجازَى كلٌّ منهم بمقدار عمله ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة].

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ويعقوب وهشام بخلف عنه بالياء في (وليوفيهم) والفاعل ضمير يعود على لفظ الجلالة، والباقون بنون العظمة على الالتفات وهو الوجه الثاني لهشام.

الْكَافِرُ تُعَجَّلُ لَهُ طَيِّبَاتُهُ فِي الدُّنْيَا

٢٠- ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ[1] طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾

أي: ويقال للذين كفروا يوم القيامة حين يُعرضون على النار: إنكم لم تُظلموا شيئًا، فقد أنعمنا عليكم في الدنيا بألوان النعم، وقد استوفيتم ما لكم من الطيبات فيها، وبذلْتم قصارى جُهدكم في التمتع بها، فلم تبق لكم طيبات في الآخرة.

وفي هذا إعذار لهم، وتقرير لكونهم لا يظلمون شيئًا فيما ينالهم من عذاب الآخرة، حيث لم يبق لهم إلا الجزاء السيئ، ولو شاء الله لعجَّل لهم الجزاء على كفرهم في الدنيا، ولكنه سبحانه أمهلهم إلى الآخرة، ووسَّع عليهم النعمة في الحياة الدنيا.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ ذكِّر -يا محمد- الجاحدين بتوحيد الله تعالى، المكذبين لليوم الآخر، الذين لم يُجيبوا دعوتك، ذَكِّرْهم يوم يُكشف الغطاء عن نار جهنم، وتَبْرز للناظرين، ويُلْقون فيها، ويصلوْن نارها.

فالمراد بالعرض: ليس مجرد الرؤية، أو الوقوف عليها، بل المراد: دخولها ومباشرة العذاب فيها، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأحقاف].

وعندما يعرض الكفار على النار يقال لهم تقريعًا وتوبيخًا: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ لقد استوفيتم نصيبكم من الملذات والطيبات، فأتيتم عليها، وأفْنَيْتُموها في الدنيا، وتمتعتم بها كاملة ولم تدخروا شيئًا، وانغمستم في ملذاتها، ورضيتم بشهواتها، وألهتكم طيباتها عن السعي لآخرتكم، فتمتعتم تمتُّع الأنعام السارحة، وهذا هو حظكم من آخرتكم، فلم يبق لكم منها شيء في الآخرة ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي: عذاب الخزي

---

(١) قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بهمزتين في (أأذهبتم) وسهَّل الهمزة الثانية، ابن كثير ورويس، ومثلهما أبو جعفر إلا أنه أدخل ألفًا بين الهمزتين. وحقَّق ابن ذكوان وروح الهمزتين بدون إدخال، ولهشام تحقيق الهمزتين مع الإدخال وعدمه، وله أيضًا تسهيل الثانية مع الإدخال، والباقون بهمزة واحدة على الخبر.

والذل والهوان في نار جهنم بسبب كفركم بالله، وتعاليكم على الناس، وخروجكم عن طاعته ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ وفي هذا بيان أن سبب العذاب أمران:

أحدهما: الاستكبار عن قبول التوحيد، ورفض دعوة الإسلام عُلوًّا وغرورًا، وإيثارًا للباطل على الحق، وهذا ذنب قلْبيٌّ، وهو المراد بالاستكبار في الأرض.

والآخر: الخروج عن دين الله تعالى باقتراف المعاصي والذنوب، واكتسابها بالجوارح، وهذا ذنب حسِّي، وهو المراد بالفسق في الآية.

والطيبات: هي المستلذات من المآكل والمشارب والملابس والمفارش والنساء والمراكب، وغير ذلك، مما يتمتع به الناس عادة، ويُسرف فيه أهل الرفاهية والترف والسرف.

وليس في الآية دليل على تحريم الطيبات والتمتع بكل ما أحله الله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وقال أيضًا: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

فالإسلام لم يحرِّم الطيبات، ولكن يُخشى على أهل السرف أن يصيروا أصحاب ترف، فينسوُا الحقوق والواجبات:

١- قال عمر ﷺ: لو شئتُ لكنتُ أطيبكم طعامًا، وأحسنكم لباسًا، وألينكم فُرشًا، ولكن أستبقي طيباتي لحياتي الآخرة[(١)].

٢- وقال قتادة: وذُكر لنا أن عمر بن الخطاب لما قدم الشام صُنع له طعام لم ير قبله مثله، قال: هذه لنا! فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير؟ فقال خالد بن الوليد: لهم الجنة، فاغروْرقت عينا عمر، فقال: لئن كان حظنا من الدنيا هذا الحُطام، وذهبواهم بالجنة، لقد باينُونا بوْنًا بعيدًا[(٢)].

٣- وقال الحسن: أُتي عمر ﷺ بشربة عسل، فقال: والله لا أتحمَّل فضلها، اسقوها

---

(١) «التفسير الكبير» (٢٨/ ٢٥).

(٢) «تفسير الطبري» (٢١/ ١٤٧) و«تفسير ابن عطية» (٥/ ١٠١).

فلانًا. وكان عمر في إمارته متقشفًا، زاهدًا في ملذات الحياة، لا يزيد في طعامه عن فقراء المسلمين.

٤- وقال عمر ﷺ لجابر بن عبد الله ﷺ وقد رآه اشترى لحمًا: أو كلما اشتهى أحدكم شيئًا جعله في بطنه؟! أما تخشى أن تكون ممن قال الله فيهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾[1].

زاد في رواية: أما يجد أحدكم أن يطْوي بطنه لجاره وابن عمه، أين تذهب هذه الآية؟ وقرأها.

قلت: وهذه الآية نزلت في الكفار الذين لا يؤدون شكر النعمة بالإيمان والطاعة، أما المؤمن الذي يقوم بشكرها فيؤمن بالله ويمتثل أمره ويجتنب نهيه، فلا ينطبق عليه هذا المعنى، ولكن لَمَّا وبَّخ الله تعالى الكافرين على استفراغ الطاقة في التمتع بالطيبات، فقد آثر النبي ﷺ وأصحابه والصالحون بعدهم عدم الاستغراق في الملذات رجاء ثواب الآخرة، ومن **أدلة ذلك:**

١- ما جاء في الصحيحين: عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: دخلتُ على رسول الله ﷺ فإذا هو متكئ على رمال وحصير قد أثَّر في جنبه، فقلت: أستأنس يا رسول الله؟ قال: «**نعم**»، فجلستُ فرفعتُ رأسي في البيت، فوالله ما رأيتُ فيه شيئًا يَرُدُّ البصر إلا أُهبًا ثلاثة، فقلت: ادع الله أن يوسع على أمتك، فقد وسَّع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله، فاستوى جالسًا، ثم قال: «**أفي شك أنت يابن الخطاب، أولئك قوم قد عُجِّلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا**»، فقلت: استغفر لي يا رسول الله[2].

٢- وفي الصحيحين: عن عائشة ﷺ قالت: ما شبع آل محمد من خبز شعير يومين متتابعين، حتى قُبِض رسول الله ﷺ[3].

ولفظ أبي هريرة ﷺ: ما شبع آل محمد من طعام ثلاثة أيام حتى قُبِض[4].

---

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» (٤/ ٤٤) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٥٥) والبيهقي في «الشعب» (٥٦٧٢) وأحمد في «الزهد» ص ١٢٣ .

(٢) من حديث طويل في «صحيح مسلم» برقم (١٤٧٩) و«صحيح البخاري» برقم (٥١٩١).

(٣) هذا لفظ مسلم (٢٩٧٠) وأخرجه البخاري (٥٤٢٣، ٥٤٣٨، ٦٦٨٧).

(٤) «صحيح البخاري» برقم (٥٣٧٤) و«صحيح مسلم» برقم (٢٩٧٦).

٣- وفي الصحيحين عن عائشة ﵂ قالت: إنا كنا لننظر الهلال ثم الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين، ما يوقد في أبيات رسول الله نار، قال عُروة: قلت: يا خالة، فماذا كان طعامكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء[(١)].

٤- وفي البخاري: عن إبراهيم بن عبد الرحمن، أن عبد الرحمن بن عوف أُتي بطعام، وكان صائمًا، فقال: قُتل مصعب بن عمير -وهو خير مني- فكُفِّن في بُردة، إن غُطي رأسُه بدت رجلاه، وإن غُطي رجلاه بدا رأسُه، قال: وأراه قال: وقتل حمزة -وهو خير مني- فلم يوجد ما يكفَّن فيه إلا بردة، ثم بُسط لنا من الدنيا ما بُسط، وقد خشيتُ أن تكون عُجِّلت لنا طيباتنا في حياتنا الدنيا، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام[(٢)].

٥- وفي الصحيحين: أن خبَّابًا ﵁ قال: هاجرنا مع النبي ﷺ نلتمس وجه الله، فوقع أجرنا على الله، فمنا من مات لم يأكل من أجره شيئًا، منهم مصعب بن عمير، ومنا من أينعتْ له ثمرتُه، فهو يهديها، قُتل يومَ أحد فلم نجد ما نكفنه إلا بُردة، إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطينا رجليه خرج رأسه، فأمرنا النبي ﷺ أن نغطي رأسه، وأن نجعل على رجليه الإذخر[(٣)].

٦- وفي حديث أنس ﵁: أن النبي ﷺ قال: «**حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات**»[(٤)].

هَلَاكُ قَوْمِ عَادٍ مَثَلٌ يُضْرَبُ لِمَصَارِعِ الظَّالِمِينَ

٢١- ﴿۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّيَ[(٥)] أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾

وفي جانب الوحي والرسالة الذي تتحدث عنه السورة، تسوق مثلًا لمن أعرض عن إنذار الرسل الوارد في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ [٣] لتبيِّن أن محمدًا

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٧٢) و«صحيح البخاري» برقم (٢٥٦٧، ٦٤٥٩).

(٢) يُنظَر: البخاري (١٢٧٤، ١٢٧٥، ٤٠٤٥).

(٣) البخاري (١٢٧٦، ٣٨٩٧، ٣٩١٣، ٨٤٤٨) ومسلم (٩٤٠).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٢٢).

(٥) فتح ياء الإضافة ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر من (إنيَ أخاف)، والباقون بإسكانها.

ﷺ لم يكن بدعًا من الرسل، وتخص بالذكر قبيلة عاد؛ لأنهم أول الأمم العربية الذين جاءهم رسول بعد رسالة نوح العامة، وكانت رسالة هود، ورسالة صالح في جزيرة العرب قبل رسالة إبراهيم عليه السلام.

وأشارت السورة بشكل إجمالي إلى أمم أخرى من العرب كذَّبوا الرسل في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ [٢٧].

وقد كذَّب قوم عاد نبيهم هودًا، فعاقبهم الله على ذلك بعذاب الاستئصال، وجعلهم كأعجاز نخل خاوية، ولم يُبق منهم باقية، فحذَّر الله أمة محمد ﷺ أن يصنعوا مثل صنيعهم، فيصيبهم ما أصابهم.

وقد ذُكرت قصة عاد في سور كثيرة من القرآن، منها سور: الأعراف، وهود، والشعراء، والقمر، والحاقة.

وقد أرسل الله لهم نبيهم هودًا بن عبد الله بن رباح، كان أخًا لهم في النسب لا في الدين.

وكانت رسالته في الأحقاف، وهي جبال رملية على مرتفعات من الأرض في شمال حضرموت وغربي عُمان، ويسمى حاليًا بالربع الخالي، في جنوب الجزيرة العربية.

﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ أي: اذكر -أيها الرسول- لقومك بالثناء الجميل، قصة نبي الله هود عليه السلام مع قوم عاد ليعتبروا ويتعظوا، وذلك حين حذَّر قومه عذاب الله إن لم يؤمنوا، اذكره لأمتك ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ أي في منازلهم المعروفة بالأحقاف، فخوَّفهم عذاب الله إن لم يؤمنوا، وكانت مساكنهم بالأحقاف، ذات الرمال الكثيرة، مشرفة على البحر في جنوب الجزيرة العربية، وقد أخبرهم هود عليه السلام بأن الرسل الذين سبقوه مثل نوح عليه السلام، والرسل الذين يأتون من بعده، مثل صالح عليه السلام، كلهم قد بعثهم الله تعالى إلى أقوامهم لهدايتهم، وأمرهم بعبادة الله وحده ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾ أي: مضت الرسل قبله لإنذار أقوامهم وتخويفهم عذاب الله تعالى إن لم يؤمنوا، فكانوا ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي: جاؤوا من بعده ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ وهم الذين سبقوه، وكلهم أُرسلوا إلى أقوامهم لتحقيق التوحيد ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ وحده، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [فصلت: ١٤].

ولا تشركوا به شيئًا في عبادتكم، وقد حذَّرهم هود ﷺ من عبادة غير الله تعالى؛ لأنه يخاف عليهم عذاب يوم القيامة ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ۝٨٩﴾ [الشعراء].

قال هود ﷺ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ إن عبدتم غير الله تعالى ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ يشتد فيه العقاب، فأمرهم بعبادة الله، وخوّفهم عذاب الله، فلم تُفد فيهم تلك الدعوة:

الْحِوارُ بَيْنَ هُودٍ ﷺ وَقَوْمِ عَادٍ

٢٢- ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٢﴾

إن قوم عاد لم يستجيبوا لدعوة هود ﷺ، ولم يقابلوها بالإيمان والطاعة، بل قابلوها بالإعراض والاستخفاف والتمسك بما عليه آباؤهم ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا﴾ يا هود بدعوتك ﴿لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾ أي: لتصرفنا عن عبادة آلهتنا التي أَلِفْناها عن آبائنا، فإن كان الأمر كذلك ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ به من العذاب العظيم الذي وعدتنا به ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيما تقول، فإن لم تأتِ به فلست صادقًا في دعوتك، ولا فيما وعدتنا به، ومرادهم بذلك: العذاب الدنيوي؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث والنشور.

ولما طلب قوم عاد من نبيهم هودًا تعجيل نزول العذاب بهم، وكان هذا من باب التهكم والاستبعاد، أجابهم بما جاء في هذه الآية:

٢٣- ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم[1] مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ[2] أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ۝٢٣﴾

أي: إنما علم وقت نزول العذاب بكم عند الله وحده، لا يُطْلِع عليه أحدًا، فهو من الأمور الغيبية ﴿قَالَ﴾ هود ﷺ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ﴾ بوقت حلول العقاب ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ فهو الذي يعلم وقت مجيء العذاب بكم، وأنا لم أُبعث للإعلام بحلول وقت العذاب، ولكني بُعثت مبلِّغًا عن الله أمره ونهيه، والله سبحانه بيده مقاليد الأمور، وهو الذي يأتيكم بالعذاب إن شاء ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾ إليكم من ربي وربكم من الأوامر والنواهي، ورسالتي

---

(١) قرأ أبو عمرو بإسكان الباء من (أبْلغكم) وتخفيف اللام، مضارع أبلغ، والباقون بفتح الباء وتشديد اللام، مضارع بلَّغ.

(٢) قرأ نافع والبزي وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء (ولكنيَ أراكم)، والباقون بإسكانها.

محصورة في التبليغ والإنذار، ولم يخبرني ربي متى سيأتي هذا العذاب، وهذا أمر واضح غاية الوضوح، ينبغي أن يكون مفهومًا لديكم ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ في استعجالكم العذاب، وجُرْأتكم على الله تعالى، فتنكرون ما هو حق، وتصرُّون على الباطل، وتطالبونني بما لا أملك، وذلك لجهلكم حكمة الله في إرسال الرسل، وأنهم بُعثوا مبشرين ومنذرين، وليسوا وسائط في توصيل اقتراحات الخلق إلى الله تعالى، فلم يبق بعد هذا إلا أن يحل بهم عقاب الله:

عَذَابُ قَوْمِ عَادٍ يَلُوحُ فِي الأُفُقِ

٢٤- ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾

ومضت سنون عددًا على تكذيب قوم عاد لهود عليه السلام، فسأل ربه أن ينصره عليهم، فنزل بهم عقاب الله، وبدأ ذلك بأن أصابهم قحط شديد، وظلوا في حاجة ماسة إلى نزول الماء، يطلبون أن يُغاثوا به، فقال لهم هود: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ [هود: ٥٢].

وكان هود عليه السلام قد فارقهم إلى مكة، ومات بها، وقيل: إنه دُفن في الحِجْر، حول الكعبة.

ويقول أهل حضرموت: إن هودًا سكن بلاد حضرموت، بعد هلاك عاد، إلى أن مات ودفن في شرقي بلادهم، على نحو مرحلتين من مدينة تريم، قُرب وادي (برهوت) ولهود عليه السلام قبر في فلسطين لا تصح نسبته له[(١)].

وبينما هم ينتظرون نزول المطر رأوْا سحابًا أسود كالمطر، يعترض جوَّ السماء، فظنوا أنه الماء الذي طلبوه، وهو متجه نحو أوْديتهم ومساكنهم، وكان أغلب منازلهم ومقارُّ المياه في السهول ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ﴾ أي: لما رأوْا بأعينهم العذاب الذي استعجلوه ﴿عَارِضٗا﴾ في الأفق وهم يظنونه ماءً ﴿مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ﴾ أي: متجهًا نحوها حيث تخضر الأرض، وتشرب دوابهم، ويشربون هم من آبارها وغُدرانها، لَمَّا رأوا ذلك ﴿قَالُواْ﴾ وهم يجهلون أنه العذاب الذي استعجلوه، حالة كونهم فرحين مستبشرين: ﴿هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ﴾ أي: هذا

(١) ينظر: أطلس القرآن، د/ شوقي أبو خليل ص٣١.

سحاب عارض يحمل إلينا المطر الذي حُبس عنا لوقت طويل.

وهنا يأتي الرد من الله تعالى على لسان هود ﷺ بأن هذا ليس مطرًا، قال تعالى:

﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ من العذاب، يتمثل في ريح عاصفة تحمل الهلاك والدمار إليكم.

قيل: إن القائل هو بكر بن معاوية، من قوم عاد، قال: إني لأرى سحابًا مُرَمَّدًا لا تدع من عاد أحدًا[1] ولعله كان قد آمن بهود من قبل، فنجَّاه الله من العذاب.

ثم فُسِّر هذا العذاب وبُيِّن ماهيته، فهو ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إنها ريح عاصفة مدمرة، فيها عذاب فظيع مؤلم، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ [الحاقة].

وقال سبحانه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ۝١٦﴾ [فصلت].

وقال أيضًا: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝٤٢﴾ [الذاريات]. ثم وصف الله تعالى شدة هذه الريح وقُوَّتها في قوله:

٢٥- ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ[2] كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٢٥﴾

أي: إن هذه الريح لا تمرُّ بشيء يتعلق بالظالمين من نفس أو مال أو متاع إلا أهلكته بأمر ربها ومشيئته، حتى إن من ينظر إلى قوم عاد لا ير شيئًا من آثارهم سوى مساكنهم التي خلت من أهلها لتكون عبرة لغيرهم ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ أي: صارُوا هلْكى، قد تَلِفَتْ مواشيهم وأموالهم وأنفسهم، ولم تُبق منهم الريح إلا الآثار، والديار خاوية، كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ [الحاقة]

وبمثل جزاء قوم عاد يجزي الله المجرمين الظالمين لأنفسهم بالشرك وتكذيب الرسل ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ بسبب جرمهم وطغيانهم.

قيل: إنهم لما رأوا الريح دخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم، فجاءت الريح فقلعت

---

(١) جاء هذا في حديث الحارث البكري في «المسند» (٣/ ٤٨٢). وهو في المعجم الكبير للطبراني (٣/ ٢٥٤).

(٢) قرأ عاصم وحمزة ويعقوب وخلف (لا يُرَى إلا مساكنُهم)، والباقون (لا تَرى إلا مساكنَهم).

الأبواب وصرَعتْهم، وأمر الله الريح فأهالت عليهم الرمال، فكانوا تحت الرمل سبع ليال وثمانية أيام، وأدَّت الريح ما أمرت به فدمرت كل شيء[١].

وفي الصحيحين وغيرهما: عن عائشة ﵂ قالت: كان النبي ﷺ إذا رأى غيمًا أو ريحًا عُرف في وجهه، قالت: يا رسول الله، إن الناس إذا رأوُا الغيْم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته غيْمًا عُرف في وجهك الكراهة، فقال: **«يا عائشة، ما يؤمِّنني أن يكون فيه عذاب؟ عُذِّب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا»**[٢].

وفي رواية عن عائشة أيضًا أنها قالت: كان النبي ﷺ إذا رأى مخيلة في السماء أقبل وأدبر، ودخل وخرج، وتغيَّر وجهه، فإذا أَمْطرت السماء سُرِّي عنه، فعرَّفتْه عائشة ذلك، فقال: **«وما أدري لعله كما قال قوم هود: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا﴾»**.

وفي رواية ثالثة أنها قالت: كان النبي ﷺ إذا عصفت الريح قال: **«اللهم إني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أُرسلَتْ به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أُرسلَت به»**[٣].

وهكذا طُويت صفحة الظالمين من قوم عاد، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، وعلى هذه الأمة أن تعتبر بما حدث لغيرها فتتمسك بكتاب ربها وسنة نبيها؛ حتى لا يصيبها ما أصاب الظالمون.

ولقد نزل هذا العذاب بقوم عاد، لأنهم عبدوا الأصنام من دون الله، ولم يستجيبوا لدعوة نبيهم، ولم يشكروا الله تعالى على نعمه عليهم:

الْعِبْرَةُ مِنْ قِصَّةِ قَوْمِ عَادٍ

٢٦- ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾

(١) جاء هذا عن ابن عباس عند ابن أبي الدنيا في كتاب «السحاب» (١٣٤) وأبي الشيخ في «العظمة» (٨٣٨).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٨٢٩) و«صحيح مسلم» برقم (٨٩٩) و«المسند» (٢٤٣٦٩) وأبو داود (٥٠٩٨) والحاكم (٢/ ٤٥٦) والطبراني في «الأوسط» (٢١٧) والبغوي في «شرح السُّنَّة» (١١٥٠).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٨٩٩) والترمذي (٣٢٥٧، ٣٤٤٩) والنسائي في «السنن الكبرى» (١٨٣١، ١٨٣٢) وابن ماجه (٣٨٩١).

وعلى مشهد الخراب والدمار الذي لحق بقوم عاد، يلتفت السياق إلى هذه الأمة لتعلم أن الذي قدِر على إهلاك قوم عاد -على قوتهم وشدة بأسهم- قادر على مَنْ هُم دونهم في القوة والعدد، من كل من لم ينتفع بحواسه وقُواه العقلية والمادية فيما خُلقتْ له، فجحد توحيد الله تعالى، ولم يؤمن بخاتم النبيين ﷺ، وطغى في الأرض مستبدًّا بقوته وجبروته.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ﴾ أي: أعطينا قوم عاد من القوة والثراء والأجسام والحضارة، ما لم نعطكم أيها المكذبون بخاتم النبيين، وهذا معنى ﴿فِيمَآ إِن مَّكَّنَّكُمْ فِيهِ﴾ أيها المخاطبون بهذا القرآن من أمة الدعوة ممن لم يؤمن منهم بخاتم الرسل ﷺ.

والمعنى: ولقد يسرنا لقوم هود ﵇ وغيرهم من الأقوام السابقين عليكم، فأعطيناهم من القوة والسعة، وطول العمر، وأسباب التمكين في الدنيا، وجعلنا لهم من القدرة، وقوة البدن والبطش، وطول الأعمار، وكثرة الأموال، على نحو لم نمكنكم فيه أيها المكذبون المحاربون لله ورسوله، ومع أنهم أعظم تمكينًا منكم، فإن ما هم فيه من بطش وقوة ومالٍ وولد، لم تغن عنهم من الله شيًا.

ثم بيَّن سبحانه أنه أعطى قوم عاد الأسماع والأبصار والقلوب، ليستدلُّوا بها على توحيد الخالق سبحانه، ويستعملوها في المباحات، وفي طاعة الله تعالى وعبادته، ولكنهم صرفوها في طلب الدنيا وشهواتها، ولم ينتفعوا بها في شيء مما خُلقت له ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ ولم ينقصهم شيء من شأنه أن يُخل بإدراكهم للحق، لولا عنادهم واستعمالهم لحواسهم وعقولهم فيما يُسخط الله تعالى عليهم ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾ أي: فما نفعهم ﴿سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ لقد أناموا عقولهم، وغطوا عيونهم، وأصموا آذانهم، فصاروا أضل من الحيوان الأعجم فلم ينتفعوا بحواسهم ولا بأموالهم ولا بقوتهم حين نزل بهم العذاب، بل إن كل ما لديهم من قوة، وما أُوتوه من نعمة، ذهب أدراج الرياح، وصار هباء منثورًا.

وقد كان السبب فيما أصابهم من عذاب أنهم جحدوا آيات الله الدالة على توحيده سبحانه، وعلى صدق رسوله ﷺ واستهزائهم بما جاءهم به من الحق، وبما نزل بهم من عذاب كانوا يستعجلونه ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ فلم يؤمنوا بها، ولم يتوجهوا له بالعبادة ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: نزل بهم عذاب الله الذي كانوا يسخرون

منه ويستبطئون وقوعه، ويكذبون به.

قال الفخر الرازي: المعنى: أنا فتحنا عليهم أبواب النعم، أعطيناهم سمعًا فما استعملوه في سماع الدلائل، وأعطيناهم أبصارًا فما استعملوها في تأمل العبَر، وأعطيناهم أفئدة فما استعملوها في طلب معرفة الله، بل صرفوا كل هذه القوة إلى طلب الدنيا ولذاتها، فلا جرم أنها لم تُغنِ عنهم من عذاب الله شيئًا.

كما قال تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾ [الزخرف].

وقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت].

ودعا جلَّ شأنه إلى التأمل في مصيرهم، فقال:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [غافر].

وقد كانت لهم حضارة عريقة:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر].

العِبْرَةُ بِمَا نَزَلَ بِالأُمَمِ الأُخْرَى مِنْ عِقَابٍ

٢٧- ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾

وهلاك قوم عاد لم يكن الوحيد في الأمم المكذبة لرسل الله، بل أهلك الله أقوامًا آخرين مجاورين لهم يماثلون حالهم، وهؤلاء الأقوام يعرفونهم، ويسمعون عنهم، ويمرُّون بديارهم في أسفارهم، كقرى قوم ثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وأهل سبأ وقوم تُبَّع...، فقد أبادهم الله جميعًا، ولم يُبقِ منهم أحدًا.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم﴾ أيها المكذبون لرسول الله محمد ﷺ ﴿مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ المجاورة لكم والبعيدة عنكم، وكانت أخبارهم متواترة عندكم، فجعلناها خاوية على عروشها بعد أن نوَّعنا لهم الحجج والبراهين ليُقلعوا عن الشرك وتكذيب الرسل، وكان تنويع الآيات: تارة بالحجة والمجادلة النظرية، وتارة بالتهديد على الفعل، وأخرى بالوعيد، ومرة

بالتذكير بالنعم وشكرها ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ﴾ أي: بيَّنا لهم أنواع الحجج والدلائل بأساليب مختلفة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عما هم عليه من الكفر بالله وآياته والتكذيب بها، فأمهلناهم ووسَّعنا عليهم ليتَّعظوا ويتدبَّروا، ولكن العناد والجحود أعماهم عن طريق الحق، فلم يرجعوا عما هم فيه من ضلال وبغي، فدمرناهم تدميرًا، ولم يجدوا ما ينصرهم أو يدفع عنهم عذاب الله حين أحاط بهم من كل جانب: قال تعالى:

٢٨- ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾

إن الكافرين بالله، الجاحدين برسل الله، يزعمون أن لهم آلهة تدفع عنهم العذاب إذا حلَّ بهم، ومنهم من يزعم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله، ومنهم من يتقرَّب بالآلهة إلى الله تعالى، فيجعلون وُسطاء بينهم وبين الله تعالى، وعندما نزل عذاب الله تعالى بالأمم المكذبة لم يحصل لهم شيء من ذلك، فلم تمنعهم الآلهة من الهلاك، ولم تشفع لهم عند الله تعالى حتى يرفع العذاب عنهم.

﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ﴾ أي: فهلَّا نصر هؤلاء الذين أهلكناهم من الأمم الخالية، آلهتُهم التي اتخذوا عبادتها قربانًا يتقربون بها إلى ربهم لتشفع لهم عنده، هلَّا منعتْهم من العذاب، كما قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

وقالوا أيضًا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

ليس هذا فحسب بل إن آلهتهم غابت عنهم، ولم تحضُر معهم وقت المحنة، وتركتهم وحدهم في ساحة العرض والحساب ﴿بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ﴾ فلم يجيبوهم ولم يدفعوا عنهم العذاب ﴿وَذَٰلِكَ﴾ الضلال والعذاب والضياع الذي حلَّ بهم سببه ﴿إِفْكُهُمْ﴾ أي: كذبهم في زعمهم أن لهم وسطاء بينهم وبين الله تعالى يرفعون أعمالهم إلى الله تعالى ويشفعون لهم عنده ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ في اتخاذهم آلهة لهم، ويزعمون أنهم على حق، وفي هذا تهكم بهم حيث لم ينفعوهم وقت الضيق كما زعموا.

قِصَّةُ إِيمَانِ الْجِنِّ وَقِيَامِهِمْ بِوَاجِبِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى

٢٩- ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

أرسل الله محمدا ﷺ إلى الإنس والجن، وكان لابد من إبلاغ الجميع دعوة النبوة والرسالة، فدعا النبي ﷺ الإنس، ثم أرسل الله إليه بقدرته جماعة من الجن، ليستمعوا إلى الدعوة، ويوصى بعضهم بعضًا بذلك.

وكانت الجن قبل مبعث النبي ﷺ تسترق السمع من السماء، فيسمعون الكلمة ويزيدون عليها عشرًا، فلما بُعث محمد ﷺ حُرست السماء بالشهب الراجمة، وكانت النجوم لا يُرمى بها قبل ذلك، فكان أحدهم لا يأتي مقعده للسمع بعد بعثة النبي ﷺ إلا رُمي بشهاب يحرقه، فضاقت الجن ذرعًا بذلك، فاجتمعوا إلى رئيسهم، فأمرهم أن يتفرقوا في أقطار الأرض ليبحثوا عن سبب منع استراق السمع، فوصل بعضهم إلى بطن نخلة عند سوق عكاظ، فوجدوا النبي ﷺ يصلي فاستمعوا إلى القرآن، ثم رجعوا إلى قومهم منذرين، ولم يعرف النبي ﷺ عنهم شيئًا حتى عرَّفه الله بذلك.

ثم وَفدوا على النبي ﷺ مرات بعد ذلك، وبعد أن أعلمه الله تعالى بهم قبل وفادتهم، جاءه وفد من جن نينوى بالموصل، بالعراق، ووفد من جن نصيبين قيل: إنهم كانوا سبعة، واستعد للقائهم:

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: إن رسول الله ﷺ قال: «**إني خارج إلى وفد الجن، فمن شاء يتْبعني**» فسكت أصحابه، فقال ثانية، فسكتوا، فقال ابن مسعود: أنا أتبعك، قال: فخرجتُ معه حتى جاء شِعْب الحجون، فأدار لي دائرة، وقال: «**لا تخرج منها**» -أي: حدَّد له مكانًا لا يتجاوزه- قال: ثم ذهب عني، فسمعتُ لغَطًا ودويًا كدَوِيِّ النُّسور الكاسرة، ثم في آخر الليل جاء رسول الله ﷺ بعد أن قرأ عليهم القرآن وعلَّمهم، وأعطاهم زادًا في كل عظم وروْثة، فقال: «**يا عبد الله، ما رأيت**»؟ فأخبرته، فقال: «**لقد كنتُ أخشى أن تخرج فيتخطفك بعضهم**» قلت: يا رسول الله، إني سمعت لهم لغَطًا، فقال: «**إنهم تدارؤُوا في قتيل لهم، فحكمتُ بالحق**»[1].

هذا: ولما أشارت سورة الأحقاف إلى الجن في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ

(١) يُنظَر: «تفسير ابن عطية» (٥/ ١٠٥) و«تفسير الطبري» (٢٦/ ٢٠) وانظر: «المسند» عن ابن عباس عن سعيد بن جبير (١/ ٢٥٢) والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٢٥).

ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [١٨].

وكان من أغراض السورة ترسيخ الإيمان بنبوَّة محمد ﷺ فقد بيَّنت السورة أن الله تعالى سخَّر لرسوله الجن ليؤمنوا به وبما نزل عليه من عند الله.

وفي هذا تقرير أن النبي ﷺ قد أرسله الله إلى الثقلين، بل إن رسالته كانت ولا تزال رحمة للعالمين، بما هو أعم من الجن والإنس، وهذا لم يحصل لأحد من رسل الله غيره.

كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان].

وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء].

وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يذكِّر الجاحدين برسالته بإيمان الجن به؛ كي ينتفع بذلك من يهتدي، وتبلُغ الحجة للذين لا يهتدون.

وهذا يدل على أن الجن يدركون الأمور العقلية الاعتقادية، وأنهم قد آمنوا بالله ورسوله، وآمنوا بالقرآن، وبلَّغوا قومهم بما سمعوه من القرآن، وهم مؤاخَذُون إذا لم يعملوا بدعوة الإسلام:

كما قال تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]

وقال سبحانه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص].

والجن خلْق من خلق الله، مخلوق من نار، وموجودون قبل الإنس:

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الحجر].

وهم يروُن الناس والناس لا تراهم:

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وهم قبائل وأجناس، ولهم قدرة على الحياة في هذه الأرض:

كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأعراف: ٢٤].

ولهم قدرة على اختراق الفضاء، كما قال تعالى على لسانهم:

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨﴾ [الجن].

وفيهم المسلم والكافر والمنافق، كما جاء في قوله تعالى عنهم:

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ [الجن: ١٤].

ومنهم الصالحون والطالحون، والأقوياء والضعفاء، والبُلْه والمغفلون:

وفي هذا يقول تعالى عنهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١﴾ [الجن].

عدد لقاءات النبي ﷺ بالجن:

ويفيد مجموع الروايات أن النبيَّ ﷺ قد التقى بالجن عدة مرات، منها:

التقاؤه بأشرافهم مرتين في نصيبين[(١)] وفي الحجون بمكة[(٢)] ومن جهة جبل حراء[(٣)] وفي بطن نخلة كما في هذه الآية.

وأن هذه الآيات من سورة الأحقاف تحكي لقاءً معينًا، وسورة الجن تحكي لقاء آخر.

وذكر بعضهم أن لقاء النبي ﷺ بهم كان ست مرات[(٤)].

وعدد الجن الذين التقى بهم النبي ﷺ يختلف من مرة لأخرى، وعبّر القرآن عنهم هنا وفي سورة الجن بأنهم ﴿نَفَرٌ﴾ **والنفر**: ما بين الثلاثة والعشرة، وجاء في بعض الروايات أنهم كانوا سبعة، وقيل: تسعة، وقيل: خمسة عشر، وقيل: ثلاث مئة، وقيل: اثني عشر ألفًا.

وكان بَعْث الجن للنبي ﷺ في وقت لقي فيه الصدَّ والإعراض من أهل مكة وأهل الطائف في عام الحزن، قبل الهجرة بعام وبضعة أشهر، كما كان أيضًا بعد معجزة الإسراء والمعراج.

---

(١) جاء ذلك عن ابن عباس في الطبراني «الكبير» (٦).

(٢) جاء ذلك في الطبري (٢١/ ١٦٩) وأبي الشيخ (١١٦) وعند أحمد بسند ضعيف لانقطاعه (٧/ ٦٦) (٣٩٥٤)، وأخرجه أبو يعلى (٥٠٦٢) وأبو الشيخ في العظمة (١١٢١) وانظر حديث ابن مسعود في المسند أيضًا (٤١٤٩) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات، كما في صحيح مسلم (٤٥٠) والترمذي (٣٢٥٨) وغيرهم.

(٣) كما في حديث علقمة المذكور في شرح الآية.

(٤) «تفسير الألوسي» (٢٦/ ٣٠).

وكأن الله تعالى يقول لرسوله ﷺ: إن لم تتسع لك الأرض فإن مكانك فوق السماء، وإن لم يؤمن بك الإنس فقد أرسلتُ لك عالَمًا آخر ليؤمنوا بك وبما جئت به من عند الله، وكانت خديجة وأبو طالب يمنعان النبي ﷺ وينصرانه من أذى قومه له، فلما ماتا اشتد أذاهم له.

فخرج إلى الطائف يلتمس من ثقيف الدخول في الإسلام، وأن يكونوا له سندًا وعونًا، ولما وصل إلى الطائف دعا سادة ثَقيف وأشرافهم إلى الله تعالى، ونصرته في الدعوة إليه، فقال أحدهم: أمَا وجد الله أحدًا يُرسله غيرك؟ وقال آخر: لا أكلمك أبدًا، فإن كنت رسولًا فأنت أعظم خطرًا من أن أرد عليك الكلام، وإن كنت تكذب على الله فما ينبغي لي أن أكلمك.

فقام رسول الله ﷺ لَمَّا لم يجد منهم إجابة، فأرسلوا في أثره سفهاءهم وعبيدهم وجعلوا يسبُّونه ويصيحون به، فجلس إلى جوار حائط عُتبة وشيبة بني ربيعة، في ظل شجرة عنب، وأخذ يضْرع إلى ربه بهذا الدعاء: **«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى مَن تكلني؟ إلى بعيد يتجهَّمُني، أم إلى عدوٍّ ملَّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، ولكنَّ عافيتَك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلُح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تُنزِل بي غضبك، أو يحلَّ عليَّ سخطك، لك العُتْبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»**[(١)].

فلما رأى ابنا ربيعة ما لقي النبي ﷺ من الأذى، تحركت فيهما عاطفة صلة الرحم، فدعَوَا غُلامًا لهما، يقال له عَدَّاس، وقالا له: خذ قُطْفًا من هذا العنب وضَعْه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى هذا الرجل، وقل له يأكل، فلما وضعه بين يدي النبي ﷺ رفع النبي يده، وقال: **«بسم الله»** ثم أكل، فنظر عَدَّاس إلى وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة، فقال له رسول الله ﷺ: **«من أيِّ البلاد أنت يا عدَّاس؟ وما دينك؟»** فقال: أنا نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى، فقال ﷺ: **«أمن قرية الرجل**

---

(١) ضعفه الألباني عن عبدالله بن جعفر عند الطبراني في ضعيف الجامع الصغير برقم (١١٨٢).

الصالح: يونس بن متَّى؟» فقال له عدَّاس: وما أدراك ما يونس بن متَّى؟ قال ﷺ: **«ذاك أخي، كان نبيًّا، وأنا نبي»** فأكبَّ عدَّاس على النبي ﷺ يقبِّل رأسه ويديه وقدميه، ولما رجع عدَّاس إلى ابني ربيعة، وسألاه: لماذا تقبِّل يديه ورجليه؟ قال: يا سيدي، ما في الأرض خير من هذا الرجل، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي، فقالا له: ويحك يا عدَّاس، لا يصرفك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.

ثم إن رسول الله ﷺ انصرف راجعًا إلى مكة.

ولما كان في بطن نخلة -بين مكة والطائف- قام ﷺ من جوف الليل يصلي، وقيل: في صلاة الفجر، فمرَّ به نفر من جنِّ نصيبين(١).

وجاء عن الزبير ﷺ: أن النبيَّ ﷺ كان يصلي بنخلة العشاء الآخرة، وأن الجن كادوا يكونون عليه لبدًا(٢). **ومما ورد في هذا:**

١- ما جاء في حديث ابن عباس ﷺ قال: انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عائدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأُرسلَتْ عليهم الشُّهُب، فرُجمت الشياطين، فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأُرسلتْ علينا الشُّهُب، قالوا: ما ذاك إلا من شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الأمر، فمرَّ النفر الذين توجَّهوا نحو تِهامة بالنبي ﷺ وهو بنخلة وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن تسمَّعوا له، فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك رجعُوا إلى قومهم، فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١، ٢] فأنزل الله على نبيه: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾(٣) [الجن: ١] الآيات.

٢- وفي حديث علقمة قال: قلت لابن مسعود ﷺ: هل صحب النبي ﷺ ليلة الجن

---

(١) يُنظَر: «تفسير الخازن» (٤/ ١٣١) و«السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤١٩) و«الرحيق المختوم» ص ١٢٥ .

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٤٥) (١٤٣٥) قال محققو «المسند»: حسن لغيره، وهذا إسناد رجاله ثقات إلا أنه منقطع بين عكرمة والزبير.

(٣) يُنظَر: «صحيح البخاري» برقم (٧٧٣، ٤٩٢١) و«صحيح مسلم» برقم (٤٤٩) و«المسند» (١/ ٢٥٢) و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٢٢٥).

منكم أحد؟ قال: ما صحبه منا أحد، ولكن افتقدناه ذات ليلة وهو بمكة، فقلنا: اغتيل، أو استُطير -أي: ذهب بسرعة، كأن الطير حملته- ما فُعل به؟ فبتْنا بشرٍّ ليلة بات بها قوم، حتى إذا أصبحنا، أو كان في وجه الصبح، إذا نحن به يجيء من قبَل حراء، قال: فأخبَرناه، فقال: أتاني داعي الجن، فأتيتُهم فقرأتُ عليهم القرآن، فانطلق بنا، فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم.

وقال الشَّعبي: وسألوه الزاد، قال عامر: سألوه بمكة، وكانوا من جن الجزيرة، فقال: **«كل عظم يُذكر اسم الله عليه، يقع في أيديهم أوْفر ما كان لحمًا، وكل بعْرة، أو رَوْثة علَف لدوابكم»**، فقال ﷺ: **«فلا تستنْجُوا بهما، فإنهما زاد إخوانكم الجن»**[1].

٣- وعن أبي ثعلبة الخُشني ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«الجن ثلاثة أصناف: صنف لهم أجنحة يطيرون في الهواء، وصنف حيَّات وكلاب، وصنف يَحِلُّون ويظْعنُون»**[2].

٤- وعن ابن عباس ﷺ قال: كان الجن يستمعون الوحي، فيسمعون الكلمة فيزيدون فيها عَشْرًا، فيكون ما سمعوا حقًّا، وما زادوا باطلًا، وكانت النجوم لا يُرمى بها قبل ذلك، فلما بُعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتي مقعده إلا رُمي بشهاب يَحْرِق ما أصاب، فشكوا ذلك إلى إبليس فقال: ما هذا إلا مِنْ أمْرٍ قد حدث، فبث جنوده، فإذا بالنبي ﷺ يصلي بين جبليْ نخلة، فأتوه فأخبروه، فقال: هذا الحدث الذي حدث في الأرض[3].

٥- وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة، فلما سمعوه قالوا: أنصتوا، قالوا: صه، وكانوا تسعة، أحدهم اسمه زَوْبَعَةُ، فأنزل

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٤٥٠) قال الترمذي: حديث حسن صحيح، برقم (٣٢٥٨) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٥٩٦) و«المسند» (١/ ٤٣٦) برقم (٤١٤٨) وإسناده صحيح على شرط مسلم، ورجاله ثقات، وأخرجه ابن خزيمة (٨٢) وابن حبان (٦٣٢٠) وغيرهم.

(٢) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، «المستدرك» (٢/ ٤٥٦) ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣١٠٩) وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٥٧٣) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٢٧) والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (١/ ٢٠٦).

(٣) «سنن الترمذي» برقم (٣٣٢٣) و«السنن الكبرى» للنسائي برقم (١١٦٤). ومسند أحمد (٢٤٨٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) والطبراني (١٢٤٣١) وأبو يعلى (٢٥٠٢).

الله ﷻ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[(١)].

٦- وفي حديث عبد الله بن مسعود أيضًا أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه وهو بمكة: «**من أحب منكم أن يحضر أمر الجن الليلة فليفعل**» فلم يحضر منهم أحد غيري، قال: فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة خط لي برجْله خَطًّا، ثم أمرني أن أجلس فيه، ثم انطلَق حتى قام، فافتتح القرآن، فغشيتْه أُسُودة كثيرة حالت بيني وبينه، حتى ما أسمع صوته، ثم طفقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين، حتى بقي منهم رهط، ففزع رسول الله ﷺ مع الفجر، فانطلق فتبرَّز، ثم أتاني فقال: «**ما فعل الرهط؟**» فقلت: هم أولئك يا رسول الله، فأعطاهم عَظْمًا وروْثًا زادًا، ثم نهى أن يستطيب بروْث أو عظم»[(٢)].

٧- وعن البراء ﷺ قال: بينما عمر بن الخطاب ﷺ يخطب الناس على منبر رسول الله ﷺ إذ قال: أيها الناس، أفيكم سواد بن قارب؟ فلم يجبه أحد تلك السنة، فلما كانت السنة المقبلة قال: أيها الناس، أفيكم سواد بن قارب؟ قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، وما سواد بن قارب؟ قال: فقال له عمر: إن سواد بن قارب كان بدء إسلامه شيئًا عجبًا، قال: فبينا نحن كذلك إذ طلع سواد بن قارب، قال: فقال له عمر: يا سواد، حدثنا ببدء إسلامك كيف كان؟ قال سواد: فإني كنت نازلًا بالهند، وكان لي رَئِيٌّ من الجن، قال: فبينا أنا ذات ليلة نائم، إذ جاءني في منامي ذلك، قال: قم فافهم واعقل إن كنت تعقل، وقد بُعث رسول من لؤي بن غالب، قال: أنبهني فأفزعني وقال: يا سواد بن قارب، إن الله بعث نبيًّا فانهض إليه تهتد وترشُد، ثم أتاه الليلة الثانية والثالثة، وقال له مثل ذلك - وفي كل مرة ينشد شعرًا يشيد فيه بالنبي ﷺ- قال سواد: فلما سمعتُه تكرَّر ليلة بعد ليلة، وقع في قلبي حب الإسلام ومِنْ أَمْرِ رسول الله ﷺ ما شاء الله، قال: فانطلقتُ إلى رحلي فشددتُه على راحلتي، فما حللتُ نسعة ولا عقدت أخرى حتى أتيت رسول الله ﷺ فإذا هو بالمدينة -يعني: مكة- والناس عليه كعُرف الفرس، فلما رآني النبي ﷺ قال:

---

(١) قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، «المستدرك» (٢/ ٤٥٦) وابن أبي شيبة كما في «تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٩٠) وأبو نعيم (٣٥٣) والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٢٨) و«الإصابة» (٢/ ٥٨١) وقال الحافظ: إسناده جيد.

(٢) «تفسير الطبري» (٢٦/ ٢١) و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٣٣٠) وصححه الحاكم من طريق عبد الله بن صالح في «المستدرك» (٢/ ٥٠٣).

«مرحبًا بك يا سواد بن قارب، قد علمنا ما جاء بك» قال: قلت: يا رسول الله قد قلتُ شعرًا فاسمعه مني -وأنشَدَ أبياتًا- قال: فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه، وقال لي: **«أفلحتَ يا سواد»** فقال له عمر: هل يأتيك رئيك الآن؟ فقال: منذ قرأت القرآن لم يأتني، ونعم العوض كتاب الله من الجن[١].

٨- وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قرأ رسول الله ﷺ سورة الرحمن حتى ختمها، ثم قال: **«ما لي أراكم سكوتًا، لَلْجنُّ كانوا أحسن منكم ردًّا، ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة** ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ إلا قالوا: ولا بشيء من آلائك -أو نعمك- ربنا نكذب، فلك الحمد»[٢].

وتشير الأحاديث إلى أن النبيَّ ﷺ لم يشعر بالجن وهم يستمعون إليه في أول مرة، كما قال ابن عباس ﷺ: ما قرأ رسول الله على الجن - أي ما قصد ذلك - ولا رآهم، وإنما أوحي إليه قولُ الجن، حيث كان النبي ﷺ يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمع الجن القرآن استمعوا له ورجعوا إلى قومهم منذرين، بعد أن عرفوا السبب الذي حال بينهم وبين خبر السماء[٣].

ثم وفد الجن إلى رسول الله ﷺ بعد ذلك يدعونه، فأتاهم، فقرأ عليهم واستمعوا إليه، ورجع إلى أصحابه صباحًا من قِبَلِ حراء بعد أن افتقدوه، كما في رواية ابن مسعود[٤].

ومعنى الآية: واذكر -أيها الرسول- لقومك وقت أن بعثْنا إليك طائفة من الجن يستمعون منك إلى القرآن ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: وجَّهنا إليك أيها النبي ﴿نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾ أي: لما حضر الجن عند تلاوتك للقرآن، قال بعضهم

---

(١) «دلائل النبوة» للبيهقي (١/٢٤٨، ٢٥٢) والحديث بتمامه في «تفسير ابن كثير» (٧/٢٩٨). وفي المستدرك (٦٥٥٨)

(٢) «دلائل النبوة» للبيهقي (١/ ٢٣٢) و«سنن الترمذي» برقم (٣٢٩١). والمستدرك (٣٧٦٦) وقال الترمذي: غريب ورواه ابن عدي في الكامل (٣/ ٢١٩) بسند ضعيف.

(٣) ينظر: «المسند» (١/ ٢٥٢) بطوله برقم (٢٢٧١) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، و«سنن النسائي الكبرى» (١١٥٦١). وأخرجه البخاري مطولا (٧٧٣) ومسلم (٤٤٩) وغيرهم.

(٤) مسلم (٤٥٠) و«المسند» (١/ ٤٣٦) ورقم: (٤١٤٩) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات (محققوه) وأبو داود (٨٥) والترمذي (٣٢٥٨) و«سنن النسائي الكبرى» (١١٥٥٩). وانظر الحديث رقم ٢ فيما سبق.

لبعض: استمعوا وأنصتوا إلى هذا القرآن.

والجن بمقدار ما ينطلقون في اللغو، بمقدار ما يقفون خُرْسًا أمام الحق الذي خُلقت به السموات والأرض، خلافًا لأبناء آدم الذين قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] أما الجن فقد وعَوْا ما سمعوه، ثم رجعوا إلى قومهم منذرين ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ أي: فلما فرغ الرسول ﷺ من قراءة القرآن كانوا قد آمنوا به، وبعد أن وَعَوْه وأثَّر فيهم رجعوا إلى قومهم مخوِّفين ومحذِّرين لهم بأس الله إن لم يؤمنوا، ومبشرين لهم بحسن العاقبة إن آمنوا.

والآية تفيد أن في الجن نُذُرًا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وليس فيهم رسل، فالرسل لا يكونون إلا من الإنس، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم﴾ [يوسف: ١٠٩].

فرسل الله تعالى إلى عامة البشر هم رجال من بني آدم، يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، وليسوا نساء، ولا ملائكة، ولا جنًّا، أما قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] فالمراد به: رسل من مجموع الجنسين، يَصْدُق على أحدهما دون الآخر، ويفسر ذلك الآيات الأخرى.

عَوْدَةُ الْجِنِّ إِلَى بَنِي جِنْسِهِمْ يَبْلُغُونَهُمْ دَعْوَةَ اللَّهِ تَعَالَى

٣٠- ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾

أي: قال الجن - الذين استمعوا إلى القرآن - لقومهم بعد أن وصلوا إليهم: يا قومنا، إنا سمعنا كتابًا عظيم الشأن، جليل القدر، أُنزل من بعد موسى على نبي الله محمد، ولم يقولوا أُنزل من بعد عيسى؛ لأن التوراة هي آخر كتاب من كتب الشرائع قبل القرآن، وما جاء بعدها في الإنجيل والزبور، كان وصايا ورقائق ملحقة بالتوراة ومخفِّفة لبعض أحكامها، وجاء القرآن كتابًا مستقلًا حوى التوراة والإنجيل، وأنشأ شريعة مهيمنة على ما سبقها من الوحي، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] فهذا الكتاب أنزله الله ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾

أي: يُصدِّق الكتب التي نزلت على رسل الله قبله، ومن شأن هذا القرآن أنه ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: يرشد إلى الطريق القويم، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] مع اشتماله على الدعوة إلى التوحيد، وتصديق الأنبياء له، والإيمان بالمعاد والحشر، وهو دين الإسلام الذي يهدي إلى الجنة.

ويمضي الجن في دعوتهم لقومهم، فيقولون:

٣١- ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾

قال الجن لقومهم: يا قومنا، أجيبوا محمدًا ﷺ، فإنه يدعوكم إلى ربكم، ولا يدعوكم إلى غرض من أغراض الدنيا، وآمنوا بالقرآن الذي جاءكم به من عند الله، فإنكم إن فعلْتم ذلك غفر الله لكم ذنوبكم، وأزال عنكم كل مكروه، وأنقذكم من عذاب مؤلم موجع ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: أطيعوا -أيها القوم- ما طُلب منكم أن تعملوه من الإيمان بالله ورسوله، واليوم الآخر؛ ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ومذهب أهل السلف أن مؤمني أهل الجن يدخلون الجنة كمؤمني الإنس، وأن كافرهم يُجازَى بعذاب النار كالإنس، فقد امتنَّ الله تبارك وتعالى على الثقلين بأن جعل مُحْسِنَهم يدخل الجنة، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾ [الرحمن].

فالخطاب موجَّه إلى الإنس والجن معًا، والآية التي معنا تشير إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وفي النجاة من النار فوز عظيم بنعيم الجنة، كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وتكفير الذنوب والإجارة من عذاب النار يستلزم دخول الجنة؛ لأنه ليس في الآخرة إلا جنة أو نار، وقد لا يرى الإنس الجن في دار الجزاء كما هو الحال في الدنيا[1].

ويرى أبو حنيفة أن الجن ليس لهم ثواب في الآخرة، إلا أن يُجارُوا من النار، ثم يقال

---

(١) يُنظَر: «تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٠٣).

لهم: كونوا ترابًا مثل البهائم.

وقال مالك والشافعي وابن أبي ليلى والضحاك: كما يُجازوْن على الإساءة يُجازوْن عن الإحسان، فيدخلون الجنة[١].

والآية تقرر ما قاله الجن، وأنهم فهموا دعوة القرآن لهم، فآمنوا به وعملوا بما فيه، وبلّغوه لقومهم.

واستمر الجن في دعوتهم لبني جنسهم يبينون لهم مغبة عدم الإيمان بخاتم النبيين، حيث قالوا:

٣٢- ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ[٢] فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

هذه الآية يحتمل أن تكون من كلام الله تعالى لمحمد ﷺ لإبلاغ الكافرين به، ويحتمل أن تكون من كلام الجن المنذرين قومهم، وذلك أنه بعد أن رغّب الجن قومهم في التصديق بالله ورسوله، والعمل بما في كتابه، رهّبوهم من الإصرار على الكفر وعدم الإيمان بخاتم الرسل ﷺ حيث قالوا لقومهم: إنكم إن أجبتم داعي الله غفر لكم ذنوبكم التي وقعت منكم قبل الإسلام، وأبعدكم الله عن عذابه، أما إن أعرضتم عن داعي الله، فإنه لن يستطيع أحد منكم أن يَفْلِت من عذاب الله أو يهرب من عقابه؛ لأن الله تعالى لا يُعجزه شيء ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ وهو القرآن الذي جاء به محمد ﷺ، فإنه لن يستطيع الإفلات من عذاب الله، وهذا معنى ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾. فإن الله تعالى على كل شيء قدير، لا يفوته، هارب، ولا يغالبه مغالب.

وبالإضافة إلى ذلك فإنه لا يوجد لمن أعرض عن دعوة رسول الإسلام، من يدفع عنه عذاب الله أو يحميه من عقابه ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ أي: ليس لهذا المعرض غير الله

---

(١) يُنظَر: «تفسير ابن عاشور» (٢٦/ ٦٢).

(٢) سهَّل الهمزة الأولى كالواو من (أولياء أولئك) قالون والبزي مع المد والقصر، وأسقطها أبو عمرو، وقنبل، وسهَّل الهمزة الثانية كالواو، ورش وقنبل من طريق ابن مجاهد، وأبو جعفر ورويس من طريق أبي الطيب، وللأزرق وقنبل وجه آخر، هو إبدالها واوًا مع القصر فقط، لتحرك ما بعدها، وقرأ الباقون بتحقيق الهمزتين. فعُلم من هذا أن لقنبل ثلاثة أوجه هي: ١- إسقاط الأولى والنطق بالثانية محققة.
٢- تسهيل الثانية كالواو. ٣- إبدال الهمزة الثانية واوًا مع عدم المد.

تعالى ولي ولا نصير، وهو في ضلال بيِّن واضح لا يخفى على أحد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾. وأي ضلال أبلغ من ضلال من دَعَتْه الرسل، وبلغتْه النذر، فأعرض واستكبر.

وفي الآيات توبيخ لمن أصر على عدم الدخول في الإسلام من هذه الأمة.

وقد دلت هذه الآيات على أن الجن حكمهم كحكم الإنس في الثواب والعقاب، وفي وجوب العمل بالأوامر واجتناب النواهي، وأنهم يُثابون على الطاعات ويُعذَّبون على المعاصي، كما قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٧﴾ [الرحمن].

قَضِيَّةُ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ

٣٣- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ[1] بِقَٰدِرٍ[2] عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ۝٣٣﴾

والحديث عن البعث عنصر من عناصر السور المكية، والله تعالى يقيم الحجة على منكري البعث بأنه سبحانه قد خلق ما هو أعظم وأقوى من الإنسان ولم يتعبه ذلك، وأهون منه إعادة الناس بعد موتهم ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ أي: أغَفل منكرو البعث، المستبعدون قيام الإجساد يوم المعاد؟ وبلغ بهم العمى والجهل فلم يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ بقوله: كن، وخلْقهما أعظم وأكبر من خلق الناس، كما قال تعالى:

﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]

وفي هذا احتجاج على من قال: إن الأجساد لا يمكن أن تُبعث ولا أن تعاد، مع اعترافهم بأن الله تعالى خالق السموات والأرض، فأقيمت عليهم الحجة من قولهم.

وقد أبدع الله خلقهما على غير مثال سابق، فرفع السماء بلا عمد، وبسط الأرض وذلَّلها للناس، ولم يَعْجَز سبحانه عن اختراعهما وتكوينهما، وهذا معنى ﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ أي: لم يتعب ولم ينصَب، ولم يتحيَّر، ولم يعجز، فكيف يعجزه إعادتكم بعد موتكم؟ أليس ذلك الله الذي خلق العالم العلوي والعالم السفلي ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰۚ﴾؟ فالذي أوجدهم من

---

(١) وقف يعقوب بهاء السكت على (بخلقهن)، والباقون بدونها، والوقف يكون بالغنة مع سكون النون المشددة.

(٢) قرأ يعقوب (يَقْدِرُ) مضارع قدر، وقرأ الباقون (بقادر) اسم فاعل.

العدم قادر على أن يعيدهم إلى الحياة بعد موتهم، والكل هيِّن على الله تعالى.

وجواب النفي ﴿بَلَىٰٓ﴾ فإن ذلك أمر يسير على الله تعالى الذي لا يُعجزه شيء ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء، ومن قدرته تعالى إحياء الناس بعد موتهم، وكما خلقهم يعيدهم مرة أخرى.

وهذه الآية تربط أول السورة بآخرها، ففي أولها: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [٣] وفيها عود على الذي قال لوالديه: ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ [١٧].

مِنْ مَشَاهِدِ الْقِيَامَةِ

٣٤- ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

يذكِّر الله سبحانه الناس بمشهد من مشاهد يوم الحشر والنشر، حين يُعرض الكفار عرضًا مباشرًا على النار، فيدخُلونها ويصْلَوْن سعيرها، ويقال لهم: أليس هذا العذاب حقًّا وقد كنتم تكذبون به في الدنيا؟ وذلك ليعتبر الناس ويتعظوا، فيثوبوا إلى رشدهم، ويتوبوا إلى ربهم قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ فيُلْقَوْن فيها بعد رؤيتها، جزاء جحودهم بوحدانية الله تعالى، وتكذيبهم لخاتم المرسلين، وإنكارهم للبعث والحساب، فيقال لهم تقريعًا وتوبيخًا: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: هذا هو العذاب الذي وعدكم به الرسل، كما قال تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الطور] فيعترفون على أنفسهم بالكفر، بعدما كانوا في الدنيا منكرين، فيكون جوابهم: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ إنه لَحقٌّ، وإنكارنا له في الدنيا كان جهلًا وغفلة وغرورًا، فيجيبهم ربهم: ﴿قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفركم في الدنيا وخروجكم عن أمر الله تعالى وطاعته، لقد اعترفوا بأن البعث حق، وأن الحساب والجزاء حق، ولكنه إقرار في وقت لا ينفع فيه الاعتراف، ولا ينفع فيه الندم.

لَا بُدَّ لِنَشْرِ الدَّعْوَةِ مِنَ الْعَزْمِ وَالصَّبْرِ

٣٥- ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

وفي ختام السورة يأمر الله تعالى رسوله ﷺ بالصبر على أذى قومه الذين جحدوا رسالته، وأنكروا البعث والحساب والجزاء، وطعنوا في القرآن، وأمره أن يتأسى بالأنبياء قبله، ويستمر في دعوة الناس إلى دين ربه، وضرب الله له المثل بأولي العزم من الرسل الذين صبروا على أذى أقوامهم، قائلًا: ﴿فَاصْبِرْ﴾ أيها الرسول على ما أصابك من أذى قومك المكذبين لك وتأسى في صبرك بأولي العزم من الرسل الذين كابدوا أقوامهم وصبروا على أذاهم، وهذا معنى ﴿كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أي: كما صبر إخوانك -أيها الرسول- وهم أصحاب الجد والثبات، والصبر على الشدائد والبلاء، وهم أولو الحزم والعزم، وكمال الرأي والعقل، فإذا علمتَ ما كان من الأمم السابقة، وعلمتَ كيف انتقمنا منهم وانتصرنا لرسلنا، فاصبر كما صبروا، وقد امتثل النبي ﷺ أمر ربه، فصبر وصابر وجاهد في الله حق جهاده حتى مكن الله له في الأرض، وأظهر دينه على سائر الأديان.

والعزم المحمود في الدين: هو العزم على ما فيه تزكية النفس وصلاح الأمة، وقوامه الصبر على المكروه، وباعثه التقوى، وقوتُه شدة المراقبة بألَّا يتهاون المؤمن في محاسبة نفسه، قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وأولو العزم من الرسل هم على الأشهر: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين، وقد جاء ذكرهم في آيتين من كتاب الله، هما قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: بلغني أن أولي العزم من الرسل

كانوا ثلاث مئة وثلاثة عشر[١].

وعن مسروق قال: قالت لي عائشة ﵂: ظلَّ رسول الله ﷺ صائمًا ثم طواه، ثم ظلَّ صائمًا، ثم قال: «**يا عائشة، إن الله لم يرضَ من أولي العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهها، والصبر عن محبوبها، ثم لم يرض مني إلا أن يكلفني ما كلفهم، فقال:** ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾، وإني -والله- لأصبرنَّ كما صبروا جَهدي، ولا قوة إلا بالله»[٢].

وقيل: إن ﴿مِنَ﴾ في الآية للبيان، وأن الرسل جميعًا كلهم أولو عزم، وأن الله تعالى لم يبعث نبيًّا إلا كان ذا عزم وحزْم ورأي وكمال عقل[٣].

وبعد أن أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالصبر على أذى المشركين، نهاه أن يستعجل نزول العذاب بهم، فإنه نازل بهم لا محالة، ولأن الاستعجال ينافي الصبر، وفي تأخير العذاب عنهم تطويل لمدة الصبر عليهم، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ﴾ أي: لا تستعجل هلاكهم ووقوع العذاب بهم، فإنه آتٍ لا محالة، وعليهم أن يستعدوا له بالعمل على ما ينجيهم منه، فإنهم حين يرونه كأنهم لم يمكثوا في الدنيا، أو في البرزخ، إلا وقتًا يسيرًا، وزمنًا قليلًا؛ لأن شدة العذاب تُنسيهم كل متع الدنيا وشهواتها.

ثم بيَّن سبحانه ما يدعو إلى عدم الاستعجال، فقال: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ﴾ ولا يؤثِّر في وقوع العذاب تطويل أجله ولا تعجيله.

وقال سبحانه: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [يونس: ٤٥]

وهذا كقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ۝٤٦﴾ [النازعات].

ثم بيَّن سبحانه أن ما تقدم من إنذار الناس، فيه بلاغ للمؤمن منهم والكافر، ليحاسب كل واحد منهم نفسه قبل أن يأتي يوم الحساب، فقال سبحانه: ﴿بَلَٰغٞۚ﴾ أي: هذا بلاغ

---

(١) «الدر المنثور» (١٣/ ٣٤٧).

(٢) رواه البغوي بسنده كما في تفسيره للآية، وهو في «تفسير الخازن» وغيره، ورواه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (١٣/ ٣٤٦) كما رواه الديلمي في «مسند الفردوس» برقم (٨٦٢٨) (مكرر) من طريق محمد بن حجاج الحضرمي به. وفي فيض القدير (٣/ ٥٥١).

(٣) اختاره الفخر الرازي، وقال به ابن زيد كما في «تفسير الخازن» و«زاد المسير» للآية.

للناس، فهو خبر لمبتدأ محذوف، فهو بلاغ كافٍ، تقديره: هذا الذي أنذرتكم به بلاغ، أو هذا القرآن بلاغ، يقطع حجة الكافرين، فيه وعظ وإنذار لمن يتدبر ويتأمل.

ثم إن الهلاك والخلود الأبدي في النار، لا يكون إلا للكافرين الخارجين على حدود الله تعالى. ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ كلَّا، إنه لا يهلك على الله إلا هالك مشرك، ولَّى الإسلام ظهرَه، أو منافق صدَّق بلسانه وخالف بعمله[1].

ولا يعذِّب الله إلا من يستحق العذاب، ولا يهلك بعذاب الله إلا القوم الخارجون على طاعة الله، الواقعون في معاصيه، وهذا مؤذن بانقضاء السورة.

تم تفسير (**سورة الأحقاف**) ولله الحمد والمنة.



---

(١) قاله قتادة، كما في «تفسير الطبري» (٢١/ ١٧٨).

تَفْسِيرُ سُورَةِ مُحَمَّدٍ (٤٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (محمد) هي السورة السابعة والأربعون في ترتيب المصحف، والسادسة والتسعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الحديد) وقبل سورة (الرعد).

واشتهرت بأنها سورة (محمد) لورود اسم النبي ﷺ في الآية الثانية منها، وتُسمَّى أيضًا سورة (القتال) لورود لفظ القتال في الآية العشرين منها؛ ولأن القتال هو العنصر البارز فيها، كما تسمَّى سورة (الذين كفروا)، والأول هو الأشهر.

وعدد آياتها -عند أهل الكوفة- ثمان وثلاثون آية، وأربعون آية عند أهل البصرة وأهل حمص، وتسع وثلاثون آية عند غيرهم.

وهي خمس مئة وتسع وثلاثون كلمة، وألفان وثلاث مئة وتسعة وأربعون حرفًا.

وهي سورة مدنية، وقد نزلت الآية الثالثة عشرة، وهي قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ في الطريق أثناء الهجرة، فتوهَّم بعضهم أن السورة مكية، وقيل: إنها نزلت عام الفتح، أو سنة الحديبية.

عن ابن عمر ﷺ أن النبيَّ ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في صلاة المغرب[1].

وقد تناولت السورة: أحكام القتال، والأسرى، والغنائم، وأحوال المنافقين، والمحور الأساس الذي تدور عليه هو الجهاد في سبيل الله، وهذا شأن السور المدنية.

أتباع الحق وأتباع الباطل

وتبدأ السورة ببيان حقيقة الذين كفروا، وحقيقة الذين آمنوا، وأن الله تعالى ولي الذين آمنوا؛ لأنهم اتبعوا الحق من ربهم، وأن الكافرين أعداء الله لا مولى لهم، ثم تأمر السورة المؤمنين أن يخوضوا الحرب ضد أعداء الله ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ الآية [٤].

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (١٢٣٩، ١٧٤٢) وفي «الكبير» (١٣٣٨٠) وفي «الصغير» (١/ ٤٥) وهو عند ابن حبَّان (١٨٣٥) قال محققه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

وتبيِّن هذه الآية الحكمة من القتال في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ الآية [٤].

وتكرِّم السورة الشهداء، فتبيِّن أن الله تعالى لن يضيِّع أعمالهم، فيهديهم ويُصْلِح بالهم، ويدخلهم الجنة، فيعرفون الطريق إليها بأنفسهم.

أما الكفار فتعسًا لهم وأضل أعمالهم، وطريق النصر عليهم يَكْمُن في التمسك بشرع الله ونصر دينه، وإعداد العدة المادية والمعنوية.

وتتحدث السورة عن المؤمنين والكافرين والمنافقين، فتصف متاع المؤمنين في الجنة، ومنه ألوان الأشربة في الأنهار الجارية من: اللبن والعسل والخمر والماء.

أما الكفار، فيتمتعون في الدنيا ويأكلون كما تأكل الأنعام، والنار في الآخرة مثوى لهم.

وتمضي السورة في جولة مع المنافقين، فتكشف أستارهم، وتبيِّن هلَعهم وجُبْنهم، وتفْضحُهم في موالاتهم، وتآمرهم مع اليهود، وتبيِّن ملامحهم وصفاتهم وخطرهم على المجتمع المسلم.

وفي عصرنا الحاضر يجدد المنافقون سيرة المخادعين القدامى، فهم يتلقَّون التعليمات من منابر التنصير العالمي، أو من مراكز الغزو الثقافي، ويندَسُّون بين جماهير المسلمين يثيرون الفتن، ويُطلقون الشائعات، ويُرجِّحون وجهات النظر المعادية، ويخذِّلون أصحاب الكفاح، ويداهنون المسلمين من جهة والأعداء من جهة أخرى، فيتنازلون عن بعض المبادئ الإسلامية -إن كانوا في موقع المسؤولية- إرضاء للعدوِّ، مع التعتيم الإعلامي حتى لا ينفضحوا ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾.

والله تعالى يكشف خباياهم على ألسنتهم، وما تدلُّ عليه أعمالهم ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾.

الجهاد ضرورة حتمية لرد العدوان وتأمين طريق الدعوة:

وقد حذَّرت السورة من الدعوة إلى الصلح مع الأعداء، حرصًا على شهوات الدنيا ومتاعها، فإن ما عند الله خير وأبقى، فإن بادر العدو إلى طلب الصلح فلا بأس بذلك،

قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١].

وذلك لأن طلب السَّلْم من جهة المسلمين تخاذُلًا وضعفًا فيه هوان وذلة، لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [٣٥].

ولا بأس من مهادنة العدو إذا كان عددهم وعُدَّتهم أكثر من ضعف عدد المسلمين وعُدَّتهم، وهو أدنى حدٍّ لمجابهة العدو ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٦] ولا تجوز في أكثر من ذلك.

وفي السورة تهديد للمسلمين إن بخلوا ببذل النفس والمال للقتال في سبيل الله، فتحذِّرهم باستبدال قوم غيرهم إن هم تخاذلوا عن الجهاد لنشر الدعوة، وإزالة العقبات من طريقها.

وبهذا يتضح أن النبيَّ ﷺ هو نبي المرحمة، وهو نبي الملحمة، وأن المسلم من شأنه ألا يقبل الظلم ولا الضيم ولا الذل، ولا ينبغي له أن يترُك الباغي يمشي في الأرض متكبرًا، بل يُرغِم أنفه ويُقلِّم أظافره، فماذا نتوقع أن يقول القرآن للمغلوب المستباح دمه وماله وعرضه ووطنه حين يَلْقى خصمه في الميدان؟ وماذا يُكنُّ أهل فلسطين لليهود الذين أخرجوهم من دورهم واسترخصوا دماءهم وحقوقهم؟ وماذا يُكنُّ أهل الشيشان للروس؟ وماذا يُكنُّ أهل البوسنة للصرب؟ وماذا يُكنُّ أهل السودان للجنوب؟ وماذا يُكنُّ أهل العراق لأمريكا؟ وماذا؟ وماذا؟ إنهم لا يُكنُّون لهم إلا الحقد والبغض الدفين ﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة].

وحين يُثخِن المسلم جِراح الكفار، ويقعون في قبضته، ويأخذهم أسرى، فإن رحمة الإسلام تتجلى في أنه إما أن يأسرهم، وإما أن يأخذ منهم الفدية، ولا يستأصلهم كما يفعل العدو، وهكذا تتجلى أخلاق الإسلام في السلم والحرب ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أي: أكثرتم فيهم القتل ﴿فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ أي: اجعلوهم في الأَسْرِ ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ﴾ أي: تمنُّون عليهم وتطلقون سراحهم ﴿وَإِمَّا فِدَآءً﴾ تقبلون أخذ الفدية منهم ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ الآية [٤].

والنصر على العدوِّ، مرهون بإعداد العدة المكافئة لعدة العدوِّ في البر والبحر والجو،

وعدم مساواتهم في معصية الله تعالى، فإنا إن ساويناهم في معصية الله تفوَّقوا علينا بقوة السلاح ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾ .

لقد كان المسلمون يتلون هذه السورة جماعات في ميادين القتال بصوت مرتفع؛ ولأن آياتها تنتهي بميم ساكنة فإن الوقوف عليها له دَوِيٌّ يخلع قلب العدوِّ.

ويوم يتخلى المسلمون عن فريضة الجهاد لردِّ العدوان، وحماية البلاد، وتأديب مَن يقفون في وجه نشر الدعوة، وعدم إعداد العدة لذلك، فإن باطن الأرض خير لهم من ظهرها.

مجمل ما في السورة:

١- وهكذا: فإن السورة بدأت بذكر الكافرين في الآية الأولى، وهذا من براعة الاستهلال؛ لأن موضوعها يتعلق بقتال مَن صدَّ الناس منهم عن دعوة الإسلام.

٢- ثم ثنَّت في الآية بعدها بذكر من آمن بما أُنزل على محمد ﷺ وعمل صالحًا.

٣- ومضت تتحدث عن قتال الكافرين وثواب المؤمنين إلى الآية الخامسة عشرة منها.

٤- وعودًا على بدء تعود السورة من الآية الثانية والعشرين إلى نهايتها لتبيِّن مصير الفريقين: فالكفار لن يغفر الله لهم وسيُحبط أعمالهم، والمؤمنون يؤتيهم أجورهم ولن يترهم أعمالهم.

٥- وعن المنافقين وكشف خفاياهم تتحدث السورة من الآية السادسة عشرة إلى الآية الحادية والثلاثين.

٦- ثم تختتم بتهديد بالغ لمن يتولى عن دين الله ويتقاعس عن الجهاد في سبيله.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

ضَلَالُ الْكُفَّارِ وَاهْتِدَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَسَبَبُ ذَلِكَ

١- ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١﴾

بدأت سورة (محمد) ﷺ بتحريض المؤمنين على قتال الكافرين، وإثارة الحِنْق والكراهية ضدهم بسبب غضب الله تعالى عليهم لكفرهم بآيات الله، وصدِّ الناس عن الدخول في دينه، وهي بداية فيها هجوم على الكفار بلا مقدمة ولا تمهيد، وقد اشتملت هذه البداية على **وصفهم بثلاثة أوصاف**:

أولها: الشرك بالله تعالى، وجحود آياته الدالة على وحدانيته، والإعراض عن دين الله سبحانه.

وثانيها: صرْفُ الناس عن اتباع دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده، ومنْعهم من الدعوة إليه، ومن الجهاد في سبيله، واضطهاد المسلمين وإخراجهم من ديارهم وأموالهم.

وثالثها: أن الله تعالى أبطل أعمال الكفار الحسنة التي عملوها في الدنيا، فلم يُثبْهم عليها، كإطعام الطعام، وصلة الأرحام، وفكِّ الأسير، وإجارة المستجير، وبر الوالدين، ومساعدة المحتاج، وإكرام الجار:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ۝٣٦﴾ [الأنفال].

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ۝٢٣﴾ [الفرقان].

وفي يوم بدر كان سادات قريش -وهم نحو خمسة عشر رجلًا- يُطعمون الناس الطعام ليكونوا معهم وَيكْثُرُوا حَوْلهم، وقد اشتهر هؤلاء بلقب **المُطْعِمين** وهذا من الصدِّ عن سبيل الله، ومثله في عصرنا أن تُدفع المساعدات للبلاد النامية لكسب وَلائهم وأصواتهم وتغاضيهم عن إيقاع الضرر بإخوانهم المسلمين!!

ويجمع هذه الأوصاف الثلاثة قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: جحدوا بآيات الله وأعرضوا عن الإسلام، وهم رؤساء الكفر وأئمة الضلال، الذين جمعوا بين الكفر والصد

عن سبيل الله ﴿وَصَدُّوا﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: منعوهم من الدخول في الإسلام، ووقفوا حائلًا مانعًا دون نشر الدعوة ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ الصالحة، أي: أحبطها وأبطلها، فلا يتقبلها ولا يُثيب عليها، بل هي ضالّة ضائعة، كالإبل الضالّة التي ليس لها صاحب يحفظها ويَعْتني بها، فإن هذه الأعمال الصالحة مع الكفر بالله والصد عن سبيل الله لا تُقبل، كما أن الله تعالى يُحبِط أعمالهم التي يكيدون بها إلى الإسلام وأهله، ليُظهر الإسلام على جميع المِلَل والنحل ولو كره الكافرون، ومع ذلك فإن الله تعالى يرد كيدهم في نحورهم، فلم يدركوا قصدهم، ولم يثابوا على أعمالهم، هذا هو شأن الكفار، فما هو شأن المؤمنين، قال تعالى:

٢ - ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾

وفي مقابلة أوصاف الكافرين يصف الله تعالى المؤمنين **بثلاثة أوصاف**: وهي الإيمان مقابل الكفر، والعمل الصالح مقابل الصدِّ عن سبيل الله، وغفران الذنوب وصلاح الحال مقابل ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾:

أولها: الإيمان بوحدانية الله تعالى، وإخلاص العبادة له وحده.

ومن شروط صحة الإيمان وتمامه: الإيمان بالقرآن الذي نُزِّل على محمد ﷺ، فهو الحق الذي لا ريب فيه، وهو الكتاب الثابت إلى يوم القيامة، الناسخ لما قبله من الكتب، ولا بد لذلك من الإيمان باليوم الآخر، وبملائكة الله وكتبه ورسله، وبالقدر خيره وشره.

وثانيها: اتباع شرع الله تعالى، وعدم الابتداع فيه، والتزوُّد بالعمل الصالح الذي يرفع درجاتهم عند الله تعالى.

«وما تقرب إليَّ عبدي بمثل ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه»[1]، و«**الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»[2].

---

(١) من حديث أبي هريرة في البخاري برقم (٦٥٠٢).

(٢) من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» برقم (٣٥).

وما بين أعلى شعب الإيمان وأدناها أعمال صالحة جمَّة، وما أكثرها!

جاء في حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**كل سُلَامَى من الناس عليه صدقة، وكل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين اثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة**»[1].

وثالثها: أن الله تعالى يستر عليهم ما عملوه من السيئات، فيمحوها ويزيلها عنهم.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

وقال سبحانه: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء].

بل إن الله تعالى يبدل سيئاتهم حسنات ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].

وإلى جوار تكفير السيئات وعدم المعاقبة عليها في الآخرة، فإن الله تعالى يصلح شأنهم في الدنيا والآخرة، فيوفقهم للتوبة النصوح في الدنيا، ويمنحهم الثواب الجزيل في الآخرة.

ومن صلاح البال: التفكير السديد، والنظر الصائب، فلا يفكرون فيما قبُح من الأقوال والأفعال، ولا تتوجَّه أنظارهم إلى المنكرات وما يناقض التوحيد...

ثم بين سبحانه السبب في ثواب المؤمنين وعقاب العاصين فقال:

٣- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾

بيَّن ﷻ في هذه الآية سبب ضلال الكفار، وسبب اهتداء المؤمنين، وأن ذلك يرجع إلى اتباع الكافرين للباطل، واتباع المؤمنين للحق، فقد أبطل الله أعمال الكفار، وتجاوز عن سيئات الأبرار وأصلح شؤونهم؛ لأن الكفار اختاروا الباطل على الحق، والمؤمنين اختاروا الحق على الباطل.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإضلال والاهتداء سببه ﴿بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ﴾ اتبعوا في دنياهم

(١) من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» برقم (١٠٠٩) و«صحيح البخاري» (٢٧٠٧، ٢٨٩١).

خطوات الشيطان، وطرُق الضلال، وما عليه الآباء من غير تبصُّر ولا برهان، فأطاعوا هواهم وشيطانهم، وقلَّدوا مَن سبقهم في الكفر.

﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي: اتبعوا رسول الله ﷺ وما جاءهم به من النور والهدى، والصدق واليقين.

وكما بيَّن سبحانه حال الفريقين: أهل الكفر وأهل الإيمان، كلٌّ بما يستحق، يبيِّن للناس الأشباه والنظائر ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ فيُلحِق بكل فريق من الأمثال والأشباه ما يناسبه.

وبمثل هذا البيان يبيِّن الله للناس أحوالهم، فلا يُبقيهم في غفلة عن معرفة الحق؛ حتى لا يختلط الخبيث بالطيب، وليكونوا على بصيرة من أمور دينهم ودنياهم، فيعتبروا ويتعظوا ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

قَاعِدَةُ التَّعَامُلِ مَعَ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ الْمُحَارِبِينَ

٤- ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ[١] حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ[٢] فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا[٣] ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ[٤] وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟[٥] فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾

هذا أمر من الله سبحانه بقتال المحاربين من غير المسلمين الذين لا عهد لهم ولا ذمة، حيث يوجه الله - سبحانه - المؤمنين لقتال الكافرين الصادِّين عن سبيله؛ وذلك لأن الإسلام هو الحق الثابت، والدين القائم إلى يوم القيامة، والذي ينبغي أن يتقرر في الأرض، ويسود العالم، ويهيمن على البشرية، وما قبله من ديانات قد نُسخت وانتهى وقتها ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ﴾ أيها المؤمنون ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في ساحات الحرب والقتال، فلا تأخذكم بهم رأفة، ولكن أمعنوا في قتلهم، واحصدوهم حصْدًا، واضربوا منهم الأعناق، هذا

---

(١)، (٢) انفرد الحمصي وحده بعد (فضرب الرقاب) و (فشدوا الوثاق) وتركهما غيره.

(٣) ترك الكوفي وحده (أوزارها) من العدد، وعدها جمهور أهل العدد.

(٤) انفرد الحمصي وحده بعدّ (لا انتصر منهم) وتركها غيره.

(٥) قرأ أبو عمرو وحفص ويعقوب (والذين قُتِلوا) بالبناء للمفعول، وقرأ الباقون (والذين قاتلوا) بالبناء للفاعل.

معنى ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ وخص الرقاب؛ لأنه الغالب في القتل، ولأنه يصوِّر القتل في أشنع صوره، كما قال تعالى: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

فإذا أكثرتم فيهم القتل، وكسرْتُم شوْكتهم فهزمْتُموهم، وأضعفْتم قُواهم، فخُذوهم أسرى بعد ذلك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ من الإثخان وهو كثرة الجراح، والقضاء على قوتهم الضاربة، وأصبحوا كالرجل المثْخن بالجراح ﴿فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾ أحكموا قيْد الأسرى؛ حتى لا يستطيعوا التفلُّت ولا الهرب منكم، فالوثاق هو الذي يُربط به الأسير، فإذا كانوا بين أيديكم، فإما أن تطلقوا سراحهم بلا مال ولا فداء، وإما أن تأخذوا منهم الفدية أو من أصحابهم، وإما أن تتبادلوا الأسرى فيما بينكم وبين عدوكم.

والمعنى: إذا لقيتم أعداء الله في أرض المعركة فاقتلوهم، فإن أكثرتم فيهم القتل فَأْسِروهم، فإن أسرْتموهم فأنتم بالخيار بين أمرين: إما أن تَمُنُّوا عليهم بإطلاق أسْراهم بغير عوض، وإما أن تفْدوهم، فتأخذوا منهم مقابلًا ماليًّا، أو عملًا إنسانيًّا ونحو ذلك، لإطلاق سراحهم وفكِّ أسراهم ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ﴾ أي: إما أن تمُنُّوا عليهم بإطلاق سراحهم بدون عوض بعد الأسر ﴿وَإِمَّا﴾ أن تفدوهم ﴿فِدَآءً﴾ أي تأخذوا منهم الفداء، بعد هزيمتهم وكسْر شوكتهم وكثرة القتل والجراح فيهم.

افعلوا ما أمرناكم به، ولا تتركُوا قتْل العدوِّ وأسْره حتى يتركوا حرْبكم وتنتهي المعركة التي بينكم وبين أعدائكم بهزيمتهم وانتصاركم عليهم، فتغلبوهم وتهزموهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: حتى لا يبقى في الأرض شرك ولا كفر ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣].

فوضْع الحرب معناه: إظهار دين الإسلام على الدين كله، وإلا فإن الحرب بين الإسلام والكفر ماضية إلى قيام الساعة، هذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي: حتى تنتهي الحرب بعزة الإسلام واندحار المشركين، أو بِمُوادَعَتِهم ووضْع سلاحهم.

وأوزار الحرب: هي عُدَّتها وآلاتها وأثقالها، من وسائل القتال المختلفة قديمًا وحديثًا: كالدَّبَّابات والمدافع والصواريخ والطائرات، والقنابل والرشاشات، وما إلى ذلك.

عن سلمة بن نفيل قال: بينما أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل، فقال: يا

رسول الله، إن الخيل قد سُيِّبَتْ، ووُضع السلاح، وزعم أقوام أن لا قتال، وأن قد وضعت الحرب أوزارها، فقال رسول الله ﷺ: **«كذبوا، فالآن جاء القتال، ولا تزال طائفة من أمتي يقاتلون في سبيل الله، لا يضرهم من خالفهم، يُزيغ الله لهم قلوب أقوام ويرزقهم منهم، ويقاتلونهم حتى تقوم الساعة، ولا تزال الخيل معقودًا في نواصيها الخير حتى تقوم الساعة، ولا تضع الحرب أوزارها حتى يخرج يأجوج ومأجوج»**(١).

قال قتادة: ذُكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم غزوة أحد، ورسول الله ﷺ في الشِّعْب، وقد فشتْ فيهم الجِراحات والقتل، وقد نادى المشركون يومئذ: اعْلُ هُبَل، ونادى المسلمون: الله أعلى وأجلُّ، فنادى المشركون: يوم بيوم بدر، وإن الحرب سجال، لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم، فقال رسول الله ﷺ: **«قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم، إن القتلى مختلفةٌ، أما قتلانا فأحياء يرزقون، وأما قتلاكم ففي النار يُعذَّبون»**(٢).

وهذه الآية نزلت بعد قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧].

وهي تقرر أيضًا أن أسر العدوِّ لا يكون إلا بعد هزيمته وكسر شوكته.

وقد كان المسلمون يوم غزوة بدر التي نزلت فيها الآية السابقة، كانوا قلة، فلما كثُر المسلمون وقَوِيت شوكتهم، خيَّرهم الله في الأسرى بين المنِّ والفدية بهذه الآية، ثم نزل بعد ذلك الأمر بقتل المشركين العرب في أرض الجزيرة حيث كانوا، كما في آية سورة التوبة: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [آية: ٥].

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] أي: كما يقاتلونكم كافة قاتلوهم كافة.

---

(١) ينظر: «صحيح سنن النسائي» (٣٣٣٣) و«المسند» (٢٨/ ١٦٤) (١٦٩٦٥) بإسناده حسن، وهو في السلسلة الصحيحة (١٩٣٥)، والطبراني في «الكبير» (٦٣٦٠) وابن سعد (٧/ ٤٢٧) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٤٦٠) والبغوي عن النواس بن سمعان.

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ٢٢١) مختصرًا، والطبري (٢١/ ٦٩٠)، والحديث عن البراء بن عازب مختصرًا في صحيح البخاري (٣٠٣٩، ٤٠٤٣).

وإن تمكنتم منهم في ساحة القتال الذي بدؤوه أو تسببوا فيه، فاجعلوهم عبرة لغيرهم، ومثلًا يضرب للناس: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٧] وهذه الآية محكمة وغير منسوخة عند جمهور أهل العلم، وهي مبيِّنة وموضِّحة لآيتي سورة التوبة.

والمنُّ والفداء ثابت من فعل النبي ﷺ في شأن ثُمامة بن أثال، ومفاداة أسرى بدر.

وقوله تعالى: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ بمثابة قوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ وصُرِّح هنا بالمنِّ والفداء، ولم يصرَّح به في التوبة.

وظاهر الآية لا يقضي بقتل الأسير، فالحاكم المسلم مأمور أوَّلًا بالإثخان وهو كثرة القتل بين صفوف العدو، وبعد الإثخان، مخيَّر بين القتل والأسر، وبعد الأسر مخيَّر بين المنِّ والفداء.

والذي عليه جمهور العلماء أن الإمام مخيَّر بين القتل والأسر في صفوف الرجال المحاربين وفق المصلحة العامة للمسلمين، وبعد الأسر مخيَّر بين المن والفداء، وبهذا فعل النبي ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده، وهذا بالنسبة لعموم المشركين من غير العرب، أما مشركو العرب فلا يُقبل منهم إلا الإسلام.

وفي حديث أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«انطلقوا باسم الله، وعلى ملة رسول الله، ولا تقتلوا شيخًا فانيًا، ولا طفلًا، ولا صغيرًا، ولا امرأة، ولا تغُلُّوا...»**[1].

حديث ثُمامة بن أثال:

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ: أن النبي ﷺ بعث سرية إلى نجد، فأتت برجل من بني حنيفة اسمه **ثمامة بن أثال** فربطوه في سارية المسجد، فسأله النبي ﷺ: **«ما عندك يا ثمامة»**؟ قال: عندي خير يا محمد، إن تَقْتُل تَقْتُل ذا دَم، وإن تُنْعِم تُنْعِم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل تُعط منه ما شئت، فتركه النبي ﷺ وتكرر ذلك ثلاث مرات، ثم قال النبي ﷺ: **«أطلقوا ثمامة»** فأطلَقوه، واغتسل، ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله

---

(١) أبو داود في الجهاد برقم (٢٦١٤)، وهو ضعيف، لضعف خالد بن الفزر، قال ابن معين: ليس بذاك، وانظر: مشكاة المصابيح (٣٩٥٦) وضعيف سنن أبي داود (٣/ ٣٧).

إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، واللهِ ما كان على الأرض أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليَّ، والله ما كان من دين أبغض إليَّ من دينك، فأصبح دينك أحب الدين كله إليَّ، والله ما كان من بلد أبغض إليَّ من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إليَّ، وإن خيلَك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشَّره النبي ﷺ وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: أصَبَوْت؟ قال: لا، ولكني أسلمت، وَلا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ(١).

وفي الأثر: «**الجهاد ماض إلى يوم القيامة**»(٢).

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣].

وقال أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٩].

حكمة مشروعية الجهاد:

وبعد أن أمر سبحانه بضرب رقاب الكفار، وأسْرِهم بعد إضعاف شوكتهم، إلى أن يستسلم العدوُّ، بيَّن جلَّ شأنه أن الأمر فيهم هو ما ذُكر، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر ذلك، أو ذلك الأمر، فاسم الإشارة خبر لمبتدأ محذوف، أو مبتدأ لخبر محذوف، وهذا يفيد تقرير الحكم ورسوخه في النفوس، أي: ذلك الحكم المذكور في ابتلاء المؤمنين بالكافرين، ومداولة الأيام بينهم، وانتصار بعضهم على بعض.

ولو أراد الله - سبحانه - لاستأصل الكفار وأهلكهم بدون حرب ولا قتال، ولم يكلفكم قتلهم، ولكن الله تعالى ربط الأسباب بالمسببات، وجعل عقوبتهم على أيديكم، فشرع الجهاد ليختبر إيمانكم وثباتكم، ويبلو بعضكم ببعض، وينصر بكم دينه، وليتبين الصادق من الكاذب والمؤمن من المنافق ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ بدون حرب ولا قتال ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ فيُظهر المجاهدين في سبيله، الصابرين على ابتلائه،

(١) يُنظَر: البخاري برقم (٤٦٢، ٤٣٧٢) ومسلم (١٧٦٤).

(٢) قال البخاري في صحيحه (٤٤) باب الجهاد ماضٍ مع البر والفاجر، لقوله ﷺ: (الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة).

فيجزل لهم الأجر والمثوبة، ويعذب الكفار بأيديهم.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾.

في ثواب الشهداء:

وإلى جوار الجزاء الحسن على هذا الابتلاء، فهناك الثواب الأعظم لمن يستشهد في سبيل الله ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ لهم أجر عظيم، وثواب جزيل، وهم الذين قاتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمته، فهؤلاء لن يبطل الله أعمالهم، بل يجزل لهم العطاء، ويُنمِّيه لهم، فأجر عمل الشهيد والمرابط يَجْري له بعد موته، كما لوكان حيًّا، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران].

وفي الحديث: أن النبيَّ ﷺ قال: **«يُغفر للشهيد كل ذنب إلا الدَّيْن»**[1].

في حديث المقدام بن معد يكرب الكِنْدي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«للشهيد عند الله ست خصال: أن يغفر الله له في أول دَفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويُحلَّى حُلَّة الإيمان، ويُزوَّج من الحور العين، ويُجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويُزوَّج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويُشفَّع في سبعين إنسانًا من أقاربه»**[2].

وفي حديث أبي الدرداء ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته»**[3].

ثم إن الشهداء في سبيل الله يوفقهم الله إلى طاعته ومرضاته، ويصلح شأنهم في الدنيا والآخرة، ويوصلهم إلى طريق السعادة والفلاح، قال تعالى:

---

(١) من حديث عبد الله بن عمرو وأبي قتادة في «صحيح مسلم» برقم (١٨٨٦) والحاكم (٢/ ١١٩).

(٢) «المسند» (٤/ ١٣١) برقم (١٧١٨٢) ورجاله ثقات كما قال محققوه و«سنن الترمذي» (١٦٦٣) و«سنن ابن ماجه» (٢٧٩٩)، وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٩٥٥٩) والبيهقي في الشعب (٤٢٥٤) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح برقم (٣٨٣٤) وقال أبو عيسى: حديث حسن صحيح غريب.

(٣) «سنن أبي داود» (٢٥٢٢) وقد صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» برقم (٢٢٠١).

٥، ٦- ﴿سَيَهْدِيهِمْ[١] وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ[٢] ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾

ويُكرِّم الله الشهداء بدخول الجنة دار النعيم، حيث يعلم كلٌّ منهم منزله فيها ويهتدي إليه بنفسه.

كما قال مجاهد: يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم لا يُخطؤون، كأنهم ساكنوها منذ خُلقوا، فيكون المؤمن أهدى إلى درجته ومنزله وزوجته وخدمه منه إلى منزله وأهله في الدنيا[٣].

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾ أي: يعرفونها بصفاتها التي ذكرها الله تعالى في كتابه، ويهتدون إلى طريقها، فيعرفونها بأنفسهم، ولا يترددون في دخولها، وهذا من تعجيل الفرح بها في الدنيا، ومن حسن الضيافة لهم في الآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝٩﴾ [يونس: ٩].

وفي حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا خلص المؤمنون من النار حُبسوا بقنطرة بين الجنة والنار، يتقاصُّون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذن لهم في دخول الجنة، والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله كان في الدنيا»**[٤].

قال مجاهد: يُهدَىٰ أهلُها إلى بيوتهم ومساكنهم، وحيث قسم الله لهم منها، لا يخطؤون، كأنهم ساكنوها منذ خُلقوا، لا يستدلون عليها أحدًا[٥].

وورد أن الملَك الذي كان موكَّلًا بحفظ عمل العبد في الدنيا يمشي بين يديه في الجنة حتى يصل به إلى مكان نزله في الجنة، فيعرِّفه كل شيء فيه، حتى يُدخله منزله وأزواجه ثم ينصرف[٦].

---

(١) ضمَّ الهاء الثانية من (سيهديهُم) يعقوب، وكسرها غيره.

(٢) ترك الحمصي وحده عدّ (ويصلح بالهم) وعدها غيره.

(٣) «البحر المحيط» (٨/ ٧٥) و«تفسير الخازن» (٤/ ١٣٥).

(٤) «صحيح البخاري» برقم (٦٥٣٥).

(٥) الطبري (٢١/ ١٩٢).

(٦) جاء هذا عن مقاتل عند ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (١٣/ ٣٦٠).

قَاعِدَةُ النَّصْرِ عَلَى الْعَدُوِّ

٧- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ[1] ۝٧﴾

ثم بيَّن سبحانه سبب النصر على العدوّ بعد إعداد العدة اللازمة له والأخذ في الأسباب، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فاعتقدوا اعتقادًا جازمًا بالله وصدَّقوا رسوله وآمنوا به ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ بنصر دينه، فتُجاهدوا في سبيله لإعلاء كلمته، وتحكُموا بكتابه، وتمتثلوا أمره وتجتنبوا نهيه، وتتبعوا سُنَّة رسوله، وتدعوا الناس إليه وتستقيموا على ذلك، ينصركم الله على عدوكم.

فنصْر الله معناه: نصر دينه واتباع منهج رسوله ﷺ؛ لأن الله تعالى غني عن النصر لتنفيذ مراده، فإنهم إن فعلوا ذلك نصرهم الله وربط على قلوبهم ومكّن لهم في الأرض.

قال تعالى: ﴿وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ﴾ بلا حرب ولا قتال، فإن نصرتم دين الله ﴿يَنصُرۡكُمۡ﴾ الله على عدوكم ﴿وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ عند القتال، فلا تهنوا ولا تضعفُوا ولا تَفرُّوا ، بل تنتصرون عليهم أو تستشهدون، كما قال تعالى: ﴿۞ فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝٧٤﴾ [النساء].

فالإسلام لا يعرف إلا النصر أو الشهادة، أما الهزيمة فليست في حسابات المسلم.

فتثبيت القدم معناه: عدم الزلل، كما قال تعالى: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ [النحل: ٩٤].

وثبات القدم على دين الله تعني: الاستقامة على منهجه وشكر نعمه.

وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٤٦﴾ [الأنفال]

---

(١) انفرد الحمصي وحده بترك عدّ (ويثبت أقدامكم) وعدّها غيره.

وإلى جوار عوامل النصر الخمسة المذكورة في هاتين الآيتين، لابد من إعداد القوة المادية المتاحة أو المكافئة، وألا يكون للعدو مدخل من قريب أو بعيد في معرفة أسرار هذه القوة. وإذا كان هذا حال المؤمن، فما هو حال الكافر؟ قال تعالى:

٨، ٩- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾

وإذا كان الله تعالى لا يبطل عمل المجاهدين في سبيله، بل يضاعفه وينميه، فإنه سبحانه يُبطل عمل الكافرين ويُخيِّب رجاءهم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسله ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ دعاء عليهم بالتعاسة والشقاء والخُذْلان والخيْبة، أي: بُعدًا وهلاكًا لهم، كما في الحديث:

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**تعس عبد الدينار، والدرهم، والقطيفة، والخميصة، إن أُعطي رضي، وإن لم يُعط لم يرض**»[١].

فقد أذهب الله ثواب أعمالهم وأحبطها ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ فلم يقبلها منهم، ولم يُثبْهُم عليها؛ لأنها صدرتْ ممن أشرك بخالقه ورازقه، فتوجَّه بدعائه وعبادته لغير الله تعالى.

والمراد بأعمالهم: أعمال الخير والبر التي يرجون منها النفع في الدنيا: كسعة الرزق، وسلامة الأبناء، وعافية الأبدان، ونحو ذلك، وهم لا يرجون ثواب الآخرة؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث، ولو أنهم آمنوا بما أنزل الله لانْتفعُوا بأعمالهم الصالحة في الآخرة؛ فإنها أهم من الدنيا، ولكنهم لم يأخذوا عليها ثوابًا في الآخرة، ولم يصلوا إلى غرضهم منها في الدنيا.

أما السبب الذي أدّى بهم إلى ضياع أعمالهم وخُسْرانها، فجعل التعاسة تحلُّ محلَّ السعادة؛ فلأنهم كرهوا ما أنزل الله في كتابه من التوحيد والرسالة والبعث والقرآن الذي يهدي إلى الرشد، كما قال تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣].

فكان نتيجة هذه الكراهية أن أحبط الله أعمالهم الحسنة التي عملوها في الدنيا، ككفالة اليتيم، والمساهمة في أعمال الخير؛ لأن الإيمان شرط في قبول الأعمال.

﴿ذَٰلِكَ﴾ التعس والإضلال ﴿بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ من التكاليف والأحكام، فكذَّبوا

---

(١) يُنظَر: حديث أبي هريرة في البخاري بأرقام: (٢٨٨٦، ٢٨٨٧، ٦٤٣٥) والبيهقي في «الشعب» (٤٢٨٩).

بها ولم يؤمنوا، وأطلقوا لأنفسهم العنان في الشهوات والملذات ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: أذهبها وأضاعها؛ لأنها كانت طاعة للشيطان والهوى.

الْعَاقِلُ مَنِ اتَّعَظَ بِغَيْرِهِ

١٠ - ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾

والعاقل من يتعظ بغيره، وكان على الكافرين بالله ورسله، أن ينظروا في أحوال أمثالهم من الأمم السابقة، فيعتبروا بما حدث لهم من سوء العاقبة؛ حتى لا يحلَّ بهم عقاب الله كما حلَّ بالمكذبين قبلهم، فهم لا يلتفتون يمنة ولا يسْرة إلا وجدوا مَنْ حولهم، ممن استأصلهم الله تعالى بسبب تكذيبهم وكفرهم، فخمدت أنفاسهم، وبادت ديارهم وأموالهم، وصاروا عبرة لمن يأتي بعدهم.

والمعنى: أفلم يسافر هؤلاء الكفار في أرض الله ليشاهدوا عاقبة المكذبين قبلهم لرسل الله.. كقوم عاد، وقوم ثمود، وقوم لوط، وقوم مدين، فقد أزْهق الله أرواحهم، ودمَّر مساكنهم، وأذهب أموالهم، فجعلهم تحت الأنقاض المتراكمة، فأهلكهم الله وأهلك ديارهم التي كانوا يعيشون فيها، وللكافرين المعاصرين ومَنْ بعدهم مثل عاقبة الذين مِنْ قبلهم من سوء المصير والعذاب المدمر ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ وهذا تهديد ووعيد لمن يجحد وحدانية الله تعالى، ولم يصدق بآخر رسل الله، وأنكر البعث والنشور في كل زمان ومكان، وفي كل عصر ومصر، أما المؤمنون فإن الله تعالى ينجيهم من المهالك، ويحسن عاقبتهم، قال تعالى:

١١ - ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾

بيَّن ﷻ سبب التدمير والهلاك الذي حلَّ بالمكذبين في الأمم السابقة، وهو أن الله تعالى يتولى بنصره وعونه وتأييده كل من آمن بالله ورسوله، أما الكافر فليس له وليٌّ ولا نصير يدفع عنه عذاب الله تعالى:

والمعنى: ذلك الذي فعلناه بالفريقين: المؤمنين والكافرين، بسبب أن الله تعالى وليُّ المؤمنين وناصرهم؛ يخرجهم من الظلمات إلى النور، ويتولاهم بعنايته ورعايته، لأنهم نصروا دينه، وأخذوا بأسباب النصر على العدو.

أما الكفار فإنهم قد أشركوا مع الله غيره، فلم ينصرهم الله تعالى، ولا يستطيع أحد أن ينصرهم؛ لأنهم لم ينصروا دين الله تعالى ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: لا ناصر لهم غير الله سبحانه، فلا أحد يأخذ بأيديهم إلى طريق النجاة، بل إن أولياءهم من الطواغيت يخرجونهم من النور إلى الظلمات.

أما قوله تعالى عن الكفار: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢] فإن المولى هنا بمعنى: الرب المالك، وقد أمر النبي ﷺ أصحابه أن يَرُدُّوا على أبي سفيان حين قال يوم أحد: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم، فقال ﷺ: «**ألا تجيبوه**»؟ قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ قال: قولوا: «**الله مولانا ولا مولى لكم**»[1].

حَظُّ الْمُؤْمِنِ وَحَظُّ الْكَافِرِ فِي الآخِرَةِ

١٢- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾

ولما ذكر سبحانه أنه ولي المؤمنين في الدنيا، وأن الكافرين لا مولى لهم، ذكر في هذه الآية حظ كل منهما ونصيبه في الآخرة، فقد بيَّن سبحانه أن من ولايته للمؤمنين أن يعطيهم النعيم الدائم في الآخرة، بعد النصر في الدنيا.

أما الكافرون فحظهم من الدنيا، أكل وتمتع كحظ الأنعام، وعاقبتهم في دار الخلود، العذاب الدائم، كما قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسوله ﴿جَنَّٰتٍ﴾ حدائق وبساتين ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا﴾ أي: من تحت قصورها وأشجارها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الجارية تكرمة لهم، فيجدون في الجنات ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

أما الكفار فإنهم ينتفعون بملذات الدنيا أيامًا قليلة، وهم في تناول هذه الملذات

---

(١) من حديث البراء في البخاري برقم (٤٠٤٣).

كالأنعام التي لا تعقل، فلا فرق بين الحلال والحرام، ولا بين الخبيث والطيب، ولا يشكرون الله تعالى على نعمه، وهم في غفلة عن عاقبتهم ونهاية أمرهم ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ من البهائم التي لا همَّ لها إلا شهوة بطنها وفرجها، وهم في غفلة ولهو ساهون عن مصيرهم في الدار الآخرة ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ فهي المكان المُعدُّ لنزولهم يوم القيامة، فصُورتهم في الدنيا قبيحة، وعاقبتهم في الآخرة سيئة، فهم في نار جهنم لا يخرجون منها ولا يفتر عنهم من عذابها.

أخرج البخاري وغيره عن نافع قال: كان ابن عمر ﷺ لا يأكل حتى يؤتى بمسكين يأكل معه، فأدخلْتُ رَجُلًا يأكل معه، فأكل كثيرًا، فقال: يا نافع، لا تُدخل هذا عليَّ، سمعت النبي ﷺ يقول: «**المؤمن يأكل في مَعيٍّ واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء**»[1].

لِكُلِّ طَاغِيَةٍ نِهَايَةٌ

١٣- ﴿وَكَأَيِّن[2] مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾

ثم إن الكفار في كل زمان ومكان ليسوا بأعتى ولا أقوى من الأمم السابقة كقوم عاد ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر]

وهم يبنون بكل مرتفع من الأرض آية في البناء لا نظير لها ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الشعراء].

كما أنه لا أعتى من قوم ثمود ﴿ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ [الفجر: ٩].

وكانوا ينحتون البيوت الفارهة في الجبال ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الشعراء].

هذه الأمم وأمثالها كانوا أشد وأقوى من أهل مكة الذين تآمروا على قتل النبي ﷺ فألجؤوه للخروج من مكة، ولما مكث في غار جبل ثور ثلاثة أيام، ثم أخذ طريقه إلى المدينة، توجه

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٥٣٩٣) و«صحيح مسلم» برقم (٢٠٦٠، ٢٠٦١).

(٢) قرأ ابن كثير وأبو جعفر (وكائن) بألف بعد الكاف ممدودة مدًّا متصلًا، بعدها همزة مكسورة، وسهَّل أبو جعفر الهمزة مع المد والقصر، والباقون (وكأين) بهمزة مفتوحة بعد الكاف بدلًا من الألف، وهما لغتان بمعنى: كثير، وعند الوقف عليها يجوز لأبي عمرو ويعقوب الوقف على الياء وحذف التنوين (وكأي) للتنبيه على أن الكلمة مركبة من كاف التشبيه وأي المنونة، ويقف الباقون على النون تبعًا للرسم.

نحو مكة، وقال ﷺ كما في حديث ابن عباس ﷺ: **«أنت أحب بلاد الله إلى الله، وأنت أحب البلاد إليّ، فلو أن المشركين لم يخرجوني لم أخرج منك»** عندئذ نزل قول الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾[1].

أي: وكثير من أهل المدن والأمم ذات النفوذ كانوا أقوى وأشد بأسًا من أهل قريتك - أيها الرسول- وهي مكة التي خرجت منها، فأهلكنا أهل هذه القرى ودمَّرناهم، حين كذبوا رسلنا ولم تُفد فيهم المواعظ، ولم ينصرهم من عقابنا ناصر، ولم يُجزْهم من عذابنا مجير، ولم تُغن عنهم قوتهم من الله شيئًا، فما بال أهل قريتك الذين كذبوك وأخرجوك من وطنك، أليسوا أحق بالعقوبة من غيرهم؟ لولا أن الله تعالى أمهلهم كي يتوبوا ويثوبوا إلى رشدهم، ويخرج من أصلابهم من يعبد الله تعالى.

وبنحوه عن عبد الله بن عدي بن حمراء الزهري قال: رأيت رسول الله ﷺ وهو واقف على راحلته بالحزْوَرة -مكان بمكة عند باب الحنَّاطين- يقول: **«والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت»**[2].

وفي الآية تهديد شديد، ووعيد أكيد لكل فرد أو جماعة أو أمة، دبرت المكايد للإسلام، ودعاة الإسلام في كل عصر ومصر.

الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ لَا يَسْتَوِيَانِ

ثم نفى ﷻ التسوية بين المؤمن والكافر، فقال:

١٤- ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾﴾

---

(١) «تفسير الطبري» (٢٦/٣١) والخازن (٤/١٣٦) و«حاشية الجمل» (٤/١٤٥) وهو في «مسند أبي يعلى» عن ابن عباس (٥/٦٩) برقم (٢٦٦٢) ورجاله رجال الصحيح خلا محمود بن خداش وهو ثقة. وانظر: المسند ((١٨٧١٥، ١٨٧١٦) بنحوه عن عبد الله بن عدي وأبي هريرة بإسناد صحيح ورجال ثقات (محققوه) وأخرجه ابن عبدالبر في التمهيد (٢/٢٨٨) والترمذي (٣٩٢٥) والنسائي في الكبرى (٤٢٥٢) وابن ماجه (٣١٠٨) وغيرهم.

(٢) «سنن النسائي الكبرى» (٤٢٣٨، ٤٢٣٩) وابن ماجه (٣١٠٨) والترمذي (٣٩٢٥) و«المسند» برقم (١٨٧١٥) بإسناد صحيح ورجال ثقات وابن حبَّان (٣٧٠٨) وعن أبي هريرة في «سنن النسائي الكبرى» (٤٢٤٠) و«المسند» (١٨٧١٧)، وهو حديث صحيح. (محققوه).

أي: هل مَنْ كان ثابتًا على الدين الحق، واثقًا بأنه على برهان واضح من ربه، وهو على حجة وبصيرة من أمره، وعلى علْم يقيني بوحدانية الله تعالى، وعلى هدى ونور بما أنزل الله على رسوله، فهو على أمر بيِّن، ودين بيِّن.

هل يستوي هذا بمن كان على ضلال من أمره، متبعًا لهواه، مرتكبًا للفواحش والمنكرات، قد حسَّن الشيطان له قبيح عمله فتوهَّمه حسنات، واتَّبع ما دعتْه إليه نفسه الأمَّارة، من المعاصي، وعبادة غير الله تعالى من غير حجة ولا برهان، فلم يُفرِّق بين الحسن والقبيح، وهذا معنى ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ أي: لا يستويان؛ لأن كلًّا منهما ضد الآخر، فما أبعد الفرق بين الفريقين، وما أعظم التفاوت بين أهل الحق وأهل الباطل؟

وفي هذا ردٌّ على من زعم أن غير المسلم إذا أحسن المعاملة مع الناس فإنه خير من المسلم، ولا يكون هذا إلا ممن فسدت فطرتهم، وانحرفت عقيدتهم، فإن ما بين الفريقين كما بين الجنة والنار، وما بين السماء والأرض.

قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: ١٩].

وقال سبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر].

وقال أيضًا: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ [الرعد: ١٦].

شَرَابُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَشَرَابُ أَهْلِ النَّارِ

١٥- ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ[١] وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ[٢] وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾

وبعد بيان مصير المؤمن والكافر، يأتي ذكر شيء من نعيم المؤمن وعذاب الكافر في الآخرة، فالمؤمن يشرب من أنهار: الماء واللبن والعسل والخمر، والكافر يشرب من ماء متناهي الحرارة، يُقطِّع الأمعاء ويشوي الوجوه.

---

(١) قرأ ابن كثير بغير مدٍّ بعد الهمزة من (أَسِن) على وزن حَذِر صفة مشبهة، وقرأ الباقون (آسن) على وزن ضارب اسم فاعل.

(٢) عدّ البصري والحمصى (لذة للشاربين) آية، وتركها غيرهما.

أما شراب المؤمن فقد جاء في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي: صفة الجنة التي أعدها الله لعباده الأبرار المتقين، عجيبة الشأن.

ومن صفتها: ما سيوصف لكم ويتلى عليكم من هذه **الأصناف الخمسة**، وهي أفضل ما يتنافس عليه الناس من المشروبات:

١- ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ أي: في الجنة أنهار من مياه جارية غير متغيرة الطعم، ولا اللون ولا الرائحة، وهو ماء صافٍ غير مُكدَّر، بل هو لذيذ الطعم، تشتهيه النفس وتقر به العين، وهو أعذب المياه وأصفاها، وأطيبها ريحًا، وألذها شرابًا، وهذا الماء من عين التسنيم، لم تمسه يد، يأتي يوم القيامة إلى فم المسلم فيدخله[1].

٢- ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ أي: وأنهار جارية من الحليب في غاية البياض والحلاوة، لم يخرج من ضروع الماشية، ولم يتغير طعْمه من طول المكث بحموضة ولا غيرها كألبان الدنيا، ولم يخرج من بين فرث ودم.

٣- ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي: وأنهار جارية من خمر لذيذ الطعم، لا يعقُبه صداع ولا ذهاب عقل، ولا رائحة كريهة، كخمر الدنيا، بل يتلذذ بها الشاربون، وهي ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصافات].

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الواقعة].

وهذه الخمر لم تُلوَّث بعصير يدٍ ولا رجْل ولا آلة معصرة.

٤- ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ أي: وأنهار جارية من عسل في غاية الصفاء، لم يخالطه شمع ولا فضلات النحل؛ لأنه لم يخرج من بطونها.

وفضلًا عن ذلك فإن للمؤمنين في الجنة من كل ما لذَّ وطاب من جميع الثمار والفواكه والعنب والتفاح والرمان والتين والأترج، وغير ذلك مما لا نظير له في الدنيا ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ﴾ [البقرة: ٢٥] فهو يشبه ثمر الدنيا في الشكل، ويخالفه في المذاق والطعم.

---

(١) انظر: الطبري (٢١/ ٢٠٠) عن سعد بن طريف عن أبي إسحاق.

وغير ذلك مما عَلمُوه وما لم يعلموه، مما أُعِدَّ لهم في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ۝٥٢﴾[الرحمن]. ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝٥٥﴾[الدخان].

عن حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: **«إن في الجنة بحر الماء، وبحر العسل، وبحر اللبن، وبحر الخمر، ثم تُشقق الأنهار منها بعدُ»**[١].

وصحَّ في الحديث، عن أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: **«فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجَّر أنهار الجنة»**[٢].

وللمؤمنين في الجنة ما هو أهم من الأنهار والثمار، وهو مغفرة الله ورضوانه، كما قال تعالى: ﴿وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ أي: ولهم ثواب عظيم وفضل كبير، حيث ستر الله عليهم ذنوبهم وأزالها عنهم وبدَّلها حسنات، وهم في الجنة غير مكلفين بعمل ولا عبادة ولا سعْي على المعاش.

قال الصاوي: في الجنة تُرفع عنهم التكاليف فيما يأكلونه ويشربونه، بخلاف الدنيا فإن مأكولها ومشروبها يترتب عليه الحساب والعقاب، ونعيم الآخرة لا حساب عليه ولا عقاب فيه[٣].

وفي الحديث أن الله تعالى يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة: **«أُحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»**[٤].

شراب الكافر: فهل مَن هو في هذا النعيم من الجنة، كمن هو مقيم في نار جهنم لا يخرج منها، ويشرب من ماء قد تناهى في شدة حره؟ يتجرع من حميمها ﴿كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾.

---

(١) قال الترمذي: حديث حسن صحيح برقم (٢٥٧١) وأحمد في «المسند»: (٥/ ٥) (٢٠٠٥٢) بإسناد حسن والدارمي (٢/ ٣٣٧) وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» برقم (٢٠٧٨) و«صحيح الجامع الصغير» برقم (٢١٢٢) وابن حبَّان برقم (٧٤٠٩) والبيهقي (٢٦٤).

(٢) الحديث في البخاري عن أبي هريرة برقم (٢٧٩٠، ٧٤٢٣).

(٣) «حاشية الصاوي» (٤/ ٨٤).

(٤) والحديث عن أبي سعيد الخدري وأوله: «إن الله ﷻ يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة...» وهو في «صحيح البخاري» (٦٥٤٩) و«صحيح مسلم» (٢٨٢٩).

وهذا الماء قد بلغ الغاية في الحرارة، إذا دَنَوْا منه شوى وجوههم، ووقعت فروة رؤوسهم، فإذا شربوا قطَّع أمعاءهم وأخرجها من دبرهم[١].

والآية لم تُعرِّج على طعام أهل النار؛ لأنه في مقابلة شراب أهل الجنة، وقد جاء ذكره في مثل قوله تعالى:

١- ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾ [الواقعة].

٢- وقوله: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ [الصافات].

٣- وقوله أيضًا ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

٤- وقوله جل شأنه: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾﴾ [الحج].

٥- وقوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ [إبراهيم: ١٦، ١٧].

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الحميم ليُصبُّ على رؤوسهم، فينفذ الْجُمْجُمة حتى يخلص إلى جوفه، فَيَسْلِتُ ما في جوفه حتى يمرُق من قدميه، وهو الصهر، ثم يعاد كما كان»**[٢].

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٦/ ٢٣٧).

(٢) قال الترمذي: حديث غريب حسن صحيح (٢٥٨٢) وعبد الله بن أحمد (ص ٢٠) و«المسند» (٨٨٦٤) بنحوه بإسناد ضعيف، لضعف أبي السمح، وهو درّاج بن سمعان القرشي، فقد ضعفه غير واحد من الأئمة (كما قال محققوه)، والبغوي في شرح السنة (٤٤٠٦) والطبري في التفسير (١٧/ ١٣٣)، (٨٨٦) والحاكم (٢/ ٣٨٧) وضعَّفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» (٤٧٦).

الْمُنَافِقُونَ وَالْمُؤْمِنُونَ

١٦- ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا[1] أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾

وبعد الحديث عن المؤمنين والكافرين يأتي الحديث عن المنافقين، وهم فرقة من الكافرين إلا أنهم يتظاهرون بالإسلام، وقد ظهر النفاق بالمدينة بعد أن قويت شوكة المسلمين وأصبح الأعداء يخشَوْنهم، وهذه القوة جعلتْ بعض الناس يتظاهرون بالإسلام على كره منه، وهم يُضمرون له ولأتباعه العداوة والبغضاء، وجعلتْهم يتحالفون مع اليهود ضد المسلمين.

ومن هؤلاء: عبد الله بن أُبَيّ بن سلول، ورفاعة بن الثابوت، وزيد بن الصلت، ومالك بن الدخْشُم، وكان هذا في أول العهد بالهجرة، ثم أسلم مالك بن الدخشم وحسُن إسلامه، وشهد بدرًا.

وكان المنافقون يحضرون مجلس النبي ﷺ نفاقًا، فيسمعون كلامه وخطبه ومواعظه ولا يُعيرونه اهتمامًا، فإذا خرجوا من مجلسه سألوا علماء الصحابة كعبد الله بن مسعود -على وجه الاستهزاء- قائلين: ماذا كان يقول؟

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم﴾ أي: ومن أهل الكفر الذين يناصبونك العداء والبغضاء، المنافقين في الاعتقاد، منهم ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ يا محمد وهو في مجلسك، يستمع إلى حديثك بآذانه لا بقلبه، مُظهرًا الاهتمام وشدة الحرص على ما تقول، **والاستماع**: هو قصد السماع، وهو أشد السمع وأقواه، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ﴾ أي: انصرفوا من مجلسك ﴿قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ ممن حضروا مجلسك من أهل العلم بكتاب الله من أصحاب رسول الله ﷺ أمثال: عبد الله بن مسعود، وابن عباس، وأبي الدرداء، قالوا لهم على سبيل الاستهزاء: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ ما الذي قاله محمد؟ يقول ذلك قبل مفارقة المجلس، ولو كانوا حريصين على الخير لوعتْه أسماعهم وعقلَتْه قلوبهم، وعملت به جوارحهم، ولكنهم لم يسمعوه سماع قبول وانتفاع، بل كانوا معرضين عنه بقلوبهم.

---

(١) قرأ البزي بخلف عنه بقصر همزة (أَنِفًا)، والباقون بمدها وهو الوجه الثاني للبزي، وهما لغتان بمعنى واحد.

قال ابن عباس ﷺ: وقد سُئلت فيمن سُئل، فكان ابن عباس من الذين أوتوا العلم وهو أصغر القوم[١].

قال تعالى في وصفهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: أولئك المنافقون هم الذين ختم الله على قلوبهم بالكفر، فلا تقبل هدى؛ لأنهم استحبوا الكفر على الإيمان، وسدوا على أنفسهم أبواب الخير والهدى ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ وشهواتهم فلا يعقلون قولًا، ولا يفهمون حديثًا، وهذا حال كثير ممن يُمالئون المسلمين، وينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ [آل عمران:١١٩].

أخرج الطبري بسند حسن عن قتادة، قال في معنى الآية: هؤلاء المنافقون، دخَل رَجُلان: فرجل عقل عن الله وانتفع بما سمع، ورجل لم يعقل عن الله ولم ينتفع بما سمع. وكان يقال: الناس ثلاثة: فسامع عَمِل، وسامع غفل، وسامع ترك[٢].

هذا هو حال المنافقين، أما الذين اهتدوا للحق واستجابوا له فهم الذين قال الله فيهم:

١٧- ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ۝١٧﴾

أي: أما الذين شرح الله صدورهم للإيمان، فاهتدوْا واستقاموا على منهج الله، ممن رسخ الإيمان في قلوبهم وتغلَّبوا على أهوائهم، فقد زادهم الله هُدًى وجعلهم أهل علم وبصيرة وفِقْه في الدين، ووفَّقهم للتقوى، ومنحهم الخشية والطاعة، وكافأهم على ذلك بالثواب الجزيل.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ﴾ لاتباع الحق بالإيمان والانقياد له ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ فألهمهم رشدهم؛ ووفقهم للخير، وحفظهم من الشر، لأنهم يفهمون ما يستمعون إليه من الكتاب والسُّنَّة ويعملون به، ويستنبطون منه الأحكام ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ حيث يسَّرها لهم فازداد يقينهم بالله، وحصل لهم العلم النافع والعمل الصالح، فالمنافق يسمع ولا ينتفع ولا يهتدي، والمؤمن يسمع وينتفع ويهتدي.

قال عكرمة: إن ناسًا من أهل الكتاب آمنوا برسلهم وصدقوهم، وآمنوا بمحمد ﷺ قبل

---

(١) جاء ذلك عن عكرمة كما أخرجه الطبري (٢١/ ٢٠٤) والحاكم (٢/ ٤٥٧) وابن أبي حاتم، وعبد بن حميد.
(٢) يُنظَر «تفسير الطبري» (٢١/ ٢٠٣).

أن يُبعث، فلما بُعث كفروا به، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [آل عمران:١٠٦].

وكان قوم من أهل الكتاب آمنوا برسلهم وبمحمد ﷺ قبل أن يُبعث، فلما بُعث آمنوا به، فذلك قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾[1].

فالمؤمنون يزدادون إيمانًا وثباتًا ويقينًا، والمنافقون يزدادون رجسًا إلى رجسهم ومرضًا إلى مرضهم، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

وُجُوبُ المُبَادَرَةِ بِصَالِحِ الأَعْمَالِ قَبْلَ قِيَامِ السَّاعَةِ

١٨- ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ[2] أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾

أي: ماذا ينتظر الكافرون والمنافقون؟ وإلى متى يظلُّون في طغيانهم يعمهون، وفي غفلتهم ساهون؟ ألم يَحِن الوقت لانخراطهم في سلك المؤمنين قبل أن تقوم الساعة، ويَلْقَوْا جزاء كفرهم ونفاقهم؟ فهل يظلُّون بلا إيمان حتى تقوم الساعة؟ ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي: ما ينتظر هؤلاء المكذبون إلا مجيء الساعة التي وعدهم الله بها، فإنها ستأتيهم فجأة، فتبهتُهم وهم على كفرهم ونفاقهم ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [الأنبياء:٤٠]، فقد انتهت الآجال، بعد أن عُمِّروا في الدنيا ما يتذكر فيه من تذكر وجاءهم النذير، وفات وقت الندم والتذكر، ولا سبيل للرجعة.

---

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٧٧).

(٢) أسقط الهمزة الأولى من (جاء أشراطها) قالون والبزي وأبو عمرو ورويس من طريق أبي الطيب، وكذا قنبل من طريق ابن شنبوذ، وسهَّل الثانية ورش وقنبل وأبو جعفر ورويس، في وجهه الآخر، ولورش وقنبل وجه آخر هو الإبدال ألفًا مع المد المشبع، وللأزرق إبدالها ألفا بدون مد، فتحصَّل لقنبل ثلاثة أوجه: ١-إسقاط الهمزة الأولى. ٢- تسهيل الثانية. ٣- إبدالها ألفا. وحقق الهمزتين باقي القراء، وكلها لهجات عربية.

فلا تحسب أن تأخير مؤاخذتهم إفلات من العذاب، إنما هم مُرْجَوْن إلى قيام الساعة، وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ: «**بادروا بالأعمال سبعًا، فهل تنتظرون إلا فقرًا منسيًا، أو غنًى مُطْغيًا، أو مرضًا مُفسدًا، أو هرمًا مُفندًا، أو موتًا مُجهزًا، أو الدجال فشرُّ غائب يُنتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر**»(١).

وفي الآية الثانية من سورة الأنعام: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ۗ﴾ [١٥٨].

وفي الآية الأخرى من سورة النحل: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ﴾ [٣٣].

من علامات قيام الساعة: ولقيام الساعة علامات صغرى وكبرى:

ومن علاماتها الصغرى: بعثة النبي ﷺ، فهو آخر رسول إلى البشر، فقد قال ﷺ: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**» وأشار بالسبابة والوسطى(٢).

وجاء في أسماء النبي ﷺ: أنه نبي التوبة، ونبي الملحمة، والحاشر الذي يُحشر الناس على قدمه، والعاقب الذي ليس بعده نبي.

ومنها انشقاق القمر، كما قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر].

ومنها التطاول في البنيان لرعاة الغنم والفقراء والعالة وأهل البادية.

في الحديث (وأن ترى الحفاة العالة العراة رعاء الشاة يتطاولون في البنيان)

قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء].

وحياة الإنسان قريبة، وإن طال عمره، وموت الإنسان قيام ساعته.

وقُرْبُ الساعة أمر نسْبي بالنسبة إلى طول مدة الدنيا، وكل واحد يموت فقد قامت قيامته؛

---

(١) من حديث أبي هريرة عند الترمذي، وقال: حديث حسن، برقم (٢٣٠٦) وأحمد في «الزهد» (٧) والحاكم (٤/ ٣٢٠) والبيهقي في «الشعب» (١٠٥٧٢) وضعَّفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» (٤٠٠).

(٢) من حديث سهل بن سعد وأنس وأبي هريرة بزيادة: «وأشار...» وبدونها «صحيح البخاري» بأرقام (٤٩٣٦، ٥٣٠١، ٦٥٠٣، ٦٥٠٤، ٦٥٠٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٩٥٠، ٢٩٥١) و«المسند» (١٢٢٤٥) والترمذي (٢٢١٤) وابن ماجه (٤٠٤٠).

لأنه يبدأ في مشاهدة أحوال الآخرة، كما في حديث ابن عمر ﷺ: **«إذا مات أحدكم عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي، فإن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، ثم يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة»**[١].

وقد ظهرت علامات الساعة الدالة على قربها ولم ينتفعوا بها ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي: ظهرت علاماتها، فهل سينتفعون إذا قامت الساعة نفسها؟ فعلى المسلم أن يستعدَّ لقيامها بالإيمان وصالح العمل.

في حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، أو يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعَرَض من الدنيا»**[٢].

ومن هذه الفتن التي أشار إليها الحديث: ما جاء عن أُبَيِّ بن كعب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«يوشك الفرات أن ينحسر عن جبل من ذهب، فإذا سمع به الناس ساروا إليه، فيقول مَن عنده: لئن تركنا الناس يأخذون منه لَيُذْهَبَنَّ به كله، قال: فيقتتلون عليه، فيُقتل من كل مائة تسعة وتسعون»**[٣].

ومن حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«مَنَعت العراق درهمها وقفيزها، ومنَعت الشام مُدْيَها ودينارها، ومَنَعت مصر إردبَّها ودينارها، وعدتم من حيث بدأتم، وعدتم من حيث بدأتم، وعدتم من حيث بدأتم»**[٤].

فإذا منعت هذه البلاد تصدير خيراتها إلى العالم فإن هذا من علامات الساعة.

﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ من أين لهم التذكرة عند قيام الساعة؟ وما جدواها؟ وعندما تُداهمهم الساعة بأهوالها ويقفون للحساب يتذكرون ويؤمنون بالله ورسله، ولكن إيمانهم هذا لا ينفع في شيء، كما قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥].

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٦٦) و«صحيح البخاري» بأرقام (١٣٧٩، ٣٢٤٠، ٦٥١٥).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١١٨).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٩٥) ومثله عن أبي هريرة برقم (٢٨٩٤).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٩٦).

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣].

فكيف يكون حالهم إذا جاءتهم الساعة؟ وقد ندموا وتابوا ولم تنفعهم الذكرى، ولم تُقبل منهم توبة.

ومن علامات الساعة الصغرى ما جاء في الصحيحين وغيرهما عن أنس ﷺ أنه قال عند قرب وفاته: ألا أحدثكم حديثًا عن النبيِّ ﷺ لا يحدثكم به أحد غيري، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ من أشراط الساعة أنْ يُرفع العلم، ويظهر الجهل، ويفشُو الزنى، ويُشرب الخمر، ويذهب الرجال، وتبقى النساء، حتى يكون لخمسين امرأة قَيِّم واحد**»[١].

وعن أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال عن أشراط الساعة: «**يتقارب الزمان، وينقُص العلم، ويُلقى الشح، ويكثُر الهرْج**»، قالوا: وما الهرْج؟ قال: «**القتل القتل**»[٢].

وفي البخاري عن أبي هريرة أيضًا قال: بينا رسول الله ﷺ في مجلس يحدث القوم، إذ جاء أعرابي فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ في حديثه، فقال بعض القوم: سمع ما قال فكَرِهَ ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع، حتى إذا قضى حديثه قال: «**أين السائل عن الساعة**»؟ قال: هأنذا يا رسول الله، قال: «**إذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة**» قال: وكيف إضاعتها؟ قال: «**إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**»[٣].

وبالنسبة لعلامات الساعة الكبرى، فأولاها كما جاء عن عبد الله بن سلام: «**. . .وأول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب**»[٤].

وفي حديث أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**ما بُعث نبي إلا أنذر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، وإن بين عينيه مكتوب كافر**»[٥].

---

(١) البخاري برقم (٥٥٧٧، ٦٨٠٨) ومسلم برقم (٢٦٧١) وابن أبي شيبة (١٥/ ٦٥) و«المسند» (١١٩٤٤، ١٢٨٠٦).

(٢) البخاري برقم (٦٠٣٧)، وانظر: (٨٥) في كتاب العلم ومسلم (١٥٧).

(٣) البخاري برقم (٥٩، ٦٤٩٦).

(٤) «صحيح البخاري» برقم (٣٩٣٨).

(٥) البخاري برقم (٧١٣١) ومسلم برقم (٧٤٠٨).

وعند قيام الساعة لا ينفع الندم ولا تنفع التوبة، ولا يفيد العمل، ولا خلاص ولا منجا من الله إلا إليه، لقد فات وقت العمل وجاء وقت الحساب والجزاء.

الِاسْتِعْدَادُ لِلْآخِرَةِ بِالتَّوْحِيدِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَمُرَاقَبَةِ اللَّهِ تَعَالَى

١٩ - ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾

لابد لمن يريد الصلاة، أن يتعلم أوّلًا، كيف يتوضأ وكيف يصلي، وهكذا من يريد الصيام والحج وما إلى ذلك، ثم تأتي مرحلة العمل والتطبيق، إذ لا بد من العلم قبل العمل، وفي مقدمة ذلك العلم: بتوحيد الله تعالى وبأسمائه وصفاته وأفعاله، والعلم بوجوب إفراد الله تعالى بالعبادة، والعلم باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب، والعلم بالشرك الأصغر والأكبر، والكفر الأصغر والأكبر، والنفاق الأصغر والأكبر، والبدع، وما إلى ذلك من سائر العلوم الشرعية.

وقد تضمنت هذه الآية ثلاثة منجيات من عذاب النار، وبها يفوز العبد بجنة النعيم.

الأمر الأول: هو العلم اليقيني والإقرار الثابت، بأن الله تعالى واحد أحد لا شريك له ولا ولد، وأنه سبحانه المستحق للعبادة دون سواه، وتوحيد الله تعالى هو أول ما يستعد به المرء للقاء ربه.

والمعنى: فإذا قامت الساعة فاعلم -أيها الرسول- أنه لا ملجأ ولا منجا من الله إلا إليه، ولا مفزع عند قيامها إلا إلى الله الذي لا إله إلا هو، واعلم أن جميع الممالك تبطل عند قيام الساعة، فلا مُلك ولا حُكم لأحد إلا لله[1].

أو يكون المعنى: دُم -يا رسولنا- واثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله تعالى، واعلم أنه لا معبود بحق إلا الله، واستمر على هذا، واعمل بمقتضاه، واثبت على هذا العلم.

الأمر الثاني: هو الاستغفار، فقد أمر الله تعالى رسوله بالاستغفار، وهو ﷺ المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فهو ﷺ معصوم من ارتكاب السيئات، ولكن أمرَه ربه بذلك

---

(١) «تفسير الخازن» (٤/ ١٣٨).

لتستنَّ به الأمة وتقتدي به، ولِمَا جُبِل عليه من التواضع لله تعالى، بمداومة الاستغفار، هضمًا للنفس، وحرصًا على نجاة المؤمنين ومغفرة ذنوبهم، والنبي ﷺ يعلم ذلك، ولكن الآية لطلب التجديد والاستمرار.

والاستغفار: طلب المغفرة من الله تعالى، ويكون ذلك باتخاذ أسباب الغفران، بالتوبة والدعاء، وكثرة الحسنات وترك السيئات:

١- وفي صحيح مسلم وغيره قال: حدثني حامد بن عمر البكراوي -واللفظ له- حدثنا عبد الواحد -يعني ابن زياد- عن عبد الله بن سَرْجِس قال: رأيتُ النبي ﷺ، وأكلتُ معه خبزًا ولحمًا -أو قال: ثريدًا- قال: فقلت له: استغْفَرَ لك النبي ﷺ؟ قال: نعم ولك، ثم تلا هذه الآية ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ﴾ قال: ثم دُرْتُ خلفه، فنظرتُ إلى خاتم النبوة بين كتفيه-عند ناغض كتفه، اليسرى، جُمْعًا عليه خِيَلانٌ كأمثال الثآليل[١].

و كان أهل الكتاب قد قرؤوا في كتبهم أن النبي ﷺ هو آخر الأنبياء، فكانت بعثته ﷺ من علامات الساعة، وكانوا يقرؤون في كتبهم أن خاتم النبوة بين كتفيه ﷺ.

٢- ومعنى ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ قد يُطْلَق الذنب على الغفلة عن ذكر الله تعالى، فهو استغفار من الغفلات، كما جاء في الحديث عن الأغر المزني: «**إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة**»[٢].

والغيْن: هو الستر والتغطية، بسبب الانشغال في أمور الأمة.

وقيل: هو السكينة التي تغشى القلب، فيستغفر الله تعالى لإظهار العبودية والافتقار إليه، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

٣- وقد يغشى القلبَ إعظامٌ وإجلالٌ لله تعالى، ويكون الاستغفار في هذه الحالة شكرًا

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٣٤٦) و«المسند» (٣٤/ ٣٧٥) (٢٠٧٨٠) حديث صحيح، وانظر (٢٠٧٧٠) وإسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات، (محققوه) والترمذي في «الشمائل» (٢٢) والنسائي في «الكبرى» (١٠١٢٧، ١١٤٩٦)، ومصنف عبد الرزاق (٢٠٧٩٦).

(٢) من حديث الأغرِّ الْمُزَني في «صحيح مسلم» برقم (٢٧٠٢).

لله تعالى، كما قال النبي ﷺ: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»[١].

وقيل: إن ذنب الأنبياء ترك الأفضل دون مباشرة القبيح، وذنوب الأمة مباشرة القبائح من الصغائر والكبائر[٢].

٤- وكان النبي ﷺ يقول: «**رب اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي خطاياي وعمْدي وجهلي وهزلي، وكل ذلك عندي**» والحديث عن أبي موسى عن أبيه[٣].

٥- وكان ﷺ يقول في آخر الصلاة، كما جاء عن علي بن أبي طالب ﷺ: «**اللهمَّ اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت إلهي لا إله إلا أنت**»[٤].

٦- وكان ﷺ يقول: «**والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»[٥].

٧- ولما قال إبليس: «**وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم، قال الله ﷻ: وعزتي وجلالي، لا أزال أغفر لهم ما استغفروني**»[٦].

ثم أمر الله نبيه أن يستغفر لذنوب أهل بيته وأمته رجالًا ونساءً، فقال: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ﴾ واستغفار النبي لأمته إكرام من الله تعالى لهم، وهو الشفيع المجاب فيهم.

سُئل سفيان بن عيينة عن فضل العلم، فقال: ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ فأمر بالعمل بعد العلم، وترجم البخاري في صحيحه، فقال: بابُ العلم قبل القول والعمل.

---

(١) يُنظَر: «تفسير الخازن» (٤/ ١٣٩) والحديث رواه المغيرة بن شعبة في «صحيح مسلم» برقم (٢٨١٩) و«صحيح البخاري» برقم (٤٨٣٧).

(٢) «تفسير النسفي» بحاشية «تفسير الخازن».

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٦٣٩٨).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٧٦٩) عن ابن عباس و(٧٧١) عن علي بن أبي طالب ﷺ.

(٥) «صحيح البخاري» برقم (٦٣٠٧) عن أبي هريرة.

(٦) من حديث أبي سعيد الخدري في «المسند» (٣/ ٢٩)، برقم (١١٧٢٩، ١١٢٣٧) حديث حسن، وجاء أيضًا بأسانيد أخرى بأرقام (١١٢٤٤، ١١٣٦٧، ١١٢٣٧)

ثم أمر الله نبيه أن يستغفر أيضًا للمؤمنين والمؤمنات، وهذا الاستغفار من جملة حقوقهم بسبب إيمانهم، وهذا يتضمن نصحهم، وحب الخير لهم، ودَفع الشر عنهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، والعفو عن مساوئهم، والصلح بين المتخاصمين منهم، ونحو ذلك.

الأمر الثالث: مراقبة الله تعالى في السر والعلن، وهي مرتبة الإحسان

فقال تعالى في ختام الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾ أي: يعلم تقلبكم في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات وبطونهن، ويعلم تصرفاتكم وحركاتكم في حال اليقظة نهارًا، ويعلم مستقركم في نومكم ليلًا، ويعلم مثواكم في الدنيا وفي القبور، ويعلم تصرفكم وأعمالكم في الدنيا، ومصيركم في الآخرة، فأعِدُّوا الزاد ليوم المعاد.

ويعمُّ ذلك أنه سبحانه يعلم جميع أحوالكم، لا يخفى عليه شيء منها وإن دقَّ وخفي.

- قال تعالى: ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام].

وقال أيضًا: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٣].

وقال أيضًا: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾ [هود: ٦].

والإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

لِلْمُنَافِقِينَ فِي السُّورَةِ عَشْرَةُ أَوْصَافٍ

الْوَصْفُ الْأَوَّلُ: كَرَاهِيَةُ الْجِهَادِ

٢٠، ٢١- ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ﴿٢١﴾﴾

وبعد أن بدأت السورة بالحديث عن المنافقين، ثنَّتْ بذكر مظهر من مظاهر النفاق، وذلك أنه حين يُدعى المسلمون إلى الجهاد في سبيل الله، فإن المنافقين يَضيقون به ذرعًا؛

لأن التظاهر بالإسلام سُيلجئهم إلى الخروج للقتال في مصافّ المسلمين، ويُعرِّضهم للقتل، وهم لا يصدقون بالبعث، ولا يرجون ثوابًا في الآخرة، فيكونون في حيرة من أمرهم، وهذا بخلاف المؤمنين، فإنهم يتمنون الشهادة في سبيل الله، ويودون دحْر العدوّ، وهذا يُظهر الفرق بين المؤمنين والمنافقين، كما تقرر هذه الآية: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي: هلَّا نزلت سورة جديدة من الله تعالى تأمرنا بجهاد الكفار وتشتمل على أحكامه وآدابه، فالمؤمنون يحرصون على الجهاد في سبيله؛ لأنهم يعلمون أنه ذروة سنام الإسلام، وأن المسلم يرجع من ساحة القتال بإحدى الحسنيين: إما النصر وإما الشهادة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ﴾ [التوبة: ٥٢].

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤].

والآية التي نحن بصددها تبيِّن حرص المؤمنين على الجهاد في سبيل الله وحبهم له، وفرحهم بالوحي المنزل في ذلك، وأنهم يأنسون به ويستوحشونه إذا أبطأ عليهم، وأن هذا على العكس من حال المنافقين.

وقد وصف الله تعالى حال المتخاذلين عن الجهاد بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ﴾ [النساء: ٧٧].

فالمؤمن ينتظر الأمر بالقتال، فإذا تأخَّر عنه هذا الأمر قال: يارب، هلَّا أمرتنا بالقتال، أما المنافق فإنه يكره ذلك ويقول: هلَّا تأخر هذا الأمر بالقتال ولم ينزل، وذلك لِمَا انطوت عليه نفوسهم من جُبن وخوَر.

﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ ملزمة للعمل بما فيها ﴿مُّحْكَمَةٌ﴾ بالبيان والفرائض وليس فيها نسخ، كما قال مجاهد وقتادة: كل سورة ذُكر فيها الجهاد فهي محكمة، وهي أشد القرآن على المنافقين.

والسورة المحكمة: هي التي توجب القتال إيجابًا واضحًا غير متشابه، أي: لا يقبل التأويل، ولا يَرِدُ عليها النسخ، وذلك مثل ما جاء في هذه السورة: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ الآية [٤] فهي آية ظاهرة الدلالة على فرضية القتال ولم تُنسخ، وهذا ما تمناه المسلمون، أما غيرهم فإنهم يكرهون ذلك أشد الكراهية، فإذا أُنزلت سورة ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ ذكرًا صريحًا، وهو أمر شاق على النفوس، فإن ضعفاء الإيمان لا يثبتون على امتثال هذه الأوامر، ولذا: ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وشك في دين الله ونفاق؛ فإنهم يتضجرون من ذلك و﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: مثل الذي غُشي عليه خوفًا من الموت، حيث يكون بصره شاخصًا لا يتحرك فزعًا من الخوف، وذلك لشدة كراهتهم للقتال، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩].

وهذا كقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء: ٧٧]

وكان الأولى بهم والأجدر أن يطيعوا أمر الله ورسوله، ويقولوا ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ فهذا هو القول المعروف بين المؤمنين إذا دُعوا إلى أمر الله ورسوله، أن يقولوا: سمعنا وأطعنا، قال تعالى: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ لا طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي: لقد كان الأولى لهؤلاء الذين في قلوبهم مرض وشك في دين الله -أن يطيعوا الله ورسوله، ويقولوا قولًا موافقًا للشرع، بدل أن يضطرب أمرهم، ويتسللوا لواذًا، هربًا من حضور ساحات الجهاد.

ويصح أن يكون المعنى أنهم يقولون على وجه الاستهزاء والخديعة: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي: طاعة لك يا محمد، وقول طيب جميل.

﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: إذا جدَّ الجدُّ، فوجب القتال، وجاء أمر الله بفرضه، فلا يخلو حالهم من أمرين:

إما أن يحضروا القتال بدون نية فيُهزموا، أو يخسروا أنفسهم دون أجر ولا مثوبة.

وإما أن ينسحبوا من القتال، كما فعل ابن أُبيٍّ يوم أُحُد، ورجع بثلث الجيش وهو يقول: لا ندري علام نقتل أنفسنا؟

ولو أنهم كانوا صادقين مع الله تعالى في نياتهم، مخلصين في توجههم إليه، لكان هذا

خيرًا لهم من الكذب والمعصية والمخالفة، وهذا معنى ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: لو أخلصوا الإيمان لله، وقاتلوا بنية الجهاد، لكان ذلك خيرًا لهم في الدنيا بالنصر والعزة والتمكين، وفي الآخرة بالظفَر بالجنة، دار النعيم.

الْوَصْفُ الثَّانِي لِلْمُنَافِقِينَ: قَطِيعَةُ الرَّحِمِ

٢٢- ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ[١] إِن تَوَلَّيْتُمْ[٢] أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟[٣] أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾

في الآية السابقة بيان أن من يصدق الله ويبذل الجهد في طاعته وامتثال أمره فإن هذا خير له، وفي هذه الآية بيان أن من لم يصدق الله ويعرض عن طاعته فهو من أهل الفساد في الأرض، وتقطيع الأرحام.

وتبيِّن هذه الآية أن قطيعة الرحم من خصال أهل النفاق، وأن المتخاذلين عن قتال العدوِّ ربما قالوا: كيف نقاتلهم وهم من ذوي أرحامنا وعشائرنا؟ وكيف نقتل أنفسنا، أو يقتل بعضنا بعضًا؟! ولذلك فإن القرآن يُوبخهم على جُبنهم وكراهتهم للجهاد في سبيل الله، ويقول لهم: هل أنتم متحققون من أن إعراضكم عن القتال سببه الحرص على صلة الرحم والجوار، أو القرابة والنسب؛ حتى لا يقتل بعضكم بعضًا، وهل أنتم متأكدون أنكم لن تفسدوا في الأرض بسفك الدماء وتقطيع الأرحام؟

ولعلكم إن أعرضتم عن الإسلام وتوليتم شؤون البلاد أن تفسدوا في الأرض بالكفر بالله، ومعصية الرسول ﷺ، وتقطيع أواصر الأخوة والمودة بينكم وبين غيركم، ذلكم قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ أي: لعلكم ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: أعرضتم عن دين الله وسنة رسوله، وفارقتم أحكام القرآن، وتركتم الجهاد في سبيل الله ﴿أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالمعاصي، وسفك الدماء، والبغي، والسلب، والنهب، وتمزيق وحدتكم ﴿وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ بمقاتلة الأقارب بعضهم لبعض.

(١) قرأ نافع بكسر السين من (عسِيتم)، والباقون بفتحها وهما لغتان.

(٢) قرأ رويس بضم التاء والواو وكسر اللام مشددة من (تُوُلِّيتم) على البناء للمفعول، والباقون بفتح التاء والواو واللام مشددة على البناء للفاعل.

(٣) قرأ يعقوب بفتح التاء وسكون القاف وفتح الطاء مخففة من (وتَقْطَعوا) مضارع قطَع، والباقون بضم التاء وفتح القاف وكسر الطاء مشددة، مضارع قطَّع.

والآية تشير إلى **أمرين**: إما التزام لطاعة الله وامتثال لأوامره، وإما إعراض عن أوامر الله وعمل بمعاصيه، ومن ذلك قطيعة الرحم.

ويصح أن يكون المعنى: فهل يُتوقع منكم إن أخذتم الولاية على الناس إلا أن تُفْسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم؟

فالتولي إما أن يكون بمعنى: ترك الجهاد، وهو المناسب للسياق.

وإما أن يكون بمعنى: الولاية والحكم.

ومن الأحاديث في فضل صلة الرحم ما يلي:

١- في الصحيحين وغيرهما: عن عائشة ﵂ أن النبي ﷺ قال: «**الرحم شُجْنة من الله، مَنْ وصلها وَصَلْتُه، ومن قطعها قطعْتُه**»[١]، والشجنة: هي القرابة المشتبكة.

٢- وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى خلق الخلق، حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم، فأخذت بحَقْوِ الرحمن، فقال: مه، فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم، أما ترضَيْن أن أصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وأَقْطَع مَن قطَعِك، قالت: بلى، قال: فذاك لك**»، ثم قال رسول الله ﷺ: «**اقرؤوا إن شئتم** ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾»[٢].

الحِقْو: هو مشدُّ الإزار من الإنسان، كما يمسك القريب بقريبه.

ويصح أن يكون المعنى: أن ملَكًا من الملائكة تعلَّق بالعرش، وتكلَّم بلسان الرحم بأمر الله تعالى.

٣- وعن أبي بكرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من ذنب أحرى أن يُعجِّل الله عقوبته في الدنيا، مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم**»[٣].

---

(١) البخاري (٥٩٨٩) ومسلم (٢٥٥٥) بلفظ: «الرحم معلقة بالعرش تقول. . . » والبيهقي (٧٨٩).

(٢) يُنظَر: البخاري بأرقام (٤٨٣٠، ٤٨٣١، ٤٨٣٢) ومسلم برقم (٢٥٥٤) والنسائي في «الكبرى» (١١٤٩٧) وابن حبَّان (٤٤) والحاكم (٢/ ٢٥٤) والبيهقي (٧٩٣٤).

(٣) «المسند» (٥/٣٨) برقم (٢٠٣٧٤، ٢٠٣٩٨) وإسناده صحيح، كما قال محققوه، والبزار في مسنده (٣٦٧٨) وابن حبان (٤٥٥) والبيهقي في الشعب (٦٦٧٠) والبغوي في شرح السنة (٣٤٣٨) وأبو داود برقم (٤٩٠٢) والترمذي برقم (٢٥١١) وابن ماجه (٤٢١١)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٩).

٤- وعن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من سَرَّه أن يُبسط عليه رزقه، أو يُنسأ في أثره، فليصل رحمه»**[١].

ففي هذا بيان أن صلة الرحم تسبب سعة الرزق وطول العمر.

٥- ومن حديث عبد الله بن عمرو ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: **«ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قُطعت رحمه وصلها»**[٢].

فصلة الرحم لا تكون برد الجميل ولا التعامل بالمثل، وإنما الواصل هو الذي يصل من قطعه، ويعفو عمن ظلمه، ويحسن إلى من أساء إليه.

٦- وفي الحديث القدسي: عن عبد الرحمن بن عوف ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«قال الله تعالى: أنا الرحمن خلقت الرحم، وشققت لها اسمًا من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته»**[٣].

٧- وعن عبد الله بن سلام ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: **«أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وصَلُّوا بالليل والناس نيام؛ تدخلوا الجنة بسلام»**[٤]، فصلة الرحم من أسباب دخول الجنة، وقطيعة الرحم تسبب حرمان دخولها.

كما في حديث: **«لا يدخل الجنة قاطع»**[٥]. أي: قاطع رحم. قال تعالى في عقوبة قاطع الرحم:

٢٣- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾

---

(١) البخاري برقم (٥٩٨٦) ومسلم برقم (٢٥٥٧) واللفظ له.

(٢) البخاري برقم (٥٩٩١) و«المسند» (٢/ ١٦٣) برقم (٦٥٢٤، ٦٧٨٥) بإسناد صحيح ورجال ثقات (محققوه).

(٣) من حديث عبد الرحمن بن عوف وأبي هريرة «المسند» (١/ ١٩٤) بأرقام (١٦٥٩، ١٦٨١، ١٠٤٦٩) قال محققوه: صحيح لغيره، ورجاله ثقات، وهو في «سنن الترمذي» (١٩٠٧) وقال: حديث صحيح، و«صحيح سنن أبي داود» (١٤٨٦) وابن حبَّان (٤٤٣) «الإحسان» والحاكم (٤/ ١٥٧) و«السلسلة الصحيحة» (٥٢٠) وابن أبي شيبة (٨/ ٣٤٨).

(٤) ابن أبي شيبة (٨/ ٣٤٨) والترمذي (٢٤٨٥) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٢٦٣٠) والحاكم (٤/ ١٥٩)، والمسند (٢٣٧٨٤) بإسناد صحيح ورجال ثقات رجال الشيخين، كما قال محققوه.

(٥) من حديث جبير بن مطعم في صحيح مسلم (٢٥٥٦).

بيَّن ﷻ في هذه الآية عقوبة المفسدين في الأرض، القاطعين أرحامهم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: المفسدون في الأرض، قاطعو الرحم والذين في قلوبهم مرض ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ طردهم وأبعدهم من رحمته وقربهم من سخطه ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ أي: جعلهم لا يسمعون ما ينفعهم ولا يبصرونه، فهم بسبب إعراضهم عن الحق كالصُّمِّ الذين لا يسمعون، والعُمي الذين لا يبصرون، فلم يتبيَّنوا حجج الله ودلائل وحدانيته؛ لأنهم لَمَّا عطَّلوا حواسَّهم عن التدبر والتفكر صاروا كالأنعام أو أضل سبيلًا.

الْوَصْفُ الثَّالِثُ: عَدَمُ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَعَدَمُ الِانْتِفَاعِ بِمَا فِيهِ

٢٤- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾

أي: فكيف يمكن لهؤلاء المنافقين أن يتدبروا معاني القرآن، وما فيه من المواعظ والزواجر، والحجج الظاهرة، والبراهين القاطعة، إذا كانوا لا ينتفعون بما يسمعون أو يبصرون، وكانت عقولهم لا تتفاعل مع معاني الخير والصلاح؟

إن الله تعالى يُبكِّتهُم ويوبِّخهم على إصرارهم على الكفر، ويَهيبُ بهم أن يتركوا الكفر الذي استحقوا بسببه اللعنة، ويحضهم على التأمل في القرآن مع حضور القلب وصَرْفه عن الشواغل وجمع الهمة حال تلاوته، وإخلاص النية في ذلك، مع الاقتصار على الحلال والطيب في الغذاء؛ حتى تذهب عنهم الموانع التي صرفَتْهم عن تدبره.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ هلَّا يتدبر هؤلاء المنافقون مواعظ القرآن وأوامره ونواهيه وحججه ليدلهم على كل خير وينهاهم عن كل شر، ويملأ قلوبهم بالإيمان، وأفئدتهم باليقين، ويوصلهم إلى جنة الله وكرامته؟ ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ بل إن على هذه القلوب أقفالًا مغلقة حالت بينهم وبين التفكر، فلا يصل إليها شيء من هذا القرآن؟ فهم لا يفهمون ولا يعقلون، ولا تتفتح قلوبهم للحق.

والمعنى: أن الله تعالى قد سجَّل في علمه الأزلي أن على هذه القلوب أقفالًا -جمع قُفْل- وهو الآلة التي تُقفل بها الأبواب، فأخبر سبحانه أن هناك ثلاثة موانع، وهي: الصمم، والعمى، والقلوب المقفلة، وأن هذه الثلاثة هي سبب إعراضهم عن الإيمان، وعدم تدبر مواعظ الله وحِكَمه، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ

ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء].

وعدم تدبر القرآن هجر له، وقد قال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان].

قال الفخر الرازي: إن القلب خُلق للمعرفة، فإذا لم تكن فيه المعرفة فكأنه غير موجود[1].

والمعنى: بل قلوبهم قاسية مظلمة، كأنها مكبَّلة بالأقفال الحديدية فلا ينفُذ إليها نور ولا إيمان.

عن هشام بن عروة عن أبيه قال: تلا رسول الله ﷺ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ فقال شاب من أهل اليمن: بل عليها أقفالها حتى يكون الله ﷻ يفتحها أو يفرِّجها، فما زال الشاب في نفس عمر ﷺ حتى ولِيَ؛ فاستعان به[2].

ويؤخذ من هذه الآية: وجوب التفكر والتدبر في آيات القرآن الكريم، والعمل بما فيها من هدايات وإرشادات وحِكَم ومواعظ وأحكام وأوامر ونواهٍ؛ لأن عدم الامتثال فيه هجر للقرآن، وفيه قسوة القلوب وضلال النفوس.

الوَصْفُ الرَّابِعُ لِلْمُنَافِقِينَ: الرُّجُوعُ عَنِ الحَقِّ إِلَى الضَّلَالِ

٢٥- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ[3] لَهُمْ﴾

أي: إن هؤلاء المنافقين المتظاهرين بالإسلام، لم ينضموا إلى صفوف المسلمين لمحاربة أعداء الله، مع علمهم أن القتال حق، وعدم الوقوف مع المسلمين رِدَّة عن الهُدَى إلى الضلال، ومثَلُهم في ذلك مثَلُ الذي اعتنق الإسلام ثم ارتدَّ عنه إلى الكفر، وكذا المنافق الذي خالط المسلمين وتعرَّف على محاسن الإسلام، وتبيَّن له الهدى من الضلال، ومع هذا فهو مُصِرٌّ على نفاقه، فإذا خلا بأعداء الإسلام أظهر ما بداخله من

---

(١) «التفسير الكبير» (٢٨/ ٦٦).

(٢) «تفسير الطبري» (٢٦/ ٣٧) و«المطالب العالية» (٤١٠٤).

(٣) قرأ أبو عمرو بضم الهمزة وكسر اللام وفتح الياء على البناء للمجهول في (وأُملِيَ لهم) ونائب الفاعل ضمير يعود على الشيطان، أو هو الجار والمجرور (لهم) وقرأ يعقوب مثل أبي عمرو، إلا أنه سكَّن الياء، والباقون بفتح الهمزة واللام وألف بعدها، فعل ماضٍ، والفاعل ضمير يعود على الشيطان.

بُغضٍ للإسلام وحُبٌّ لأعدائه.

هذه المعاني كلها يشملها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ أي: رجعوا عن الهدى والإيمان، إلى الغيّ والضلال، ونكصوا على أعقابهم كفارًا بالله تعالى، وارتدوا على أدبارهم، فرجعوا عن الجهاد مع المسلمين ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ ووضح لهم الحق وظهرت أدلته، هؤلاء المنافقون ليس عندهم دليل ولا برهان، بل خدعهم الشيطان، وغرهم بطول الأمل وطول الأجل، فاستدرجهم إلى الضلال، وزين لهم أعمالهم.

قال قتادة: هم كفار أهل الكتاب، كفروا بمحمد ﷺ بعدما عرفوه ووجدوا نعْته في كتبهم[(١)].

وقال ابن عباس والضحاك والسُّدِّي: هم المنافقون، آمنوا أوَّلًا ثم كفروا ثانيًا[(٢)].

والآية عامة تشمل كل ما ذُكر، وتشمل المرتد عن الإسلام إلى غيره، وتشمل الْمُعرض عن ساحة القتال مع المسلمين، بعد أن تبيَّن له أنه حق، للدفاع عن النفس، أو لإزالة العقبات من طريق الدعوة.

ثم بيَّن سبحانه السبب في هذا الضلال والخسران فقال: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي: زيَّن لهم خطاياهم، وسهَّل لهم الأمر الذي يستصعبونه، ويسَّر لهم الوقوع فيها، وصوَّر لهم القبيح حسنًا ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: مدَّ لهم في الأمل، فخدعهم وغرَّر بهم. ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء]

وأُسنِد التسويل والإملاء إلى الشيطان؛ لأنه السبب في هذا الضلال والخسران.

الْوَصْفُ الْخَامِسُ: إِرْضَاءُ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى حِسَابِ الدِّينِ

٢٦- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ[(٣)]﴾

ولَمَّا استدْرج الشيطان المنافقين إلى الضلال، بعدما تبيَّن لهم الهدى، سوَّل لهم أن يوافقوا أهل الشرك والكفر في بعض الأمور، قائلًا لهم: إن الموافقة في بعض الأمر لا

---

(١) «تفسير عبد الرزاق» (٢/ ٢٢٤) و«المصنف» (١٠٢١٢) والطبري (٢١/ ٢١٧).

(٢) «تفسير الخازن» (٤/ ١٤١).

(٣) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بكسر الهمزة من (إسرارهم) مصدر أَسَرَّ، والباقون بفتح الهمزة مصدر سر.

تعني عدم الاهتداء، كما لو وافق المسلمون اليهود في التخلي عن الحب في الله والبغض في الله، أو التخلى عن ذكر آيات الجهاد وآيات العداء لهم، أو وافقوا لجان حقوق الإنسان ونحوها في عدم تطبيق الحدود الشرعية، أو في مساواة المرأة بالرجل في الميراث والشهادة، أو في إباحة الخمور، ومزاولة الزنى إذا كان بالتراضي بين الطرفين، وكل ذلك بقصد إرضاء الطرف الآخر.

﴿ذَٰلِكَ﴾ التسويل والتغرير بالمنافقين، حتى يتمادُوا في الكفر ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ من اليهود والنصارى، وغيرهم ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ الموافق لأهوائهم المخالف لأمر الله تعالى وأمر رسوله، فلن نتنازل لكم عن الدين كله، حتى لا ينكشف حالنا، وإنما سنتنازل بالتدريج شيئًا فشيئًا دون ضجة إعلامية، حتى نوازن بين رضى جميع الأطراف.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أي: يعلم ما يخفيه هؤلاء في صدورهم وما يسرونه، ومنه ما يتآمرون به مع الأعداء على الإسلام وأهله، وسوف يجازيهم الله عليه، فليحذر المسلمون من طاعة غير الله سبحانه، ومخالفة أمر رسوله ﷺ.

ومن هذا القبيل ما ذكره الله تعالى عما أسرَّه المنافقون لليهود في قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحشر]

قال المنافقون ذلك سرًّا لليهود، فأظهره الله تعالى وفضحهم، فهو سبحانه يعلم ما يبطنه أعداء الإسلام له من الكيد والدسّ والتآمر على الإسلام والمسلمين، كقوله تعالى عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عمران: ١٦٨].

وقوله أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾ [آل عمران].

وكما قال المنافقون: ﴿لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾ فقال تعالى مجيبًا لهم: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١].

الْوَصْفُ السَّادِسُ: سُوءُ خَاتِمَةِ الْمُنَافِقِينَ عِنْدَ الْمَوْتِ

٢٧- ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾

بيَّن ﷻ في هذه الآية، أن المنافقين سيُعجَّل لهم العذاب من أول منازل الآخرة، بدءًا من الموت، ومرورًا بعذاب القبر، وإلى أن يستقروا في العذاب الخالد ﴿فَكَيْفَ﴾ تكون حالهم الشنيعة ورؤيتهم الفظيعة، عندما تحضُرهم ملائكة العذاب لقبض أرواحهم، ومعهم مقامع من حديد، يضربون بها وجوههم وظهورهم؟ وكيف يصنعون ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فتقبض أرواحهم وهم ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾؟ لاشك أن حالهم سيكون أسوأ حال وأقبحه، وهذا كقوله تعالى عن الكفار: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنفال].

وقوله تعالى عن الظالمين: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ لهم بالعذاب، وهم يقولون: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ مما أنتم فيه من الذل والهوان، فيقال لهم: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

الْوَصْفُ السَّابِعُ: إِبْطَالُ ثَوَابِ أَعْمَالِ الْمُنَافِقِينَ الصَّالِحَةِ

٢٨- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ[1] فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾

أي: وهذا العذاب الذي استحقه المنافقون والظالمون من لحظة الموت إلى الخلود في نار جهنم، بسبب أنهم سلكوا طريق النفاق، فاتبعوا ما يُغضب الله تعالى من الكفر والمعاصي والنفاق، وكرهوا ما يرضيه من الإيمان والطاعة، فأبطل الله أعمالهم ولم يقبلها منهم، و﴿ذَٰلِكَ﴾ الضرب الأليم من الملائكة لهم يكون حين قبض أرواحهم عند الموت بسبب سخط الله تعالى عليهم؛ لأنهم كرهوا ما يرضيه واتبعوا ما يسخطه، وهذا معنى ﴿بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ أي: من النفاق والشرك والكفر والمعاصي ﴿وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ أي: كرهوا ما يرضيه تعالى من الإيمان والتوحيد والعمل الصالح،

(١) قرأ شعبة بضم الراء من (رُضوانه) والباقون بكسرها، وهما لغتان.

ومنه الجهاد في سبيل الله، ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: أبطل ثواب أعمالهم الصالحة في الدنيا من صدقة وصلة رحم، ونحو ذلك؛ بسبب اتباعهم ما يُسخط الله تعالى، وكراهيتهم لما يُحلُّ عليهم رضوانه سبحانه، وهذا بخلاف من اتبع ما يُرضي الله، وكره سخطه، فإنه يُكفِّر عن سيئاته، ويضاعف أجره وثوابه.

الْوَصْفُ الثَّامِنُ: كَشْفُ مَا فِي قُلُوبِ الْمُنَافِقِينَ مِنَ الضَّغَائِنِ

٢٩- ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾

في هذا تهديد بأن يُظهر الله مكنون الصدور من العداوات والبغضاء؛ حتى يكون نفاقهم مفضوحًا ومعلومًا عند الناس.

إن الله تعالى مطلع على ما يضمره المنافقون من الكفر والمكر والكيد للإسلام وأهله، وأسرارهم غير خافية عليه سبحانه، فعليهم أن يعلموا أنه لا طائل من مكايدهم، وأنها ستعود عليهم بخيبة الأمل.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أيعتقد المنافقون الذين امتلأت قلوبهم بمرض الكفر والضلال والشبهة والشهوة ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ أي: أن لن يكشف الله أمرهم ويفضح سرهم لعباده المؤمنين، ويُظهر ما في قلوبهم من الضغائن والأحقاد على الإسلام والمسلمين؟

والجواب: بلى، فإن الله تعالى يميز الصادق من الكاذب، ولن يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وقد كشف الله أمرهم في سورة (التوبة) وبيَّن فضائحهم التي تكشف نفاقهم، وسوف يجازي كلًّا بما يستحق.

الْوَصْفُ التَّاسِعُ: ظُهُورُ النِّفَاقِ فِي تَقَاسِيمِ الْوَجْهِ وَفَلَتَاتِ اللِّسَانِ

٣٠- ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾

أي: ومهما تظاهر المنافقون بالإسلام، ومهما بالغوا في كتمان أمرهم، فإن الله تعالى لو أراد أن يُطْلع خلقه عليهم ويُعْلمهم بأوصافهم واحدًا واحدًا لفعل، سواء أكان ذلك وقت التنزيل أم على مدى الأيام والأعوام ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ أطلعْناك عليهم، أيها

الرسول، وأيها المخاطب ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي: لو شئنا لأريناك أشخاصهم عيانًا، أوْ ذكَرْنا لك أوصافهم الخاصة فعرفتهم بعلاماتهم، ولكن الله ستر عليهم لعلهم يتوبون ويثوبون إلى رشدهم.

قال ابن عطية: وأعظم ما رُوي في اشتهارهم أن رسول الله ﷺ أمر يومًا فأُخرجتْ منهم جماعة من المسجد، كأنه وسَمهم بهذا، لكنهم أقاموا على التبرِّي من ذلك، وتمسَّكوا بلا إله إلا الله، فحُقِنت دماؤهم[١].

ويُعرَف النفاق في لهجة المنافقين، ونَبْرة أصواتهم، وإمالتهم للقول عن استقامته، وانحراف منطقهم في الخطاب مما يبدو على ألسنتهم ويُظهر مقاصدهم، وغير ذلك من أوصافهم ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ فلتات اللسان، وفحوى الكلام، فإن اللسان مغرفة القلب، يُظهر ما فيه من الخير والشر، واللحن في القول منه ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم.

فالمحمود منه: صرف الكلام عن التصريح به إلى المعنى، وهو ما يسمى بالتعريض أو التلميح، كما في الأثر عن عمران بن حصين ﷺ: **«إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب»**[٢].

وكان النبي ﷺ يقول كما في حديث أنس ﷺ: **«ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا»**؟[٣] فيعمم ولا يخصص.

وفي الحديث عن أم سلمة ﷺ: **«فلعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض»**[٤].

أي: أبلغ في الكلام، ومنه ما ذكرتْه الآية: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾.

ومن ذلك قول النبي ﷺ لبعض أصحابه في غزوة الأحزاب: **«وإن وجدتموهم -أي: بني قريظة- على الغدْر، فالْحِنوا لي لحنًا أعرفه»**[٥].

---

(١) «تفسير ابن عطية» (٥/ ١٢٠).

(٢) أخرجه ابن عدي مرفوعًا (١/ ٤٩) وأخرجه أيضًا عن علي بن أبي طالب (١/ ٤٩)، قال الألباني: أثر صحيح موقوف على عمران بن حصين، كما في الأدب المفرد برقم (٨٥٧) وهو في سنن البيقهي الكبرى (٢٠٦٣١).

(٣) من حديث طويل في البخاري (٥٠٦٣) ومسلم (١٤٠١).

(٤) من حديث أم سلمة في البخاري (٢٦٨٠، ٦٩٦٧، ٧١٦٩) ومسلم (١٧١٣).

(٥) يُنظَر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ٢٣٠).

أما اللحن المذموم فهو: صرْف الكلام عن الصواب إلى الخطأ، أو التصحيف فيه.

قال عثمان ﷺ: ما أسرَّ أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه.

وعن أبي مسعود عقبة بن عمرو ﷺ قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: **«إن منكم منافقين، فمن سمَّيتُه فليقُم، قم يا فلان، قم يا فلان، حتى سَمَّى ستة وثلاثين رجلًا، ثم قال: إن فيكم -أو منكم- فاتقوا الله»**[1].

وبعد نزول هذه الآية كان النبي ﷺ يعرفهم بفحوى كلامهم على فساد باطنهم.

قال أنس ﷺ: ما خفي على النبي ﷺ بعد هذه الآية شيء من المنافقين، كان يعرفهم بسيماهم، وكان هذا إكرامًا للنبي ﷺ.

ورد أن النبي ﷺ عرَّف حذيفة بالمنافقين أو ببعضهم، ومع هذا فإن النبي ﷺ كان يعاملهم على ظاهرهم، لعل الله يتوب عليهم.

ثم ختم الله الآية ببيان علمه الشامل التام بكل ما في الكون، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ لا يخفى عليه من أطاعه ومن عصاه، وسوف يجازي كلًّا بما يستحق.

الْوَصْفُ الْعَاشِرُ: إِظْهَارُ مَكْنُونِ صُدُورِ أَهْلِ النِّفَاقِ لِلْخَلَائِقِ

٣١- ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ[2] حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ٣١﴾

أخبر ﷻ المؤمنين أن الدنيا دار بلاء، وأنه جلَّ شأنه مبتليهم فيها، وبشَّر الصابرين منهم بالأجر العظيم، كما فعل بأنبيائه وصَفْوة خلقه، فقد صبروا وأوذوا حتى أتاهم نصر الله، ومع إحاطة علم الله تعالى بكل ما كان وما يكون وما هو كائن، فإن من حكمة الله تعالى أن يُظهر أثَر علْمِه بأحوال الناس، لتقوم الحجة عليهم، ولا يَظهر

---

(١) «المسند» (٥/ ٢٧٣) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١١٢): فيه عياض بن أبي عياض عن أبيه ولم أر من ترجمهما، وقد ضعَّفه محققو «المسند» (٢٢٣٤٨) لجهالة عياض الراوي عن أبي مسعود، وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٢٨٦) والبخاري في التاريخ (٧/ ٢٢).

(٢) قرأ شعبة بالياء في هذه الأفعال الثلاثة (ولنبلونكم، نعلم، ونبلو) لمناسبة (والله يعلم)، والباقون بالنون لمناسبة (ولو نشاء) وقرأ رويس بإسكان واو (ونبلو) تخفيفًا، والباقون بفتحها على الأصل.

هذا إلا في التكاليف بالأوامر والنواهي، فيتبيَّنُ المطيع من العاصي والكافر، وهذا ما يسمى بالابتلاء والاختبار.

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أي: نعاملكم معاملة المختبر لكم، وذلك بالتكاليف الشرعية، ومنها ما يشق على النفوس، كالجهاد في سبيل الله لقتال أعدائه ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: نُظهر ونكْشف علمنا -لكم وللملائكة- بأهل الصبر على مشاق الجهاد من غيرهم ﴿وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ أي: نظهر أحوالكم ونكشفها، ونختبر أقوالكم وأفعالكم، فيتميز الصادق منكم والكاذب، ويتميز قويُّ الإيمان من ضعيفه، وصحيح العقيدة من سقيمها، وذلك لإقامة الحجة على العباد بما يصدُر منهم، فمن امتثل أمر الله تعالى وجاهد في سبيله، فهو المؤمن حقًّا، ومن قصّر في ذلك كان نقصًا في إيمانه.

كان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى، وقال: اللهم لا تبتلينا، فإنك إن ابتليتنا فضحْتنا وهتكْت أستارنا[1].

وفي الحديث: عن علي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال وهو مع جنازة: **«ما منكم من أحد إلا وقد كُتب مقعده من النار ومقعده من الجنة»**، فقالوا: أفلا نتكل على ما كُتب لنا؟ قال: **«اعملوا فكلٌّ ميسرٌ لما خُلق له»**، وقرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾[2] [الليل:].

دِينُ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَضُرُّهُ كُفْرُ الْكَافِرِ وَلَا طَاعَةُ الْمُؤْمِنِ

٣٢- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾

وبعد أن استوفت السورة الحديث عن المنافقين، عادت إلى الحديث عن عموم الكفار

---

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» (٤/ ٥٠) و«تفسير النسفي» بحاشية الخازن (٤/ ١٤٢).

(٢) يُنظَر: «سنن النسائي الكبرى» (١١٦١٤، ١١٦١٥) والبخاري (١٣٦٢، ٧٥٥٢) ومسلم (٢٦٤٧) وأبو داود (٤٦٩٤) وابن ماجه (٧٨) والترمذي (٢١٣٦) و«المسند» (٦٢١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وابن حبّان (٣٣٤).

الذين أضل الله أعمالهم، وذُكروا في أول السورة بما يشمل أنواع الكفر من المشركين والمنافقين وأهل الكتاب في عقيدتهم، وقد جاءت هذه الآية لتبيِّن أنهم لن يضروا الله شيئًا بكفرهم، وأنهم الخاسرون لدنياهم وأخراهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بكل ما يجب الإيمان به، وفي مقدمته جحود وحدانية الله تعالى ﴿وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: منعوا غيرهم من الإيمان بالله وبالرسول الخاتم ﷺ ﴿وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ خالفوه وحاربوه وخرجوا عن طاعته ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: من بعد ما ظهرت لهم الحجج والبراهين، الدالة على وجوب وحدانية الله تعالى، وعلى صدق الرسول ﷺ بما تدركه العقول، وتُثْبته النقول من كتب الأنبياء السابقين، ومع ذلك فلم يدخلوا في الإسلام، أو ارتدوا عنه بعد وضوح أدلة الهدى لهم.

هؤلاء الكفار ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ لكفرهم وضلالهم، فالله تعالى منزه عن ذلك، ولن يضروا دين الله في شيء، ولن يضروا الدعاة إلى الله في شيء، وهم لن يضروا إلا أنفسهم، ولن يصلوا إلى أغراضهم ﴿وَسَيُحْبِطُ﴾ الله ﴿أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ ويبطلها فلا يجدون لها ثوابًا في الآخرة؛ لأنهم لم يريدوا بها وجه الله تعالى، فهي كالهباء المنثور؛ لأن الله تعالى لا يتقبل عملًا إلا من المتقين.

أَرْبَعُ صِفَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الآيَةِ

٣٣- ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾

ويأتي هذا النداء للمؤمنين بين آيتين تتحدثان عن الكفار لتأمرهم بطاعة الله والرسول، وتجنُّب ما يُبطل أعمالهم الصالحة كما ذُكر عن الكفار، وقد وصفتْهم هذه الآية **بأربعة أوصاف**، هي:

١- الإيمان مقابل الكفر.

٢- وطاعة الله تعالى مقابل الصد عن سبيله.

٣- وطاعة الرسول ﷺ مقابل مشاقَّة الرسول.

٤- والنهي عن بطلان عمل المؤمن مقابل بطلان أعمال الكفار.

﴿يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا﴾ يا من آمنتم بالله حق الإيمان، يأمركم الله تعالى بأمرٍ تتمُّ به سعادتكم الدينية والدنيوية ﴿أَطِيعُوا ٱللَّهَ﴾ في كل ما يأمركم به وينهاكم عنه ﴿وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ﴾ فلا تخالفوه، ولا تعصوا أمره، كما قال تعالى:

﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وقال سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء].

فأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا﴾ ثواب ﴿أَعْمَٰلَكُمْ﴾ بالكفر والمعاصي والنفاق والعُجْب والرياء والمنِّ والفخر والسُّمعة، لا تبطلوها بما يفسدها، ولا بعمل المعاصي، ولا بما يبطل أجرها، ولا بالإتيان بمفسدٍ من مفسداتها، ولا بقطعها حال وقوعها، فمبطلات الصلاة والصوم والحج ونحوها كلها تدخل في هذا.

واستدل الفقهاء بهذه الآية على تحريم قطع الفرض،وكراهة قطع النفل.

والنهي عن إبطال العمل يقتضي الأمر بإصلاحها وإكمالها وإتمامها.

وفي هذا تحذير لكل مسلم من كل ما يُبطل العمل كله أو بعضه، كقوله تعالى:

﴿يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وكان بعض السلف يخشى أن يكون ارتكاب الفواحش مبطلًا لثواب العمل الصالح بمقتضى هذه الآية.

ولما عَقَدَ زيد بن أرقم ﷺ عَقْدًا تراهُ عائشة ﷺ أنه حرام، قالت: أخبروا زيدًا أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله[1].

---

(١) ذكر السهيلي أن هذا العقد كان في مسألة العينة، وأن عائشة ﷺ قالت ذلك لأم محبة، مولاة زيد بن أرقم، قال: وهذا المعنى ذكره ابن بطال، قال: ولكن هذا إسناده إلى عائشة ضعيف، كما في «تفسير ابن كثير» (١/ ٧١٧).

وكان زيد قد شهد مع رسول الله ﷺ سبع عشرة غزوة، من تسع عشرة غزوة، هي مجموع غزوات النبي ﷺ.

قال ابن عمر رضي الله عنهما: كنا نرى أنه ليس شيء من حسناتنا إلا مقبولًا حتى نزل ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ فقلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا: الكبائر الموجبات والفواحش، فكنا إذا رأينا من أصاب شيئًا منها قلنا: قد هلك، حتى نزل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ١١٦] فكففنا عن القول في ذلك، وكنا نخاف على من أصاب الكبائر، ونرجو لمن لم يصبها[(١)].

قال أبو العالية: كان أصحاب رسول الله ﷺ يروْن أنه لا يضر مع **لا إله إلا الله** ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل، فنزلت: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ فخافوا أن يُبطل الذنب العمل[(٢)].

قال عطاء في معنى الآية: داوموا على ما أنتم عليه من الإيمان والطاعة، ولا تشركوا فتبطُل أعمالكم.

وقال الكلبي: لا تبطلوا أعمالكم بالرياء والسمعة؛ لأن الله تعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا لوجهه الكريم[(٣)].

وقال قتادة: من استطاع منكم ألَّا يُبطل عملًا صالحًا بعمل سيئ فليفعل، ولا قوة إلا بالله، فإن الخير ينسخ الشر، والشر ينسخ الخير، وإن مَلِك الأعمال خواتيمها[(٤)].

مَنْ مَاتَ عَلَى كُفْرِهِ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُ

٣٤- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾

ولَمَّا بيَّن سبحانه بطلان عمل الكافر في الآية قبل السابقة، بيَّن هنا أن الكافر لن يغفر

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (١٢/ ١٢٨) و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٢٣) والطبري (٢٠/ ٢٢٩) وقد أخرجه محمد بن نصر المروَزيّ في كتاب «الصلاة» (٦٩٩) وسنده حسن.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٣٢٣) وهو عند محمد بن نصر (٦٩٨) بسند ضعيف.

(٣) «تفسير الخازن» (٤/ ١٤٢).

(٤) أخرجه الطبري بسند حسن (٢١/ ٢٢٦).

الله له إذا مات على الكفر، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ جحدوا وأنكروا توحيد الله تعالى فكفروا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿وَصَدُّواْ﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: منعوا غيرهم من الطريق الموصلة إلى طاعة الله والرسول، فنفَّروهم من الحق وزينوا لهم الباطل ﴿ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي: استمروا على كفرهم حتى الموت ﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ شيئًا من ذنوبهم، بل سيعذبهم عذابًا شديدًا عقابًا لهم على كفرهم، ويفضحهم على رؤوس الأشهاد، ولا شفاعة لهم، لأن العقاب قد وجب عليهم، ففاتهم الثواب، ووجب لهم الخلود في نار جهنم، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨].

وقوله أيضًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ [آل عمران: ٩١]. لأنهم قد سدّوا على أنفسهم أبواب الرحمة.

ومفهوم الآية أنهم إذا تابوا قبل موتهم، فإن الله تعالى يغفر لهم ويرحمهم ويدخلهم الجنة، وإن كانوا قبل التوبة قد كفروا وصدوا عن سبيل الله، فإحباط العمل بالكفر مقيد بالموت عليه، كما في هذه الآية وفي قوله تعالى ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٧] وهما مُقيِّدتان لكل نصٍّ مُطْلَقٍ في هذا الباب.

وهذا حكم عام في كل من مات على الكفر، وإن كان نزول الآية في أبي جهل وأصحابه السبعين الذين قُتِلوا يوم غزوة بدر ودُفنوا في القليب، كما ورد به الخبر.

قَبُولُ الصُّلْحِ وَرَفْضُهُ يَتَوَقَّفُ عَلَى مَصْلَحَةِ الْمُسْلِمِينَ مَعَ الْعَدُوِّ

٣٥- ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ[1] وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾

وإذا كان الأمر كما ذُكر من أن الله تعالى لن يغفر للكافرين الذين ماتوا على الكفر، فلا تضعُفوا -أيها المؤمنون- أمامهم، ولا تخافوا من قتالهم، ولا تدْعُوهم إلى الصلح والمسالمة على سبيل الخوف، وإظهار العجز أمامهم.

﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾ أي: لا تضعُفوا -أيها المؤمنون بالله ورسوله- عن جهاد الأعداء، فتجْبُنُوا

---

(١) قرأ شعبة وحمزة وخلف بكسر السين من (السِّلم) بمعنى: السلام، والباقون بفتحها على معنى: الصلح.

عن قتالهم، بل اصبروا واثبتوا وجالدوا عدوكم طلبًا لمرضاة الله، فلا تستكينوا ﴿وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ أي: إلى الصلح والمسالمة، والمهادنة مع غير المسلمين، بل ادفعوا عن أنفسكم خواطر الضعف والعجز، ولا تطلبوا السلام من العدو حال قدرتكم وتفوُّقكم عليهم في العدد والعدَّة، فالنهي عن الدعوة إلى السلم والصلح مع العدوِّ مشروط بقوة المسلمين، ويشير إلى هذا قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ أي: الأعزة، القاهرون الغالبون لهم، الأعلى منهم قوة وشأنًا ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ بنصره وتأييده، وفي ذلك بشارة للمؤمنين بالنصر، والظفَر على الأعداء ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي: لن يُنقِصَكم الله ثواب أعمالكم شيئًا، فنهْيُ المسلمين عن طلب الصلح من العدو مشروط بأن يكون ذلك من مركز قوة، والعدو أضعف منهم.

وهذا غير السلم المأذون فيه في قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١] فإنه سِلْمٌ طلَبه العدوُّ ووافقناه عليه، أما إذا كان المسلمون أضعف من العدوِّ فإن في السلم تحقيق مصلحة للمسلمين، ولهم أن يبدؤوا به إذا احتاجوا إليه، وأن يجيبوا إذا دُعوا إليه، ومن هنا صالح النبي ﷺ المشركين يوم الحديبية، وقال عمر ﷺ مع بعض أمراء جيشه: آثرت سلامة المسلمين.

وهكذا، فإن الآية اشتملت على **ثلاثة أمور** توجب النشاط التام وتقوية نفوس المسلمين، وبذل الجهد في جهاد العدو، وهذه الأمور الثلاثة هي:

الأمر الأول: عدم الوهن وإظهار الضعف مع توافر أسباب النصر، ووعْد الله لهم بذلك.

الأمر الثاني: إن الله تعالى معهم بالعون والنصر والتأييد، فهم مؤمنون، والله مع المؤمنين.

الأمر الثالث: إن الله لا ينقصهم من أعمالهم شيئًا، بل سيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله [1].

قال تعالى ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا

(١) ينظر: تفسير الكريم الرحمن للآية، للشيخ ابن سعدي.

إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة]

حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ

٣٦- ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾﴾

حذَّر الله تعالى عباده المؤمنين ألّا يحملهم حب الدنيا ولذَّة العيش على صلح العدو ومسالمته، وعدم الرغبة في قتاله، مع أن هذه الدنيا ما هي إلا لعب ولهو، وقد قصَر الله الحياة الدنيا على اللهو واللعب؛ لأن متاعها غير باقٍ.

وهذا تزهيد في الحياة الدنيا وإخبار من الله تعالى عن حقيقة أمرها.

واللعب: هو ما يُشغِل الإنسان، مما ليس فيه فائدة أو منفعة لفاعله في الحال ولا في المآل، فهو مجرد هزْل، كأفعال الصبيان في مرَحهم.

واللهو: هو ما يَصْرِفُ الإنسان عن ساعات الجد ليُريح عقله عن الإجهاد الفكري، أو يريح بدنه عن الكدِّ والنَّصب فيلْهو بشيء مريح لعقله أو بدَنه.

واللعب يكون بالأبدان، واللهو يكون في القلوب.

وهكذا الدنيا لعب ولهو ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ باطل وغرور، فكلها متاع زائل، وحظوظ عاجلة، من مال وولد ونساء ومآكل ومشارب ومجالس وزينة ومناظر.. ومتاعها ينقطع في أسرع وقت، ولا يبقى منها إلا ما كان في عبادة الله تعالى وطاعته.

وهذا المتاع الفاني لا يصح أن يكون سببًا للجُبْن والتخلُّف عن القتال، ولا مانعًا لكم من الإقدام على الجهاد ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا﴾ بالله ورسوله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، والعمل بمرضاة الله وترك ما يغضبه ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ أي: يُعطكم ثواب أعمالكم كاملة غير منقوصة، وهذا ما يكون فيه التنافس وصرف الهمم وبذل الجهد في طلبه، ولا يكلفكم الله ما يشق عليكم ﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ أي: لا يطلب منكم أن تُخرِجوا جميع أموالكم في الزكاة أو الصدقة، بل يسألكم ربع العشر منها، يؤخذ من أغنيائكم ويرد على فقرائكم، وفي المال حق سوى الزكاة.

وقد ذكر الله تعالى الإيمان والتقوى؛ لأن الباعث على موادعة العدو، هو بقاء المال الذي يُنفقه المسلم في سبيل الله، والجهاد فيه خَلْعُ النفس من شهواتها التي هي سبب الوهن والضعف.

والمعنى: وإن تؤمنوا وتتقوا باتباع ما أمركم الله به واجتناب ما نهاكم عنه، يَرْضَ الله تعالى منكم بذلك، ويَكْتفِ بالقليل من أموالكم، ولا يسألكم زيادة على ما وجب عليكم، بل قدر طاقتكم. قال تعالى:

٣٧- ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾

والله تعالى لم يسألكم أن تنفقوا جميع أموالكم؛ لأنه سبحانه لو كلَّفكم إنفاق جميع أموالكم وبالغ في ذلك؛ فإنكم لن تدْفعوها، وستظهر أحقادكم وكراهيتكم لهذا التكليف؛ لأن حب المال يجعلكم تَحْرِصون عليه.

﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا﴾ أي: إن يسألكم الله إعطاء أموالكم كلها للفقراء والمحتاجين ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ أي: يُلحُّ عليكم ويجهدكم، **فالإحفاء**: هو الإلحاح والمبالغة في المسألة.

وإذا دُعِيتم إلى إخراج جميع أموالكم فإنكم ﴿تَبْخَلُوا۟﴾ بها وتمنعونها ﴿وَيُخْرِجْ﴾ الله ﴿أَضْغَٰنَكُمْ﴾ أي: يُظهر ما في قلوبكم من الحقد، إذا طَلب منكم ما تكرهون بذْله؛ وذلك لأن الإنسان جُبِل على محبة الأموال.

ومن نُوزع في جيبه ظهرت سرائره، فمن رحمة الله تعالى على عباده: عدم التشديد عليهم في التكاليف[١].

---

(١) يُنظَر: «التسهيل في علوم التنزيل» (٤/ ٥٠).

تَرْكُ الْجِهَادِ بِالْمَالِ يُهَدِّدُ الْأُمَّةَ بِالزَّوَالِ

٣٨- ﴿هَٰٓأَنتُمْ[1] هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ۝٣٨﴾

ذكر - سبحانه - في هذه الآية، الدليل على أن الله تعالى لو طلب من المؤمنين أموالهم كلها فإنهم سيمتنعون من ذلك، خوفًا من الفقر، وحبًّا للمال، وحرصًا على الدنيا.

والله تعالى يُكلِّف المؤمنين إنفاق بعض أموالهم -لا كلها- للمصلحة التي تعود عليهم، وهي دفْع العدو عنهم، وجهاد العدو بالمال مقدم على الجهاد بالنفس في آيات كثيرة.

ولذا: فقد رغَّب الله عباده في النفقة منه في سبيله، فقال: ﴿هَٰٓأَنتُمْ﴾ يا ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المؤمنون ﴿تُدْعَوْنَ﴾ إلى النفقة في جهاد أعداء الله ونُصرة دينه لما في ذلك من تحقيق مصالحكم الدينية والدنيوية، ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ بماله عن الإنفاق في سبيل الله، أو بما فُرض عليه من نصاب الزكاة، أو فيما نُدب إليه من وجوه البر، فكيف لو طلب منكم أموالكم في غير مصلحة عاجلة؟ ﴿وَمَن يَبْخَلْ﴾ بالصدقة، أو الزكاة، أو طريق الجهاد ﴿فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي: إن ضرر ذلك سيعود عليه، فيتمكن منه العدو، ويتسلط عليه، ويذهب بعزه وماله، وربما ذهب به، ويحْرِمُ نفسه من الثواب الذي أعده الله للمنْفقين في سبيله، فالله تعالى لا يطلب منكم المال لذاته، بل لمصلحتكم ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ﴾ عنكم، وأنتم الفقراء إليه.

---

(١) قرأ قالون وأبو عمرو وأبو جعفر بإثبات ألف بعد هاء (ها أنتم) ثم تسهيل الهمزة، فيكون من قبيل المد المنفصل، وللأزرق ثلاثة أوجه:

١- حذف الألفين مع همزة مسهلة على وزن فعلْتم.

٢- إبدال الهمزة ألفًا مع المد المشبع.

٣- إثبات الألف مع تسهيل الهمزة مع المد والقصر.

وللأصبهاني وجهان: حذف الألف وإثباتها مع تسهيل الهمزة، وقرأ قنبل بتحقيق الهمزة من غير ألف، وقرأ البزي بإثبات الألف وهمزة محققة مع القصر، وقرأ الباقون بتحقيق الهمزة مع ألف قبلها، وكلٌّ على أصله في المد المنفصل. ينظر: (إتحاف فضلاء البشر) ص: ٣٩٥ سورة محمد.

والغني: هو الذي لا يحتاج إلى غيره في شيء، ولا يوصف بهذا إلا الله سبحانه.

والله تعالى لا يسألهم مالًا لشيء يعود عليه، بل لمنفعة تعود عليهم، فهم الفقراء المحتاجون إلى الله تعالى في كل شيء ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ إلى الله في كل شيء، فليس المراد بالغني صاحب المال، بل هو المستغني عن غيره، فلا يلزمه طعام ولا شراب ولا ملبس ولا وظيفة. . . ، حتى يحتاج إلى غيره.

والعبد يوصف بالثراء ولا يوصف بالغنى؛ لأن الله تعالى وحده هو الغني.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟﴾ وتُعرضوا عن الإيمان بالله، والجهاد في سبيله، وامتثال أمره فيما دعاكم إليه، يهلككم ويأت بقوم آخرين غيركم، يأتمرون بأمر الله وينتهون بنهيه، وهذا معنى ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي: يخلق بدَلَكم قومًا آخرين ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم﴾ في التولِّي والإعراض عن أمر الله تعالى، بل يطيعونه ويطيعون رسوله، ويجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم.

عن أبي هريرة ﷺ قال: كنا جلوسًا عند النبي ﷺ إذ نزل قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ [الجمعة: ٣]. فقال رجل: مَنْ هؤلاء يا رسول الله؟ فلم يراجعه النبي ﷺ -أي: لم يكلمه- حتى سأله مرة أو مرتين أو ثلاثًا، قال: وفينا سلمان الفارسي، قال: فوضع النبي ﷺ يده على سلمان، ثم قال: «**لو كان الإيمان عند الثريا لتناوله رجال من هؤلاء**»[(١)].

وفي لفظ عند الترمذي عن أبي هريرة أيضًا: أن النبي ﷺ قال: «**هم الفرس، هذا وقومه**»[(٢)].

وفي الآية الوعيد والتهديد على عدم إنفاق المال في التصنيع الحربي ونحوه، وعلى

---

(١) صححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٦٣٧) ورقم: (٢٥٩٩) وفي «السلسلة الصحيحة» برقم (١٠٢٧) وهو في «تفسير الطبري» (٢١/ ٢٣٤) وعند الطبراني في «الأوسط» (٨٨٣٨) والبيهقي (٦/ ٣٣٤) قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»: وفي بعض طرق الحديث عند أبي نعيم عن أبي هريرة أن ذلك كان عند نزول: (وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ) قال: ويحتمل أن يكون ذلك عند الآيتين في سورتي محمد والجمعة.

(٢) «تفسير الطبري» (٢١/ ٢٣٣) وجاء هذا عن جابر عند ابن مردويه، وهو في جامع الترمذي (٣٢٦٠) وقال: هذا حديث غريب، في إسناده مقال، وقال الألباني، الحديث بمتابعاته صحيح، كما في السلسلة الصحيحة (١٠١٧).

عدم الإقبال على جهاد العدو عندما يدعو إليه الحاكم المسلم، للدفاع عن حوزة البلاد وحماية الدعوة الإسلامية.

يقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]

تم تفسير (سورة محمد) ولله الحمد والمنة.



تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفَتْحِ (٤٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الفتح) هي السورة الثامنة والأربعون في ترتيب المصحف، والثالثة عشرة بعد المئة في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الصف وقبل سورة (التوبة).

وصُلْح الحديبية هو سبب نزولها.

وعدد آياتها تسع وعشرون آية باتفاق، وهي خمس مئة وستون كلمة.

وألفان وأربع مئة وثمانية وثلاثون حرفًا.

وسميت سورة (الفتح)؛ لأنها بُدئت بقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾.

وهي سورة مدنية، نزل صدرها سنة ست من الهجرة في كُراع الغَميم -موضع بين مكة والمدينة- على بُعد ثلاثة أميال من عسْفان بمكة، وكان نزول هذه السورة ليلًا عقب انصراف النبي ﷺ من صلح الحديبية.

وقد نزلت سورة الفتح في أعقاب صلح الحديبية.

ونزلت سورة الأنفال في أعقاب غزوة بدر.

ونزلت عشرات الآيات من سورة (آل عمران) في أعقاب غزوة أحد، من الآية الحادية والعشرين بعد المئة إلى الآية السادسة والثمانين بعد المئة، ونزلت آيات من سورة (الأحزاب) في أعقاب غزوة الأحزاب من الآية التاسعة إلى الآية السابعة والعشرين.

تحدثتْ سورة (الفتح) عن صلح الحديبية الذي تَمَّ بين الرسول ﷺ والمشركين سنة ست من الهجرة، وكان بداية للفتح الأكبر -فتح مكة- لِمَا ترتب على هذا الصلح من الأمن ورفع الحرب، وتمكُّن الناس من الدخول في الإسلام، وتم الفتح المبين.

كما تحدثت السورة عن الذين تخلفوا عن الخروج مع الرسول ﷺ يوم الحديبية، من الأعراب الذين في قلوبهم مرض، ومن المنافقين الذين ظنوا ظن السَّوْء، ولم يخرجوا مع النبي ﷺ، ففضحهم الله تعالى وكشف سرائرهم.

وتحدثت السورة أيضًا عن (بيعة الرضوان) التي بايع الصحابة فيها رسول الله ﷺ على الثبات حتى الموت.

وتناولت آيات السورة الرؤيا التي رآها النبي ﷺ في منامه، وحدَّث بها أصحابه ففرحوا بدخول النبي ﷺ وأصحابه مكة آمنين مطمئنين، وقد تحققت هذه الرؤيا ودخلها النبي ﷺ وأصحابه.

قال الزهري: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين، فسمعوا كلامهم، فتمكن الإسلام في قلوبهم، فأسلم في ثلاث سنين خلْق كثير، فعزَّ الإسلام بذلك، وأكرم الله ﷻ رسوله ﷺ[1].

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى **ثلاثة مقاطع**، تشتمل على التمهيد والموضوع والخاتمة:

١- ففي **الآيات التسع الأُوَل**: تَجْبُر آيات السورة قلوب المسلمين الكسيرة، بسبب صلح الحديبية، فتبشِّر النبي ﷺ وتملأ قلبه بالفرح، بتحقيق ما يؤمِّله من زيارة المسجد الحرام والفتح المبين، ومغفرة ما تقدم من الذنوب وما تأخر، والاهتداء إلى أقوم الطرق.

ويمتنُّ الله تعالى في هذه السورة على المؤمنين بنزول السكينة عليهم، وتبشيرهم بالمغفرة والأجر العظيم، والنصر على عدوهم، والويل ثم الويل لأعدائهم من المنافقين والمكذبين والمشركين، مما أعده الله لهم من العذاب والغضب واللعنة، وهذا هو التمهيد لموضوع السورة.

٢- ثم تتحدث آيات السورة في موضوعها عن بيعة الرضوان من **الآية العاشرة إلى الآية السادسة والعشرين منها**، فتُنوِّه في البدء بمبايعة المؤمنين لرسول الله ﷺ، وتفضح معاذير الذين ينكُثون عهودهم، وتبيِّن أن وبال ذلك سيعود عليهم.

ثم تتناول آيات السورة الأعراب الذين تخلوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ، وتعلَّلوا بمعاذير واهية كاذبة، فتكشف حالهم، وتُنْبئ عما في قلوبهم، وظنهم أن المؤمنين لن يعودوا إلى أهليهم أبدًا، وتفتح لهم باب التوبة، وتقبل عذر غير المؤهلين للجهاد.

وتتحدث آيات السورة عن غنائم وفتوحات قريبة، يسيل لها لعاب المخلَّفين المتباطئين، وهي غنائم خيبر وغيرها.

---

(١) «تفسير الخازن» (٤/ ١٤٤).

وتُثْني آيات السورة بما أنزله الله فيها على أهل بيعة الرضوان، وتبيِّن الحكمة الإلهية في رفض الرسول ﷺ مقاتلة المشركين في مكة بما يقاس عليها غيرها في كل زمان ومكان، ومراعاة مشكلة الأقليَّات الإسلامية في العالم والحفاظ عليهم.

وتعود آيات السورة إلى الحديث عن الحرم المكي، لتذكُر ما أنزله الله فيها عن رؤيا النبي ﷺ التي رآها عقب مرجعه من الحديبية لتبشِّره هو وأصحابه بدخول المسجد الحرام آمنين مطمئنين، محلقين ومقصرين.

٣- وتختم آيات السورة ببيان أن النصر حليف المسلمين فيما مضى وفيما هو آتٍ، ولكنَّ النصْر له مؤهلات، لابد من توافرها في الجيل الذي يحرزه، فمن فقدَ هذه المؤهلات فلا يلومنَّ إلا نفسه، وفي هذا الختام ثناء الله تعالى على أصحاب رسول الله ﷺ بأنهم أشداء على الكفار، رحماء بينهم، وأنهم رُكَّع سُجَّد يبتغون فضلًا من الله ورضوانًا؛ كي يعطيهم مؤهلات النصر في زمانهم، فهل يتحقق ذلك فينا؟ أرجو الله!

وهذا بعض ما ورد فيها من أحاديث:

١- عن عبد الله بن مُغَفَّل ﷺ قال: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسيرِه سورة الفتح على راحلته، فرجَّع في قراءته[(١)].

والترجيع: هو ترديد الصوت بالقراءة أكثر من مرة.

٢- وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، قال: فسألتُه عن شيء-ثلاث مرات- فلم يَرُد عليَّ، قال: فقلت في نفسي: ثكلتْك أمُّك يابن الخطاب، نَزرْتَ رسول الله ﷺ -أي: ألححت عليه في المسألة إلحاحًا- فأدَّبك بسكوته عن جوابك ثلاث مرات فلم يرُدَّ عليك؟ قال: فركبتُ راحلتي، فتقدمتُ مخافة أن يكون نزل فيَّ شيء، قال: فإذا أنا بمنادٍ ينادي: يا عمر، أين عمر؟ قال: فرجعتُ وأنا أظن أنه نزل فيَّ شيء، قال: فقال النبي ﷺ: **«لقد نزلتْ عليَّ الليلة سورة هي أحب إليَّ من الدنيا وما**

---

(١) البخاري برقم (٤٨٣٥) ورقم: (٥٠٣٤) ورقم: (٧٥٤٠) ومسلم برقم (٧٩٤) و«المسند» (٥/ ٢٤) (٢٠٥٤٢، ٢٠٥٥٨) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (٨٠٥٥) وأبو داود (١٤٦٧) والترمذي (٣٠٤) والبيهقي في «السنن» (٢/ ٥٣).

فيها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾»[(١)].

٣- وعن أنس بن مالك ﷺ قال: نزلتْ على النبي ﷺ ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مرجعَهُ من الحديبية، فقال النبي ﷺ: **«لقد أُنزلتْ عليَّ آية أحبُّ إليَّ مما على الأرض»**، ثم قرأها عليهم النبي ﷺ، فقالوا: هنيئًا مريئًا يا نبي الله، لقد بيَّن الله ﷻ ماذا يُفعل بك، فماذا يُفعل بنا؟ فنزلت عليه: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥﴾[(٢)] [٥].

٤- وعن المغيرة بن شعبة ﷺ قال: كان النبي ﷺ يصلي حتى ترم قدماه، فقيل له: أليس الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: **«أفلا أكون عبدًا شكورًا»**[(٣)].

٥- وعن عائشة ﷺ أن نبي الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطَّر قدماه، فقالت عائشة: لِمَ تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: **«أفلا أكون عبدًا شكورًا»**[(٤)].

٦- وعن أنس ﷺ قال: لما نزلت ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ مَرْجِعَه من الحديبية، وهم يخالطهم الحزن والكآبة، وقد نحروا الهدْي بالحديبية، فقال: **«لقد أُنزلت عليَّ آية هي أحب إليَّ من الدنيا جميعها»**[(٥)].

---

(١) البخاري برقم (٤٨٣٣) ورقم: (٤١٧٧) ورقم: (٥٠١٢) وصحيح مسلم (٤٨٣٣) «المسند» (١/ ٣١) (٢٠٩) والترمذي برقم (٣٢٦٢) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٤٩٩) وفي ط الرسالة (١١٤٣٥) وابن حبان (٦٤٠٩). والبزار (٢٦٥) وموطأ مالك (١/ ٢٠٣) وأبو يعلى (١٤٨).

(٢) «المسند» (٣/ ١٩٧) (١٣٠٣٥) والبخاري برقم (٤١٧٢، ٤٨٣٤) ومسلم برقم (١٧٨٦) والترمذي برقم (٣٢٦٣) وقال: حسن صحيح، وعبد الرزاق (٢/ ٢٢٥) وابن أبي شيبة (١٤/ ٥٠١) والطبري (٢١/ ٢٤١) وأبو نعيم (٢٥) وعبد بن حميد (١١٨٦) في «المنتخب».

(٣) «المسند» (٤/ ٥٥) برقم (١٨١٩٨) والبخاري برقم (١١٣٠، ٤٨٣٦، ٦٤٧١) ومسلم برقم (٢٨١٩، ٢٨٢٠) والترمذي برقم (٤١٢) و«سنن النسائي»: (٣/ ٢١٩) وابن ماجه برقم (١٤١٩) وابن حبان (٢٥٩٠) و«سنن النسائي الكبرى» (١٣٢٧).

(٤) البخاري برقم (٤٨٣٧) ومسلم برقم (٢٨٢٠).

(٥) «صحيح مسلم» ١٧٨٦ و«صحيح البخاري» ٤١٧٢ و«المسند» ١٣٠٣٥ والترمذي ٣٢٦٣ وغيرهم

٧- وأخرج مسلم وغيره بسنده: عن سهل بن حنيف أنه قام يوم صفين، فقال: يأيها الناس، اتَّهموا أنفسكم، لقد كنا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية، ولو نرى قتالًا لقاتلنا، وذلك في الصلح الذي كان بين رسول الله ﷺ والمشركين، فجاء عمر بن الخطاب، فأتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، أَلَسْنا على حق وهم على باطل؟ قال: **«بلى»**، قال: أليس قتْلانا في الجنة وقتْلاهم في النار؟ قال: **«بلى»**، قال: ففيم نعطى الدنيَّة في ديننا ونرجع، ولمَّا يحكُم الله بيننا وبينهم؟ فقال: **«يابن الخطاب، إني رسول الله، ولن يضيِّعني الله أبدًا»**، قال: فانطلق عمر فلم يصبر متغيِّظا، فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، أَلَسْنا على حق وهم على باطل؟ قال: بلى، قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى، قال: فعلامَ نُعطى الدنيَّة في ديننا ونرجع ولَمَّا يحكُم الله بيننا وبينهم؟ فقال: يابن الخطاب، إنه رسول الله، ولن يضيِّعه الله أبدًا، قال: فنزل القرآن على رسول الله بالفتح، فأرسل إلى عمر فأقرأه إياه، فقال: يا رسول الله، أَوَفَتْح هو؟ قال: **«نعم، فطابت نفسه ورجع»**[1].

٨- وعن البراء بن عازب ﷺ قال: تعُدُّون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نَعُدُّ الفتح بيعة الرضوان يومَ الحديبية. كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة ومئة، والحديبيةُ بئر، فنزحناها، ولم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ، ثم تمضمض ودعا، ثم مجَّهُ، فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصْدَرتْنا -أي: رجعنا وقد ارتوينا- وماشيتنا وركابنا»[2].

٩- وعن مُجَمِّع بن جارية الأنصاري قال: شهدنا الحديبية، حتى بلَغْنا كُراعَ الغميم، إذ الناس تُسْرع بالدواب، فقال بعضهم لبعض: ما للناس؟ قالوا: أُوحي إلى رسول الله ﷺ، قال: فأسرعنا مع الناس، فإذا رسول الله ﷺ على راحلته عند كُراع الغميم، فاجتمع الناس عليه، فقرأ عليهم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ فقال رجل: يا رسول الله، أوَ فتح هو؟ قال: **«إي والذي نفس محمد بيده إنه لفتح»** فقُسِّمت خيبر على أهل الحديبية، لم يدخل معهم فيها أحد، فقسَّمها رسول الله ﷺ ثمانية عشر سهمًا، وكان الجيش ألفًا

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٧٨٥) والبخاري برقم (٤٨٤٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٧/ ٣٤٠) (٤١٥٠) والطبري (٢٤٣٢١).

وخمس مئة، منهم ثلاث مئة فارس، فأعطى الفارسَ سهمين، وأعطى الراجل سهمًا[١].

نبذة عن صلح الحديبية:

روت عائشة ﵂ أن النبيَّ ﷺ رأى في النوم كأن قائلًا يقول له: لتدخُلُنَّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا، وحسبوا أنهم سيدخلون مكة عامهم هذا، واستنفر النبي ﷺ أصحابه للعمرة، وخرج بهم من المدينة في شهر ذي القعدة سنة ست من الهجرة، وكان معه نحو ألف وخمس مئة من المهاجرين والأنصار، ومَنْ دخل في الإسلام من الأعراب، ولم يكن معهم سلاح إلا السيوف في القُرُب؛ لأنهم خرجوا للعمرة ولا يريدون حربًا، وساقوا معهم الهدْي بعد أن قلَّدوها وأشعروها، فصلُّوا الظهر بذي الْحُلَيْفة، وأحرموا ولَبُّوا، وكان مع النبي ﷺ من نسائه أم سلمة ﵂، فبلغ المشركين خروجُه، وأجمع رأيهم على صده عن المسجد الحرام.

ولما وصل النبي ﷺ **إلى عُسْفان** قُرب مكة، وكان ﷺ قد كلَّف **بشر بن سفيان الكلبي** لمعرفة أخبار قريش، فجاء بِشْر يُخبر بأن قريشًا قد لَبستْ جلود النمور واستعدُّوا لقتاله، ونزلُوا **بذي طوى** قُرب مكة، وعاهدوا الله ألا يدخُلها عليهم أبدًا! فسلك النبي وأصحابه طريقًا وعِرًا غير طريقهم انتهى بهم **إلى الحديبية**، وكان به شجرة حدباء، أو بئر تسمى الحديبية، فسُمِّي المكان باسم الشجرة أو البئر، وكان النبي ﷺ يركب ناقة اسمها **القصواء** وكانت لا تُسبَق، فلما وصلت الحديبية، حرنتْ وأبت المشي، فقال الصحابة خلأت القصواء -أي: توقفت عن المسير- فقال ﷺ: **«ما خلأت، وما هو لها بخلُق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة»**.

وأمر الناس بالنزول في المكان الذي توقَّفتْ فيه الناقة عن المشْي، وقال ﷺ: **«والله لا يسألوني خُطَّة فيها تعظيم حرمة الله وصلة الرحم، إلا أعطيتهم إياها»**، ولما علمتْ قريش بنزوله ﷺ في الحديبية أرسلوا **بُديل بن ورْقاء الخُزاعي** ليسأل عن سبب مجيئه، فأخبره أنه

---

(١) ابن أبي شيبة (١٤/٤٣٧) و«المسند» (١٥٤٧٠) بإسناد ضعيف لانفراد يعقوب بن مُجمع به (محققوه) قال الحافظ في الفتح (٦/٨٦): في إسناده ضعف وبقية رجاله ثقات، والحاكم (٢/١٣١) والبيهقي في «الدلائل» (٤/١٥٦) وضعَّفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» (٥٨٧) وقد ذُكِرت بعض ألفاظه بالمعنى، ومعناه صحيح، وإن كان في بعض رواته مقال.

جاء معتمرًا، ولا يُريد حربًا، ولكن قريشًا أرسلتْ **عُروة بن مسعود الثقفي** ليقول له: والله لن تدخل مكة عَنوة أبدًا، وكان عروة خلال حديثه مع النبي ﷺ يمد يده على لحيته، فكان المغيرة بن شعبة يقرع يده، ويقول له: اكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل ألَّا تصل إليك، ورجع عروة يصف لهم ما شاهده من احترام المسلمين لرسول الله ﷺ، فقال: يا معشر قريش، إني قد جئت كِسْرى في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت مَلِكًا في قوم قطُّ مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قومًا لا يُسلمونه لشيء أبدًا، فَرُوا رأيكم، فقالوا: نردُّه من عامنا هذا، ويرجع من قابل، فيدخل مكة ويطوف بالبيت.

فأرسل النبي ﷺ عثمان بن عفان ﷺ إليهم ليخبرهم أنه إنما جاء لزيارة البيت، ومعهم الهدْي ينحرونه وينصرفون، فقالوا له: إن شئت أن تطوف بالبيت فَطُف وحدك، قال: والله ما كنت لأطوف حتى يطوف رسول الله ﷺ، فحبسوا عثمان، وأشيع أنه قد قُتل، فقال ﷺ: **«لا نبرح حتى نناجزهم»** ودعا المسلمين إلى بيعة الرضوان، فبايعوه تحت الشجرة على الموت، قال سلمة بن الأكوع: بايعناه وبايعه الناس على عدم الفرار، وأنه إما الفتح وإما الشهادة، وضرب النبي ﷺ بشماله على يمينه، وقال: هذه بيعة عثمان، إنه ذهب في حاجة الله ورسوله، وعاد عثمان دون أن يمسَّه أذى.

وأقام النبي وأصحابه بالحديبية نحو عشرين يومًا، يتم فيها تبادل السفراء بينهم، فأجمعت قريش رأيها على الصلح، وأرسلوا **سهيل بن عمرو** لَمَّا علموا ببيعة الرضوان، وقالوا له: صالِحْهُ على أن يرجع من عامه هذا؛ حتى لا تتحدث العرب أنه دخلها عنوة، فلما رآه النبي ﷺ مقبلًا، قال: **«لقد أرادت قريش الصلح حين بعثْ هذا الرجل»**.

وتم الصلح على الآتي:

أوَّلًا: أن يرجع محمد ﷺ وأصحابه من عامهم هذا دون زيارة البيت على أن يأتوا العام القادم، وليس معهم إلا السيوف في غمدها، وتترك قريش لهم مكة ثلاثة أيام ليطوفوا بالبيت.

ثانيًا: أن يكفَّ الفريقان عن الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس دون قتال ولا عدوان.

ثالثًا: من جاء من قريش مسلمًا بدون إذن وليه، ردَّه النبي ﷺ إليهم، ومن جاء قريشًا

من المسلمين لم يردوه.

رابعًا: من أحبَّ أن يدخل مع الرسول ﷺ من القبائل فله ما أراد، ومن أحب أن يدخل مع قريش من القبائل فله ما أراد.

وقد سارعت قبيلة خزاعة فدخلت مع النبي ﷺ وحالفتْه، وسارعت قبيلة بني بكر فدخلت مع قريش وحالفتْها.

تنازلات في صلح الحديبية لحفظ الدماء:

وفي حديث عبد الله بن مغفَّل رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ بالحديبية في أصل الشجرة التي قال الله تعالى في القرآن، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ فرفَعْتُه عن ظهره، وعلي بن أبي طالب وسُهَيْل بن عمْرو، بين يديه، فقال رسول الله ﷺ لعليٍّ: «**اكتب بسم الله الرحمن الرحيم**»، فأمسك سهيل بيده، وقال: ما نعرف الرحمن الرحيم، اكتب في قضيتنا ما نعرف، قال: اكتب باسمك اللهم. وكتب: «**هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة**»، فأمسك سهيل بن عمرو بيده، وقال: لقد ظلمناك إن كنت رسوله، اكتب في قضيتنا ما نعرف، فقال: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، فبينا نحن كذلك، إذ خرج علينا ثلاثون شابًّا عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم رسول الله ﷺ فأخذ الله بأبصارهم، فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال رسول الله ﷺ: «**هل جئتم في عهد أحد؟ أو هل جعل لكم أحد أمانًا؟**» فقالوا: لا، فخلَّى سبيلهم، فأنزل الله الآية[1].

وكان النبي ﷺ قد ساق معه إلى الحديبية سبعين بدنة، قلَّدها وأشعرها، وأرسل عيْنًا له من خزاعة يأتي له بأخبار قريش، فجاء عُتبة الخزاعي يخبر النبي ﷺ أن قريشًا قد جمعوا له جموعًا، وهم مقاتلوه وصادُّوه عن البيت، فاستشار أصحابه في أن يقصد البيت، فإن منعه أحد قاتَله، أو يُغير على بيوتهم فيصيب مَن فيها، فقال أبو بكر: إنهم جاؤوا معتمرين ولم يجيئوا لقتال أحد، فمن حال بينهم وبين البيت قاتلوه، فقال: «**امضوا على اسم الله**»،

---

(١) أخرجه النسائي في التفسير برقم (٥٣١) والحاكم (٢/ ٤٦٠) وصححه، ووافقه الذهبي، وأحمد (٢٧/ ٣٥٤) (١٦٨٠٠) و«صحيح مسلم» عن أنس مختصرًا برقم (١٧٨٤) وهو في الترمذي (٣٢٦٤) وابن أبي شيبة (١٤/ ٤٩٢) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٥١١) والطبري (٢١/ ٢٨٨).

فلما كانوا ببعض الطريق قال: إن خالد بن الوليد بالغميم في طليعة خيل لقريش، فخُذوا ذات اليمين، فلم يشعر بهم خالد إلا وهم قريب منه، فانطلق خالد إلى قريش يخبرهم.

ولما كان النبي ﷺ بالثنية بركت ناقته، فقال الناس: حل حل، أي: توقَّفَتْ عن المسير، ثم زجرها فوثَبتْ، حتى نزل بالحديبية على بئر فيها ماء قليل، فنزحه الناس سريعًا، ثم اشتكوا العطش، فنزع النبي سيفًا من كنانته وأعطاه سائق بُدنه، فنزل في البئر فغرزه في جوفها، فامتلأت البئر بالماء وكفاهم، وزاد عن حاجتهم، حتى رجعوا عنه.

وبينما هم كذلك إذ جاء بُدَيْلُ بنُ ورْقاء الخزاعي في نفر من قومه يخبرون النبي ﷺ أن القوم يستعدُّون لقتاله وصدِّه عن البيت، فقال ﷺ: **«إنا لم نَجئ لحرب بل جئنا معتمرين، فإن هم أبوْا إلا القتال فلله الأمر»**، فأخبرهم بُديل بهذا.

فانبرى للسفارة بين الفريقين **عروة بن مسعود** الذي أخذ يرمُق النبي ﷺ بعينيه، فقال لقومه حين رجع إليهم: والله لقد وفدتُ على كسرى وقيصر والنجاشي، فما رأيتُ مَلِكًا يعظِّمه أصحابه ما يعظِّم أصحاب محمد محمدًا، والله ما تَنخَّم نُخامة إلا وقعتْ في كَفِّ رجل منهم، وإذا أَمَرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضُوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدُّون النظر إليه تعظيمًا له.

وجاء بعده رجل من بني كنانة، وبعده مِكْرَزُ بنُ حفص، ثم جاء **سهيل بن عمرو**، وتم الصلح على يديه بين الفريقين، وفي أثناء توقيع شروط الصلح جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو مُسْلِمًا، وهو مقيد لا يستطيع المشي بسبب قيده، فأبى النبي ﷺ أن يرده إلى المشركين قائلا: **«إننا لم نَقْض الكتاب بعدُ»**.

قصة أبي بصير:

ولما رجع النبي ﷺ إلى المدينة، جاءه **أبو بصير** من قريش مُسلمًا، وكان ممن حُبس بمكة، فأرسلت قريش في طلبه، فقال النبي ﷺ: يا أبا بصير، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما علمت، ولا يصلُح لنا في ديننا الغدر، وإن الله تعالى جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا، ثم أعطاه إلى الرجلين، فلما وصلا به إلى ذي الحليفة تمكن أبو بصير من قتل أحدهما، وفرَّ الآخر، ورجع إلى النبي ﷺ بالمدينة متوشحًا سيفه،

وقال: يا رسول الله، لقد رَدَدتَني إليهم، فأنجاني الله منهم، فقال ﷺ: **«ويلُ أُمِّه، مُسَعِّرُ حرْب، لو كان معه أحد»** ثم خرج أبو بصير حتى نزل العيص، وبلغ ذلك المسلمين الذين كانوا محبوسين معه بمكة، فخرج جماعة منهم إليه، وانضم إليه أبو جَنْدل، حتى اجتمع نحو سبعين رجلًا، وأخذوا يعترضون عير قريش وأموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لَمَّا أرْسَل إليهم، فمَن أتاه منهم فهو آمن، فأرسل إليهم النبي ﷺ فأنزل الله الآية[1].

وهكذا يلتزم أبناء الإسلام بالوفاء بالعهود والعقود حتى مع أعدائهم، ولو كان هذا العقد جائرًا بالنسبة للمسلمين، فأين هذا مما نراه اليوم من حكَّام إسرائيل؟! كلما عاهدوا عهدًا في اتفاقهم مع أهل فلسطين نبذه فريق منهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ [البقرة: ١٠٠].

وقد أمرنا سبحانه أن نعامل العدوَّ بالمثل، فقال: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧].

وقد عزَّ على بعض المسلمين -سِيَّمَا عمر ﷺ- قبول هذه الشروط، خاصة الشرط الثالث منها، وأخذ يراجع النبي ﷺ ويراجع أبا بكر قائلًا: ألَسْنا على الحق وهم على الباطل؟ فقال له النبي ﷺ: **«إني رسول الله، ولستُ أعْصيه، وهو ناصري»** وقال أبو بكر: الزم غرْزه يابن الخطاب، فإنه رسول الله.

وبعد ذلك طلب النبي ﷺ من أصحابه أن يتحللوا من عُمرتهم، فينحروا هدْيهم، ويحْلِقوا أو يُقصِّروا، ولكن أحدًا منهم لم يفعل، فدخل النبي ﷺ على أم سلمة وقد ظهر الغضب على وجهه، فقالت له: يا رسول الله، اعذرهم، وابدأ بما تأمرهم به دون أن تُكلم أحدًا، فقام ﷺ ونحر هديه وحلق رأسه، ففعلوا مثله، وأقاموا بضعة أيام في الحديبية، ثم رجعوا إلى المدينة، وعندما سمع النبي ﷺ بعضهم يقول: لقد رجعنا ولم

---

(١) يُنظَر: حديث صلح الحديبية في «صحيح البخاري» من حديث طويل عن المِسْوَرِ بين مَخرمَة، ومروان بن الحكم بأرقام (٢٧٣١، ٢٧٣٢، ٤١٨٠) وعبد الرزاق (٩٧٢٠) و«المسند» (١٨٩١٠) (١٨٩٢٨) من حديث طويل جدا صحيح الإسناد على شرط الشيخين، وأبو داود (٢٧٦٥، ٤٦٥٥) و«السنن الكبرى» للنسائي (٨٨٤٠) وغيرهم.

نصنع شيئًا، قال ﷺ: «**بل فتحتم أعظم الفتح**»[١].

عاد المسلمون من عمرتهم وقلوبهم كسيرة، فقد كانوا يؤمِّلون في زيارة البيت الحرام، والطواف بالكعبة، والسعي بين الصفا والمروة، فلم يتحقق أملهم، وها هم يعودون من مكة بعد مفاوضات شاقة مع المشركين ذاقوا فيها العنَت، وبينما هم في طريقهم إلى المدينة نزلت سورة الفتح حافلة ببشريات النصر المبين، والفتح الأعظم، حيث اتسعت دائرة البلاغ، وزاد الداخلون في الإسلام، وصار للدولة الإسلامية في المدينة كيان قائم معترف به، ولم يمض عامان حتى استسلمت مكة لصاحب الرسالة ﷺ، وهو يقود عشرة آلاف مقاتل، وتحطمت الأصنام التي ظلَّت قرونًا تُعبد من دون الله، وعلَتْ راية التوحيد، ورَفع بلال الأذان فوق الكعبة المشرفة.

لقد علم الله سبحانه صدق نيات أصحاب رسول الله ﷺ، الذين بايعوه على الثبات وعدم الفرار تحت الشجرة في ساعة الحرج، ولم يتخلف منهم أحد؛ لأنهم يحبون الله تعالى، ويحبون الموت في سبيل الدعوة إليه، ولذا فقد أعْلن الله تعالى رضاه عنهم، وكافأهم بالخير العاجل والآجل، وقد كشف الله لرسوله عن الذين تخلفوا عن الخروج معه، وقالوا في أنفسهم: لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدًا!!

والمسلمون الذين مُنعوا من أداء النسك في السنة السادسة، تمكَّنوا من أدائه في السنة السابعة، ثم دخلوا مكة فاتحين لها في السنة الثامنة.

وقد خُتمت السورة ببيان خواص الأمة التي تريد النصر على عدوها فهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [٢٩].

فإذا انتقلت هذه الخواص إلى غيرنا، فكيف يقترب النصر منا؟

---

(١) يُنظَر: «سيرة ابن هشام» (٣/ ٣٥٥) وما بعدها، و«البداية والنهاية» لابن كثير (٤/ ١٧٣) وما بعدها، و«صحيح البخاري» (٥/ ٢٢٤١) و (٧/ ٣٤٨) وغيرها من كتب الحديث والسير بألفاظ مختلفة.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

أَرْبَعُ نِعَمٍ جَمَعَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ فِي آيَاتٍ ثَلَاثٍ

١-٣- ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾

المراد بالفتح في الآية: صلح الحديبية، حين صد المشركون رسول الله ﷺ هو وأصحابه عن دخول المسجد الحرام لأداء العمرة، وكان ذلك في السنة السادسة من الهجرة، وقد تصالح الفريقان على وضع الحرب بينهما عشر سنين، وأن يعتمر النبي ﷺ وصحبه العام المقبل، وقد خاطب الله تعالى رسوله محمدًا ﷺ في هذه السورة مؤكدًا له أنه قد قضى وحكم له بالفتح المبين على عدوِّه دون قتال ولا تعب.

والفتح يُطلَق على النصر المقترن بدخول أرض المغلوب أو بلده، ولا يُطلق على الانتصار المنتهي بالغنيمة والأسر دون اقتحام أرض العدو، ولذا فإنه يُقال: فتْح خيبر، وفتْح مكة، ولا يُقال: فتْح بدر، وفتْح أحد، والجمهور على أن المراد بالفتح في هذه الآية: صلح الحديبية؛ لأنه كان سببًا لفتح مكة ووعدًا به، كما جاء عن عمر رضي الله عنه أنه قال: أوَ فتح هو يا رسول الله؟ قال: **«نعم، والذي نفسي بيده إنه لفتح»**[1].

قال الزَّجَّاج: كان في فتح الحديبية آية عظيمة، وذلك أنه نُزِح ماؤها، ولم يبق فيها قطرة، فتمضمض رسول الله ﷺ، ثم مجَّهُ في البئر، فدرَّتْ بالماء حتى شرب جميع الناس[2].

وقال الشعبي في المراد بالفتح: فتح الحديبية، وغُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأُطعموا نخل خيبر، وبلغ الهدْي محله، وظهرت الروم على فارس، ففرح المسلمون بظهور أهل الكتاب على المجوس[3].

---

(١) ضعيف سنن أبي داود (٢٧٣٦) عن مجمع بن جارية الأنصاري، وهو عند الحاكم برقم (٢٥٩٣) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وانظر فتح الباري (٥/ ٣٤٢) وانظر الحديث التاسع في آخر المقدمة.

(٢) من «تفسير النسفي» للآية، وقد جاء هذا في حديث البراء السابق ذكره في مقدمة السورة برقم (٨)و (٩).

(٣) «تفسير الخازن» (٤/ ١٤٤) وقد أخرجه سعيد بن منصور والطبري (٢١/ ٢٤٤) والبيهقي (٤/ ١٦٢).

والمعنى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ لك أيها الرسول ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾ يُظهر اللهُ فيه دينك، وينصرُك على عدوك، وهو هُدنة الحديبية التي أَمِنَ الناس بسببها بعضهم بعضًا، فاتسعت دائرة الدعوة لدين الله، وتمكَّن مَنْ يريد الوقوف على حقيقة الإسلام من معرفته، فدخل الناس في تلك المدة في دين الله أفواجًا، ولذلك سمَّاه الله فتحًا مبينًا، أي: ظاهرًا جليًّا[١].

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: أقبلْنا من الحديبية مع رسول الله ﷺ، وكان قد خرج إليها يوم الإثنين هلال ذي القعدة، فأقام فيها بضعة عشر يومًا، ثم قفل راجعًا إلى المدينة، فبينما نحن نسير إلى المدينة إذ أتاه الوحي -وكان إذا أتاه اشتدَّ عليه- فسُرِّي عنه، وبه مِنَ السرور ما شاء الله، فأخبرَنا أنه أُنزل عليه ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾[٢].

وقد جمع الله لنبيه بين الفتح المبين، ومغفرة الذنوب، وتمام النعمة، وهداية الصراط المستقيم، والنصر المؤزَّر، فكأنه تعالى قال لنبيه: يَسَّرْنا لك الفتح، ونصرْناك على عدوك، وغفرنا لك ذنبك، وهديناك صراطًا مستقيمًا، وأتممنا عليك النعمة ليجتمع لك عزُّ الدارين، العاجل منه والآجل، وقد رتب الله على هذا الفتح المبين أربعة آثار تتعلق بالنبي ﷺ، هي من أجلِّ النعم عليه، **وهذه النعم الأربع هي**:

أوَّلًا: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ بسبب ما حصل من هذا الفتح من الطاعات الكثيرة، وبما تحمَّلْتَه من المشقَّات، ولمَّا كان النبي ﷺ أطوع خلق الله، بشَّره ربه بالفتح المبين، وغفران ما تقدم وما تأخر من الذنوب، صغيرها وكبيرها.

١- ومعنى **غفران الذنب**: سَتْره وتغْطيته وإزالته، والنبي ﷺ معصوم من الوقوع في الذنوب.

قال ابن عطية: وإنما المعنى: التشريف بهذا الحكم، ولولم تكن له ذنوب البتَّة[٣].

ولهذا المعنى اللطيف الجليل، كانت سورة النصر مؤذِنة باقتراب أجل النبي ﷺ، كما فهِمه جَمْع من الصحابة.

---

(١) «التفسير الميسر» نخبة من العلماء ص ٥١١ .

(٢) يُنظَر: أبو داود (٤٤٧) مختصرًا و«صحيح سنن أبي داود» (٤٣٠) والطبري (٢١/ ٢٤٢) والبيهقي في «الدلائل» (٤/ ١٥٧) والنسائي في «الكبرى» (٨٨٥٣) وابن أبي شيبة (١٤/ ٤٥٣) و«المسند» (٤٤٢١) بإسناد حسن (محققوه) والطبراني (١٠٥٤٨)، بألفاظ متقاربة.

(٣) «تفسير ابن عطية» (٥/ ١٢٦).

٢- وقد يكون المراد بالغفران: الحيلولة بينه ﷺ وبين الذنوب كلها، فلا يصدُر منه ذنب.

٣- أو يراد به: ما كان خلاف الأَوْلى، من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين، وهذا من خصائص النبي ﷺ لا يشركُه فيه أحد، وفيه تشريف للنبي ﷺ؛ لأنه سيد الخلق أجمعين.

وقد كان النبي ﷺ يقابل هذا الفضل بالشكر الجزيل، فيقوم الليل حتى تتورَّم قدماه ويقول: **«أفلا أكون عبدًا شكورًا»**.

ثانيًا: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بإظهار دينك على سائر الأديان، ونصرك على أعدائك، وإعطائك من الخصائص والمناقب ما لم يُعط لأحد غيرك من: الفتح، والنصر، والتمكين، والمغفرة، والهداية، ورفع الدرجات.

ثالثًا: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي: يُرْشدك الله إلى دين قويم لا عوج فيه، هو دين الإسلام، ويثبِّتك عليه، ويوصِّلك بما شرعه لك في هذا الدين العظيم إلى جنات النعيم.

والهداية إلى الصراط المستقيم ثابتة للنبي ﷺ منذ بعثته، ولكنها تزداد وتتسع بازدياد أحكام الشريعة، واتساع بلاد الإسلام، وكثرة المسلمين.

رابعًا: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾ أي: ينصرك نصرًا قويًّا منيعًا لا يضعُف فيه الإسلام، بل يكون في عزة وغلبة لا يدفعه دافع، ولا يغلبه غالب، ولا يأتي بعده ذلٌّ أبدًا، **والعزيز** معناه: الغالب، أو النفيس النادر، والعزة هي الغلبة، أو العظمة والقوة، أو الندرة والقلة.

أَرْبَعُ نِعَمٍ أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَمَا بَعْدَهَا

٤- ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾

وكما امتنَّ الله على رسوله بنعم أربع في الآيات السابقة، امتنَّ أيضًا على عباده المؤمنين بإنزال السكينة عليهم، وإدخالهم الجنات، وتكفير السيئات، والنصر على عدوهم، إلى جوار ما ينتظر المنافقين من عذاب الله تعالى وغضبه ولعْنته عليهم.

وهذه النعم الأربع من آثار هذا الفتح المبين على المؤمنين:

أوَّلًا: نُزُولُ السَّكِينَةِ عَلَيْهِمْ

بيَّن الله سبحانه وجْه وسبب هذا النصر العزيز، المذكور في هذه الآية بأنه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ أي: الطمأنينة والثبات والوقار ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله ورسوله يوم الحديبية، حين وقعت المحن واشتد الخطب، فسكنت قلوبهم ورسخ اليقين فيها، ولم تَنْزعج نفوسهم، بل ثبَّت الله أقدامهم، فقد كانت قلوب المؤمنين يوم الحديبية تفور بانفعالات شتى، تتطلع إلى تصديق رؤيا الرسول ﷺ بدخول المسجد الحرام، مع ما طرأ عليهم من ضيق الصدور بشروط قريش، ومنها: ردُّ من جاء من قريش مُسْلِمًا بدون إذن وليه.

ومنها: ردُّ اسم الرحمن الرحيم، وردُّ صفة الرسول ﷺ حين اعترض المفاوض على أن محمدًا رسول الله، فأبى عليٌّ ﷺ أن يمحوها بعد كتابتها، فمحاها النبي ﷺ بيده.

لقد ضاقت نفوس الصحابة رضوان الله عليهم حين بلغهم أن عثمان قد قُتل، فبايعوا النبي ﷺ على الموت.

وضاقت نفوسهم من شروط الصلح بشكل عام فظنوا أن فيها ظلمًا وإجحافًا بهم، فأنزل الله السكينة عليهم، وانشرحت صدورهم لشروط الصلح، بعد أن ضاقت بها في أول الأمر، فهاج الناس وماجُوا، وزُلزلوا حتى اعترض عمر ﷺ قائلًا: لماذا نعطى الدنيَّة في ديننا ما دمنا على الحق وهم على الباطل؟! ومع كل هذا فقد أصلح الله نفوسهم، وأذهب خواطر الشيطان عنهم، وألهمهم الحق والثبات، فاطمأنت نفوسهم بعد اضطراب، ورسخ يقينهم بعد شك، هذه هي السكينة التي أنزلها الله على قلوب الصحابة، فأيقنوا أن وعد الله حق، وقبل نزولها عليهم كانت قلوبهم مليئة بالإيمان فازدادتْ بهذه السكينة إيمانًا إلى إيمانهم.

وهذا معنى ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ أي: ليزدادوا يقينًا مع يقينهم، وتصديقًا مع تصديقهم برسوخ العقيدة في القلوب، والتوكل على علَّام الغيوب، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة].

فسَّر ابن عباس السكينة في الآية بالرحمة، وقال: إن الله جلَّ ثناؤه بعث نبيه محمدًا ﷺ

بشهادة أن لا إله إلا الله، فلما صدَّقوا بها زادهم الصلاة، فلما صدَّقوا بها زادهم الصيام، فلما صدَّقوا به زادهم الزكاة، فلما صدَّقوا بها زادهم الحج، فلما صدَّقوا به زادهم الجهاد، ثم أكمل الله دينهم، فقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣].قال ابن عباس: فأوثق إيمان أهل الأرض وأهل السموات، وأصدقه وأكمله: شهادة أن لا إله إلا الله[١].

وقد أخذ العلماء من هذه الآية وأشباهها أن الإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية.

قال البخاري: لقيتُ أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار، فما رأيت أحدًا منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، ولو كان الإيمان درجة واحدة لكان إيمان أفراد الأمة من أهل الفسوق والمعاصي مساويًا لإيمان الأنبياء. ولذا: كان إيمان الصديقين أقوى من إيمان غيرهم.

ثَانِيًا: النَّصْرُ عَلَى الْعَدُوِّ

ولا عجب أن يفتح الله على رسوله هذا الفتح العظيم، وينصره على أعدائه نصرًا تصحبُه السكينة في قلوب المؤمنين، بعد كسر خواطرهم، فالله تعالى يملك جميع وسائل النصر، وله القوة القاهرة في السموات والأرض، وما هذا إلا غيْض من فيْض ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهم جميعًا في ملكه، وتحت قهره وتدبيره، ينصر بجنوده أولياءه، ومنها الملائكة، والجن، والحيوانات، والصواعق المدمرة، والريح، والزلازل، والخسف، والغرق، وما إلى ذلك، جنود لا تُحصى، يسلطها الله تعالى على من يشاء.

ولو أرسل الله مَلكًا واحدًا على أعدائه لأبادهم، ولكنه سبحانه شرع الجهاد لعباده، وربط الأسباب بالمسببات، ومن جنود الله تعالى: الملائكة في يوم بدر، والريح في يوم الخندق، والمطر الذي ثبَّت أقدام المسلمين يوم بدر... ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بأسباب الفتح والنصر، وما تطمئن به القلوب ﴿حَكِيمًا﴾ يضع الأمور في نصابها.

---

(١) أخرجه الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (٢١/٢٤٥) والطبراني (١٣٠٢٨) والبيهقي في «الدلائل» (٤/١٦٨).

فلا يظن المكذبون أن الله تعالى لا ينصر دينه ونبيه، فالأيام دول، وإن تأخر النصر أحيانًا فلحكمة اقتضاها هذا التأخير، ويعلمها العليم الحكيم.

ثَالِثًا: دُخُولُ الْجَنَّاتِ:

٥- ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾

أي: ومن الآثار المترتبة على هذا الفتح المبين: فوز المؤمنين بدخول الجنات، وتكفير السيئات، وتعذيب المنافقين والمنافقات، وحلول الغضب واللعنات عليهم من رب البريات.

صحَّ عن أنس ﷺ أنه لما أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ على نبيه ﷺ مرجعه من الحديبية، قال: «**لقد أُنزلت عليَّ آية هي أحب إليَّ مما على الأرض**» ثم قرأها عليهم، فقالوا: هنيئًا مريئًا يا رسول الله، قد بيَّن الله تعالى لك ما يُفعل بك، فماذا يُفعل بنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[1].

ويُروى أنه لما نزل قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩] تكلم فيها أهل الكتاب، وقالوا: كيف نتبع من لا يدري ما يُفعل به وبالناس معه؟ فبيَّن الله سبحانه في الآيات السابقة ما يُفعل به، وبيَّن في هذه الآية ما يُفعل بالمؤمنين.

والآيات عامة، وإن تعلَّقت بأحداث ومناسبات معينة وقت نزولها فهي أسباب للنزول، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وقد كان الناس عند الخروج إلى الحديبية، منهم المؤمنون الصادقون، أهل بيعة الرضوان، ومنهم المنافقون الذين لم يخرجوا مع الرسول ﷺ ظنًّا منهم أن محمدًا وأصحابه لن يعُودُوا إلى المدينة، فذكر جلَّ شأنه في هذه الآية ما أعدَّه لعباده المؤمنين من الكرامة والنعيم في دار الخلود، جنات وبساتين ناضرة تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، يقيمون فيها إقامة دائمة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ خلودًا مؤبدًا ﴿عَطَآءً غَيْرَ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٢٢٥) وابن أبي شيبة (١٤/ ٥٠١) وأحمد في المسند (١٣٠٣٥) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) ومسلم (١٧٨٦) إلى (هي أحب إلى من الدنيا جميعًا) والترمذي (٣٢٦٣) وتفسير الطبري (٢٦/ ٧٠) وأبو يعلى (٣٠٥) وعبد بن حميد (١١٨٨) وللحديث طرق متعددة.

﴿مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]. كما قال تعالى: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝﴾ [الكهف].

رَابِعًا: تَكْفِيرُ السَّيِّئَاتِ:

﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ فيمحو عنهم خطاياهم وأعمالهم السيئة، فلا يعاقبهم عليها، بل يُحوِّلها حسنات بفضله وإحسانه لمن يشاء ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ الجزاء عند الله ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ نجاةً من كل غمٍّ، وظفرًا بكل مطلوب، وسعادةً لا مزيد عليها، إذ ليس بعد الجنة فوز ولا نعيم ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وفي حديث جابر ﷺ: أن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة**»[1].

وَعِيدُ اللَّهِ لِلْمُنَافِقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ بِأَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ

٦- ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ[2] وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝﴾

أما المنافقون والمشركون فإنهم يعذَّبون في نار جهنم، لأنهم خَذَلوا المؤمنين، وظنوا أن الله لا ينصر دينه ولا يعلي كلمته، وأن أهل الباطل ستكون لهم الدائرة، وهم مطْرودُون مُبْعدون من رحمة الله تعالى، قد باؤوا بغضب من الله، ومستقرهم النار يوم القيامة، وبئس المصير مصيرهم.

والمنافقون مقدَّمُون على أهل الشرك؛ لأنهم أشدُّ ضررًا وأعظم خطرًا من المجاهرين بكفرهم وشركهم قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ يعذبهم في الدنيا بما يصل إليهم من الهموم والغموم بسبب ما يشاهدونه من ظهور كلمة الإسلام وقهر المخالفين له، فيعذبهم عذابًا خاصًا في الدنيا، زائدًا على العذاب الذي يستحقونه في الآخرة، بسبب النفاق والشرك، كما قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤].

---

(١) «سنن النسائي الكبرى» (١١٤٤٤) وفي ط الرسالة (١١٥٠٨) وأبو داود (٤٦٥٣) والترمذي (٣٨٦٠) و«المسند» (١٤٧٧٨) بإسناد صحيح على شرط مسلم (محققوه) وابن حبَّان (٤٨٠٢).

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بضم السين من (دائرة السُّوء) وهو الضرر، والباقون بالفتح وهو الذم، وهذا خاص بلفظ السوء المقيد بلفظ دائرة، أما (ظن السوء) في الموضعين فلا خلاف في فتح السين فيهما، وقرأ الأزرق بترقيق الراء من (دائرة)، والباقون بتفخيمها.

وقال أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣، والتحريم: ٩].

ثم وصف الله المنافقين والمشركين بأنهم ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ فقد ظنوا ظنًّا سيئًا بالله تعالى وأنه لن ينصر نبيه ﷺ والمؤمنين معه على أعدائهم، ولن يُظهِر دينه، وتوهَّموا أن الدائرة تدور على المؤمنين حين خرجوا إلى الحديبية، وقالوا: إن المشركين سيستأصلونهم، وأنهم لن يعودوا إلى المدينة، جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾.

ثم توعَّد الله المنافقين والمشركين **بأربعة أشياء**:

الأول: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ الذي أرادوه بالمؤمنين في ظنهم، فيُنزِل بالمنافقين في الدنيا ما توقَّعوه بالمؤمنين من شر وهزيمة.

وهذا دعاء عليهم، ووعيد لهم بالعذاب والهلاك، فعليهم تدور دائرة الويلات، وكل ما يسوؤهم مما يتربصونه بالمؤمنين من الدمار والهلاك.

وسميت المصيبة دائرة؛ لأن الزمان يستدير، وهي تدور بدوران الزمان.

والسُّوء بضم السين: هو الشر، نقيض الخير، أما **السَّوْء** بفتح السين: فهو ما يضاف إلى كل ما يراد ذمه من كل شيء، وهما كالكُرْه والكَرْه، والضَّعْف والضُّعْف[1].

والمعنى: عليهم الدائرة التي يذمونها ويسخطونها.

الثاني: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ زيادة على العذاب والهلاك، أي: سَخِط الله عليهم بسبب كفرهم ونفاقهم، ومحادّتهم لله والرسول.

الثالث: ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ أي: طردهم الله وأبعدهم من رحمته.

الرابع: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ يصلوْن نارها في الآخرة، فقد هيأها الله وسعَّرها وجعلها مستقرًّا لهم.

﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ أي: وبئست هذه النار مرجعًا ومنقلبًا لأهل الضلال والكفر.

---

(١) «تفسير الكشاف» (٤/ ٣٣٤).

جُنُودُ الرَّحْمَةِ وَجُنُودُ الْعَذَابِ

٧- ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧﴾

ولما كان لله تعالى جنود لنزول الرحمة بعباده المؤمنين، وجنود آخرون لنزول العذاب بالكافرين والمنافقين، فقد قال ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ مرة للمؤمنين في الآية السابقة -الآية الرابعة- ومرة ثانية للمنافقين والمشركين في هذه الآية.

ومن جهة أخرى فقد قُدِّمت الآية الأولى في الذكر، قبل إدخال المؤمنين الجنة ليكون مع المؤمنين جنود الرحمة فيثبِّتوهم على الصراط وعند الميزان، فإذا دخلوا الجنة كانوا إلى جوار الله تعالى ورحمته والقرب منه، فلا حاجة لهم بالملائكة بعد ذلك.

وأخَّر الله تعالى ذكر جنود السموات والأرض بعد تعذيب الكافرين والمنافقين؛ ليكون معهم جنود السخط فلا يفارقونهم أبدًا.

ويفترق ختام الآية الأولى عن الآية الثانية بذكر صفة عزيز في الثانية مقابل عليم في الأولى، ووجود صفة الحكمة فيهما، ففي الأولى قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ لأن المقام في معرض الخلق والتدبير، وفي الثانية قال سبحانه: ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ وذلك لأن المقام في معرض الانتقام، بالنسبة لتعذيب الكافر والمنافق، فهو مقام قوة وانتقام، وغلبة وبأس، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ [الزمر: ٣٧].

وقال سبحانه: ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤٢].

أما مقام الرحمة بالنسبة للمؤمنين في الآية السابقة فهو عن علم من الله تعالى باستحقاقهم ذلك، وفي كلتا الحالتين فالله تعالى حكيم فيما قدَّر ودبَّر[١].

وقد أخبر الله سبحانه بأن له ملك السموات والأرض وما فيهما من الجنود، ليعلم العباد أنه سبحانه المعز المذل، وأنه تعالى سينصر جنده، كما قال تعالى ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝١٧٣﴾ [الصافات] وهو سبحانه القوى القاهرة لكل شيء، الحكيم في خلقه وتدبيره.

---

(١) يُنظَر: «تفسير الخازن» (٤/ ١٤٦) و«تفسير التحرير والتنوير» (١٢/ ١٥٤) و«حاشية الصاوي» (٤/ ٩٢).

ثَلاثَةُ أَوْصَافٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ

٨- ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾

وبمناسبة صلح الحديبية، وما أعده الله لرسوله من الفتح والنصر بعدها، بيَّن سبحانه مراده من إرسال محمد ﷺ ليكون كالمقدِّمة للقصة، وجاء ذلك في معرض الامتنان على النبي ﷺ حيث شرَّفه الله بالرسالة، وبعثَه إلى الناس كافة، وفي هذه الآية ثلاثة أوصاف وصف الله بها رسوله ﷺ، وهي: شاهد، ومبشر، ونذير.

١ - **فالشاهد:** هو المخْبر بتصديق أحد أو تكذيبه، والنبي ﷺ يشهد على أمته يوم القيامة بالبلاغ، وأنه قد بيَّن لهم ما أرسله به ربه إليهم، قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء].

وقال سبحانه: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النحل: ٨٩].

وشهادة الرسول على الأمة أنه قد بلَّغها رسالة ربه؛ حتى لا يُعذر المخالفون للهدْي النبوي، وتعاليم الرسالة الخاتمة.

وهو صلى الله عليه وسلم شاهد لأمته بما فعلوه وما تكلموا به من خير أو شر وحق وباطل.

وهو ﷺ شاهد لله تعالى بالوحدانية والتفرد المطلق بصفات الجلال والكمال.

٢- **وهو ﷺ المبشِّر:** لمن آمن بالله وأطاعه، واتبع ما جاء به محمد ﷺ، بالجنة والثواب الجزيل، في الدنيا والآخرة، ومن تمام البشارة بيان طرق السعادة وأعمال الخير التي يبشر بها المؤمن.

٣- **والنذير:** لمن جحد وحدانية الله تعالى، وجحد عموم رسالة النبي ﷺ، وجحد نسْخها لما سبقها من الرسالات، فهو منذر لهم بالعقاب العاجل والآجل، ينذر هؤلاء وغيرهم بالعذاب الأليم، ومن تمام الإنذار، بيان طرق الشقاء، وأعمال الشر التي ينذر بها العبد.

أَرْبَعَةُ أَسْبَابٍ لِرِسَالَةِ النَّبِيِّ ﷺ

٩- ﴿لِّتُؤْمِنُوا[1] بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾

في هذه الآية بيَّن سبحانه الحكمة من رسالة النبي ﷺ، فذكر منها **أربعة أسباب**:

الأول: الإيمان بالله ورسوله حق الإيمان عن اعتقاد ويقين، والإيمان بالبعث والحساب بعد الموت إيمانًا لا يخالطه شك ولا ارتياب، والمراد: إيمان الناس جميعًا الذين أُرسل إليهم النبي ﷺ شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وهم أمة الدعوة الذين لم يؤمنوا بخاتم المرسلين إلى يومنا هذا، وأمة الإجابة الذين آمنوا به ﷺ واتبعوه، وهذا معنى ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، والإيمان يستلزم الطاعة والعمل الصالح.

الثاني: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي: تعزروا الرسول ﷺ فتبجلُوه وتُجلُّوه وتقوموا بحقوقه، وتؤيدوه وتنصروا دين الله تعالى، وهو من التعزير بمعنى: النُّصرة والتأييد، كقوله تعالى:

﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وليس من التعزير الذي هو بمعنى التأديب.

الثالث: ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: تعظموا رسول الله ﷺ، وهو من التوقير، بمعنى: التعظيم والتبجيل والتشريف.

الرابع: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أي: تنزهوا الله تعالى وتقدسوه عن كل نقص في أول النهار وآخره ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾. وقيل: إن المراد بالتسبيح: الصلوات الواجبة.

والضمائر الثلاثة على هذا المعنى في ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ تعود على الرسول ﷺ.

وقال ابن عباس ﷺ: إن ضمير ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ يعود على رسول الله ﷺ.

وعلى هذا فإن الوقف على ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ وقف تام؛ لأن التسبيح يكون لله تعالى، أما التعزير والتوقير فهو للنبي ﷺ.

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بياء الغيبة في هذه الألفاظ الأربعة (لتؤمنوا، وتعزروه، وتوقروه، وتسبحوه) والباقون بتاء الخطاب في الجميع، وقرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (لتؤمنوا) واوًا، وللأزرق في (تعزروه و توقروه) ترقيق الراء وتفخيمها، ووصل ابن كثير الهاء في (تعزروه و توقروه وتسبحوه) بحرف مد، والباقون بعدم الصلة.

هذا: وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الحق المشترك بين الله ورسوله، وهو الإيمان بهما، ثم ذكر صفتين تخصان النبي ﷺ وهما: التعزير والتوقير، ثم ذكر صفة خاصة بالله تعالى وهي: التسبيح والتقديس والتنزيه.

ونظير هذه الآية في (سورة الأحزاب) قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الأحزاب] وفيها زيادة وصفين للنبي ﷺ هما: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب]

وذلك لأن الآيات في (سورة الأحزاب) جاءت في سياق تنزيه النبي ﷺ عما قاله الطاعنون في زواجه ﷺ من مطلَّقةِ زيد بن حارثة لإبطال قاعدة التبنِّي، فناسب ذلك الزيادة في أوصافه، إشارة إلى أنه ﷺ إمام يدعو الناس إلى دين الله تعالى، وأنه ﷺ سراج يُهتدى به.

أما التي في (سورة الفتح) فقد اقتصرت على الصفات الأصلية؛ لأنها في سياق إبطال شك الذين شكوا في أمر الصلح والوعد بالفتح والنصر[1].

الإشَادَةُ بِمَنْ بَايَعَ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ

١٠- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ[2] ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ[3] أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾

تَشْرع السورة في الغرض الأصلي منها، فتتحدث عن بيعة الرضوان، وهي البيعة التي بايعها المسلمون للنبي ﷺ يوم الحديبية، تحت شجرة من السَّمُر، أي: الطلح، وكانوا ألفًا وأربع مئة على أكثر الروايات، وأول من بايع النبي ﷺ تحت الشجرة: أبو سنان الأسدي[4].

وقد بايعوا النبي ﷺ على ألّا يفرُّوا عنه، ولو لم يبق منهم إلا القليل، ولو كانوا في

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (١٢/ ١٥٧).

(٢) قرأ حفص بضم هاء الضمير من (عليهُ) وصلًا على الأصل في الضمائر، ويلزم منه تفخيم لفظ الجلالة، وقرأ الباقون بالكسر ويلزم فيه ترقيق لفظ الجلالة.

(٣) قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي ورويس وخلف بياء الغيب في (فسيؤتيه)، والباقون بنون العظمة.

(٤) «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٣١٦).

حالة يجوز الفرار فيها، وهذه هي **بنود البيعة**:

عن عبادة بن الصامت ﷺ قال: بايعْنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العُسْر واليُسْر، والمنشط والمكره، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن نقول الحق في الله، لا تأخذَنا فيه لومةُ لائم، وعلى أن ننصرَه إذا قدم علينا يثرب، فنمْنعَهُ مما نمنَعُ أنفسنا وأزواجَنا وأبناءنا، ولنا الجنة، فمن وفَّى وفَّى الله له، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه[1].

قال جابر: كنا يوم الحديبية ألفًا وأربع مئة، فبايعناه -أي: النبي ﷺ- وعمر آخذ بيده تحت الشجرة، وهي سمُرة، وقال: بايعْناه على ألا نفرَّ، ولم نبايعه على الموت[2].

وسُميت بيعة الرضوان لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾.

سبب البيعة:

وكان **سبب هذه البيعة** أن رسول الله ﷺ أرسل عثمان بن عفان من الحديبية إلى أهل مكة ليفاوضهم على أن يتركوا الرسول وصحْبه يعتمرون بالبيت، فاحتبسته قريش عندها، وأشيع أن عثمان قد قُتل، فعزم النبي ﷺ على قتالهم، ودعا أصحابه إلى مبايعته على ذلك.

قال جابر بن عبد الله: بايعوه على ألَّا يفرُّوا، كما جاء في الصحيحين، وقد سبق بيانه.

وقال سلمة بن الأكوع وعبد الله بن زيد: بايعناه على الموت.

ولا خلاف في هذا؛ لأن عدم الفرار، يقتضي الثبات إلى الموت أو النصر، ولم يتخلف أحد ممن خرج مع النبي ﷺ إلى الحديبية عن البيعة، إلا عثمان ﷺ؛ لأنه كان في مكة، فوضع النبي ﷺ يده اليمنى على يده اليسرى وقال: «**هذه يد عثمان**»[3].

ثم جاء عثمان بعد ذلك فبايع.

---

(١) يُنظَر: «المسند» (٢٢٦٧٩) قال محققوه: إسناده صحيح، على شرط الشيخين، والبخاري بنحوه (١٨، ٤٨٩٤) ومسلم (١٧٠٩) والحميدي (٣٨٧) والترمذي (١٤٣٩) والنسائي (٧/ ١٦١).

(٢) «صحيح مسلم» (١٨٥٦) والبخاري (٢٩٦٠).

(٣) صحيح البخاري من حديث ابن عمر (٣٦٩٩،٤٠٦٦) من حديث طويل.

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: لما أمر رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان، كان عثمان ﷺ رسولَ رسولِ الله إلى أهل مكة، فبايع الناس، فقال رسول الله ﷺ: **«اللهم إن عثمان في حاجة الله وحاجة رسوله»**[(١)] فضرب بإحدى يديه على الأخرى، فكانت يد رسول الله لعثمان خيرًا من أيديهم لأنفسهم[(٢)]، وتخلَّف عن البيعة الجدُّ بن قيس، فاختفى وراء جمَلِه حتى بايع الناس، ولم يكن منافقًا، ولكنه كان ضعيف العزم.

وقال النبي ﷺ لأهل البيعة: **«أنتم خير أهل الأرض»** كما جاء في حديث جابر بن عبد الله[(٣)].

وكانت بيعة عمر ﷺ بعد بيعة ابنه عبد الله، وذلك أن الناس كانوا متفرقين في ظل الشجرة، فنظر عمر فوجدهم مُحْدِقين حول النبي ﷺ فقال: يا عبد الله، انظر ما شأن الناس أحدقوا حول رسول الله، فوجدهم عبد الله يبايعون النبي ﷺ فبايع، ثم رجع إلى عمر، فقام فبايع[(٤)].

وفي صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ لما بايع الناس، كان عمر آخذًا بيد رسول الله ﷺ، أي: كان يضع يد رسول الله في أيدي الناس؛ كى لا يتعب بتحريكها لكثرة المبايعين، ويُحْمل هذا على أن عمر أخذ بيد النبي ﷺ بعد أن بايع.

وقد حصل الأجر لأهل البيعة بمقتضى نياتهم، وإن كان سبب المبايعة قد زال بالصلح الذي تم بين الرسول ﷺ وأهل مكة، ولم يحدث قتال بين الطرفين.

وفي صحيح مسلم: عن أم مبشر، أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا يدخل النار - إن شاء الله- من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها»**، فقيل للنبي ﷺ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]. فقال النبي ﷺ: **«قد قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾»**[(٥)] [مريم].

---

(١) الأحاديث المختارة (٢٤٠٨) ج٥ ص٦٢٦ وقد ضفعه الألباني في ضعيف الترمذي (٣٧٠٢).

(٢) نقله ابن كثير عن البيهقي في تفسيره للآية (٧/ ٣٣٢) و«الدر المثور» (١٣/ ٤٨٢).

(٣) البخاري برقم (٤١٥٤، ٤٨٤٠) ومسلم برقم (١٨٥٦) و«مسند الحميدي» (٢/ ٥١٤) و«مسند أحمد» (١٤٣١٣). بإسناد صحيح على شرط الشيخين.

(٤) يُنظَر: «صحيح البخاري» برقم (٣٩١٦، ٤١٨٧).

(٥) «صحيح مسلم» برقم (٢٤٩٦).

وجاء عَبْدٌ لحاطب بن أبي بلتعة يشكوه إلى النبي ﷺ، ويقول: ليدخلنَّ حاطب النار، فقال ﷺ: **«كذبت، لا يدخلها، فإنه قد شهد بدرًا والحديبية»**(١).

والمعنى: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ أيها الرسول بالحديبية على قتال المشركين -بيعة الرضوان- فعاهدوا الله تعالى على الثبات في القتال وعدم الفرار عند لقاء الأعداء ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾؛ في الحقيقة، ويعقدون الصفقة معه، لأن الرسول ﷺ سفير ومبلغ عن ربه، أي: إنهم في الحقيقة إنما يعاهدون الله، ويعقدون معه العقْد ابتغاء جنته ورضوانه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]. وقال أيضًا: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]

وقوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: فهو معهم يسمع أقوالهم، ويرى مكانهم، ويعلم ظواهرهم وبواطنهم.

قال الزمخشري: يريد يد رسول الله ﷺ التي تعلو أيدي المبايعين، وأنها فوق أيديهم؛ لأن من بايع الرسول فقد بايع الله.

وفي هذا إشارة إلى تأكيد البيعة حتى لكأن الصحابة بايعوا الله تعالى وصافحوه بتلك البيعة، وهذا لزيادة التأكيد والتقوية، وحملهم على الوفاء بما جاء فيها، ولهذا كانت عقوبة من لم يف بالبيعة، تعود عليه بالوبال وسوء العقاب.

وفي هذا إثبات صفة اليد لله تعالى بما يليق بجلاله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] فالله تعالى له يد كما أثبت ذلك لنفسه، وحقيقتها عند الله تعالى لا يعلمها إلا هو، وليس لنا أن نُشبِّه، أو نُعطِّل فنقول: ليس له يد، أو نُؤوِّل فنقول: معناها القدرة، بل نُثْبتها كما جاءت، ونفوض العلم بها إلى الله وحده.

﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أي: ومن نقض عهده مع الله ومع رسوله، فإنما يعود وبال ذلك على نفسه، وقد حرَم نفسه الثواب وألزمها العقاب.

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ أي من صبر عند لقاء العدو، وثبت في سبيل الله ونُصرة نبيه ﷺ، ووفَّى بعهده مع الله ورسوله، فسيُعطيه الله ثوابًا جزيلًا في الآخرة، هو الجنة دار الأبرار ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

(١) «صحيح مسلم» (٢٤٩٥) من حديث جابر.

الإِعْلَامُ الْمُسْبَقُ بِأَعْذَارِ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ الْخُرُوجِ إِلَى الْحُدَيْبِيَةِ

١١- ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا[1] أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾﴾

وبعد أن حذَّر الله تعالى مِنْ نكْث العهود، ورغَّب في الوفاء بها، أعلم نبيه ﷺ بما سيعتذر به الذين تخلفوا عن الخروج معه إلى عُمرة الحديبية من أعراب البادية الساكنين حول المدينة، ظنًّا منهم أن النبي ﷺ سيُهزَم، وذلك أنه لما عزم على المسير إلى مكة معتمرًا استنفر مَنْ هم حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي ليخرجوا معه، فرأوا أنه سيستقبل عددًا عظيمًا من قريش وثقيف وكنانة، والقبائل المجاورة لمكة من الأحابيش، ولم يكن الإيمان قد تمكن من قلوبهم، فقعدوا وتخلفوا عن رسول الله ﷺ حذرًا من قريش أن يحاربوه أو يصدوه عن الحرم.

فأحرم النبي ﷺ بالعمرة وساق معه الهدْي لِيعْلَمَ الناس أنه إنما خرج معتمرًا، فتثاقل عن الخروج معه ست من القبائل بعد أن بايعوه على الخروج، وهم قبائل: غِفار، ومُزيْنة، وجُهينة، وأشْجع، وأسْلَم، والدِّيل، وخرج معه مِن أسْلَم مئة رجل، وتخلَّف معظمهم، ولم يكونوا منافقين، ولكن الإيمان لم يكن قد تمكن من قلوبهم، وكانوا قد أعدُّوا المعذرة للنبي ﷺ بعد رجوعه إلى المدينة بأن أموالهم وأهليهم شغلوهم عن الخروج معه، فأخبر الله رسوله بما بيَّتوه في قلوبهم من التخلف، وفضح أمرهم قبل أن يصلوا إليه ويعتذورا، وهذا من معجزات القرآن الكريم.

والمعنى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ﴾ أيها الرسول ﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾ عن الخروج معك إلى عمرة الحديبية، عند عودتك إلى المدينة معتذرين كاذبين في عذرهم، مِنَ الذين تخلفوا عن الخروج معك كقبيلتي جهينة ومزينة بعد أن بايعوك على الخروج ﴿مِّنَ﴾ قبائل ﴿الْأَعْرَابِ﴾ النازلين حول المدينة ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ شُغِلْنا عن الخروج معك بالأموال والنساء والذرية، فلم نجد من يخلُفنا فيهم، فلذا تخلفنا عنك ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ أي: اطلب لنا

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الضاد من (ضُرًّا)، والباقون بفتحها، وهما لغتان.

المغفرة من الله تعالى، فنحن معترفون بالتقصير، قالوا ذلك بأفواههم مُداراة ومصانعة من غير ندم ولا توبة، وقد ظنوا أن استغفار النبي ﷺ لهم يمحو عنهم ما أضمروه في أنفسهم من نكْث العهد، وغاب عنهم أن عِلْمَ الله تعالى محيط بما أضمروه.

ولما كان قولهم هذا غير صحيح، فقد كذَّبهم الله تعالى في اعتذارهم، فقال: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْۚ﴾ أي: إن ما يقولونه بألسنتهم من طلب الاستغفار لهم من رسول الله ﷺ ومن سبب التخلف عن الخروج معك، قول ليست له حقيقة في الواقع، فهو لم يصدُر من قلوبهم بل خرج من أطراف ألسنتهم، وهم كاذبون في اعتذارهم، وإنما تخلفوا لأنهم ظنوا أن أهل مكة سيغلبون النبي ﷺ وصحبه.

وطلبهم الاستغفار يدل على ندمهم وإقرارهم على أنفسهم بالذنب، وأنهم تخلفوا تخلفًا يحتاج إلى توبة واستغفار، فلو كان هذا من قلوبهم لنفعهم استغفار الرسول لهم، ولكنهم تخلفوا لضعف إيمانهم، وسوء ظنهم با لله تعالى.

ولما كان تخلفهم عن رسول الله ﷺ بزعم دفع الضر عنهم، أو جلب النفع بالسلامة لهم ولأموالهم من مخاطر الحرب، فقد قال تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: من يمنعكم من مشيئة الله وقضائه؟ ومن يحمي أهليكم وأموالكم إن أراد الله بكم سوءًا؟ وهل أملك نفعكم أو رَفْعَ الضر عنكم باستغفاري لكم؟ فلا يقدر على ذلك إلا الله وحده؛ لأن قضاء الله تعالى لا دافع له ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ﴾ [فاطر: ٢].

وهذا معنى ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢاۚ﴾ أي: إن أراد الله أن يُلحق بكم أمرًا يضركم، كالهزيمة والمرض والفقر، أو أمرًا ينفعكم كالنصر والغنيمة والصحة والثراء، فلا رادَّ لقضائه، ولا معقِّب لحكمه، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةًۚ﴾ [الأحزاب: ١٧].

وقال سبحانه: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

فليس الأمر كما زعمتم من إظهار الاعتذار، وطلب الاستغفار، وإخفائكم الحقيقة، بل إن الله تعالى يعلم السرائر، ولا يخفى عليه شيء من أعمال خلقه ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾

فهو يعلم أن تخلُّفكم ليس لما زعمتم، بل إن الله تعالى يعلم حقيقة تخلفكم، وأنه كان شكًّا ونفاقًا، إذ لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، والمراد: تخويفهم من عذاب الله تعالى ليُكْثِروا من التوبة، ويتداركوا أمرهم، وليس بإمكانهم تحويل الشر إلى خير، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: ٤١].

السَّبَبُ الْحَقِيقِيُّ لِتَخَلُّفِ الْأَعْرَابِ عَنِ الْخُرُوجِ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ

١٢- ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾

أي: ومن إحاطة علم الله تعالى بالمنافقين وبغيرهم، أنه سبحانه يعلم السبب الحقيقي الذي منعهم من الخروج مع النبي ﷺ في عمرة الحديبية؛ إذ ليس الأمر كما زعمتم -أيها المتخلفون- من انشغالكم بالأموال والأولاد، بل إنكم توقَّعتم أن العدوَّ سيستأصل شأفة المسلمين بالقتل، وأن الرسول ومن معه سيُهلَكون ولا يَرجعون إليكم أبدًا، وحسَّن الشيطان لكم هذا الزعم الفاسد في قلوبكم ﴿وَظَنَنتُمْ﴾ بالدين وبالمؤمنين ﴿ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ حيث جزمتم باستئصال أهل الحديبية، وانتصار أهل الشرك عليهم، وغزْوهم للمدينة، وذلك أنهم قالوا: إن محمدًا وأصحابه قلة، فلن يرجعوا إليكم أبدًا، فأين تذهبون معهم؟! بل انظروا ماذا يكون من أمرهم، قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ﴾ بهذا الظن الفاسد ﴿قَوْمًۢا بُورًا﴾ هلكى لا خير فيكم.

وهذا أحد أمرين ترتبا على هذا الظن، وهو كونهم لا خير فيهم، إذ لو كان فيهم خير لم يكن هذا الظن في قلوبهم، والأمر الآخر هو: ضعف إيمانهم ويقينهم بوعد الله تعالى في نصر دينه وإعلاء كلمته، وهذا ما أشارت إليه الآية التالية:

عَدَمُ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يُؤَدِّي إِلَى نَارِ السَّعِيرِ

١٣- ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾

ولَمَّا ذكر سبحانه حال المتخلفين عن رسول الله ﷺ، وبيَّن فساد ظنهم، أشار جلَّ شأنه إلى أن هذا الظن قد يفضي إلى الكفر، فحرَّضهم على الإيمان بالله والتوبة إليه مما بدَر منهم، فقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: ومن لم يصدِّق بالله تعالى، وبكل ما

جاء به رسوله ﷺ، ويعمل بشرعه فيطيعه فيما أمر ونهى، فإنه كافر مستحق للعقاب وهذا معنى: ﴿فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾ أي: أعتدنا له في الآخرة نارًا مُسعَّرة تَحْرق الأبدان وتَشْوي الوجوه، جزاء تخلُّفه عن رسول الله ﷺ واعتقاده أن الله تعالى لن ينصر رسوله.

وَعِيدٌ لِلْمُنَافِقِينَ فِيهِ إِمْهَالٌ وَرَجَاءٌ

١٤- ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

وبعد أن ذكر جلَّ شأنه المبايعين لرسول الله ﷺ، والمتخلفين عنه، الذين طلبوا منه الاستغفار لهم، بيَّن سبحانه وتعالى أن المغفرة والعذاب بيد الله وحده، فهو الذي يملك هذا الكون بما فيه، ومن كان كذلك فهو الذي يَرْحم ويُعذِّب ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ وما فيهما وما بينهما، يتصرف فيهما كيف يشاء بأحكامه التي قدّرها في الأزل، وأحكامه التي شرعها للناس، وأحكامه التي يجازي بها عباده.

ومن أحكام الجزاء المترتبة على الأحكام الشرعية، غفران الذنوب لمن تاب وأناب وامتثل أمر ربه، وتعذيب من خالف أمر الله تعالى، فهو سبحانه: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: يتجاوز برحمته عمن يشاء، فيغفر ذنبه ويستر عيبه ﴿وَيُعَذِّبُ﴾ بعدله ﴿مَن يَشَآءُ﴾ وهذا ردٌّ على طمعهم في استغفار رسول الله لهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لمن تاب وأناب إليه ﴿رَّحِيمًا﴾ بهم حيث لم يعاجلهم بالعقوبة، ولم يزل سبحانه غفورا رحيما في جميع الأوقات، فيتقبل توبتهم، ويتجاوز عن خطئهم.

وتوبيخهم في الآية فيه رجاء وإمهال؛ لأنهم لم يجاهروا بالكفر، وقد علم الله منهم أنهم سيؤمنون، وأنهم سيطلبون الخروج معه إلى خيبر طمعًا في الغنيمة.

الْوَعْدُ بِفَتْحِ خَيْبَرَ عَلَى أَيْدِي أَهْلِ الْحُدَيْبِيَةِ وَحْدَهُمْ

١٥- ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ(١) ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف (كَلِمَ الله) بكسر اللام بلا ألف بعدها، اسم جنس، جمع كلمة، وقرأ الباقون (كلام) اسم للجملة، وهما بمعنى واحد.

ولما انصرف المسلمون من الحديبية، انصرفوا إلى صلح من غير قتال، ولم يصيبوا من الغنائم شيئًا، فوعدهم الله فتح خيبر، وأن تكون غنائمها لمن شهد الحديبية خاصة، لا يشاركهم فيها أحد، عوضًا عن غنائم أهل مكة يوم الحديبية؛ حيث لم يصيبوا منها شيئًا، وقد رجع النبي ﷺ من عُمرة الحديبية في شهر ذي الحجة سنة ست من الهجرة، وبعد أيام من شهر المحرم سنة سبع من الهجرة، خرج ﷺ ومَنْ معه إلى غزوة خيبر.

ولما عزم النبي ﷺ على الخروج إلى خيبر، أراد الأعراب الذين تخلفوا عن الخروج إلى الحديبية أن يخرجوا معه إلى خيبر، فمنعهم الله من ذلك؛ لأن غنائم خيبر جُعلت لأهل بيعة الرضوان خاصة؛ حيث وعدهم الله بفتح قريب، وقد أعلم الله نبيه سلفًا بما سيكون، فقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ أي: الذين تخلفوا عن الخروج مع النبي ﷺ إلى الحديبية، بعد أن خاب ظنهم، فرجعتم سالمين من رحلة العمرة، سيقولون لك ولأصحابك ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ﴾أي إلى غنائم لا قتال فيها ﴿لِتَأْخُذُوهَا﴾ أي: إذا خرجت -أيها الرسول- أنت وأصحابك إلى غنائم خيبر التي وعدكم الله بها، فإن غزوة خيبر كانت بعد الحديبية مباشرة، حيث قال المخلفون للنبي ﷺ وأصحابه: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ أي: اتركونا نذهب معكم إلى خيبر، لنشارككم في الغنائم التي تنالونها من أعدائكم، وهذا مُشعِر بأنهم يعرفون أن النبي ﷺ سيمنعهم من الخروج معه إلى خيبر؛ لأن الله تعالى أمره ألا يخرج معه إلا أهل بيعة الرضوان.

وفي قوله تعالى: ﴿نَتَّبِعْكُمْ﴾ إشارة إلى أنهم راضون أن يكونوا في مؤخرة الجيش كالأتباع، وفي طلبهم الخروج، إشارة إلى طمعهم في الغنائم، وتكذيب لقولهم سابقًا: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ قال تعالى في الرد عليهم: ﴿يُرِيدُونَ﴾ بقولهم هذا ﴿أَن يُبَدِّلُوا۟﴾ أي: يغيروا ﴿كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ الذي أوحاه إلى رسوله ﷺ من وعد أهل الحديبية خاصة بمغانم خيبر كرامة لهم، وتأديبًا للمخلفين، فقد حكم الله بعقوبتهم واختصاص أهل بيعة الرضوان بتلك الغنائم.

وقد أشرك النبي ﷺ في الخروج معه إلى خيبر مع أهل الحديبية مَنْ لَحِق بهم من أهل هجرة الحبشة، الذين أعطاهم النبي ﷺ من الغنائم، بوحي من ربه، ثم لقَّن الله رسوله الرد عليهم في قوله: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ أي لن تخرجوا معنا إلى خيبر لفتحها، لأنكم

محرومون منها بما جنيتم على أنفسكم وبما تركتم القتال أول مرة، فقد أمرني ربي بذلك ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: إن الله تعالى أمرنا بذلك قبل رجوعنا من الحديبية، تأديبًا لكم لامتناعكم عن الخروج إليها بحرمانكم من الغنيمة، عقابًا لكم على عصيانكم للنبي ﷺ، ولسوء ظنكم به وبأصحابه.

ثم أخبر الله تعالى بما سيقوله المخلَّفون ردًّا على هذا، فقال: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ على الغنائم، وقد تحقق قولهم هذا بعد شهر ونصف، حين سمعوا أن المسلمين يتأهبون للخروج إلى خيبر، فقالوا للمسلمين هذه المقولة: ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ وأرادوا بالحسَد: مقاسمتهم في المغانم، حرصًا على الانفراد بها، أي: إن الله تعالى لم يأمركم بعدم خروجنا معكم، بل إنكم تمنعوننا من الخروج معكم حسدًا منكم؛ لئلَّا نصيب من الغنيمة معكم، فأبطل الله قولهم هذا بقوله: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إنهم لم يفهموا عن الله حكمته، فهم جاهلون بشرائع الإسلام ونظُمِه، ويقتصر فهمهم على الأمور الواضحة، ومنها الحرص على الدنيا، ولو كان عندهم فهم وفقْه لأدركوا أن حرمانهم من الخروج إلى خيبر إنما هو بسبب عدم خروجهم إلى الحديبية، فإن المعاصي لها عقوبات.

غزوة خيبر:

ولَمَّا رجع رسول الله ﷺ من الحديبية أقام بالمدينة بقية شهر ذي الحجة وبعض المحرم، ثم خرج إلى خيبر في المحرم سنة سبع.

وفي الصحيحين: عن أنس ﷺ أن النبيَّ ﷺ كان إذا غزا قومًا لم يكن يغزو بنا حتى يُصبح وينظر، فإن لم يسمع أذانًا أغار عليهم، قال: فخرجنا إلى خيبر، فانتهينا إليهم ليلًا، فلمَّا أصبح ولم يسمع أذانًا ركب، وركبتُ خلف أبي طلحة، وإن قدميَّ لتمسُّ قدم النبي ﷺ، قال: فخرجوا علينا بمكاتلهم ومساحيهم، فلمَّا رأوا رسول الله ﷺ قالوا: محمد والخميس -أي: الجيش- فلما رآهم النبي ﷺ قال: **«الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»**[1]. **والخميس** معناه: الجيش.

---

(١) يُنظَر: حديث أنس في البخاري (٣٧١، ٦١٠، ٩٤٧) وغيرها وفي مسلم (٣٦٥) في الجهاد (١٢٠) والنكاح (٨٤).

وأرسل النبي ﷺ إلى علي بن أبي طالب ﷺ وهو يقول: لأعطينَّ الراية غدًا رجلًا يُحب اللهَ ورسولَه، ويحبه اللهُ ورسولُه، فجاء عليٌّ يقوده رجل آخر؛ لأنه كان مصابًا بالرمد في عينيه، وبصق النبي ﷺ في عينيه فبرَأ، وأعطاه الراية، ولما خرج ملك خيبر ضربه عليٌّ ضربة فقتله، وكان فتح خيبر على يديه[١].

الشاة المسمومة:

وقد صالح النبي ﷺ أهل خيبر على أن يكون لهم نصف التمر، ولَمَّا سمع أهل فدَك بذلك سألوا النبي ﷺ أن يفعل بهم مثلهم، فكانت خيبر للمسلمين، وكانت فدَك لرسول الله خاصة؛ لأنهم لم يجلبُوا عليها من خيل ولا ركاب، ولما اطمأن النبي ﷺ أهدت له زينب بنت الحارث، امرأة سلام بن مشكم اليهودية شاة مشوية، وسألت: أي عُضو من الشاة أحب لرسول الله ﷺ؟ فقيل لها: الذراع، فأكثرت فيها السم، وسمَّت بقية الشاة، فلما وضعتْها بين يدي الرسول ﷺ تناول الذراع وأخذ منها قطعة، فلم يستسغها فلفظها، وكان معه بشر بن البراء بن معرور، فأخذ منها كما أخذ رسول الله ﷺ فابتلعها، ولما لفظها النبي ﷺ قال: **«إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم»**، ثم دعا بالمرأة فاعترفت، فقال: **«ما حملك على هذا»**؟ فقالت: بلغتَ من قومي ما لا يخفى عليك، فقلتُ: إن كان مَلِكًا استرحْنا منه، وإن كان نبيًّا فسيُخْبَر، فتجاوز عنها رسول الله، ومات (بِشْر) من أثرها، فقال: يا أم بشر، مازالت أَكْلةُ خيبر التي أكلتُها معَ ابنكِ تُعاوِدُني، فهذا أوانُ انقطاع أبهري، فكان المسلمون يرون أن النبي ﷺ مات شهيدًا مع ما أكرمه الله به من النبوة[٢].

وفي الصحيحين: عن أنس أن امرأة يهودية أتت إلى النبي ﷺ بشاة مسمومة، فجيء بها إلى رسول الله ﷺ فسألها عن ذلك، فقالت: أردت لأقتلك، فقال: **«ما كان الله ليسلطك عليَّ»**[٣].

وعن عروة، عن عائشة ﵂ أن النبي ﷺ كان يقول في مرضه الذي مات فيه: **«يا عائشة، ما**

---

(١) تُنظَر أحاديث أبي هريرة، وسهل بن سعد، وسلمة بن الأكوع في: «صحيح مسلم» بأرقام: (٢٤٠٥، ٢٤٠٦، ٢٤٠٧) و«صحيح البخاري» بأرقام (٢٩٧٥، ٣٠٠٩، ٣٧٠١، ٣٧٠٢، ٤٢٠٩، ٤٢١٠).

(٢) هذه رواية محمد بن إسحاق، تُنظَر غزوة خيبر في: «سيرة ابن هشام».

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢١٩٠) و«صحيح البخاري» برقم (٢٦١٧).

أزال أجد ألم الطعام الذي أكلتُ بخيبر، فهذا أوان وجدتُ انقطاع أبهَرِ من ذلك السم»[(١)].

الْوَعْدُ بِالْخُرُوجِ إِلَى حُنَيْنٍ

١٦- ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾

ثم إن الله تعالى أراد أن يُطيِّب خاطر المخلَّفين من الأعراب، ويُدخل عليهم المسرة بعد الحزن الذي كسر خاطرهم، من جرَّاء الحرمان من الخروج إلى خيبر، وهذا يدل على أنهم قوم يُظهِرون الإسلام، وليس عندهم إخلاص، ففتح الله لهم بابًا للتوبة وجعل لقبولها علامة، وهي أنه سيطلب منهم الخروج لقتال قوم أقوياء، فإنْ هم أطاعوا كان إيمانهم حسنًا، وسوف يُجزوْن بالجنة في الآخرة، وإن أعرضوا عمَّا دُعوا إليه عذَّبهم الله عذابًا أليمًا.

﴿قُلْ﴾ أيها الرسول ﴿لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ وهم أهل البادية حول المدينة، الذين تخلَّفوا عن الخروج إلى الحديبية ﴿سَتُدْعَوْنَ﴾ سيدعوكم الرسول ومن ناب منابه ﴿إِلَىٰ﴾ قتال ﴿قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أصحاب قوة وشدة في الحرب قيل: هم فارس والروم وأشباههم، وقيل: هم مشركوا العرب، وقيل: هم ثقيف وهوازن ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي: إما أن تقاتلوهم، وإما أن يُسلموا بلا قتال.

وهذا يُشعر بأن القتال لا ينبغي أن يُرفع عنهم حتى يُسلموا، ويُشْعر أيضًا بأن القوم الموصوفين بأنهم أولو بأس شديد، هم من مشركي العرب؛ لأن عرب الجزيرة لا يُقبل منهم إلا الإسلام، ولا تُقبل منهم الجزية، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٦].

وقال عن أهل الكتاب: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة].

وأرجح الأقوال أن هؤلاء القوم هم ثقيف وهوازن في يوم حنين، حيث فُتحت مكة

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٤٢٨)

بدون قتال، وأقام فيها المسلمون خمسة عشر يومًا بعد فتحها، ثم ذهبوا إلى الطائف لقتال هوازن وثقيف في اثني عشر ألفًا من المسلمين، وكان هذا العدد يضم بين جوانحه الكثير من قبائل: أَسْلَم، وأَشْجع، وجُهينة، وغِفار، ومُزينة، وكان الداعي لغزوة حنين هو النبي ﷺ، فاستنفر العرب لذلك، وكانت هوازن وثقيف من أشد العرب بأسًا.

أما الذي دعا إلى حروب الردة فهو أبو بكر ﷺ.

والذي دعا إلى قتال فارس والروم هو عمر بن الخطاب ﷺ، وكان أهل فارس مجوسًا تُقبَل منهم الجزية، ويُحتَمل أن الله تعالى قد كشف الغيب فأخبر عن المستقبل بما يتضمن خلافة أبي بكر وعمر، وما يكون منهما.

قال رافع بن خديج: كنا نقرأ هذه الآية فيما مضى ولا نعلم من هم، حتى دعا أبو بكر إلى قتال بني حنيفة[1].

وهذا بخلاف من تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فإن الله تعالى منعهم من الخروج مع النبي ﷺ بصفة دائمة، حيث قال فيهم: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [التوبة].

ثم بيَّن سبحانه في نهاية الآية الثواب الجزيل الذي أعدَّه الله للطائعين، والعذاب الأليم الذي توعَّد به المخالفين، حيث قال: ﴿فَإِن تُطِيعُواْ﴾ الله فيما دعاكم إليه من قتال أهل البأس الشديد ﴿يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنٗاۖ﴾ هو الفوز بالنعيم المقيم يوم لقاء رب العالمين ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ﴾ أي: وإن تَعْصُوا الله تعالى، كما فعلتم حين تخلَّفتم عن السيْر مع رسول الله ﷺ إلى الحديبية ﴿يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ أي عذابًا موجعًا في نار جهنم يوم القيامة.

أَهْلُ الأَعْذَارِ في الحَرْبِ

١٧- ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ[2] جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٧﴾﴾

---

(١) نقل ذلك ابن عطية (٥/ ١٣٢) عن الثعلبي.

(٢) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بنون العظمة في (يدخله و يعذبه) على الالتفات، والباقون بياء جريًا على السياق.

رفع الله الحرج عن الذين تخلَّفوا عن الجهاد لأسباب مشروعة، وهم: الأعمى، والأعرج، والمريض، فهؤلاء الثلاثة لهم عذر ظاهر في عدم الجهاد؛ لأنهم لا يقدرون على الكرّ والفرّ، ولا على حمْل السلاح واستخدامه، ولا يمكنهم الإقدام على العدو، والبحث عنه، أو الهرب منه.

ويقاس على هؤلاء الثلاثة كل صاحب عاهة أو مرض لا يمكنه أن يزاول الجهاد معه، كالمُقعَد، وصاحب المرض المزمن الذي يعُوق صاحبه عن العمل، ومقطوع أحد الأعضاء، والفاقد لعقله، والذي ينزف دمًا، أو يعاني من تليف الكبد، أو تلف الكلى، ونحو ذلك ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ ليس على هؤلاء الثلاثة وأشباههم إثم ولا ذنب في التخلف عن الجهاد؛ لِمَا بهم من الأعذار الظاهرة، والعاهات المرخَّصة لهم في ذلك ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيما أمرا به ونهيا عنه ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ﴾ حدائق وبساتين ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا﴾ أي: من تحت قصورها وأشجارها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ومن يُعرض عن طاعة الله والرسول، ويتخلف عن الجهاد بدون عذر، يعذبه الله في الدنيا عذابًا شديدًا بالذل والمهانة، وفي الآخرة بعذاب النار ﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. فالسعادة كلها في طاعة الله، والشقاء كله في معصية الله ومخالفة أمره.

بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ

١٨، ١٩- ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾

هذا تفصيل الحديث عن بيعة الرضوان، ويقال: بيعة أهل الشجرة، التي سبقت الإشارة إليها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ الآية [١٠] فتُبيِّن هذه الآية أن الله تعالى قد أعطى أهل هذه البيعة **أربع مزايا**، هي أعظم ما في الدنيا والآخرة من فضل وخير، وهي:

١- رضوان الله تعالى. ٢- والشهادة لهم بإخلاص النية.

٣- وإنزال السكينة عليهم. ٤- ووعْدهم بفتح قريب ومغانم كثيرة.

وسبب هذه البيعة أن النبيَّ ﷺ لَمَّا نزل الحديبية أرسل **خراش بن أمية الخزاعي** إلى أهل

مكة ليبلغهم أنه ﷺ جاء معتمرًا، فعقروا جَمَله وأرادُوا قتله، فمنعتْهم الأحابيش، فخلُّوا سبيله، ورجع إلى النبي ﷺ، فأراد أن يرسل إليهم عمر بن الخطاب ﷺ، فقال عمر: قد عرفتْ قريش عداوتي إياها، وغِلْظتي عليها، ولكن أدُلُّك على رجل هو أعزُّ بها مني: عثمان بن عفان ﷺ، فأرسل النبي ﷺ عثمان إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه ﷺ لم يأتِ لحرب، وإنما جاء زائرًا للبيت، فخرج عثمان إلى مكة، فلقيه **أبان بن سعيد بن العاص** حين دخل مكة، فنزل أبان عن دابته، وحمل عثمان بين يديه، ثم أردفه خلْفه وأجاره حتى بلَّغ رسالة النبي ﷺ إلى كبار القوم، فلما فرغ قالوا له: إن شئت أن تطوف بالبيت فَطُف به، فقال: ما كنتُ لأفعل حتى يطوف رسول الله ﷺ فاحتبستْه قريش عندها، فبلغ النبي ﷺ أن عثمان قد قُتل، فقال ﷺ: «**لا نبرح حتى نناجزهم**»، ودعا الناس إلى البيعة فبايعوه، وكان عددهم ألفًا وأربع مئة[١].

وعن سلمة بن الأكوع، قال: بينما نحن قائلون، إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: أيها الناس، البيعة البيعة، نزل روح القدس -أي: جبريل ﷺ- قال: فَثُرْنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمُرة -طلح- فبايعناه، فذلك قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ قال: فبايع لعثمان بأحد يديه على الأخرى، فقال الناس: هنيئًا لابن عفان، يطوف بالبيت ونحن ها هنا، فقال رسول الله ﷺ: «**لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف حتى أطوف**»[٢].

وفي صحيح مسلم: عن أبي الزبير أنه سمع جابرًا يسأل: كم كانوا يوم الحديبية؟ قال: كنا أربع عشر مئة، فبايعناه، وعمر آخذ بيده تحت الشجرة، وهي سمُرة، فبايعناه جميعًا غير جد بن قيس الأنصاري، اختفى تحت بطن بعيره[٣].

وفي صحيح مسلم وغيره عن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة**»[٤].

---

(١) يُنظَر: «سيرة ابن إسحاق» في صلح الحديبية و«سيرة ابن هشام» (٢/ ٣١٥) والبيهقي (٤/ ١٣٢).

(٢) «تفسير الطبري» (٢١/ ١٧٣) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١/ ٩٠) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٤٨٤): فيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف.

(٣) «صحيح مسلم» برقم (١٨٥٦).

(٤) يُنظَر هذا المعنى في: «صحيح مسلم» برقم (٢٤٩٥، ٢٤٩٦).

وقد عرف الناس مكان الشجرة، وكانوا إذا مرُّوا بها يُصلُّون عندها تيمُّنًا بها إلى أن كانت خلافة عمر ﷺ، فأمر بقطعها مخافة أن تكون كشجرة ذات أنواط التي كانت في الجاهلية[١].

وكان بعض الصحابة قد نسي مكانها، كما أن سعيد بن المسيب حين سمع بعض الناس يخبر عن مكانها قال: إن أصحاب محمد ﷺ لم يَعْلَمُوها وعلمتُموها أنتم، أفأنتم أعلم؟![٢].

وقد بنى الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور مسجدًا مكان الشجرة سنة أربع وأربعين ومئتين، يسمى مسجد البيعة، وجدَّده المستنصر العباسي سنة تسع وعشرين وست مئة، ثم جدده السلطان محمود خان العثماني سنة أربع وخمسين ومئتين وألف، وهو قائم إلى اليوم[٣].

﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من أجل مبايعتهم على نصرك ﴿تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ وهي شجرة الطلح بالحديبية على مشارف مكة، فلما بايعوه واستعدُّوا لقتال أهل مكة، وحصل الصلح بينهم وبين رسول الله ﷺ حدثت لهم كآبة في نفوسهم، فأعلمهم الله تعالى أنه علم ما في نفوسهم من الحزن على عدم قتال المشركين، فطمأنهم بتحقيق وعْد الله لهم بفتح قريب، ورضى الله عنهم، ومغانم كثيرة يغنمونها من فتح خيبر، ذلكم قوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من الإيمان، والصدق، والوفاء، والحرص على جهاد العدو ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: طمأنهم وثبَّت قلوبهم وزادهم هدى، شكرًا لهم على ما في قلوبهم من الإيمان والإخلاص ﴿وَأَثَٰبَهُمْ﴾ عوَّضهم عما فاتهم بصلح الحديبية ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ هو فتح خيبر، لم يحضره إلا أهل الحديبية، فاختصُّوا بخيبر وغنائمها، جزاءً لهم على طاعة الله والقيام بمرضاته.

كما عوَّضكم الله يا أهل الحديبية غنائم كثيرة من يهود خيبر، وغيرهم، وكانت خيبر ذات نخل وأموال وعقار ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ وقد قسَّم النبي ﷺ غنائم خيبر ثمانية عشر سهمًا، فأعطى الفارس سهمين، وأعطى الراجل سهمًا[٤]

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢/ ٣٧٥).

(٢) يُنظَر: «صحيح البخاري» برقم (٤١٦٢، ٤١٦٣)، (٤١٦٥) وصحيح مسلم (١٨٥٩).

(٣) «التحرير والتنوير» (٢٦/ ١٧٥).

(٤) يُنظَر: ابن أبي شيبة في المغازي برقم (١٨٦٩٢) و«المسند» (٣/ ٤٢٠) برقم (١٥٤٧٠) قال محققوه: وإسناده ضعيف لضعف يعقوب بن مجمّع بن جارية، وأبو داود برقم (٢٧٣٦) وابن جرير (٢٦/ ٤٥) وصححه الحاكم (٢/ ١٣١) ووافقه الذهبي، والبيهقي في «الدلائل» (٤/ ٢٣٩).

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ في انتقامه من أعدائه ﴿حَكِيمًا﴾ في تدبير أمور خلقه.

وصح في حديث ابن عمر ﵁ أن النبي ﷺ أسهم للرجل ولفرسه ثلاثة أسهم، سهمًا له، وسهميْن لفرسه[(١)].

سَبْعُ مِنَنٍ امْتَنَّ اللهُ بِهَا عَلَى أَهْلِ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ

٢٠- ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا[(٢)] مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾

الْمِنَّةُ الْأُولَى: كَثْرَةُ الْفُتُوحَاتِ وَالْمَغَانِمِ

وكما وعد الله أهل الحديبية مغانم خيبر، فإنه وعدهم أيضًا -ووَعَدَ سائر المسلمين بعدهم- مغانم أخرى كثيرة يأخذونها من أعدائهم ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ﴾ يا أهل بيعة الرضوان، وأيها المسلمون في كل زمان ومكان ﴿مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ وهذا يشمل كل غنيمة تأخذونها من أعدائكم في أوقاتها التي قدَّرها الله لكم، تغنمونها من الفتوحات التي تُفتح لكم إلى يوم القيامة.

قال في البحر المحيط: ولقد اتسع نطاق الإسلام، وفتح المسلمون فتوحًا لا تُحصى، وغنموا مغانم لا تُعدُّ، وذلك في شرق البلاد وغربها، حتى في الهند والسودان -تصديقًا لوعد الله تعالى- وقد قدم علينا أحد ملوك غانة من بلاد التكرور، وقد فتح أكثر من خمس وعشرين مملكة من بلاد السودان، وأسلموا معه، وقدم علينا بعض ملوكهم يحج معه[(٣)].

وقد كان صلح الحديبية فتحًا ومغنمًا؛ لأن المسلمين غنموا من ورائه انتشار الدعوة الإسلامية في آفاق الأرض، وكان في مقدمة هذه الغنائم ما كان خاصًّا بأهل الحديبية ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ أي: غنائم خيبر، وبعدها غنائم كثيرة تتبعها.

---

(١) المسند (٤٤٤٨) وإسناده صحيح على شرط الشيخين كما قال محققوه، وأبو داود (٢٧٣٣) وسعيد بن منصور (٢٧٦٢) وابن ماجه (٢٨٥٤) والبغوي في شرح السنة (٢٧٢٢).

(٢) قرأ قنبل ورويس بالسين في (سراطًا) وقرأ خلف عن حمزة بإشمام الصاد صوت الزاي، والباقون بالصاد.

(٣) «البحر المحيط» (٢٨/ ٣٩٦).

ثم امتنَّ الله على أهل الحديبية الذين حزنوا على عدم قتال المشركين، بأن أنعم عليهم بنعمة السلم، وكفاهم شرور أعدائهم.

الْمِنَّةُ الثَّانِيَةُ: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾

فلم ينلكم منهم سوء مما كان أعداؤكم قد أضمروه لكم من المحاربة والقتال، ومن أن ينالوا ممن تركتموهم وراءكم في المدينة، مع قدرتهم على قتالكم وحرصهم عليه.

وذلك لأن المشركين بعثوا أربعين رجلًا لينالوا من المسلمين في الحديبية فأسرهم المسلمون.

قال قتادة: كفَّ الله غطفان ومن معها عن النبي ﷺ حين جاؤوا لنصْر أهل خيبر. فإن النبي ﷺ لما قصد خيبر وحاصر أهلها همَّت قبائل من بني أسد وغطفان أن يُغيروا على نساء المسلمين وذراريهم بالمدينة، فكفَّ الله أيديهم بإلقاء الرعب في قلوبهم[1].

ولهذا نظائر في كل عصر ومصر، يحفظ الله المسلمين من أعدائهم.

الْمِنَّةُ الثَّالِثَةُ: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾

وقد كفَّ الله أيديهم عنكم لتكون هزيمتهم وسلامتكم وغنيمتكم علامة تعتبرون بها ﴿وَلِتَكُونَ﴾ هذه الغنيمة ﴿ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ تستدلون بها على صدق وعد الله لكم وعلى ثوابه للمؤمنين، وعلى رعاية الله لكم ورضاه عنكم، وأن الله تعالى حافظكم وناصركم ومرشدكم طريقًا مستقيمًا، لا اعوجاج فيه.

الْمِنَّةُ الرَّابِعَةُ: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾

فكأن الله تعالى أنزل السكينة في قلوب المؤمنين لزيادة إيمانهم، واستحقاقهم الجنة، وتكفير سيئاتهم، واستحقاق المنافقين والمشركين العذاب، ولتكون عبرة للمؤمنين يستدلون بها على لطف الله بهم وعلى أن وعده حق.

الْمِنَّةُ الْخَامِسَةُ: الْوَعْدُ بِفَتْحِ فَارِسَ وَالرُّومِ

٢١- ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾

---

(١) «تفسير الخازن» (٤/ ١٥٠).

ولما بشَّر الله أهل الحديبية بأنه عجَّل لهم غنائم خيبر، وبشَّر سائر المسلمين بمغانم كثيرة يأخذونها في أوقاتها المقدرة إلى يوم القيامة، بعد ذلك أخبر ﷻ بأنه وعد المسلمين بغنيمة أخرى ليست لهم قدرة على تحصيلها لولا قدرة الله تعالى، فهي تحت تدبيره ومُلْكه، وقد وعدهم الله إياها، ولابد من وقوع ما وعد الله به، فقال سبحانه:

﴿وَأُخْرَىٰ﴾ أي: وغنيمة أخرى يسَّرها الله لكم، ﴿لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ وقت نزول هذه الآيات، ويحدُث مثلها على مرّ العصور مما علم الله بها وادّخرها لكم، وهي فوق قدرتكم واستطاعتكم، فهي صعبة المنال بالنسبة لكم ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أي: هو قادر عليها وهي تحت تدبيره وملكه، وقد وعدكم الله إياها، ووعده لا يتخلف، فحفظها لكم بقدرته حتى تأخذوها في وقتها المقدر لكم، ولم تكن أطماعكم تتعلق بها، ولكن الله تعالى لا يُعجزه أمر من الأمور ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ لا يتعذر عليه شيء، فهو القادر على نصْر أوليائه، يرزقهم من حيث لا يحتسبون، وهو قادر على هزيمة أعدائه، وإن حدث على مدى التاريخ خلاف ذلك، فهو ابتلاء وتمحيص للمؤمنين.

وفيما أشارت إليه هذه الآية **أقوال**:

فقال ابن عباس ومجاهد: هي الفتوح التي فتحها الله على المسلمين من بعدُ[١].

وقال قتادة: بلَغَنا أنها مكة[٢].

وقال عليٌّ وعبد الرحمن بن أبي ليلى وغيرهما: إنها فارس والروم[٣]. وقيل غير ذلك.

قلت: ولعل الأخير هو الأرجح.

وبهذا فقد عُلم أن هذه الآيات قد أشارت إلى **ثلاثة أنواع** من المغانم:

١- نوع موعود به وهو غنائم خيبر.

٢- ونوع مرجوٌّ، وهو غنائم كثيرة غير معينة الأوقات.

٣- ونوع لا يخطر لهم على بال، ولم تتعلق به أطماعهم، ولعله مغانم بلاد فارس والروم.

---

(١) البيهقي في «الدلائل» بإسناد حسن (٤/ ١٦٣).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ٢٢٧) والطبري (٢١/ ٢٨٦).

(٣) يُنظَر: ابن عساكر (١/ ٣٩٧) والطبري (٢١/ ٢٨٤) والبيهقي (٤/ ١٦٣).

المِنَّةُ السَّادِسَةُ: الرَّفْعُ مِنْ مَعْنَوِيَّاتِ أَهْلِ الْحُدَيْبِيَةِ

٢٢- ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾

أخبر جلَّ شأنه أن الكفار الذين كفَّ الله أيديهم عن المؤمنين، لو أنهم قاتلوا المسلمين لانهزموا أمامهم، وولَّوا ظهورهم، كما يفعل المنهزم في القتال.

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ولو قاتلكم أعداؤكم، وأنتم على مثل هذه الحالة التي كان عليها أصحاب رسول الله ﷺ يوم بيعة الرضوان،من قوة الإيمان، وإخلاص النية،وصدق الجهاد، وحسن الاستعداد، ومباشرة الأسباب ﴿لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ منهزمين أمامكم ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يواليهم على قتالكم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم ويعينهم عليكم، بل هم مخذولون مغلوبون.

وهذه سُنَّة الله في خلقه، ينصر جنده، ويهزم أعداءه، وهي سُنَّة قديمة ممتدة إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها. قال تعالى:

٢٣- ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ[1] ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

هذه سُنَّة الله في خلقه: ينصر المؤمنين على الكافرين إذا كانت نية المؤمنين نصر دين الله مع الأخذ بالأسباب، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد]. وقال جلَّ شأنه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠].

وقد يكون النصر تامًّا، وقد يكون سجالًا، وقد يتخلف النصر لعدم توافر أسبابه ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ في نهاية الأمر.

كما جاء في صحيحي البخاري ومسلم: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«يأتي زمان يغزو فئام من الناس، فيقال: فيكم مَن صحب النبي ﷺ؟ فيقال: نعم، فيُفتح عليه، ثم يأتي زمان فيُقال: فيكم مَن صحب أصحاب النبي ﷺ؟ فيقال: نعم، فيُفتح، ثم يأتي زمان فيقال: فيكم من صحب صاحب أصحاب النبي ﷺ؟ فيقال: نعم، فيفتح»**[2].

---

(١) رسم لفظ (سنة) بهاء التأنيث، ووقف عليها جميع القراء بالهاء، وأمالها الكسائي وقفًا، وكذا حمزة بخلف عنه.

(٢) «صحيح البخاري» بأرقام (٢٨٩٧، ٣٥٩٤، ٣٦٤٩) و«صحيح مسلم» برقم (٢٥٣٢).

ولَمَّا بيَّن الله سبحانه أن هذه السُّنَّة ثابتة قديمًا، أعقب ذلك ببيان أنها ثابتة أيضًا في الحال وفي المستقبل، فقال: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ فهي عادة مطَّردة في مختلف الأمم والعصور، على ألسنة الرسل جميعًا، وليس في استطاعة كائن مَنْ كان أن يحُول دون إرادة الله تعالى، وهكذا بشَّر الله المؤمنين في هذه الآيات **بأربع بشارات**:

أوَّلًا: رضى الله تعالى عنهم.

ثانيًا: نزول السكينة والطمأنينة عليهم.

ثالثًا: فتوحات وغنائم عاجلة وآجلة.

رابعًا: بُشراهم بالنصر على الأعداء.

المِنَّةُ السَّابِعَةُ: صِيَانَةُ الدِّمَاءِ فِي الْبَلَدِ الْحَرَامِ

٢٤- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ[1] بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

ثم امتنَّ الله على المؤمنين بأنه لم يترك أحدًا من الفريقَيْن -المؤمنين والكافرين- ممن كانوا في الحديبية يَعْتَدِي أحدهما على الآخر، بأسباب أوجدها الله تعالى رفقًا بالمؤمنين وإبقاء لقوتهم في وقت حاجتهم إليها بعد ذلك.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: منع أيدي المشركين ﴿عَنكُمْ﴾ أيها المسلمون أن تصل إليكم بأذى، كما منع أيديكم عنهم أن تقاتلوهم أيها المسلمون؛ حتى لا يحدث القتال عند المسجد الحرام، بل صان كُلًّا من الفريقين عن الآخر، وأوجد صُلحًا بينهما ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ أي: في وسط البلد الحرام.

والبطن: هو المكان المنخفض، وكان ذلك بالحديبية على الطريق إلى جدة من مكة، وهو المكان المعروف الآن باسم **الشميسي**، وبعضه داخل في حدود الحرم، وبعضه من الحل ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: من بعد ما قدرتم عليهم، فصاروا تحت سلطانكم، وولايتكم بلا عقد ولا عهد، وهم نحو ثمانين رجلًا، أرادوا أن يأخذوا المسلمين على

(١) قرأ أبو عمرو بياء الغيب في (تعملون) لمناسبة (أيديهم)، والباقون بتاء الخطاب لمناسبة (وأيديكم).

غرّة، فانتبه لهم المسلمون، وأمسكوا بهم، ثم تركوهم ولم يقتلوهم.

كما في صحيح مسلم وغيره عن أنس بن مالك ﷺ: أن ثمانين رجلًا من أهل مكة هبطوا على النبي ﷺ من جبل التنعيم متسلحين، يريدون غِرَّةَ النبي ﷺ وأصحابه، فأخذهم سلمًا فاستحياهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾[1].

وقد كان هذا في أثناء تبادل السفراء بين الفريقين.

فأمر النبي ﷺ بإطلاقهم، ولولا أن الله تعالى نبَّهكم إليهم قبل أن يفاجئوكم بالقتال، فكفَّ بذلك أيديهم عنكم، كما كفَّ أيديكم عنهم، لولا ذلك لحدث ما لا يحمد عقباه، وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يعفو عنهم ويُطْلقهم بعد أن ظفر بهم المسلمون، فأمسكوهم ثم تركوهم ولم يقْتلوهم.

ومن المفسرين من قال: إن المراد ببطن مكة، هو مكة نفسها، وأن المسلمين اتَّبعوا المشركين حتى أدخلوهم بيوت مكة، فقتلوا منهم وأسروا، بعد أن تجمعت قريش مع عكرمة بن أبي جهل وخرجوا يطلبون المسلمين على غِرَّة، وأن النبيَّ ﷺ بعث إليهم خالد بن الوليد وسماه سيف الله.

وهذه الرواية مضطربة؛ لأن خالد بن الوليد وقت صلح الحديبية لم يكن قد أسلم بعدُ، وكان في طليعة جيش المشركين، فهذه القصة لا يصح أن تكون عام الحديبية، ولا في عُمرة القضاء، ولا في يوم فتح مكة، كما قال ابن كثير في تفسيره للآية.

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ أي: لا تخفى عليه خافية، وسيجازيكم بأعمالكم، فهو سبحانه يراكم ويحيط علمه بكم في كل حال، ومن ذلك أنه جلَّ شأنه يراكم عندما أحطتم بالمشركين وسُقْتموهم إلى النبي ﷺ تظنون أنكم قاتلوهم أو آسروهم.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٨٠٨) و«المسند» (٣/ ١٢) برقم (١٢٢٢٧، ١٤٠٩٠) وأبو داود برقم (٢٦٨٨) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٥١٠) والترمذي (٣٢٦٤) وابن أبي شيبة (١٤/ ٤٩٢) والبيهقي في «الدلائل» (٤/ ١٤١).

اسْتِحْقَاقُ الْكُفَّارِ لِلْعَذَابِ وَاسْتِحْقَاقُ الْمُؤْمِنِينَ لِلرَّحْمَةِ

٢٥- ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ[1] فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾

هذه الآية تُهيِّج المسلمين على قتال المشركين لكفرهم بالله ورسوله، وصدهم رسول الله ومن معه عن المسجد الحرام، وهكذا، عرَّف القرآن الكريم الكفار الذين صدوا الرسول ﷺ وأصحابه عن الوصول إلى البيت الحرام، وبيَّن منزلتهم في ميزان الله تعالى، وذكر أنهم الكافرون حقًّا، كما بيَّن سبحانه ما اكتسبه أهل البيعة من الثواب العاجل والآجل في الدنيا والآخرة، فقال تعالى يصف مشركي مكة بثلاثة أوصاف هي: الكفر، والصد عن المسجد الحرام، ومنع الهدْي أن يصل إلى مكة:

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هذه واحدة ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ هذه ثانية، أي: إن كفار قريش، ومن كان مثلهم إلى قيام الساعة، مِنَ الذين جحدوا توحيد الله ﷻ في كل زمان ومكان، سِيَّمَا الذين منعوكم -أيها المسلمون- من دخول المسجد الحرام والطواف به لأداء مناسك العمرة، ولم يكتفوا بذلك، بل منعوا الهدْي المحبوس في الحديبية من الوصول إلى محله الذي يُذبح فيه تقربًا إلى الله تعالى، وكانوا لا يعتقدون بذلك، ولكن حملتهم الأنفة والحمية على أن يفعلوا ما لا يعتقدونه دينًا، فوبَّخهم الله على ذلك وتوعَّدهم عليه.

وكان الهدْي الذي مع النبي ﷺ سبعين بدنة، فرخَّص الله للمسلمين أن يذبحوها في الموضع الذي كانوا فيه بالحديبية خارج الحرم؛ لأنهم كانوا في حالة إحصار.

قال تعالى: ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ أي: ممنوعًا من الوصول إلى محل نحْره بالحرم، إنهم الكافرون حقًّا، وقد كان من عادتهم أن يقبلوا كل زائر للكعبة من جميع الأديان، وقد اضطر المسلمون أن ينحروا هداياهم في الحديبية، وبذلك فقد عطَّل الكفار

---

(١) قرأ أبو جعفر بحذف الهمزة من (تطؤوهم) فيُنطَق بواو ساكنة بعد الطاء والتاء المفتوحة، ولحمزة وقفًا: الحذف كأبي جعفر، والتسهيل بين بين، وللأزرق الأوجه الثلاثة في مد البدل.

شعيرة من شعائر الله تعالى ظلمًا وعدوانًا وكل واحد من هذه الثلاثة وهي الكفر بالله والصد عن سبيله ومنع الهدْى من الوصول إلى الحرم، كل واحد منها موجب لقتالهم، ولكن الله تعالى حال دون اللقاء بين الفريقين لوجود رجال ونساء مؤمنين بين صفوف المشركين مختلطين بهم وغير مميزين عنهم.

في صحيح البخاري وغيره: عن ابن عمر ﷺ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ معتمرين، فحَالَ كفار قريش دون البيت، فنحر رسول الله بُدْنَه وحلق رأسه..[1].

وفي صحيح مسلم وغيره: عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: نحرنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية، البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة[2].

ثم بيَّن سبحانه السبب في أن الله تعالى حال بين المؤمنين والكافرين في الحديبية، ولم يقع بينهم قتال، فقال: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ موجودون في مكة بين أظهر المشركين، يكتمون إيمانهم خوفًا على أنفسهم، ومنهم من آمن بعد هجرة النبي ﷺ ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ أي: لم تعرفوهم ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ فإذا تقاتلتم وطئتموهم بأرجلكم وجيوشكم حال دخولكم مكة عنوة بقوة السلاح، فتقتلونهم دون علم لكم بهم؛ لأنهم مختلطون مع المشركين، وأنتم لا تعرفونهم بأعيانهم ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: يلحقكم بسبب قتلكم لهم إثم وعيب، وعار ومسبَّة، وغرامة بدفع الديات، وأنتم على غير علم بهم، ولولا ذلك كله لَمَا كفَّ الله أيديكم عن كفار مكة، بل لسلَّطكم عليهم لتقتلوهم.

وجواب لولا محذوف تقديره: لأذن لكم في دخول مكة وسلَّطكم على المشركين، أي: لولا كراهة أن تُهْلِكوا المؤمنين مع الكافرين وأنتم لا تعرفونهم، فيصيبكم مكروه بقتلهم، لَمَا كفَّ أيديكم عنهم.

وممن عنتْهم الآية في جانب المشركين من المسلمين: الوليد بن المغيرة، وسلمة بن

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٨١٢) و«صحيح مسلم» برقم (١٢٣٠).

(٢) مسلم (١٣١٨) وأبو داود (٢٨٠٩) وابن ماجه (٣١٣٢) والترمذي (٩٠٤) و«المسند» (١٤١٢٧) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات رجال الشيخين غير أبي الزبير فمن رجال مسلم، وقد صرح بالسماع، وأخرجه ابن حبان (٤٠٠٤) والنسائي في «الكبرى» (٤١٠٨).

هشام، وعيَّاش بن أبي ربيعة، وأبو جندل بن سُهيل، وأبو بصير القرشي، وأم الفضل زوج العباس بن عبد المطلب، وأم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، فهؤلاء وأمثالهم ممن لا يعرفهم كثير من أهل الحديبية بذواتهم، ولا يعرفون ما في قلوبهم من الإيمان وعدمه، فلو حدث قتال لأُوذى أمثال هؤلاء دون علم المسلمين بهم.

وقد اقتضت حكمة الله تعالى منع القتال بين الفريقين ليُخرج المؤمنين المستضعفين من بين أظهر الكفار، ويفك أسرهم، ويرفع ما كان ينزل بهم من العذاب.

كما اقتضت حكمته تعالى أن يمنَّ على بعض هؤلاء بالإسلام، كأبي سفيان، وخالد بن الوليد، والعباس بن عبد المطلب، وغيرهم ممن أسلموا بعد صلح الحديبية، فكان هذا رحمة من الله تعالى بالجميع.

ولهذا جاءت لام التعليل في قوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ فقد رحم الله المؤمنين بنجاتهم من الهلاك، ورحمهم بأن سلَّمهم من المعرَّة التي تلحق بهم حال قتال الفريقين، ورحمهم بأن أبقى لهم قوَّتهم لضرورة تأتي بعد ذلك.

ورحم الله المشركين فاستبقاهم لعلهم يُسْلِمون، أو يُسلِم كثير منهم.

ورحم الله من أسلم منهم بثواب الآخرة.

فهذه رحمة شاملة لجميع الأطراف بسبب صلح الحديبية.

ثم بيَّن سبحانه أنه لو تميز المسلمون من الكافرين، فانفصل أهل الحديبية عن كفار مكة لسلَّط الله المسلمين على المشركين فعذبوهم بالقتل والأسر ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: لو تميَّز المؤمنون والمؤمنات الذين يعيشون في مكة عن كفارها، ففارقوهم وانعزلوا عنهم، لأذلَّ الله الكافرين بإهلاكهم وأَخْذِهم أسرى.

أخرج الطبراني بسنده عن جُنَيْد بن سَبْع قال: قاتلتُ رسول الله ﷺ أول النهار كافرًا، وقاتلتُ معه آخر النهار مسلمًا، وفينا نزلت: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ قال: وكنا تسعة نفر: سبعة رجال وامرأتين[1].

---

(١) «المعجم الكبير» (٢/ ٢٩)، (٤/ ٢٤) (٢٢٠٤) وأبو يعلى (١٥٦٠) وابن أبي حاتم.

تَشَفِّي الْكَافِرِينَ وَثَبَاتُ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ

٢٦- ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ[1] ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾

أي: إن المشركين الذين صدوا المسلمين عن المسجد الحرام ليس عندهم عذر ولا سبب فيما فعلوه، فإن المؤمنين جاؤوا مسالمين معظِّمين لحرمة الكعبة، سائقين الهدْي معهم لِنَفْعِ فقراء الحرم.

والسبب الوحيد الذي حمل المشركين على منع المسلمين من العمرة، هو حمية الجاهلية، التي غطَّت على عقولهم وأعمت قلوبهم، وجعلتْهم يتشفُّون من المسلمين للأحقاد التي يحملونها.

وقد أراد المسلمون أن يقاتلوا المشركين ويدخلوا مكة عنوة، ولكن الله تعالى ثبَّتهم وأنزل السكينة عليهم، وهيَّأ نفوسهم وأخلصها، وجعلهم ملتزمين بأخلاق الإسلام وآدابه ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ﴾.

اذكر -أيها الرسول- وقت أن دخلَتْ أنفَة الجاهلية قلوب الكفار في مكة، فلم يُقروا برسالتك، وامتنعوا من كتابة بسم الله الرحمن الرحيم، وأبوْا أن يكتبوا: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، وقالوا: قد قتلوا آباءنا وإخواننا ودخلوا علينا في منازلنا، فتتحدث العرب أنهم قد دخلوا علينا رغم أنوفنا، واللَّاتِ والعُزَّى لا يدخلونها علينا.

ومن ذلك أنهم أَنِفُوا من كتابة (محمد رسول الله) في عقد الصلح.

ومن هذه الحمية أنهم أنفوا من دخول الرسول وصحبه إلى مكة في تلك السنة لئلا يقول الناس: دخلوا مكة قاهرين لقريش، ولم تزل هذه الحمية الجاهلية في قلوبهم حتى حببتْ لهم ارتكاب كثير من المعاصي.

أما المسلمون: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فلم تدخل الحمية في

(١) قرأ أبو عمرو ويعقوب بكسر الهاء والميم من (قلوبهِمِ الحمية) وضمهما حمزة والكسائي وخلف، وكسر الهاء وضم الميم الباقون، وأسكن الميم عند الوقف عليها الجميع.

قلوبهم كما دخلت في قلوب أعدائهم، وجعل الطمأنينة والوقار والثبات في قلب رسوله ﷺ والمؤمنين، ولم يقابلوا سفاهات المشركين بمثلها.

وقد ألزمهم الله الطاعة والإخلاص وعدم الفرقة، عندما كُتبت بنود الصلح وهي بنود مجحفة بالمسلمين، وكان في هذا الصلح كل الخير للمسلمين.

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ وهي قول: **لا إله إلا الله**، التي هي رأس كل تقوى، ورأس كل طاعة وإخلاص، بما تستلزم من شروط وحقوق، فالتزموها وقاموا بها:

عن أُبَيِّ بن كعب ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**كلمة التقوى: لا إله إلا الله**»[١].

وفي حديث جابر ﷺ: أن النبيَّ ﷺ قال: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإن قالوا لا إله إلا الله، فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**»[٢].

وهي الكلمة التي استكبر المشركون أنْ يقولوها: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات]

وهي التي اشمأزت منها قلوبهم ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر].

وتفسير كلمة التقوى بأنها كلمة التوحيد: **لا إله إلا الله** جاء عن جمع من الصحابة والتابعين، منهم: عليٌّ، وابن عمر، وابن عباس، وسعيد بن جبير، وعطاء الخراساني، وعطاء بن رباح، والمسوَّر، وقتادة، والزهري، وغيرهم.

وكما ألزمهم الله كلمة التقوى ألزمهم تعظيم الحرم، وترك القتال فيه، ولم يستفزهم ما صنع الكفار لانتهاك حرمة الحرم، فلم يشقُّوا عصا الطاعة عندما كُتبت بنود الصلح،

---

(١) الترمذي (٣٢٦٥) وعبد الله بن أحمد (٢١٢٥٥) في المسند بإسناد ضعيف، لضعف ابن أبي فاختة وباقي رجاله ثقات غير ابن قذعة فهو صدوق (محققوه)، وأخرجه الطبراني (٥٣٦) والطبري (٢١/ ٣١٠) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٠٠) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٦٠٣)، وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعًا إلا من حديث الحسن بن قزعة، وسألت أبا زرعة عن هذا الحديث فلم يعرفه مرفوعًا إلا من هذا الوجه.

(٢) البخاري (٢٩٤٦) ومسلم (٢١).

وكانت مجحفة بحقوق المسلمين في الظاهر، فثبَّت الله المؤمنين على طاعته وطاعة رسوله، وكان في هذا خير للمسلمين.

وكان المؤمنون أهلًا لهذه الكلمة، وأجدر وأحق بها من المشركين الذين استكبروا عنها، ولم يستجيبوا لله والرسول ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ﴾ دون الكفار الذين أنفوا وتكبروا وتطاولوا على المؤمنين بمقتضى حميتهم الجاهلية ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ ولا يزال ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ لا يخفى عليه شيء، ومن ذلك علمه تعالى بأهل الفضل ومن يختارهم لدينه وصُحْبة نبيه، ومن يخصهم بمزيد الخير والتكريم، ومِنْ عِلْمِه تعالى أن رسول الله ﷺ كان في الحديبية في أربع مئة وألف، وأنه قدم بعد عامين في عشرة آلاف مجاهدًا فاتحًا مكة، مكسرًا للأصنام.

رُؤْيَا الرَّسُولِ ﷺ بِدُخُولِ الْحَرَمِ قَبْلَ أَحْدَاثِ الْحُدَيْبِيَةِ

٢٧- ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا[1] بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾

كان النبي ﷺ قد رأى في منامه وهو في المدينة قبل خروجه إلى الحديبية، كأنه دخل هو وأصحابه مكة المكرمة آمنين معتمرين، يطوفون بالبيت، بعضهم محلقون وبعضهم مقصرون.

قال مجاهد: إن هذه الرؤيا كانت بالحديبية، وقيل: إن ملَكًا أخبره ﷺ بذلك.

والذي عليه الجمهور أن النبيَّ ﷺ رآها قبل القدوم إلى مكة، وقبل حصاره في الحديبية، فقصَّ رسول الله رؤياه على أصحابه فاستبشروا، وعبَّروا هذه الرؤيا بأنهم سيدخلون مكة بعمرتهم التي خرجوا لأجلها، فلما حدث الصلح وهَمَّ المسلمون بالعوْدة إلى المدينة، قال عمر: ألم تخبرنا أنك ستأتي البيت وتطوف به؟ فقال ﷺ: **«أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا؟»** وهكذا قال بعض المنافقين: أين الرؤيا؟ والله ما دخلنا المسجد الحرام، ولا حلقْنا ولا قصَّرنا، فقال أبو بكر ﷺ: إن المنام لم يكن مؤقَّتًا بوقت، وإنه سيدخل، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

---

(١) قرأ الأصبهاني وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (الرؤيا) واوًا وصلًا ووقفًا، وقرأ أبو جعفر بالإبدال مع الإدغام، ولحمزة وجهان وقفًا، أحدهما كأبي جعفر والثاني كالأصبهاني.

وقد كثر الكلام في هذا بعد أن عاد المسلمون من الحديبية دون دخول مكة، حتى إنهم قالوا للنبي ﷺ: ألم تخبرنا أنك ستأتي البيت وتطوف به؟ فقال: «أخبرتكم أنه العام»؟ قالوا: لا، قال: «فإنكم ستأتونه وتطوفون به».

أي: لقد جعل الله رؤيا رسوله محمد ﷺ رؤيا صادقة لا تتخلف، ولا يحوم حولها الشك، فقد أوحى الله إليه بها، ورؤيا الأنبياء حق، وهذه الرؤيا ستتحقق في المستقبل، وإن لم يتعيَّن وقتها في المنام، فهي وعْد غيرُ معيَّن وَعَدَهم الله به ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ أي: إن ذلك سيكون في المستقبل لأداء نسك العمرة ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ بمشيئة الله تعالى، وأنه سيتم قطعًا، ولكنه ليس في الحال ولا في المستقبل القريب، وإنما هو أمر محقق الوقوع بعد زمن ليس بالبعيد، وهذا الاستثناء واجب؛ لأن تقديم المشيئة لا بد منه في كل شيء، والله تعالى يعلمنا ذلك، وقد سكنت قلوب الصحابة واطمأنت لهذه الرؤيا، وكان تحقيقها في العام المقبل.

وقد فهم أبو بكر ﷺ هذا المعنى حين قال: إن المنام لم يكن مؤقَّتًا بوقت، وإنه سيدخل؛ إذ ليس في الرؤيا أنها سنة ست من الهجرة، وقد تحقق هذا بعد عام.

وهذا كما قال تعالى على لسان يوسف ﷺ: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠].

وقد تحققت رؤيا الرسول ﷺ سنة سبع من الهجرة، بأداء عُمرة القضية، فإن النبي ﷺ وأصحابه دخلوا المسجد الحرام ﴿ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي: آمنين من العدو، فـأدّوْا مناسك العمرة، وبعضهم حلق رأسه، وبعضهم قصَّر شعر رأسه، وحلْق شعر الرأس في الحج أو العمرة أفضل من التقصير؛ لِمَا أخرجه الشيخان عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ دعا للمحلقين ثلاثًا، وللمقصرين مرة واحدة[1].

والتقصير يخص شعر الرأس، دون اللحية، ولا شعر البدن ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ من أذى المشركين، لا عند دخولكم مكة، ولا عند الخروج منها، ولا في أي حال من الأحوال

(١) كما في «صحيح البخاري» برقم (١٧٢٨) و«صحيح مسلم» برقم (١٣٠٢) ولهما عن ابن عمر برقم (١٣٠١، ١٧٢٧).

بعد أداء هذه العمرة ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟﴾ أي: علم الله ما فيه الخير والمصلحة، حيث صرفكم عن مكة في عامكم هذا، وأراد دخولكم إياها في العام الذي يليه، وأنتم لا تعلمون المصلحة في هذا التأخير ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي: جعل قبل دخولكم مكة فتحًا قريبًا هو صلح الحديبية، وفتح خيبر وأخذ ما فيها من الغنائم والأموال.

وفي شهر ذي القعدة من العام السابع خرج النبي ﷺ هو وأهل الحديبية معتمرًا، فأحرم من ذي الحليفة، وساق معه الهدي ستين بدنة، وسار إلى مكة والسيوف في غمدها وأصحابه يُلبُّون، وعبد الله بن رواحة آخذ بزمام ناقته.

ولما وصل مكة خرج أهلها لرؤيته هو وأصحابه، وجلس النساء والأطفال على الطرق ينظرون إليهم، وأقام النبي ﷺ وأصحابه بمكة ثلاثة أيام، اعتمر خلالها هو وأصحابه، ثم رجعوا إلى المدينة.

الرِّسَالَةُ الْعَالَمِيَّةُ

٢٨- ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾

هذه الآية إعلام من الله تعالى أنه مُظهِر دينه على جميع الديانات، حيث إن الذي أرسل رسوله بهذا الدين لا يُري رسوله في المنام ما لا يكون، فرؤيا الرسول وحي وحق ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ محمدًا ﷺ ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ هو البيان الواضح والعلم النافع المتضمن هداية الخلق الذي يهدي من الضلالة، ويبيّن طريق الخير من الشر ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ هو الإسلام بأصوله وفروعه، وهو دين الحق والعدل والإحسان والرحمة، وهو كل عمل صالح يزكى القلوب، ويطهر النفوس، ويربى الأخلاق ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي: ليُعليه على جميع الملل والنِّحَل، بالحجة والبرهان، ويكون داعيًا لإخضاعهم بالسيف والسنان، ويتكامل ذلك عند نزول عيسى ﷺ حيث لا يبقى في الأرض غير دين الإسلام ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي: حسْبك يا محمد بالله شاهدًا على أنه ناصرُك، ومُظْهِر دينك على كل الديانات، وفي هذا وعيد لمن لم يؤمن برسالة محمد ﷺ.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة، والصف: ٩].

والإسلام هو الدين الذي ختم الله به الرسالات ونسخها به، ولا يقبل من أحد دينًا سواه ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران].

وكل من سمع بهذه الرسالة ولم يؤمن بها، ومات على ذلك فهو من أهل النار.

وقد عمَّ الإسلام مشارق الأرض ومغاربها، وما زال ينتشر في العالمين بحمد الله تعالى.

أَرْبَعَةُ أَوْصَافٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَصَحْبِهِ، وَمَثَلَانِ لَهُمْ

٢٩- ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ(١) سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ(٢) فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ(٣) يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾

وفي ختام السورة أثنى الله تعالى على رسوله ﷺ وعلى أصحابه، فوصفهم **بأربعة أوصاف**، وضرب لهم **مثلين**، فصوَّر حالهم مع الكفار ومع أنفسهم، وهيئتهم في عبادتهم لله تعالى، وصوَّر قلوبهم وما يشغلها ويجيش فيها، وبيَّن صفتهم في التوراة والإنجيل.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي: إن هذا الرسول الذي أرسله الله بالهدى ودين الحق، هو محمد ﷺ، فهو رسول الله حقًّا وصدقًا، ختم به النبوات، ونسخ به الديانات، وجعل رسالته عامة للناس كافة، وإلى الإنس والجن، وإلى أن تقوم الساعة، ورسالته قائمة على مدى التاريخ البشري وليس كما يقول المكذبون به ﷺ، من أنه رسول إلى العرب خاصة، ومنهم من نفى أنه رسول الله في صلح الحديبية، فقالوا: لا تكتب محمدًا رسول الله، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك.

﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ هم أصحابه من المهاجرين والأنصار، وعلى رأسهم أهل بيعة الرضوان،

---

(١) قرأ شعبة بضم الراء من (رُضوانًا) والباقون بكسرها، وهما لغتان.

(٢) قرأ ابن عامر بخلف عن هشام بقصر همزة (فأزره)، والباقون بمدها، وهو الوجه الثاني لهشام، وهما لغتان، وللأزرق ثلاثة وجوه المد.

(٣) قرأ قنبل بهمزة ساكنة بعد السين بدلًا من الواو في (سوقه) وبهمزة مضمومة بعد السين وبعدها واو ساكنة، والباقون بواو مدِّيَّة بعد السين، وكلها لغات.

ثم وصف الله تعالى أصحاب رسوله ﷺ **بأربعة أوصاف:**

الوصف الأول: أنهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ فهم غلاظ أقوياء على أعداء الله في ساحات الجهاد، لا تأخذهم فيهم رأفة، فهم أشداء في قتالهم وإظهار العداوة لهم، والبراءة منهم، ووضوح الغضب في وجوههم، والبغض لهم بقلوبهم، فهم يحبون في الله ويُبغضون في الله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٩].

وقد بلغت شدتهم على الكفار مبلغًا كبيرًا -كما قال الحسن- إنهم يتحرَّزُون من أن تمسَّ أبدانهم أبدان الكفار، أو تلْزق ثيابهم بثيابهم.

وإلى جوار ذلك فهم رحماء بإخوانهم المؤمنين، متعاطفون معهم متوادون، يحب أحدهم لأخيه ما يحبه لنفسه، بعضهم لبعض كالوالد مع الولد: **«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»**[(١)]، و**«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»**[(٢)].

وقد حثَّ الإسلام على الرحمة في كثير من الأحاديث، منها.

ما رواه جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يرحم اللهُ من لا يرحم الناسَ»**[(٣)].

وفي حديث عبد الله بن عمرو ﷺ: **«من لم يرحم صغيرنا، ويعرف حق كبيرنا فليس منا»**[(٤)].

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تنزع الرحمة إلا من شقيٍّ»**[(٥)].

---

(١) من حديث النعمان بن بشير عند البخاري برقم (٦٠١١) ومسلم برقم (٢٥٨٦).

(٢) من حديث أبي موسى الأشعري عند البخاري برقم (٤٨١) ومسلم برقم (٢٥٨٥).

(٣) ابن أبي شيبة (٨/ ٣٣٨) والبخاري (٧٣٧٦) ومسلم (٢٣١٩) والترمذي (١٩٢٢).

(٤) ابن أبي شيبة (٨/ ٣٣٩) و«صحيح سنن أبي داود» (٤١٣٤). والمسند (٧٠٧٣) بإسناد صحيح (محققوه) والحميدي (٥٨٦) والبخاري في الأدب المفرد (٣٥٤) والبيهقي في الشعب (١٠٩٧٦).

(٥) ابن أبي شيبة (٨/ ٣٣٩) و«المسند» (٨٠٠١، ٩٧٠٢) وإسناده حسن (محققوه) و«صحيح سنن أبي داود» (٤١٣٣) والترمذي (١٩٢٤)، والطيالسي (٢٥٢٩) وأبو داود (٤٩٤٢) وابن حبان (٤٦٢).

وقد جمع الله بين الشدة على الكفار والرحمة بالمؤمنين في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

الوصف الثاني: أنك ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ لله تعالى في صلاتهم المفروضة والنافلة، خاشعين لله سبحانه، مبتهلين له، محافظين على صلاتهم، مداومين عليها، مكثرين منها، وهم رهبان بالليل، أُسُود بالنهار، وهذا وصف لهم بكثرة الصلاة، ومن أعظم أركانها: الركوع والسجود.

الوصف الثالث: أنهم ﴿يَبۡتَغُونَ﴾ بهذه العبادة ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾ يرجون ربهم أن يتفضل عليهم، فيدخلهم الجنة ويرضى عنهم، فهم يُخلصون عملهم لله تعالى، ويطلبون الأجر منه وحده، ولا يُراؤون أحدًا، ويحتسبون أجرهم عند الله تعالى، وهذا وصف لهم بالإخلاص والاحتساب، وأن مقصودهم بلوغ رضى الله تعالى والوصول إلى ثوابه.

الوصف الرابع: ﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ أي: إن علامة الطاعة ظاهرة في وجوههم من أثر السجود وكثرة العبادة، فقد لاحت في وجوههم علامات التهجد وأمارات السهر، لقد أثرت كثرة الصلاة وحسنها في وجوههم حتى استنارت، ولما استنارت بواطنهم بالصلاة استنارت ظواهرهم، وهذا الأثر من السجود هل هو في الدنيا أم في الآخرة؟ وإذا كان في الدنيا فهل هو أثر حسي أم معنوي؟

ورد أن هذا الأثر يكون يوم القيامة بياضًا في الوجه كالقمر ليلة البدر، يجعله الله كرامة لهم، وعلامة يُعرفون بها في الموقف.

جاء عن أُبَيّ بن كعب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ النور يوم القيامة»[1].

وقيل: **«إنهم يبعثون يوم القيامة غُرًّا محجَّلين من آثار الوضوء»**[2].

فيُعرفون بذلك كما صح في الحديث.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٤٦٤) و«الصغير» (١/ ٢٢٢) وابن مردويه بإسناد حسن.

(٢) من حديث أبي هريرة في البخاري (١٣٦) ومسلم (٢٤٦).

وورد أن هذا الأثر يكون في الدنيا أثرًا محسوسًا، يعْلُو جباههم من كثرة السجود على الأرض، ويحصل لهم من غير قصد ولا تكلُّف ولا مراءاة، كما حدث للنبي ﷺ من تعلُّق الطين والماء بجبهته الشريفة لَمَّا سجد ليلة إحدى وعشرين من شهر رمضان على الأرض.

وقد يكون هذا الأثر معنويًّا، بحُسن السَّمْت والوقار والبهاء، ونور يعلو وجوههم من الخشوع والتواضع.

قال ابن عباس ﷺ: أما إنه ليس بالذي تروْن، ولكنه سِيمَا الإسلام وسحْنتُهُ وسمْتُه وخشوعُه(١).

وعن جُعَيْد بن عبد الرحمن قال: كنت عند السائب بن يزيد، إذ جاءه رجل وفي وجهه أثر السجود، فقال: لقد أفسد هذا وجهَه، أما والله ما هي السِّيما التي سمَّى الله، ولقد صليتُ على وجهي منذ ثمانين سنة، ما أثَّر السجود بين عيْني(٢).

وقال مجاهد: ليس الأثر في الوجه ولكن في الخشوع(٣).

وقد سئل مجاهد عن هذا الأثر، فقال السائل: أهو أثر يكون بين عيْني الرجل؟ قال: لا، ربما يكون بين عيْني الرجل مثل ركبة العنز، وهو أقسى قلبًا من الحجارة، ولكنه نور في وجوههم من الخشوع(٤).

جاء في الأثر عن جابر ﷺ: من كثُرت صلاته بالليل حسُن وجهه بالنهار(٥).

وقال عمر ﷺ: من أصلح سريرته أصلح الله علانيته.

وقال عثمان ﷺ: ما أسرَّ أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وفلتات لسانه.

وعن أبي سعيد ﷺ قال: لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء، ليس لها باب ولا كُوَّة،

---

(١) «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٢٣).

(٢) الطبراني في «الكبير» (٦٦٨٥) والبيهقي في «السنن» (٢/ ٢٨٧) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٠٧): رجاله ثقات.

(٣) الطبري (٢١/ ٣٢٤) وابن نصر في «مختصر قيام الليل» ص ١٦ .

(٤) «تفسير القرطبي» (١٦/ ٢٩٥). وهو ليس بحديث نبوي.

(٥) رُوي مرفوعًا وموقوفًا وهو الأصح، «سنن ابن ماجه» برقم (١٣٣٣).

لخرج عمله للناس، كائنًا ما كان[١].

قال الألوسي: ولا يبعُد أن يكون النور علامة على وجوههم في الدنيا والآخرة للآثار الواردة، لكنه لَمَّا كان في الآخرة أظهر وأتم، خصَّه النبي ﷺ بالذكر[٢].

وبعد الفراغ من هذه الأوصاف الأربعة يأتي ذكر **المثلين**:

المثل الأول: صفة أصحاب رسول الله ﷺ في التوراة:

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق ذكره في الآية من وصف الصحابة:

١- بالشدة على الكفار، والرحمة بالمؤمنين.

٢- وكثرة الركوع والسجود في الصلاة.

٣- وأنهم يرجُون بذلك ثواب الله تعالى ورضوانه.

٤- ويُعرفون بأثر الصلاح على وجوههم في الدنيا والآخرة.

واتصافهم بهذه الصفات الأربع هو ﴿مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي: إن الله تعالى وصَف أصحاب رسول الله ﷺ بهذه الأوصاف عند أهل الكتاب فهي مذكورة عندهم.

وقد جاء نحو ذلك في التوراة:

جاء الرب من سينا، وأشرق لهم من سعير، وتلألأ من جبل فاران، وأتى من رَبَوات القدس، وعن يمينه نار، شريعة لهم، فأحب الشعب جميع قدِّيسيه، وهم جالسون عند قدمك يتقبلون من أقوالك[٣].

فجبل فاران هو جبال الحجاز، وقوله: فأحب الشعب جميع قديسيه، مقابل ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ وقوله: قدِّيسيه يقابل ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ ويقابل ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ وقوله: جالسون عند قدمك يقابل ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾.

---

(١) «المسند» (٣/ ٢٨) برقم (١١٢٣٠)، بإسناد ضعيف، فيه ابن لهيعة، متكلم فيه، وأخرجه أبو يعلى (١٣٧٨) قال الهيثمي في المجمع: إسنادهما حسن، وأخرجه ابن حبان مطولًا (٥٦٧٨).

(٢) «تفسير الألوسي» (٢٦/ ١٢٥).

(٣) الإصحاح الثالث والثلاثون من سفر التثنية.

المثل الثاني: صفة أصحاب رسول الله ﷺ في الإنجيل:

وذلك أن محمدًا ﷺ يُشْبه الزارع للأرض.

والصحابة يشبهون حبوب الزرع التي تُبذر في الأرض.

والمسلمون يشبهون الشطء الذي هو فروع الحبة، الذي يكون على جانبي الشجرة.

﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ﴾ أي: وصفة أصحاب رسول الله ﷺ في الإنجيل، أنهم في كمالهم وتعاونهم ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ أي: كصفة زرع خرج من الطين، وأخرج ساقه وفرعه، فالزرع هو صاحب الرسالة ﷺ، والساق هم الصحابة، والفرع هم المؤمنون جميعًا.

﴿فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ﴾ أي: فاشتد فرع الحبة حتى صار غليظًا، وتكاثرت فروعه، وقوي مخضرًّا، فاستوى قائمًا على سيقانه، جميلًا في منظره، وهذا معنى ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ والسوق جمع ساق.

وهذا المنظر الجميل ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ من كماله واستوائه وحسنه واعتداله أي: يعجب هذا الزرع زُرَّاعه لقوته وحسن منظره وهم المؤمنون، كذلك أصحاب رسول الله ﷺ، هم كالزرع في نفعهم للخلق واحتياج الناس إليهم، فقوة إيمانهم وقوة أعمالهم بمنزلة قوة الزرع وسيقانه، والمتأخر في إسلامه منهم يؤازر المتقدم، ويعاونه على إقامة الدين والدعوة إليه، كالزرع الذي أخرج فرعه فآزره فاستغلظ، ولهذا قال تعالى: ﴿لِيَغِيظَ﴾ الله ﴿بِهِمُ﴾ أي: يغيظ الله بهؤلاء المؤمنين في كثرتهم وتآلفهم وشدتهم في دينهم وجمال منظرهم ﴿الْكُفَّارَ﴾ بالله حين يتصادمون معهم في المعارك وساحات القتال.

قال في إنجيل متى: هو ذا الزرع قد خرج ليزرع -يعني عيسى ﷺ- وفيما هو يُزرَع سقط بعض على الطريق، فجاءت الطيور وأكلته...، إلى أن قال: وسقط الآخر على الأرض الجيدة، فأعطى ثمرةُ بعضَ مئة، وآخرَ ستين، وآخرَ ثلاثين، ثم قال: وأما المزروع على الأرض الجيدة فهو الذي يسمع الكلمة ويفهم، وهو الذي يأتي بثمر، فيصنع بعضَ مئة، وبعض ستين، وآخرَ ثلاثين[1].

---

(١) «إنجيل متى»، الإصحاح ١٣ فقرة ٣ .

وهذا يتضمن نماء الإيمان في قلوب المدعوِّين، وأنهم يدعون الناس إلى الدين حتى يكثر المؤمنون، كما تُنبت الحبة مئة سنبلة، وكما تنبت من النواة الشجرة العظيمة(١).

قال ابن عباس ﷺ: هذا مثل ضربه الله تعالى لأهل الكتاب، إذا خرج قوم ،ينبتُون كما ينبُت الزرع، يبلغُ فيهم رجال يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ثم يغلُظون، فهم الذين كانوا معهم، وهو مثل ضربه الله تعالى لمحمد ﷺ، يقول: يبعث الله النبي وحده، ثم يجتمع إليه ناس قليل يؤمنون به، ثم يكون القليل كثيرًا ويستغلظون، ويغيظ الله بهم الكفار(٢).

وقال الضحاك: كان أصحاب محمد قليلًا، ثم كثروا واستغلظوا(٣).

وقال القرطبي: هذا مثل ضربه الله تعالى لأصحاب النبي ﷺ، يكونون قليلًا فيكثرُون، فكان النبي ﷺ ضعيفًا حين بدأ بالدعوة، فأجابه الواحد بعد الواحد حتى قوي أمره، كالزرع يبدو بعد البذر ضعيفًا، فيقْوى حالًا بعد حال، حتى يغلظ نباته وأفراخه، فكان هذا من أصح مثل وأقوى بيان.

وهكذا المسلم إذا دخل في الإسلام يكون ضعيف الإيمان، ثم يقوى إيمانه بملازمة العلماء الصالحين، حتى يستوي ويكون مثلهم، وهذا تشبيه لحال بدء الدعوة ونمائها، حيث بدأت ضعيفة، ثم قويت يومًا فيومًا، حتى استحكم أمرها وتغلبت على الأعداء.

فحال محمد ﷺ كحال عيسى ﷺ، كلاهما يزرع الدعوة في قلوب الناس، وأصحاب محمد كحواريِّ عيسى، يُشْبهون حبَّات الزرع التي تُبذر في الأرض، ثم يستجيب المؤمنون للدعوة، فيكونون على جانبي أو على شاطئي الطريق.

فالنبي ﷺ دعا إلى الإسلام وحده، ثم انضم إليه نفر قليل، ثم قوَّاه الله بمن اتبعه.

كما يَقْوَى ساقُ الزرع بما يتولَّد منه على الجانبين، حتى يُعجب الزرَّاع، أو كما تقوى الطاقة الأولى من الزرع بالفروع التي تنبُت حول الأصل، حتى تُعجِب الزرَّاع.

---

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (١٢/٢٠٨).

(٢) ،(٣) الطبري (٢١/ ٣٢١، ٣٣٠).

وقد فعل الله معهم ذلك ليغيظ بهم الكفار، وقد غاظ بهم الكفار فعلًا، فزالت دولتا الفرس والروم، وعلت راية الإسلام حتى امتلأ قلب الكفار غيظًا منهم وحقدًا عليهم، وكل من غاظه الله بالصحابة ينطبق عليه وصف الكفر ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾التي أمرهم الله بها، واجتنبوا ما نهاهم عنه، أعدَّ الله لهم﴿مَّغْفِرَةً﴾لذنوبهم ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ ثوابًا جزيلًا لا ينقطع وهو الجنة، ووعْدُ الله حق لا يتخلف.

وهكذا، فقد جمع الصحابة بين الإيمان والعمل الصالح، فجمع الله لهم بين المغفرة والأجر العظيم في الدنيا والآخرة.

والمعنى: أن صفة المؤمنين في الإنجيل كالزرع، يَظْهَرُ في أول أمره رقيقًا ضعيفًا متفرقًا، ثم ينبُت بعضه حول بعض، ويغلُظ ويتكامل حتى يقْوى ويشتد، وتُعْجِب جوْدته أصحاب الزراعة العارفين بها، فكذلك النبي ﷺ وأصحابه، كانوا أول الأمر في قلة وضعف، ثم لم يزالوا يكثُرون ويزدادون قوة، حتى بلغوا ما بلغوا، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال].

قال قتادة: مكتوب في الإنجيل: سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر[(١)].

وعلى هذا التفسير فالوقف على لفظ: ﴿ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ وقف تام، على أساس أنهما مَثَلان: مثل في التوراة، وآخر في الإنجيل.

قال قتادة: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ هذا المثل في التوراة ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ قال: وهذا مثل آخر ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ قال: هذا نعت أصحاب محمد في الإنجيل[(٢)].

وهذا أولى من الوقف على لفظ: ﴿ٱلْإِنجِيلَ﴾ على أساس أنهما مثل واحد في كل من التوراة والإنجيل.

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٦/ ٢٢٦).

(٢) يُنظَر: الطبري (٢١/ ٣٢١، ٣٢٦).

وكل من اقتفى أثر الصحابة ﷺ فهو في حكمهم، وللصحابة السبق والفضل والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة، فرضي الله عنهم وأرضاهم:

أحاديث في فضل الصحابة:

١- عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا، ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»**[١].

٢- وفي الصحيحين: عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينُه شهادتُه»**[٢].

٣- وفي صحيح مسلم: عن عائشة ﷺ أن رجلًا سأل النبي ﷺ: أي الناس خير؟ قال: **«القرن الذي أنا فيه، ثم الثاني، ثم الثالث»**[٣].

أي: قرن الصحابة، ثم التابعين، ثم تابع التابعين، والقرن هو الجيل من الناس، ويُقدّر بمئة عام تقريبًا.

٤- وعن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأشدهم حياء عثمان، وأقضاهم عليٌّ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أُبيُّ بن كعب، ولكل قوم أمين، وأمين هذه الأمة، أبو عبيدة بن الجراح، وما أظلَّت الخضراء ولا أقلَّت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر، أشبه عيسى في وَرَعه»**، قال عمر: فنعرف له ذلك يا رسول الله؟ قال: **«نعم»**[٤].

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٤٠) وبنحوه عن أبي سعيد في البخاري (٣٦٧٣) وأبي داود (٤٦٥٨) والترمذي (٣٨٦١) و«المسند» (١١٠٧٩) وابن حبان (٦٩٩٤، ٧٢٥٥).

(٢) البخاري بأرقام (٢٦٥٢، ٣٦٥١، ٦٦٥٨) ومسلم برقم (٢٥٣٣).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٥٣٦).

(٤) «صحيح سنن الترمذي» (٢٩٨١) و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٥٤). والمسند (١٣٩٩٠) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، (محققوه) والنسائي في الكبرى (٨٢٤٢) والطيالسي (٢٠٩٦) والضياء في المختارة (٢٢٤٠) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٨٠٨).

٥- وفي البخاري: عن أنس ﷺ حدَّثهم أن رسول الله ﷺ صعَد أُحُدًا، وأبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم، فقال: **«اثبُت أُحُد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان»**[1].

٦- وعن ابن مسعود ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: **«اقتدوا باللَّذيْن من بعدي من أصحابي: أبي بكر وعمر، واهتدوا بهدْي عمَّار، وتمسكوا بعهد عبد الله بن مسعود»**[2].

٧- وفي الصحيحين: عن عمرو بن العاص ﷺ أن رسول الله ﷺ بعثه في جيش ذات السلاسل، قال: فأتيتهُ، فقلت: أي الناس أحب إليك؟ قال: **«عائشة»**، فقلت: مِن الرجال؟ قال: **«أبوها»**، قلت: ثم مَن؟ قال: **«عمر بن الخطاب»**، فعدَّ رجالًا[3].

٨- وعن علي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«رحم الله أبا بكر: زوَّجني ابنته، وحملني إلى دار الهجرة، وصحبني في الغار، وأعتق بلالًا من ماله، رحم الله عمر: ليقولنَّ الحق وإن كان مُرًّا، تركه الحق وما له من صديق، رحم الله عثمان تستحي منه الملائكة، رحم الله عليًا، اللهم أَدِرِ الحق معه حيث دار»**[4].

٩- وفي صحيح مسلم وغيره: عن زِرِّ بن حُبيش قال: سمعت عليًّا يقول: والذي فلَق الحبة، وبرأ النسمة، إنه لعهْد النبي الأمي، ألا إنه لا يُحبُّني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق[5].

١٠- وعن عبد الله بن مُغفَّل المزني ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضًا من بعدي، فمن أحبهم فبحبِّي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، فيوشك أن يأخذه»**[6].

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٦٧٥، ٣٦٨٦، ٣٦٩٧).

(٢) «صحيح سنن الترمذي» (٢٩٩٢) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٩٧) وانظر: الترمذي (٤٠٦٩) و«صحيح ابن ماجه» (٩٧). وعن حذيفة بن اليمان في المسند (٢٣٢٤٥، ٢٣٢٧٦) إلى (عمر).

(٣) مسلم (٢٣٨٤) والبخاري (٣٦٦٢، ٤٣٥٨).

(٤) الحاكم في المستدرك برقم (٤٤٤١) وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، إلى (دار الهجرة) وفي الترمذي برقم (٣٧١٤) وقال: هذا حديث غريب، وقد ضعفه الألباني في مشكاة المصابيح (٦١٢٥).

(٥) «صحيح مسلم» (١٣٧٠) و«صحيح البخاري» (٦٩٠٣) و«المسند» (١٣٤٠).

(٦) قال الترمذي: (٣٨٦٢) حديث غريب، وهو في «المسند» برقم (٢٠٥٤٩، ٢٠٥٧٨)، بإسناد ضعيف، لجهالة عبدالرحمن بن زياد (محققوه) وضعفه الألباني.

١١- قال القرطبي: قال أبو عروة الزبيري: كنا عند مالك بن أنس ﷺ فذكروا عنده رجلًا ينتقص أصحاب رسول الله ﷺ، فقرأ مالك هذه الآية: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ إلى أن بلغ ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ فقال مالك: مَنْ أصبح مِنَ الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية[١].

١٢- وقالت عائشة ﷺ: أُمروا بالاستغفار لهم فسبوهم[٢].

تم تفسير (سورة الفتح) ولله الحمد والمنة.



(١) «تفسير القرطبي» (١٦/ ٢٦٩).

(٢) الحاكم (٢/ ٤٦٢). برقم (٣٧١٩) وهو في صحيح مسلم (٣٠٢٢) وبتصحيح الألباني في ظلال الجنة (١٠٠٣).

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحُجُرَاتِ (٤٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الحجرات) هي السورة التاسعة والأربعون في ترتيب المصحف، والثامنة بعد المئة في ترتيب النزول، وقد نزلت سنة تسع من الهجرة في وفْد بني تميم، بعد سورة (المجادلة) قبل سورة (التحريم).

وهي ثماني عشرة آية باتفاق، وثلاث مئة وثلاث وأربعون كلمة.

وألف وأربع مئة وستة وسبعون حرفًا.

وتسمى سورة (الحجرات) لذكر هذا اللفظ فيها، وقد تُسمَّى سورة (الأخلاق)؛ لما تضمنتْه من قواعد التربية الصحيحة، وأُسُسِ السلوك والحضارة الرفيعة.

وهي سورة مدنية باتفاق.

ومن قواعد التربية في السورة أنها تعلِّم المسلم الأدب مع الله تعالى، والأدب مع رسول الله ﷺ، وأدب الإنسان مع نفسه، في هواجس ضميره، وحركات جوارحه، وفي أدبه مع غيره من الناس؛ كي يكون المرء نقيَّ القلب، نظيف المشاعر، عفَّ اللسان، عفَّ السريرة.

وفي السورة **خمسة نداءات** موجَّهة للمؤمنين، تتضمن أمهات الفضائل ومكارم الأخلاق:

النداء الأول: أدَّب الله تعالى به المؤمنين تجاه ربهم، وتجاه رسوله ﷺ، فلا يُقدِّمون شريعة على شريعة الله، ولا يُبرمون أمرًا، أو يُبدُون رأيًا، أو يَقْضون حُكْمًا على حكم الله تعالى، وهذا ما تضمنتْه الآية الأولى.

النداء الثاني: فيه أدب خاص مع رسول الله ﷺ، فلا يرفعون أصواتهم على صوته ﷺ في شريعته ومنهجه، ولا يعلو أصواتهم على صوته ﷺ وهو حي، ولا عند قبره وهو ميت، ولا يذْكُرون اسمه بينهم كما يذكُر كلٌّ منهم الآخر، بل يُجلُّونه ويُوقِّرونه، ولا ينادونه باسمه المجرد، وهذا ما تضمنته الآية الثانية.

النداء الثالث: يؤدب الله فيه المؤمنين أدبًا عامًّا، تقوم عليه دعائم المجتمع الفاضل،

فيأمرهم بالتثبُّت من الأقوال والأخبار، سِيَّمَا إن صَدرتْ عن شخص متَّهم، وهذا ما تضمنته الآية السادسة.

النداء الرابع: يحذِّر الله فيه المؤمنين من السخرية، والهمز واللمز والتنابز بالألقاب، فإن في ذلك تقطيعًا لأواصر الأخوة، وانتقاصًا من شأن الآخرين، وقد يكونون عند الله تعالى خيرًا ممن سخروا منهم، وهذا ما تضمنته الآية الحادية عشرة.

النداء الخامس: يحذِّر الله فيه المؤمنين من سوء الظن؛ فإن الظن أكذب الحديث، ويَنْهَى عن التجسس، وتتبع عورات المؤمنين؛ فإن من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته حتى يفضحه في جوف بيته، وينفِّر في هذا النداء من الغيبة، ويشبِّه المغتاب بمن ينهش لحم أخيه الميت ويأكله، وفيه وجوب مجانبة أخلاق الكافرين والفاسقين.

وفي هذه النداءات الخمسة، إما أن يكون العبد مع الله ورسوله، وإما أن يكون مع غيرهما من أبناء جنسه، وهم على قسمين: إما أن يكونوا من أهل الطاعة، أو من أهل الفسق، وأهل الطاعة إما أن يكونوا حاضرين معهم، وإما أن يكونوا غائبين عنهم.

فهذه **خمسة أقسام**، وحاصلها فيما يأتي:

أوَّلًا: وجوب الطاعة والانقياد لأوامر الله ورسوله، وعدم التقدم عليه بقول أو فعل أو رأي ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

ثانيًا: احترام الرسول ﷺ وتعظيم شأنه ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾.

ثالثًا: وجوب التثبت من الأخبار ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾.

رابعًا: النهي عن السخرية بالناس، وعن اللَّمْز والتنابز بالألقاب.

خامسًا: النهي عن التجسس والغيبة وسوء الظن.

وبعد هذه النداءات الخمسة يأتي نداء عام للإنسانية جميعًا ليتبيّن للناس أن أصلهم واحد، يجب أن يتعاونوا ويتآلفوا فيما بينهم، وهم عند الله سواء، لا يتفاضلون إلا بالتقوى.

وفي أثناء هذه النداءات دعوة إلى الصلح بين المتخاصمين، وردٌّ الباغي عن بغيه، وكأن الآية التاسعة من السورة تشير إلى أنه ينبغي أن توجد محكمة عدل إسلامية للقيام بالصلح

بين كل فريقيْن اختصما من المسلمين.

وأن يوجد جيش إسلامي موحَّد ليقوم بردع الفئة الباغية، والدفاع عن حوزة الإسلام والمسلمين، والتصدِّي لدفع الصائل على كل دولة إسلامية، ولتأمين نشر الدعوة في كل مكان من العالم.

وفي العالم أناس مسلمون بالهويَّة، أُميُّون في أحكام الإسلام وآدابه، شأن الأعراب الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم، وهؤلاء بحاجة إلى تدعيم إيمانهم والتوجه نحوهم بالقول الرشيد والحكمة السديدة، وتأليف قلوبهم لتقوية عُرى الإسلام فيها، حتى ينخرطوا في سلك الذين آمنوا بالله ورسوله، ثم لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، فليس الإسلام كلمة تقال، ولا أماني تُتمنَّى، والله تعالى يعلم ما ظهر وما بطن، يرى مكاننا، ويطَّلع على أحوالنا.

وآيات سورة (الحجرات) الثماني عشرة اشتملت على اسم الجلالة ثمانٍ وعشرين مرة بما فيها البسملة، وجاء ذكرها ثلاث مرات في الآية الواحدة أحيانًا، كما في الآية الأولى والآية السادسة عشرة.

وحزْب المفصَّل من القرآن الكريم يبدأ من سورة (الحجرات)، أو من سورة (ق) على خلاف في ذلك، وعلى وجازة هذه السورة فهي سورة جليلة ضخمة، تتضمن حقائق كبيرة من حقائق العقيدة والشريعة، ومناهج التنظيم، وقواعد التهذيب والتوجيه، وهي تهدف إلى قيام مجتمع راقٍ ينتسب إلى الله ورسوله، بقلب نقيٍّ ولسان عفٍّ، متأدبٍ بأدب الإسلام مع نفسه ومجتمعه في غياب أفراده وحضورهم، فلا يجرح مشاعرهم، ولا يؤاخذهم بظن، ولا يتتبع عوراتهم، ولا يمسُّ كرامتهم وحريتهم، ولا يحتقر ضعيفهم ولا فقيرهم، ويحترم صغيرهم، ويوقِّر كبيرهم..

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى **ثلاثة مقاطع**:

١- فالآيات الخمس الأُوَل تتضمن حسن الأدب مع الله ورسوله، فلا يقدِّم العبد أمرًا ولا نهيًا ولا حُكمًا ولا قضاءً ولا اقتراحًا على أمر الله ورسوله، ولا يجعل لنفسه ولا لغيره رأيًا يخالف تعاليم الله ورسوله، مع لزوم الأدب وحسن التلقي والتوقير والتبجيل.

٢- وفي الآيات الثماني بعد هذه الخمس، جملة توجيهات إسلامية للمجتمع النظيف الحضاري، وهذه التوجيهات تتمثل في: وجوب التثبت من الأخبار قبل الحكم عليها، ووجوب الصلح بين المتخاصمين من الأفراد والجماعات والأمم الإسلامية، واحترام بعضهم لبعض، فلا يسخر أحد من أحد، ولا ينتقص أحد أحدًا لا بالإشارة، ولا عن طريق غمز، ولا لمز، ولا سوء ظن، ولا كلمة في غياب أخيه أو حضوره.

وتشير الآية الأخيرة في هذا المقطع إلى وحدة الإنسانية على مختلف أجناسها وشعوبها، فهم جميعًا على قدم المساواة، ذكورًا وإناثًا، أثرياء وفقراء، حكامًا ومحكومين، ضعفاء وسادة، لا يتمايزون عند الله إلا بالتقوى والعمل الصالح.

٣- والآيات الخمس الأخيرة تبيِّن أن الإسلام ليس كلامًا يقال باللسان، ولا أماني، أو ادِّعاءات يدَّعيها العبد دون أن تكون لها حقيقة واقعية، ومن هنا تُبيِّن الآيات حقيقة الإسلام والإيمان، وتذكرُ شروط الإيمان الكامل الذي يجمع بين إخلاص التوحيد ودعمه بالعمل الصالح، والجهاد في سبيل الله، وطاعة الله والرسول، فإن خذل بعض الناس الإسلام، وتركوا شمائله، وضعف يقينهم في الأزمات، فليسوا بمسلمين، وهم ممن ينتمون إلى الإسلام ولا يلبُّون له نداء، ولا يؤازرونه في محنة، والله تعالى يعلم الحقائق، ولا يغيب عنه شيء، وهو بصير بعباده، مطلع على نواياهم، محيط بأقوالهم وأفعالهم.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

لَاشَيءَ يَتَقَدَّمُ حُكْمَ اللهِ وَرَسُولِهِ

١- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟[1] بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾

هذا أمر بالتأدب مع الله ورسوله في الاتباع وعدم الابتداع في جميع أمور الدين، وعدم التقدم على شرع الله تعالى بقول أو فعل أو أي أمر من الأمور، وبذلك تتحقق السعادة للعبد في دنياه وأخراه، وفي مطلع السورة، يوجِّه الله - سبحانه - النداء إلى عباده بوصف الإيمان المحبَّب إلى قلوبهم، والذي من شأن المتصفين به أن يمتثلوا أمر الله تعالى ويجتنبوا نهيه، فيأمرهم ألا يُقْدِمُوا على قول أو فعل حتى يَعْلَموا حكْم الله فيه؛ لأن العلم مقدَّم على العمل، والعلم بالتكاليف الشرعية فرض عين على كل مسلم.

ويأمرهم أن يتأدبوا مع الله ورسوله بالتعظيم والتبجيل والاحترام والتوقير والإكرام.

فيا من آمنتم بالله والرسول، كونوا متبعين لله ورسوله في جميع أقوالكم وأفعالكم، واحْذَرُوا أن تتسرعوا فتقولوا قولًا، أو تُبرموا أمرًا، أو تَقْضُوا قضاء، دون أن تستندوا فيه إلى حكم صريح من كتاب الله تعالى، أو حكم صريح صحيح من سنة رسول الله ﷺ، أو منهما معًا، فلا تقولوا خلاف ما في الكتاب والسنة، ولا تصلُّوا قبل أن يدخل الوقت، ولا تصوموا قبل أن يدخل الشهر، ولا تذبحوا الأضحية قبل صلاة العيد، وهكذا، وكونوا كما قال معاذ ﷺ، حين بعثه النبي ﷺ إلى اليمن، وقال له: «**بم تحكم**»؟ قال: بكتاب الله، قال: «**فإن لم تجد**»؟ قال: فبسُنَّة رسول الله، قال: «**فإن لم تجد**»؟ قال: أجتهد رأيي[2].

---

(١) قرأ يعقوب بفتح التاء والدال من (تَقدموا) على حذف إحدى التاءين؛ لأن الأصل تتقدموا، وقرأ الباقون بضم التاء وكسر الدال، مضارع أقدم.

(٢) «المسند» (٥/ ٢٣٠) برقم (٢٢٦١، ٢٢٠٠٧) قال محققوه: إسناده ضعيف لإبهام أصحاب معاذ، وجهالة الحارث بن عمرو، وأخرجه أبو داود في «السنن» (٣٥٩٣) والترمذي في «السنن» (١٣٢٧) وفي سنده مقال كما في «السلسلة الضعيفة» للشيخ الألباني برقم (٨٨١) وأخرجه أيضًا ابن ماجه (٥٥) والدارمي (٦٨) والطبراني في «الكبير» (٣٦٢) والطيالسي (٥٥٩) وغيرهم. قال الخطيب في الفقيه والمتفقة (١/ ٨٩): إن أهل العلم قد تَقبَّلُوه واحتجوا به، فوقفنا بذلك على صحته عندهم.. ويمثل ذلك قال ابن القيم في (إعلام الموقعين) (١/ ٢٠٢) ومنه قوله: ولا يعرف من أصحاب معاذ، متهم ولا كذاب ولا مجروح..

أي: يقيس الأمور بأشباهها فيما ليس فيه نص صريح.

وفي هذا وجوب الانقياد لأمر الله تعالى ورسوله، وتحذير للمؤمنين أن يحكِّموا فيما شجر بينهم غير حكم الله تعالى، كالقوانين الوضعية والأحكام العرفية، وما عليه الآباء والأجداد، وما يفعله فلان أو علّان، فكل هذا تقديم بين يدي الله ورسوله، وردَّةٌ عن حكم الله ورسوله.

واعتقاد أن غير حكم الله تعالى أصلح للبشر، أو أنسب لحقوق الإنسان، كفرٌ مُخرجٌ من الملة، والعبد مقيد بأمور الدين التي يلتزم فيها الاتِّباع، ويحرم فيها الابتداع.

أما أمور الدنيا ومصالح الناس في الصناعة والزراعة والتجارة ونحو ذلك فلا مانع منه، ما لم يكن في الأمور المحرمة شرعًا، كزراعة المخدرات، أو تصنيع الخمور والاتِّجار فيها.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ خافوه واحذروا غضبه، ولا تخالفوا أمره ونهيه في قول أو فعل.

قال طلق بن حبيب: التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله، تخشى عقاب الله.

وحقيقة التقوى، أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية، بامتثال أوامره واجتناب نواهية ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ولجميع الأصوات في جميع الأوقات ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالكم ونياتكم وظواهركم وبواطنكم، ويعلم السابق واللاحق.

وما دام الأمر كذلك فلا تبتدعوا في دين الله ما ليس منه، ولا تُشَرِّعُوا ما لم يأذن به الله، ولا تقلِّدوا المجتمع أو الآباء والأجداد في أمر يخالف شرع الله تعالى:

سبب النزول: عن عبد الله بن الزبير ﷺ، أنه قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر للنبي ﷺ: أمِّر القعقاع بن مَعْبد، وقال عمر: بل أمِّر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردتَ إلا خلافي، فقال عمر: ما أردتُ خلافك، فتمارا حتى ارتفعتْ أصواتهما، فنزلت الآية[1].

وعن الضحاك عن ابن عباس ﷺ: أنها نزلت بسبب بعْث رسول الله ﷺ سريَّة، فقتلتْ بنو عامر رجال السريَّة إلا ثلاثة نفر نَجوْا، ثم إنهم الْتقوْا مع رجلين من بني سُلَيْم، فسألوهما

---

(١) الترمذي (٣٣٦٦) والطبراني (٢٧٦) و«صحيح البخاري» بأرقام (٤٣٦٧، ٤٨٤٧، ٧٣٠٢).

فقالا: إنهما من بني عامر، فقتلوهما وسلبوا أموالهما، وأتوْا رسول الله ﷺ، فقال: «**بئسما صنعتم، كانا من بني سُلَيم**»، ودفع لهما النبي ﷺ الدية، ونزلت الآية[1] لتوجيه المؤمنين ألَّا يعملوا عملًا، ولا يتصرفوا تصرفًا إلا بعد عرضه على كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ.

وهذه الآية توطئة للنهي عن رفع الصوت عند رسول الله ﷺ في حياته وبعد مماته، وفيها توبيخ لوفد بني تميم حين نادوْا رسول الله من وراء الحجرات، فهي تمهيد لما بعدها، وفيها بيان أن طاعة الله تعالى لا تُعلَم إلا بقول رسول الله ﷺ، وطاعة الرسول طاعة لله تعالى، وهذه الآية تمهيد للآية التالية.

وُجُوبُ التَّأَدُّبِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَمَاتِهِ

٢- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ[2] وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾

وهذا أدب مع النبي ﷺ حال التخاطب معه حيًّا وعند قبره ميتًا.

حيث أُعيد النداء للمؤمنين في هذه الآية، للإشعار بأنه غرض جديد، جدير بالتنبيه عليه، وأنه لا يندرج تحت النداء الأول، فيا من آمنتم بالله واليوم الآخر، وصدَّقتم بكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ يجب عليكم توقير الرسول ﷺ وإجلاله واحترامه وتعظيمه وتوقيره، فلا ترفعوا أصواتكم في مجلسه وحضرته إذا كلَّم بعضكم بعضًا، بل اخفضوا أصواتكم؛ لأن رفْع الصوت دليل على قلة الاحتشام وعدم الاحترام، ولا ترفعوا أصواتكم عند مخاطبتكم له ﷺ في حياته، ولا عند قبره بعد مماته، ولا في مجلس قرآن أو علم شرعي، فإن هذا أدب إسلامي، والخطاب يكون بالأدب واللين وخفض الجناح.

﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي: لا تجهروا بالصوت عند مناداته ﷺ أو ذكر اسمه، كما ينادي بعضكم على بعض، بل ميِّزُوه في خطابه كما هو مميز في اصطفائه لحمل رسالة ربه، ووجوب محبته وطاعته، والاقتداء به، ووجوب حقه على الأمة، ووجوب الإيمان به وتقديم محبته على محبة النفس والولد، فلا تقولوا: يا محمد، باسمه

---

(١) ذكره الألوسي في تفسيره للآية، وذكره وابن عاشور (٢٦/ ٢١٧).

(٢) قرأ نافع بالهمز في لفظ (النبي)، والباقون بياء مشددة.

المجرد كما ينادي بعضكم بعضًا، بل عظِّموه ووقِّروه، وقولوا: يا رسول الله، يا نبي الله، كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

وهو ﷺ سيد الأولين والآخرين، وسيد الأنبياء والمرسلين، وسيد ولد آدم، وهذا التسييد يقال في غير الأمور التعبدية كالتشهد والأذان، والله تعالى لم يخاطب رسوله ﷺ في كتابه باسمه المجرد، كما خاطب بقية رسله صلوات الله عليهم أجمعين، بل يقول له: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾.

وجاء اسمه مجردًا في مقام الإخبار فقط مثل ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]

وإن لم تكفُّوا عن ذلك فإنه يُفضي بكم إلى بطلان أعمالكم الصالحة، فاتركوه خشية ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: حتى لا تبطل أعمالكم وأنتم لا تحسُّون بذلك، فكما أن التأدب مع النبي ﷺ يحقق الفوز والفلاح، فإن عدم التأدب معه يحبط قبول العمل.

وهذا النهي مخصوص بغير المواضع التي يؤمر بالجهر فيها، كالأذان والتكبير في يوم العيد وخطبة الجمعة.

قال ابن عطية في معنى ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ أي: أن تأثموا ويكون ذلك سببًا إلى الوحشة في نفوسكم، فلا تزال معتقداتكم تتدرج القهقرى حتى يؤول ذلك إلى الكفر، فتحبط الأعمال حقيقة[1].

وذلك لأن سوء الأدب مع رسول الله ﷺ يجعل النفْس تسترسل، فلا تزال تزداد، وتنتقص من توقير الرسول ﷺ حتى يؤول ذلك إلى الاستخفاف وعدم الاكتراث، وهذا كفر، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦] وهذا معنى ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ لأنه ينتقل من سيئ إلى أسوأ حتى تغمره المعاصي، ويصل إلى مرتبة الكفر تدريجيًا.

وقد امتثل أصحاب رسول الله ﷺ لهذا التوجيه امتثالًا كاملًا:

---

(١) «تفسير ابن عطية» (٥/ ١٤٥).

١- فهذا أبو بكر ﷺ لما نزلت هذه الآية قال: يا رسول الله، والله لا أكلمك إلا كأخي السِّرار[١] أي: الذي يتكلم سرًّا أو همسًا.

٢- وهذا عمر ﷺ لما نزلت هذه الآية كان لا يتكلم مع رسول الله ﷺ إلا همسًا، أي: بكلام لا يكاد يُسمع، فما تكلم بكلام مع النبي ﷺ إلا استفهم منه ماذا يقول[٢].

٣- ولما سمع عمر ﷺ صوت رجلين في مسجد رسول الله قد ارتفعت أصواتهما، جاء فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: من أين أنتما؟ قالا : من أهل الطائف، فقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربًا[٣].

٤- وفي صحيح البخاري، وغيره: عن ابن أبي مليكة قال: كاد الخيِّران أن يَهلِكا: أبو بكر وعمر، رفعا أصواتهما عند النبيﷺ حين قَدِم عليه ركْب بني تميم،فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس وأشار الآخر برجل آخر[٤].

٥- وهذا ثابت بن قيس بن شماس، لما نزلت هذه الآية، افتقده النبي ﷺ، فسأل عنه سعد بن معاذ، فذهب يبحث عنه، فوجده جالسًا في بيته منكّس الرأس، قال له: **«ما شأنك»**؟ قال: شرٌّ، كنت أرفع صوتي فوق صوت رسول الله، حبط عملي، فأنا من أهل النار، ولما أخبر سعد رسول الله ﷺ بذلك، قال له: **«اذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة»**[٥].

٦- وفي رواية: أن النبي ﷺ قال له: **«أترضى أن تعيش حميدًا، وتقتل شهيدًا، وتدخل**

---

(١) «كشف الأستار»، «مسند البزار»، برقم (٦٦، ٢٢٥٧) و«المستدرك» (٣/ ٧٤) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/١٠٨): فيه حصين بن عمر الأحمسي وهو متروك، وقد وثّقه العجلي، وبقية رجاله رجال الصحيح، وأخرجه بنحوه عن أبي هريرة الحاكم (٢/ ٤٦٢) والبيهقي (١٥٢١). (التفسير الصحيح).

(٢) يُنظَر: هذا المعنى في «صحيح البخاري» برقم (٤٣٦٧، ٤٨٤٥).

(٣) يُنظَر: «صحيح البخاري» برقم: ٤٧٠ من طريق السائب بن يزيد.

(٤) البخاري: (٤٨٤٥، ٧٣٠٢) والطبراني (٢٧٦).

(٥) يُنظَر هذا المعنى عن أنس: في «صحيح البخاري» برقم (٣٦١٣، ٤٨٤٦) و«صحيح مسلم» برقم (١١٩) و«المسند» (١٢٣٩٩، ١٢٤٨٠) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) وأبي يعلى (٣٣٣١) والطبراني (١٣٠٩) والبيهقي (٦/ ٣٥٤). وعبد بن حميد (١٢٠٩).

الجنة»؟ فقال: رضيتُ ببشرى الله تعالى ورسوله ﷺ، ولا أرفع صوتي أبدًا على صوت رسول الله ﷺ[١].

قال أنس: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة، فلما كان يوم اليمامة خرج مع خالد بن الوليد إلى مسيلمة الكذاب، وكان فينا بعض الانكشاف، فجاء ثابت بن قيس بن شماس، وقد تحنَّط ولبس كفنه، وحفر لنفسه حفرة فقاتَلهم حتى قُتل[٢].

ولما استشهد ثابت، كانت عليه درع نفيسة، فمرَّ به رجل فأخذها، فرآه رجل في المنام بعد موته، فقال له: إني أوصيك بوصية، إياك أن تقول: هذا حُلْم فَتُضَيِّعَهُ، إنَّ فلانًا نزع درعي وأخذها، ومنزله في أقصى العسكر، وعند خبائه فرس، وقد كفأ على الدرع بُرمة، وجعل فوق البُرمة رحْلًا، فاذهب إلى خالد بن الوليد فأخبره حتى يستردَّ دِرْعي، ثم ائْتِ أبا بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ، وقل له: إن عليَّ دَيْنًا إلى فلان، ولي من الدَّيْن كذا على فلان حتى يقضي عني ديني، فأخبر الرجل خالدًا، فوجد الدرع على ما وَصَف، حيث رفعوا الرحْل فإذا تحته بُرْمة، فرفعوا البرمة فإذا الدرع تحتها، فأتوا بها إلى خالد، فلما قَدِم المدينة حدَّث الرجل أبا بكر برؤياه، فأجاز وصيته، قال مالك بن أنس: لا أعلم وصية أجيزت بعد موت صاحبها إلا هذه[٣].

٧- وعن صفوان بن عسَّال أن رجلًا من أهل البادية أتى رسول الله ﷺ، فجعل يناديه بصوت جهوريٍّ: يا محمد، يا محمد، فقلنا له: ويحك، اخفض من صوتك، فإنك قد نُهيت عن هذا، قال: لا والله حتى أُسمعه، فقال النبي ﷺ: **«هاؤم»** قال: أرأيت رجلًا يحب قومًا ولَمَّا يلحق بهم؟ قال: **«المرء مع من أحب»**[٤].

---

(١) «تفسير الطبري» (٢٦/ ٧٥) والطبراني في «الكبير» (١٣١٦) والحاكم (٣/ ٢٣٤) وابن مردويه كما في «الفتح» (٦/ ٦٢٠) وابن حبَّان (٧١٦٧).

(٢) «المسند» (٣/ ١٣٧). برقم (١٢٣٩٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) وأخرجه البخاري في خلْق أفعال العباد (٥٥٧) ومسلم (١١٩).

(٣) «تفسير الخازن» (٤/ ١٦٥) والبغوي كما في «الإصابة» (١/ ٣٩٦) وابن المنذر كما في «الفتح» (٦/ ٦٢١) والخطيب (٣٣٢) والطبراني في «الكبير» (١٣٢٠) والحاكم (٣/ ٢٣٤) قال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٣٢٢) بنت ثابت بن قيس لم أعرفها، وبقية رجاله رجال الصحيح، والظاهر أنها صحابية فقد قالت: سمعت أبي.

(٤) حديث حسن كما في «صحيح سنن الترمذي» (٢٨٠١) وابن حبَّان (٥٦٢، ١٣٢١).

وعلى هذا فإن رفع الصوت المنهي عنه هو الذي يكون احتقارًا أو عدم مبالاة، وجُرأة على رسول الله ﷺ، أما إذا كان محبة واحترامًا ونحو ذلك مما يصدر من فضلاء المؤمنين ومحبي رسول الله ﷺ كهذا الأعرابي، فليس فيه شيء.

ولما نهى الله سبحانه رفع الصوت عند رسول الله، مدح خفض الصوت عنده فقال:

٣- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾

أي: ولمَّا نزل قوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ وكان أبو بكر وعمر بعدها لا يكلمان النبي ﷺ إلا همسًا، بعد ذلك مدح الله تعالى الذين يخفضون أصواتهم في حضرة رسول الله حيًّا، وعند قبره بعد موته، فَحُرْمته ﷺ ميتًا كحرمته حيًّا، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ أي: يخفضونه في حضرة رسول الله عند مخاطبتهم له ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: اختبر الله قلوبهم، وابتلاها، فظهرت نتيجة هذا الاختبار بأن أصلح الله قلوبهم وأخلصها لتقواه، فجعل التقوى صفة راسخة في قلوبهم، كأنهم فُطِروا عليها، وجعلهم أهلًا لها، وهؤلاء ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ من الله تعالى لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ثواب جزيل هو الجنة، فقد زال عنهم كل مكروه وحصل لهم كل مرغوب.

عن مجاهد قال: كُتب إلى عمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين رجل لا يشتهي المعصية ولا يعمل بها أفضل أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل بها؟ فكتب عمر ﷺ: إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[1].

وفي هذا دليل على أن الله تعالى يمتحن القلوب بالأوامر والنواهي، فإذا امتثل العبد وقدّم طاعة الله على هوى نفسه، تمحّض قلبه وتمحّص للتقوى، وإذا لم يمتثل، عُلم أنه لا يصلح للتقوى.

ثم بيّن سبحانه الغرض الذي من أجله نزل صدر هذه السورة، وكان كالمقدمة لهذه الآية:

(١) أخرجه أحمد في كتاب «الزهد» كما في «الدر المنثور» (٧/ ٥٥٢).

لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا

٤- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ[1] أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾

نزلت هذه الآية في قوم من الأعراب، وصفهم ربنا بالجفاء، وأنهم لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، وفدوا عليه فوجدوه في بيته، فلم يصبروا ولم يتأدبوا وينتظروا خروجه إليهم، وأخذوا ينادونه: يا محمد، أخرج إلينا، فوصفهم ربنا بعدم العقل وسوء الأدب.

والمراد بالحجرات: منازل زوجات النبي ﷺ، أي: أن ما يفعله بعض الناس من النداء عليك -أيها الرسول- بصوت مرتفع من خلف مساكن زوجاتك رضي الله عنهن ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الأدب مع رسول الله ﷺ؛ فإن هذا الأسلوب ليس فيه الاحترام والتوقير المناسبان لخطاب أشرف الخلق ﷺ.

وقد جاءت روايات في **أسباب نزول هذه الآية**:

١- قال ابن عباس ﷺ: بعث رسول الله ﷺ سريَّة إلى بني العنبر، وأمَّر عليهم عُيَيْنة بن حصن، فلما علموا أنه توجَّه نحوهم، هربُوا وتركوا عيالهم، فسباهم عُيَيْنة وأتى بهم إلى رسول الله ﷺ، ثم جاء رجالهم إلى رسول الله ﷺ ليأخذوا أبناءهم الذين أَسَرَهُم عُيينة ويدفعوا إليه الفدية، فوصلُوا المدينة وقت الظهيرة، وكان رسول الله ﷺ نائمًا وقت القيلولة، فأخذوا ينادون عليه من وراء حجرات نسائه، يقولون: يا محمد، اخرج إلينا، حتى أيقظوه من نومه، فخرج إليهم، فقالوا: يا محمد، فادنا عيالنا، أي: نريد أن نأخذ أبناءنا وندفع فيهم الفدية، فنزل جبريل يقول للنبي ﷺ: اجعل بينك وبينهم رجلًا، فقال ﷺ: «**أترضون أن يكون بيني وبينكم سبرة بن عمرو**، وهو على دينكم»، قالوا: نعم، فقال سبرة: لا أحكُم وعَمِّي شاهد، وهو الأعور بن بشامة، فَرضُوا به، فقال الأعور: أرى أن تَفْدي نصفهم وتعتق نصفهم، فقال رسول الله ﷺ: «**قد رضيت**»، وأنزل الله الآية[2].

٢- وعن ابن عباس ﷺ: أنها نزلت في وفد بني تميم، كانوا سبعين أو ثمانين رجلًا

(١) قرأ أبو جعفر بفتح الجيم من (الحجَرات) والباقون بضمها، وهما لغتان.

(٢) «تفسير الخازن» (٤/ ١٦٥) و«التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٢٤) والبغوي في تفسيره.

أتوْا رسول الله ﷺ وقت الظهيرة وهو راقد، وفيهم الزِّبْرِقان بنُ بدْر، وعُيَيْنة بن حصن، فنادُوا النبي ﷺ من وراء حجراته، وقالوا: اخرج يا محمد، فإن مدْحنا زين، وذمَّنا شين، فاستيقظ ﷺ وخرج[١].

٣- وعن زيد بن أرقم ﷺ قال: اجتمع أناس من العرب، فقالوا: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يك نبيًّا فنحن أسعد الناس به، وإن يك مَلِكًا نَعِشْ بجناحه، قال: فأتيتُ رسول الله ﷺ فأخبرتُه بما قالوا، فجاؤوا إلى حجرته فجعلوا ينادونه وهو في حجرته: يا محمد، يا محمد، فأنزل الله الآية، قال: فأخذ رسول الله بأذُني فمدَّها، فجعل يقول: **«لقد صدَّق الله قولك يا زيد، لقد صدَّق الله قولك يا زيد»**[٢].

حجرات زوجات النبي ﷺ:

وحجرات النبي ﷺ كانت بيتًا واحدًا مقسمًا على تسع حجرات، وكانت الحواجز التي بين كل حجرتين من جريد النخل، وعلى أبوابها مسُوح من شعر أسود.

قال الحسن البصري: كنت أدخل بيوت أزواج النبي ﷺ في خلافة عثمان بن عفان، فأتناول سقْفها بيدي، وكانت مساحة الحجرة نحو سبعة عشر ذراعًا[٣].

قال عطاء الخُراساني: أدركتُ حُجَر أزواج رسول الله ﷺ من جريد النخل، على أبوابها المُسُوحُ من شَعَر أسْود، فحضرتُ كتاب الوليد بن عبد الملك يُقْرأ: يأمرُ بإدخال حُجَر أزواج رسول الله ﷺ في مسجد رسول الله ﷺ فما رأيتُ يومًا أكثرَ باكيًا من ذلك اليوم، فسمعتُ سعيدَ بن المسيِّب يقول يومئذ: والله لَوَدِدْتُ أنهم تركوها على حالها، ينْشأ ناس من أهل المدينة، ويقْدمُ القادمُ من أهل الأُفق، فيرى ما اكتفى به رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه ابن إسحاق في «سيرة ابن هشام» (٢/ ٥٦١) وابن مردويه كما في «تخريج الكشاف» (٣/ ٣٣٠) و«حاشية البيضاوي» (٣/ ٣٦٧) وغيرها.

(٢) «تفسير الطبري» ٢٦/ ٧٧ ورواه الطبراني في «المعجم الكبير»: ٥/ ٢١٠ (٥١٢٣) قال في «مجمع الزوائد» ٧/ ١٠٨: فيه داود بن راشد الطفاوي، وثَّقه ابن حبَّان، وضعَّفه ابن معين، وبقية رجاله ثقات، وأخرجه أبو يعلى كما في «المطالب العالية» ٤١١٠ وابن أبي حاتم.

(٣) ابن سعد ١/ ٥٠٠ والبخاري في «الأدب المفرد» (٤٥٠) والبيهقي في «الشعب» (١٠٧٣٤) وهو صحيح الإسناد كما في «صحيح الأدب المفرد» برقم (٣٥١).

في حياته، فيكون ذلك مما يُزهِّدُ الناسَ في التكاثُر والتفاخُر فيها.

وقال يومئذ أبو أمامة بنُ سهل بن حنيف: ليتَها تُركتْ فلم تُهْدمْ، حتى يقْصر الناسُ عن البناء، ويروْن ما رضي الله لنبيه، ومفاتيح خزائن الدنيا بيده[1]. قال تعالى:

٥- ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

ثم إن الله تعالى عنَّف الذين ينادونه من وراء الحجرات على إزْعاجهم للنبي ﷺ، وبيَّن أنه كان الأوْلى بهم أن ينتظروا خروج النبي ﷺ إليهم، فإن هذا من محاسن الأخلاق، وأليق بمقام النبوة، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ ولم يزعجوك بمناداتهم لك وقت القيلولة ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ عند الله في دينهم ودنياهم؛ لأنه تعالى أمرهم بتوقيرك، وهو خير لهم عند الله وعند الناس؛ لأن فيه مراعاة الأدب مع مقام النبوة ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لما صدر منهم عن جهل، وهو ذنب مخلٌّ بالأدب ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم، حيث لم يعاجلهم بالعقوبة في الدنيا، واقتصر على تقريعهم ونصحهم.

أَثَرُ الشَّائِعَاتِ فِي فَسَادِ الْأُمَّةِ وَسَبِيلُ الْوِقَايَةِ مِنْهَا

٦- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا[2] أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾

من صدق الإيمان: التثبت عند سماع الأخبار، فربَّ شائعة لا أصل لها أحدثت فتنة بالغة، وهذا أيضًا من الآداب التي يجب التأدب بها، وهو عدم تصديق ناقل الأخبار إلا بعد التبيّن، ويكفي وصفه بالفسق والإثم، والفاسق لا يقبل قوله، فإن دلت القرائن على صدقه فخبره مقبول، وإن دلت على كذبه فهو مردود.

وقد ورد أن النبي ﷺ أرسل الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق ليأتي بزكاة أموالهم، فلما سمعوا بمقْدمه وكانوا قد استبطؤوه، خرجوا للقائه فرحًا به ومعهم زكاتهم، وكانت بينه وبينهم خلافات قديمة معروفة، فلما رآهم الوليد على بُعدٍ خاف منهم، وظن أنهم يريدون قتله، فرجع إلى النبي ﷺ وأخبره أنهم رفضوا إعطاءه الزكاة، وأرادوا قتله،

---

(١) أخرجه ابن سعد (١/ ٤٩٩).

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف (فتثبتوا) من التثبت، وقرأ الباقون (فتبينوا) من التبين، وهما متقاربان في المعنى.

فقدِمَ وفد منهم على النبي ﷺ وأخبروه بما حدث، فأنزل الله الآية.

وكان الحارث بن أبي ضرار الخزاعي سيدهم، قدم على النبي ﷺ ودعاه إلى الإسلام فأسلم، وأخذ على نفسه عهدًا أن يعود إلى قومه ويدعوهم إلى الإسلام، ويجمع الزكاة ممن أسلم منهم، فبعث إليه الرسول ﷺ الوليد بن عقبة لهذا الغرض[١].

وفي رواية أن النبيَّ ﷺ لما بلغه منْع بني المصطلق للزكاة، أرسل إليهم خالد بن الوليد خِفية في عسْكر معه، وقال له: إن رأيت منهم ما يدل على إيمانهم فخذ منهم زكاة أموالهم، وإن لم ترَ ذلك فاستعمل فيهم ما تستعمل في الكفار، فلما وافاهم سمع أذان المغرب والعشاء، فأخذ منهم صَدَقاتهم، ولم ير منهم إلا الطاعة والخير، فرجع إلى رسول الله ﷺ وأخبره الخبر، وأنزل الله قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾[٢].

والفسق: هو فعْل ما يحرِّمه الشرع من الكبائر، ويُفسَّرُ هنا بالكذب، ولا يوصف به أحد من الصحابة؛ لأنهم عدول، واتفق المفسرون على أن الوليد ظَنَّ ذلك ولم يتعمد الكذب.

قال الفخر الرازي: إن إطلاق لفظ الفاسق على الوليد شيء بعيد؛ لأنه توهَّم وظَنَّ فأخطأ، والمخطئ لا يُسمى فاسقًا، ولو كان الوليد فاسقًا ما تركه النبي ﷺ دون تعنيفه واستتابته، ولكنه لم يزد على قوله لخالد بن الوليد: **«التبيُّن من الله، والعجلة من الشيطان»**[٣]، وقد حمله على هذا الظن خروجهم له بصدقاتهم على طريقة غير مألوفة؛ إذ لم يُعرف أن القبائل تخرُج لتلقى السُّعاة الذين يجمعون الزكاة.

---

(١) يُنظَر الحديث في: «المسند» (٤/ ٢٧٩) (١٨٤٥٩) قال محققوه: إسناده حسن بشواهده، وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» برقم (٣٣٩٥، ٣٧٩٧) وقال الهيثمي (٧/ ١٠٩): رجال أحمد ثقات وأخرجه الطبري (٢١/ ٣٥٠) والبيهقي (٩/ ٥٤) وابن عساكر (٦٣/ ٢٢٩).

(٢) «تفسير الخازن» (٤/ ١٦٦) وقد أنكر القاضي أبو بكر بن العربي هذه القصة في كتابه «العواصم من القواصم» ص ١٠٢، وأحسن الروايات فيها رواية أحمد عن الحارث بن ضرار الخزاعي ضمن أكثر من عشر روايات وردت فيها، تُنظَر الروايات في: «الدر المنثور» (١٣/ ٥٤٥-٥٥٢).

(٣) أخرجه عبد بن حميد كما في «الإصابة» (٦/ ٦١٥) والطبري (٢١/ ٣٥)، وهو حديث مرسل عن الحسن كما في ضعيف الجامع الصغير، (٢٥٠٤) وأخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب، والخرائطي في مساوى الأخلاق، وله شاهد صحيح رواه أبويعلى عن أنس كما في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٥٧٢).

قال ابن عاشور: وأنا أحسب أن عملهم هذا كان حيلة من كبارهم لصرف الوليد عن الدخول إلى بلدهم؛ حتى لا يُعيِّرهم عامة الناس بأن عدوهم قد دخل ديارهم عنوة، وقد كان الوليد شجاعًا جوادًا، ذا خلُق ومروءة.

ويؤخذ من الآية:

١- وجوب البحث عن عدالة مجهول الحال.

٢- قبول خبر الواحد الذي انتفت عنه تهمة الكذب.

٣- الأصل في المجهول عدم العدالة، ويُستثنَى الصحابة فإنهم عدول، حتى يثبت خلاف ذلك يقينًا.

٤- تحذير من الوقوع فيما يوجب التوبة شرعًا[1].

والآية عامة في كل فاسق كاذب، **ومعناها**: يا من آمنتم بالله والرسول، إذا أتاكم رجل غير موثوق بصدقه وعدالته بخبر من الأخبار، سِيَّمَا إن كانت هذه الأخبار هامَّة ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ وتثبَّتوا من صحة الخبر، ولا تقْبلوه بدون تأكُّد من صحته؛ لئلَّا تؤذوا قومًا برآء، لا علم لهم بهذا الخبر، فتجْنوا عليهم، فتأكدوا من صحة هذا الخبر بطريقة من الطرق خشية ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ أي: وأنتم جاهلون بحقيقة الأمر؛ حتى لا تتصرفوا تصرفًا تندمون عليه ﴿فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ بسبب تصديقكم الخبر الكاذب دون تبيُّن.

والآية ترشد إلى كيفية تلقِّي الأخبار بنزاهة مجردة من محبة صاحب الخبر أو بُغْضه، وبغضِّ النظر عن مظهره ولحْنه في القول، كما ترشد الآية إلى كيفية التعامل معها بحكمة وروِيَّة، حتى يسْلم المجتمع من الخصام والفُرقة.

الْمُؤْمِنُ يَتَّبِعُ شَرْعَ اللَّهِ تَعَالَى وَإِنْ خَالَفَ رَغْبَتَهُ

٧- ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾﴾

فإذا تلقَّى المسلم خبرًا فعليه أن يَعْرضه على رسول الله ﷺ في حياته، وعلى شرع الله

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٢٦/ ٢٣٠) بتصرف واختصار.

تعالى بعد ممات رسوله، وكون الرسول ﷺ موجودًا بين الصحابة في حياته أمر معلوم، لا يحتاج إلى الإخبار عنه، ولكن المقصود بقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ هو تعليم المسلمين أن يتَّبعوا شرع رسول الله ﷺ، وأن يحكِّموه في كل ما شَجَر بينهم من الأحكام، ولو كانت غير موافقة لرغباتهم.

فإن بين أظهركم رسول الله وهو حي، فتأدبوا معه، فإنه أعلم بما يصلحكم وما فيه خيركم، وقد تريدون لأنفسكم من الشر والضرر ما لا يوافقكم عليه، بحيث ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾ أي: لو أطاعكم كلما رغبتم لحدث لكم ما يشق عليكم فيضرُّكم، ويوقعكم في الإثم والحرج، ولو أن الشرع لبَّى رغباتكم في كل ما تهوى أنفسكم لأدى ذلك إلى مشقتكم، وإتلاف أموركم، ولنزل بكم ما يؤدي إلى هلاككم.

قال أبو سعيد الخدري ﷺ بعدما قرأ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾: هذا نبيكم يوحَى إليه، وخيار أئمتكم لو أطاعهم في كثير من الأمر لعنتوا، فكيف بكم اليوم[١].

والله تعالى لا يأمر رسوله إلا بما فيه صلاح العاقبة، وإن لم يوافق رغباتكم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ أي: حسَّن إليكم ما شرعه لكم من الأحكام، فشرع لكم الإسلام، ودعاكم إلى حبه والرضى به، فامتثلتم وآمنتم ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ أي: أدخله فيها، وجعلكم مؤمنين به بما أودعه في قلوبكم من محبة الحق وإيثاره، وبالشواهد والأدلة التي تدل على صدق الحق وصحته، وبقبول القلوب والفطر للحق، وبتوفيق الله لكم ﴿وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾ بالله ورسوله واليوم الآخر، كما بغَّض إليكم كل ما لا يرضى الله تعالى من سائر الذنوب والمعاصي، ﴿وَٱلۡفُسُوقَ﴾ كرهه الله إليكم، وهو الخروج عن طاعته تعالى بفعل كبائر الذنوب من كل ما يُغضب الله تعالى، ويخالف أمره ونهيه ﴿وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾ أي: وكرَّه إليكم فعل صغائر الذنوب، وذلك بما أودعه الله في قلوبكم من كراهة الشر وعدم إرادته، وبما نصبه من الأدلة والشواهد على فساده، وعدم قبول الفِطَر له، فإن كرهتم هذه الثلاثة، ولم ترغبوا فيما ينهى عنه الإسلام، فأنتم الراشدون الفائزون، وإن لم

---

(١) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح غريب (٣٢٦٩) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٦٠٧).

تكرهوها فأنتم الغاوون الذين حُبب إليهم الكفر والفسوق، وكُره إليهم الإيمان.

وقد ذكر الله تعالى هذه الثلاثة ﴿ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ في مقابل **الإيمان الكامل**:

١- الذي هو تصديق بالجنان، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾.

٢- والإيمان أيضًا إقرار باللسان، وهو مقابل الفسوق الذي هو الكذب والخروج على الطاعة.

٣- وهو أيضًا عمل بالأركان، وذلك مقابل ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المشار إليهم بهذه الأوصاف الثلاثة ﴿هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ السالكون طريق الحق، المهتدون إلى رشدهم، الثابتون على دينهم، المتمسكون به في جميع الأحوال، وهذا من الخير الذي حصل لهم بسبب حبهم للإيمان وبغضهم للكفر والفسوق والعصيان.

وفي الحديث عن عمر ﷺ: من سرَّته حسنته، وساءته سيئته، فهو مؤمن[(١)].

وكان من دعاء النبي ﷺ: **«اللهمَّ حبِّب إلينا الإيمان وزيِّنه في قلوبنا، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين، وأحيينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك»**[(٢)].

قال قتادة: إن الله تعالى قال لأصحاب محمد ﷺ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ وأنتم والله أسخف الناس رأيًا، وأطيش أحلامًا، فليتَّهم رجل نفسه، ولينتصح كتاب الله تعالى، فإن كتاب الله ثقة لمن أخذ به وانتهى إليه، وإن ما سوى كتاب الله تغرير[(٣)].

قلت: إذا كان قتادة وجَّه هذا الكلام لأهل زمانه وهم من القرون المفضلة، فماذا يقول قتادة لو علم ما نحن فيه؟! فاللهم ارحم ضعفنا، واجبر كسْرنا، وألهمْنا رُشدنا، يا رب العالمين.

---

(١) «المسند» من حديث طويل (١/ ١٨) برقم (١١٤) رجاله ثقات وإسناده صحيح (محققوه) والترمذي برقم (٢١٦٥)، والحاكم كما في صحيح الجامع الصغير (٢٥٤٦).

(٢) «المسند» (٣/ ٤٢٤) (١٥٤٩٢) برجال ثقات، والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١٠٤٤٥) وصححه الحاكم (١/ ٥٠٦) وهو في «صحيح الأدب المفرد» (٥٣٨).

(٣) «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٥٦).

ومن الأخبار الكاذبة: النميمة، ولا يخفي ما لها من خطر في تسعير نار الفتنة بين الأفراد والجماعات والأمم، وكذا سائر الأنباء المكذوبة التي تسبب التخاصم والتباغض والتقاتل بين الناس.

٨- ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨﴾

أي: هذا فضل تفضَّل الله عليهم به ﴿وَنِعْمَةً﴾ أنعمها عليهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمن يشكر نعمه، وعليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبير أمور خلقه وتصريف شؤونهم.

جاء في الأثر عن أنس ﷺ: الإسلام علانية، والإيمان في القلب.

وأشار النبي ﷺ إلى صدره ثلاثًا، وقال: «**التقوى ها هنا، التقوى ها هنا**»[(١)].

إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ

٩- ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ[(٢)] إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾

ينهى الله تعالى في هذه الآية عباده المؤمنين أن يبغي بعضهم على بعض أو يقاتل بعضهم بعضًا، ويأمر المؤمنين أن يُصلحوا بين الفئتين المتنازعتين، فإن اصطلحا فالحمد لله، وإن لم يصطلحا فليقاتلوا الفئة المعتدية حتى تذعن للحق وتُسلِّم به، فإن رجعت إلى الحق فليصْلِحوا بينهما بالعدل من غير جوْر ولا ظلم، ولا تحيُّز لقرابة أو وطن أو مصلحة ونحو ذلك.

وقد وضع الإسلام قاعدة تشريعية عملية لصيانة المجتمع من الخصام والتفرُّق والنزاع،

---

(١) «المسند» (٣/ ١٣٤) عن أبي هريرة (٧٧٢٧) بإسناد جيد وأخرجه مسلم (٢٥٦٤، ٣٢) عن عبدالله بن مسلمة وعن أنس (١٢٣٨١) وعن واثلة بن الأسقع (١٦٠١٩) وعن شيخ من بني سليط (١٦٦٤٤، ٢٣٢٢٩) وهو حديث صحيح كما قال محققوه، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٥٢): رجاله رجال الصحيح، ما خلا على بن مسعدة فقد وثَّقه قوم، وضعَّفه آخرون.

(٢) سهَّل الهمزة الثانية من (تفيء إلى) نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس، والباقون بالتحقيق.

فكلَّف المؤمنين أن يقاتلوا الفئة الباغية حتى تَقبل الحق، وترجع عن الظلم، فإن قبلت حُكْمَ الله تعالى، فلْيصْلِحوا بين الفريقين بالحق والعدل، وقد واجه الإسلام وقت التنزيل أمثلة من هذا القبيل، اقتضت أن يكون للآية أكثر من سبب نزول، من ذلك:

١- أن امرأة من الأنصار يقال لها: أم زيد، كان بينها وبين زوجها خلاف، فحبسها في مكان مرتفع، فبلغ ذلك قومها، فجاؤوا فأنزلوها لينطلقوا بها، وجاء قوم الزوج، وتقاتل الفريقان، وكانا من الأوس والخزرج، فنزلت الآية[(١)].

٢- وقال قتادة: نزلت في رجلين من الأنصار، كان بينهما خلاف في حق بينهما، فقال أحدهما للآخر: لآخذنَّ حقي منك عَنْوة، لكثرة عشيرته، فطلبه الآخر عند النبي ﷺ ليحكم بينهما فأبى، ولم يزل الأمر بينهما حتى تقاتلا وتناول كل منهما الآخر بالأيدي والنعال، فنزلت الآية[(٢)].

٣- وجاء في الصحيحين: أن النبي ﷺ كان على دابته في طريقه إلى زيارة سعد بن عبادة في مرضه، ومرَّ على مجلس فيه عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول، فدعاهم إلى الإسلام، وقرأ عليهم القرآن، فقال ابن أبيٍّ: ما أحسن ما تقول إن كان حقًّا، ولكن لا تؤذنا في مجالسنا، وارجع إلى رَحْلك فمن جاءك فاقصص عليه، فقال عبد الله بن رواحة: بل اغْشَنا في مجالسنا فإنا نحبُّ ذلك، واستبَّ المسلمون والمشركون واليهود، حتى كادوا يقتتلون، هذه رواية أسامة بن زيد ﷺ[(٣)].

وفي رواية أنس ﷺ أن ابن أبيٍّ قال للنبي ﷺ: إليك عني، لقد آذاني نتن حمارك، فقال رجل من الأنصار: لَحِمارُ رسول الله أطيب ريحًا منك، فغضب لكلٍّ منهما أصحابه، وكان بينهما ضرب بالأيدي والجريد والنعال. قال أنس: فبلغنا أن الآية ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾ نزلت فيهما[(٤)].

---

(١) ، (٢) الطبري (٢١/ ٣٦٠).

(٣) في «صحيح مسلم» من حديث طويل برقم (١٧٩٨) و«صحيح البخاري» بأرقام منها: (٢٩٨٧، ٤٥٦٦).

(٤) يُنظَر: «صحيح البخاري» برقم (٢٦٩١) و«صحيح مسلم» برقم (١٧٩٩) و«المسند» (١٢٦٠٧، ١٣٢٩٢) والطبري (٢١/ ٣٥٨) والبيهقي (٨/ ١٧٢).

وهذه القصة صحيحة من الروايتين، ولكنها وقعت في أول قدوم النبي ﷺ إلى المدينة، وسورة (الحجرات) نزلت سنة تسع من الهجرة، ثم إن أنسًا لم يجزم بأن الآية نزلت بشأن هذه القصة، وإنما قال: بلغنا أنها نزلت فيهم.

والآية تشمل القصة وتعمها، فلعلَّها أُلحقت بها بعد نزولها.

قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ أي: وإن حدث بين فئتين من المؤمنين قتال، فعليكم يا أولي الأمر من المسلمين أن تتدخلوا بينهما بالإصلاح، وتبذلوا الجهد في إزالة ما بينهما من خلاف.

وضمير التثنية في ﴿بَيْنَهُمَا﴾ يعود على ﴿طَآئِفَتَانِ﴾ باعتبار اللفظ، وضمير الجمع في ﴿ٱقْتَتَلُوا۟﴾ يعود عليهما أيضًا باعتبار المعنى؛ لأن كل طائفة مكونة من أفراد، فهم جماعة.

﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾ أي: فإن اعتدت إحدى الطائفتين، وأبت الإجابة وتجاوزت حدَّ الحق والعدل ﴿فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: قاتلوا الفئة الباغية حتى تنصاع وترجع إلى حكم الله، وتُقلع عن الظلم والعدوان، وتقبل الصلح ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟﴾ فإن رجعت الفئة المعتدية عن بغيها، وكفَّت عن القتال، وقبلت الصلح، فأصلحوا بين الطائفتين بالإنصاف، واعدلوا في الحكم بينهم، ولا تتجاوزوا في أحكامكم حكم الله ورسوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين في أحكامهم، الذين يقْضُون بين الناس بالحق والقسط، والآية تثبت صفة المحبة لله تعالى على وجه يليق بجلاله.

والحكم بالعدل أمر عام يشمل ما بين الأصدقاء والأعداء وما بين الرجل وأهل بيته وما بين الأفراد والقبائل والأمم والجماعات ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨]

وفي الحديث «**المقسطون عند الله على منابر من نور الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وماولُوا**»[1].

وقد كان النبي ﷺ يخطب على المنبر يومًا ومعه الحسن بن علي، فجعل ينظر إليه مرة،

(١) يأتي تخريجه في الآية التالية.

وإلى الناس مرة أخرى ويقول: «**إن ابني هذا سيد، ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين**»[١].

فكان كما قال ﷺ، حيث أصلح الله به بين أهل الشام وأهل العراق.

والمراد بالطائفة الباغية في الآية: الجماعة من الناس الذين يعسُر ردْعُهم عن الظلم من أفراد الناس وإن لم تُقاتل.

الخروج على الإمام غير مقصود في الآية:

أما الطائفة التي تخرج على الإمام، أو على جماعة المسلمين فليست مقصودة في الآية؛ لأن البغاة الخارجين على الحاكم المسلم، أو على جماعة المسلمين لهم حكم آخر، كما حدث في عهد أبي بكر وعثمان ﷺ، فقد خرج أهل الردة على جماعة المسلمين فقاتلهم أبو بكر ﷺ.

وبَغَى بُغاة من مصر على عثمان ﷺ، فأبى عثمان قتالهم، وكره أن يكون سببًا في إراقة دماء المسلمين وهذا اجتهاد منه ﷺ.

والبغي يحدده أهل الحل والعقد، أو الخليفة العادل، أو محكمة العدل الإسلامية، فهؤلاء هم الذين يقولون مَن مِن الفريقين هو الباغي، المستحق للمقاومة، وقد كان تحقيق معنى البغي وصُوَره غير مضبوط في صدر الإسلام، فضبطه العلماء بعد وقعتي الجمل وصفين، حيث كان القتال فيهما بين فئتين، ولم يكن الخارجون على عليٍّ من الذين بايعوه على الخلافة؛ لأنهم اشترطوا لمبايعته أخذ الثأر من قتلة عثمان ﷺ، وقد حقق العلماء أن البغي كان من أصحاب معاوية؛ لأن البيعة بالخلافة لا تَقبلُ التقييد بشرط، وأن معاوية وأصحابه كانوا يدافعون عن نظر واجتهاد خاطئ، فكان الواجب على المسلمين الدعوة إلى الصلح بين الفريقين.

والأمر في ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾ للوجوب؛ لأن الحُكْم بالعدل بين الخصمين واجب على الكفاية، وترك قتال الباغي يؤدي إلى إضاعة حقوق الطرف الآخر في نفسه وماله وعرضه،

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٤٤٣، ٢٧٠٤).

وهذا من الفساد في الأرض، والله لا يحب الفساد، ولا يجوز أن يتولى قتال البُغاة إلا أولو الأمر، وعلى ولي الأمر أن يُجبر الفئتين على الصلح إن خشي الفتنة، ويستمر قتال الفئة الباغية إلى أن تكُفَّ عن الظلم، وتنزل على حكم الله تعالى.

وهذا البغي لا يزيل اسم الإيمان عن المؤمنين؛ لأن الله تعالى سماهم مؤمنين مع كونهم باغين، ويدل عليه ما ورد عن عليٍّ ﷺ -وهو القدوة في قتال أهل البغي- وقد سئل عن أهل الجمل وصِفِّين: أمشركون هم؟ قال: لا، إنهم من الشرك فَرُّوا، فقيل: أمنافقون هم؟ قال: لا؛ لأن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلًا، قيل: فما حالهم؟ قال: إخواننا بغَوْا علينا[1].

والباغي في الشرع: هو الخارج على الإمام العادل، فإن خرج على الإمام العادل قوم وجعلوا لهم إمامًا، فعلى الإمام العادل أن يدعوهم للدخول في طاعته، فإن كانت لهم مظلمة أزالها عنهم، وإن أصرُّوا على البغي قاتلهم حتى يفيؤوا إلى أمر الله، ولا يُقتل أسيرهم، ولا يُتْبع مُدْبِرهم، ولا يُجْهزُ على جَريحهم، فقد أُتي عليٌّ يوم صفين بأسير، فقال: لا أقتلك صبْرًا، إني أخاف الله رب العالمين.

وما أُتلِفَ في حال القتال بين الطائفتين من نفس أو مال أو متاع فلا ضمان عليه، فقد أُريقت في يوم الجمل وصِفِّين دماءٌ، وأُتلفت أموالٌ، فلم يُقتص فيها من أحد لأحد، مع معرفة القاتل والمقتول، ولم يُغرَّم أحد مالًا.

فإن كان الخارجون على الإمام قلة ضعيفة، ولهم شبهة يستندون إليها في خروجهم، وليس لهم إمام، فلا يُعْترض عليهم، فإن قاتلوا المسلمين وتعرضوا لهم فهم كقطَّاع الطرق في الحكم[2].

أخرج الطبري بإسناد حسن عن ابن عباس ﷺ أنه قال: إن الله - سبحانه - أمر النبي ﷺ والمؤمنين، إذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين أن يدعوهم إلى حكم الله، ويُنْصِف بعضهم من بعض، فإن أجابوا حَكَم فيهم بكتاب الله، حتى يُنصف المظلوم من الظالم، فمن أبى منهم أن يجيب فهو باغٍ، فحق على إمام المؤمنين أن يجاهدهم ويقاتلهم حتى يفيؤوا إلى أمر الله، ويقروا بحكمِ الله[3].

---

(١) «تفسير ابن عطية» (٥/١٤٨).

(٢) يُنظَر: «تفسير الخازن» (٤/١٦٨).

(٣) «تفسير الطبري» (٢١/٣٥٧).

سئل بعض العلماء عما وقع بين بعض الصحابة من قتال، فقال: تلك دماء قد طهَّر الله منها أيدينا، فلا نُلوِّث بها ألسنتنا، وسبيل ما جرى بينهم كسبيل ما جرى بين يوسف وإخوته.

الْأُخُوَّةُ الْإِيمَانِيَّةُ

١٠- ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ[1] وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾

في هذه الآية عقد للأخوة الإيمانية عقَده الله تعالى بين المؤمنين في مشارق الأرض ومغاربها، فالمؤمنون إخوة في الدين والعقيدة، يجمعهم أصل واحد هو الإيمان، وهذا الإيمان، يدعو إلى التواصل والتراحم والتناصر في جلب الخير ودفع الشر.

فالمؤمن أخو المؤمن: لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحْقره ولا يسلمه، وعليه أن ينصر أخاه ظالمًا، فيحول بينه وبين الظلم، أو مظلومًا فيدفع الظلم عنه، والأخوة الإيمانية توجب أن يحب المؤمن لأخيه ما يحب لنفسه، وأن يكره له ما يكرهه لنفسه، وألّا يخطب على خِطبة أخيه، وأن يدعوه بأحب الأسماء إليه، ويوسع له في المجلس، ويبدأه بالسلام، وأن يعوده إذا مرض، ويشمته إذا عطس، ويجيب دعوته إذا دعاه، وأن يشيِّع جنازته، وأن ينصح له إذا استنصحه، وأن يأخذ بيده إلى طريق الهدى والاستقامة، وأن يقرضه إذا استقرضه، ويتفقده إذا غاب، ويحفظه في أهله وماله إذا سافر، ونحو ذلك.

وما دمتم إخوة أيها المؤمنون ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ إذا اقتتلا، ولا تتركوا الفرقة تدب بينهما ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ خافوه في جميع أموركم، وامتثلوا أمره واجتنبوا نهيه ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: رجاء أن يرحمكم الله، فتسعدوا بجنَّته ورضوانه.

والأصل في العلاقة بين المؤمنين أن تقوم على التواصل والتراحم، لا على القتال والتخاصم والتناحر، فإن حدث نزاع بين فرْدَين أو جماعتين أو دوْلتين، فعلى بقية المؤمنين أن يقوموا بواجب الصلح بينهما ويدعوهما إلى حكم الله تعالى ورسوله:

١- عن عبد الله بن عمرو ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**المقسطون عند الله يوم القيامة على**

---

(١) قرأ يعقوب (بين إخوتكم) جمع أخ، وقرأ الباقون (أخويكم) تثنية أخ.

منابر من نور على يمين العرش، الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما وَلُوا»[١].

٢- وعن النعمان بن بشير ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحُمَّى والسهر**»[٢].

٣- وعن سهل بن سعد الساعدي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لأهل الإيمان كما يألم الجسد لما في الرأس**»[٣].

٤- وعن فُهيْد بِن مُطَرِّف الغفاري أن رسول الله ﷺ سأله سائل: إن عدا عليَّ عادٍ؟ فأمره أن ينهاه ويذكره بالله تعالى ثلاث مرات، قال: فإن أبى؟ فقاتلْهُ، قال: فكيف بنا؟ قال: «**إن قتلك فأنت في الجنة، وإن قتلته فهو في النار**»[٤].

النَّهْيُ عَنِ السُّخْرِيَةِ وَاللَّمْزِ وَالتَّنَابُزِ

١١- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ[٥] وَلَا تَلْمِزُوٓا۟[٦] أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟[٧] بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ[٨] ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٨٢٧) و«سنن النسائي» (٨/ ٣٢١) (٥٣٩٤) والبيهقي (٧٠٧) وابن أبي شيبة (١٣/ ١٢٧).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٨٦) و«صحيح البخاري» برقم (٦٠١١).

(٣) «المسند» (٥/ ٣٤٠) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٨٧): رجال أحمد رجال الصحيح، وهو في المسند برقم (٢٢٨٧٧) قال محققوه: صحيح لغيره، وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٥٧٤٣) و«الأوسط» (٤٦٩٣) وهو عن النعمان بن بشير (١٨٣٥٥).

(٤) ينظر: «المسند» (١٥٤٨٦، ١٥٤٨٧) قال محققوه: حديث صحيح، واللفظ المذكور من الحديثين معًا، وأخرجه البزار (١٨٦٤) زوائد والبيهقي في السنن (٨/ ٣٦) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٠٢٦).

(٥) وقف يعقوب على (منهن) بهاء السكت، والباقون بدونها.

(٦) قرأ يعقوب بضم الميم من (ولا تلمُزوا)، والباقون بكسرها، وهما لغتان في المضارع.

(٧) قرأ البزي بخلف عنه بتشديد التاء وصلًا من (ولا تنابزوا) مع إشباع المد لالتقاء الساكنين، والباقون بالقصر، ومثلها (ولا تجسسوا) في الآية التالية.

(٨) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (بئس) ياء وصلًا ووقفًا، ولو ابتدأ بما بعدها (الاسم) ابتدأ بهمزة وصل مفتوحة، أو بـ (ال) مكسورة، فهما وجهان لجميع القراء.

ومن حقوق المؤمنين بعضهم على بعض: ألا يسخر أحد من أحد، ولا يعب أحد على أحد، ولا يُعيِّر أحد أحدا، ولا يدعو المسلم أخاه بلقب يكرهه.

ولما ذكر سبحانه أن المؤمنين إخوة، ومقتضى الأخوَّة الإيمانية حسن المعاملة بين الإخوة أفرادًا وجماعات، ولذا: فإن الله تعالى ذكر في هذه الآية والتي بعدها ستة من الأخلاق التي تُوغر صدور الإخوة؛ كي يتجنبها المسلم في تعامله مع إخوانه المسلمين، وهذه الأمور الستة هي:

١- السخرية. ٢- الهمز واللمز. ٣- التنابز بالألقاب.

وهذه الثلاثة في هذه الآية:

٤- سوء الظن. ٥- التجسس. ٦- الغيبة.

وهذه الثلاثة في الآية التالية، وبيانها فيما يأتي:

أوَّلًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾.

لفظ ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾ يُطلق على الرجال فقط دون النساء، ولذا عطف عليه ذكر النساء لعدم دخولهن في لفظ قوم، فهذا المقطع من الآية يخص الرجال.

والسخرية من الناس: احتقارهم وازدراؤهم والتنقيص من شأنهم، بفعل أو قول يدل على الاحتقار، وهذا من كبائر الذنوب، وهو يدل على إعجاب الساخر بنفسه، وعلى احتقاره لأخيه بسبب فقر أو ضعف أو إعاقة ونحو ذلك، وهو نصف الكبر، فقد قال النبي ﷺ فيما يرويه عبد الله بن مسعود ﷺ: **«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»** فقال رجل: الرجل منا يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنًا -يعني: هل هذا من الكبر؟- فقال ﷺ -يُعرِّف الكبر: **«الكبر بطر الحق وغمط الناس»**[1].

فالكبر ينحصرفي هذين الأمرين، وهما:

١- رفض الحق وعدم قبوله. ٢- واحتقار الناس وازدراؤهم.

وقد يكون المحتقَر أعظم قدرًا عند الله تعالى وأحب إليه من المحتقِر، فإن السخرية لا

(١) من حديث عبد الله بن مسعود في «صحيح مسلم» برقم (٩١).

تحدث إلا من قلب ممتلىء بالكبر والإعجاب بالنفس، وممتلىء بمساوي الأخلاق «بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم».

والمعنى: يا من آمنتم بالله حق الإيمان، وصدقتم بكتابه ورسوله، وعملتم بشريعته، لا يهزأ قوم مؤمنون من قوم مؤمنين، ولا يحتقر بعضكم بعضًا، ولا يسخر بعضكم من بعض، فمنازل الناس ليست في أحسابهم ولا أنسابهم، ولا في أموالهم ومظاهرهم ومناصبهم، فعسى أن يكون المسخور منه أعلى قدرًا عند الله تعالى من الساخر، إذ رُبَّ أشعث أغبر ذي طِمْرين لو أقسم على الله لأبرَّه. والحكم عام للبشر جميعًا، وإن كان لهذه الجملة من الآية أكثر من **سبب نزول**:

١- من ذلك ما ورد عن ابن عباس ﷺ أنها نزلت في ثابت بن قيس بن شماس، وذلك أنه كان في أذنه وقر، فكان إذا أتى رسول الله ﷺ وقد سبقه الناس إلى المسجد، وسَّعُوا له حتى يجلس إلى جوار النبي ﷺ ليسمع ما يقول، فأقبل ذات يوم وقد فاتته ركعة من صلاة الفجر، فلما فرغ النبي ﷺ من الصلاة، جلس كل واحد من الصحابة في مجلسه، فامتلأ المسجد، وكان إذا جاء أحد بعد ذلك لم يجد له مكانًا، فيظل واقفًا، فلما فرغ ثابت من الصلاة، أقبل نحو رسول الله ﷺ يتخطى رقاب الناس، وهو يقول: تفسَّحوا، تفسَّحوا، حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ ولم يبق بينه وبين الرسول ﷺ إلا رجل واحد، فقال له: تفسَّح، قال الرجل: وجدتَ مجلسًا فاجلس، فجلس ثابت خلفه وهو مغضب، فلما أسفر الصبح، غمز ثابت الرجل، وقال: من هذا؟ قال: أنا فلان، قال له ثابت: ابن فلانة؟ وذكر اسم أمه، وكان يُعيَّر بها في الجاهلية، فنكَّس الرجل رأسه واستحيا، فأنزل الله الآية، فقال ثابت: والله لا أفخر على أحد في الحسَب بعدها أبدًا[1].

٢- وقال الضحاك ومقاتل: نزلت في وفد بني تميم، كانوا يستهزئون بفقراء أصحاب رسول الله ﷺ مثل: عمَّار، وخبَّاب، وبلال، وصهيب، وسلمان، وسالم مولى أبي حذيفة، لِمَا رأوْا من رَثاثة حالهم، فأنزل الله الآية[2].

---

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (٢٢٣) والبغوي والخازن وابن الجوزي (٤٦٥١٧) والقرطبي (١٦/ ٣٢٤) وابن حجر في «تخريج الكشاف»، كلهم بدون سند.

(٢) ذكره البغوي والخازن وابن الجوزي بدون سند، وذكره السيوطي من رواية ابن أبي حاتم في «الدر» (٦/ ٩١).

حتى لا يستهزئ غني بفقير، ولا مستور عليه ذنبه بمن لم يُسْتر، ولا ذُو حسب بلئيم، وأشباه ذلك مما ينتقصه به، لعل المسخور منه يكون عند الله خيرًا من الساخر.

وبعد أن نهى الله تعالى الرجال عن احتقار الرجال والسخرية منهم، نهى النساء عن ذلك أيضًا فقال سبحانه: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ أي: ولا تهزأ نساء مؤمنات من نساء مؤمنات، عسى أن يكون المهزوء بها منهن خيرًا من الهازئات، وأفضل منهن عند الله تعالى، والحكم عام في جميع النساء في كل زمان ومكان، وإن كان قد صاحب هذه الفقرة من الآية أكثر من سبب للنزول:

١- من ذلك ما رواه أنس بن مالك ﷺ أن بعض نساء النبي ﷺ عيَّرْن أم سلمة ﷺ بالقِصَر، فأنزل الله الآية[١].

٢- وعن عكرمة عن ابن عباس ﷺ أن صفية بنت حُيَيٍّ بن أخطب أتت رسول الله ﷺ فقالت: إن النساء يُعَيِّرْنَني ويَقُلْن: يا يهودية بنت يهوديِّن، فقال رسول الله ﷺ **«هلَّا قلتِ: إن أبي هارون، وإن عمي موسى، وإن زوجي محمد»** فنزلت الآية[٢].

ثانيًا: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾.

اللمز: هو العيب بالقول، أو بالإشارة باليد أو العين، سواء أكان ذلك بحضرة الملموز أم لا، وسواء أكان على وجه مضحك أم لا، فهو أعم من السخرية، وأخص من الهمز الذي هو عيب بالفعل، وفيه احتقار للمهموز وهو حاضر.

والمعنى: ولا يعب بعضكم بعضًا بوجه من الوجوه، ولا يطعن بعضكم في بعض، فإنه من المحرمات المنهي عنها والمتوعّد عليها.

ورد أنه كان بين أبي ذر، ورجلٍ، منازعة، فقال له الرجل: يا ابن اليهودية، فنزل ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾.

ونُزِّل الملموز منزلة النفس؛ لأن الأخ كالنفس، فكأنه عاب نفسه.

---

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» وكذا البغوي والخازن وابن الجوزي.

(٢) ذكره ابن الجوزي والبغوي والخازن والواحدي في «أسباب النزول».

وقد توعَّد الله الهمَّاز اللمَّاز بالويل والعذاب الشديد، فقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾﴾ [الهمزة].

والهمز واللمز من صفات الفجار، كما قال تعالى عن الكافر الأثيم: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾ [القلم].

وغالبًا ما يهزأ الأثرياء بالفقراء، والأقوياء بالضعفاء، ويوم القيامة يكون الجزاء من جنس العمل ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾ إلى أن قال: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطففين].

ثالثًا: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أي لا يعيِّر أحدكم أخاه ويُلقِّبه بلقب فيه ذم يكرهه.

وذلك كأن يكون للإنسان أكثر من لقَب، منه المحمود ومنه المذموم، فيناديه الناس باللقب الذي يكرهه، وهذا هو التنابز بالألقاب، أما الألقاب غير المذمومة فلا تدخل في هذا، ومن الآثار الواردة في **أسباب النزول**:

١- عن أبي جبيرة بن الضحاك قال: فينا نزلت -أي: في بني سلمة- قال: قدِم رسول الله ﷺ المدينة، وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دُعي أحد منهم باسم من تلك الأسماء، قالوا: يا رسول الله، إنه يغضب من هذا، فنزلت ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾[1].

٢- وفي الترمذي: كان الرجل منا يكون له اسمان أو ثلاثة، فيُدعى ببعضها، فعسى أن يكره فنزلت[2].

٣- وقيل: إن كعب بن مالك الأنصاري كان بينه وبين عبد الله بن أبي حدود الأسلمي

---

(١) «المسند» (٤/ ٢٦٠) (١٦٦٤٢) بنحوه، ورجاله ثقات رجال الشيخين غير داود بن أبي هند فمن رجال مسلم (محققوه) وأبو داود برقم (٤٩٦٢) والنسائي في «الكبرى» (١١٥١٦) و«صحيح سنن أبي داود» (٤١٥١) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣٧٤١) و«المستدرك» (٢/ ٤٦٣) والطبري (٢٦/ ١٣٢).

(٢) الترمذي برقم (٣٢٦٨) من طريق داود بن أبي هندبة، وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٦٠٦)، وهو في سنن أبن ماجه (٣٧٤١) وفي صحيح ابن ماجه (٣٠١٥).

كلام، فقال: يا أعرابي، فقال له عبد الله: يا يهودي، فنزلت فيهما[١].

٤- قال ابن عباس ﷺ: التنابز بالألقاب: أن يكون الرجل عمل السيئات ثم تاب منها، فنَهى الله أن يُعيَّر بما سلَف من عمله[٢].

وجاء عن ابن مسعود وغيره: هو قول الرجل للرجل: يا فاسق، يا منافق، يا كافر، وكان الرجل اليهودي إذا أسلم يقال له بعد إسلامه: يا يهودي، يا نصراني، فنُهُوا عن ذلك[٣].

٦- وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما**»[٤].

والألقاب المنهي عنها هي ما يكرهه المنادَى بها، أو يفيد ذمًّا له.

أما الألقاب التي صارت كالأعلام لأصحابها، كالأعمش، والأعرج، وذو اليدين، وأبو هريرة، وما أشبه ذلك، فلا بأس بها ما لم يكرهها المدعو بها.

والألقاب التي فيها مدح أو حمد، وتكون حقًّا، لا تكره، كما قيل لأبي بكر: عتيق، ولعمر: الفاروق، ولعثمان: ذو النورين، ولعليٍّ: أبو تراب، ولخالد: سيف الله، ونحو ذلك.

فاللمز هو: أن يعيب الإنسان أخاه مواجهة أو في غيبته، فإن كان هذا العيب حقًّا، فهو وقاحة واعتداء، وإن كان باطلًا، فهو وقاحة وكذب، ويكون اللمز قولًا بالكلام، ويكون بالإشارة، وهي بمنزلة الكلام.

أما التنابز فهو: أن ينادي الإنسان أخاه بلقب سوء يكرهه، ولا يكون التنابز إلا بالكلام.

والهمز هو: أن يعيب الإنسان أخاه مع احتقاره له وهو حاضر، ولا يكون الهمز إلا بالفعل، فاللّمز قول، والهمز فعل.

---

(١) «زاد المسير» (٧/ ٤٦٧).

(٢) «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٧١).

(٣) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (١٣/ ٥٦٣) وجاء ذلك عن قتادة وعكرمة وأبي العالية ومجاهد والحسن ومحمد بن كعب القرظي.

(٤) البخاري (٦١٠٣، ٦١٠٤) عن ابن عمر ﷺ، وكذا «صحيح مسلم» (٦٠).

ثم إن ما نهانا الله تعالى عنه في هذه الآية من السخرية واللمز والتنابز بالألقاب، هو من الفسق الذي فيه خروج على طاعة الله تعالى، كما قال ﷺ في حديث عبد الله بن مسعود ﷺ: «سباب المسلم فسوق»[1].

وقد ذمَّ الله تعالى هذه الأوصاف الثلاثة، فقال: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي: بئست هذه الصفة الفاسقة أن تصف بها أخاك، فتصفه بالكفر وهو مسلم، أو تقول: يا فاسق، يا يهودي، يا نصراني، وقد هداه الله للإسلام.

فالمراد بالاسم المذكور في الآية: ما سبق ذكره في أول الآية، وهو السخرية واللمز والتنابز.

والمخصوص بالذم محذوف، تقديره: بئس الفعل فعلكم، أن تذكروا إخوانكم في الدين بما يكرهون.

وفي هذا نهي للمؤمن أن يَنْسب أخاه إلى الفسق، فالإيمان لا يناسبه الفسوق؛ لأن المعاصي من شأن أهل الشرك، وهذا كقول **جميلة بنت أُبَيٍّ** حين شكَت للنبي ﷺ أنها تكره زوجها **ثابت بن قيس** وتريد فراقه، فقالت: لا أعيب في ثابت خُلقًا ولا دينًا، ولكني أكره الكفر بعد الإسلام، وتريد بالكفر تعريضها للزنى، قالت: وإني لا أطيقه بُغضًا فيه، ومن هذا القبيل ما جاء في الحديث السابق (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر).

وقيل في المعنى: إن من فَعَلَ ما نهى الله عنه من السخرية واللمز والتنابز، فهو فاسق، وبئس استحقاقه لهذا الاسم، بعد أن كان مؤمنًا، .

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ أي: من هذه الصفات الذميمة الثلاث وغيرها، بأن يستحلل من أخيه ويستغفر له، ويمدحه مقابل ذمه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنفسهم بارتكاب ما نهى الله تعالى عنه، وتعريضها للعقاب، فالناس قسمان: ظالم لنفسه غير تائب، وتائب مفلح.

---

(١) ومن حديث سعد بن أبي وقاص في «المسند» (١٥١٩) بلفظ (قتال المسلم كفر وسبابه فسوق، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام) بإسناد حسن، والحديث صحيح، وهو في «شرح مشكل الآثار» للطحاوي (٨٤٤) وعبد الرزاق (٢٠٢٢٤) وابن ماجه (٣٩٤١) والبخاري في «الأدب المفرد» (٤٢٩) و«سنن النسائي الكبرى» (٣٥٥٤) وجاء عن ابن مسعود وأبي الأحوص وغيرهما.

النَّهْيُ عَنْ سُوءِ الظَّنِّ وَالتَّجَسُّسِ وَالْغِيبَةِ

١٢- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا[1] فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

رابعًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾.

نهى سبحانه وتعالى عن كثير من سوء الظن، الخالي من الحقيقة والقرينة القولية أو الفعلية المحرمة، التي ترشح هذا الظن السيء، فإن في ذلك إساءة ظن بالمسلم، وفيه بغض وعداوة له، فلا يزال هذا الظن في نفس العبد حتى يعبّر عنه قول أو فعل يصدُر من صاحبه:

قال سفيان الثوري: الظن **ظنان:**

أحدهما: إثم، وهو أن يظن ويتكلّم بما ظن.

والآخر: ليس بإثم، وهو أن يظن ولا يتكلم بظنه.

وللظن أربعة أحكام: الواجب، والمحرم، والمباح، والمندوب إليه.

النوع الأول: الظن الواجب: وهو حسن الظن بالله تعالى، كما جاء في الحديث عن جابر ﷺ: **«لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله ﷻ»**[2].

ولابد لِحُسْن الظن من مستند محمود، وعمل مقبول، بأن يكون أهلًا لحسن الظن بالله، فلا يتمنى على الله الأماني، ولا يكون عمله ليس خالصًا صوابًا.

فحسن الظن بالله يقتضي حسن العمل، وإلا كان كاذبا في ذلك:

جاء في الأثر: **«ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن ما وقر في القلب وصدَّقه العمل، وإن قومًا غرتهم الأماني، وقالوا: نحن نحسن الظن بالله، وكذَبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل»**[3].

---

(١) قرأ نافع وأبو جعفر ورويس بتشديد الياء من (ميِّتًا)، والباقون بتخفيفها.

(٢) من حديث جابر في «صحيح مسلم» (٤/٢٢٠٦) برقم (٢٨٧٧).

(٣) البيهقي في «الشعب» (٦٦) وعبد بن حميد عن الحسن .

فلابد لحسن الظن بالله تعالى من حسن العمل، ولا يُحسن العبد الظن فيما هو محل الحذر والتهم، ولا يقتدي بمن ليس أهلًا للتأسي.

فقد قال النبي ﷺ لأم العلاء الأنصارية حين مات في بيتها عثمان بن مظعون، وقالت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال ﷺ: «**وما يدريك أن الله أكرمه؟**» قالت: يا رسول الله، ومن يكرمه الله؟! فقال: «**أمَّا هو فقد جاءه اليقين، وإني أرجو له الخير، وإني والله ما أدري -وأنا رسول الله- ما يُفعل بي**» فقالت: والله لا أزكِّي بعده أحدًا[1] وهذا في الدنيا أما في الآخرة فقد علم أن له الجنة[2].

وكل ما تعبَّدنا الله تعالى به يجب العمل به، ويجب حسن الظن فيه، وإن لم نعلم له علة أو سببًا، كعدد ركعات الصلاة، ورمي الجمار ونحو ذلك.

النوع الثاني: الظن المحظور: وهو سوء الظن بالله تعالى، مع كون عمل العبد خالصًا لوجه الله تعالى. خاليًا من الرياء وأنواع الشرك، وأن يكون العمل صوابًا، وفق ما جاء به محمد ﷺ، ومنه سوء الظن في شيء مما تعبَّدنا الله به.

قال تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقال أيضًا: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠].

وقد نشأت العقائد الضالة من الظنون الكاذبة، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وقال سبحانه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]

وفي الآية بعدها ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨].

ومن الظن المحرم: سوء الظن بالمسلم مستور الحال، ظاهر العدالة، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «**إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث**»[3].

---

(١) من حديث أم علاء الأنصارية في «المسند» برقم (٢٧٤٥٧) بإسناد صحيح، وأخرجه البخاري (١٢٤٣، ٣٩٢٩، ٧٠٠٤) والطبراني في «الكبير» (٣٣٨) والحاكم (١/٣٧٨) وابن سعد (٣/٣٩٨).

(٢) ينظر تفسير الآية ٩ من سورة الأحقاف.

(٣) «الموطأ» (٢/٩٠٨) والبخاري برقم (٥١٤٣، ٦٠٦٦) ومسلم برقم (٢٥٦٣) و«المسند» (٧٣٣٧، ١٠٩٤٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) وأبو داود (٤٩١٧) والترمذي (١٩٨٨).

وفي حديث طلحة بن عبيد الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الظن يخطئ ويصيب»**[١].

وفي الأثر أيضًا: **«إن الله حرَّم من المسلم دمه وعرضه، وأن يُظن به ظن السوء»**.

وقال عمر ﷺ: ولا تظننَّ بكلمة خرجتْ من أخيك المسلم إلا خيرًا، وأنت تجد لها في الخير محملًا[٢].

وقد يكون سوء الظن من باب الحيطة والاحتراس، كما قيل: حُسْن الظن ورطة، وسوء الظن عصمة.

النوع الثالث: الظن المباح: كمن يشك هل صلى ثلاثًا أم أربعًا، فيبني على اليقين وهو الأقل.

النوع الرابع: الظن المندوب إليه: وهو حُسْن الظن بالمسلم ظاهر العدالة.

والأصل أن يظن المسلم خيرًا بأهل الخير، أما أهل السوء والفسوق، فلَنا أن نظن بهم مثلما ظهر منهم، ولا يضر الظن السيئ بمن جاهر بالمعاصي.

فيا من آمنتم بالله إيمانًا حقًّا، وعملتم بهدْي رسوله ﷺ، ابتعدوا ابتعادًا تامًّا عن الظنون السيئة بأهل الخير من المؤمنين؛ لأن هذه الظنون لا تستند إلى دليل أو قرينة صادقة، وهي مجرد تُهم تُولِّد الشكوك والمفاسد فيما بينكم.

وقوله تعالى: ﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ يفيد أن بعض الظن ليس بإثم، وأنَّا لم نؤمر باجتناب الظن الذي ليس فيه إثم، وعلى المسلم أن يكون عنده معيار يميز به كِلَا الظنَّين ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ وذنب، يستحق صاحبه العقوبة عليه، إذا ترتب على هذا الظن اغتياب أو تجسس أو اتهام باطل.

خامسًا: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾

التجسس من آثار الظن؛ لأن الظن يبعث على التجسس، فيدعو صاحبه إلى البحث سرًّا

---

(١) جزء من حديث في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٠٠٢). وهو في سنن ابن ماجه (٢٤٧٠) وفي صحيح مسلم (٢٣٦١) بنحوه.

(٢) «الدر المنثور» (٧/ ٥٦٦) عن أحمد في «الزهد» والبيهقي في «الشعب» عن سعيد بن المسيب. وهو قول مأثور عن عمر، رواه سليمان بن عبيد في أمالي المحاملي (١/ ٣٩٥).

لتحقيق ما ظنه، فيسلك طريق التجسس، وهو البحث بطريقة خفية عن المتجسَّس عليه، وقد حذَّرنا الله تعالى من سلوك هذا الطريق؛ لما فيه من الكيد والاطلاع على العورات، وقد يرى المتجسس من المتجسَّس عليه ما يسوؤه، فتنشأ العداوة والحقد، وهذا يقطع أواصر الأخوة الإسلامية، وإذا علم المتجسَّسُ عليه بهذا التجسُّس فإن هذا يبعثه على الانتقام ممن تجسس عليه.

والتجسُّس فرعٌ عن الظن المفضي إلى الإثم، وهو من كبائر الذنوب لمن يبتغي به الضرَّ، وهذا لا يشمل التجسس على الأعداء، ولا تجسس الشُّرَط على الجناة واللصوص.

والمعنى: لا تُفتِّشوا ولا تبحثوا عن عورات المسلمين، ولا تتبعوا معايبهم، وخذوا ما ظهر من أحوال الناس، ولا تُنقِّبوا عن بواطنهم وأسرارهم واتركوا أمرهم إلى الله.

جاء في الحديث: عن أبي برزة الأسلمي والبراء بن عازب ﷺ وغيرهما أن رسول الله ﷺ قال: «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته حتى يفضحه في جوف بيته**»[١].

وفي حديث معاوية بن أبي سفيان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنك إن تتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم**» فقال أبو الدرداء: كلمة سمعَها معاوية من رسول الله ﷺ نفعه الله بها[٢].

وقد جاء النهي عن البحث عن المستُور من أمور الناس، حتى لا يظهر للباحث ما ستره الله على أخيه، جاء هذا في أحاديث كثيرة، منها:

١- ما جاء في الحديث المتفق على صحته عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**... ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا**

---

(١) «صحيح سنن أبي داود» (٤٠٨٣) عن أبي برزة، ومن حديث البراء بن عازب في «مسند أبي يعلى» (٣/ ٢٣٧) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٩٣): رجاله ثقات، وهو في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٣٤١) وفي الترمذي برقم (٢٠٣٢) عن ابن عمر ﷺ، وجاء أيضًا عن ابن عباس وبريدة.

(٢) «سنن أبي داود» برقم (٤٨٨٨) والطبراني في «الكبير» (٨٩٠) وابن حبان في «الإحسان» (٥٧٣٠) و«صحيح الجامع» (١٠٣٦) و«صحيح الأدب المفرد»: (١٨٦، ٢٤٨) وأبو يعلى (٧٣٧٩).

تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا كما أمركم، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ها هنا، التقوى ها هنا -ويشير إلى صدره- بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه، إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم وأعمالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم»[١].

٢- وعن عقبة بن عامر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من رأى عورة مؤمن فسترها كان كمن أحيا موؤودة من قبرها»**[٢].

٣- وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«لا يستر عبد عبدًا في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة»**[٣].

٤- وعن زيد بن وهب قال: أُتي ابن مسعود ﷺ، فقيل له: هذا فلان، تقطر لحيته خمرًا، فقال عبد الله: إنا قد نُهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر إلينا شيء نأخذ به[٤].

٥- قال مجاهد: خذوا ما ظهر لكم ودعوا ما ستر الله[٥].

٦- أخرج عبد الرزاق وغيره أن عبد الرحمن بن عوف ﷺ حرس المدينة ليلة مع عمر بن الخطاب ﷺ فسمعا لغطًا وأصواتًا مرتفعة في البيت، فقال عمر: أتدري بيت من هذا؟ قال: هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف، وهم الآن جماعة يشربون الخمر، قال عبد الرحمن: أرى أننا قد أتينا ما نهى الله عنه، حيث قال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ فقد تجسسنا، فانصرف عنهم وتركهم[٦].

٧- وأخرج الخرائطي في مكارم الأخلاق عن ثوْرٍ الكِنْدِيِّ: أن عمر بن الخطاب كان

---

(١) يُنظَر: البخاري برقم (٦٠٦٦) ومسلم برقم (٤/ ١٩٨٥) (٢٥٦٣) وغيرهما.

(٢) أبو داود (٤٨٩٢) و«المسند» (٤/ ١٥٣) برقم (١٧٣٣٢) بإسناد ضعيف، لأن فيه ابن لهيعة، وجهالة مولى عقبة بن عامر (محققوه) والنسائي في «الكبرى» (٧٢٨٣) والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٥٨) وابن حبَّان (٥١٧).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٩٠).

(٤) «مصنف عبد الرزاق» (١٨٩٤٥) وابن أبي شيبة (٨٦١٩) و«صحيح سنن أبي داود» (٤٠٩٠) والبيهقي (٧٦٠٤).

(٥) «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٧٥).

(٦) عبد الرزاق (٢/ ٢٣٢).

يَعسُّ بالمدينة من الليل، فسمع صوت رجل في بيتٍ يتغنَّى، فتسوَّر عليه، فوجد عنده امرأة، وعنده خمر، فقال: يا عدُوَّ الله، أظننتَ أن الله يسترك وأنت على معصيته، فقال: وأنت يا أمير المؤمنين، لا تعْجل عليَّ، إن أكنْ عصيتُ الله في واحدة، فقد عصيتَ الله في ثلاث، قال الله: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ وقد تجسست، وقال: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩] وقد تسوَّرْتَ عليَّ، ودخلتَ عليَّ بغير إذن، وقال الله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧]. قال عمر: فهل عندك من خير إن عفوْت عنك؟ قال: نعم، فعفا عنه وخرج وتركه[(١)].

سادسًا: ﴿وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾

الغِيبة -بكسر الغين- أن تذكُر غيرك في غيبته بما يسوؤه، كأن تقول: فلان أَنْفُهُ كبير، وهو كذلك، وقد عرَّف النبي ﷺ الغيبة حين قال لأصحابه: «**أتدرون ما الغيبة؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**ذكرك أخاك بما يكره**»، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته**»[(٢)].

أي: إن كان ما قلته عنه حقيقة واقعة موجودة فيه -فهو الغيبة، وإن لم يوجد ما تقول فهو بهتان؛ لأنه كذب وافتراء.

ومن ذلك ما ورد عن عائشة ﵂ أنها قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا -تعني أنها قصيرة- فقال: «**لقد قلْتِ كلمة لو مُزِجت بماء البحر لمزجته**»[(٣)].

وورد أن امرأة دخلت على عائشة، فلما قامت لتخرُج أشارت عائشة بيدها إلى النبي ﷺ -أي: إنها قصيرة- فقال النبي ﷺ: «**اغتبتِها**»[(٤)].

قيل: إن هذه الآية نزلت في رجلين اغتابا رفيقهما، وكان النبي ﷺ إذا غزا أو سافر

---

(١) «الدر المنثور» (١٣/ ٥٧١).

(٢) مسلم (٢٥٨٩) وأبو داود برقم (٤٨٧٤) والترمذي برقم (١٩٣٥) وابن أبي شيبة (٨/ ٣٨٧) والطبري (٢١/ ٣٧٦)، والمسند عن أبي هريرة (٨٩٨٥، ٩٠٠٩) حديث صحيح بإسناد حسن، كماقال محققوه.

(٣) أبو داود (٤٨٧٥) والترمذي (٢٥٠٢، ٢٥٠٣). وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤/ ٢٦٩) برقم (٤٠٨٠) وفي صحيح الترمذي (٢٦٣٢) والمشكاة (٤٨٥٣) وغاية المرام (٤٢٧).

(٤) «تفسير الطبري» (٢٦/ ٨٧).

ضمَّ الرجل المحتاج إلى رجلين موسرين يخدمهما، فضم **سلمان الفارسي** إلى رجلين في بعض أسفاره، فتقدَّم سلمان إلى المنزل وغلبتْه عيناه فنام، ولم يصنع لهما طعامًا، فلما قدما سألاه عن الطعام فقال: غلبتْني عيناي فنمت، فقالا له: انطلق إلى رسول الله ﷺ فاطلب لنا منهُ طعامًا، فذهب سلمان إلى الرسول ﷺ يسأله طعامًا، فقال له: «**انطلق إلى أسامة بن زيد** إن كان عنده فضل طعام»، وكان أسامة خازن رسول الله ﷺ وعلى رحْله، فأتاه، فقال: ما عندي شيء، فرجع سلمان إليهما وأخبرهما، فقالا: كان عند أسامة طعام ولكنه بخل، فبعث سلمان إلى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيئًا، فلما رجع إليهما قالا: لو بعثناه إلى بئر سمحة لغار ماؤها، ثم انطلقا إلى أسامة بن زيد يتلمسان عنده شيئًا، فلما جاءا إلى رسول الله ﷺ قال لهما: «**ما لي أرى خُضرة اللحم في أفواهكما**»، قالا: والله يا رسول الله ما تناولْنا في يومنا هذا لحمًا، قال: «**ظللْتُما تأكلان لحم سلمان وأسامة**»، فأنزل الله الآية[١].

والغيبة محرمة بالإجماع، ولا يُستثنى من ذلك إلا ما رجحَتْ مصلحتُه مما ذكره العلماء، وهو **سبعة أسباب**:

الأول: التظلم، بأن يشكو الإنسان مظلمته أمام القاضي ونحوه، فيذكر ما حدث له من ظلم.

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر، بأن يَذْكُره المسْلِم عند مَنْ لَدَيْه قُدْرة على إزالته.

الثالث: الاستفتاء، فيذكر لمن يُفتيه بأن فلانًا فعل كذا بالنسبة له، ليبيِّن له الحكم.

الرابع: تحذير المسلمين من الشر، كتجريح الشهود والرواة، ومنه قول النبي ﷺ لَمَّا استأذن عليه رجل فاجر، فقال: «**ائذنوا له بئس أخو العشيرة**»[٢].

وقد فعل النبي ﷺ ذلك اتقاء لشره.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: ٢٨].

الخامس: المجاهرون بالمعاصي والمبتدعون والمنكرون الجاحدون لمبادىء الإسلام،

---

(١) «تفسير الخازن» (٤/ ١٧٠) وقد أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي كما في «الدر المنثور» (١٣/ ٥٧٥).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦١٣١) من حديث عائشة.

فإنه يجوز ذِكْرُهم للتحذير منهم، ولأنهم كشفوا اللثام عن وجوههم وتحدثوا عن أنفسهم، فصاروا جرثومة في المجتمع يجب التحذير من شرهم.

السادس: التعريف باللقب الذي لا يقصد به الإساءة، كالأعمى والأعمش[١].

السابع: طلب النصيحة، كأن تُبيِّن لمن استشارك في أمر الزواج، أو المشاركة في التجارة، أو الجوار، ونحو ذلك، ما في هذا الشخص من محاسن وعيوب، كما قال النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس لمَّا خطبها معاوية وأبو الجهم، فقال:

«أما أبو الجهم، فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأما معاوية فصعلوك، لا مال له، أنكحي أسامة بن زيد».[٢] ومن الأحاديث التي وردت في تحريم الغيبة:

١- حديث أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«لما عُرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس، يخمشون وجوههم وصدورهم، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعُون في أعراضهم»**[٣].

٢- وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: كنا مع النبي ﷺ فارتفعت ريح جيفة منتنة، فقال رسول الله ﷺ: **«هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين»**[٤].

٣- وعنه ﷺ قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فهاجت ريح منتنة، فقال النبي ﷺ: **«إن نفرًا من المنافقين اغتابوا نفرًا من المسلمين، فلذلك هاجت هذه الريح»**.[٥]

والمغتاب والمستمع شريكان في الإثم.

---

(١) «تفسير الكشاف» (٤/ ٣٧٣). ورياض الصالحين وغيرهما.

(٢) رواه مسلم في صحيحه برقم (١٤٨٠).

(٣) أبو داود برقم (٤٨٧٨) و«المسند» (٣/ ٢٢٤) (١٣٣٤٠) بإسناد صحيح على شرط مسلم (محققوه) والبيهقي في الشعب (٦٧١٦) و«صحيح سنن أبي داود» (٤٠٨٢).

(٤) «المسند» (٣/ ٣٥١) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٩١): رجاله ثقات، وقال محقق «المسند» (١٤٧٨٤): إسناده حسن، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧٣٢) والخرائطي في مساوي الأخلاق (١٨٩) والبيهقي في الشعب (٦٧٣٢) بإسناد قوي.

(٥) أخرجه عبد بن حميد في «المنتخب» (١٠٢٦).

والتوبة من ذلك: بالإقلاع عن الغيبة في الحال، والندم على ما مضى، والعزم الأكيد على عدم العودة إلى اغتياب الناس، وأن يُثني العبد على من اغتابه في المجالس التي اغتابه فيها، وأن يتحلله منها ما لم يكن فيه ضرر أكبر.

٤- وفي الأثر: عن جابر بن عبد الله وأبي طلحة بن سهل الأنصاري ﷺ: ما من امرئ يخذل امرأ مسلمًا في موضع تُنتهك فيه حُرمته، ويُنتقص فيه من عرضه، إلا خذلَه الله في مواطن يُحِبُّ فيها نصرته، وما من امرئ ينصر امرأ مسلمًا في موضع يُنتقص فيه من عرضه، ويُنتهك من حُرمته، إلا نصره الله في مواطن يحب فيها نصرته[١].

ثم ذكر الله تعالى مثلا فريدًا من الغيبة، شبه فيه المعتاب بمن يأكل لحم أخيه ميتًا مع شدة الكراهية لذلك، وهكذا فقد شبَّه الله - سبحانه - من يغتاب غيره بآكل لحمه ميتًا، مع الاشمئزاز والتقزُّز منه لشناعة الغيبة وقُبحها بما لا مزيد عليه من التقبيح، فقال تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ هل يحب الواحد منكم أن يأكل لحم أخيه المسلم وهو ميت ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي: وكما كرهتم هذا طبعًا، فاكرهوه شرعًا، فإن عقوبته أشد من ذلك، وكما كرهتم أكل لحم الميت فأكرهوا الغيبة، وأكرهوا أكل لحمه حيًّا كما كرهتم أكل لحمه ميتًا.

وقد شُبهت الغيبة بأكل لحم الميت؛ لأن الحيَّ لا يعلم بِغيبة من اغتابه، فلا يستطيع الدفاع عن نفسه، وكذلك الميت إذا قُطِّع لحمه وأُكل منه فإنه لا يعلم شيئا عن ذلك، أما الحاضر فقد يستطيع الدفاع عن نفسه.

٥- جاء في الأثر: أن من اغتاب أخاه في الدنيا يُقرَّب له لحمُه في الآخرة، ويقال له: كلْه ميتًا كما أكلته حيًّا[٢].

وفي هذا إشارة إلى أن عِرْضَ الإنسان كلحْمِه ودمه؛ لأن الإنسان يتألم قلبه إذا ذُكر بسوء، كما يتألم جسده إذا قُطع لحمه، والعِرض أشرف من اللحم.

٦- قال ميمون بن سيار: بينما أنا نائم إذا بجيفة زِنْجِي، وقائل يقول: كُلْ يا عبد الله، قلت:

(١) أبو داود بإسناد ضعيف برقم (٤٨٨٤).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» برقم (٤٩٦١١) عن أبي هريرة بإسناد فيه مقال.

وما آكل؟ قال: كُلْ بما اغتبتَ عبد فلان، قلت: والله ما ذكرتُ فيه خيرًا ولا شرًّا، قال: ولكنك استمعت ورضيت، فكان ميمون لا يغتاب أحدًا، ولا يدع أحدًا يغتاب أحدًا عنده[١].

٧- وفي قصة ماعز الأسلمي، أنه جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني قد زنيت، فأعرض عنه النبي ﷺ قالها أربعًا، فلما كان في الخامسة قال ﷺ: **«زنيت؟»** قال: نعم، قال: **«وتدري ما الزنى؟»** قال: نعم، أتيتُ منها حرامًا ما يأتي الرجل من امرأته حلالًا، قال: **«ما تريد إلى هذا القول؟»** قال: أريد أن تطهرني، قال: فقال رسول الله ﷺ: **«أدخلْتَ ذلِك منك، في ذلك منها، كما يغيب الميل في المكحلة، والرشا في البئر؟»** قال: نعم يا رسول الله، قال: فأمر برجمه فرُجم، فسمع النبي ﷺ رَجُلَيْن يقول أحدهما لصاحبه: ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه، فلم تدعه نفسه حتى رُجم رَجْم الكلب! ثم سار النبي ﷺ فمرَّ بجيفة حمار، فقال: **«أين فلان وفلان؟ انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار»** قالا: غفر الله لك يا رسول الله، وهل يؤكل هذا؟ قال: **«فما نلتما من أخيكما آنفًا، أشد أكْلًا منه، والذي نفسي بيده، إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها»**[٢].

٨- وصحَّ عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أنه مرَّ على بغْلٍ ميِّت وهو في نفر من أصحابه، فقال: والله لأن يأكل أحدكم من هذا حتى يملأ بطنَه، خير له من أن يأكل لحم رجل مسلم[٣].

٩- وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: كنا مع رسول الله ﷺ فأتى على قبريْن يُعذَّب صاحبهما، فقال: **«إنهما لا يعذَّبان في كبير، وبكى، أما أحدهما فكان يغتاب الناس، وأما الآخر فكان لا يستبرئ من البول»**، فدعا بجريدة رطْبة فكسرها، ثم أمر بكل كِسْرة فغُرستْ على قبر، فقال: **«أمَا إنه سيُهوِّنُ من عذابهما ما كانتا رطْبتيْن»**[٤].

---

(١) «تفسير الخازن» (٤/ ١٧١).

(٢) «مسند أبي يعلى» (٦/ ٥٢٤) (٦١٤٠) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ٢٢٧) من طريق عمرو بن الضحاك به، وأبو داود في «السنن» برقم (٤٤٢٩) من طريق الضحاك به، قال ابن كثير: وإسناده صحيح وهو في «مصنف عبد الرزاق» (١٣٣٤٠) والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٣٧).

(٣) ابن أبي شيبة (٨/ ٣٨٧) و«صحيح الأدب المفرد» (٥٦٥) والخرائطي في «مساوئ الأخلاق».

(٤) «صحيح الأدب المفرد» (٥٦٤) وابن أبي الدنيا في «ذم الغيبة» (٣٧). والحديث بلفظ آخر عن ابن عباس في البخاري (٢١٨، ١٣٦١) ومسلم (٢٩٢) والمسند (١٩٨٠) وأبو داود (٢٠) والترمذي (٧٠) وابن ماجه (٣٤٧) والنسائي (٢٨١) وهو اللفظ الشائع المعروف. (إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، بلى إنه كبير).

١٠- وعن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: من اغْتيب عنده مؤمن فنصره، جزاه الله بها خيرًا في الدنيا والآخرة، ومن اغتيب عنده فلم ينصره جزاه الله بها في الدنيا والآخرة شرًّا، وما الْتقَم أحد لقمة شرًّا من اغتياب مؤمن، إنْ قال فيه ما يعلم فقد اغتابه، وإن قال فيه بما لا يعلم فقد بهته[١].

١١- وفي حديث ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «. . . **ومن قال في مؤمن ما ليس فيه، أسكنه الله رَدْغَة الخبال حتى يخرج مما قال**»[٢]. ورغدة الخبال: عصارة أهل النار.

ثم ختم الله الآية بدعوة المؤمنين إلى التوبة والإنابة، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ خافوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، واحذروا عقابه، وصونوا أنفسكم عن الغيبة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ﴾ كثير قبول التوبة لمن تاب إلى ربه من قريب توبة نصوحًا، والتواب هو الذي يأذن بتوبة عبده فيوفقه لها، ثم يتوب عليه فيقبل توبته، وهو سبحانه ﴿رَّحِيمٌ﴾ بعباده المؤمنين، يدعوهم إلى ما ينفعهم ويقبل منهم توبتهم، وفي الآية تحذير شديد من الغيبة وأنها من الكبائر لأن الله تعالى شبهها بأكل لحم الميت وهو محرم شرعًا.

الْوَحْدَةُ الإِنْسَانِيَّةُ

١٣- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ[٣] إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾

ولما أمر الله المؤمنين بأن يكونوا إخوة، وأن يُصلحوا بين الطوائف المتقاتلة، ونهاهم عما يفصم عُرى الأخوة: من السخرية، واللمز، والنبذ، وسوء الظن، والتجسس، والغيبة، ذكَّرهم بعد ذلك بأصل الأخوَّة في الإنسانية جميعًا، وهي أخوَّة الأنساب التي أكَّدتها أخوَّة الإسلام، ووحدة الاعتقاد.

فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ أي: خلقناكم من أب واحد هو آدم، وأم واحدة هي حواء، فأنتم أبناء رجل واحد وامرأة واحدة، بث الله منهما رجالًا

(١) «صحيح الأدب المفرد» (٥٦٣).

(٢) «صحيح سنن أبي داود» (٣٠٦٦) والحاكم (٢/ ٢٧) والطبراني (١٣٠٨٤) والسلسلة الصحيحة (٤٣٨) وغيرهم.

(٣) قرأ البزي بخلف عنه بتشديد التاء وصلًا من (لتعارفوا)، والباقون بالتخفيف.

كثيرًا ونساءً، وفرقهم، وجعلهم شعوبًا وقبائل لأجل أن يتعارفوا، فلو استقل كل منهم بنفسه لم يحصل هذا التعارف، ولا ما يترتب عليه من حقوق وواجبات، فلا وجه للتفاخر والتفاضل في النسب، وبهذا خطب النبي ﷺ في حجة الوداع فقال: «**يأيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى**»[1].

وقد جبر الله ما كان بين قبائل العرب بالإسلام، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣].

وقد وردت روايات في سبب **نزول هذه الآية**، منها:

١- أنها نزلت في ثابت بن قيس بن شماس لَمَّا قال للرجل الذي لم يُفسِح له في المجلس: أنت ابن فلانة؟ فقال النبي ﷺ: «**مَن الذاكر فلانة؟**» قال ثابت: أنا يا رسول الله، قال: «**انظر في وجوه القوم**»، فنظر، فقال: «**ما رأيت يا ثابت؟**» قال: رأيت أبيض وأحمر وأسود، قال: «**فإنك لا تفضلهم إلا بالدين والتقوى**»، فنزلت هذه الآية في ثابت، وقد سبق ذكره.

ونزل في الذي لم يُفْسِح له: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١١].

٢- وعن يزيد بن شجرة قال: مرَّ رسول الله ﷺ في سوق المدينة، فرأى غلامًا أسود يقول: من اشتراني فعلَى شرطين: لا يمنعني من الصلوات الخمس خلْف رسول الله ﷺ، فاشتراه بعضهم، فمرض، فعاده النبي ﷺ، ثم تُوُفِّيَ، فحضر دفْنه، فقالوا في ذلك شيئًا، فنزلت الآية[2].

---

(١) البيهقي (٥١٣٧) و«المسند» (٢٣٤٨٩) عن أبي نَضرة عمن سمع خطبة النبي ﷺ أيام التشريق، قال محققوه: إسناده صحيح، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٠٠) عن أبي نضرة عن جابر مختصرًا.

(٢) «تفسير النسفي»، وذكره الثعلبي.

٣- ولما كان يوم فتح مكة أمر رسول الله ﷺ بلالًا، فصعد على ظهر الكعبة فأذَّن، وأراد أن يُذلَّ المشركين بذلك، فلما أذَّن، قال عتّاب بن أُسيد: الحمد لله الذي قبض أَسِيدًا قبل اليوم.

وقال الحارث بن هشام: أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذِّنًا.

وقال سهيل بن عمرو: إن يكْره اللهُ شيئًا يُغيِّره.

وقال أبو سفيان: أما أنا فلا أقول شيئًا، فإني إن قلتُ شيئًا لَتَشْهدنَّ عليَّ السماء، ولَتُخبرنَّ عني الأرض، فنزلت هذه الآية[١].

وكل قبيلة تُعجَب بنفسها، وتُفضِّل قومها على غيرها، وترى نفسها أرفع نسبًا، وأعرق أصلًا من غيرها، وبعضها يحقِّر بعضًا، ويرى أنها أدنى نسبًا وحسبًا ومنزلةً، مثل قبائل: باهلة، وضُبيعة، وبني عُكل، والخضيري. . .، وهكذا أهلُ الحِرَف والأعمال.

٤- ومن ذلك ما ورد: أن النبيَّ ﷺ أمر بني بياضة أن يزوِّجوا امرأة منهم لأبي هند -وكان حجَّامًا للنبي ﷺ- فقالوا: يا رسول الله، نُزوج بناتنا موالينا -أي: عبيدنا، فأنزل الله الآية[٢].

وسئل أعرابي: تحب أن تدخل الجنة وأنت باهليٌّ، فأطرق حينًا، ثم قال: على شرط، ألَّا يعلم أهل الجنة أني باهليٌّ[٣].

ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ والشَّعوب -بفتح الشين- مجموعة القبائل التي ترجع إلى جدٍّ واحد، فالأمة العربية تنقسم إلى شعوب كثيرة مثل: مُضَر، وربيعة، وأنمار، وإياد، فكل منها يقال له: شعب، وتجمعها الأمة العربية المستعْربة، وهي عدنان من ولد إسماعيل ﷺ، وحميَر وسبأ، والأزْد وهي شعوب من أمة قحطان، والأوس والخزرج قبيلتان من شعب الأزد، وكنانة وقيس وتميم قبائل من شعب مُضَر، ومذْحج وكنْدة قبيلتان من شعب سبأ.

---

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (٢٢٤) عن مقاتل والواحدي وابن حجر في «تخريج الكشاف» ص ١٥٩ والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٧٩) وأخرجه ابن المنذر عن ابن جريج.

(٢) «تفسير القرطبي» (١٦/ ٣٤٠) وهو عند أبي داود في المراسيل ص ١٩٥، والبيهقي في «النكاح» (٧/ ١٣٦).

(٣) «التحرير والتنوير» (٤/ ٢٥٨).

والشعوب: جمع شعب، وهو الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب، وهي: الشعب، والقبيلة، والعَمارة -بفتح العين- والبطن، والفخذ، والفصيلة.

فالشعب يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمائر، والعمارة تجمع البطون، والبطن يجمع الأفخاذ، والفخذ يجمع الفصائل.

فخزيمة شعب، وكنانة قبيلة، وقريش عمارة، وقصي بطن، وهاشم فخذ، والعباس فصيلة.

وبعد الفصيلة العشائر، جمع عشيرة، وليس بعد العشيرة شيء.

ولم يُذكر في القرآن من هذه السبع إلا ثلاث، هي: الشعوب والقبائل في هذه الآية، والفصيلة ذُكِرت في قوله تعالى: ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ ۝١٣﴾[1] [المعارج].

والحكمة التي من أجلها جعل الله الناس شعوبًا وقبائل هي أن يعرف بعضهم نسب بعض، ويتعرف بعضهم على بعض، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ۚ﴾. ويترتب على هذا التعارف: التناصر والتعاون والتوارث والقيام بحقوق الأقارب، وحقوق الإنسانية.

وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«تعلَّموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثراة في المال، منسأة في الأثر»**[2].

وفي حديث أبي هريرة أيضًا أن النبيَّ ﷺ قال: **«اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في الأنساب، والنياحة على الميت»**[3].

ولما كان الناس يتنافسون في الأنساب، ويتفاخرون بالأحساب، ويتفاضلون فيما بينهم بالانتماء للقبائل، وهذا بسبب السخرية والهمز واللمز والتنابز، فقد بيَّن سبحانه أن ميزان التفاضل عند الله تعالى ليس بالحسب ولا بالنسب، ولا بالمال ولا بالجاه ولا بالسلطان، إنما هو بالتقوى فحسب ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ﴾ فأرفعكم منزلة عند الله تعالى،

---

(١) يُنظَر هذا عند تفسير الآية في كل من: «الكشاف»، «التحرير والتنوير»، «النسفي»، «الخازن»، «أضواء البيان».

(٢) «صحيح سنن الترمذي» (١٦١٢) والحاكم (٤/ ١٦١). وهو في مسند أحمد (٨٨٦٨) بإسناد حسن وأخرجه الطبراني في الأوسط (٨٣٠٤) وابن عدي في الكامل (٢/ ٤٤٥).

(٣) ابن أبي شيبة (٣/ ٣٨٩) و«المسند» (١٤/ ٤٨٢) (٨٩٠٥) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط البخاري ورجاله ثقات رجال الشيخين، غير ابن عباس فمن رجال البخاري، وأخرجه مسلم (٦٧).

وأعلاكم درجة أكثركم تقوى، وأكثركم طاعة لله، وتركًا للمعاصي، وليس أشرفهم حسبًا ولا نسبًا، فإن أردتم الفخر فتفاخروا بالتقوى وبالعمل الصالح، وخير الناس من طال عمره وحسن عمله، ومن سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله.

والله تعالى يعلم حقيقة أمركم، ومرتبتكم في تقواه ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بالمتقين، وعليم بظواهركم ﴿خَبِيرٌ﴾ بكل تقي، وخبير ببواطنكم وسرائركم، فاجعلوا التقوى زادكم إلى معادكم.

والمتقي هو من يجعل بينه وبين عذاب الله وقاية، بامتثال أمره واجتناب نهيه، فلا يفقدك الله حيث أمرك، ولا يراك حيث نهاك.

والتقوى: هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

عن أبي هريرة ﷺ قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أكرم؟ قال: «**أكرمهم عند الله أتقاهم**» قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «**فأكرم الناس: يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله**» قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «**فعن معادن العرب تسألوني؟**» قالوا: نعم، قال: «**فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فَقِهُوا**»[1].

وعنه ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[2].

وعن ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم فتح مكة، فقال: «**يا أيها الناس، إن الله قد أذهب عنكم عُبِيَّة الجاهلية وتعاظُمها بآبائها، فالناس رجلان: بَرٌّ تقيٌّ كريمٌ على الله، وفاجر شقيٌّ، هيِّنٌ على الله تعالى، والناس بنو آدم، وخلَق الله آدم من تراب**». قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم﴾ الآية ثم قال: «**أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم**»[3].

---

(١) يُنظَر: «صحيح البخاري» بأرقام: (٣٣٧٤، ٣٣٨٣، ٤٦٨٩) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٢٥٠).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٦٤) و«سنن ابن ماجه» (٤١٤٣).

(٣) «سنن الترمذي» برقم (٣٢٧٠) (٣٩٥٥) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٦٠٨) وأخرجه ابن أبي شيبة (١٤/ ٤٩٣) و«تخريج الكشاف» (٣/ ٣٥٠). وهو في المسند عن أبي هريرة (٨٧٣٦، ١٠٧٨١) بنحوه وإسناده حسن (محققوه) وأخرجه أبو داود (٥١١٦) وهو في السلسلة الصحيحة (٢٧٠٠)

الْإِيمَانُ وَالْإِسْلَامُ

١٤- ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم(١) مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

سبب النزول:

١- نزلت هذه السورة عام الوفود، في السنة التاسعة للهجرة، وكان من بين الوفود التي وفدتْ على رسول الله ﷺ وفدُ بني أَسَد بن خزيمة، وكان قدُومهم بعد أيام قليلة من قدوم وفد بني تميم، الذين جاء ذكرهم في أول السورة، فنزلوا قُرْب المدينة في عدد كثير، ومعهم ضِرار بن الأزْور، وطُليحة بن عبد الله، الذي ادَّعى النبوة أيام الردة بعد وفاة النبي ﷺ.

وكانت هذه السَّنَة، سنة جدب في بلادهم، فأسلموا وجاؤوا يطلبون الصدقة، ويقولون للنبي ﷺ: أتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها، وجئناك بالأثقال والعيال والذراري، ولم نقاتلك كما قاتلك هوازن وغطفان وغيرهما، ويُردِّدون هذه المقالة مُمْتنِّين على النبي ﷺ بإيمانهم، وهم يريدون منه الصدقة، فأنزل الله هذه الآيات إلى نهاية السورة(٢).

قال مجاهد: نزلت هذه الآيات في بني أسد، وهي قبيلة كانت تسكن بجوار المدينة، أظهروا الإسلام وقلوبهم دغلة، إنما يحبون المغانم وعرض الدنيا. ويُرْوَى أنهم قدموا المدينة في سنة مجدبة، فأظهروا الشهادتين، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ: جئناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلْك كما قاتلك بنو فلان، يمنُّون بذلك على النبي ﷺ(٣).

قال قتادة عن هذه الآيات: نزلت في قوم امتنُّوا بإيمانهم على رسول الله ﷺ.

٢- وقال السُّدِّي: نزلت هذه الآية في الأعراب الذين جاء ذكرهم في سورة الفتح في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ [آية: ١١] فهم قد

---

(١) قرأ أبو عمرو ويعقوب بهمزة ساكنة بعد الياء في (يألتكم) وهي لغة غطفان، وأبدل أبو عمرو الهمزة حرف مد بخلف عنه، وقرأ الباقون بدون همز وهي لغة أهل الحجاز.

(٢) يُنظَر: هذا المعنى عن عبد الله بن أوفى عند الطبراني في «الأوسط» (٨٠١٦) وعن سعيد بن جبير في الطبري (٢١/٣٤٧) وعن الحسن عند ابن أبي حاتم.

(٣) «تفسير الألوسي» (٢٦/١٧٦).

شُغِلوا بأموالهم وأهليهم وقت الخروج للحديبية، وجاءوا ليمتنوا بهما على النبي ﷺ عام الوفود.

وهذه الآية لا تعُمُّ جميع الأعراب، فإن منهم من قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [التوبة: ٩٩].

وإنما نزلت هذه الآية في حيٍّ من العرب منُّوا بإسلامهم على رسول الله ﷺ، وقالوا: أسلمنا، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان[١].

وأول هذه الآيات قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ **والأعراب**: هم سكان البادية من العرب، وهم هنا بنو أسد، قدموا على النبي ﷺ وقالوا له: آمنا بالله ورسوله إيمانًا كاملًا، وصدَّقنا بقلوبنا كل ما جئت به، وامتثلنا لما تأمرنا به وتنهانا عنه، فزعموا أنهم ممن قال تعالى فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [التوبة:٩٩].

ولَمَّا كان بنو أسد حديثي عهد بالإيمان، ولم يتمكن الإيمان من قلوبهم، فإن الله تعالى أعلمهم على لسان رسوله ﷺ أن الإيمان هو التصديق الجازم بالقلب، وليس مجرد القول باللسان.

﴿قُل﴾ لهم - أيها الرسول - لا تدَّعوا لأنفسكم الإيمان الكامل المستوفي لجميع أركانه، فأنتم ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا﴾ إيمانًا راسخًا تامًّا، ولم تُصدقوا تصديقًا صحيحًا ناشئًا عن اعتقاد قلب وإخلاص نية، ولم يُترجم ذلك إلى عمل بالجوارح والأركان، ومواطأة القلب واللسان، وهذا معنى ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ أي: أظهرنا الإسلام الذي يعصم الإنسان ويحقن دمه وماله، فقد نطقنا بكلمة الإسلام، واستسلمنا لما تدعونا إليه لسبب من الأسباب الدنيوية، واقتصَرُوا على ذلك، والسبب في ذلك أن الإيمان لم يدخل في قلوبكم، وإنما آمنتم خوفًا ورجاءً، وفي هذا تعليمهم **الفرق بين الإسلام والإيمان**:

فإن الإسلام بمعناه العام يعمُّ الإيمان والعمل به، ويكون الإسلام أيضًا باللسان والإتيان بأركانه: الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، كما في قول النبي ﷺ ردًّا على سؤال جبريل ﷺ: **«الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم**

---

(١) قال بهذا قتادة كما في «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٩١).

الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا»[(١)].

وهذا الإسلام بمعناه العام هو المقصود في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] فهو الذي عناه النبي ﷺ في قوله: **«بُني الإسلام على خمس...»**.

وهو الذي علَّمه جبريل للنبي ﷺ حين سأله عن الإسلام؟ فقال: **«أن تعبد الله وحده ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان...»**[(٢)].

وهو الذي قاله النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص عن الرجل الذي أعطى النبيُّ ﷺ الرهط من الناس وتركه، فقال سعد: إني لأراه مؤمنًا، فقال ﷺ: **«أوْ مسلمًا؟ إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليَّ منه»**[(٣)].

وقد يكون الإسلام والإيمان بمعنى واحد إذا جاءا في سياق واحد، فيكون كلٌّ منهما بمعنى الآخر كما في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات]

وقد يختلفان في المعنى، كما في هذه الآية ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ فبينهما عموم وخصوص.

وهؤلاء الأعراب جاؤوا مُظْهِرين للإسلام، وقلوبهم غير مطمئنة بالإيمان؛ لأنهم حديثو عهد به، فبيَّن الله تعالى أن باطنهم لا يخفى عليه سبحانه، وأنه لا يُعتدُّ بالإسلام إلا إذا كان مقترنًا بالإيمان، فلا يُغْني أحدهما عن الآخر.

والإتيان بأركان الإسلام دون التصديق بالقلب، والإخلاص في العمل، لا يكون إيمانًا، وهذا معنى ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: أن الإيمان الراسخ الكامل بانعقاد القلب عليه لم يتم بعدُ في قلوبكم.

وقد أفادت هذه الآية تكذيب دعواهم، وردَّ ما وصفوا به أنفسهم، ونَفْي الإيمان الكامل

---

(١) من حديث عمر في «صحيح مسلم» (٨) وعن أبي هريرة (٩) وفي البخاري (٥٠، ٤٧٧٧).

(٢) من حديث ابن عمر في البخاري (٨) ومسلم (١٦) والترمذي (٢٦٠٩) والنسائي (٥٠١٦) والبيهقي في «السنن» (١/ ٣٥٨) و«الشعب» (٢٠، ٣٥٦٧).

(٣) يُنظَر: «تفسير ابن عطية» (٥/ ١٥٣) والحديث هو الآتي ذكره.

عنهم، ولذلك فقد أرشدتهم الآيات إلى ما يكمِّل إيمانهم:

عن سعد بن أبي وقاص ﷺ، قال: أَعْطَى رسول الله ﷺ رهطًا وأنا جالس، فترك رجلًا منهم هو أعجبهم إليَّ، فقلتُ: ما لك عن فلان؟ والله إني لأراه مؤمنًا، فقال رسول الله ﷺ: **«أوْ مُسْلمًا»**؟ قال ذلك سعد ثلاثًا، وأجابه النبي ﷺ بمثل ذلك، ثم قال: **«إني لأعطي الرجل -وغيرُه أحبُّ إليَّ منه- خشية أن يكبَّه الله في النار على وجهه»**[1].

قال الحميدي: اعلم أن الإسلام هو الدخول في السَّلم، وهو الانقياد والطاعة، فمن الإسلام ما هو طاعة على الحقيقة باللسان والأبدان والجنان، لقوله تعالى لإبراهيم ﷺ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة: ١٣١].

ومنه ما هو انقياد باللسان دون القلب، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ و ﴿لَمَّا﴾ لفظ يفيد التوقع، كأنه يقول: وسيحصل لكم الإيمان فيما بعد عند معرفتكم لمحاسن الإسلام، وتذوُّق حلاوة الإيمان.

وقيل: الإيمان هو التصديق بالقلب، مع الثقة وطمأنينة النفس عليه، والإسلام هو الدخول في السلم.

وقد فرَّقت الآية بين المسلم والمؤمن، فدلَّ هذا على أن الإيمان أخص من الإسلام، وأن الأعراب المذكورين في الآية ليسوا منافقين، وإنما هم مؤمنون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادَّعوْا لأنفسهم مقامًا أعلى، فأُدِّبُوا على ذلك، والإيمان المنفي عنهم في الآية هو الإيمان الكامل، فهم مسلمون، ولكن إيمانهم غير تام؛ لأن الإيمان يزيد وينقص.

ثم أرشدهم الله تعالى إلى دواء ضَعْف الإيمان في قلوبهم، فقال: ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فإن طاعة الله ورسوله تجمع الإسلام والإيمان الكامل، وعندئذ ﴿لَا يَلِتْكُم﴾ أي: لا ينقصكم ﴿مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ أي: أنكم إن أخلصتم الإيمان كما أمركم الله ورسوله، تقبَّل الله منكم أعمالكم، حيث جئتم طائعين للإسلام من غير قتال.

---

(١) يُنظَر هذا المعنى في: «صحيح البخاري» برقم (٢٧، ١٤٧٨) و«صحيح مسلم» برقم (١٥٠) و«المسند» (١/ ١٧٦) برقم (١٥٢٢) وابن أبي شيبة (١١/ ٣١) وأبو داود (٤٦٨٣، ٤٦٨٥) والنسائي (٥٠٠٧) والطبري (٢١/ ٣٨٩).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن تاب من ذنوبه، فيمحوها ويبدلها حسنات ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم لا يعاجلهم بالعقوبة، بل يعفو ويصفح، ويدعو إلى التوبة ويُرغب فيها.

وفي الآية زجر لمن يُظهر الإيمان واتباع السُّنَّة، وأعماله تشهد بخلاف ذلك.

صِفَاتُ الْمُؤْمِنِ الْكَامِلِ

١٥- ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه صفات المؤمن الكامل، وهو الذي توافرت فيه **ثلاثة شروط، هي**:

١- التصديق والاعتقاد الجازم بالله ورسوله.

٢- عدم الشك والارتياب في شيء من أركان الإيمان.

٣- الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله.

فمَنْ جَمَع هذه الأوصاف الثلاثة فهو المؤمن الصادق.

وهؤلاء الأعراب لَمَّا لم تجتمع فيهم هذه الصفات الثلاث انتفى عنهم الإيمان الكامل ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الذين صدَّقوا وأيقنوا بالله وبرسوله، وعملوا بشرعه، فأقروا بوحدانية الله تعالى، وآمنوا بالرسول الخاتم إيمانًا كاملًا راسخًا قويًّا ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ أي: لم يَشُكُّوا ولم يتزلزلوا في إيمانهم، بل ثبتوا على التصديق واليقين، واستمروا عليه إلى نهاية آجالهم ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: بذلوا نفائس أموالهم وأرواحهم في الجهاد في سبيل الله وطاعته ورضوانه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المتصفون بهذه الصفات الثلاث ﴿هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ في إيمانهم، فلم يقولوا آمنا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، بل كان إيمانهم حقًّا وصدقًا، فإن الجمع بين الإيمان بالله وجهاد الكفار في سبيل الله يدل على إيمان القلب، لأن من جاهد الكافر، فجهاده لنفسه أقوى.

وشرط هذا الإيمان: عدم الريب والشك، لأن الإيمان النافع لا يكون إلا بالجزم اليقيني الذي لا يعتريه شك بوجه من الوجوه فهؤلاء هم الصادقون في إيمانهم.

وقد جاء وصف المؤمنين بصفات أخرى عديدة في كتاب الله ﷻ، منها ما جاء في أول سورة

الأنفال، وأول سورة المؤمنون، وما جاء في آخر سورة النور، وفي سورة المعارج، وغير ذلك.

المِنَّةُ للهِ وَحْدَهُ

١٦- ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾

ذكرت هذه الآية حالة من حالات من ادّعى لنفسه الإيمان، وليس كذلك، وقصْدهم بهذا المنّة على رسول الله ﷺ فأعلمهم الله تعالى بأنه لا ينبغي لهم أن يمتنوا على رسول الله بإيمانهم، فإن المنة لله الذي خلقهم ورزقهم وأنعم علهيم بالهداية إلى الإسلام.

هذا: ولما نزلت الآيتان السابقتان، أتت الأعراب من بني أسد إلى النبي ﷺ يُخْبرونه أنهم مؤمنون صادقون في إيمانهم، ولكن الله تعالى يعلم منهم غير ذلك، ولذا قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ يارسولنا لهؤلاء الأعراب ﴿أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أتُخبِّرون الله تعالى بصدق إيمانكم وما تخفيه ضمائركم، وما أنتم عليه من حال؟! فقد نفى سبحانه عنهم رسوخ الإيمان ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم ما في قلوبكم من الإيمان والكفر والنفاق، ومن البر والفجور والآثام، والله تعالى يعلم كل ذلك ويجازيكم عليه إن خيرًا فخير، وإن شرا فشر، قال تعالى:

١٧- ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

امتنَّ بنو أسد على النبي ﷺ حين قدموا عليه بِمِنَّتَيْن:

الأولى: أنهم قالوا: أسلمنا، وقاتلتْك العرب ولم نقاتلكْ.

والأخرى: أنهم قالوا: جئناك بالأثقال والعيال، والعرب كانوا يأتونك بأنفسهم، فقال النبي ﷺ فيما يرويه ابن عباس ﷺ: «**إن فقْههم قليل، وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم**» فنزل قول الله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾[1].

---

(١) يُنظَر ما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس مرفوعًا من طريق يحيى بن سعيد الأموي في «السنن الكبرى» للنسائي برقم (١١٥١٩) وفي ط الرسالة برقم (١١٤٥٥) وفي «التحفة» (٥٥٧٦). ورواه الطبراني في المعجم الأوسط (٧٢٥٦) وانظر الأحاديث المختارة (٣٧٣) ج١٠ ص٣٤٥) قال: تفرد به يحيى بن سعيد الأموي.

أخرج ابن سعد عن محمد بن كعب القرظي قال: قدم عشرة رهط من بني أسد على رسول الله ﷺ في أول سنة تسع، وفيهم حضْرميُّ بنُ عامر، وضِرارُ بنُ الأزْوَر، ووابصةُ بن معْبَد، وقتادةُ بنُ القاتِف، وسلَمةُ بنُ حُبيْس، ونُقادةُ بنُ عبد الله بنِ خلف، وطلحةُ بنُ خُويْلد، ورسول الله ﷺ في المسجد مع أصحابه، فسلَّموا، وقال مُتكلِّمهُم: يا رسول الله، إنا شهدنا أن الله وحده لا شريك له، وأنك عبده ورسوله، وجئناك يا رسول الله، ولم تبعثْ إلينا بعْثًا، ونحن لمن وراءنا سِلْم، فأنزل الله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟﴾[1].

والمنُّ: هو تعداد النعم على الآخرين، وهو خُلُق مذموم من الناس، محمود من الله تعالى، فهو سبحانه الخالق المنعم بجميع النعم على خلقه على وجه الحقيقة، وهؤلاء الأعراب جاؤوا إلى النبي ﷺ يمتنُّون عليه بأنهم جاؤوا بعيالهم وأموالهم، وأنهم لم يقاتلوه كغيرهم، وأنهم أسلموا طوْعًا.

فهم يَعُدُّون إسلامهم منَّة يمتنُّون عليك بها حين قالوا: أسلمنا ولم نحاربك، واعتقدوا أنهم بهذا يستحقون الحمد والثناء ﴿قُل﴾ لهم - يا رسولنا - ﴿لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم﴾ فإنَّ نفْع إسلامكم يعود عليكم، وإنما المنة لله وحده، أن وفقكم وهداكم للإيمان به وبرسوله ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ في إيمانكم، وهذا كقول النبي ﷺ للأنصار يوم حنين: «**يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضُلَّالًا فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألَّفكم الله بي؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بي؟**» كلما قال شيئًا، قالوا: الله ورسوله أمنُّ[2].

فليس الأمر كما زعم هؤلاء الأعراب مِنْ أنَّ إسلامهم يعتبر مِنَّةً عليك يا محمد، بل الحق أن الله تعالى هو الذي يمنُّ عليهم أن أرشدهم إلى الإيمان وهداهم إليه، وبيَّن لهم طريقه، وقد ادَّعيتم الإيمان، والحق أنكم مسلمون فحسب، فالله تعالى هو الذي يَمُدُّ العبد بتوفيقه، ويهديه إلى الإيمان ويأخذ بيده إليه، فهو صاحب الفضل والحمد والمنة.

---

(١) «طبقات ابن سعد» (١/ ٢٩٢).

(٢) من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم في البخاري برقم (٤٣٣٠).

خِتَامُ السُّورَةِ بِبَيَانِ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى الشَّامِلِ الْمُحِيطِ

١٨- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ[١] ﴿١٨﴾﴾

ثم ختم الله تعالى السورة ببيان إحاطة علمه وشموله بكل ما خفي وغاب عن عقول الناس، وأنه جلَّ شأنه ليس بحاجة إلى أن نخبره بشيء من أحوالنا، فهو سبحانه يعلم كل ما غاب عن أعين الخلق من الذرَّة فما فوقها، في العالم العلوي والعالم السفلي، يعلم سركم وعلانيتكم، ويعلم ما يُسره الإنسان في قلبه، وما يُسرُّ به إلى غيره، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، يعلم ما في البحار والقفار، يعلم قطرات الأمطار، وحبّات الرمال، وخبايا الأمور، ومكنونات الصدور.

قال تعالى في وصية لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان: ١٦].

وقال سبحانه ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ﴾ [الأنبياء: ٤٧]

وقال جل شأنه: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام]

وختم الله الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ في الظاهر والباطن، يحصيه عليكم ويوفيكم إياه، وسيجازيكم عليه إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشرٌّ.

تم تفسير سورة (**الحجرات**) ولله الحمد والمنة.



---

(١) قرأ ابن كثير بياء الغيب في (تعملون) لمناسبة (يمنون)، والباقون بتاء الخطاب لمناسبة (عليكم).

تَفْسِيرُ سُورَةِ ق (٥٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (ق) هي السورة الخمسون في ترتيب المصحف، والرابعة والثلاثون في ترتيب النزول.

عن جابر بن زيد: أنها نزلت بعد سورة المرسلات وقبل سورة البلد.

ومعظم السوَر التي نزلت قبلها كانت من قصار السور في الجزء الثلاثين.

وسورة (ق) خمس وأربعون آية باتفاق، وثلاث مئة وسبع وخمسون كلمة.

وألف وأربع مئة وأربعة وتسعون حرفًا.

وهي من السور التي سُمِّيت بأسماء الحروف التي في أولها لانفرادها بها، فلا تلتبس بغيرها، مثل: **طه، يس، ص، ن**، وتسمى سورة **الباسقات** لذكر هذا اللفظ فيها.

وهي سورة مكية كلها، واستثنى بعضهم[1] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ فقالوا: إنها مدنية، نزلت ردًّا على اليهود في قولهم: إن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام، واستراح يوم السبت.

قلت: ولا يلزم أن يكون هذا قد حدث بعد الهجرة؛ لأن أهل مكة كانوا يسألون اليهود في المدينة بعد البعثة عن أمر النبوة والأنبياء عن طريق المسافرين إليها منهم، وهذه الآية من هذا القبيل، ولها نظائر نزلت بمكة مما يتعلق باليهود، فقد كانت بين أهل مكة ويهود المدينة اتصالات وتجارات ومقابلات.

وقد يُعلِمُ الله نبيه ﷺ عن طريق الوحي ما كان يتحدث به أهل مكة قبل الإسلام، وما يتلَقَّوْنَه من القصص والأخبار عن يهود المدينة...

وقد ورد في (سورة ق) **جملة من الأحاديث**، من ذلك:

١- أن عمر بن الخطاب ﷺ سأل أبا واقد الليثي ﷺ: ما كان رسول الله ﷺ يقرأ في

---

(١) كما في القرطبي و«الإتقان» عن ابن عباس والضحاك وقتادة.

العيد؟ قال: بـ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ①﴾، واقتربت[١].

٢- وعن أم هشام بنت حارثة بن النعمان ﷺ قالت: لقد كان تنُّورُنا وتنُّور النبي ﷺ واحدًا سنتين، أو سنة وبعض سنة، وما أخذتُ ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ①﴾ إلا على لسان رسول الله ﷺ، كان يقرؤها كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس[٢].

٣- وروى مسلم وغيره، عن جابر بن سمُرة ﷺ: أن النبي ﷺ كان يقرأ في الفجر ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ①﴾[٣].

٤- وقالت خوْلة بنت قيس الجُهَنيَّة: كنت أسمع خطبة رسول الله ﷺ يوم الجمعة، وأنا في مؤخرة النساء، وأسمع قراءته ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ①﴾ على المنبر، وأنا في مؤخرة المسجد[٤].

لقد انتقشت كلمات سورة (ق) في أذهان من سمعوها من فم النبي ﷺ وهو يخطب بها يوم الجمعة، وثبتت في أذهانهم بالتكرار، ثم تحولت إلى خُلُق وعبادة ومنهج حياة.

فقد كان ﷺ يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار -كالعيد والجمع- لاشتمالها على بدء الخلق وإعادته، والحساب والجزاء، والجنة والنار، والترغيب والترهيب.

والمحور الذي تدور حوله السورة هو البعث والنشور، وهي تسوق في أولها جملة من الآيات الكونية الدالة على وحدانيته تعالى، بعد أن تُقرر تعجُّب المكذبين المنكرين لرسالة محمد ﷺ، وهذه الأسس الثلاثة: التوحيد، والرسالة، والبعث، هي منهج السور المكية وخصائصها.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٨٩١) و«المسند» (٥/ ٢١٧) (٢١٨٩٦، ٢١٩١١) حديث صحيح، وأبو داود برقم (١١٥٤) والترمذي برقم (٥٣٤، ٥٣٥) والنسائي (٣/ ١٨٣) (١٥٦٦) وابن ماجه برقم (١٢٨٢) والنسائي في «الكبرى» (١١٥٥٠، ١١٥٥١).

(٢) «المسند» (٦/ ٤٣٥) (٢٧٤٥٦، ٢٧٦٢٨) حديث صحيح، و«صحيح مسلم» برقم (٨٧٣) وأبو داود برقم (١١٠٠) والنسائي: (٢/ ١٥٧) برقم (١٤١٠) وفي «الكبرى» (١٧٢٠) وابن أبي شيبة (٢/ ١١٥) والبيهقي (٣/ ٢١١).

(٣) «صحيح مسلم» (٤٥٨) وابن أبي شيبة (١/ ٣٥٣) ومن حديث قطبة بن مالك في مسلم (٤٥٧) وابن ماجه (٨١٦).

(٤) أخرجه ابن سعد (٨/ ٢٩٦).

أغراض السورة: تبدأ السورة بالقَسَم على أن القرآن حق، وبالتالي فإن الرسالة حق، ثم تذكر تعجُّب الكفار من أمرين:

الأول: أن يكون الرسول بشرًا منهم.

الثاني: العودة إلى الحياة بعد الموت.

بالإضافة إلى دلائل وحدانية الله تعالى في الكون، وهذه الوحدانية هي الأمر الثالث الذي يتعجب منه الكفار الملحدون، وإليك بيانها في السورة:

أوَّلًا- فيما يتعلق بإنكار الرسالة الخاتمة، وإنكار أن يكون الرسول واحدًا من البشر، فقد بدأت السورة بتعجب الكفار من أن يرسل الله إليهم واحدًا منهم، وتذكُر السورة بأحوال الأمم التي كذَّبت رسلها وما حلَّ بها من وعيد، مثل قوم نوح، وأصحاب الرسِّ، وثمود، وعاد، وفرعون، وإخوان لوط، وأصحاب الأيكة، وقوم تبع:

﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ الآية [١٤].

وكم أهلك الله من الأمم التي كذبت رسلها قبل محمد ﷺ، وكانوا أقوى منهم وأشد بطشًا، ورغم ذلك لم يكن لهم مفرٌّ من عقاب الله لهم. الآية [٣٦].

ومن ثَمَّ يأمر الله تعالى رسوله ﷺ بالصبر على تكذيبهم، وأن يستعين على ذلك بالصلاة قبل طلوع الشمس وقبل الغروب، وفي جوف الليل البهيم، ويُكْثِر من التسبيح في أدبار السجود، وذلك في الآيتين التاسعة والثلاثين والأربعين.

ثانيًا- وفيما يتعلق بالبعث والنشور، فإن لهذه السورة طابعًا خاصًّا، يهزُّ القلب هزًّا، ويرجُّ النفس رجًّا، ويُثير روْعة الإعجاب، ورعْشة الخوف، فهي شديدة الوقع على الحسِّ، مع البرهان الناصع، والحجة الدامغة على إحياء الموتى، ومن ذلك:

(أ) قياس إعادة الخلق بعد الموت على خلق السموات والأرض، وهما أكبر من خلق الإنسان، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ الآية[٣٨].

(ب) وقياس إعادة الناس بعد موتهم على إحياء الأرض بالنبات والزرع بعد موتها قال تعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ الآية [١١].

(ج) وقياس الإعادة على البدء كما في قوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ الآية [١٥].

وجاء الحديث عن البعث والنشور في السورة عند الحديث عن النفخ في الصور، وحضور الإنسان بعد بعثه مع سائق يسوقه، وشاهد يشهد عليه يوم القيامة.

وعند تفصيل مشاهد القيامة تظهر الخصومة بين القرين وقرينه، فيقول القرين:

﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ الآية [٢٧].

ثم تأتي صفات أهل الجنة وجزاؤهم، وصفات أهل النار وجزاؤهم، فجهنم تقول لأهلها: هل من مزيد؟ والجنة تُقرَّب لأهلها غير بعيد، بالإضافة إلى ذِكْر سكرات الموت والحساب، وما يلقاه المجرم في هذا اليوم العصيب.

إن الموت عند كثير من الناس هو نهاية الوجود، ولذا: فليس للآخرة حساب في حياتهم، وستنتهي الدنيا حتمًا، وتقع المفاجأة التي لم يُحسب لها حساب:

﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ .

وسوف يحصد الناس ثمرة ما قدَّموا، فيأتي الكافر ومعه الملَك الذي أحصى عليه أعماله ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾.

وهنا يقول قرينه من الشياطين الذي كان يُغويه ويضله في الدنيا: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ لقد كان قريني فاسدًا ضالًا قبل أن أقوم بوظيفة الإغواء وتزيين الشرِّ له.

ومع أن الدنيا دار ابتلاء إلا أن الله تعالى قد يُعجِّل فيها بعض العقوبات للمجرمين؛ كي يرتدع الطغاة، ويثوبوا إلى رشدهم ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ الآية [٣٦].

وعن أمثال هؤلاء الطغاة يقول تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [التوبة].

ثالثًا- وعن دلائل التوحيد، تُلفِت السورة أنظار الملحدين إلى عظيم قدرة الله تعالى في الكون المنظور: من السماء والأرض، والماء والنبات، والثمر والطلع، والنخيل والزرع، وكلها براهين ناطقة بوحدانية الخالق سبحانه ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [الآيات: ٦-٨].

يقول الشيخ محمد الغزالي ﷺ: وقد تدبرتُ هذه الأدلة، وأنا أرقُب الطعام الذي أتناوله، إن بعضًا منه يتحول إلى طاقة ترفع حرارة الجسم، كيف؟ لا أدري! وبعضٌ آخر يتحول إلى خلايا تسْري فيها الحياة، ويتكون منها العظم واللحم، وتزْدحم فيها خصائص الأجداد والأحفاد، كيف؟ لا أدري!!

ويصف علماء الحياة، الخلية بأنها: كائن يشبه مدينة بها ميادين، وبها حارات، وبها أسلاك كهرباء، ومواسير مياه!! مع أن الخلية لا تُرى بالبصر المجرد.

والجزء الباقي من الطعام يعود (بالصرف الصحي) إلى الأرض ليخرُج منها مرة أخرى كيزان ذرة، أو سنابل قمح، أو شماريخ بلح، يأكلها الإنسان، ويجدد القصة التي شرحناها آنفًا! ففي كل جسدٍ موت ونشور، يتكرران في كل ساعة من ليل أو نهار، فهل أستغرب إذا قال الله: ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١﴾ لتُبعثُن؟! لماذا تكون إعادة الخلق عجيبة؟ أليس هو الخالق الأول؟ إن في كل لحظة بعثًا، ولكن الكافر بليد ذاهل[1].

وخُتمت السورة بالحديث عن صيحة الحق التي يخرج الناس بها من القبور كأنهم جراد منتشر، ثم يُساقون للحساب والجزاء، لا يخفى على الله منهم أحد.

هذا: والموضوع الذي تتناوله سورة (ق) هو ترسيخ الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من بعث وحشر ونشر وحساب وجنة ونار في نفوس الناس.

ويمكن تقسيم السورة إلى **خمسة مقاطع**:

المقطع الأول: يتحدث عن المكذبين بالبعث والنشور والرد عليهم، وذلك في الآيات الخمس الأول.

المقطع الثاني: يَذكُر بعض الأدلة الكونية على إمكانية البعث، منها: السماء والأرض والجبال والنبات والنخيل، وذلك في الآيات من ٦-١١.

المقطع الثالث: ذِكْرُ مصير الأقوام الذين كفروا بالله ورسوله، ولم يؤمنوا بالبعث والجزاء، كقوم نوح، وأصحاب البئر، وقوم عاد وثمود،وقوم لوط، وأصحاب الأيكة

---

(١) «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم» ص ٤٠٧ بتصرف.

وقوم تبع، وجاء هذا في آيات ثلاث من الآية ١٢ -١٤.

المقطع الرابع: يتحدث عن أهوال يوم القيامة بدءًا بالخلق الجديد، وقُرْب الله تعالى إلى العبد من حبل وريده، وتسجيل الحفظة لأقوال الإنسان وأفعاله، ومن ثَم إلى سكرات الموت، وحدوث علامات الساعة الكبرى، وإتيان الملائكة بالعبد إلى ساحة المحشر، وهو بين السائق والشهيد، وشهادة القرين عليه، ثم إلى المصير المحتوم، الجنة أو النار، نسأل الله السلامة.

وفي **المقطع الخامس** والأخير: وهو من الآية (٢٦-٤٥) تذكرةً وعبرةً لأهل القرون الغابرة واللاحقة، وتسليةً للنبي ﷺ، وختامًا للسورة بما بدأتْ به من الحديث عن يوم القيامة، وبيان مهمة النبي ﷺ أنه مذكرٌ بهذا القرآن من خاف وعيد الله تعالى، وليس بمجْبِرٍ لأحد على الهداية، وهذا ختام السورة.

حزب المفصَّل من القرآن الكريم:

وسورة (ق) هي أول حزب المفصل في القرآن الكريم على الصحيح:

عن عمر بن الخطاب أن النبي ﷺ قال: **«من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر، كتب له كأنما قرأه من الليل»**[1].

والمراد بالحزب: المقدار الذي يقرأه كل ليلة قليلًا أو كثيرًا.

وعن واثلة بن الأسقع ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة، وأعطاني المِئين مكان الإنجيل، وأعطاني مكان الزبور المثاني، وفضَّلني ربي بالمفصَّل»**[2].

والمئون: هي ما وَلِيَ الطوال؛ وسميت كذلك لأن كل سورة منها تزيد على مئة آية.

والمثاني: ما وَلي المئين، وهي دون المئة آية.

---

(١) صحيح مسلم (٧٤٧) وصحح ابن حبان (٢٦٤٣) وصحيح ابن خزيمة (١١٧١) وأبوداود (١٣١٣) وابن ماجه (١٣٤٣) والترمذي (٥٨١) والنسائي في الكبرى (١٤٦٤).

(٢) «المسند» (٤/١٠٧) (١٦٩٨٢) قال محققوه: إسناده حسن، والطبري (١/ ١٠٠) (١٨٧) عن واثلة بن الأسقع و«مجمع الزوائد» (٧/١٥٨) والطبراني (١٨٧) والبيهقي (٢٤٨٤، ٢٤٨٥) و«صحيح الجامع الصغير» (١٠٧٠) وجاء في الحديث عن ثوبان وأبي أمامة وأبي قلابة.

والمفصَّل: ما ولي المثاني، وسُمِّي مفصَّلًا لِقِصَر سوره، وكثرة الفصْل بين كل سورتين بالبسملة.

وفي حديث أوس بن حذيفة ﷺ: أن النبي ﷺ كان يأتي على وفد ثقيف -عام الوفود- كل ليلة بعد العشاء يحدثهم، فأبطأ ليلة عن الوقت الذي كان يأتي فيه، فقالوا للنبي ﷺ: لقد أبطأت عنا الليلة؟ قال: **«لأنه طرأ عليَّ حزبي من القرآن، فكرهتُ أن أجيء حتى أُتِمَّه»**.

قال أوْس: سألت أصحاب رسول الله ﷺ: كيف تُحزِّبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصَّل[1].

فهذه سبعة أقسام لسور القرآن الكريم في حديث (أوس)، وفي حديث (واثلة) قبله أربعة أقسام، وكلاهما تقسيم نبوي لسور القرآن الكريم، وهما من حالات المدة التي يستحب فيها ختم القرآن الكريم.

فتقسيم سور القرآن كما في الحديث الأول هكذا:

١- **السبع الطوال**: من البقرة إلى آخر الأعراف، والأنفال مع التوبة.

٢- **المئون**: من يونس إلى الأنبياء، وهي ما فوق المئة آية غالبًا.

٣- **المثاني**: من الحج إلى الحجرات. ٤- **المفصَّل**: من (ق) إلى الناس.

وهذا لمن ختم القرآن في أربع ليال.

أما التقسيم على الحديث الثاني فهو كالآتي:

١- **ثلاث**: البقرة وآل عمران والنساء. ٢- **خمس**: من المائدة إلى براءة.

٣- **سبع**: من يونس إلى النحل. ٤- **تسع**: من الإسراء إلى الفرقان.

٥- **إحدى عشرة**: من الشعراء إلى يس.

٦- **ثلاث عشرة سورة**: من الصافات إلى الحجرات.

---

(١) أبو داود برقم (١٣٩٣) وابن ماجه برقم (١٣٤٥) و«المسند» (٤/ ٩) برقم (١٦١٦٦) عن أوس بن حذيفة بسند ضعيف كما قال محققوه، وابن أبي شيبة (٢/ ٥٠١) والطيالسي (١١٠٨) والبخاري في التاريخ الكبير (١٥٣٩)، وضعَّفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» (٢٩٧).

٧- **المفصَّل**: وهو **ثلاثة أقسام**:

(أ) من قاف إلى النبأ. **(ب)** ومن النازعات إلى الليل. **(جـ)** ومن الضحى إلى الناس.

وتقسيم القرآن إلى سور على النحو المذكور، تقسيم نبوي توقيفي.

وقد وردت أحاديث تشير إلى استحباب ختم القرآن في شهر.

كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أن النبي ﷺ قال له: «... **اقرأ القرآن في كل شهر**»[١].

وقد تم تقسيم القرآن إلى أجزاء وأحزاب وأرباع في زمن التابعين حيث قام به **نصر بن عاصم** بأمر الحجاج بن يوسف، ولكنه تقسيم حرفي لا يراعي المعنى.

ولنا عليه بعض الملحوظات بما يتم ربط المعنى من حيث القطع والبدء[٢].



(١) «التجريد الصريح» ص ١٣٦ ومسلم بشرح النووي (٨/ ٤٢) وأحمد كما في «صحيح الجامع» (١١٦٨).

(٢) يُنظَر هذا المبحث في الجزء الأول من كتابي «فن الترتيل وعلومه» ويُنظَر تقسيم كامل للقرآن كله بالجزء والحزب والربع وفق المعنى في كتابي «تيسير علم التجويد». الطبعة الثالثة.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

افْتِتَاحُ السُّورَةِ

١ - ﴿قٓ[(١)] وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١﴾

﴿قٓ﴾ حرف من حروف الهجاء، سُمِّيت به السورة، وكُتِب في المصحف حرفًا واحدًا ﴿قٓ﴾ ويُنطق به ثلاثة حروف، هكذا (قاف)، والله أعلم بمراده منه ومن أمثاله في القرآن.

ويمكن أن تكون هذه الحروف للدلالة على إعجاز القرآن، فإن كان المكذِّبون به في شك منه فليأتوا بمثله، أو بمثل عشر سور منه، أو بمثل أقصر سورة منه.

وإذا سمع المكذِّبون للقرآن هذا النوع الغريب عليهم من الكلام، جعلَهم يصْغُون له ويتأملون فيه، فيؤدي هذا إلى هداية من أراد الله له الهداية.

ثم أقسم الله تعالى بالقرآن تنويهًا بعلُوِّ شأنه؛ لأن التعظيم من لوازم القسَم، ووصَفه سبحانه بعد ذلك بالمجد، والشرف الرفيع، والخير الكثير، فهو أفضل ما أبلغه الله للناس من كلام يدل على مراد الله تعالى، ويفوق كل كلام أوحاهُ الله تعالى إلى رسله، فجعله بأفصح اللغات، وجعله معجزًا لأفصح البلغاء، ولا ينسخه كتاب بعده، وهو يُصلح البشرية إلى قيام الساعة.

فالقرآن هو المقسم به، وجواب القسم محذوف، تقديره: لتُبعثُن بعد الموت، ومضمون الكلام بعده: إثبات النبوة، وإثبات المعاد، والتقدير: إنك -يا محمد- لرسول، وإن البعث لحق، والمجيد صفة القرآن، وهو الشريف على غيره من سائر الكتب، ومن الحديث القدسي، ومن الحديث النبوي..

والمجد: سعة الأوصاف وعظمتها، والقرآن واسع المعاني، متنوع الوجوه، كثير الخيرات والبركات، جزل الألفاظ، حوى الفصاحة بأكملها، وجمع علوم الأولين والآخرين، واشتمل على أعم المعاني وأحسنها، وكل هذا من موجبات اتباعه والانقياد

---

(١) سكت أبو جعفر على حرف (ق) حالة الوصل بما بعدها بدون تنفس.

له، وشكْرِ الله تعالى عليه، ولكن أكثر الناس لا يشكر نعم الله عليه، ولا يعطي القرآن حقّه وقدْره من العلم والعمل والاتباع والانقياد!!

الْكُفَّارُ يَعْجَبُونَ مِنْ قَضِيَّتَي الرِّسَالَةِ وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ

٢- ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾﴾

وبعد أن أشار سبحانه إلى أن القرآن ليس بكلام بشر، وإنما هو كلام الله تعالى أبلغه إلى رسوله ﷺ على لسان جبريل ﷺ، أنكر - جلَّ شأنه - على الكافرين المكذِّبين تعجُّبهم البالغ من أن يرسل الله إليهم بشرًا مثلهم، وأنهم في منتهى العجب والغرابة من ذلك، بل عجبوا أن جاءهم رسول من البشر مثلهم، ينهاهم عما يضرهم ويأمرهم بما ينفعهم، ويخوِّفهم عقاب الله إن لم يؤمنوا، **فقد تعجبوا من أمرين**:

أحدهما: كون هذا الرسول بشرًا مثلهم، من جنسهم، يمكنهم التلقى عنه، ومعرفة أحواله وصدقه وأمانته، فتعجبوا من أمر عادي لا يُتعجب منه، وقد بيّن الله سبحانه أن جميع الأمم قالوا لرسلهم هذه المقولة، حيث ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١١]

وكانت هذه المقولة سببًا مانعًا من اتباع الأمم للرسل:

كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء].

ثم فسَّر القرآن تعجبهم هذا بقوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي: أن الذي حملهم على التكذيب به وإنكار أن يكون الرسول بشرًا، هو كفرهم، فقالوا: هذا أمر مستغرب، وهذا في غاية الجهل منهم، فهم كالمجنون الذي يستغرب كلام العاقل، والبخيل الذي يعجب من كرم الكريم.

والآخر: إخبار النبي ﷺ لهم بعذابٍ يكون بعد الموت، وهم لا يُصدِّقون بذلك ويتساءلون كثيرًا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ [الملك: ٢٥].

قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

ومما تعجبوا منه أيضًا أمر البعث والنشور، فهو من جملة ما أنذرهم به خاتم النبيين،

حيث قالوا: هذا البعث الذي تُخوِّفُنا به يا محمد، أمر يُتعجَّب منه، وتقف أفهامنا دونه.

فالباعث لهم على العجب أمران: هما إنذاره لهم بالبعث والنشور، وكون الرسول واحدًا منهم يدَّعي الرسالة، مع أنهم قد عرفوا صِدْقه وأمانته ونُصحه، فكان الواجب عليهم أن يسارعوا إلى الإيمان به، لا أن يعجبوا منه ويستهزئوا به قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [يونس: ٢].

وقد ذكر سبحانه في سورة (ص) قول منكري البعث: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾﴾ قال تعالى على لسان المكذبين بالبعث والنشور:

٣- ﴿أَإِذَا[(١)] مِتْنَا[(٢)] وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾

وبعد تعجُّب المكذبين من قضية الرسالة، يأتي وجه تعجبهم من قضية البعث والنشور، فيقولون: أبعْد أن نموت، وتتحلل أجسامنا إلى تراب، ونصير عظامًا مفتَّتة، أنرجع إلى الحياة مرة أخرى؟ ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ أنعود إلى الحياة ثانية؟ هذا أمر مستبعد، يستحيل حصوله ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أي: هذه عودة بعيدة بعد انعدام الحياة، وتفتُّت الجسد وتحوله إلى تراب، ومثل هذا:

١- قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الإسراء: ٤٩].

٢- وقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾ [سبأ: ٧، ٨].

٣- وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

٤- وقوله ﷻ: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [التغابن].

---

(١) سهَّل الهمزة الثانية من (أئذا) قالون وأبو عمرو وأبو جعفر مع إدخال ألف بينهما، وقرأ ورش وابن كثير ورويس بالتسهيل من غير إدخال، والباقون بالتحقيق من غير إدخال.

(٢) قرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي وخلف بكسر الميم من (متنا) والباقون بضمها، وهما لغتان.

ومن أدلة البعث قول النبي ﷺ في أول بعثته: «**إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبتُ الناس جميعًا ما كذبْتكُم، ولو غششتُ الناس جميعًا ما غششتكم، والله لتموتن كما تنامون، ولتُبعثن كما تستيقظون، ولتُجزوُنَّ بالإحسان إحسانًا، وبالسوء سوءًا، وإنها لجنة أبدًا، أو نار أبدًا**»[١].

وهكذا، فقد تعجبوا من أمر البعث، لأنهم قاسوا قدرة الله تعالى بقدرتهم، ولا يستوي في عرف عاقل أن يُسوّى قدرة الخالق الكامل من كل الوجوه، بقدرة المخلوق العاجز من كل الوجوه!!

قُدْرَةُ اللَّهِ تَعَالَى أَكْبَرُ مِنَ الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ

٤- ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾﴾

وإنكار الملحدين المكذبين للبعث يقوم على استبعاد إعادة الحياة إلى الجسد بعد أن تفرقت أجزاؤه في الأرض وفي مهب الرياح، وقاع البحار، على تعدد مواقعها، فإن هذا لا يُبقي أملًا في الإحاطة بها -على حد زعمهم- ويتعذر التقاطها وجمْعها، ولو جُمعت هذه الأجزاء على سبيل الفرض، فكيف تعود إلى صورتها الأولى؟

قال تعالى في الرد عليهم: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ﴾ أي علمنا علمًا تامًّا ما تفنيه الأرض من أجسادهم، وما تأكله من لحومهم، وأشعارهم، وجلودهم، ودمائهم بعد دفنهم فيها، لا يضل عنا شيء منها مهما تناثرت أجسامهم في الهواء، أو احترقت بالنيران، أو أكلتْها السباع، لا يغيب عن علمنا شَعْرة من شعرهم، ولا إظْفَرًا من أظافرهم، ولا قطرة دم من دمائهم، فكيف يتعذر علينا إعادة الحياة إليهم مرة أخرى؟

وعِلْمُنا شامل دقيق، حافظ لجميع أحوال الناس، يسجل عليهم أقوالهم وأفعالهم ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ أي: محفوظ من التغيير والتبديل، فيه كل ما يجري على الخلق في حياتهم وبعد مماتهم، فهو مقتضَى عموم العلم الإلهي.

---

(١) يُنظَر: «الرحيق المختوم» ص ٧٩ صفي الرحمن المباركفورى ط أولى ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م. وهو في غريب الحديث لابن قتيبة (١/ ٣٤٩) وفي سيرة ابن هشام وغيرها تحت تعنوان: الجهر بالدعوة.

وهذا استدلال بكمال علمه سبحانه، وإحاطته بكل شيء، وقدرته على إحياء الموتى.

أما كيفية إعادة الحياة للإنسان بعد أن تفتتت أوصاله، فعلم ذلك عند الله تعالى، ولم نكلَّف بالبحث عنه، وقد جاء في حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال:

«**كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجْبَ الذَّنَب، منه خُلق، وفيه يُركَّب**»[1].

وفي لفظ آخر لأبي هريرة أيضًا: أن النبي ﷺ قال: «**إن في الإنسان عظمًا لا تأكله الأرض أبدًا، فيه يُركَّب يوم القيامة**»، قالوا: أي عظْم هو يا رسول الله؟ قال: «**عجْبُ الذَّنَب**»[2].

وقد جاء بعض الكفار إلى النبي ﷺ وبيده عظم يفتته بيده، ويقول: يا محمد، أترى أن الله يحيي هذا بعدما بَلِيَ ورَمَّ؟ قال: «**نعم، ويبعثك ويدخلك النار**»[3].

الْكُفَّارُ يُنْكِرُونَ الْوَحْيَ وَالرِّسَالَةَ دُونَ نَظَرٍ وَلَا تَأَمُّلٍ

٥- ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾

المراد بالحق في الآية: القرآن الذي جاء به محمد ﷺ، والنبوة الثابتة بالمعجزات، أي: إن المنكرين للبعث سارعوا إلى التكذيب به من أول وهلة، فكذَّبوا بالبعث والنشور، وكذَّبوا بوحدانية الله تعالى دون نظر ولا تأمُّل في دلائل التوحيد والبعث، كذَّبوا بالوحي المنزل على محمد ﷺ مع سطوع آياته ووضوح دلائله: ﴿بَلْ﴾ أي: أن كلامهم الذي صدر منهم، إنما هو عناد وتكذيب للحق الذي هو أعلى درجات الصدق، ﴿كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ والذي أخبرهم بوحدانية الله تعالى، وأخبرهم بأن النبي حق، وأن البعث حق، هو القرآن الكريم، وهؤلاء المكذبون المنكرون، كذَّبوا بالقرآن لما جاءهم على لسان محمد ﷺ، كذَّبوا بكل ما فيه، ثم إنهم اختلفوا واضطربوا في وصفه، فقالوا: سحر، وقالوا: شعر، وقالوا: كهانة، وقالوا: أساطير الأولين ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ مختلط ومضطرب، يتخبطون في وصفه، ولا يثبُتون على حال، ولا يستقر لهم قرار؛ وذلك لأنه ما ترك قومٌ الحقَّ إلا ضلوا وتخبطوا، وكل من اتبع الحق وصدّق به اهتدى واستقام أمره.

---

(١) ،(٢) رواه مسلم برقم (٢٩٥٥) وانظر: البخاري (٤٨١٤، ٤٩٣٥).

(٣) يُنظَر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢١) وابن كثير (٧/ ٥٩٣).

أَدِلَّةُ الْقُدْرَةِ عَلَى الْبَعْثِ وَالْوَحْدَانِيَّةِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَضْرُبٍ

٦- ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾

هذه دعوة إلى التأمل في الكون والاستدلال به على إمكانية البعث والنشور، وقد جاءت أدلة البعث في القرآن الكريم على **أربعة أضرب**، وكلها أدلة تُثْبت وحدانية الخالق سبحانه؛ فهي براهين يُستدل بها على التوحيد وعلى البعث والنشور معًا:

أولها: قياس إعادة الحياة إلى الموتى على خلق السموات والأرض:

فإنْ خلقهما أعظم من خلق الإنسان ومن إعادته بعد الموت؟ قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾ [غافر].

ثانيها: قياس الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٣٩﴾ [فصلت].

ثالثها: قياس الإعادة على بدء الخلق، وهو أهون في نظر الناس، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

رابعها: قياس الإعادة على إخراج النار من الشجر الأخضر.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠﴾ [يس].

وكلها أدلة على وحدانية الله تعالى وعظيم قدرته، وفي الدليل الأول يلفت الله تعالى نظر العباد إلى أربعة أشياء هي:

١- السماء. ٢- والأرض. ٣- والجبال. ٤- والنبات.

الضَّرْبُ الْأَوَّلُ مِنْ بَرَاهِينِ الْبَعْثِ: قِيَاسُ الْإِعَادَةِ عَلَى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

أولًا: دَلَائِلُ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾ أغفَل هؤلاء الملحدون حين كذبوا بالبعث، فلم يتأملوا في العالم العلوي فوقهم، وينظروا نظَر تفكُّر واعتبار إلى ارتفاع السماء بغير عمد

وإحكامها من غير تفاوت ولا صدوع أو شقوق، فيتأملوا ﴿كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا﴾ أي: رفعناها بدون عمد، وجعلناها مستوية الأرجاء، ثابتة البنيان؟ وهذا النظر في غاية السهولة، لا يحتاج إلى كلفة ولا إلى شد رحل، والسماء قبة مستوية الأرجاء، ثابتة البناء.

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الملك].

وقال جلَّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ﴾ [الرعد: ٢].

وقد جعلها الله سقفًا لأهل الأرض، وأودع فيها مصالحهم ومعايشهم.

قال سبحانه ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء].

وقد زيَّن الله السماء الدنيا بالنجوم الخنس والجوار الكنس فقال: ﴿وَزَيَّنَّـٰهَا﴾ أي: بالكواكب، وجعلناها كالمصابيح بالنسبة للأرض، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾﴾ [الصافات].

وقال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان].

وقال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾ [التكوير]

ومع ذلك فلا ترى في السماء شقوقًا ولا فتوقًا، وهي سليمة من التفاوت والخلل والعيوب ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾.

والله تعالى يزيد في الخلق ما يشاء ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات].

وقد أثبتت الأبحاث العلمية أن حجم الكون آخذٌ في الزيادة شيئًا فشيئًا، وكلما ازداد حجمه ازدادت المسافة بين أجرامه، ولا يستطيع المرء أن يرفع بصره إلى السماء ويرى ملايين النجوم الساطعة، ويراقب سيرها في أفلاكها، وتنقلها في أبراجها إلا وينحني إجلالًا وتعظيمًا لله سبحانه.

والعجب لمن يتطلع إلى السماء ويشاهد عظمة الخلق، ثم لا يؤمن بالله تعالى[1].

(١) «الله والعلم الحديث» ص ٢٣، ٢٤ .

وقد بيَّن ﷻ أن خلق السموات والأرض أكبر وأعظم من خلق الناس، فالقادر على خلقهما قادر من باب أولى على بعث الموتى، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف].

وقال تعالى يصف الأرض بعد نزول الماء عليها: ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ ثم استدل بذلك على البعث والنشور، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩] وكلها عوالم خلقها الله تعالى من العدم، أفيعجزه سبحانه البعث والنشور؟ فإن البعث يحقق الغاية التي خلق الله الناس من أجلها، وهي عبادة الله تعالى في الدنيا، ثم الحساب والجزاء في الآخرة لمن أطاع ولمن عصى، وهذا هو الحق الذي قامت به السموات والأرض ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الروم].

ثانيًا: دَلَائِلُ الْعَالَمِ السُّفْلِيِّ بِمَا فِيهِ مِنْ جِبَالٍ وَنَبَاتٍ

٧، ٨- ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾

في هذه الآية ثلاثة براهين من العالم السفلي على إحياء الموتى يوم البعث والنشور:

البرهان الأول: الأرض التي نعيش فوقها

فقد وسَّع الله الأرض وفرشها ومهَّدها للسعي في مناكبها والأكل من رزق الله، وقد بسط الله الأرض ولم يجعلها نتوءات؛ كي يستطيع الإنسان أن يمشي عليها بدون إرهاق، وهي مترامية الأطراف والمناكب، كما وطَّأ سبحانه مناكبها، وذلَّل مسالكها، ووسَّع مخارجها وأرزاقها، حتى أمكن كل حيوان السكون فيها والاستقرار عليها، والانتفاع بها واستغلال خيراتها وكنوزها:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك].

وقد جعل الله الأرض قطعًا متلاصقة مختلفة في حجمها ونوعها:

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾ [الرعد: ٤].

وكل ما يخرج من الأرض أو ينزل عليها، له نظام دقيق وقدَر معلوم، وتقدير موزون، وحكمة مقصودة ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر].

وهذا الكون -بعالَمَيْه العُلْوي والسفلي- مَعْرِض هائل لكل مستبصر ومستيقن، يريد أن يعتبر ويتأمل في ملكوت الله، وينتفع بآياته التي لا تتناهى ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧].

إن الله الذي خلق السموات والأرض قادر بلا شك على إحياء الموتى ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس].

البرهان الثاني: الجبال:

ومن عظيم آيات الله تعالى أنه ثبَّت الأرض بالجبال؛ لئلَّا تميد بالناس ولتستقر من التزلزل والتموُّج ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي: ثبَّتنا جنبات الأرض بالجبال الراسيات من فوقها؛ حتى لا تميد بأهلها، ولا تضطرب بما عليها، وهي جبال متعددة الأشكال والأحجام والصفات والمتانة:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧].

والله تعالى يدعو عباده إلى التأمل في الجبال كيف أقامها ونصَبها:

فقال: ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾ [الغاشية].

والجبال: أجسام بارزة على الأرض، متباعدة بعضها عن بعض، وعند قيام الساعة فإن هذه الجبال على عظمتها ينسفها ربي نسفًا، وترجف وتُدك ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ [المزمل: ١٤]. ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾﴾ [التكوير].

وتنظر إليها فتحسبها جامدة وهي تمر مرَّ السحاب، صنع الله الذي أتقن كل شيء. ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل].

البرهان الثالث: النبات:

وقد أنبت الله في الأرض من كل نوع من النبات ومن كل صنف من أصنافه زوجًا حسَن المنظر يَسُرُّ الناظرين ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ أي: جعلنا في الأرض زوجين من كل صنف حسن من مختلف أنواع النبات يزيِّن الأرض ويبهجها ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا﴾ [الكهف: ٧].

قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ۝٧﴾ [الشعراء].

وقد خلق الله هذا كله للاتعاظ والاعتبار لكل ذي لُبٍّ وبصيرة.

لقد رفع الله السماء بلا عمد، ومدَّ الأرض وبسطها، وثبَّتها بالجبال، وأنبت فيها من كل أنواع النبات أصنافًا حسنة، وقد جعل الله ذلك عبرة وتبصرة للعباد، تدلُّ على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته، وتُذكِّرهم بما يجب عليهم نحو ربهم من التوحيد والعبادة ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ﴾ أي: خلقنا كل ما سبق ذكره في الآيات، وجعلناه عظة وعبرة ﴿لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ رجَّاع إلى الله تعالى، كثير الخضوع لجلاله، والخوف من عقابه.

الضَّرْبُ الثَّانِي مِنْ بَرَاهِينِ الْبَعْثِ: قِيَاسُ الْإِعَادَةِ عَلَى إِحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا

٩- ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ۝٩﴾

هذا هو الضرب الثاني من براهين وحدانية الله تعالى وقدرته على البعث:

وهو قياس الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها؛ فإحياء الناس بعد موتهم ليس أمرًا مخالفًا للسنن المألوفة في الكون، فإن كثيرًا من الأمثلة على البعث بعد الموت تجري حولنا، فهذا الماء ينزل على الأرض الجامدة الميتة، فإذا هي جنات وزروع ونخيل وأعناب وفواكه، يرزق الله به العباد، فالذي أحيا الأرض بعد موتها يعيد الناس إلى الحياة بعد أن ماتوا ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا﴾ أي: نزلنا المطر من السماء، وهو كثير المنافع والخيرات للناس والدواب والطيور وغيرها، وقد وصف الله المطر بأنه مبارك لِمَا فيه من البركة العامة، وإن حصل منه ضرر خاص في بعض الأحيان.

كان ابن عباس ﷺ إذا أَمْطرت السماء يقول: يا جارية، أَخْرِجي سَرْجي، أَخْرِجي

ثيابي، ويقول: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾[١] أي: أخرجنا بهذا الماء من جوف الأرض ﴿جَنَّاتٍ﴾ معروشات وغير معروشات، وبساتين كثيرة من مختلف أصناف الفاكهة، ومن الأشجار المثمرة ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ أي: حب الزرع الذي يُحصد، كالحنطة والشعير وسائر الحبوب، وخُص الحب بالذكر؛ لأنه قوت الناس والحاجة إليه أكثر.

١٠، ١١- ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا[٢] كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾

ثم خص الله بالذكر من بين الأشجار: شجر النخيل ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ أي: طوال مرتفعات، **فالباسق**: هو الطويل العالي مع الاستقامة، وفي هذا دلالة على بديع خلق الله تعالى، وامتنانه على العباد.

وأول ما يخرج من ثمر النخيل: الطلع المتراكم بعضه فوق بعض ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ أي: وأنبتنا في الأرض بعد إنزال الماء عليها من السحاب: النخيل الطوال، الزاخر بالثمار الكثيرة المرتبة، بشكل جميل منظَّم -بعضها فوق بعض.

سأل عبدُ الله بنِ عثمانَ بنِ خُثَيْم عكرمةَ عن معنى باسقات، فقال: بُسوقها طلعُها، ألم تر أنه يقال للشاة إذا حان وِلادتُها: أبْسقت؟ قال عبد الله: فرجعتُ على سعيد بن جبير، فقلت له، فقال: كذب، **بُسُوقُها**: طولها في كلام العرب، ألم تر أن الله تعالى قال: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾؟ ثم قال: ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾[٣].

وأول ما يظهر من ثمر النخل هذا الطلع يكون منضدًا كحب الرمان، ملتصقًا بعضه ببعض، فهو نضيد، فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد[٤].

فالباسقات: هي المرتفعات، **والطلع**: هو ما يخرج من ثمر النخيل.

والنضيد: هو المتراكب بعضه فوق بعض، وكل ذلك خلقه الله رزقًا للعباد.

أي: وهذا المطر الذي نزل من السماء، والنبات والشجر الذي يخرج من الأرض،

---

(١) «صحيح الأدب المفرد» (٩٣٢).

(٢) قرأ أبو جعفر بتشديد الياء من (ميّتًا)، والباقون بتخفيفها.

(٣) أخرجه عبد بنُ حُميد وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (١٣/ ٦١٨).

(٤) «البحر المحيط» (٨/ ١٢٢).

والنخيل الباسقات جعلها الله ﴿رِزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾؛ كي ينتفعوا به، ويأكلوا من رزقه قوتًا وفاكهة، يأكلون ويدخرون لهم ولمواشيهم.

وقد أحيا الله بالماء النازل من السماء: الأرض المجدبة، الخالية من النبات والزرع ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ﴾ أي: بهذا الماء ﴿بَلْدَةً﴾ أي: أرضًا ﴿مَّيْتًا﴾ هامدة يابسة، لم يكن فيها ثمر ولا خُضْرة، فأنبتنا فيها الكلأ والعُشب فازدهرت وأينعت، ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الروم].

العبرة من الأدلة السابقة: وبمثل هذا الإخراج للنبات من الأرض يُخرج الله الموتى من قبورهم ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ أي: خروج الناس من الأرض، فهذا مثال للبعث بعد الموت، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المعارج].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ق].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [نوح].

وقال أيضًا: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ﴾ [الأعراف: ٥٨].

والآية تشير إلى أن نشأة الإنسان كنشأة النبات في عناصره الأولية من الغذاء والنمو، فكلاهما يخرج ويَرْضع من الأرض، وكما نبت الناس من الأرض، فإنهم يعودون إلى جوفها مرة أخرى كما أنبتهم منها، فيختلط رُفاتهم بترابها، وتندمج ذرَّاتهم بذرَّاتها، قال تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه].

روى الترمذي عن أبي رزين العقيلي قال: قلت: يا رسول الله، كيف يعيد الله الموتى؟ وما آية ذلك؟ قال: «**أما مررتَ بوادي قومك جدْبًا، ثم مررْتَ به يهتزُّ خضرًا؟**» قلت: نعم، قال: «**فتلك آية الله في خلقه، كذلك يحيي الله الموتى**»[1].

---

(١) أخرجه الطيالسي (١٠٨٩) وأحمد (٤/ ١١) برقم (١٦١٩٢، ١٦١٩٦) قال محققوه إسناده ضعيف لجهالة حال وكيع بن حدس، وانظر: مشكاة المصابيح (٥٥٣١).

وَقْفَةُ اعْتِبَارٍ وَتَأَمُّلٍ مَعَ مَصَارِعِ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ لِرُسُلِ اللَّهِ

١٢، ١٣- ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾﴾

وفي ثنايا الحديث عن البعث والنشور يقف بنا القرآن الكريم وقفة مع مَصارع الأمم التي كذبت رسل الله، وأنكروا البعث والنشور ليكون في ذلك عبرة وعظة ينتفع بها المكذبون بالبعث في كل زمان ومكان.

وقد ذَكرتْ هذه الآية والآيتان بعدها ثمانية من الأمم، هم أشهر الأقوام الذين كذبوا رسل الله، ممن عجَّل لهم الله تعالى العقوبة في الدنيا، منهم من هو مشهور لدى العرب، ومنهم من هو مشهور لدى أهل الكتاب، ومنهم من هو مشهور في العالم، وهؤلاء الثمانية هم:

١- قوم نوح. ٢- وأصحاب الرس. ٣- وقوم صالح.

٤- وقوم هود. ٥- وفرعون. ٦- وقوم لوط.

٧- وأصحاب الأيكة. ٨- وقوم تُبَّع.

١- ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أي: قبل كفار هذه الأمة الذين كذبوا رسولهم محمدًا ﷺ وكذبوا باليوم الآخر: قوم نوح ﷺ، فقد كذبوا نبيهم نوحًا، وقالوا: مجنون.

وقالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: ٢٧]

وقالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦].

وقالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠].

وقالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١].

وقالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾ [المؤمنون].

وهم أول قوم كذبوا رسولهم.

٢- ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ كذبوا رسولهم (حنظلة بن صفوان)، والرس: هي البئر المطويَّة بالحجارة، وهم من بقايا ثمود، قيل: إنها بئر معينة كانت لبطن من قبيلة ثمود، فعُرفوا بأصحاب الرأس، وقد عاقبهم الله بخسف في الأرض فوقعوا في هذه البئر، وكانوا قد

أَلْقَوْا نبيهم حنظلة بن صفوان وهو حيٌّ في هذه البئر ﴿ٱلرَّسِّ﴾ وسميت كذلك؛ لأن القوم رَسُّوا رسولهم، أي: دسُّوه فيها، وقد أهلكهم الله بمثل جريمتهم[1] وقد ذكر أصحاب الرس في القرآن مرتين، مرة هنا ومرة في سورة الفرقان ٣٨ ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾.

٣- ﴿وَثَمُودَ﴾ كذبوا نبيهم صالحًا ﷺ، وقالوا له: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣] وقالوا عنه: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾ [القمر].

وكانت ديارهم في مدائن صالح في شمال الجزيرة العربية، بين المدينة النبوية وتبوك، وذكر نبي الله صالح ﷺ في القرآن تسع مرات، في الأعراف (٧٣، ٧٥، ٧٧) وهود (٦١، ٦٢، ٦٦، ٨٩) والشعراء (١٤٢).

٤- ﴿وَعَادٌ﴾ كذبوا نبيهم هودًا ﷺ، وقالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [المؤمنون]

وقالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦].

وقالوا: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤].

وذكر هود ﷺ في القرآن سبع مرات، في الأعراف (٦٥) وهود (٥٠، ٥٣، ٥٨، ٦٠، ٨٩) والشعراء (١٢٤).

٥- ﴿وَفِرْعَوْنُ﴾ كذب موسى وهارون ﷺ، وقال فرعون وقومه عن موسى وهارون: ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ [طه: ٦٣]

وقالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧].

٦- ﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾ كذبوا نبيهم لوطًا ﷺ، وقالوا له: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧]

ولوط ﷺ ليس أخًا لقومه، فهو ليس منهم، ولكنه صاهرهم، فكان أخًا لهم بهذا المعنى، وهم أهل سدوم وعمورة وقُراهما بالأردن، وكان لوط يسكن معهم، وهو عبراني،

---

(١) وقال بعضهم: إنهم أهل أنطاكية، وقد قتلوا حبيب النجار، ثم ألقوه في البئر، واختار ابن جرير أنهم أصحاب الأخدود، والأرجح ما ذُكِر أعلاه.

وقومه كنعانيون. وقد ذكر لوط في القرآن الكريم سبعًا وعشرين مرة. قال تعالى:

١٤- ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ[1] وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ[2] ﴿١٤﴾﴾

٧- ﴿وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ كذبوا نبيهم شعيبًا عليه السلام، وقالوا له: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾ [الشعراء]

وكان شعيب أخًا لقوم مدين من النسب، ولم يكن أخًا لأصحاب الأيكة، وهي الشجر الكثير الملتف بعضه على بعض، ولذا قال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الشعراء] والأيكة بادية مدين.

أما قوم مدين الذين أُرسل إليهم أيضًا نبي الله شعيب، فقد كان أخًا لهم في النسب، ولذا قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [هود: ٨٤]. ومدين هو ابن إبراهيم عليه السلام وكانت ديارهم شرق خليج العقبة وقد ذكر شعيب عليه السلام في القرآن إحدى عشرة مرة، في الأعراف ٨٥، ٨٨، ٩٠، ٩٢ وفي هود ٨٤، ٨٧، ٩١، ٩٤ وفي الشعراء ١٨٧ وفي العنكبوت ٣٦.

٨- ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ الحميري من عرب اليمن القحطانيين، الذين عرفوا بالتبابعة وهو أحد ملوكهم، وهم أهل سبأ المشركون بالله، المنكرون للبعث والنشور.

وتبَّع: لقب لكل مَنْ ملَك اليمن، ككسرى وقيصر والنجاشي، وكان اسمه **أسعدبن حسان بن أبي كرب**[3] وكنيته **أبا كريب**، وهو تُبَّع الأوسط، وقد اختلف هل هو نبي أم رجل صالح، وجاءت آثار تنهى عن سب تُبَّع فإنه قد أسلم[4].

وكانت دولة تُبَّع سنة ألف قبل البعثة تقريبًا، وقد عاش تبع في القرن العاشر قبل الميلاد، ومد فتوحاته شمالًا حتى الشام، ومشرقًا حتى تركستان، وقيل: إنه أول من كسي الكعبة[5].

---

(١) اتفق القُرَّاء على قراءة (الأيكة) في هذا الموضع بأل.

(٢) أثبت ورش الياء وصلًا من (وعيد)، وأثبتها يعقوب في الحالين، وحذفها الباقون.

(٣) أطلس القرآن ص١٢٨.

(٤) يُنظَر: «المسند» (٥/ ٣٤٠) و«المعجم الكبير» للطبراني (١١/ ٢٩٦) و«تخريج الكشاف» للزيلعي (٣/ ٢٧٠) و«تفسير عبد الرزاق» (٢/ ١٧١) و«مجمع الزوائد» (٨/ ٧٦). وقد سبق تخريجه بأوفى من هذا.

(٥) أطلس القرآن ص١٢٨.

وقوم تُبَّع كذبوا نبيهم، فأهلكهم الله عن بكرة أبيهم، كما قال تعالى:

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الدخان].

وذكر تبع في القرآن مرتين: هنا وفي سورة الدخان ٣٧.

قال تعالى بعد سرد هؤلاء الأقوام: ﴿كُلٌّ﴾ أي: كل قوم من هؤلاء الثمانية ﴿كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ كذَّب كل منهم رسوله، ومن كذب رسولًا فقد كذب الرسل جميعًا؛ لأن دعوتهم واحدة ﴿فَحَقَّ﴾ أي: وجب على المكذبين واستحقوا ما توعَّدهم الله به من العذاب لتكذيبهم رسل الله وإيذائهم لهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣].

وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سبأ].

وقال جلَّ شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات].

وهكذا تُقرر الآيات أن رسل الله جميعًا جاؤوا للأمر بتوحيد الله وعبادته، وأنهم جميعًا قد تعرضوا للتكذيب والأذى والاضطهاد، وقد وعد الله رسله وعباده المؤمنين بالنصر على أعداء الإسلام في نهاية المطاف قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة].

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر].

وقال سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [يوسف].

فلا تحزن -أيها الرسول- على ما أصابك من بعض قومك، ولا تأسف على من لم يؤمن منهم، ولتكن لك في هؤلاء أسوة، ولولا أن الله تعالى قد رفع عذاب الاستئصال عن هذه الأمة حتى تبقى رسالتك إلى قيام الساعة؛ لعجل الله لهم العقوبة في الدنيا كهؤلاء، ولكن لا مفر لهم من عقاب الله يوم لقائه، وذلك لأنهم كذبوا الرسل الذين أرسلهم الله إليهم، فحق عليهم وعيد الله وعقوبته، ولستم أيها المكذبون لخاتم النبيين خيرًا منهم، ولا رُسُلِهم أكرم على الله من رسولكم، فاحذروا أن تكونوا مثلهم لئلا يصيبكم ما أصابهم.

الضَّرْبُ الثَّالِثُ مِنْ بَرَاهِينِ الْبَعْثِ: قِيَاسُ الْإِعَادَةِ عَلَى بَدْءِ الْخَلْقِ

١٥- ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾

وبعد أن فصَّلت السورة مصارع المكذبين باليوم الآخر، ليكون ذلك ردعًا لهم ولأمثالهم، عادت إلى الحديث عن البعث وهو المحور الأساس في السورة.

فإن مَن قدر على البدء فهو أقدر على الإعادة ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ﴾ أي: ما عجزْنا عن خلْق الإنسان أول مرة، وهو لم يكن شيئًا مذكورًا، فكيف نَعجز عن إعادته خلقًا جديدًا بعد فنائه؟ والقول بذلك فيه تناقض، إذ لا يعجزنا ذلك، ولكن المكذبين الملحدين في شك وحيرة من أمر البعث.

والخلق الأول: هو خلق الإنسان من نطفة، وخلق آدم من تراب ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: أنهم ليسوا في شك من خلقهم أول مرة، وإنما هم في لبس وشك من خلق آخر بعد الموت، لقد التبس عليهم الأمر، مع أنه لا محل للبّس فيه، لأن الإعادة أهون من البداية.

أو يكون المعنى: إنهم يعلمون أن الخلق الأول أعظم من إعادة خلق الأموات، ولكنهم غالطوا وخلطوا بين الحقائق، فاشتبه عليهم الخلق الثاني وهو إحياء الموتى، مع أنه ممكن عقلًا، فإذا كانوا معترفين بالخلق الأول، فلا وجه لإنكارهم الخلق الثاني، والخلق الجديد شيء هيِّن بالنسبة إلى الخلق الأول في عُرْف الناس، وكل شيء هيِّن على قدرة الله تعالى، وليس فيه هيِّن وأهون.

والآية تجابه الماديين الذين يستبعدون الحياة الآخرة، وتوبخهم وتقيم الحجة عليهم في صورة استفهام، وهو ينفي الإعياء والتعب عن الله سبحانه عند الخلق الأول.

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ﴾ [الروم: ٢٧].

ويصوِّر القرآن حيرة الكافر في أمر البعث، فيوجهه إلى أن يتذكر نشأته الأولى ليستدل بها على الحياة الثانية ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾ [مريم].

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ [يس].

وقال سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣٩ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾ [القيامة].

دلائل البعث الحسية في سورة البقرة:

وفي سورة البقرة وحدها يضرب الله سبحانه **خمسة أمثلة على البعث** لأقوام أماتهم الله موتًا حقيقيًا في الدنيا، ثم أحياهم لتكون أمثلة حية واقعية لمن ينكرون البعث بعد الموت، وهذه الأمثلة هي:

أوَّلًا: قصة الذين عبدوا العجل من بني إسرائيل، وقد جعل الله توبتهم أن يقتل من لم يعبد العجل منهم مَنْ عبده، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٦﴾ [البقرة].

ثانيًا: في قصة البقرة، بالنسبة للرجل الذي قتل قريبه واتهم فيه غيره، فأمرهم الله تعالى على لسان موسى ﷺ أن يذبحوا بقرة ويضربوا الميت ببعضها، فيحيا ماثلًا أمامهم مخبرًا عمن قتله ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٧٣﴾ [البقرة].

ثالثًا: قصة ﴿الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣] وذلك على أصح القولين في معنى الآية.

رابعًا: قصة الذي ﴿مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

خامسًا: قصة إبراهيم الخليل حين قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ﴾ [البقرة: ٢٦٠] فأمره الله تعالى أن يأتي بأربعة من الطيور المختلفة، وأن يُقطِّعهن إرَبًا إرَبًا، ويجعل على كل جبل منهن جزءًا، فخلط لحمها وعظمها وريشها ودمها، ووضع على كل جبل جزءًا، وأمسك عنده رؤوسهن، ثم دعاهن فأعاد الله كل جزء منها إلى صاحبه، وجاءته الطيور الأربعة تسعى طيرانًا كما كانت من قبل، وذلك في الآية الستين بعد المئتين من سورة البقرة.

إن الكفرة من الملحدين والماديين ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم].

الضَّرْبُ الرَّابِعُ مِنْ بَرَاهِينِ الْبَعْثِ

قِيَاسُ الْإِعَادَةِ عَلَى إِخْرَاجِ النَّارِ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠﴾ [يس]

ويكون ذلك بسحق المرخ على العفار، وهما نوعان من الشجر، فتنقدح النار منهما، مع ما فيهما من الماء المضاد للنار، فلا الماء تطفئ النار، ولا النار تحرق الخشب، فمن قدر على ذلك فهو قادر على إحياء الموتى!!

في الحديث القدسي يقول الله تعالى: **«كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته. وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدًا، وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفئًا أحد»**[1].

وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لتؤدنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يُقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»**[2].

ويُسأل الحَجَر لِمَ انكبَّ على الحَجَر، ولِمَ اتكأ الرجل على الرجل، قال: وكنا نسمع أن الرجل يتعلق بالرجل يوم القيامة وهو لا يعرفه، فيقول: كنتَ تراني على الخطأ وعلى المنكر ولا تنهاني.

حَدِيثُ السُّورَةِ عَنِ الْإِنْسَانِ فِي ثَلَاثَةِ مَحَاوِرَ

الْمِحْوَرُ الْأَوَّلُ: خَلْقُ الْإِنْسَانِ وَإِحْصَاءُ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ فِي الدُّنْيَا:

والحديث عن البعث والنشور يتطلب الحديث عن الإنسان في **ثلاثة محاور**، هي:

---

(١) «صحيح البخاري» بأرقام (٣١٩٣، ٤٩٧٤، ٤٩٧٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) إلى هنا في «صحيح مسلم» برقم (٢٥٨٢) و«صحيح سنن الترمذي» برقم (١٩٧٢) و«السلسلة الصحيحة» برقم (١٥٨٨).

١- المولد والنشأة. ٢- الاحتضار والموت. ٣- البعث والجزاء.

وعن المحور الأول يقول سبحانه:

١٦- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾

يُذكِّر الله سبحانه الناس بالخلق الأول ليستدلُّوا به على الخلق الثاني، وفي هذا إقامة الحجة على الكفار في إنكارهم البعث والجزاء، ولم يرد الخلق في القرآن مسندًا لغير الله تعالى، فهو وحده مبدع هذا الكون وخالقه ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزمر].

وقال سبحانه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

وينفي الله تعالى التسوية بين من يخلق ومن لا يخلق ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل].

والله تعالى هو المتفرد بخلق جنس الإنسان من ذكر وأنثى على مختلف ألوانه وألسنته وأجناسه.

وقد ورد لفظ ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ في القرآن في خمسة وستين موضعًا، منها ثلاثة مواضع في أول سورة نزلت من القرآن.

وقد ذكر الله تعالى في القرآن جملة من المواد التي خَلق منها الإنسان الأول، فقد خلقه الله من تراب صار طينًا، ثم صلصالا، ثم حمأً مسنونًا، وخُلقتْ ذريته من النطفة التي هي خلاصة التراب، فإذا مات الإنسان تحلل إلى مواد التراب الذي خُلق منه.

وقد أثبت العلم الحديث أن جسم الإنسان يحتوي على عشرين عنصرًا، هي نفسها عناصر التراب، وهي على التوالي:

الكربون، والأكسجين، والأيدروجين، والفوسفور، والكبريت، والآزوت، والكالسيوم، والبوتاسيوم، والصوديوم، والكلور، والمغنسيوم، والحديد، والمنجنيز، والنحاس، واليود، والفلورين، والكوبالت، والزنك، والسلكون، والألمنيوم.

وهذه نفسها هي العناصر المكوِّنة للتراب.

والله جلَّ وعلَا الخالق للإنسان، يعلم خلَجات قلبه، ويعلم سره ونجواه، ويعلم السر وما هو أخفى من السر قال تعالى: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ أي: نعلم أحواله، وما يسؤوه وما يوسوس به في صدره، ونعلم ما يجول في نفسه من الخواطر والأفكار والهمِّ والعزائم، والوسوسة تُستعمل في جانب الشر ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ أي نحن

أقرب إلى الإنسان من نفسه فهو في قبضتنا وتحت سلطاننا، وناصيته بيدنا.

والحبْل: هو العرق الغليظ المسمى بالشرْيان.

والشرايين: هي التي توصل الدم إلى الأعضاء الرئيسة في الجسم، كالرئة والدماغ والنخاع والكلْيتين والمعدة والأمعاء.

والوريد: أحد الشرايين، وهو ثاني شرْيانين يَخْرجان من التجويف الأيسر من القلب، وحبل الوريد هو العرق المكتنف لثغرة النحر.

وفي الجسد وَرِيدان، وهما عِرْقان يكتنفان صَفْحتي العنُق، متصلان بالوتين، يَردان من الرأس إليه، وتختلف أسماء أجزائه حسب موقعها من الجسد، فهو في العنق يسمى الوريد، وفي القلب يسمى الوتين، وفي الظهر يسمى الأبْهر، وفي الذراع والفخذ يسمى الأكحل والنساء، وفي الخنصر يدعى الأسلم، والإنسان لا يشعر بقرب حبل الوريد منه لخفائه[1].

والله تعالى قريب من الإنسان بعلمه، فعلم الله تعالى محيط إحاطة شاملة وتامة بالإنسان، وهذا العِلْم أقرب إلى الإنسان من عرقه الشرياني الذي في عنقه، وكيف لا يحيط علم الله تعالى بدخائل النفس، وحنايا الصدر، وخلجات الفؤاد، وهو الذي خلق فسوى؟ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك].

والملائكة أقرب إلى العبد بأقدار الله تعالى من حبل وريده.

فرقابة الله تعالى للإنسان رقابة تامة على خطرات القلب، وما يَموج به الضمير، وما يترتب عليها من النفع والضر.

وفي حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[2].

وفي الآية هَيْبة وفزَع وخوف لقوم، ورُوح وأنْس وسُكون قلب لقوم[3].

---

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» بتصرف (٢٦/ ٣٠٢) و«تفسير ابن عطية» (٥/ ١٥٩).

(٢) «المسند» (٧٨٢٧، ١٠٩٦٠) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات، أخرجه ومسلم (٢٥٦٤) وابن ماجه (٤١٤٣).

(٣) «حاشية الجمل» (٤/ ١٩٢) نقلًا عن القشيري.

نعم إن القلب ليرجف ويضطرب، ويفقد توازنه وتماسكه حين يشعر أن الله تعالى يراقبه في حركاته وسكناته، وسره ونجواه، تمهيدًا ليوم الحساب.

الْحَفَظَةُ الْمُوَكَّلُونَ بِالإِنْسَانِ

١٧، ١٨- ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾

وإذا كان الله تعالى مطَّلع على ضمير العبد وباطنه، وهو أقرب إليه من وريده في جميع أحواله، فإن هذا من شأنه أن يدعو الإنسان إلى مراقبة ربه، فيستحي أن يراه حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره، وينبغي عليه أنْ يحذَر ما تسجله الملائكة عليه من الأقوال والأفعال التي لا تُرضى رب العالمين.

ومع إحاطة علم الله تعالى بالإنسان، فقد وكَّل به ملكين يكتبان ويحفظان عليه أقواله وأعماله، إلزامًا له بالحجة، وهما عن يمينه وعن شماله، فالذي على اليمين يكتب الحسنات، والذي على الشمال يكتب السيئات، وحُذف لفظ ﴿قَعِيدٌ﴾ من الأول لدلالة الثاني عليه، وأصل الكلام: عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد.

والله تعالى لا يحتاج إلى تدوين الملكين لأعمال العباد، فهو سبحانه مطلع عليها، ولا يغيب عنه شيء، ولكنها تُكتب لعرْضِها على العباد يوم يقوم الأشهاد، فتكون حجة عليهم.

وإذا علم العبد وهو في الدنيا أن الملائكة تسجل عليه أعماله وأقواله، ازداد رغبة في الحسنات، وبُعدًا عن السيئات، وإذا استحْضَر الإنسان علم الله التام، ورقابته له، وتسجيل الملائكة لجميع أقواله وأفعاله، وأنه لا مفر للعبد من مراقبة الله تعالى، ولا منجا له من عقابه، فكيف يُقْدم على ما يغضب الله سبحانه، أو يتلفظ بما لا يُرضي الله ﷻ، أو يجرؤ على هاجسة في نفسه لا تنال القبول من الله تعالى؟

فالخلاصة: أن الله تعالى قد خلق الإنسان، ويعلم ما بداخل نفسه، وهو أقرب إليه من نفسه التي بين جنبيه ولا حاجة له لِكَتْب الأعمال؛ لأنه سبحانه عالم بها، لا يخفى عليه منها شيء، وإنما أَمَر جلَّ شأنه الحفظة بكتابة الأعمال لحِكَم أخرى، منها إقامة الحجة على العبد يوم القيامة عند إنكارهم لشيء مما قالوه أو فعلوه، كما بيَّنه قوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء]

وقد أفادت هذه الآية أن الملَكين يتلقيان أعمال العبد ويَكْتُبانها في صحيفته.

أما أقوال العبد فقد دلت عليها الآية التي بعدها.

ثم وضَّح سبحانه ما يسجله الملكان على العبد من أقوال، فقال: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ أي: ما يتكلم بكلمة خير أو شر ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ ملَك عن يمينه يرقُب قوله ويحفظه ويكتب حسناته و﴿عَتِيدٌ﴾ مَلَك آخر عن شماله، حاضر معه لا يفارقه، يكتب سيئاته، والملكان لا يفارقان العبد إلا عند قضاء الحاجة، وعند مجامعة الرجل زوجه، فإنهما يتأخران عنه، فلا يجوز للعبد أن يتكلم في هاتين الحالتين؛ حتى لا يؤذي الملكيْن بدنُوِّهِما منه وهو على تلك الحالة.

قيل: إن رقيب وعتيد اسمان للمَلَكين.

وورد أنهما يكتبان كل ما يصدر عن العبد حتى أنينه في مرضه، وهو ظاهر الآية، ثم يُمحى ما ليس فيه ثواب ولا عقاب، كما قال تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد].

وقال بعض العلماء: لا يُكتب من الأعمال والأقوال إلا ما فيه ثواب وعقاب.

قال مجاهد: عن اليمين كاتب الحسنات، وعن الشمال كاتب السيئات[(١)].

وقال ابن عباس ﷺ: يكتب الملكان كل ما تكلم به العبد من خير أو شر، حتى إنه ليكتب قوله: أكلت، وشربت، وذهبت، وجئت، حتى إذا كان يوم الخميس عُرِض قوله وعمله، فأُقر منه ما كان فيه خير أو شر، وأُلقي سائره، فذلك قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾[(٢)] [الرعد: ٣٩].

ويجرى للعبد في مرضه وسفره ما كان يفعله قبل ذلك:

عن عطاء بن يسار يبلُغ به النبي ﷺ قال: «**إذا مرض العبد قال الله للكرام الكاتبين:**

---

(١) «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٢٤) عن ابن جريج وابن المنذر.

(٢) أخرجه الطبري وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (١٣/ ٦٢١).

اكتبوا لعبدي مثلَ الذي كان يعمل، حتى أقبضه أو أعافيه»[١].

وفي حديث أبي موسى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا مرض العبد، أو سافر كُتِب له مثل ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا**»[٢].

وقد اقتصرت الآية على كتابة اللفظ دون العمل اكتفاء بما جاء في الآية السابقة، وفي آيات أخر، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار].

وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار..**»[٣].

على أن الأعمال لا تخلو من مصاحبة الأقوال لها، والأقوال هي المقصودة ابتداء من هذا التحذير، ومن الآيات التي تعم الأقوال والأفعال قوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٩﴾ [الجاثية: ٢٩] والمراد بلفظ: ﴿كِتَٰبُنَا﴾ ديوان الحفظة.

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ۝١٢﴾ [يس].

وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٦﴾ [المجادلة].

وقوله سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۝٨٠﴾ [الزخرف].

وللكلمة التي ينطق بها العبد نتائج كبيرة، قد تكون وخيمة، تعود عليه بالوبال، وقد ترفعه إلى أعلى الدرجات:

عن بلال بن الحارث المزني ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى، ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله ﷻ له بها رضوانه إلى يوم**

---

(١) في البخاري (٢٦٩٦) و ابن أبي شيبة (٣/ ٢٣٣) قال الألباني في «إرواء الغليل» (٢/ ٢٤٧): صحيح الإسناد إلا أنه مرسل. وقد جاء موصولا في حديث أبي موسى في المسند (١٩٦٧٩) بإسناد صحيح على شرط البخاري، أفاده محققوه، ومصنف ابن أبي شيبة (٣/ ٢٣٠) وعبد بن حميد في المنتخب (٥٣٤) والبيهقي في السنن (٣/ ٣٧٤) والشعب (٩٩٢٨).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٢٩٩٦).

(٣) من حديث أبي هريرة في البخاري (٥٥٥) ومسلم (٦٣٢).

يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سُخط الله تعالى، ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله ﷻ له بها سخطه إلى يوم يلقاه»[١].

فكان علقمة يقول: كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث.

ولفظ أبي هريرة ﷺ في البخاري: **«إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، لا يُلقي لها بالًا، يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم الكلمة من سخط الله، لا يُلقي لها بالًا، يهوي بها في جهنم»**[٢].

ولذا: فإن الله تعالى يقول: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ [الإسراء].

وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله ﷻ تجاوز لأمتي ما حدَّثت به أنفسها، ما لم تعمل أو تكلم به»**[٣].

قال الحسن البصري: يابن آدم، بُسطت لك صحيفة، ووُكِّل بك ملكان كريمان: أحدهما عن يمينك، والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت، أقْلل أو أكثر حتى إذا متَّ طُويتْ صحيفتك، وجُعلتْ معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة، فعند ذلك يقول: ﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣].

المِحْوَرُ الثَّانِي عَنِ الإِنْسَانِ فِي السُّورَةِ: الاحْتِضَارُ عِنْدَ المَوْتِ

١٩- ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾

ثم بيَّن الله سبحانه حال الإنسان الغافل، المكذب بآيات الله، إذا جاءته شدة الموت

---

(١) «المسند» (٣/ ٤٦٩) برقم (٨٤١١) عن أبي هريرة بنحوه، قال محققوه: وهو حديث صحيح، وأخرجه الترمذي برقم (٢٣١٩) و«سنن ابن ماجه» برقم (٣٩٦٩) والنسائي في «السنن» كما في «تحفة الأشراف»: (٢/ ١٠٣) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (١/ ٤٤) وذكره الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٨٨٨).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦٤٧٨) وانظر: (٦٤٧٧) وأخرجه مسلم مختصرًا برقم (٢٩٨٨).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٢٥٢٨، ٥٢٦٩) و«صحيح مسلم» برقم (١٢٧) واللفظ له، وأبو داود برقم (٢٢٠٩) والترمذي برقم (١١٨٣) وقال: حسن صحيح.

وكَرْبه وغمْرته، حالة الاحتضار عند مفارقة الحياة، وهو فراق بالحق الذي لا مردَّ له ولا مَنَاص منه، فهي سَكْرة تغشى الإنسان وتغْلب على عقله، وهي سَكرة لا مطمع له في امتداد الحياة بعدها، ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ وهذا الموت أمر مكتوب ومقدَّر على الناس جميعًا، فهو حق لا باطل معه، ولا تخلُّف له، ولا عدول عنه ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: هذا الموت -أيها الإنسان- ﴿مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ هو الذي كنت تفرُّ وتهرب منه وتخاف من لقائه، فلا فكاك منه ولا مناص.

والسَّكْرة: اسم لما يعتري الإنسان من اختلال في المزاج يحجب الإدراك، ويعتري العقل غيبوبة، وعندما يأتي الموت يتضح الحق، ويظهر صدق ما جاءت به الرسل من الإخبار بالبعث والجزاء.

في الحديث: عن عائشة ﵂ أن النبيَّ ﷺ لَمَّا تغشَّاه الموت جعل يمسح العرَق عن وجهه ويقول: **«سبحان الله، إن للموت لسكرات»**(١).

وفي لفظ الحاكم: **«اللهم أعني على سكرات الموت»**(٢).

وفي الحديث: عن عبادة بن الصامت ﵁ أن النبيَّ ﷺ قال: **«من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»**(٣).

ولما قالت عائشة ﵂: إنا لنكره الموت، قال ﷺ: **«ليس ذلك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله، وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حُضر بُشِّر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، فكره لقاء الله، وكره الله لقاءه»**(٤).

---

(١) البخاري (٤٤٤٩، ٦٥١٠) وابن أبي شيبة (١٠/ ٢٥٨) والترمذي (٩٧٨) وابن ماجه (١٦٢٣) والنسائي في «الكبرى» (٧١٠١، ١٠٩٣٢).

(٢) «المستدرك» (٢/ ٤٦٥). برقم (٣٧٣١) قال الحاكم: صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه، عن عائشة، وقد ضعفه الألباني في ضعيف سنن ابن ماجه (١٦٢٣).

(٣) صحيح البخاري (١٦٤٢) وصحيح مسلم عن عائشة (٢٦٨٤).

(٤) «صحيح مسلم» (٢٦٨٣) و«صحيح البخاري» (٦٥٠٧) عن عبادة وعائشة، وفي مسلم مطولًا عن عائشة برقم (٢٦٨٤) وفي مسلم أيضًا عن أبي موسى برقم (٨٦٨٦) والبخاري (٦٥٠٨) و«المسند» (٢٢٦٩٦) والترمذي (١٠٦٦، ٢٣٠٩) والنسائي (١٨٣٥).

والذي يحب لقاء الله هو الذي يطمع في ثوابه، والذي يكره لقاءه هو الذي يخاف من عذابه.

وقد جاء في الأثر: «**إن المؤمنَ إذا حضرتْه الوفاة رأى ما أعد الله له من خير، فأحب لقاء الله**» والكافر عكسه.

وقد خاطب الله تعالى اليهود بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨]. وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦﴾ [الجمعة].

ولما بكت عائشة ﷺ عندما حضرت الوفاة أبا بكر ﷺ، وأنشدت شعرًا ترثيه، قال لها: لا تقولي ذلك، ولكن قولي: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩﴾[1].

ولما مات الوليد بكتْه أم سلمة، وقالت فيه أبياتًا ترثيه، فقال لها النبي ﷺ: «**لا تقولي هكذا يا أم سلمة، ولكن قولي**: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩﴾»[2].

و﴿مَا﴾ في الآية، إما أن تكون موصولة، فيكون المعنى: سكرة الموت الذي كنتَ تبتعد منه وتفر، وإما أن تكون نافية، فيكون المعنى: ما كنت تقدر على الفرار منه أو الحيد عنه.

والقرآن يصوِّر خروج الروح أروع تصوير، فيقول: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝٨٣ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۝٨٤ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝٨٥﴾ [الواقعة].

وكما بدأ الله خلق الإنسان في قرار مكين لا سلطان للبشر عليه، فإنه ينتهي كذلك إلى وضعٍ لا حيلة للبشر فيه، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ۝٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ۝٢٨ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠﴾ [القيامة].

والموت قضاء الله لا رادَّ له ولا مفرَّ منه كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمن].

ولم يُكتَب لأحد الخلود في الدنيا كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزمر].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ۝٣٤ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥﴾ [الأنبياء].

---

(١) أحمد في «الزهد» ص ١٠٩ والطبري (٢١/ ٤٢٧) وأبو عبيد في «الفضائل» ص ١٨٤ .

(٢) أخرجه ابن سعد عن عروة (٤/ ١٣٣).

وقال جل شأنه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران].

وعن أبي ذر ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، فما كانت صحف موسى ﷺ؟ قال: **«كانت عِبَرًا كلها: عجبتُ لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح، عجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك، عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينْصَب، عجبت لمن رأى الدنيا وتقلُّبها بأهلها ثم اطمأنَّ إليها، عجبت لمن أيقن بالحساب غدًا ثم لا يعمل»**[1].

و **«القبر إما روضة من رياض الجنة، وإما حفرة من حفر النار»**.

المِحْوَرُ الثَّالِثُ: يَتَعَلَّقُ بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ وَيَبْدَأُ بِالنَّفْخَةِ الثَّانِيَةِ

٢٠- ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾

وهذا النفخ يكون يوم الوعيد الذي توعَّد الله به الكفار بالعذاب، ووعد المؤمنين فيه بالثواب والنعيم، وبعده تقوم الساعة ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾ أي: ذلك الزمان الذي يُنفخ فيه في الصور هو يوم الوعيد، أي: يوم القيامة، وهذه هي النفخة الثانية.

وعن النفختين معًا يقول تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر].

وعن النفخة الثانية يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [النمل].

في الحديث: عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«كيف أَنْعَمْ وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنى جبهته، وانتظَر أن يؤذن له»**؟ قالوا: يا رسول الله، كيف نقول؟ قال: **«قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل»** فقال القوم: حسبنا الله ونعم الوكيل[2].

---

(١) من حديث طويل عند ابن عساكر (٢٣/ ٢٧٦). وهو في صحيح ابن حبان (٣٦١) وفي ضعيف الترغيب والترهيب (١٣٥٢) قال الألباني: ضعيف جدا.

(٢) يُنظَر: تخريج الحديث والكلام عن الصور في سورتي [النمل: ٨٧، والزمر: ٦٨] والحديث في «سنن النسائي الكبرى» (١١٠١٦) وأخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٣٩٦) وهو في «شرح مشكل الآثار» للطحاوي (٥٣٤٤). وهو عن ابن عباس في المسند (٣٠٠٨) قال محققوه: حسن لغيره، لضعف عطية العوفي، وأخرجه ابن أبي شيبة (١٠/ ٣٥٢) والطبراني (١٢٦٧٠) وابن حبان (٨٢٣).

قال ابن عباس ﷺ: كيف نفرح والموت من ورائنا، والقبر أمامنا، والقيامة موعدنا، وعلى جهنم طريقنا، وبين يدي الله موقفنا؟!

وعن هذه النفخة الثانية أيضًا يقول تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ۝١٧ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨﴾ [الحاقة].

فالكل مكشوف، والنفوس خاشعة ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

﴿۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ۝١١١﴾ [طه].

يقف الإنسان بين يدي ربه عاري النفس والجسد، والضمير والوجدان، والكل مشغول بنفسه ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾ [عبس].

السَّائِقُ وَالشَّهِيدُ:

٢١- ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ۝٢١﴾

ويوم القيامة تأتي كل نفس -مؤمنة أو كافرة، مطيعة أو عاصية، برَّة أو فاجرة- ومعها ملَك يسوقها إلى أرض المحشر، وملَك آخر من الحفظة، يشهد عليها بما عملت في الدنيا من خير أو شر، بما حوته صحف أعمالهم فلا يمكنها أن تتأخر عنه.

والسائق هو الذي يجعل غيره أمامه في السير حتى لا ينفلت منه.

وقيل: السائق هو الملَك، والشهيد هو الكتاب الذي يلقاه منشورًا، يشهد عليه بعمله وقوله، من خير أو شر.

قرأ عثمان بن عفان ﷺ هذه الآية ثم قال: سائق يسوقها إلى أمر الله، وشهيد يشهد عليها بما عملت(١).

وعن ابن عباس ﷺ: السائق من الملائكة، والشاهد من أنفسهم: الأيدي والأرجل...

وعلى قول ابن عباس -إن صحَّ عنه- فإن الشهود على الإنسان من جوارحه يوم القيامة

(١) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ٢٣٧) وابن أبي شيبة (١٣/ ٥٥٨) والطبري (٢١/ ٤٢٩) وابن عساكر (٣٩/ ٢٤٧).

تكون فقط على المعاصي، وهم **شهود عشرة**: ستة من الإنسان نفسه، وأربعة من خارجه، أما الستة فهي: اللسان، واليد، والرجل، والسمع، والبصر، والجلد، وجاءت الثلاثة الأولى في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور] والثلاثة الأخيرة في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [فصلت].

أما **الأربعة الباقية** فهي:

١- الحفظة الكرام الكاتبون ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾.

٢- والأرض ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾﴾ [الزلزلة].

٣، ٤- والليل والنهار.

ففي الأثر: **«ما من يوم وليل يأتي على ابن آدم إلا قال: أنا ليل جديد وعلى ما تعمل فيَّ شهيد»**.

والملائكة والبقاع من الأرض يشهدان للعبد بالخير والعمل الصالح، كما في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ: **«لا يسمع صوت المؤذن إنس ولا جن ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة»**[(١)] كما أنهما يشهدان عليه بالشر.

وفي يوم المشهد العظيم والوقوف العصيب بين يدي الله تعالى يقال للإنسان الكافر:

٢٢- ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾

لقد كنت - أيها المعرض عن آيات الله - في غفلة من هذا الذي عاينته اليوم، كنت في غفلة عن الحساب فأنكرته، وكنت في غفلة عن لقاء الله فكرهته، وكنت في غفلة عن الحساب فجحدْته، وعن النار فما اتقيتها، كنت في غفلة عن الجنة فلم تعمل لها، وفي هذا اليوم كشفنا عنك غطاء الغفلة والنسيان، كشفنا عنك غطاء الجحود والنكران ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ بصرك اليوم قويٌّ نافذٌ حادٌّ، يرى ما كنت تُنكر، ويُبصر ما كنت تجحد.

والغفلة: هي الذهول عما من شأنه أن يُعلَم، وقد بيَّنَّا لك الدليل -أيها الغافل- بالحس المشاهد في هذا اليوم ليحصل لك اليقين بعد الإنكار، فقد شاهدت البعث والحشر

(١) من حديث أبي سعيد في البخاري (٦٠٩، ٣٢٩٦، ٧٥٤٨).

والحساب والجزاء، وزالت عنك الغفلة والغطاء الذي غطَّى على قلبك ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة].

والمخاطب في ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ قيل: هو كل إنسان، وقيل: هو الكافر، يقال له ذلك توبيخًا ولوْمًا وتعنيفًا وعلى هذا جرى تفسير الآية.

والله سبحانه يخاطبنا في الدنيا بهذه الآية ونحوها، لنحذر ونستعد للقاء الله تعالى: أما في يوم القيامة فإنه لا يُستدرك ما فات.

وفي الآية ما يدل على اعتناء الله تعالى بعباده وأنه يحفظ عليهم أعمالهم ويحصيها ويجازيهم عليها بما يستحقون.

ويوم القيامة يأتي الملك الموكّل بالكافر إلى ساحة الحشر كما يأتي الشُّرطيُّ بالمجرم إلى مجلس القضاء، ويقول الملك: هذا ما وُكِّلتُ به في الدنيا، أحضرته بصحيفة أعماله إلى ساحة العدل الإلهية:

٢٣- ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾

وبعد أن تأتي كل نفس معها سائق وشهيد، وتأتي الأمم جاثية على ركبها فزَعًا، وتأتي الصحف منشورة، وكل إنسان قد عُلِّق كتابه في عنقه، وتأتي الرسل والشهداء، واستعدَّ الجميع للمحاكمة، وتهيأت كل الظروف، وأشرقت الأرض بنور ربها، عندئذ يبدأ القضاء بين العباد، فيأتي السائق والشهيد، أو يأتي رقيب وعتيد، أي: الملكان الموكلان بكتابة أعمال الإنسان، ولكل إنسان قرينان، ويشهد لهذا المعنى: تثنية الضمير بعد ذلك في قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ ولكن الذي يقود الكافر إلى ساحة العدل هو ملَك واحد، أي: قال الملَك الموكَّل بسوْقه إلى أرض المحشر، وهو الملك الذي كان يكتب السيئات، قال وهو يشير إلى صحيفة أعماله وما فيها من سيئات: هذا ما عندي من ديوان عَملِه، معدٌّ ومهيَّأ للعرض، وهذا هو صاحب الكتاب -الكافر المشرك بالله- حاضر معي، ثم تكون المساءلة والمحاسبة لمرتكبي الجرائم في الدنيا.

ويسأل الله الجميع، الرسل والمرسل إليهم: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأعراف].

وتعطي العدالة الإلهية فرصة للدفاع والجدال: ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [النحل].

ويقول الإنسان الكافر: لا أقبل شاهدًا عليَّ إلا من نفسي، ويجيبه ربه إلى طلبه، ولكنه حين يتكلم يكذب، فيقول: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] فيختم الله على فمه، وتنطق جوارحه فتشهد بعمله.

وتحدُث خصومة بين الإنسان وأعضائه: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت].

وما أكثر الخصومات في ساحة العرض والحساب! ويكون حكم الله القاطع: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الزخرف]

ويأتي موقف التلاوم بين أهل النار من الرؤساء والضعفاء، فلا يفيدهم شيئًا، ويحاولون الخروج من النار بكل سبيل دون جدوى.

سِتَّةُ أَوْصَافِ لِلْكَافِرِ الْمُسْتَوْجِبِ لِعَذَابِ النَّارِ

٢٤، ٢٥- ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾

وصف الله ﷻ الكافر المستحق للخلود في نار جهنم بستة **أوصاف**، هي أنه:

١- كَفَّار. ٢- عنيد. ٣- منَّاع للخير. ٤- معتدٍ.

٥- مريب، أي: شاك في دينه، ويشكك الناس فيه. ٦- مشرك بالله تعالى.

وعندما يتم الحُكْم العادل، ويتم الفصل بين الخلائق، يأمر الله تعالى الملَكين - السائق والشهيد - قائلًا: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾ اقذفا في النار كل كافر قوي العناد والمكابرة، يدفع الحق بالباطل.

وقد وَصفت الآيات من يُلقَى في جهنم بستة أوصاف، ذكرت هذه الآية منها وصفين، هما: الكفر والعناد، والكَفّار: صيغة مبالغة، أي كثير الكفر، والعنيد، هو المعاند، المكثر من المعاصي، المجترئ على المحارم والمآثم.

وذكرت الآية التي بعدها ثلاثة أوصاف أخرى هي أنه:

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي: كثير الصد للناس عن الإيمان بالله، وكثير منع الفقراء من المال.

وهو ﴿مُعْتَدٍ﴾ أي: ظالم يعتدي على الناس بالأذى، ويعتدي على الإسلام بالتكذيب والباطل.

وهو ﴿مُّرِيبٍ﴾ يشكك غيره في الإسلام، وفي رسول الإسلام، وفي الكتاب الذي نزل عليه، ويشك في وعد الله تعالى ووعيده فلا إيمان ولا إحسان، ولكنه في كفر وعناد وشك وعدوان، وريب وشح، واتخاذ آلهة من دون الله. قال تعالى في شأن المشرك:

٢٦- ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦)﴾

هذا هو الوصف السادس للكافر، وهو أنه قد أشرك مع الله غيره، فعبد معه معبودًا آخر من خلقه: حجرًا، أو بشرًا، أو ملكًا، أو شيطانًا، أو كوكبًا، ... إلخ.

ولا يملك نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

والإله الآخر قد يكون شيئًا ماديًا: كحب المال المفرط، أو الجاه والسلطة، أو الزوجة، أو الحبيبة إلى درجة الاستغراق الصارف عن عبادة الله تعالى.

وقد يكون الإله الآخر شيئًا معنويًا: كحب الهوى والشهوة وإشارة الشيطان ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [الفرقان: ٤٣].

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ [الجاثية].

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«يخرج عُنق من النار يتكلم، ويقول: وُكِّلتُ اليوم بثلاثة: بكل جبار، ومن جعل مع الله إلهًا آخر، ومن قتل نفسًا بغير نفس، فتنطوي عليهم، فتقذفهم في غمرات جهنم»**[1].

﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ أيها الملكان ﴿فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ أي: في عذاب جهنم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

---

(١) «المسند» (٣/ ٤٠) برقم (١١٣٥٤) قال محققوه: بعضه صحيح لغيره، لأن فيه عطية العوفي وباقي رجاله ثقات، وأبو يعلى (١١٣٨) والبزار (٣٥٠٠) والطبراني في الأوسط (٣٢٠، ٣٩٩٣) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٦١٣): أحد إسنادي الطبراني رجاله رجال الصحيح، و أخرجه ابن أبي شيبة (١٣/ ١٦٠).

الْقَرِينُ مِنَ الشَّيَاطِينِ يَتَنَصَّلُ مِنْ إِغْوَائِهِ لِلْكَافِرِ فِي سَاحَةِ الْعَرْضِ وَالْحِسَابِ

٢٧- ﴿۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾﴾

أي: إن الكافر العنيد حين يلقى في النار يتنصَّل من كُفره وعناده ويُلقي بالتبعة على قرينه الذي كان يُزيِّن له الكفر، فيقول الكافر: يارب، هذا شيطاني هو الذي أطغاني، فأغواني وحسَّن لي المعاصي، فيجيب عليه الشيطان نافيًا ذلك، ومبيِّنًا أنه كان فاسدًا في حد ذاته، منغمسًا في الضلال من تلقاء نفسه.

﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي: شيطانه الذي كان معه في الدنيا يغويه ويضله، قال متبرئًا منه حاملًا عليه إثمه ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ ما أمرْتُه بالطغيان، ولا زيَّنتُ له المعاصي، ولا أجْبرتُه على الكفر إذ ليس لي عليه سلطان ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ فضلَّ باختياره، وآثر العمى على الهدى من غير إكراه ولا إجبار، فالضلال أصيل متمكن منه وليس بتابع فيه؛ لأن التابع في شيء لا يكون متمكِّنًا منه.

فالقرين الأول الذي في الآية السابقة هو الملَك، والقرين الآخر الذي هو في هذه الآية هو الشيطان، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف].

وقال سبحانه: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥].

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ما منكم من أحد إلا وكِّل به قرينه من الجن»** قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: **«وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير»**[(١)].

ويوم القيامة يدافع الشيطان عن نفسه بأنه لم يضل بني آدم، فيقول كما حكى الله تعالى عنه: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢].

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٨١٤).

الْفَصْلُ بَيْنَ الْخُصُومَاتِ يَوْمَ لِقَاءِ اللهِ

٢٨، ٢٩- ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾

وعندما يختصم الكافرون مع قرنائهم، ويختصم التابعون مع المتبوعين بين يديْ رب العزة جلَّ جلاله، يأتي النداء من عنده تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ أي: لا تتنازعوا عندي اليوم في موقف الحساب والجزاء؛ إذ لا فائدة من ذلك فقد استوجبتم النار جميعًا، فلا ينفع الخصام ولا الجدال، وقد سبق أن أنذرتكم في الدنيا على لسان رُسلي، وحذرتكم شديد عقابي، فلم تنفعكم الآيات والنذر ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ لمن كفر بي وعصاني، وقد جاءتكم رسلي بالآيات البينات، والحجج الواضحات، فقامت عليكم الحجة، وقدِمتم عليّ بما أسلفتم من الأعمال التي وجب جزاؤها، فالخصام في ساحة الحشر لا جدوى منه؛ لأن الكفار وقرناءهم من الشياطين يستويان في العذاب، فكلاهما مؤاخذ بذنبه، وإلقاء التبعة من بعضكم على بعض لا ينجيكم من العذاب، فقد تم إنذاركم بالوعيد في وقت حياتكم فلم تكترثُوا، فلا عذر لكم اليوم بعد أن أرْسَلتُ إليكم رسلي، وأنزلت عليكم كتبي، وتوعدتُ أهل الضلال وحذَّرتهم عاقبة أمرهم.

قال ابن عباس ﷺ: إنهم اعتذروا بغير عذر، فأبطل الله حجتهم وردَّ عليهم قولهم[١].

وهنا يأتي تنفيذ حكم الله تعالى بدخول أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وحكم الله تعالى لا يُغيَّر ولا يُبدل ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ أي: ما يُبدّل كلامي، ولا يُغير حكمي بعذاب الكفَرة والمجرمين، فقد حقَّت عليهم كلمة الله ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]. ولا أصدق من الله قيلا، ولا أصدق من الله حديثا.

وليس من شأن الله تعالى أن يعذب أحدًا بدون ذنب، ولا يعذب أحدًا بذنب غيره بعد قيام الحجة عليه ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾. بل أجزيهم بما عملوا من خير وشر، لا يزاد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم.

فلا تطمعوا في أنّ إلقاء المسؤولية على غيركم تُنجيكم من العقاب، فلا تلوموا إلا

(١) «تفسير الطبري» (٢١/ ٤٤٢).

أنفسكم، وما وعدتكم به في الدنيا من العذاب المهين واقع لا محالة، فإن قضاء الله تعالى عادل ولا يُرد بأسه عن القوم المجرمين.

وعن أنس ﷺ قال: فُرضت على النبي ﷺ ليلة أُسري به الصلاةُ خمسين، ثم نقصتْ حتى جُعلتْ خمسًا، ثم نودي: «يا محمد، إنه لا يبدل القول لديَّ، وإن لك بهذه الخمس خمسين»[1].

امْتِلَاءُ جَهَنَّمَ بِأَهْلِهَا

٣٠- ﴿يَوْمَ نَقُولُ[2] لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾

وبعد تنفيذ حكم الله تعالى في خلقه، ومع كثرة أهل النار، فإن جهنم لا تضيق بهم، بل فيها متسع لغيرهم، وهي متشوِّقة إلى الوفاء بما خُلقت له، وممتثلة لأمر ربها، لا تتلكأ ولا تتعلل ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾.

أي: اذكر -أيها الرسول- هذا اليوم الذي نقول فيه: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَيَّ﴾ ونقول فيه: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ هو نفسه اليوم الذي نقول فيه لجهنم: هل امتلأت من كل كافر عنيد، مَنَّاع للخير، معتد أثيم؟ هل اكتفيت بمن جعل مع الله إلهًا آخر؟ فتردُّ جهنم قائلة: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾؟ إنها تتلظى وتتغيَّظ شوقًا لأهلها، فتقول: هل من زيادة من الجن والإنس؟ فيضع الرب جلَّ وعلَا قدمه فيها، فينْزوي بعضها على بعض، وتقول: قط، قط، أي: امتلأت، امتلأت، وكان الله تعالى قد وعدها بالامتلاء حين قال: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩].

وقال أيضًا: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص].

وقيل: إن المعنى: إني قد امتلأتُ ولم يبق فيَّ موضع قدم، فهل هناك من زيادة لم تدخل النار بعد؟ فالاستفهام هنا إنكاري، بمعنى: لم يبق فيَّ مكان واحد، فهي ضيقة مكتظة على من فيها، وليست متَّسعة عليهم؛ لأن اتِّساعها يعني عدم شدة العذاب، والأمر ليس كذلك.

---

(١) «مصنف عبد الرزاق» واللفظ له (١٧٦٨) ومن حديث طويل في البخاري (٣٤٩، ٣٣٤٢) ومسلم (١٦٣) والنسائي (٤٤٧) وابن ماجه (١٣٩٩).

(٢) قرأ نافع وشعبة (يقول) بالياء، والضمير لله تعالى، والباقون بنون العظمة على الالتفات.

عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تزال جهنم يُلقَى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط**»[1]. أي: حسبي، حسبي.

قال تعالى في وصف جهنم وعذابها: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [المعارج].

وفي الحديث إثبات القدم لله تعالى على وجه يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تأويل ولا تعطيل.

وعن أبي سعيد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**احتجت الجنة والنار، فقالت النار: فيَّ الجبارون والمتكبرون، وقالت الجنة: فيَّ ضعفاء الناس ومساكينهم، فقُضي بينهما، فقال للجنة: إنما أنت رحمتي، أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي، أعذب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منكما ملؤها**»[2].

ونُطْقُ الجنة والنار نُطْق حقيقي، فقد أثبت الله تعالى نُطْق الجماد والشجر والحجر، كما في حديث مقاتَلة اليهود، واختبائهم خلف الشجر والحجر، فيُنطقه الله تعالى ويقول: «**يا مسلم، هذا يهودي ورائي فاقتله**»[3].

وقد أخبر الله تعالى أن نملة تكلمت، وأن كل شيء يسبح بحمد الله، وغير ذلك كثير.

نَعِيمُ الْمُتَّقِينَ يُقَرَّبُ مِنْهُمْ فِي الْجَنَّةِ

٣١- ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾

وبعد أن ذكر سبحانه أهل النار يذكُر أهل الجنة، فيقول سبحانه: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾ أي: قُرِّبت الجنة وأُدنيتْ من المؤمنين المتقين، فتكون بمرأى منهم إكرامًا

---

(١) «صحيح البخاري» عن أبي هريرة برقم (٤٨٤٩)، وانظر: (٤٨٥٠، ٧٣٨٤، ٧٤٤٩٠) يُنظَر: و«المسند» (٣/ ٢٣٤) (١٢٣٨٠، ١٢٤٤٠، ١٣٤٥٧) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، و«صحيح مسلم» برقم (٢٨٤٨) و«تفسير الطبري» (٢٦/ ١٠٦) والترمذي (٣٢٧٢) والنسائي في «الكبرى» (٧٧١٩، ٧٧٢٢٥) وغيرهم بألفاظ وطرق متعددة.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٤٦، ٢٨٤٧) ويُنظَر: «صحيح البخاري» برقم (٧٤٤٩).

(٣) من حديث أبي هريرة في البخاري (٢٧٦٨) ومسلم عن ابن عمر (٢٩٢١).

لهم، ويشاهدونها وينظروا ما فيها من النعيم المقيم والحبور والسرور زيادة في مسرتهم.

وهذه أول آية في السورة تبشر من اتقى الله تعالى بالجنة، والتقوى رتبة فوق رتبة الإيمان، كما قال تعالى في وصف أوليائه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس].

ولن يحصل المسلم على هذه الجائزة إلا إذا كان تقيًّا.

وقد سأل عمر بن الخطاب أُبَي بن كعب ﷺ عن التقوى، فقال له: أما سلكت طريقًا ذا شوك؟ قال: بلى، قال: فما فعلت؟ قال: شمَّرت، واجتهدت، قال: فذلك التقوى[1].

أي: كما تحتاج إلى تشمير وجد واجتهاد للوقاية من الشوك، فإنك تحتاج إلى التشمير عن ساعد الجد في امتثال الأوامر واجتناب النواهي لتقي نفسك من عذاب الله.

أَرْبَعَةُ أَوْصَافٍ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ

٣٢، ٣٣- ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ[2] لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ[3]﴾

أي: ويقال للمتقين الذين اتقوا الشرك وانقادوا للأوامر والنواهي: هذه هي الجنة التي وعدكم الله إياها، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وقد وعدها الله تعالى لكل رجّاع إليه، محافظ على ما أمر الله به، مقيم لحدوده، يخشى عذاب الله ويرجو رحمته.

وكما وصف الله الكفار المستحقين لعذاب النار بأوصاف ستة، هي: ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

وصف كذلك المتقين الذين تُقرَّب منهم الجنة **بأربعة أوصاف**، هي:

١- أوَّاب. ٢- حفيظ. ٣- خشي الرحمن بالغيب. ٤- جاء بقلب منيب.

فعندما يُشرِف المتقون على أبواب الجنة، يقال لهم: هذا الذي كنتم توعدون به في الدنيا أيها المتقون، لكل تائب من ذنوبه، حافظ لكل ما قرَّبه إلى ربه من الفرائض

---

(١) تفسير ابن كثير(١/ ٤١).

(٢) قرأ ابن كثير (يوعدون) بالياء، والضمير للمتقين، والباقون بتاء الخطاب.

(٣) حال وصل (منيب) بما بعدها، كسر التنوين أبو عمرو وعاصم وحمزة ويعقوب، وقنبل وابن ذكوان، بخلفهما وضمه الباقون.

والطاعات، محافظ على حدود الله، غير منتهك لحرماته.

وهذا الأوَّاب الحفيظ كان قد خاف الرحمن في الدنيا فأطاع ربه دون أن يراه لقوة يقينه، فامتثل أمره، واجتنب نهيه، واستحيا من معاصيه، وراقب ربه في السر والعلانية ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ أي: خافه ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: وهو غائب عنه لم يشاهده، يرجو رحمة الله ويخشى عذابه.

قال الحسن: إذا أرخى الستر وأغلق الباب.

قوله تعالى ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ أي: لقي ربه يوم القيامة تائبًا من ذنوبه، مقبلًا عليه، مخلصًا في طاعته، ومات موصوفًا بالإنابة، ولم يُبطل عمله الصالح في آخر عمره، وحضر يوم الحشر وهو مصاحب قلبه المنيب إلى ربه، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء].

ويقال لهؤلاء المؤمنين يوم القيامة:

٣٤، ٣٥- ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾

أي: ادخلوا الجنة دخولًا مصحوبًا بالسلامة من الشرور والآفات، مأمونًا فيه من جميع المكاره، سالمًا من العذاب والهموم والأكدار، يصحبه الأمن والطمأنينة، فلا انقطاع لنعيمهم ولا كدر ولا تنغيص.

ويجوز أن يكون المراد: أن الملائكة تسلِّم عليهم عند دخولهم الجنة.

ثم يقال لأهل الجنة: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ أي: يوم البقاء الذي لا ينتهي أبدًا؛ لأنه لا موت في الجنة ولا فناء.

ثم إن لهؤلاء المتقين في الجنة ما يريدون ويطلبون، من كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وذلك أنهم يسألون الله تعالى حتى تنتهي مطالبهم، فيعطيهم الله ما سألوا ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾. من كل ما تعلقت به مشيتهم واشتهته نفوسهم.

ثم يزيد الله عباده ما لم يسألوه، مما لم يخطر بقلب بشر، حيث يتجلى لهم رب العزة جلَّ في علاه، فينظرون إلى وجهه الكريم في دار كرامته، وهذا معنى ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة]. وهذا فضلًا عما يمدهم الله به من الثواب الجزيل والنعيم المقيم.

وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[1].

وعن صهيب بن سنان ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «**إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ يقول الله تعالى: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيِّض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة؟ ألم تنجِّنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أُعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم، ثم تلا: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾**»[2].

فالحسنى: هي الجنة، **والزيادة**: هي النظر إلى وجه الله الكريم، قال تعالى:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة].

وعن جرير بن عبد الله ﷺ قال: نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر، فقال:

«**إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامُّون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تُغلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا**»، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾[3].

ومعنى لا تضامون، أي: لا ينضم بعضكم إلى بعض فيحجب الرؤية عن الآخر.

السَّعِيدُ مَنِ اتَّعَظَ بِغَيْرِهِ

٣٦- ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾

وبعد أن تحدثت السورة عن البعث والنشور، واستدلَّت على إمكانهما عقلًا ونقلًا، انتقلت إلى التهديد والوعيد ببيان مصارع المكذبين بالله ورسله واليوم الآخر، وبيان أن الله تعالى قد استأصلهم في الدنيا، حتى يعتبر كل مكذب بالبعث إلى يوم القيامة، فيتدارك

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٢٤).

(٢) يأتي تخريجه في الآية التاسعة والثلاثين. وهو في صحيح مسلم (١٨١) والترمذي (٣١٠٥) بتصحيح الألباني.

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٥٥٤، ٥٧٣) و«صحيح مسلم» برقم (٦٣٣).

نفسه قبل أن يحلَّ أجله ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: وكم أهلكنا قبل هؤلاء المكذبين باليوم الآخر أممًا كثيرة، وهؤلاء الذين أُهلكوا كانوا أعتى منهم وأشد قوة، وأكثر سطوة، وأكثر جمعًا ممن جاء بعدهم ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾. أي: أشد منهم قوة وآثارًا في الأرض.

ثم إن هؤلاء السابقين ساروا في البلاد، وتجوَّلوا في أقطارها، وكانوا أكثر منكم سياحة، وضَرْبًا في الأرض، فلما حلَّ بهم بأس الله حاولوا الهرب من الهلاك، فأخذوا يبحثون وينقبون في جوانب الأرض عن وجود مهرب لهم ومفر ينجيهم من الهلاك فلم يفلحوا ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾. أي: لا مفر لهم من عذاب الله حين نزل بهم، فلم تغن عنهم قوتهم ولا أموالهم ولا أولادهم من الله شيًا.

فالآية تسجل للأجيال أن كثيرًا من الأمم التي تقلَّبت في الأرض، فعمَّرت فيها وفتَّشت عن أسباب الحياة، كانوا أشد منهم قوة وبطشًا، ولكنهم لَمَّا كفروا بالله ورُسله أخذهم الله بعذابه، ولم يجدوا لأنفسهم مفرًّا ينجيهم من النهاية الأليمة.

ولأهمية هذه الآية في تذكير النفوس الغافلة بمصارع الظالمين المكذبين، فإن لها نظائر مُرْعبة في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الإسراء].

وقوله سبحانه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾ [مريم].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا ﴿٧٤﴾﴾ [مريم].

وقوله ﷻ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص].

وقد كان هلاك المكذبين السابقين عن طريق البصر والرؤية المشاهدة، فالمشاهدة أقوى أنواع العلم، وإن آثار هؤلاء المهلكين باقية مشاهدة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام].

تلك نهاية الظالمين، وعاقبة الطغاة المتجبرين، والقرآن يذكُرهم بأسمائهم فيقول سبحانه: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ

﴿وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [النجم] فهل من معتبر؟!

صَاحِبُ الْقَلْبِ الْحَيِّ هُوَ الَّذِي يَتَّعِظُ

٣٧- ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾

إن فيما سبق ذكره من إهلاك القرى الظالمة لَتذْكرة وموعظة لمن كان له عقل يتدبر، أو أصغى إلى الموعظة بقلب حاضر لينتفع ويعتبر ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ واعٍ يعي ما يسمع، ويعقل ما يوجَّه إليه ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أي: صَرَف سمعه وأصغى إلى ما يُلقى إليه من وعظ وحِكَم ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ حاضر بقلبه، غير غافل ولا ساهٍ ولا لاهٍ، فأقبل على الله تعالى غير مدْبر ولا معرض.

قال الضحاك: العرب تقول: ألقى فلان سمعه، إذا استمع بأذنيه، وهو شاهد بقلب غير غائب، ويعبَّر بالقلب في القرآن عن العقل.

وهكذ: فإن من تذكَّر واهتدى بهدى الله تعالى، انتفع وارتفع، ومن استمع إلى آيات الله تعالى ليسترشد ويهتدى وقلبه حاضر يعي ما يستمع إليه، فإنه يتعظ وينتفع ويهتدى بهدْي الله.

أما المعرض عن الموعظة وعن الاستماع إليها، فإنه لا ينتفع ولا يهتدى.

الرَّدُّ عَلَى زَعْمِ الْيَهُودِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اسْتَرَاحَ يَوْمَ السَّبْتِ

٣٨- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾

في هذه الآية تكذيب لمزاعم اليهود في قولهم: إن الله تعالى قد أصابه التعب من خلق الكون، فاستراح يوم السبت.

وذلك أن خلْق السموات والأرض، أعظم وأكبر من البعث الذي ينكره الملحدون، فما على منكري البعث إلا أن يتأملوا في خلق العالم العلوي والعالم السفلي، فيستدلوا بذلك على إمكانية إحياء الله تعالى للموتى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: خلق الله السموات السبع بلا عمد، مع ارتفاعها وعظمتها، وما فيها من الملائكة والأجرام السماوية والأفلاك والكواكب والعرش والكرسي وسدرة المنتهى ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢].

وخلق سبحانه الأرض في كثافتها واتساعها، وما فيها من كنوز ومعادن، وجبال وبحار، وأنهار وأشجار، وما إلى ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: وخلقنا ما بين السماء والأرض من مخلوقات وكائنات لا يعلمها إلا الله، وقد استغرق خلقهما ستة أيام، أولها الأحد وآخرها الجمعة بمقدار أيام الدنيا، فقد خلق الأرض في يومين، والسموات في يومين، ثم قدر أقوات الأرض وأرزاقها في يومين من غير تعب ولا نصب ولا لغوب ولا إعياء.

ورد عن ابن عباس ﷺ: أن اليهود سألت النبي ﷺ عن خلق السموات والأرض، فقال: «**خلق الله الأرض يوم الأحد والإثنين، وخلَق الجبال يوم الثلاثاء، وخلَق السموات يوم الأربعاء والخميس، وخلَق يوم الجمعة، النجوم والشمس والقمر**» قالت اليهود: ثم ماذا يا محمد؟ قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ قالوا: قد أصبت لو أتممت: ثم استراح، فغضب رسول الله ﷺ غضبًا شديدًا، فنزلت الآية(١).

واتفق الجميع على أن آدم خُلق يوم الجمعة.

قال سعيد بن جبير: الله تعالى قادر على أن يخلق السموات والأرض وما بينهما في لمحة ولحظة، ولكنه سبحانه خلقهن في ستة أيام ليُعلِّم عباده التثبت في الأمور والتأني فيها.

وقد اقترن خلق السموات والأرض بالزمن الذي هو ستة أيام، في سبعة مواضع من كتاب الله تعالى(٢).

كما اقترن خلق السموات والأرض وما بينهما بثلاثة أشياء، هي: الحق(٣) ونفي اللعب(٤) ونفي الباطل(٥).

وقد تقدم الحديث عن السموات والأرض في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ

---

(١) «أسباب النزول» للواحدي ص ٣٢٨، وانظر: «تفسير الطبري» (٢٦/ ١١٢).

(٢) هي: [الأعراف: ٥٤]، و[يونس: ٣]، و[هود: ٧]، و[الفرقان: ٥٩]، و[السجدة: ٤]، و[الحديد: ٤]، و[ق: ٣٨].

(٣) [الحجر: ٨٥].

(٤) [الأنبياء: ١٦].

(٥) [ص: ٢٧].

﴿فَوۡقَهُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ﴾ وانظر الآيات من٩-١٢ في هذه السورة وكان بعض اليهود بمكة يقولون: إن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام، واستراح في اليوم السابع[1].

والاستراحة تَعْني التعب والإعياء، والله تعالى منزَّه عن ذلك، ولذا جاء ختام الآية ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ﴾ أي: وما أصابنا من ذلك الخلق نصَب ولا وصَب.

وفي هذا دلالة على عِظَم قدرة الله تعالى، وأنه سبحانه قادر على إحياء الموتى من باب أولى، قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف].

والله تعالى قادر على خلق الكون بقوله: ﴿كُن﴾ ولكنه سبحانه يُعلِّم عباده التأني والتثبت في الأمور.

ثَلاثَةُ أَسْلِحَةٍ يُسْتعَانُ بِهَا عَلَى تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ

٣٩-٤١- ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ[2] ٱلۡمُنَادِ[3] مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ﴿٤١﴾﴾

ولما ذكرت السورة إنكار المكذبين بالرسالة والبعث والنشور أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يستعين على تكذيبهم **بثلاثة أسلحة**، هي: الصبر، والصلاة مع التسبيح، وهذان في الدنيا، والسلاح الثالث: ترقُّب عقاب الله تعالى لهم في الآخرة.

السلاح الأول: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ اصبر يا أيها النبي، ويا أيها الداعية إلى الله تعالى في كل زمان ومكان، على تكذيب الكافرين لك بالبعث والنشور، فإن ما جئتهم به هو الحق من عند الله، والله تعالى لهم بالمرصاد، واصبر على ما يقوله اليهود، وما ينتقصون به الذات العليَّة، فإن الصبر هو السلاح الأول للدعوة، ولذلك فقد كان التسليح بالصبر من أول ما أمر الله به رسوله، حين كلفه بالدعوة إليه في الآيات الأولى التي أرسله

(١) وهذا مكتوب في سفر التكوين من التوراة، وهو تحريف من اليهود.

(٢) أثبت يعقوب وابن كثير الياء وقفًا في (يناد)، واتفق الجميع على حذفها وصلًا.

(٣) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بإثبات الياء وصلًا من (المناد) وقرأ ابن كثير ويعقوب بإثباتها في الحالين، والباقون قرؤوا بحذفها في الحالين.

الله بها إلى العالمين، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ [المدثر].

وكان هذا الصبر ضمن خمسة أسلحة يواجه بها الرسول ﷺ ظلمات الضلال، وتمرُّد العصاة، وإصرار المعاندين، وعقبات الدعوة، فالصبر زاد كل نبي، ودرع كل داعية.

السلاح الثاني: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: اشتغل عن المكذبين بك بطاعة ربك وتسبيحه أول النهار وآخره، وفي وقت السحر، وأدبار الصلاة، ونحو ذلك، وصلِّ لربك حامدًا له، قبل طلوع الشمس في صلاة الصبح، وقبل الغروب في صلاتي الظهر والعصر، وصلِّ من الليل صلاتي المغرب والعشاء، وسبِّح بحمد ربك عقب الصلوات.

والتسبيح: هو تنزيه الله تعالى عن كل نقص، والبراءة من كل ما لا يليق بكمال ذاته، وجلال صفاته، وعظيم قدْره وسلطانه، وقد يطلق التسبيح على الصلاة.

والحمد: هو الثناء الجميل لواهب النعم، ومانح المنن.

وقد جاء التسبيح بلفظ الماضي في سور: الحديد والحشر والصف.

وبلفظ المضارع في سورتي: الجمعة والتغابن، وبلفظ المصدر في سورة الإسراء.

وجاء الحمد في فواتح سور خمس، هي:

١ - الفاتحة، حيث حمد الله تعالى نفسه في أول كتابه.

٢- وفي أول سورة الكهف، حيث حمد الله تعالى نفسه على إنزال القرآن.

٣- وفي أول سورة الأنعام، حيث حمد الله سبحانه نفسه على خلق السموات والأرض.

٤- وفي أول سورة سبأ، حيث حمد الله تعالى نفسه على أنه المالك المتصرف في هذا الكون.

٥- وفي أول سورة فاطر، حيث حمد الله تعالى نفسه على أنه جعل الملائكة رسلًا أولي أجنحة.

وكما افتتح الله سبحانه خلق السموات والأرض بالحمد في أول سورة الأنعام، اختتم حال الخلق يوم البعث بالحمد في بعض السور، ومنها قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٥﴾ [الزمر].

والتسبيح في الأصل: هو التنزيه كما سبق بيانه، وقد يراد به الصلاة كما في هذه الآية، وهو من أسمائها.

قال ابن عطية: أجمع المتأولون على أن التسبيح هنا هو الصلاة[1] وكان النبي ﷺ يصاب بالأذى وهو فيها.

وقد كان المشركون يستهزئون بالنبي ﷺ وبالمؤمنين إذا قاموا إلى الصلاة:

ومن ذلك قصة إلقاء عقبة بن أبي معيط سَلاَ الجَزُور على ظهر النبي ﷺ وهو ساجد في حجر الكعبة، وجاء عقبة فوضع ثوبه على عنُق النبي ﷺ فخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر وأخذ بمنكبه فدفعه عن النبيِّ ﷺ وهو يقول: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ۝١٩﴾ [العلق].

وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: كنا جلوسًا عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر فقال: «**إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تُضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وغروبها فافعلوا**»[2].

قال ابن كثير: وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء اثنتين: قبل طلوع الشمس في وقت الفجر، وقبل الغروب في وقت العصر، وكان قيام الليل واجبًا على النبي ﷺ وعلى أمته حوْلًا، ثم نُسخ في حق الأمة وُجُوبُه، وبقي واجبًا على النبي ﷺ وحده، حتى نسخ الله ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات، وجعل منهن صلاتي الصبح والعصر، فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب[3].

---

(١) «تفسير ابن عطية» (٥/ ١٦٨).

(٢) هذا لفظ مسلم برقم (٦٣٣) ويُنظَر: «صحيح البخاري» برقم (٤٨٥١) و«المسند» (٤/ ٣٦٥) وأبو داود برقم (٣٧٢٩) والترمذي برقم (٢٥٥١) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٣٣٠) وابن ماجه برقم (١١٧). والحديث في نهاية الآية (٣٥).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٠٩).

أما التسبيح في أدبار السجود فهو التسبيح بعد الصلاة، أو هو صلاة النوافل.
وقيل: هو الركعتان بعد المغرب، وقيل: صلاة الوتر.

ودليل القول الأول وهو أن المراد بالتسبيح الأذكار التي تقال عقب الصلوات المكتوبات: ما ثبت عن أبي هريرة ﷺ: أن النبيَّ ﷺ جاءه فقراء المهاجرين، فقالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالدرجات العلا، والنعيم المقيم، فقال: **«وما ذاك؟»** قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق! قال: **«أفلا أعلمكم شيئًا إذا فعلتموه سبقتم مَنْ بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين»** قال: فقالوا: يا رسول الله، سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله، قال: **«ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»**[١].

وفي صحيح مسلم: عن أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: **«من سبَّح الله في دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين، وحمد الله ثلاثًا وثلاثين، وكبر الله ثلاثًا وثلاثين، فتلك تسع وتسعون، وقال تمام المئة: لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير؛ غُفِرت خطاياه وإن كانت مثلَ زبد البحر»**[٢].

وفي رواية عند البخاري: **«تسبحون عشرًا، وتحمدون عشرًا، وتكبرون عشرًا في دبر كل صلاة»**[٣].

ودليل القول الثاني، وهو أن المراد بالتسبيح أدبار السجود: صلاة النوافل بعد الفرائض: حديث عليٍّ ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يصلي على إثر كل صلاة مكتوبة ركعتين إلا الفجر والعصر[٤].

وحديث ابن عباس ﷺ: أنه بات عند خالته ميمونة، وأنه صلى تلك الليلة مع النبي ﷺ ثلاث عشرة ركعة[٥].

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٥٩٥).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٥٩٧).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٦٣٢٩).

(٤) «المسند» (١/ ١٢٤) برقم (١٠١٢، ٢٩٤٠) إسناده قويّ، ورجاله ثقات كما قال محققوه، وأبو داود (١٢٧٥) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (٣٤١). وابن خزيمة (١١٩٦) والبزار (٦٧٤) وابن أبي شيبة (٢/ ٣٥٠).

(٥) البخاري برقم (١١٣٨) ومسلم برقم (٧٦٣).

وَرَد أن عليًّا ﷺ سأل رسول الله ﷺ عن إدبار النجوم وأدبار السجود، فقال: **«أدبار السجود: الركعتان بعد المغرب، وإدبار النجوم: الركعتان قبل الغداة»**[١].

وجاء عن عليٍّ ﷺ أن إدبار النجوم: الركعتان قبل الفجر[٢].

ولعل القول الأول أولى، وهو أن المراد بالتسبيح في أدبار السجود: هو الأذكار التي تعقب الصلاة.

ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ [طه].

السلاح الثالث الأخروي: هو الاستماع إلى إسرافيل حين ينفع في الصور، وهو سلاح يحضُّ على الاستعداد للآخرة، قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ أي: ألق سمعك، واصغ لما يخبرك الله به من أهوال يوم القيامة، ثم وضَّح الله تعالى المأمور بالاستماع إليه، فقال: ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي: استمع وترقَّب نداء المنادى في يوم الحشر لقيام الناس من قبورهم.

والمنادِي هو: إسرافيل، والمكان القريب هو بيت المقدس، والنداء يكون بالنفخ في القرن وهو -البوق- وليس المراد من الآية الاستماع للنداء في حد ذاته، فإن كل إنسان سوف يسمعه، إنما المراد: هو ترقب هذا اليوم، والاستعداد له بالعمل الصالح، وفيه وعيد للكفار وتهديد لهم أن ينتظروا هذا اليوم.

قال كعب الأحبار: يقف إسرافيل على صخرة بيت المقدس، فينادي في الحشر: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، واللحوم المتمزقة، والشعور المتفرقة، إن الله يأمركنَّ أن تجتمعْن لفصل القضاء[٣].

قيل: إن صخرة بيت المقدس هيَ أقرب الأرض إلى السماء.

فهذه الأوامر الثلاثة: اصبر، وسبِّح، واستمع، تربط الدنيا بالآخرة، والسماء بالأرض.

(١) مسند مسدَّد كما في «المطالب العالية» (٤١١٤).

(٢) ابن أبي شيبة (٢/ ٥٢٣) و«مختصر قيام الليل» ص ٢٩ والطبري (٢١/ ٤٧٠).

(٣) أخرجه الطبري (٢١/ ٤٥٧) وورد مثله عن يزيد بن جابر عند ابن عساكر (٦٥/ ١٣٦).

قال تعالى: في وصف يوم القيامة:

٤٢- ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾

أي: واليوم الذي ينادي فيه المنادي هو اليوم الذي يسمع الخلائق فيه صيحة البعث من القبور، والحشر للجزاء، وهذه الصيحة: هي النفخة الثانية التي يقوم فيها العباد لرب العالمين ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: اذكر - يارسولنا- يوم يسمعون صيحة البعث بالنفخ في الصور، في يوم لا شك فيه ولا مرية ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ أي: يوم خروج أهل القبور من قبورهم.

الْحَيَاةُ وَالْمَوْتُ وَالْحَشْرُ وَالنَّشْرُ وَالْمَرْجِعُ وَالْمَصِيرُ

٤٣- ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾

ثم قرر سبحانه أن الموت والحياة بيد الله وحده، فهما من خصائص الإلهية ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ نحيي الخلائق من العدم في الدنيا، ونميتهم -عند انتهاء آجالهم- بقدرتنا وإرادتنا ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: إلينا مصير الخلائق جميعًا يوم القيامة للحساب والجزاء والثواب والعقاب. قال تعالى:

٤٤- ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ[1] ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾

ويوم الخروج هو اليوم الذي تتصدع فيه الأرض عمن في باطنها من مخلوقات، فيخرُجون منها مسرعين إلى الداعي استجابة لنداء المنادي، كما قال تعالى:

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٥٢].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المعارج].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس].

وقال ﷻ: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ [القمر: ٦].

---

(١) قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بتخفيف الشين مضارع تشقَّق، والباقون بتشديدها على إدغام التاء في الشين.

وقال أيضًا: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾ [سبأ].

فكم أنكروا هذا اليوم، وكم قالوا: لا بعث ولا حساب!

وسوْقُ الناس إلى مكان الحساب يوم القيامة، لِيُسأل كلٌّ منهم عن عَمله، أمْرٌ سهل يسير على رب العالمين ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ وكل شيء سَهْل على الله تعالى ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠].

وفي هذا الحشر يقول تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩].

قال ابن كثير في ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾: وذلك أن الله تعالى يُنزل مطرًا من السماء تنبُت به أجساد الخلائق من قبورها، كما ينبُت الحب في الثرى بالماء، فإذا تكاملت الأجساد أمر الله إسرافيل فينفُخ في الصور، فإذا نفخ إسرافيل فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض، فيقول الله ﷻ: وعزتي وجلالي، لترجعَن كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمره، فترجع كل روح إلى جسدها، فتدب فيه كما يدب السم في اللديغ، وتنشق الأرض عنهم، فيقومون إلى موقف الحساب سراعًا، مبادرين إلى أمر الله ﷻ ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾[1] [القمر].

وفي حديث أبي هريرة ﵁: أن النبيَّ ﷺ قال: **«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع»**[2].

وعند خروجهم من القبور يشعرون بالهول والخوف والفزع: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ فيأتيهم الجواب من قبل الرحمن: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢].

وعن سرعة خروج الناس من القبور يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر].

ويقول سبحانه: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

وفي صفة حشر الكافرين يوم القيامة يقول تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٤١١).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٢٧٨).

ويقول أيضًا: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢].

وعن أبي هريرة ﷺ: أن النبي ﷺ قال: «**يُحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: صنفًا مشاة، وصنفًا ركبانًا، وصنفًا على وجوههم**» قيل: يا رسول الله، كيف يمشون على وجوههم؟ قال: «**إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر أن يمشيهم على وجوههم، أمَا إنهم يتقون بوجوههم كل حدَب وشوكة**»[١].

وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: يَرِدُ الناس جميعًا الصراط، وورودهم: قيامهم حول النار، ثم يصدُرُون عن الصراط بأعمالهم: فمنهم من يَمُرُّ مثل البرق، ومنهم مَنْ يَمرُّ مثل الريح، ومنهم من يَمُرُّ مثل الطير، ومنهم من يَمُرُّ كأجود الخيل، ومنهم من يَمُرُّ كعدْو الرجُل، حتى إن آخرهم مُرُورًا رَجُل نورُه على موضع إبهاميْ قدميْه، فيتكفأ به الصراط[٢].

والصراط: مكان عليه حسَك، وهو نبات له شَوْك صُلْب، ذو شعب ثلاث، كحسك القتاد، حافتاه ملائكة، معهم كلاليب من نار، يختطفون بها الناس.

خِتَامُ السُّورَةِ يَطْوِي فِي ثَنَايَاهُ مَا تَعَرَّضَتْ لَهُ مِنْ قَضَايَا

٤٥- ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ[٣] ﴿٤٥﴾﴾

وفي ختام السورة يُطمئن الله تعالى رسوله ﷺ بأنه غير مسؤول عن عدم اهتدائهم؛ لأنه إنما بُعث داعيًا وهاديًا، وليس مبعوثًا لإرغامهم على الإيمان ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي: إنَّ عِلْمنا محيط بما يقوله المكذبون الملحدون في شأنك، وفي شأن دعوتك، وفي افترائهم على الله تعالى، وتكذيبهم بآياته، وإنكار البعث والتوحيد، وسنجازيهم على ذلك بما يستحقُّون من عقاب ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ أي: لست مسلَّطًا عليهم لتجْبُرَهم على الإسلام، وإنما بُعثْتَ مبلِّغًا: قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية].

---

(١) هذا لفظ الترمذي برقم (٣١٤٢)، وأخرجه (٢٥٦٦) وعَجُزُ الحديث عند البخاري عن أنس بن مالك (٤٧٦٠، ٦٥٢٣) ومسلم (٢٨٠٦) و«المسند» (٣/ ١٦٧). برقم (٨٦٤٧،٨٧٥٥) حسن لغيره لضعف علي بن زيد، وجهالة أوس بن خالد، أفاده محققوه.

(٢) أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه كما في «الدر» (١٠/ ١١٤).

(٣) قرأ ورش بإثبات الياء وصلًا من (وعيد) ويعقوب بإثباتها وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها في الحالين.

وقال سبحانه: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾ [الرعد: ٤٠] وهذا معنى ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي: خوِّف بالقرآن من يخشى وعيدي؛ لأن من لا يخاف وعيدي لا يذَّكَّر، فلا تُشغل نفسَك بهم، حيث لا فائدة من تذكيره إلا لإقامة الحجة عليه لئلا يقول ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩].

أُتي النبي ﷺ برجل ترتعد فرائصه، فقال: «**هوِّن عليك، فإنما أنا ابن امرأة من قريش، كانت تأكل القَديد في هذه البطحاء**»[١].

قال ابن عباس ﷺ: قالوا: يا رسول الله، لو خوَّفْتنا؟ فنزلت هذه الآية[٢] الأخيرة من السورة، تطوي في ثناياها إشارات إلى ما تعرضت له من قضايا، وهي: القرآن والرسالة، والمعاد والحساب والجزاء، وفيها تثبيت للنبي ﷺ؛ حتى لا يضيق صدره بالمكذبين، ولا يحزن على ما يصيبه من أذى، ولا تذهب نفسه عليهم حسرات، فمَعَادُهم عند الله، وحسابهم عليه، وليفرح قلبك، ولتطمئن نفسك، ولك في أولى العزم من الرسل أسوة.

تم تفسير (سورة ق) ولله الحمد والمنة.

(١) أخرجه الحاكم عن جرير (٢/ ٤٦٦) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٨٧٦).

(٢) «تفسير الخازن» (٤/ ١٨٠).

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
	تَفْسِيرُ سُورَةِ فُصِّلَتْ (٤١) - مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ - موضوعاتها - مقاطعها - سبب النزول	٥
١-٤	تَفْسِيرُ السُّورَةِ - القُرْآنُ الكَرِيمُ: مَصْدَرُهُ وَوَصْفُهُ وَوَظِيفَتُهُ	١٠
٥	ثَلاثَةُ أحْوالٍ لِلْمُعْرِضِينَ عَنِ القُرْآنِ	١٣
٦-٨	الرَّسُولُ بَشَرٌ يُوحَى إلَيْهِ، فَالوَيْلُ لِمَنْ عَصاهُ، وَالأجْرُ العَظِيمُ لِمَنْ أَطاعَهُ	١٤
٩	تفصيل دقيق لخلق السموات والأرض يوجب عدم الكفر بخالقهما	١٧
	أوَّلًا: خَلْقُ الأرْضِ فِي يَوْمَي الأحَدِ وَالإثْنَيْنِ	١٨
١٠	ثانِيًا: خَلْقُ الجِبالِ وَالأقْواتِ	٢٠
١١، ١٢	ثالِثًا: خَلْقُ السَّمَوَاتِ	٢٢
١٣، ١٤	إنْذارُ المُعْرِضِينَ عَنْ دَلائِلِ التَّوْحِيدِ والوحي المنزل	٢٦
١٥-١٨	عاقِبَةُ الطُّغْيانِ والتفرد بِالقُوَّةِ فِي كُلِّ زَمانٍ - (قَوْمُ عادٍ وَقَوْمُ ثَمُودَ)	٢٧
١٩-٢٤	شَهادَةُ الجَوارِحِ وَالأعْضاءِ عَلَى الكافِرِ فِي أرْضِ المَحْشَرِ	٣١
٢٥	سَبَبُ ضَلالِ مَنْ ضَلَّ	٣٧
٢٦	تَلْقِينُ الكُفّارِ نُظَراءَهُمْ أسالِيبَ الإعْراضِ عَنِ الدَّعْوَةِ	٣٨
٢٧، ٢٨	الوَعِيدُ الشَّدِيدُ بِعَذابِ الكافِرِينَ	٣٩
٢٩	أهْلُ النّارِ يَطْلُبُونَ يَوْمَ القِيامَةِ الانْتِقامَ مِمَّنْ أضَلُّوهُمْ	٤٠
٣٠-٣٢	الملائكة تطمئن أهْلَ الإيمانِ وَالاسْتِقامَةِ وَتُبَشِّرُهُمْ بِالجَنَّةِ	٤١
٣٣	أحْسَنُ الأقْوالِ وَالأعْمالِ - مراتب الدعوة	٤٦
٣٤، ٣٥	عِلاجُ العَداوَةِ	٤٨
٣٦	عِلاجُ الغَضَبِ - أحاديث في المعنى	٥٢
٣٧، ٣٨	أرْبَعٌ مِنْ آياتِ اللهِ فِي الكَوْنِ (اللَّيْلُ وَالنَّهارُ وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ)	٥٤
٣٩	إحْياءُ الأرْضِ بَعْدَ مَوْتِها دَلِيلٌ عَلَى إحْياءِ النّاسِ مِنْ قُبُورِهِمْ	٥٦
٤٠	الإلْحادُ فِي آياتِ اللهِ عَواقِبُهُ وَخِيمَةٌ	٥٧
٤١	خَمْسَةُ أوْصافٍ لِلْقُرْآنِ الكَرِيمِ- الوَصْفُ الأوَّلُ (أنَّهُ ذِكْرٌ لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ)	٥٨
٤٢	الوَصْفُ الثّاني (أنَّهُ كِتابٌ يَعْجِزُ الخَلْقُ عَنْ مُعارَضَتِهِ) - الوَصْفُ الثّالِثُ (أنَّهُ كِتابٌ لا يُحَرَّفُ وَلا يُبَدَّلُ)	٥٩
	الرّابِعُ (أنَّهُ كِتابٌ يَشْتَمِلُ عَلَى العِلْمِ وَالحِكْمَةِ) - الخامِسُ: (أنَّهُ كِتابٌ مُنَزَّلٌ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الحَمْدَ)	٦٠
٤٣	تَكْذِيبُ الرُّسُلِ سُنَّةٌ ماضِيَةٌ فِي الأُمَمِ	٦٠
٤٤	اخْتِيارُ اللِّسانِ العَرَبِيِّ لُغَةً لِلرِّسالَةِ العامَّةِ	٦٢
٤٥، ٤٦	اخْتِلافُ بَنِي إسْرائِيلَ فِي التَّوْراةِ سابِقٌ عَلَى اخْتِلافِهِمْ فِي القُرْآنِ	٦٤
٤٧، ٤٨	أرْبَعٌ مِنْ مَسائِلِ الغَيْبِ - الحقيقة العارية في الموقف العظيم	٦٦
٤٩، ٥٠	شَأْنُ الإنْسانِ الكافِرِ تِجاهَ السَّرّاءِ وَالضَّرّاءِ	٦٨
٥١	شَأْنُ الإنْسانِ بِصِفَةٍ عامَّةٍ	٧١
٥٢	اسْتِدْعاءٌ لِأهْلِ الإلْحادِ	٧٢

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة

فهرس الموضوعات

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة